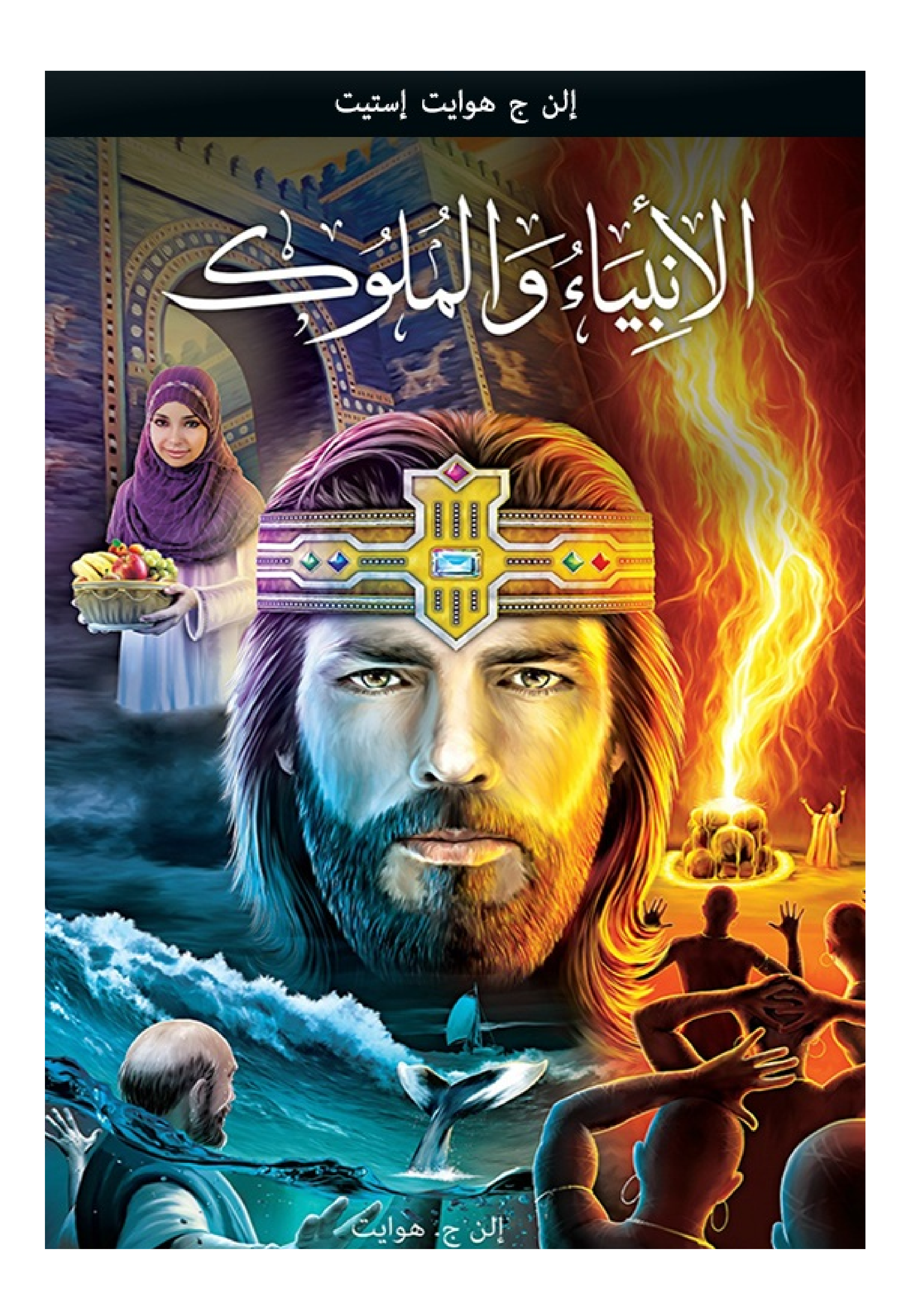

إلن ج هوايت إستيت
الأنبياء والملوك
إلن ج. هوايت



الأنبياء والملوك

Ellen G. White

Information about this Book

Overview

This eBook is provided by the Ellen G. White Estate. It is included in the larger free Online Books collection on the Ellen G. White Estate Web site.

About the Author

Ellen G. White (1827-1915) is considered the most widely translated American author, her works having been published in more than 160 languages. She wrote more than 100,000 pages on a wide variety of spiritual and practical topics. Guided by the Holy Spirit, she exalted Jesus and pointed to the Scriptures as the basis of one's faith.

Further Links

A Brief Biography of Ellen G. White
About the Ellen G. White Estate

End User License Agreement

Further Information

For more information about the author, publishers, or how you can support this service, please contact the Ellen G. White Estate at mail@whiteestate.org. We are thankful for your interest and feedback and wish you God's blessing as you read.

كلمة تمهيدية

القصة الكاملة " للشعب المختار" نسل ابراهيم " حسب الجسد" هي على جانب عظيم من الفائدة والأهميّة بخاصّة أنّها تعلن لنا صفات الله المتعددة الجوانب في سموها و جلالها. كدوام رأفته وكمال عدله وعمق حكمته وعظم قدرته وخلود محبته.

ولكن في تتابع الحقبة الطويلة لا يوجد قسم اكثر أهميَّة من القسم الذي يتناوله هذا المجلّد وذلك منذ الوقت الذي بلغ فيه حكم شعب الله الدنيوي الذروة حتى سبيهم ورجوعهم.

ليس غرضُ الكتاب عرضُ تاريخ أو سردُ قصّة مسهبةٍ للأحداث التي جرت في ذلك الزمن أو استعراض تاريخي منتظم. هذا ما فعلهُ آخرون في أوقات مختلفة. فغاية الكتاب إذاً إنجازُ أمورٍ أعظم وهي إبرازُ الدروس الأخلاقيّة التي يمكننا استخلاصها من انتصارات شعب الله وهزائمهم وارتدادهم وسبيهم وإصلاحاتهم وجعلها ذات فائدة عمليّة للنفوس في أوقات الإمتحان وإظهار ملء محبّة الله ورحمته في معاملاته الرحيمة مع ذلك الشعب المعاند والمقاوم.

يبدأ هذا المجلد بشعب الله كمملكة متّحدة في ذروة مجدها، بهيكلها الفخم العظيم — الذي كان آنذاك مركز العبادة الحقّة للعالم كلّه. ثم يتبع ذلك انقسامُ المملكة، المملكة الشمالية ذات الأسباط العشرة التي بسبب خيانتها، انتهى بها الأمرُ إلى النسيان في السبي. [6]

أما تاريخ يهوذا ذو الأحداث المتباينة فيُقَدّم لنا تحت الحكم العصيب لملوكها الأساسيين الأخيار منهم والأشرار حتى أفضى الأمر بهذه المملكة إلى السبي وبنوها يبكون على ضفافِ نهر الفرات حيث علّقوا أعوادهم على شجر الصفصاف وهم ينظرون بشوقٍ ولهفةٍ إلى أورشليم التي آلت إلى الخراب.

ثم يخبرنا الكتاب عن تغرّب شعب الله آنذاك في بابل وعن رجال الله القديسين وأنبيائه ورسالة النجاة والحريّة في إعلان نطق به أحد عظماء ملوك الأرض وعن عودة المسبيين إلى أورشليم وإعادة بناء الهيكل تحت إرشاد إلهيّ وإعادة تأسيس شعب الله في أرضهم.

والكتاب زاخر بدراسات لصفات شخصيّات عظيمة — كسليمان الحكيم الذي لم تستطع حكمته وحدها أن تحفظ قلبه من العصيان، ويربعام الرجل السياسي، والنتائج الوخيمة التي نتجت عن سياسته وإيليا القويّ الذي مع أنّه لم يُعرف له أصل أو نسب كان موفداً برسالة، وأليشع نبي السلام و الشفاء، وآحاز الشرّير الجبان، وحزقيا الصالح الخجول، ودانيال المحبوب من الله، وإرميا النبي الحزين وحجّي وزكريا وملاخي أنبياء الإستعادة وفوق هؤلاء جميعاً يسمو الملك الآتي، في مجد إلهيّ سماويّ، حمل الله، الابن الوحيد، الذي فيه تتمّ كلّ رموز الذبائح والبرّ والسلام إتماماً أبدياً.

ويصوّر هذا المجلّد خطط الله التي لا تخيب فإذا لم يتعاون شعب الرب على تقديم إنجيله المبارك إلى العالم فسيتمّ تقديمه بوسائل أعظم وأقوى رغماً عنهم، حتى لو كانوا مسبيين في بابل. فعن طريق شهادة أمينة لجماعة قليلة التزم أعظمُ ملوك بابل بإذاعة إعلان ملكي على العالم أجمع عن معرفة الإله الحقيقي وفي [7] نجاتهم من السبي يعلن كورش الملك الفارسي العظيم رسالة الحريّة. فإذا أراد الله فهو سيضع

ثروة الإمبراطوريات وقوّتها تحت تصرّفهم.

وهكذا فنحن نسير إلى الأمام في تدبير الله من الرمز إلى المرموز إليه. من الحكّام الذين يموتون إلى الملك السرمديّ، من الأمجاد التي تذوي وتزول إلى الأمجاد الأبدية التي لا تزول، من الشعب المائت الذي يخطئ ويهلك إلى الشعب البار الباقي إلى الأبد.

ونحن نصلي إلى الله لكي يبارك هذا الكتاب الذي كُتب بقلم السيّدة إلن هوايت التي أنجزت فصوله الأخيرة قبل وفاتها. نرجو أن يكون بركة في الإتيان بنفوس كثيرة إلى الإله الحقيقي كما كانت مجلداتُها السابقة ــــ هذا ما يرجوه:-

(الناشرون) [8] [9] [10] [11] [12] [13]

مقدمة

كرم الرب

كانت غاية الله من دعوته لإبراهيم للخروج من وسط عشيرته التي كانت تعبد الأوثان، هي الإتيان بأفضل هبات السماء إلى كلّ شعوب الأرض. لأجلِ هذه الغاية أخرجه من أرضه وعشيرته وأسكنه في أرض كنعان وقال له: "أجعلك أُمَّة عَظِيمَةً وَأُبَارِكَكَ وَأُعَظِّمَ اسْمَكَ. وَتَكُونَ بَرَكَةً" (تكوين 12:2). كانت كرامة عظيمة تلك التي دُعيَ إليها ابراهيم صيرورته أباً للشعب الذي كان مزمعاً أن يصير حارساً ومحافظاً على حق الله للعالم مدى عصور طويلة، الشعب الذي بواسطته ستتبارك جميع أمم الأرض وقبائلها بمجيء المسيّا الموعود به.

كاد الناس يفقدون معرفة الإله الحقيقي فلقد أظلمت الوثنية أذهانهم وحاولوا أن يبدّلوا شرائع الله التي هي "مُقَدَّسَةٌ وَعَادِلَةٌ وَصَالِحَةٌ" (رومية 12:7) بشرائع تتفق مع أهواء قلوبهم القاسية المُفعمة بالأنانية ومع ذلك فالله في رحمته لم يمحُهم من الوجود بل قصد أن يمنحهم فرصةً يتعرّفون بها إليه عن طريق كنيسته وقصد أن تكون المبادئ التي يعلنها شعبُه واسطة في إعادة صورة الله الأدبيّة إلى الإنسان.

ينبغي تمجيد الشريعة الإلهيّة وإعلاء شأنها والدفاع عن سلطان الله عن طريقها فلقد أوكل هذا العمل العظيم النبيل إلى شعبه الذين فصلهم عن العالم لكي يسلّمهم عهدة مقدّسة وجعلهم مستودعات لشريعته ولصيانه معرفته بين الناس عن [14] طريقهم بهذه الكيفية كان يجب أن يضيء نور السماء على عالم اكتنفه الظلام، ويسمع صوت الله الذي يطلب إلى الشعوب التحوّل عن الوثنيّة لعبادة الإله الحي.

لقد أخرج الله شعبه المختار من أرض مصر "بِقُوَّةٍ عَظِيمَةٍ وَيَدٍ شَدِيدَةٍ" (خروج 11:32). "أرسل موسى عبده وهرون الذي اختاره أقام بينهم كلام آياته وعجائب في أرض حام"، "وانتهرَ بَحْرِ سُوفَ فيبس وسيرهم في اللجج" (مزمور 26:10، 27، 9:106). لقد أنقذهم من أغلال العبوديّة التي كانوا يعانون منها ليأتي بهم إلى أرض جيّدة أعدّها لهم بعناية كملجأ يلوذون بها من أعدائهم. أراد أن يأتي بهم إلى نفسه و يحيطهم بالأذرع الأبديّة وفي مقابل صلاحه ورحمته كان عليهم أن يمجّدوا اسمه ويعترفوا به سيًّدا على كلّ الأرض.

"إِنَّ قِسْمَ الرَّبِّ هُوَ شَعْبُهُ. يَعْقُوبُ حَبْلُ نَصِيبِهِ. وَجَدَهُ فِي أَرْضِ قَفْرٍ وَفِي خَلاَءٍ مُسْتَوْحِشٍ خَرِبٍ. أَحَاطَ بِهِ وَلاَحَظَهُ وَصَانَهُ كَحَدَقَةِ عَيْنِهِ. كَمَا يُحَرِّكُ النَّسْرُ عُشَّهُ وَعَلَى فِرَاخِهِ يَرِفُّ وَيَبْسُطُ جَنَاحَيْهِ وَيَأْخُذُهَا وَيَحْمِلُهَا عَلَى مَنَاكِبِهِ هَكَذَا الرَّبُّ وَحْدُه اقْتَادهُ وَلَيْسَ مَعَهُ إِلَهٌ أَجْنَبِيٌّ" (تثنية 9:32 — 12). هكذا أتى بشعبه إلى كنفه ليسكنوا تحت ستر جناحيه. وإذ حُفظوا بكيفيّة معجزيّة من مخاطر الجولان في البريّة استقروا أخيراً في المكان الذي أراده لهم.

وقد أورد النبي إشعياء مثلاً يثير الشفقة العاطفيّة أعاد عن طريقه إلى أذهانهم قصّة دعوة الله وتدريبهم ليكونوا ممثلين له مثمرين في كلّ عمل صالح، قال: "لأنشدن عن حبيبي نشيد محبي لكرمه. كان لحبيبي كرم على أكمه خصبة فنقبه ونقى حجارته وغرسه كرم سورق وبنى برجاً في وسطه ونقر فيه أيضاً معصرة فانتظر أن يصنع عنباً" (1:5،2). [15]

لقد قصد الله أن يأتي بالبركة إلى بني الإنسان عن طريق شعبه المختار فأعلن النبي قائلاً: "إِنَّ كَرْمَ رَبِّ الْجُنُودِ هُوَ بَيْتُ إِسْرَائِيلَ وَغَرْسَ لَذَّتِهِ رِجَالُ يَهُوذَا" (إشعياء 7:5).

لقد سلّمت أقوال الله لهذا الشعب وأقيم حولهم سياج وصايا شريعته، مبادئ الحق والعدل والنقاء. كانت الطاعة لهذه المبادئ ستكون سياجاً يقيهم ويحفظهم من إهلاك أنفسهم بالأعمال الشريرة وكبرج في كرم وضع الله هيكله المقدس في وسط الأرض.

كان المسيح معلّما لهم فكما كان معهم في البريّة كان سيظلّ معلّمهم ومرشدهم وفي خيمة الإجتماع وفي الهيكل حلّ مجده في الشكينا المقدّس فوق غطاء التابوت (كرسي الرحمة) ولأجلهم أظهر دائماً غنى محبّته وصبره.

وقد وضع الله أمامهم قصده عن طريق نبيه موسى وتوضّحت لهم شروط نجاحهم حيث قال: "شَعْبُ مُقَدَّسُ لِلرَّبِّ إِلَهِك. إياك قد اختار الرب إِلَهِكَ لتكون له شعباً أخصّ من جَمِيعِ الشُّعُوبِ الَّذِينَ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ" (تثنية 6:7).

"قد واعدت الربّ اليوم أن يكون لك إلهاً وأن تسلك في طرقه وتحفظ فرائضه ووصاياه وأحكامه وأن يجعلك مستعلياً على جميع القبائل التي عملها في الثناء والإسم والبهاء وأن تكون شعباً مقدَّسا للرب إلهك كما قال" (تثنية 17:26-19).

كان سيستقرّ شعب الله في المناطق المعيّنة له من قبل الرب. أمّا الأمم الذين رفضوا عبادة الإله الحقيقي وخدمته فكانت ستُطرد. لكن الله كان يقصد أن يجتذب الناس إليه بواسطة إعلان صفاته عن طريق شعبه. كانت دعوة الإنجيل مزمعة أن تصل إلى كلّ العالم. فعن طريق تعليم الخدمات الكفّارية كان المسيح [16] سيرفع أمام الشعوب وكلّ من يلتفت إليه سيحيا وكلّ من تركوا عبادة الأوثان ليعبدوا الإله الحقيقي كراحاب الكنعانية وراعوث المؤابية كانوا سينضمون إلى شعبه المختار ويتّحدون بهم. وعلى قدر ما تكاثر شعب الله قديماً كان يجب أن يوسّعوا تخومهم حتى تبلغ إلى أقصى الأرض.

ولكن شعب الله القديم لم يتمم قصد الله فقد أعلن الرب قائلاً: "وَأَنَا قَدْ غَرَسْتُكِ كَرْمَةَ سُورَقَ زَرْعَ حَقٍّ كُلِّهَا. فَكَيْفَ تَحَوَّلْتِ لِي سُرُوغَ جَفْنَةٍ غَرِيبَةٍ؟"، "إِسْرَائِيلُ جَفْنَةٌ مُمْتَدَّةٌ. يُخْرِجُ ثَمَراً لِنَفْسِهِ"، "وَالآنَ يَا سُكَّانَ أُورُشَلِيمَ وَرِجَالَ يَهُوذَا احْكُمُوا بَيْنِي وَبَيْنَ كَرْمِي. مَاذَا يُصْنَعُ أَيْضاً لِكَرْمِي وَأَنَا لَمْ أَصْنَعْهُ لَهُ. لِمَاذَا إِذِ انْتَظَرْتُ أَنْ يَصْنَعَ عِنَباً رَدِيئاً. فَالآنَ أُعَرِّفُكُمْ مَاذَا أَصْنَعُ بِكَرْمِي أَنْزِعُ سِيَاجَهُ فَيَصِيرُ لِلرَّعْيِ. أَهْدِمُ جُدْرَانَهُ فَيَصِيرُ لِلدَّوْسِ. وَأَجْعَلُهُ خَرَاباً لَا يُقْضَبُ وَلا يُنْقَبُ فَيَطْلَعُ شَوْكٌ وَحَسَكٌ. وَأُوصِي الْغَيْمَ أَنْ لَا يُمْطِرَ عَلَيْهِ مَطَراً. إِنَّ كَرْمَ رَبِّ الْجُنُودِ هُوَ بَيْتُ إِسْرَائِيلَ وَغَرْسَ لَذَّتِهِ رِجَّال يَهُذَا. فَانْتَظَرَ حَقًّا فَإِذَا سَفْكُ دَمٍ وَعَدْلاً فَإِذَا صُرَاخٌ" (إرميا 21:2، هوشع 1:10، إشعياء 3:5-7).

لقد كشف الرب لشعبه بواسطة نبيّه موسى عن نتائج الخيانة وعواقبها الوخيمة. فإذ يرفضون حفظ عهده فسيفصلون أنفسهم من حياة الله ولن تحلّ عليهم بركات الرب. كانوا يلتفتون أحياناً إلى هذه الإنذارات ونتيجة لذلك كانت تمنح للأمة بركات غنيّة وكانت بواسطتهم تفيض على الشعوب المحيطة بهم. و لكنّهم كانوا ينسون الله في غالب الأحيان في تاريخهم الطويل ويغيب عن أنظارهم امتيازهم السامي كممثلين له ونواب عنه. فقد سلبوه الخدمة التي طلبها منهم كما سلبوا بني جنسهم ميزة القيادة الدينيّة والمثال المقدّس. كانوا يتوقون لامتلاك ثمار الكرم الذي جُعلوا وكلاء له. إنّ جشعهم وطمعهم جعلهم محتقرين [17] حتى في أعين الوثنيين. وهكذا أعطيت للعالم الوثني ذريعة لإساءة تفسير صفات الله وشرائع ملكوته.

وقد صبر الله على شعبه صبر الأب الرحيم وتوسّل إليهم بواسطة المراحم الممنوحة لهم والمراحم المسحوبة منهم وبكل أناة ضفّ خطاياهم أمام عيونهم وانتظر لعلهم يعترفون بها كما أرسل لهم الأنبياء والرسل لكي يؤكّدوا لأولئك الكرّامين حقوق الرب. ولكن بدلاً من الترحيب بهم عومل هؤلاء الرجال ذوو

الفطنة والقوّة الروحيّة معاملة الأعداء. فاضطهدهم الكرامون وقتلوهم. فاضطر الله لإرسال رسل آخرين ولكنّهم عوملوا المعاملة ذاتها التي عومل بها سابقوهم إنّما في هذه المرة زاد الكرامون في إصرارهم على إظهار روح الحقد والعدوان.

لكن انسحاب رضى الله عن تلك الأمة في فترة السبي اقتاد كثيرين إلى التوبة ومع ذلك فبعد عودتهم كررت الأمة اليهودية أخطاء أسلافها وجعلت نفسها في حالة صراع سياسي مع الأمم المحيطة بها. وقد قوبل الأنبياء الذين أرسلهم الله لإصلاح الشرور المتفشيّة بالريبة والاحتقار ذاتهما اللذين قوبل بهما من سبقوهم وهكذا من جيل إلى جيل كان حرّاس الكرم يضيفون إلى ذنوبهم ذنوباً أخرى.

لقد احتقر شعب الله الكرمة العظيمة التي غرسها الكرام الإلهي على تلال فلسطين بحيث ألقي بها أخيراً من فوق سور الكرم مرضضة مداسة بأقدامهم وهم يرجون أنّهم قد أتلفوها مرّة وإلى الأبد. وقد نقل الكرّام الكرمة وأخفاها بعيداً عن أنظارهم ثم عاد فغرسها ولكن على الجانب الآخر من السور بحيث كان ساقها مخفياً عن العيان وقد تدلّت أغصانها فوق السور بحيث أمكن أن تُطعم فيها بعضُ [18] الأغصان ولكن الجذع نفسه صار بعيداً عن متناول قوّة الناس كي لا يتناولوه بأذى.

إن رسائل المشورة والإنذار التي أُعطيت بواسطة الأنبياء الذين قد أوضحوا مقاصد الله الأزلية لأجل البشر هي ذات قيمة خاصة بالنسبة لكنيسة الله على الأرض اليوم والتي هي بمثابة حرّاس الكرمة. ففي تعاليم الأنبياء أعلنت محبّته للجنس الساقط وتدبيره لأجل خلاصهم بكلّ وضوح وقصّة دعوة شعب الله قديماً ونجاحهم و إخفاقهم و إعادتهم إلى رضى الرب ورفضهم لربّ الكرم وتنفيذ خطة الدهور بإبقاء بقيّة صالحة تتحقق لها كلّ مواعيد العهد — كان موضوع رسل الله لكنيسته مدى العصور التي خلت. واليوم فإنّ رسالة الله إلى كنيسته — لأولئك الذين يمتلكون الكرم بوصفهم كرّامين أمناء — ليست رسالة أخرى بل ما تكلّم به النبي ذاته في القديم عندما قال: "غنّوا للكرمة المشتهاة. أنا الرب حارسها أسقيها كل لحظة لئلا يوقع بها احرسها ليلاً ونهاراً" (إشعياء 27:2، 3).

ليرد إسرائيل الروحي الله. إنّ ربّ الكرم يجمع حتى الآن من بين الناس من كلّ الأمم والشعوب الثمر الثمين الذي ظلّ ينتظره طويلاً. وسرعان ما سيأتي إلى خاصته وفي ذلك اليوم السعيد ستتم نهائياً مقاصده الأزلية لشعبه "في المستقبل يتأصل يعقوب. يزهر ويفرع إسرائيل ويملأون وجه المسكونة ثماراً" (إشعياء 27:6). [19]

الباب الأول ــــمن قوة إلى ضعف

[20]

”لا يفتخرن الحكيم بحكمته ولا يفتخر الجبار بجبروته ولا يفتخر الغني بغناه. بل بهذا ليفتخرن المفتخر بأنه يفهم ويعرفني أني أنا الرب الصانع رحمة وقضاء وعدلاً في الأرض، لأني بهذه أُسَرّ يقول الربّ“ (إرميا 23:9، 24) [21]

الفصل الأول ـــــسليمان

في إبان حكم داود وسليمان غدت الأمة الإسرائيلية قويةً بين الأمم. كانت لديها فرص كثيرة لتحسن استخدام نفوذها العظيم على أفضل وجه في سبيل الحق والعدل و تمجيد اسم الرب وإكرامه. كان الغرض الذي من أجله استقرّوا في أرض الموعد يبشّر بأنّه سيتمُ. وقد أزيلت الحواجز ولم يرجع من ابتغى الحق من البلدان الوثنية خائباً فاهتدى كثيرون إلى الله واتّسعت كنيسته على الأرض و نجحت.

وقد مُسح سليمان ونُوديَ به ملكاً في أواخر سنين حياة الملك داود أبيه الذي تنازل له عن العرش. وكانت سنواته الأولى مشرقة وتبشّر بالخير. كان قصد الله أن يتقدّم سليمان من قوّة إلى قوّة و من مجد إلى مجد وأن يزداد تشبُّها بالله مع الوقت. بذلك كان يلهم شعبه لإتمام عهدته المقدّسة بوصفه مستودعاً للحق الإلهي.

وقد أدرك داود أن قصد الله السامي من نحو شعبه يمكن إتمامه على قدر ما يجتهد الحكّام والشعب في الوصول إلى المقياس الموضوع أمامهم بيقظة مستمرّة وسهر متواصل وعرف أنه لكي يقوم ابنه سليمان بواجبه نحو الأمانة كاملاً التي سر الله بأن يكرمه بإسنادها إليه، يتعين على ذلك الملك الشاب ألّا يكون محارباً وجبار بأس وسياسياً وملكاً وحسب، بل عليه أيضاً أن يكون رجلاً قوياً وصالحاً ومعلّما للبر ومثالاً في الولاء. [22]

التمس داود من سليمان بكل غيرة ولطف أن يكون رجلاً شهماً نبيلاً يعامل رعاياه بالرحمة والرأفة والحنان. وفي كل معاملاته مع أمم الأرض يكرم اسم الله ويمجّده ويظهر جمال القداسة. فالتجارب والاختبارات الكثيرة القاسية التي جاز فيها داود مدى حياته علّمته قيمة الفضائل النبيلة وجعلته يُعلن في وصيّته التي أوصاه بها عند موته قائلاً: "إذا تسلّط على الناس بار يتسلك بخوف الله. وكنور الصباح إذا أشرقت الشمس. كشعب من الأرض في صباح صحو مضيء غب المطر" (2 صموئيل 23:3، 4).

يا لها من فرصة ذهبية أُتيحت لسليمان فلو اتّبع وصيّة أبيه التي تلقاها بوحي من الله، لكان ملكه صار ملك البرّ الوارد وصفه في المزمور الثاني والسبعين حيث يقول: "اللهم أعط أحكامك للملك وبرّك لابن الملك. يدين شعبك بالعدل ومساكينك بالحق .. ينزل مثل المطر على الجزاز ومثل الغيوث الذارفة على الأرض. يشرق في أيامه الصديق وكثرة السلام إلى أن يضمحل القمر. ويملك من البحر إلى البحر و من النهر إلى أقاصي الأرض .. ملوك ترشيش و الجزائر يرسلون تقدمه ملوك سبأ يقدمون هدية. ويسجد له كل الملوك. كل الأمم تتعبد له لأنه ينجي الفقير المستغيث والمسكين إذ لامعين له .. ويصلي لأجله دائماً. اليوم كله يباركه .. يكون اسمه الدهر. قدام الشمس يمتد اسمه. ويتباركون به. كل أمم الأرض يطوبونه".

"مبارك الرب الله الصانع العجائب وحده. ومبارك اسم مجده إلى الدهر ولتمتلئ الأرض كلها من مجده. آمين ثم آمين" (مزمور 72).

اختار سليمان في شبابه ما اختاره داود أبوه فسار بالاستقامة سنين كثيرة فامتازت حياته بالطاعة الدقيقة لوصايا الله. و في أوائل سني حكمه ذهب مع [23] مشيري حكومته إلى جبعون حيث كانت خيمة

الإجتماع التي كانت مقامة في البرية سابقاً وهناك اشترك مع مشيريه المختارين ”رؤساء الألوف والمئات والقضاة و كل رئيس في كل إسرائيل رؤوس الأباء“ (2 أخبار الأيام 2:1). اشتركوا معاً في تقديم محرقات لله وفي تكريس ذواتهم بالتمام لخدمة الرب وإذ سليمان يدرك شيئاً عن جسامة الواجبات المرتبطة بوظيفته كملك علم أن من يحملون أحمالاً ثقيلة عليهم أن يتّجهوا إلى نبع الحكمة في طلب الإرشاد إذا أرادوا أن يضطلعوا بمسؤولياتهم بكيفيّة مقبولة مما حمله على تشجيع مستشاريه للاشتراك معه بكل إخلاص في التأكد من قبولهم لدى الله.

كان الملك يشتاق إلى الحصول على الحكمة والفهم أكثر من أي خير زمني لأجل إتمام العمل الذي قد أوكله الله إليه. كان يشتاق للحصول على سرعة البديهة والقلب الكبير وروح الحنو وتراءى الربُّ لسليمان في حلم في تلك الليلة وقال له: ”اسأل ماذا أُعطيك“. وقد عبّر ذلك الملك الشاب غير المحنك في جوابه عن شعوره بالضعف والعجز واشتياقه إلى المساعدة فقال: ”انك قد فعلت مع عبدك داود أبي رحمة عظيمة حسبما سار أمامك بأمانة وبرّ واستقامة قلب معك فحفظت له هذه الرحمة العظيمة وأعطيته ابناً يجلس على كرسيه كهذا اليوم“.

”والآن أيها الرب إلهي أنت ملكت عبدك مكان داود أبي وأنا فتى صغير لا أعلم الخروج والدخول. وعبدك في وسط شعبك الذي اخترته شعب كثير لا يحصى ويعد من الكثرة فأعط عبدك قلباً فهيماً لأحكم على شعبك وأميّز بين الخير و الشر لأنه من يقدر أن يحكم على شعبك العظيم هذا؟“. [24]

”فحسن الكلام في عيني الرب لأن سليمان سأل هذا الأمر“. ”فقال له الله من أجل أن هذا كان في قلبك ولم تسأل غنى ولا أموالاً ولا كرامة ولا أنفس مبغضيك ولا سألت أياماً كثيرة بل إنما سألت لنفسك حكمة ومعرفة تحكم بهما على شعبي“. ”هوذا قد فعلت حسب كلامك. هوذا أعطيتك قلباً حكيماً و مميزاً .. و قد أعطيتك أيضاً ما لم تسأله غنى و كرامة“، ”لم يكن مثلها للملوك الذين قبلك ولا يكون مثلها لبعدك“. ”فإن سلكت في طريقي وحفظت فرائضي ووصاياي كمل سلك داود أبوك فإني أطيل أيامك“ (1 ملوك 5:3 — 4، 2 أخبار الأيام 7:1 — 12).

لقد وعد الله سليمان أن يكون معه كما كان من داود فإذا سار الملك باستقامة أمام الرب وأنجز أوامره فإن كرسيه سيكون ثابتاً وسيكون ملكه سبب تعظيم لشعب الله ”كشعب حكيم وفطن“ (تثنية 6:4) ونوراً للأمم المحيطة به.

كشفت اللغة التي استعملها سليمان وهو يصلي إلى الله أمام المذبح القديم في جبعون عن وداعته وشوقه الشديد لإكرام الله. فقد تحقق من أنه من دون معونة الله كان عاجزاً كفتى صغير عن القيام بالمسؤوليات الموكلة إليه. وأدرك أنه يعوزه التمييز وقد قاده الإحساس بحاجته العظمى إلى طلب الحكمة من الله. لم يكن في قلبه أي مطمح أناني في طلب معرفة ترفع من قدره فوق الآخرين. كان يصبو إلى القيام بكل أمانة بالواجبات التي آلت إليه فاختار الهبة التي ستكون سبباً في جعل ملكه ممجداً لله.

لم يكن سليمان قط غنياً أو حكيماً أو عظيماً مثلما كان عندما اعترف قائلاً: ”فتى صغير لا أعلم الخروج والدخول“ (1ملوك 7:3).

يجب على أولئك الذين يشغلون اليوم مراكز ذات مسؤولية السعي في تعلّم الدرس من صلاة سليمان. فعلى قدر ما يكون المركز الذي يشغله الإنسان سامياً [25] ثقلت عليه المسؤولية التي يضطلع بها. وكلّما اتّسع مدى تأثيره عظمت حاجته إلى الإعتماد على الله. عليه أن يذكر دائماً أن الدعوة للعمل ترافقها الدعوة إلى الإعتماد على الله. عليه أن يذكر دائماً أن الدعوة للعمل ترافقها الدعوة للسلوك بتدقيق أمام بنى جنسه وان يقف أمام الله موقف من يريد أن يتعلم. فالمركز لا يكسب الخلق قداسة فالإنسان إذ يكرم الله ويطيع أوامره يمكنه أن يصير عظيماً حقاً.

إن إلهنا الذي نخدمه لا يحابي الوجوه فذاك الذي منح سليمان روح التمييز الحكيم يرغب في منح هذه البركة ذاتها لأولاده اليوم. فكلمته تعلن قائلة: ”وإنما إن كان أحدكم تعوزه حكمة فليطلب من الله الذي يعطي الجميع بسخاء ولا يعير فسيعطى له“ (يعقوب 5:1). عندما يطلب ذوو المسؤوليات الحكمة أكثر مما يطلبون الغنى أو السلطان أو الشهرة فلن يخيبوا. مثل هؤلاء سيتعلمون من المعلم الأعظم ليس فقط ما يجب عليهم فعله بل كيف يفعلونه بالطريقة التي تظفر باستحسان الله.

الإنسان الذي منحه الله تمييزاً ومقدرة لن يبدي شغفاً للحصول على مركز سام طالما بقي مكرساً لله وهو لن يحاول أن يحكم أو يتسلط. على الناس تحمل التبعات بالضرورة، ولكن الذي هو قائد بالحق سيصلي طالباً الفهم للتمييز بين الخير والشر بدلاً من السعي في طلب السيادة.

الطريق الذي يسير فيه أولئك ليس سهلاً أو ممهداً. عليهم أن يروا في كل صعوبة أو معضلة نداءً للصلاة وألّا يتوانوا في استشارة نبع الحكمة العظيم. فإذا يتقوّون ويستنيرون بالالتجاء إلى المسيح المبدع السيد فذلك يعينهم على الثبات في وجه التأثيرات الشريرة و تمييز الصواب من الخطأ والخير من الشر و يستحسنون [26] ما يستحسنه الله ويجاهدوا بكل غيرة ضد إدخال المبادئ الباطلة إلى دعوته وعمله.

لقد منح الله سليمان الحكمة التي طلبها وفضلها على الغنى والكرامة وطول الأيام وما ألح في طلبه من سرعة بديهة ورحابة قلب وحنو وعطف أعطي له، وأعطى الله سليمان حكمة وفهما كثيراً جداً ورحبة قلب وكالرمل الذي على شاطئ البحر وفاقت حكمة سليمان حكمة جميع بني المشرق وكل حكمة مصر. ”وكان أحكم من جميع الناس.. وكان صيته في جميع الأمم حواليه“ (1 ملوك 29:4 — 31).

”وجميع إسرائيل خافوا الملك لأنهم رأوا حكمة الله فيه لإجراء الحكم“ (1 ملوك 28:3). لقد اتجهت قلوب الشعب إلى سليمان كما اتجهت من قبل إلى داوود فأطاعوه في كل شيء: ”وتشدد سليمان .. على مملكته وكان الرب إلهه معه و عظمه جداً“ (2 أخبار الأيام 1:1).

وعلى مدى سنوات كثيرة تميزت حياة سليمان بالتعبد والتكريس لله والاستقامة والمبدأ الثابت والدقة في إطاعة أوامره. كان هو الموجه في كل مشروع هام وأدار الشؤون التجارية الخاصة بالمملكة بحكمة فائقة. هذا وأن ثروته وحكمته والمباني الفخمة والمشاريع العامة التي أقامها في غضون سنوات حكمه الأولى والنشاط والتقوى والعدل والشهامة التي كشف عنها بالكلام والعمل أكسبته ولاء رعاياه وإعجاب حكّام بلدان كثيرة واكرامهم.

ثم إنه اكرم اسم الرب إكراماً عظيماً إبّان الفترة الأولى من حكمه كما أن الحكمة و العدل اللذين أظهرهما شهدا لكل الأمم بعظمة صفات الإله الذي كان يخدمه. وقد أضاء شعب الله قديماً لبعض الوقت كمشعل وهاج للعالم بإذاعته [27] عظمة الرب. ولم ينحصر مجد الملك سليمان في سنيه الأولى فبحكمته الفائقة أو غناه الذي لا يصدق أو في قوته وسلطانه وشهرته الذائعة، بل في الكرامة التي جلبها لاسم الله بسبب استخدامه الحكيم لهبات السماء.

وإذ مرت السنوات وزادت شهرة سليمان فقد طلب أن يكرم الله بالاستزادة من قوّته الذهنية و الروحية والمداومة على اشراك الآخرين معه في البركات التي حصل عليها. ولم يدرك أحد أفضل منه أن امتلاكه للسلطان والحكمة والفهم مرجعه رضى الرب، وأن هذه الهبات منحت له ليقدم معرفة ملك الملوك أمام كل العالم.

و قد شغف سليمان واهتم اهتماماً خاصاً بالتاريخ الطبيعي إلا أن بحوثه لم تنحصر في أي فرع من فروع العلم بذاته فعن طريق دراسته باجتهاد لكل المخلوقات الحية منها والجمادات حصل على إدراك جلي عن الخالق. ففي قوات الطبيعة وفي المملكة المعدنية والحيوانية وفي كل شجر وشجيرة وزهرة رأى إعلاناً لحكمة الله. وإذ كان يطلب المزيد من العلم فإن معرفته بالله ومحبته له ظلت تتزايد يوماً بعد يوم.

إن حكمة سليمان الموحى إليه بها من الله عبر عنها في أناشيد الحمد وكثير من الأمثال التي كتبها "تكلم بثلاثة آلاف مثل وكانت نشائده ألفاً وخمساً. وتكلم عن الأشجار من الأرز الذي في لبنان إلى الزوفا النابت في الحائط. وتكلّم عن البهائم وعن الطير وعن الدبيب وعن السمك" (1 ملوك 32:4، 33).

وقد لخّص سليمان بأمثاله مبادئ الحياة المقدسة والسعي السامي التي هي وليدة السماء وتقود إلى التقوى بحيث ينبغي أن تسود على كل أعمال الحياة. فالذي جعل سنوات الملك سليمان الأولى تتسم بالسمو الخُلُقي والنجاح المادي [28] هو نشر مثل هذه المبادئ إلى مدى بعيد والاعتراف بالله الذي له وحده يليق الحمد والكرامة والسجود.

وقد كتب يقول: "طوبى للإنسان الذي يجد الحكمة وللرجل الذي ينال الفهم لأن تجارتها خير من تجارة الفضّة وربحها خير من الذهب الخالص. هي أثمن من اللآلئ وكل جواهرك لا تساويها. في يمينها طول أيام وفي يسارها الغنى والمجد. طرقها نعم وكل مسالكها سلام. هي شجرة حياة لممسكيها والمتمسك بها مغبوط" (أمثال 13:3 — 18).

"الحكمة هي الرأس. فاقتن الحكمة وبكل مقتناك أقتن الفهم". "رأس الحكمة مخافة الرب" (أمثال 7:4، مزمور 10:111) "مخافة الرب بغض الشر. الكبرياء والتعظّم طريق الشر وفم الأكاذيب أبغضت" (أمثال 13:8).

ليت سليمان تنبّه في سنوات حكمه الأخيرة إلى أقوال هذه الحكمة العجيبة واتّخذ لنفسه منها درساً وعبرة وهو الذي أعلن قائلاً: "شفاه الحكماء تذر معرفته" (أمثال 7:15). وهو الذي علّم ملوك الأرض أن يقدّموا لملك الملوك الحمد الذي كانوا يرغبون في تقديمه لحاكم أرضي. وليته لم يتقلّد الكبرياء والتعظّم اللذان فاداه كي ينسب لنفسه المجد الذي لا يليق إلّا بالله وحده. [29]

الفصل الثاني ــــ الهيكل وتدشينه

نفذ سليمان بكل حكمة المشروع الذي ظل داود يعتزّ به طويلاً وهو إقامة هيكل للرب. فلمدى سبع سنوات امتلأت جوانب أورشليم بعمال مجدّين اشتغلوا في تسوية الموقع المختار وفي بناء أسوار فسيحة وافية، ووضع أساسات عريضة "حجارة كبيرة كريمة .. حجارة مربعة" (1 ملوك 17:5). وفي تشكيل الأخشاب الثقيلة التي جيء بها من غابات لبنان وفي إقامة المقدس الفخم.

كان الصنّاع يتقدمون بنشاط في صنع أثاث الهيكل تحت قيادة حوارم الصوري وهو "ماهر في صناعة الذهب والفضّة والنحاس والحجارة والخشب والأرجوان والأسمانجوني والكتان والقرمز" (2 أخبار الأيام 13:2، 14). في ذات الوقت الذي كانت تعد فيه الأخشاب والأحجار وهو العمل الذي اشتغل فيه عدّة آلاف وبذلوا فيه كل قواهم وجهودهم.

وهكذا إذ كان البناء يقام على جبل المُريّا بلا ضجة ويُبنى "بحجارة صحيحة مقتلعة لم يسمع في البيت عند بنائه منحت ولا معول ولا أداة من حديد" (1 ملوك 7:6). وقد أكملت التركيبات الجميلة حسب النماذج التي سلّمها داود لابنه ـــ "كل الآنية التي لبيت الله" (2 أخبار الأيام 19:4). وكان من ضمنها مذبح البخور ومائدة خبز الوجوه والمنارة والسرج والأواني والأدوات الخاصة بخدمة [30] الكهنة في القدس ـــ كل هذه كانت "من ذهب وهو ذهب كامل" (2 أخبار الأيام 21:4). أمّا الأواني النحاسية لمذبح المحرقة والمرحضة الكبيرة أي بحر النحاس الذي كان محمولاً على إثني عشر ثوراً والمراحض الأصغر حجماً والأواني الكثيرة الأخرى "ففي غور الأردن سبكها الملك في أرض الخزف بين سكوت و صردة" (2 أخبار الأيام 17:4). وقد اعدّ من هذا الأثاث عدداً كبيراً كيلا تمس الحاجة إلى شيء.

كان الهيكل، ذلك البناء الفخم فائقاً في جماله ولا يُبارى في بهائه وهو البناء الذي أقامه سليمان ورفاقه لعبادة الله مزيَّنا بحجارة كريمة ومحاطاً بأروقة فسيحة وممرات فخمة ومبطناً بأرز منقوش وذهب مصقول وهكذا كان الهيكل بستائره المنقوشة وزخارفه وأثاثه الثمين هو رمز مناسب لكنيسة الله الحيّة على الأرض التي ظلّت تبنى مدى العصور حسب المثال الإلهي بمواد شبّهت "بالذهب والفضة والحجارة الكريمة"، "منحوتات حسب بناء هيكل" (1 كورنثوس 12:3، مزمور 12:144). وفي هذا الهيكل الروحي نجد أن المسيح نفسه "حجر الزاوية الذي فيه كل البناء مركباً معاً ينمو هيكلاً مقدساً في الرب" (أفسس 20:2، 21).

أخيراً أكمل الهيكل الذي رسمه الملك داود وبناه سليمان ابنه "وكل ما خطر ببال سليمان أن يعمله في بيت الرب... نجح فيه" (2 أخبار الأيام 11:7). أمّا الآن فلكي يكون ذلك القصر الذي يتوج شوامخ جبل المريّا هيكلاً كما كان داود يشتهي "ليس لإنسان بل للرب الإله" (1 أخبار الأيام 1:29)، فقد بقي الاحتفال المقدّس للهيكل الذي تم تدشينه رسمياً لعبادة الرب.

لقد ظلت البقعة التي بنى الهيكل عليها معتبرة لأمد طويل مكاناً مقدَّسا، ففي هذا المكان أعلن ابراهيم أبو المؤمنين استعداده لتقديم ابنه الوحيد ذبيحة [31] إطاعة لأمر الرب وفي هذا المكان جدد الله مع

إبراهيم عهد البركة الذي تضمّن الوعد بالخلاص بواسطة ذبيحة ابن العلي (تكوين 9:22 و 16 — 8). وفيه أيضاً أجاب الله بنار من السماء عندما قدّم داود ذبائح سلامة ومحرقات لإيقاف سيف نقمة الملاك والمهلك عن إهلاك الشعب (1 أخبار الأيام 21). والآن فأن عابدي الرب مزمعين على ملاقاة إلههم في المكان ذاته وتجديد ولائهم له مرة أخرى.

كان الوقت المختار لتدشين الهيكل أي الشهر السابع هو انسب الأوقات وهو الوقت الذي كان الشعب معتاداً فيه للاجتماع في أورشليم وافداً من كل أنحاء المملكة لإحياء عيد المظال. وكان هذا العيد مناسبة عظيمة للفرح كانت أعمال الحصاد قد انتهت أمّا أشغال العام الجديد فلم يكن قد بُدئ فيها بعد ولم تكن هناك هموم تشغل أذهان الشعب. كانوا يستطيعون الاشتراك بقلوبهم وحواسهم في أفراح تلك الساعة المقدسة.

وفي الوقت المعيّن اجتمع بنو إسرائيل في أروقة الهيكل ومعهم ممثلون من أمم أجنبيّة كثيرة وهم متسربلون بأغلى الحلل. كان المنظر غاية في البهاء. وقد عاد الملك سليمان ومعه شيوخ الشعب وأعظمهم نفوذاً من بعض أقسام المدينة ومعهم تابوت العهد. وقد نقلت خيمة الإجتماع "مع جميع آنية القدس التي في الخيمة" (2 أخبار الأيام 5:5). هذه التذكارات العزيزة لاختبارات بني إسرائيل المبكرة، خلال تيهانهم في البرية واحتلالهم لكنعان، وجدت لها الآن مقرًّا دائماً في ذلك المبنى الفخم الذي استعيض به عن المسكن المتنقّل.

وعند إحضار التابوت المقدّس الذي كان يحتوي على لوحي الحجر المكتوب عليهما الوصايا العشر بإصبع الله إلى الهيكل، اتّبع سليمان مثال داود أبيه. فبعد كل ست خطوات كان يقدّم ذبائح. فبأصوات الغناء وآلات العزف [32] وباحتفال عظيم "أدخل الكهنة تابوت عهد الرب إلى مكانه في محراب البيت في قدس الأقداس" (2 أخبار الأيام 7:5). وعند خروجهم من المقدس الداخلي اتّخذوا الأمكنة المعيّنة لهم فقد وقف المغنّون واللاويون اللابسون ثياب كتان بيضاء وبأيديهم آلات الصنوج والرباب والعيدان في أقصى الناحية الشرقية للمذبح ومعهم من الكهنة مئة وعشرون ينفخون في الأبواق (2 أخبار الأيام 12:5).

"وكان لما صوت المبوقون والمغنون كواحد لتسبيح الرب وحمده ورفعوا صوتاً بالأبواق والصنوج وآلات الغناء والتسبيح للرب لأنه صالح لأن إلى الأبد رحمته ان البيت بيت الرب امتلأ سحاباً ولم يستطع الكهنة أن يقفوا للخدمة بسبب السحاب لأن مجد الرب ملأ بيت الله" (2 أخبار الأيام 13:5، 14).

فإذ علم سليمان عن يقين معنى حلول هذه السحابة أعلن قائلاً "قال الرب إنه يسكن في الضباب. وأنا بنيت لك بين سكني مكاناً لسكنك إلى الأبد" (2 أخبار الأيام 1:6، 2).

الرب قد ملك ترتعد الشعوب. هو جالس على الكروبيم. تتزلزل الأرض. الرب عظيم في صهيون وعال على كل الشعوب. يحمدون اسمك العظيم والمهوب. قدوس هو .. علوا الرب إلهنا واسجدوا عند موطئ قدميه. قدوس هو" (مزمور 1:99 — 5).

"وفي وسط الدار"، دار الهيكل صنع منبراً من نحاس طوله خمس أذرع وعرضه خمس أذرع وارتفاعه ثلاثة أذرع. وقد وقف سليمان على هذا المنبر، وإذ رفع يديه بارك ذلك الجمهور العظيم "وكل جمهور إسرائيل واقف" (2 أخبار الأيام 13:6، 3). [33]

ثم هتف سليمان يقول "مبارك الرب إله إسرائيل" "الذي كلّم بفمه داود أبي وأكمل بيديه قائلاً .. اخترت أورشليم ليكون إسمي فيها" (2 أخبار الأيام 4:6، 6).

ثم جثا سليمان على المنبر وقدم صلاة التكريس في مسامع الشعب. فإذ رفع يديه نحو السماء خرّ الجميع بوجوههم على الأرض وتضرّع الملك قائلاً: "أيها الرب إله إسرائيل لا إله مثلك في السماء والأرض حافظ العهد والرحمة لعبيدك السائرين أمامك بكل قلوبهم".

"هل يسكن الله حقاً مع الإنسان على الأرض؟ هوذا السماوات وسماء السماوات لا تسعك فكم بالأقل هذا البيت الذي بنيت فالتفت إلى صلاة عبدك و إلى تضرعه إيها الرب إلهي واسمع الصراخ والصلاة التي يصليها عبدك أمامك. لتكن عيناك مفتوحتين على هذا البيت نهاراً وليلاً على الموضع الذي قلت أنك تضع اسمك فيه لتسمع الصلاة التي يصليها عبدك في هذا الموضع واسمع تضرعات عبدك وشعبك الذين يصلون في هذا الموضع واسمع أنت من موضع سكناك من السماء وإذا سمعت فاغفر..

وان انكسر شعبك أمام العدو لكونهم أخطأوا إليك ثم رجعوا واعترفوا باسمك وتضرّعوا أمامك نحو هذا البيت فاسمع أنت من السماء واغفر خطيّة شعبك إسرائيل وأرجعهم إلى الأرض التي أعطيتها لهم ولآبائهم.

"إذا أغلقت السماء ولم يكن مطر لكونهم أخطأوا إليك ثم صلّوا في هذا المكان واعترفوا باسمك ورجعوا عن خطيتهم لأنك ضايقتهم. فاسمع أنت من السماء واغفر خطيّة عبيدك وشعبك فتعلمهم الطريق الصالح الذي يسلكون فيه وأعط مطراً على أرضك التي أعطيتها لشعبك ميراثاً. [34]

"إذا صار في الأرض جوع إذا صار وبأ أو لفح أو يرقان أو جراد أو إذا حاصرهم أعداؤهم في أرض مدنهم في كل ضربة وكل مرض فكل صلاة وكل تضرع تكون من أي إنسان كان أو من كل شعبك الذين يعرفون كل واحد ضربته ووجعه فيبسط يديه نحو هذا البيت. فاسمع أنت من السماء مكان سكناك واغفر وأعط كل إنسان حسب طرقه كما تعرف قلبه .. لكي يخافوك و يسيروا في طرقك كل الأيام التي يحيون فيها على وجه الأرض التي أعطيت لآبائنا.

" وكذلك الأجنبي الذي ليس هو من شعبك وقد جاء من أرض بعيدة من أجل إسمك العظيم ويدك القويّة وذراعك الممدودة فمتى جاءوا وصلّوا في هذا البيت. فاسمع أنت من السماء مكان سكناك وافعل حسب كل ما يدعوك به الأجنبي لكي يعلم كل شعوب الأرض اسمك فيخافوك كشعبك ولكي يعلموا أن اسمك قد دعي على هذا البيت الذي بنيت.

"إذا خرج شعبك لمحاربة أعدائه في الطريق التي ترسلهم فيه وصلوا إليك نحو هذه المدينة التي اخترتها والبيت الذي بنيت لاسمك. فاسمع من السماء صلاتهم وتضرعهم واقض قضاءهم.

"إذا أخطأوا إليك (لأنّه ليس إنسان لا يخطئ) وغضبت عليهم ودفعتهم أمام العدو وسباهم سابوهم إلى أرض بعيدة أو قريبة فإذا ردّوا إلى قلوبهم في الأرض التي يسبون إليها ورجعوا وتضرّعوا إليك في أرض سبيهم قائلين قد أخطأنا وعوّجنا أذنبنا ورجعوا إليك من كل قلوبهم ومن كلّ أنفسهم في أرض سبيهم التي سبوهم إليها وصلّوا نحو أرضهم التي أعطيتها لآبائهم والمدينة التي اخترت والبيت الذي بنيت لإسمك فاسمع من السماء من مكان سكناك صلاتهم وتضرّعاتهم واقض قضاءهم واغفر لشعبك ما أخطأوا به إليك. [35]

"الآن يا إلهي لتكن عيناك مفتوحتين وأذناك مصغيتين لصلاة هذا المكان. والآن قم أيّها الرب الإله إلى راحتك أنت وتابوت عزّك. كهنتك أيّها الرب يلبسون الخلاص وأتقياؤك يبتهجون بالخير. أيها الرب الإله لا ترد وجه مسيحك. اذكر مراحم داود عبدك" (2 أخبار اليوم 14:6 — 42).

ولما انتهى سليمان من صلاته: "نزلت النار من السماء وأكلت المحرقة والذبائح". ولم يستطع الكهنة أن يدخلوا الهيكل "لأن مجد الرب ملأ بيت الرب". "وكان جميع بني إسرائيل ينظرون عند نزول النار ومجد الرب ملأ بيت الرب". "وكان جميع بني إسرائيل ينظرون عند نزول النار ومجد الرب على البيت وخرّوا على وجوههم إلى الأرض على البلاط المجزع وسجدوا وحمدوا الرب لأنه صالح وإلى الأبد رحمته".

حينئذ قدم الملك والشعب ذبائح أمام الرب: "ودشّن الملك وكل الشعب بيت الله". (2 أخبار الأيام 1:7

— 5) ولمدى سبعة أيام عيّدت جموع غفيرة من كل أنحاء المملكة ”من مدخل حماة إلى وادي مصر“. ”جمهور عظيم“ عيّدوا العيد بفرح. أمّا الأسبوع التالي فقد قضاه ذلك الجمهور الفرح في الاحتفال بعيد المظال. وفي نهاية فترة الأفراح وإعادة التكريس هذه عاد الشعب إلى بيوتهم“ ”فرحين وطيبي القلوب لأجل الخير الذي عمله الرب لداود وسليمان ولإسرائيل شعبه“. (2 أخبار الأيام 8:7، 10).

لقد بذل الملك كل مقدوره لتشجيع الشعب على تسليم ذواتهم لله ولخدمته بالتمام ولتعظيم اسمه القدوس. والآن فها هو الملك سليمان يحصل على البرهان على قبول الرب وبركته مرّة أخرى كما حدث في بدء حكمه في جبعون فقد ظهر له الرب في رؤيا في الليل وقدّم له هذه الرسالة: ”قد سمعت صلاتك واخترت هذا المكان لي بيت ذبيحة إن أغلقت السماء ولم يكن مطر وإن أمرت [36] الجراد أن يأكل الأرض وإن أرسلت وبأ على شعبي فإذا تواضع شعبي الذين دُعي أسمي عليهم وصلّوا وطلبوا وجهي ورجعوا عن طرقهم الرديّة فأنني اسمع من السماء واغفر خطيّتهم وأبرئ أرضهم الآن عيناي تكونان مفتوحتين وأذناي مصغيتين إلى صلاة هذا المكان والآن قد اخترت وقدست هذا البيت ليكون إسمي فيه إلى الأبد وتكون عيناي وقلبي هناك كل الأيام“ (2 أخبار الأيام 12:7 — 16).

لو ظل شعب الله أميناً له لبقي هذا الصرح المجيد قائماً إلى الأبد كعلامة دائمة على رضى الله الخاص على شعبه المختار. وقد أعلن الله قائلاً: ”وأبناء الغريب الذين يقترنون بالرب ليخدموه وليحبوا اسم الرب ليكونوا له عبيداً كل الذين يحفظون السبت لئلا ينجسوه ويتمسكون بعهدي آتي بهم إلى جبل قدسي وأفرحهم في بيت صلاتي وتكون محرقاتهم وذبائحهم مقبولة على مذبحي لأن بيتي بيت الصلاة يدعى لكل الشعوب“ (إشعياء 6:56، 7).

وفيما يختص بهذه التأكيدات بالقبول فقد أوضح الرب للملك طريق الواجب. فقد أعلن قائلاً له: ”وأنت إن سلكت أمامي كما سلك داود أبوك وعملت حسب كل ما أمرتك به وحفظت فرائضي وأحكامي فإني اثبت كرسي ملكك كما عاهدت داود أباك قائلاً لا يعدم لك رجل يتسلط على إسرائيل“ (2 أخبار الأيام 17:7، 18).

لو ظل سليمان يخدم الرب بوداعة لأمكن أن يكون ملكه قوياً فعالاً للخير بالنسبة للأمم المحيطة التي تأثرت بمؤشرات صالحة بسبب ملك داود أبيه وبسبب الأقوال الحكيمة والأعمال العظيمة التي حدثت في أوائل سني ملكه إذ سبق الله فرأى التجارب المخيفة التي تلازم النجاح والعظمة الدنيوية فقد أنذر [37] سليمان من شر الارتداد وسبق وأخبره بالعواقب المخيفة للخطيئة فقد أعلن له أنه حتى الهيكل الذي قد دشّن منذ عهد قريب قد يصير ”مثلاً وهزأة في جميع الشعوب“ لو ترك شعب الله ”الرب إله آبائهم“ وأصرّوا على التعلّق بالأوثان (2 أخبار الأيام 20:7، 22).

إذ تشدّد قلب سليمان وفرح فرحاً عظيماً برسالة السماء القائلة بأن صلاته لأجل إسرائيل قد سمعت فقد دخل الآن في أمجد عهد في ملكه عندما بدأ ”جميع ملوك الأرض“ يلتمسون وجهه ”ليسمعوا حكمته التي جعلها الله في قلبه“ (2 أخبار الأيام 23:9). وقد أتى كثيرون منهم ليروا أسلوب هذه الدولة وعادات شعبها وليتلقوا منه المعرفة عن كيفية التعامل مع المشاكل العويصة.

وإذ أتى أولئك الرجال لزيارة سليمان علمهم عن الله خالق كل الأشياء فعادوا إلى أوطانهم وقد عرفوا الله معرفة أوضح وأدركوا محبته للجنس البشري والآن ها هم يرون في أعمال الطبيعة تعبيراً عن محبته وإعلاناً لصفاته فبدأ كثيرون منهم يعبدونه.

الوداعة التي أبداها سليمان عندما بدأ يضطلع بأعباء الحكم عندما اعترف أمام الله قائلاً: ”أنا فتى صغير“ (1 ملوك 7:3) ومحبّته الممتازة لله وتوقيره للأمور الإلهية وعدم ثقته في نفسه وتمجيده للإله السرمدي — كل سمات الخلق هذه الجديرة بأن تُحتذى، ظهرت وتوضّحت أثناء الخدمات المتصلة بتكملة

الهيكل عندما جثا متوسًّلا في تذلل أثناء صلاة التدشين. على أتباع المسيح اليوم أن يتحفظوا كيلا يفقدوا روح الوقار والخوف المقدّس. تعلّمنا الكتب المقدسة وتعلّم جميع الناس كيف يدنون من خالقهم بوداعة وخوف من خلال الإيمان [38] بالوسيط الإلهي. لقد أعلن المرنم يقول: "الرب إله عظيم ملك كبير على كل الآلهة .. هلم نسجد ونركع ونجثوا أمام الرب خالقنا". (مزمور 95:3، 6).

إنه امتياز لنا أن نجثوا على ركبنا أمام الله في كلتا العبادة الجمهورية والفردية فيما نقدّم له صلواتنا وتضرعاتنا فيسوع مثالنا "جثا على ركبتيه وصلّى" (لوقا 22:41). قال الكتاب عن تلاميذه أنّهم أيضاً جثوا على ركبهم وصلّوا (أعمال 9:40). وبولس الرسول يعلن قائلاً: "أحني ركبتي لدى أبي ربنا يسوع المسيح" (أفسس 3:14). وعزرا وهو يعترف بخطايا إسرائيل أمام الله جثا (انظر عزرا 9:5) ودانيال: "جثا على ركبتيه ثلاث مرات في اليوم وصلّى وحمد قدّام إلهه" (دانيال 6:10).

يلهمنا إحساسنا بحضور الله وبعظمته غير المحدودة إلى تقديم التوقير الحقيقي له. بهذا الإحساس بالإله غير المنظور ينبغي لكل قلب أن يتأثر تأثراً عميقاً. فساعة الصلاة ومكانها مقدسان لأن الله هناك. وإذ يظهر الوقار في موقف الإنسان وتصرفه يتعمق الإحساس الذي أوعز به. لقد أعلن المرنم قائلاً: "قدّوس ومهوب اسمه" (مزمور 111:9). والملائكة إذ ينطقون بذلك الاسم يغطّون وجوههم. فبأي وقار إذاً ينبغي لنا نحن الخطاة الساقطين أن ننطق باسمه على شفاهنا؟

يحسن بالكبار والصغار التأمل في أقوال الكتاب التي ترينا كيف ينبغي لنا احترام الأماكن التي تمتاز بحضور الله الخاص. لقد أمر الله موسى من وسط العليقة التي كانت تتوقد بالنار قائلاً: "اخلع حذاءك من رجليك لأن الموضع الذي أنت واقف عليه أرض مقدسة" (خروج 3:5). ويعقوب بعدما رأى منظر [39] الملائكة (في بيت ايل) هتف يقول "حقاً إن الرب في هذا المكان وأنا لم أعلم .. ما هذا إلا بيت الله وهذا باب السماء" (تكوين 28:16، 22).

لقد حاول سليمان في كل ما قيل في أثناء خدمات التدشين أن يزيل من أذهان الحاضرين الخرافات التي نسبت للخالق التي قد أظلمت أذهان الوثنيين. إن إله السماء ليس محصوراً في الهياكل المصنوعة بالأيدي كآلهة الوثنيين. ومع ذلك فهو يتقابل مع شعبه بروحه عندما يجتمعون في البيت المكرّس لعبادته.

وبعد ذلك بعدة قرون علّم بولس الرسول هذا الحق عندما قال: "الإله الذي خلق العالم وكل ما فيه. هذا إذ هو رب السماء والأرض لا يسكن في هياكل مصنوعة بالأيادي ولا يخدم بأيادي الناس كأنه محتاج إلى شيء إذ هو يعطي الجميع حياة ونفساً وكل شيء .. لكي يطلبوا الله لعلّهم يتلمسونه فيجدوه مع أنه عن كل واحد منا ليس بعيداً لأننا به نحيا ونتحرك ونوجد" (أعمال 17:24 — 28).

"طوبى للأمة التي الرب إلهها الشعب الذي اختاره ميراثاً لنفسه. من السموات نظر الرب. رأى جميع بني البشر. من مكان سكناه تطلع إلى جميع سكان الأرض". "الرب في السموات ثبّت كرسيه ومملكته على الكلّ تسود" "اللهم في القدس طريقك أي إله عظيم مثل الله. أنت الإله الصانع العجائب. عرفت بين الشعوب قوتك" (مزمور 33:12 — 14، 103:19، 77:13، 14).

مع كون الله لا يسكن في هياكل مصنوعة بالأيدي فهو بحضوره يكرم محافل شعبه. وقد وعد أنهم عندما يجتمعون ليطلبوه ويعترفون بخطاياهم ويصلون بعضهم لأجل بعض فسيلتقي بهم بروحه. ولكن يجب على من يجتمعون لعبادته أن يطرحوا عنهم كل شر. فما لم يسجدوا له بالروح والحق في زينة مقدّسة فإن [40] إجتماعهم معاً لا يجدي. لمثل هؤلاء يقول الرب: "يقترب إلى هذا الشعب بفمه ويكرمني بشفتيه وأما قلبه فمبتعد عني بعيداً. وباطلاً يعبدونني" (متى 15:8، 9). فالذين يسجدون لله ينبغي لهم أن يسجدوا "بالروح والحق لأن الآب طالب مثل هؤلاء الساجدين له" (يوحنا 4:23). "أما الرب ففي هيكل قدسه. فاسكتي قدامه يا كل الأرض" (حبقوق 2:20). [41]

الفصل الثالث—— كبرياء النجاح

عندما كان سليمان يعظّم شريعة السماء ويكرمها كان الله معه وأُعطيت له حكمة ليحكم على شعبه بالإنصاف والرحمة. وظل في بادئ الأمر عندما توافد عليه الغنى والكرامة الأرضية متواضعاً وامتدّ تأثيره إلى أبعد الأماكن "وكان سليمان متسلّطا على جميع الممالك من النهر إلى (الفرات) إلى أرض فلسطين وإلى تخوم مصر .. وكان له صلح من جميع جوانبه حواليه. وسكن يهوذا وإسرائيل آمنين كل واحد تحت كرمته وتحت تينته .. كل أيام سليمان" (1 ملوك 4:21، 24، 25).

ولكن بعد صباح صحو إذ كان يُرجى منه خير عظيم اكتنفت حياته ظلمة الارتداد. والتاريخ يسجل الحقيقة المحزنة وهي أن ذاك الذي قد دُعي يديديا أي "حبيب الرب" (2 صموئيل 12:25 —— الحاشية) ذاك الذي أكرمه الله بعلامات الرضى الإلهي العظيمة جداً بحيث أن حكمته واستقامته أكسبتاه شهرة عالميّة واسعة النطاق، ذاك الذي قاد آخرين لأن ينسبوا المجد والكرامة لله وحده ارتدّ عن عبادة الرب ليسجد أمام آلهة الأمم الوثنيّة.

إذ سبق الرب فرأى المخاطر المزمعة أن تحدق بالذين قد تم اختيارهم حكاماً على شعبه أعطى موسى تعليماً لإرشادهم وذلك قبلما ارتقى سليمان العرش بمئات السنين. وقد صارت الأوامر بأن من يجلس على عرش شعب الله [42] ينبغي أن "يكتب لنفسه نسخة" من الشريعة الإلهية "في الكتاب من عند الكهنة اللاويين"، "فتكون معه" قال الرب "ويقرأ فيها كل أيام حياته لكي يتعلّم أن يتقي الرب إلهه ويحفظ جميع كلمات هذه الشريعة وهذه الفرائض ليعمل بها" لئلا يرتفع قلبه على إخوته ولئلا يحيد عن الوصيّة يميناً أو شمالاً لكي يطيل الأيام على مملكته هو وبنوه في وسط إسرائيل" (تثنية 17:18 —— 20).

وفيما يختص بهذه الوصيّة حذّر الرب بكيفيّة خاصة مَن قد يُسمح ملكاً: "ألا يكثر له نساء لئلا يزيغ قلبه وفضّة وذهباً لا يكثر له كثيراً" (تثنية 17:17).

كان سليمان على علم بهذه الإنذارات كما ظلّ لبعض الوقت حريصاً على العمل بها. كانت أسمى غاياته أن يعيش ويحكم طبقاً للوصايا المعطاة في سيناء. وقد اختلفت طريقته في تدبير شؤون مملكته اختلافاً مدهشاً عن عادات الأمم الذين عاصروه الذين لم يتّقوا الله بل داس حكامُها شيعته المقدّسة تحت أقدامهم.

جازف سليمان في محاولته لتقوية علاقاته مع المملكة القوية الواقعة في الجنوب وذلك بالدخول إلى الأرض المحرمة. وقد عرف الشيطان نتائج الطاعة. في خلال السنوات الأولى التي كان فيها سليمان ملكاً، السنوات المجيدة بسبب حكمة الملك وإحسانه واستقامته، حاول الشيطان إدخال مؤثرات شريرة من شأنها أن تقوّض ولاءه للمبدأ وتباعد بينه وبين إلهه. ونحن نعلم مدى نجاح العدو في هذا المسعى مما سجله الكتاب في هذا الصدد إذ يقول: "وصاهر سليمان فرعون ملك مصر وأخذ بنت فرعون وأتى بها إلى مدينة داود" (1 ملوك 3:1).

لقد بدأ هذا الزواج، رغم تناقضاته الظاهرة لشريعة الله وتعاليمها، أنه سيكون من وجهة النظر

البشرية بركة لأن زوجة سليمان الوثنية اهتدت إلى الدين [43] اليهودي واشتركت معه في السجود للإله الحقيقي. وفوق هذا فإن الفرعون قدّم للشعب الإسرائيلي خدمة جليلة إذ أخذ جازر وقتل "الكنعانيين الساكنين فيها" وأعطاها "مهراً لابنته زوجة سليمان" (1 ملوك 16:9). وقد عاد سليمان فجدد بناء هذه المدينة. وبدا كأنه قوّى مملكته الممتدة على شواطئ المتوسط إلا أن سليمان إذ عقد محالفة مع أمّة وثنية وختم ذلك التحالف بالزواج بأميرة وثنية فقد نقض الشرط الذي سنّه الله لحفظ نقاوة شعبه. ولم يكن الأمل في إمكانية اهتداء زوجته المصريّة إلى الإيمان إلا عذراً واهياً في الدفاع عن هذه الخطيئة.

سيطر الله في رحمته ورأفته على هذا الخطأ الرهيب لبعض الوقت. ولو كان الملك قد تصرف بحكمة لأمكنه على الأقل أن يصد إلى حد كبير، قوات الشر التي آثارها طيشه. ولكن سليمان كان قد بدأ يغيب عن نظره نبع قوّته ومجده. وإذ سيطرت على عقله الأهواء والميول، فقد زادت ثقته في نفسه وحاول تنفيذ مقاصد الله بطريقته الخاصّة. فكان يتذرع بالقول بأن الأحلاف السياسية والتجارية مع الأمم المحيطة به كفيلة بأن تهدي هذه الأمم لمعرفة الإله الحقيقي، فاشترك في أحلاف تنتهي بالزواج بأميرات وثنيات. فألقى بذلك أوامر الرب جانباً مستعيضاً عنها بعادات الأمم والشعوب المحيطة.

كان سليمان يخدع نفسه بالقول بأن حكمته وقوّة مثاله ستجعل نساءه يتركن الوثنيّة ويعبدن الإله الحقيقي وأن الأحلاف التي تكوّنت هكذا ستجذب الأمم المحيطة للاختلاط بشعب الرب. يا له من أمل باطل! إن غلطة سليمان في اعتبار نفسه من القوة بحيث يستطيع مقاومة تأثير العشراء الوثنيين كانت خطأ قاتلاً. كذلك الأمل الخادع الذي ساقه للاعتقاد أنه بالرغم من احتقاره لشريعة الله فقد ينجذب الآخرون لإطاعة وصاياه المقدّسة واحترامها. [44]

جاءت أحلاف الملك وعلاقاته التجارية مع الشعوب الوثنية إليه بالشهرة والكرامة وغنى هذا العالم. فاستطاع استيراد الذهب من أوفير والفضة من ترشيش بكثرة عظيمة: "وجعل الملك الفضّة والذهب في أورشليم مثل الحجارة وجعل الأرز كالجميز الذي في السهل في الكثرة" (2 أخبار الأيام 15:1). فلقد سيطرت الثروة في أيام سليمان بكل ما يصحبها من تجارب ومغريات على عدد كبير من الناس أما الذهب الخُلُقي النقي فقد اكدرّ وفسد.

كان ارتداد سليمان تدريجياً بحيث بلغ في ضلاله حداً بعيداً عن الله قبلما فطن إلى ذلك. وبدأ يقلّل بكيفية لم يدركها أو يشعر بها من ثقته في الإرشاد الإلهي وما عاد يكترث كثيراً لبركة الله واتّكل على قوّته. وبدأ يتباعد عن الله ويمتنع عن الطاعة التي لا ميل فيها ولا انحراف، تلك الطاعة التي كانت ستجعل شعبه، شعباً خاصاً، وجعله يتشبّه بعادات الأمم المحيطة به إلى أقصى حد. وإذ استسلم للتجارب الملازمة لنجاحه ومركز الكرامة الذي كان يشغله نسي مصدر نجاحه الحقيقي. وقد ساقه طموحه للتفوق على كل الأمم الأخرى في السؤود والعظمة والجلال إلى الإستخفاف بهبات السماء التي كان يستخدمها سابقاً لمجد الله بحيث أخذت تخدم أغراضه الأنانية. وقد ابتلعت مشاريعه الجشعة المال الذي كان وديعة مقدّسة معطاة له لخير مستحقيه من الفقراء ولنشر مبادئ الحياة المقدّسة في كل العالم.

وإذا استولت على نفسه واستبدّت به رغبة قوية للتفوق على الأمم في المظاهر والأبّهة الخارجية فقد أغفل الملك حاجته للحصول على جمال الخُلُق وكماله. وفي محاولته لتمجيد نفسه أمام أنظار العالم باع كرامته واستقامته. وأضيفت إلى الثروة الضخمة التي جمعها بالمتاجرة مع بلدان عديدة ضرائب كثيرة وثقيلة. [45] وهكذا نضجت الكبرياء والطموح والإسراف والانغماس في الشهوات والإفراط في المُتع وأتت ثمارها في اللجوء إلى الاستبداد و الإبتزاز. وتلك الروح المستقيمة الرصينة المنصفة التي اتّصف بها سليمان في عهد حكمه الأول تغيّرت و تبدّلت. فقد انحطّ بعدما كان أحكم الملوك وأعظمهم رحمة وصار طاغية مستبداً. والذي كان قبلاً حارساً لشعبه مشفقاً خائف الله أمسى الآن ظالماً متعسَّفا. وقد فرضت على الشعب ضريبة أخرى بعد أخرى لكي تتوفّر الأموال لتلبية حاجة بلاطه المُترف.

وبدأ الناس يتذمرون. فالإحترام والإعجاب اللذان كان الناس يكنونهما لمليكهم تبدلا إلى نفور واشمئزاز.

كان الرب قد أنذر حكّام شعبه ألا يكثروا لأنفسهم الخيل لوقايتهم من الاستناد على ذراع البشر. ولكن في استخفاف ظاهر لهذا الأمر "كان مخرج خيل سليمان من مصر ومن جميع الأراضي"، "وجمع سليمان مراكب وفرساناً فكان له ألف وأربع مئة مركبة واثنا عشر ألف فارس. فأقامهم في مدن المراكب ومع الملك في أورشليم" (2 أخبار الأيام 16:1، 28:9، 1 ملوك 26:1).

وصار الملك بالتدريج يعتبر البذخ والإفراط في المتعة ورضى العالم من دلائل العظمة. وجاء بنساء حسناوات وجذّابات من مصر وفينيقية وأدوم وموآب ومن أماكن أخرى كثيرة، وبلغ عددهن المئات. وكن يتعبّدون للأوثان، وقد تعلّمن ممارسة طقوس فاجرة ومنحطة. وإذ افتتن بجمالهن أهمل واجبه نحو الله ومملكته.

كان لزوجاته تأثير عظيم عليه وقد انتصرن عليه تدريجياً ليشاركهن عبادتهن. فقد أهمل سليمان الوصية التي أعطاها الله لتكون سياجاً يمنع الناس من [46] الارتداد. والآن ها هو يسلّم نفسه لعبادة الآلهة الكاذبة: "ولكن في زمان شيخوخة سليمان أن نساءه أملن قلبه وراء آلهة أخرى ولم يكن قلبُه كاملاً مع الرب إلهه كقلب داود أبيه. فذهب سليمان وراء عشتروت إلاهة الصيدونيين وملكوم رجس العمونيين" (1 ملوك 4:11، 5).

وقد أقام سليمان عدة مبان مهيبة على تلال جبل الزيتون الجنوبية مقابل جبل المُريّا حيث بنى هيكل الرب الجميل لتكون محاريب للعبادة الوثنية. وأقام تماثيل هائلة الحجم مصنوعة من الخشب والحجر قبيحة الشكل — في وسط حدائق الآس والزيتون وذلك إرضاء لزوجاته. وهناك أمام مذابح الآلهة الوثنية — "كموش رجس الموآبيين وملوك رجس بني عمون" مورست أحط طقوس الوثنية (1 ملوك 7:11).

وقد أوقع مسلك سليمان عليه قصاصه الأكيد. كان انفصاله عن الله عن طريق اتّصاله بعابدي الأوثان علّة دماره. وإذ تخلى عن ولائه لله ما عاد له سلطان على نفسه. فلقد تجرد من قوّته الأدبية وتبدّلت أحاسيسه وأمست كليلة وأضحى ضميره ميِّتا. فذاك الذي أظهر في بدء ملكه حكمة وعطفاً عظيمين إذ عاد طفلاً عاجزاً إلى أمّه المنكودة الحظ (1 ملوك 16:3 — 28) انحطّ إلى حدّ أن سمح بإقامة تمثال كان يقدّم على مذبحه الأطفال الصغار ذبائح حيّة. ذاك الذي في شبابه أُعطيت له فطنة وفهم الذي أوحى إليه قوة رجولته بأن يكتب هذا القول: "توجد طريق تظهر للإنسان مستقيمة وعاقبتها طرق الموت" (أمثال 12:14) انحرف في السنوات اللاحقة عن النقاوة بحيث شجّع الطقوس الخليعة العاصية المتصلة بعبادة كمو وعشتروت. وذاك الذي عند تدشين الهيكل قال لشعبه: "ليكن قلبكم كاملاً لدى الرب إلهنا" (1 ملوك 61:8) صار هو [47] نفسه مذنباً إذ أنكر أقواله بقلبه وحياته المشينة. لقد أخطأ إذ فهم الإستباحة على أنّها حرية. وحاول أن يوحّد بين النور والظلمة بين الخير والشر بين الطهارة والنجاسة بين المسيح وبليعال — ولكن بأي ثمن؟

فبعدما كان سليمان من أعظم الملوك الذين قبضوا على الصولجان صار إنساناً خليعاً وآلة في يد الآخرين وعبداً لهم. وأخلاقه التي اتّسمت في السابق بالنبل والشهامة اتّسمت الآن بالضعف والانحلال واقتلع إيمانه بالإله الحيّ من قلبه واستُعيض عنه بالشكوك الإلحادية. لقد أفسد عدم الإيمان سعادته وأضعف مبادئه وأهان حياته. واستحال العدل وكرم الأخلاق اللذان كانا ظاهرين فيه في بدء حكمه إلى استبداد وطغيان. ما أتعس الطبيعة البشرية الواهنة. إن الله لا يمكنه أن يعمل إلا القليل لمن فقد الإحساس بالاعتماد عليه.

في غضون سني الإرتداد هذه كان الانحطاط الروحي بين شعب الله يزيد ويتفاقم. وكيف يكون الواقع

غير ذلك في حين أن ملكه ربط مصالحه بمصالح أعوان الشيطان؟ وعن طريقهم عمل العدو على إصابة أذهان الشعب بالارتباك والتشويش بما يختص بالعبادة الحقيقية والعبادة الكاذبة. وهكذا صاروا ضحايا سهلة المنال. وقد جعلتهم مبادلتهم التجارية مع الأمم الأخرى على إتّصال وثيق بالذين لا يحبون الله. فتقلّصت محبّتهم لإلههم إلى درجة محزنة ومات إحساسهم القوي بصفات الله السامية المقدّسة وتلاشى. وإذا رفضوا السير في طريق الطاعة تحول ولاؤهم من الله إلى عدو البر. وصار عملاً عادياً بالنسبة لهم كونهم يتزوجون من الوثنيات، وسرعان مازال من قلوب الشعب كراهيتهم لعبادة الأوثان واستصوبوا تعدّد الزوجات. وربّت الأمهات الوثنيات أولادهن على حفظ [48] الطقوس الوثنية. واستعاض بعضهم عن الخدمة الدينية الطاهرة بالوثنية في أظلم أشكالها.

على المسيحيين اليوم أن يحفظوا أنفسهم مميزين ومنفصلين عن روح العالم وتأثيره. فالله قادر أن يحفظنا في العالم شرط ألا نكون من العالم. إن محبته غير مشكوك فيها أو متقلبة فهو يسهر أبداً على أولاده برعاية لا حد لها. ولكنّه يطلب منا ولاء كامل: "لا يقدر أحد أن يخدم سيّدين لأنه إما أن يبغض الواحد ويحب الآخر أو يلازم الواحد ويحتقر الآخر. لا تقدرون أن تخدموا الله والمال" (متى 24:6).

كان سليمان مزوَّدا بحكمة عجيبة ولكن العالم اجتذبه بعيداُ عن الله. والناس اليوم ليسوا أقوى منه فهم يميلون للانصياع للمؤثرات التي سببت سقوطه. وكما حذّر الله سليمان من الخطر الذي كان يتهدّده كذلك هو يحذّر أولاده اليوم كيلا يخاطروا بأرواحهم بالتشبّه بالعالم أو الاختلاط به. فهو يتوّسل إليهم قائلاً: "اخرجوا من وسطهم واعتزلوا. ولا تمسوا نجساً فأقبلكم وأكون لكم أباً وأنتم تكونون لي بنين وبنات يقول الرب القادر على كل شيء" (2 كونثوس 17:6، 18).

يكمن الخطر وسط النجاح فعلى مدى عصور كان في الغنى والكرامة تهديداً للوداعة الروحانية. إننا لا نجد صعوبة في حمل كأس فارغة، لكن متى كانت الكأس ملأى إلى حافتها فينبغي عندئذ أن نمسكها بكل حرص واتّزان. فالمآسي تسبب لنا الحزن لكن النجاح هو أخطر على الحياة الروحية حتى من المآسي. فما لم يكن الإنسان خاضعاً دائماً لإرادة الله وما لم يكن مقدساً في الحق فإن النجاح يثير ميله الطبيعي إلى الغطرسة لا محالة. [49]

وفي وادي الإتضاع حيث يعتمد الناس على الله ليعلّمهم ويرشدهم في كل خطوة توجد سلامة نسبية. أما الناس الذين يقفون كما على برج عال، الذين بسبب مركزهم يُفترض أن يمتلكوا حكمة عظيمة، هؤلاء هم في خطر عظيم فما لم يجعل أولئك الناس الله معتمدهم فإن سقوطهم سيكون أكيداً.

يصيب العطب جميع الناس حينما ينغمسون في الكبرياء والطموح الدنيوي، لأن الكبرياء وعدم الشعور بالحاجة تغلق القلب على وجه بركات السماء غير المحدودة. والإنسان الذي يستهدف تمجيد الذات سيجد نفسه خاوية من نعمة الله التي بواسطة فاعليتها يُكتسب الغنى الحقيقي وأعظم الأفراح المُشبعة للنفس. أمّا من يُعطى كل شيء ويفعل كل شيء لأجل المسيح فسيعرف إتمام الوعد القائل: "بركة الرب هي تغني ولا يزيد معها تعباً" (أمثال 22:10). فالمخلّص بلمسة نعمته اللطيفة يبعد عن النفس القلق والطموح غير الشريف محولاً العداوة إلى محبة وعدم الإيمان إلى ثقة. وعندما يخاطب النفس قائلاً: "اتبعني" فإن قوة سحر العالم وقوة التعويذة تتكسر وتتلاشى. وعندما يسمع الإنسان صوته تختفي روح الجشع من قلبه وينهض عندئذ متحرراً ليتبعه. [50]

الفصل الرابع ـــ عواقب التعدي

كانت من أهم الأسباب التي ساقت سليمان إلى الإسراف والظلم إخفاقه في الحصول على روح التضحية وتعزيز تلك الروح في نفسه.

عندما أخبر موسى الشعب وهم عند سفح جبل سيناء بأمر الرب قائلاً: "فيصنعون لي مقدَّسا لأسكن في وسطهم" كانت استجابتهم مصحوبة بتقدمات لائقة: "جاء كل من أنهضه قلبه وكل من سمّحته روحه" وأتوا بتقدماتهم. كان لا بد من استعدادات عظيمة واسعة النطاق لأجل بناء المقدِس وتطلّبت الحالة الحصول على كمية عظيمة من أثمن المواد وأغلاها ولكن الرب لم يقبل غير التقدمات الطوعية: "من كل من يحثه قلبه تأخذون تقدمتي" (خروج 25:8، 35:21، 25:2)، هذا هو الأمر الذي ردّده موسى في مسامع الشعب مراراً. فالتكريس لله وروح التضحية كانا من أوائل الأمور اللازمة في إعداد مسكن لله العلي.

وقد قدمت دعوة مماثلة للتضحية عندما أوكل إلى سليمان ابنه مسئولية بناء الهيكل. وقدم داود إلى ذلك الجمهور المحتشد السؤال التالي: "فمن ينتدب اليوم لملء يده للرب (أي التكريس للرب)؟" (1 أخبار الأيام 29:5). كان ينبغي أن يظل هذا النداء للتكريس والخدمة الطوعية ماثلاً أبداً في أذهان من أُسند إليهم أمر بنا الهيكل. [51]

وهب الله رجالاً منتخبين براعة وحكمة لأجل إقامة الخيمة في البرية: "وقال موسى لبني إسرائيل انظروا قد دعا الرب بصلئيل بن أوري بن حور من سبط يهوذا باسمه وملأه من روح الله بالحكمة والفهم والمعرفة وكل صنعة .. وجعل في قلبه أن يعلّم هو واهولياب .. من سبط دان. قد ملأهما حكمة قلب ليصنعها كل عمل النقّاش والحائك الحاذق والطرّاز .. وكل عمل النسّاج صانعي كل صنعة .. فيعمل بصلئيل وكل إنسان حكيم القلب قد جعل الرب فيه حكمة وفهماً" (خروج 35:30 — 35، 36:1). وقد تعاون الأجناد السماويون مع الصنّاع الذين اختارهم الله بنفسه.

وقد ورث نسل هؤلاء الصناع إلى حد كبير المواهب التي مُنحت لأجدادهم. وظلّ رجال يهوذا ودان متواضعين لبعض الوقت لكنهم وبدون أن يشعروا تخلوا تدريجياً عن الله وما عادوا يرغبون من خدمته بتجرّد وإخلاص. وقد طالبوا بأجور أعلى لقاء خدماتهم بسبب مهارتهم الفائقة في الفنون الدقيقة. واستُجيبت طلباتهم أحياناً إلا أنهم كانوا يجدون لهم عملاً في أحيان أخرى في بلدان الأمم المحيطة بهم. وعوضاً عن روح التضحية النبيلة التي ملأت قلوب أجدادهم انغمسوا في روح الطمع واشتهاء ما للغير لزيادة أملاكهم أكثر فأكثر ولإشباع رغباتهم الأنانية، استخدموا المهارة الممنوحة لهم من الله في خدمة الملوك الوثنيين وسخّروا مواهبهم لإتقان أعمال الأمم على ما في ذلك من إهانة لصانعهم.

وقد بحث سليمان بين هؤلاء الصناع عن رجل يكون رئيساً لهم للأشراف على إقامة الهيكل على جبل المُريّا. وقد سلمت للملك مواصفات وشروط دقيقة عن كل قسم في ذلك البناء المقدس. [52]

كان يمكنه أن يلتفت إلى الله بايمان في انتظار مساعدين مكرّسين يمنحهم الله مهارة خاصة لينجزوا

بدقة العمل المطلوب. ولكن سليمان غابت عن نظره هذه الفرصة لتقوية إيمانه بالله. فأرسل إلى ملك صور يطلب "رجلاً حكيماً في صناعة الذهب والفضة والنحاس والحديد والأرجوان والقرمز والاسمانجوني ماهراً في النقش مع الحكماء الذين (عنده) في يهوذا وفي أورشليم" (2 أخبار الأيام 7:2).

وقد أجاب ملك فينيقية هذه الدعوة بإرسال حورام "ابن امرأة من بنات دان وأبوه رجل صوري" (2 أخبار الأيام 14:2). كان حورام هذا من نسل أهولياب عن طريق الأم الذي منذ مئات السنين كان الله قد وهبه حكمة خاصّة لإقامة الخيمة.

وبذلك ترأس جماعة صنّاع سليمان رجل لم تكن حوافزه بمنأى عن الرغائب الشخصية في تقديم خدمة لله. لقد خدم صنم المال، إله هذا العالم وتغلغلت في أنسجة كيانه ذاتها مبادئ الأنانية.

طلب حورام أجوراً ضخمة استغلالاً لمهارته التي لم تكن عادية. وسرت عدوى أطماعه تدريجياً إلى رفاقه في العمل فتقبّلوها. وإذ كانوا يشاركونه العمل يوماً بعد يوم بدأوا بالمقارنة بين أجورهم المتدنية وأجره المرتفع دون أن يفطنوا أنهم إنما يقومون بعمل مقدّس. فقد فارقتهم روح إنكار الذات وحل مكانها روح الطمع. وكانت نتيجة ذلك أنهم طالبوا بأجور أعلى فمنحت لهم.

تغلغلت التأثيرات الوبيلة التي بدأت تعمل إلى كل فروع خدمة الرب وامتدت إلى كل أنحاء المملكة. فالأجور المرتفعة التي طالب بها كثيرون وحصلوا عليها، أتاحت لهم الفرصة للانغماس في الترف والإسراف. وقد ظلم [53] الأغنياء الفقراء ومرّروا حياتهم وكادت روح التضحية تنعدم. وكان يمكن إدراك المؤثّرات البعيدة المدى لهذا الاتجاه الذي هو أحد أهم أسباب ارتداد ذاك الذي كان مسحوباً قبل إذ أحكم بني الإنسان.

توجد أمامنا اليوم عبرة ذات دلالة عميقة في الفرق الشاسع بين روح الشعب وبواعثه الذين كانوا يبنون الخيمة في البرية وبين الذين اشتغلوا في إقامة هيكل سليمان فطلب ما للنفس وهو ما اتّصف به الصنّاع الذين كانوا يعملون في الهيكل له شبيه يماثله اليوم في الأنانية السائدة في العالم. فروح الشجع والتطلّع إلى أسمى المراكز وأغلى الأجور متفشية اليوم وقلّما نجد روح الخدمة الطوعية الفرحة روح إنكار الذات التي اتّصف بها الصنّاع الذين كانوا يعملون في إقامة الخيمة. هذه هي الروح النبيلة التي يجب أن تحرك أتباع يسوع وتحفزهم للعمل. لقد قدّم معلمنا الإلهي مثالاً عن الكيفية التي يجب على تلاميذه أن يعملوا بها فالذين أمرهم قائلاً: "هلم ورائي فأجعلكم صيادي الناس" (متى 19:4) لم يحدد لهم مبلغاً معيناً من المال مكافأة لهم على خدمتهم. كان عليهم أن يقاسموه إنكار الذات والتضحية.

إننا لا نخدم لقاء أجر نحصل عليه ينبغي ألا يكون الدافع الذي يحفزنا لخدمة الله فيه شيء من خدمة الذات. فالتكريس غير الأناني وروح التضحية كانا ولا يزالان من أوائل مطالب الخدمة المقبولة. فربّنا وسيدنا لا يريد أن يتداخل في عمله ولو خيط صغير من خيوط الأنانية علينا أن ندخل في جهودنا الذوق والمهارة والإتقان والحكمة التي كان إله الكمال يطلبها ممن كانوا يقيمون الخيمة الأرضية. ومع ذلك ففي كل جهودنا علينا أن نذكر أن أعظم المواهب وأسمى الخدمات تُقبل فقط عندما توضع الذات على المذبح ذبيحة حية. [54]

ومن بين أسباب الانحراف والضلال عن المبادئ السوية القويمة التي أدّت في النهاية إلى سقوط الملك سليمان كان خضوعه لتجربة انتحال مجد الله لنفسه الذي هو من حق الله لا سواه.

فمنذ اليوم الذي أوكل فيه إلى سليمان عمل بناء الهيكل إلى يوم اكتماله كان غرضه الذي جاهر به هو هذا: "أن يبني بيتاً لاسم الرب إله إسرائيل" (2 أخبار الأيام 7:6). وقد اعترف اعترافاً كاملاً بهذا الغرض أمام جماهير الشعب المجتمعين في وقت تدشين الهيكل. كما اعترف الملك في صلاته أن الرب قال: "اسمي يكون فيه" (1 ملوك 29:8).

ومن أقوى العبارات التي نطق بها سليمان تأثيراً في صلاة التدشين كان توسله إلى الله لأجل الغرباء الذين يأتون من بلدان بعيدة ليتعلّموا أكثر عن ذاك (الله) الذي قد ذاعت شهرته بين الأمم. فتوسّل الملك في صلاته قائلاً: "لأنهم يسمعون باسمك العظيم وبيدك القوية وذراعك الممدودة". كما صلّى سليمان لأجل كل واحد من العابدين الغرباء قائلاً: "فاسمع .. وافعل حسب كل ما يدعوا به إليك الأجنبي لكي يعلم كل شعوب الأرض اسمك فيخافونك كشعبك ولكي يعلموا أنه قد دُعي اسمك على هذا البيت الذي بنيت" (1 ملوك 42:8، 43).

وفي ختام الخدمة أوصى سليمان الشعب أن يكونوا أمناء ومخلصين للرب الإله، قائلاً: "ليعلم كل شعوب الأرض أن الرب هو الله وليس آخر" (1 ملوك 60:8).

إن شخصاً أعظم من سليمان هو الذي صمم الهيكل وقد أعلنت حكمة الله ومجده جليّين هناك. أما الذين لم يكن لهم علم بهذه الحقيقة فقد أعجبوا بسليمان وامتدحوه بوصفه المهندس والبنّاء إلا أنه رفض أن ينسب لنفسه شرف تصميم الهيكل وبنائه. [55]

وهذا عين ما حدث عندما أتت ملكة سبأ لزيارته. فإذ سمعت عن حكمته وعظمة روعة الهيكل الذي بناه عقدت العزم على أن "تمتحنه بمسائل" لكي ترى بنفسها أعماله الشهيرة فإذ كان يصحبها موكب من العبيد والجمال حاملة "أطياباً وذهباً كثيراً جداً وحجارة كريمة" سافرت تلك السفرة الطويلة إلى أورشليم "فاتت إلى سليمان وكلّمته بكل ما كان في قلبها". تحدثت معه عن عجائب الطبيعة فأحاطها علماً عن إله الطبيعة الخالق العظيم الساكن في سماء السموات الذي يملك على الكل "فأخبرها سليمان بكل كلامها. لم يكن أمراً مخفياً عن الملك لم يخبرها به" (1 ملوك 1:1 — 3، 2 أخبار الأيام 1:9، 2).

فلما رأت ملكة سبأ كل حكمة سليمان والبيت الذي بناه .. لم يبق فيها روح بعد" فاعترفت قائلة: "صحيحاً كان الخبر الذي سمعته في أرضي عن أمورك وعن حكمتك. ولم أصدق الأخبار حتى جئت وأبصرت عيناي". "فهوذا النصف لم أخبر به. زدت حكمة وصلاحاً على الخبر الذي سمعته. طوبى لرجالك وطوبى لعبيدك هؤلاء الواقفين أمامك دائماً السامعين حكمتك" (1 ملوك 4:10 — 8، 2 أخبار الأيام 3:9 — 6).

كانت الملكة في نهاية زيارتها قد تلقّت من سليمان علماً كاملاً عن مصدر حكمته ونجاحه إلى حد أنها اقتنعت بألا تمجد الإنسان بل أن تهتف قائلة: "ليكن مباركاً الرب إلهك الذي سر بك وجعلك على كرسي شعبه. لأن الرب أحب شعبه إلى الأبد جعلك ملكاً لتجري حكماً وبراً" (1 ملوك 9:10). هذا هو الطابع الذي قصد الله أن يطبع به كل الشعوب. وعندما "كان جميع ملوك الأرض يلتمسون وجه سليمان ليسمعوا حكمته التي جعلها الله في قلبه" (2 أخبار [56] الأيام 23:9). ظل سليمان بعض الوقت يكرم الله بكونه كان يوجه أنظارهم بكل وقار إلى خالق السماء والأرض حاكم المسكونة الكلي الحكمة.

لو ظل سليمان على تواضعه وحوّل انتباهه بعيداً عن نفسه إلى ذاك الذي منحه الحكمة والغنى والكرامة فما كان أعظم تاريخه حينئذ. ففي حين سجّل قلم الوحي فضائله فقد شهد أيضاً وبكل أمانة عن سقوطه فإذا ارتفع إلى أوج العظمة وكان محاطاً بهبات الغنى فقد توازنه وهوى. وإذ كان أهل العالم يمطرونه بسيل لا ينقطع من عبارات التمجيد والإطراء لم يستطع أخيراً أن يصمد أمامه. فالحكمة التي أودعها الله في قلبه لكي يمجّد بها معطيها ملأته غروراً وكبرياء وفي النهاية سمح للناس بالحديث عنه بوصفه الشخص الوحيد المستحق التمجيد والإكرام لأجل روعة وعظمة البناء الذي صمّم وأقيم لأجل إكرام "إسم الرب".

وهكذا حدث أن هيكل الرب صار يُعرف في كل الأمم على أنّه "هيكل سليمان". لقد أخذ الإنسان لنفسه المجد الذي هو من حق ذلك الذي هو "فوق العالي عالياً" (جامعة 8:5). فالهيكل الذي أعلن عنه

سليمان قائلاَ: "اسمك قد دعي على هذا البيت الذي بنيت" (2 أخبار الأيام 33:6). في أغلب الأحيان وحتى إلى اليوم لا يقال عنه إنه هيكل الرب بل "هيكل سليمان".

لا يمكن للإنسان أن يبدي ضعفاً أعظم من السماح للناس بأن ينسبوا إليه الإكرام على الهبات الممنوحة من السماء. المسيحي بالحق هو ذاك الذي يجعل الله الأول والآخر والأفضل في كل شيء. فحوافر الطموح لا تقلل من محبته لله، ولكنه بكل ثبات ومثابرة يجعل الكرامة تؤول إلى أبيه السماوي. فعندما نكون أمناء في تمجيد اسم الله تكون بواعثنا تحت هيمنة الله ونستطيع أن ننمّي قوانا الروحية والذهنية. [57]

كان يسوع، المعلّم الإلهي، يمجد اسم أبيه السماوي على الدوام وهو علّم تلاميذه أن يصلوا قائلين: "أبانا الذي في السموات ليتقدّس اسمك" (متى 9:6). ولم يكونوا لينسوا أن يعترفوا قائلين: "لأن لك .. المجد" (متى 13:6). كان كذلك الشافي العظيم حريصاً على تحويل الانتباه عن نفسه إلى نبع قوّته حتى أن الجموع المندهشة عندما رأت "الخرس يتكلمون والشل يصحون والعرج يمشون والعمى يبصرون" لم يمجدوه بل "مجدوا الله" (متى 31:15). وفي الصلاة العجيبة التي قدّمها المسيح قبيل صلبه أعلن قائلاً: "أنا مجّدتك على الأرض". ثم صلّى قائلاً: "مجّد ابنك ليمجدك ابنك أيضاً"، "أيها الأب البار أن العالم لم يعرفك أما أنا فعرفتك وهؤلاء عرفوا أنك أنت أرسلتني. وعرفتهم اسمك وسأعرفهم ليكون فيهم الحب الذي أحببتني به، وأكون أنا فيهم" (يوحنا 1:17، 4، 25، 26).

هكذا قال الرب لا يفتخرن الحكيم بحكمته ولا يفتخر الجبار بجبروته ولا يفتخر الغني بغناه. بل بهذا ليفتخرن المفتخر بأنه يفهم ويعرفني أني أنا الرب الصانع رحمة وقضاء وعدلاً في الأرض لأني بهذه أُسر يقول الرب" (إرميا 23:9، 24).

أسبّح اسم الله .. وأعظّمه بحمد". "أنت مستحق أيها الآب أن تأخذ المجد والكرامة والقدرة". "أحمدك يا رب إلهي من كل قلبي وأمجّد اسمك إلى الدهر". "عظّموا الرب معي ولنعلي اسمه معاً" (مزمور 30:69، رؤيا 11:4، مزمور 12:86، 3:34).

إن دخول المبادئ المضللة التي قادت الناس بعيداً عن روح التضحية نحو تمجيد الذات صحبها شر شنيع آخر هو إفساد تدبير الله لأجل شعبه. كان الله [58] يقصد أن يكون شعبه نوراً للعالم لكي يشع منهم مجد شريعته إذ تظهر في عمل الحياة. فلكي ينفّذ هذه الغاية جعل الأمة المختارة تشغل مركزاً استراتيجياً بين أمم الأرض.

لقد امتدّت المملكة في عهد سليمان من مدينة حماة في الشمال إلى مصر في الجنوب، ومن البحر الأبيض المتوسط إلى نهر الفرات. واخترقت هذه البلاد طرقاً تجارية عالمية كثيرة. وكانت قوافل قادمة من بلدان بعيدة تمر باستمرار عبر البلاد من جهة إلى جهة. بذلك قدّمت لسليمان وشعبه فرصة فيها يعلنون لكل الأمم صفات ملك الملوك ويعلّمونهم أن يكرموه ويطيعوه. كان يجب نشر هذه المعرفة في كل العالم. كان يمكن أن يرفع المسيح أمام الأمم عن طريق تعليم نظام الذبائح والمحرقات حتى يحيا كل من يريد الحياة.

إذا كان سليمان على رأس أمة أقيمت بل أفرزت لتكون نوراً للأمم المحيطة بها كان ينبغي أن يستخدم الحكمة الممنوحة له من الله وقوة التأثير في تنظيم وتوجيه حركة عظيمة لإنارة من كانوا يجهلون الله وحقه. بهذه الكيفية كان يمكن ربح جماهير كثيرة للولاء للوصايا الإلهية. وأن يُحفظ شعب الله ويُصان من الشرور التي كان الوثنيون يمارسونها، وأن يُكرم رب المجد إكراماً عظيماً. ولكن غاب القصد العظيم عن عيني سليمان. وأخفق في استخدام الفرص العظيمة المقدّمة له أحسن استخدام في إنارة من كانوا يمرّون باستمرار عبر بلاده أو من كانوا يقيمون في المدن الرئيسية.

واقتُلعت الروح الكرازية التي غرسها الله في قلب سليمان وقلوب كل المؤمنين الحقيقيين في شعبه

وغرست في مكانها روح حب المتاجرة. واستُخدمت الفرص السانحة باتّصاله بأمم كثيرة في تعظيم نفسه. لقد حاول [59] سليمان أن يقوّي مركزه السياسي ببناء مدن محصّنة عند مداخل القرى التجارية. فأعاد بناء مدينة جازر القريبة من يافا الواقعة على الطريق بين مصر وسوريا. كما بنى بين حورن الواقعة غربي أورشليم التي تتحكم في العابر التي في الطريق العام الذي يربط ما بين قلب اليهودية وجازر وشاطئ البحر ومجدّو الواقعة على طريق القوافل من دمشق إلى مصر ومن أورشليم إلى الشمال "وتدمر في البرية" (2 أخبار الأيام 4:8)، في طريق القوافل القادمة من الشرق. كل هذه المدن حُصنّت تحصيناً قوياً. وزادت الميزات التجارية بسبب وجود منفذ على رأس البحر الأحمر وتحسنت بعمل "سفن في عصيون جابر .. على شاطىء بحر سوف في أرض أدوم". وكان هناك بحارة من صور مدربين جيداً هؤلاء "مع عبيد سليمان" سيّروا هذه السفن في البحر التي "حملت ذهباً من أوفير فأتت من أوفير بخشب الصندل وبحجارة كريمة" (2 اخبار الأيام 18:8، 1 ملوك 26:9، 28، 11:10).

وقد زاد دخل الملك وعدد كبير من رعاياه. ولكن ما أفدح الثمن الذي دفعوه. لقد أهمل عدد غفير جداً ممن كانوا يسافرون في الطرق العامة. وظلّوا على جهلهم بالرب بسبب جشع وقصر نظر من أودعت بين أيديهم أقوال الله.

ولكن الطريق الذي انتهجه المسيح عندما كان على الأرض كان على نقيض كبير لذاك الذي سار فيه سليمان. لم يستخدم المخلّص سلطانه في تعظيم ذاته مع أنه كان قد دُفع إليه كل سلطان ولم يكن يحلم قط بفتوحات دنيوية أو عظمة عاليمة. لا شيء من ذلك كلّه تمكّن من إفساد كمال خدمته لأجل بني الإنسان. فقد قال: "للثعالب أوجرة ولطيور السماء أوكار وأما ابن الإنسان فليس له أين يسند رأسه" (متى 20:8). والذين دخلوا في خدمة المبدع السيّد استجابة لنداء [60] الساعة يحسن بهم أن يدرسوا وسائله وطرقه. لقد أحسن يسوع استخدام الفرص التي توفّرت له في الطريق العام للسفر ومن كانوا يسافرون عليه.

لقد سكن يسوع أيام تنقلاته من مكان إلى آخر في كفرناحوم التي عرفت على أنّها "مدينته" (متى 1:9). فإذ كانت واقعة على الطريق العام الذي يربط بين دمشق وأورشليم ومصر والبحر الأبيض المتوسط كانت مدينة مناسبة كمركز عمل المخلّص. لقد مرّ أناس من بلدان كثيرة عبر المدينة أو مكثوا فيها لبعض الوقت للراحة. وهناك تقابل يسوع مع الناس من كل الأمم والطبقات، وحملت تعاليمه إلى بلدان أخرى ودخلت إلى عائلات كثيرة. بهذه الوسيلة استيقظ الإهتمام بالنبوّات التي تشير إلى المستقبل، إلى المسيّا، فاتّجه الإنتباه إلى المخلّص وقُدّمت رسالته للعالم.

ونجد في يومنا هذا أن الفرص للاحتكاك بالرجال والنساء من كل الطبقات والجنسيات كثيرة بل هي أكثر بكثير مما كانت في الأيام القديمة. فالطريق العامة للسفر زادت ألف ضعف.

وكما كان المسيح ينبغي لرسل العلي أن يتّخذوا مواقعهم في الطرق العمومية حيث يمكنهم أن يلتقوا بجماهير الناس العابرين من كل أرجاء العالم. وإذ يخفون الذات في الله كالمسيح عليهم أن يُلقوا بذار الإنجيل ويزرعوا الكلمة ويقدّموا للآخرين الحقائق الثمينة من الكتب المقدّسة التي تترسخ في العقل والقلب وتنمو للحياة الأبدية.

الدروس التي نتعلمها من إخفاق شعب الله في السنين التي فيها انحرف الملك والشعب عن غايتهم السامية التي دعوا لتحقيقها، هي دروس خطيرة. ففيما كانوا ضعفاء إلى حد الفشل، يتعيّن على شعب الله اليوم الذين هم نوّاب السماء [61] والذين يكوّنون كنيسة المسيح الحقيقية أن يكونوا أقوياء، لأنه على عاتقهم يقع أمر تكملة العمل الذي أسند إلى الإنسان وأن يعلنوا عن قدوم يوم الجزاء الأخير. ومع ذلك فإنّ التأثيرات ذاتها التي انتصرت على شعب الله إبّان حكم سليمان، ينبغي منازلتها اليوم. فقوّات عدو كل بر محصّنة تحصيناً قوياً ولا يمكننا الانتصار عليها إلا بقوة الله والصراع الذي أمامنا يستدعي تدريب روح

إنكار الذات وعدم الثقة بالنفس بل الإعتماد على الله وحده واستخدام كل فرصة لربح النفوس وتخليصها استخداماً حكيماً. إن بركة الله ستحلّ على كنيسته عندما يتقدّم أفرادها متحدين ويكشفون لعالم قابع في ظلمة الضلال مجال القداسة كما يبدو جلياً في روح التضحية المسيحية، وفي تعظيم الأمور الإلهية أكثر من البشرية، وفي خدمة المحبّة التي لا تكل للذين هم في أشد الحاجة إلى بركات الإنجيل. [62]

الفصل الخامس ـــ توبة سليمان

لقد ظهر الرب لسليمان مرتين في خلال سني ملكه كما أسمعه كلام المديح والنصح ـــ أولاً في رؤيا الليل في جبعون عندما كان الوعد بالحكمة والغنى والكرامة مصحوباً بالإنذار ليظلّ متواضعاً ومطيعاً، وثانياً بعد تدشين الهيكل عندما أوصاه الرب مرة أخرى أن يكون أميناً. كانت الإنذارات واضحة والمواعيد عجيبة ومدهشة. مع هذا فإن ذاك الذي بدا أنه مؤهل لكي يتنبه إلى الوصيّة ويحقّق كل توقّعات السماء في ظروفه وصفاته وحياته كُتبَ عنه هذا القول: "لم يحفظ ما أوصى به الرب". "قلبه مال عن الرب إله إسرائيل الذي تراءى له مرتين وأوصاه في هذا الأمر أن لا يتبع آلهة أخرى" (1 ملوك 11:9، 10). كان ارتداده كاملاً وتقسّى قلبه جداً في العصيان بحيث بدا كأن حالته تكاد تكون ميئوساً منها.

انحرف سليمان عن الشركة المُفرحة مع الله ليبحث عن الشبع الزائف في المسرّات الحسيّة. وقد كتب عن هذا الإختبار يقول: "عظّمت عملي. بنيت لنفسي بيوتاً غرست لنفسي كروماً. عملت لنفسي جنات وفراديس .. قنيت عبيداً وجواري .. جمعت لنفسي أيضاً فضّة وذهباً وخصوصيات الملوك والبلدان. اتّخذت لنفسي مغنين ومغنيات وتنعمات بني البشر سيدة وسيدات. فعظمت وازددت أكثر من جميع الذين كانوا قبلي في أورشليم .." [63]

"ومهما اشتهته عيناي لم أمسك عنهما. لم أمنع قلبي من كل فرح لأن قلبي فرح بكل تعبي .. ثم التفت أنا إلى كل أعمالي التي عملتها يداي وإلى التعب الذي تعبت في عمله فإذا الكل باطل وقبض الريح ولا منفعة تحت الشمس".

ثم التفت لأنظر الحكمة والحماقة والجهل. فما الإنسان الذي يأتي وراء؟ الذي قد نصبوه منذ زمان .. فكرهت الحياة .. كرهت كلّ تعبي الذي تعبت فيه تحت الشمس" (جامعة 2:4 ـــ 18).

تعلم سليمان من واقع اختباره المرير زيف الحياة التي تطلب في الأرضيات خيرها الأعظم والأسمى. فأقام مذابح للألهة الوثنية، إنما لكي يعلم خذلان وعودها بالراحة للنفس. وقد تضايقت روحه ليلاً نهاراً من الأفكار الكئيبة المزعجة. ما عاد يجد بهجة في الحياة ولا سلاماً لعقله، أما المستقبل فقد اكتنفته ظلمة اليأس.

مع ذلك فالرب لم يتركه. فبواسطة رسائل التوبيخ والأحكام القاسية أراد الله أن يوقظ الملك ليتأكد من شر الطريق الذي سار فيه. فقد أبعد عنه رعايته الحافظة وسمح للخصوم أن يزعجوا المملكة ويُضعفوها: "وأقام الرب خصماً لسليمان هدد الأدومي .. وأقام الله له خصماً آخر رزون .. رئيس غزاة" ـــ الذي "كره إسرائيل وملك على أرام. ويربعام .. عبد لسليمان" "جبار بأس" "رفع يده على الملك" (1 ملوك 11:14 ـــ 28).

أخيراً أبلغ الرب سليمان على لسان أحد الأنبياء الرسالة المفزعة القائلة: "من أجل أن ذلك عندك ولم تحفظ عهدي وفرائضي التي أوصيتك بها فإني أمزق المملكة عنك تمزيقاً وأعطيها لعبدك. إلا أني لا أفعل ذلك في أيامك من أجل داود أبيك بل من يد ابنك أمزقها" (1 ملوك 11:11، 12). [64]

فإذ صحا سليمان كما من حلم لدى سماع قضاء الله الذي حكم به عليه وعلى بيته، استيقظ ضميره

وابتدأ يرى حماقته في نورها الحقيقي. فإذ كان معذب النفس وقد أصاب عقله وجسمه الوهن والضعف، فقد انصرف مُتعباً وظامئاً عن آبار الأرض المشققة ليشرب مرة أخرى من نبع ماء الحياة. وقد أنجز الألم أخيراً مهمّته في حياة سليمان بتقويم اعوجاجه بعد أن طال أمد انزعاجه إذ كان يخاف من الهلاك التام بسبب عجزه عن الرجوع عن حماقاته. أما الآن فهو يرى في الرسالة المقدمة إليه قبساً من نور الرجاء. فالله لم يستأصله نهائياً بل وقف مستعداً لإنقاذه من عبودية أقسى من الهاوية، تلك التي لم تكن لديه قوة للتحرر منها.

اعترف سليمان شاكراً قوة ورأفة ذاك الذي هو "الأعلى" (جامعة 8:5)، وبدأ في توبة وانسحاق يتتبّع الخطوات صوب ذاك المستوى السامي من النقاوة والقداسة الذي سقط منه ذلك السقوط الشائن. فهو لم يكن يتوقّع قط أن ينجو من نتائج الخطيئة المدمّرة. ولم يستطع التخلّص من ذكرى طريق الانغماس في الملذّات الذي سلكه، لكنّه سعى باجتهاد في رد الآخرين عن اتباع طريق الحماقة. أراد أن يعترف باتّضاع بأنه كان سائراً في طريق الضلال، وأن يرفع صوته محذراً لئلا يهلك غيره هلاكاً لا يجبر بسبب القدوة الشريرة التي وضعتها أمام الناس وتصرّفاته الشائنة.

التائب الحقيقي لا يحاول تناسي خطاياه السالفة أو يكون عديم الإكتراث تجاه معاصيه التي ارتكبها حالما يحصل على السلام. لكنّه يفكر في الذين انساقوا في طريق الشر بسبب سوء مسلكه ويحاول أن يردّهم إلى طريق الحق بكل وسيلة ممكنة. وكلّما زاد بهاء النور الذي حصل عليه زاد شوقه لإقناع الآخرين بالسير [65] في طريق الحق والصواب. أنه لا يحاول تمويه طريق الضلال الذي سلكه للتقليل من شأن خطئه، لكنه يرفع شارة الخطر لتحذير الآخرين.

وقد اعترف سليمان بأن: "قلب بني البشر ملآن من الشر والحماقة" (جامعة 3:9), ثم أعلن قائلاً: "لأن القضاء على العمل الرديء لا يجري سريعاً، فلذلك قد امتلأ قلب بني البشر فيهم لفعل الشر. الخاطئ وأن عمل شراً مئة مرة وطالت أيامه إلا أني أعلم أنه يكون خير المتقين لله الذين يخافون قدامه. ولا يكون خير للشرير وكالظل لا يطيل أيامه لأنه لا يخشى قدام الله" (جامعة 11:8 — 13).

وسجل الملك تاريخ سنّيه التي ذهبت هدراً بروح الإلهام لتكون عبرة للأجيال القادمة، بما فيها من دروس وعبر. ومع أن شعبه حصد البذار الذي زرعها سليمان شراً ومراراً إلا أن عمل حياته لم يُضع كلياً. فقد علّم الشعب في أواخر سنّيه، بكل وداعة ومسكنة: "علماً ووزن وبحث وأتقن أمثالاً كثيرة" "وطلب أن يجد كلمات مسرّة مكتوبة بالاستقامة كلمات حق". وقال "كلام الحكماء كالمناسيس وكأوتاد منغرزة أرباب الجماعات قد أعطيت من راع واحد. وبقى فمن هذا يا إبني تحذر" (جامعة 9:12 — 12).

وكتب يقول: "فلنسمع ختام الأمر كله. اتّق الله واحفظ وصاياه لأن هذا هو الإنسان كله (واجب الإنسان كله). لأن الله يُحضر كل عمل إلى الدينونة على كل خفي إن كان خيراً أو شراً" (جامعة 13:12، 14).

تكشف كتابات سليمان التي سطّرها فيما بعد عن حقيقة كونه عندما تحقق من شر مسلكه اهتم اهتماماً خاصاً بإنذار الشباب من السقوط في الأخطاء التي ساقته إلى تبديد أثمن هبات السماء في الأباطيل. فاعترف بحزن وخزي أنه ارتدّ عن [66] نور السماء وحكمة الله في بكور رجولته حين كان يجب عليه أن يجد في الله عزاءه وعونه وحياته، واستعاض عن عبادة الرب بعبادة الأوثان. والآن فبعدما تعلّم عن طريق الاختبار المرير حماقة مثل تلك التصرفات أصبح يتحرّق شوقاً لإنقاذ الآخرين من الاجتياز في الاختبار المر الذي مر هو فيه.

فبتأثر عميق كتب عن الامتيازات والتبعات الموضوعة أمام الشباب في خدمة الرب يقول: "النور حلو وخير للعينين أن تنظر الشمس. لأنه إن عاش الإنسان سنين كثيرة فليفرح فيها كلها وليتذكر أيام

الظلمة لأنها تكون كثيرة، كل ما يأتي باطل. إفرح أيها الشاب في حداثتك وليسرك قلبك في أيام شبابك واسلك في طرق قلبك وبمرأى عينيك واعلم أنه على هذه الأمور كلها يأتي بك الله إلى الدينونة. فانزع الغم عن قلبك وأبعد الشر عن لحمك لأن الحداثة والشباب باطلان" (جامعة 7:11 — 10).

فاذكر خالقك في أيام شبابك قبل أن يأتي أيام الشر أو تجيء السنون إذ تقول ليس لي فيها سرور. قبلما تُظلم الشمس والنور والقمر والنجوم وترجع السحب بعد المطر. في يوم يتزعزع فيه حفظه البيت وتتلوى رجال القوة. تبطل الطواحن لأنها قلت وتظلم النواظر من الشبابيك وتغلق الأبواب في السوق حين ينخفض صوت المطحنة ويقوم لصوت العصفور وتحط كل بنات الغناء. وأيضاً يخافون من العالي وفي الطريق أهوال. واللوز يزهر والجندب يستثقل والشهوة تبطل لأن الإنسان ذاهب إلى بيته الأبدي والنادبون يطوفون في السوق. قبل ما ينفصم حبل الفضّة أو ينسحق كوز الذهب أو تنكسر الجرة على العين أو تتقصف البكرة عند البئر. فيرجع التراب إلى الأرض كما كان وترجع الروح إلى الله الذي أعطاها" (جامعة 1:12 — 7). [67]

حياة سليمان مليئة بالإنذارات، ليس للشباب وحدهم بل أيضاُ للمتقدمين في السن الذين بدأوا ينحدرون من فوق قمة الحياة ويواجهون الشمس في غروبها. إننا نرى ونسمع عن التقلقل وعدم الثبات لدى الشباب — فالأحداث يتأرجحون بين الصواب والخطأ وهم يدركون أن تيار الشهوات الشريرة أقوى من أن يستطيعوا صدّه. أما الذين اكتمل نموّهم فإننا لا ننتظر أن نرى فيهم مثل هذا الموقف من عدم الثبات والأمانة، بل نتوقع أن تكون أخلاقهم ثابتة راسخة ومبادئهم قويمة. ولكن هذا لا يصدق دائماً. ففي حين كان يجب أن يكون خلق سليمان متيناُ كشجرة البلّوط فقد سقط من ثباته تحت ضغط التجربة. وحين كان يجب أن تكون قوته في عنفوانه كان في أشد حالات الضعف.

علينا أن نتعلم من هذه الأمثلة أن سلامة الشباب والكبار يضمنها السهر والصلاة. فالسلامة والاطمئنان لا ينحصران في المراكز السامية والامتيازات العظيمة. قد يظلّ أي إنسان مستمتعاً باختبار مسيحي حقيقي سنوات طويلة ومع ذلك فقد يظلّ معرضاً لهجمات الشيطان. لقد انهزم حتى سليمان الحكيم القوي نفسه في حربه ضد الخطيئة من الداخل والتجربة من الخارج. ونحن نتعلم من فشله أنه مهما تكون قوى الإنسان الذهنية ومهما تكن عظمة الأمانة التي خدم الله بها فيما مضى، فإنه لا يمكنه أن يأمن على سلامته استناداً على حكمته واستقامته.

نجد في كل عصر وقطر أن الأساس والنموذج لبناء الخلق هما ذاتهما لم يتغيّرا. إن القانون الإلهي القائل: "تُحب الرب إلهك من كل قلبك .. وقريبك مثل نفسك" (لوقا 27:10) هو المبدأ العظيم الذي ظهر جليًّا في صفات مخلّصنا وحياته، وهو الأساس الوحيد الوطيد والمرشد الأمين "فيكون أمان أوقاتك وفرة خلاص وحكمة معرفة. مخافة الرب هي كنزه")إشعياء 6:33) إنها الحكمة والمعرفة اللتين لا يمكن نيلهما من غير كلمة الله. [68]

إنه حق الآن كما كان حقاً عندما تكلم موسى بهذه الأقوال في مسامع الشعب عن الطاعة لوصايا الرب: "لأن ذلك حكمتكم وفطنتكم أمام أعين الشعوب" (تثنية 6:4). هذا هو الواقي الوحيد للاستقامة الشخصية ولنقاوة البيت وخير المجتمع واستقرار الأمة. ففي وسط كل الأمور المربكة في الحياة وفي وسط المخاطر والمطالب المتضاربة، فالقانون الوحيد الأكيد الأمين هو أن نفعل ما يقوله الله: "وصايا الرب مستقيمة" و "الذي يصنع هذا لا يتزعزع إلى الدهر" (مزمور 8:19، 5:15).

الذين يلتفتون إلى إنذار سليمان بخصوص إرتداده لا بد أنهم سيرفضون أول بوادر الخطايا التي غلبته ويهربون منها. إن الطاعة لمطالب السماء هي وحدها التي تحفظ الناس من الارتداد. لقد منح الله الإنسان نوراً عظيماً وبركات عديدة ولكن ما لم يسترشد الإنسان بهذا النور ويعي هذه البركات فإنها لن تكون درعاً

يقيه من شر العصيان والارتداد. فعندما يرتدّ أولئك الذين ارتفعوا إلى مراكز ذات مسؤولية، عن الله إلى الحكمة البشرية فنورهم يُمسي ظلاماً. والإمكانات الموضوعة بين أيديهم تصير شركاً لهم وسيظل يوجد حتى انتهاء الصراع من يرتدّون عن الله. والشيطان سيهيء الظروف لإضعاف استحكامات النفس دون أن نشعر ما لم تحفظنا قدرة الله. نحتاج في كل خطوة نخطوها أن نسأل أنفسنا قائلين: "هل هذه هي طريق الرب؟" فطالما نحن باقون على قيد الحياة سنكون بحاجة إلى حراسة ميولنا وعواطفنا وشهواتنا بعزيمة قوية. إننا لا نؤمّن على نفوسنا [69] لحظة واحدة إلا على قدر ما نعتمد على الله وعلى قدر ما تكون حياتنا مستترة مع المسيح. إن السهر والصلاة هما الحارسان للنقاوة.

كل من يدخلون مدينة الله لا بد أن يدخلوا من الباب الضيق بصراع ومجهود مضني ومؤلم: "ولن يدخلها شيء دنس" (رؤيا 27:21). ولكن لا حاجة للذين سقطوا أن يستسلموا لليأس. فالرجال المتقدمون في السن الذين قد أكرمهم الله قبلئذ، ربما يكونون قد نجسوا نفوسهم مضحّين بالفضيلة على مذبح الشهوات، ولكن إذا تابوا وتركوا خطاياهم ورجعوا إلى الله فلهم رداء بعد. فذاك الذي يعلن قائلاً: "كن أميناً إلى الموت فسأعطيك إكليل الحياة" (رؤيا 10:2) يقدم أيضاً الدعوة التالية: "ليترك الشرير طريقه ورجل الإثم أفكاره وليتب إلى الرب فيرحمه وإلى إلهنا لأنه يكثر الغفران" (إشعياء 7:55).

إن الله يبغض الخطيئة ولكنه يحب الخاطيء. وهو يعلن قائلاً: "أشفي ارتدادهم. أحبهم فضلاً" (هوشع 4:14).

كانت توبة سليمان خاصّة، ولكن الضرر الذي أحدثه سوء مثاله في عمل الشر لم يكن ممكناً تلافيه. ففي إبّان ارتداده وُجد في المملكة قوم ظلوا أمناء على ودائعهم الروحية محتفظين بنقاوتهم وولائهم. ولكن كثيرين ضلوا ولم يكن من السهل على الملك التائب أن يوقف الشر الذي ظلّ يعمل عمله المدمر بواسطة إدخال الوثنية والممارسات الدنيوية، عند حده. لقد ضعف تأثيره إلى حد كبير. وقد تردد كثيرون في الركون إلى قيادته ركوناً كاملاً. ومع أن الملك اعترف بخطيئته وكتب بياناً عن حماقته وتوبته لفائدة الأجيال القادمة، فلم يكن يأمل قط في ملاشاة الأثر الوبيل لأعماله الشريرة بالتمام. وكثيرون من الشعب ظلوا يرتكبون الشر والشر وحده. إذ جرأهم ارتداد الملك على ذلك. وفي الطريق [70] المنحدر الذي سار فيه العديد من الحكام الذين تمثلوا به يمكن تتبّع الآثار المحزنة الناشئة عن سوء استخدام سليمان للقوى الموهوبة له من الله.

إذ كان سليمان يتعذب من ذكريات شر طريقه، تلك الذكريات المريرة، التزم أن يعلن قائلاً: "الحكمة خير من أدوات الحرب. أما خاطئ واحد فيفسد خيراً جزيلاً"، "يوجد شر رأيته تحت الشمس كسهو صادر من قبل المتسلط. الجهالة جعلت في معالي كثيرة".

الذباب الميت ينتن ويخمر طيب العطار. جهالة قليلة أثقل من الحكمة ومن الكرامة" (جامعة 18:9، 5:10، 6، 1).

ومن بين الدروس الكثيرة التي يمكننا أن نتعلمها من حياة سليمان نجد أن الدرس الذي يشدد عليه بأكثر تأكيد هو قوة التأثير سواء كان للخير أو للشر. و مهما كان محيطنا سيئاً ستظل لنا تأثيراتنا للخير والسعادة أو للويل والشقاء. فمن دون علمنا أو سيطرتنا نحن نؤثر على الآخرين إما بالبركة أو باللعنة. قد يكون تأثيرنا مثقلاً بظلام التذمر والأنانية أو مسمماً بلطخة مميتة لخطية محبّبة، أو قد يكون مشحوناً بقوة الإيمان المانحة الحياة والشجاعة والرجاء ومعطراً بشذا المحبة ولكنه لا بد أن يكون قوياً إما للخير أو للشر.

كون تأثيرنا يثير رائحة موت لموت فذلك فكر مرعب ومع ذلك فهو ممكن. نفس واحدة إذ تضل تخسر الغبطة الأبدية ـــ آه! من يستطيع تقدير تلك الخسارة الفادحة ـــ ومع ذلك فأن عملاً طائشاً أو كلمة

واحدة ننطق بها دون تفكير قد تحدث أثراً عميقاً في حياة إنسان آخر يفضي إلى هلاك نفسه. إن عيباً واحداً في الخلق قد يضل كثيرين فيبعدهم عن المسيح [71]

يُنتج البذار إذ يزرع في الأرض حصاداً، وهو بدوره يُزرع من جديد فيتضاعف الحصاد. هذا القانون يصدق علينا في علاقتنا بالآخرين. فكل كلمة وكل عمل هو بذرة لا بد أن تؤتي ثمارها. وكل عمل من أعمال الرأفة والطاعة وإنكار الذات لا بد أن يتوالد ويتكاثر في حياة الناس، وهم طريقهم يتكاثر في حياة قوم آخرين. وكذلك كل عمل من أعمال الحقد أو الخبث أو الخصام هو بذار لا بد أن يطلع "أصل مرارة" (عبرانيين 15:12) يتنجس به كثيرون. وما أكثر عدد الأشخاص الذين يسمم أولئك "الكثيرون" حياتهم. وهكذا يظل زرع الخير والشر مدى الحياة وإلى الأبد. [72]

الفصل السادس ـــ انقسام المملكة

"ثم اضطجع سليمان مع آبائه ودفن في مدينة داود أبيه وملك رحبعام ابنه عوضاً عنه" (1 ملوك 43:11).

حالما اعتلى رحبعام العرش ذهب إلى شكيم حيث كان ينتظر أن يحظى باعتراف رسمي به من قبل جميع الأسباط: "جاء إلى شكيم كل إسرائيل ليملكوه" (2 أخبار الأيام 1:10).

كان من بين الذين حضروا يربعام بن نباط، الذي في إبّان حكم سليمان كان معروفاً بأنه "جبار بأس"، الذي أبلغه النبي أخيّا الشلوني الرسالة المفزعة القائلة: "هأنذا أمزّق المملكة من يد سليمان وأعطيك عشرة أسباط" (1 ملوك 28:11، 31).

وقد كلم الرب يربعام بكل جلاء على لسان رسوله بخصوص لزوم تقسيم المملكة. وأعلن قائلاً إن هذا التقسيم لا بد منه "لأنهم تركوني وسجدوا لعشتروت إلهة الصيدونيين ولكموش إله المؤابيين ولملكوم إله بني عمون ولم يسلكوا في طرقي وليعلموا المستقيم في عيني وفرائضي وأحكامي كداود" (1 ملوك 33:11).

وقد قيل ليربعام أيضاً أن المملكة لن تُقسّم قبل نهاية ملك سليمان. وأعلن الرب قائلاً: "ولا آخذ كل المملكة من يده بل أصيره رئيساً كلّ أيام حياته لأجل [73] داود عبدي الذي اخترته الذي حفظ وصاياي وفرائضي. وآخذ المملكة من يد ابنه وأعطيك إياها أي الأسباط العشرة" (1 ملوك 34:11، 35).

مع أن سليمان تاق إلى إعداد رحبعام خليفته المختار، ليواجه بحكمة الأزمة التي سبق نبي الله فأنبأه بها، إلا أنه لم يستطع بذل جهد أو تأثير قوي لتوجيه عقل ابنه نحو الخير والصلاح. ذلك الإبن الذي أهملت تربيته في صغره إهمالاً فاضحاً، علاوة على أنه أخذ عن أمه المّونية طابع الذبذبة والتردد في خلقه. فهو يحاول أن يخدم الله في بعض الأحيان فنال قدراً من النجاح، ولكنه

لم يكن ثابتاً، وأخيراً استسلم للمؤثرات الشريرة التي أحاطت به منذ طفولته وفي حياة رحبعام الخاطئة وارتداده النهائي تنكشف أمامنا النتيجة الرهيبة لزواج سليمان من نساء وثنيات.

ظلت الأسباط أمداً طويلاً تعاني من المظالم المحزنة بسبب الإجراءات التعسفية التي فرضها الملك السابق. لقد قاد الإسراف الذي تورط فيه سليمان إبّان حكمه حين ارتدّ عن الرب إلى فرض ضرائب فادحة على الشعب كما طلب إليهم القيام بكثير من الخدمات الوضيعة. فقبل الشروع في تتويج ملك جديد عوّل رؤساء الشعب من كل الأسباط على التأكّد ما إذا كان رحبعام ينوي التخفيف من هذه الأعباء أم لأ: "فأتى يربعام وكل الشعب وكلّموا رحبعام قائلين إن أباك قسّى نيرنا فالآن خفّف من عبودية أبيك القاسية ومن نيره الثقيل الذي جعله علينا فنخدمك".

فإذا كان رحبعام يرغب في استشارة مشاريه قبلما يرسم سياسته أجابهم قائلاً: "ارجعوا إلي بعد ثلاثة أيام. فذهب الشعب". [74]

"فاستشار الملك رحبعام الشيوخ الذين كانوا يقفون أمام سليمان أبيه وهو حيّ قائلاً كيف تشيرون أن

أردّ جواباً على هذا الشعب؟ فكلّموه قائلين إن كنت صالحاً نحو هذا الشعب وأرضيتهم وكلّمتهم حسناً يكونون لك عبيداً كل الأيام" (2 أخبار الأيام 3:10، 7).

فإذ لم يقتنع رحبعام بهذه المشورة اتّجه إلى الأحداث الذين كان يصاحبهم في شبابه ورجولته الباكرة وسألهم: "بماذا تشيرون أنتم فنرد جواباً على هذا الشعب الذين كلّموني قائلين خفّف من النير الذي جعله علينا أبوك" (1ملوك 9:!2). فاقترح الأحداث على الملك أن يعامل رعايا مملكته بالقسوة والصرامة ويجعل الأمر واضحاً أمامهم أنّه منذ البدء لن يسمح بتدخل أي إنسان في سياسته الخاصة ورغباته.

إغتر رحبعام بأمل ممارسة السلطة فعوّل على رفض مشورة الشيوخ في مملكته واعتمد مشورة الأحداث. وفي اليوم المحدد عندما "جاء يربعام وجميع الشعب إلى رحبعام" في انتظار بيان منه عن السياسة التي قصد أن ينتهجها: "أجاب الملك (رحبعام) الشعب بقساوة .. قائلاً أبي ثقّل نيركم وأنا أزيد على نيركم. أبي أدبكم بالسياط وأنا أؤدبكم بالعقارب" (1 ملوك 12:12 — 14).

لو فهم رحبعام ومشيروه غير المحنكين إرادة الله نحو الشعب، لأصغوا إلى طلبهم في إجراء إصلاحات حاسمة في إدارة دقّة الحكم. لكنهم لم يُحسنوا استغلال الفرصة التي سنحت لهم عند اجتماعهم في شكيم في تقصّي الأمر من السبب إلى النتيجة، وبذلك أضعفوا نفوذهم إلى الأبد على عدد غفير من الشعب. فتصميمهم الذي أعلنوا عنه في إبقائهم على الظلم الذي تفشّى إبّان مُلك سليمان وأنهم سيزيدون عليه هو على نقيض خطّة الله لأجل شعبه مما [75] أعطاهم مجالاً واسعاً للشك في خلوص نيتهم. كشف الملك ومستشاروه الأصفياء عن كبرياء المركز والسيادة في هذه المحاولة الطائشة عديمة الشعور لاستخدام القوة.

لم يسمح الرب لرحبعام بتنفيذ السياسة التي رسمها. كان من بين الأسباط آلاف ممن أثارتهم الإجراءات التعسفية التي حدثت في إبّان حكم سليمان. وقد أحسّ هؤلاء الآن أنّه لا يسعهم إلّا التمرد على بيت داود: "فلما رأى كل الشعب أن الملك لم يسمع لهم رد الشعب جواباً على الملك قائلين، أيّ قسم لنا في داود؟ ولا نصيب لنا في ابن يسى. فإلى خيامك يا إسرائيل. الآن أنظر إلى بيتك يا داود. وذهب الشعب إلى خيامهم" (1 ملوك 16:12).

لقد برهن الإنشقاق الذي أحدثه كلام رحبعام الذي نطق به في غير تعقّل أو تروّ أنه لا يمكن إصلاحه. فانقسمت أسباط إسرائيل الاثنا عشر من ذلك اليوم. فكوّن سبطا يهوذا وبنيامين مملكة يهوذا الجنوبية وعلى رأسها الملك رحبعام أما العشرة الأسباط الأخرى فتكوّنت منها مملكة منفصلة قائمة بذاتها عُرفت بمملكة إسرائيل الشمالية وعلى رأسها الملك يربعام. وبذلك تمّت نبوة النبي الخاصة بانقاسام المملكة: "لأن السبب كان من قِبل الرب" (1 ملوك 15:12).

وعندما رأى رحبعام الأسباط العشرة يسحبون ولاءهم منه حزم أمره للشروع في العمل. فبذل الملك بواسطة أحد الرجال ذوي النفوذ في مملكته هو "ادورام الذي على التسخير" مسعى للصلح معهم. ولكن ذلك السفير الذي أتى للسلام "رجمه جميع إسرائيل بالحجارة فمات". وفي معاملة برهنت على شدة كراهيتهم لرحبعام. فإذ فزع الملك بسبب هذا الدليل على قوة الثورة "بادر رحبعام وصعد إلى المركبة ليهرب إلى أورشليم" (1 ملوك 15:12، 18). [76]

وفي أورشليم "جمع كلّ بيت يهوذا وسبط بنيامين مئة وثمانين ألف مختار محارب ليحاربوا بيت إسرائيل ويردّوا المملكة لرحبعام بن سليمان. فكان كلام الله إلى شمعيا رجل الله قائلاً كلّم رحبعام بن سليمان ملك يهوذا وكل بيت يهوذا وبنيامين وبقية الشعب قائلاً هكذا قال الرب لا تصعدوا ولا تحاربوا اخوتكم بني إسرائيل. ارجعوا كل واحد إلى بيته لأن من عندي هذا الأمر. فسمعوا لكلام الرب ورجعوا لينطلقوا حسب قول الرب" (1 ملوك 21:12 — 24).

حاول رحبعام لمدى ثلاث سنوات الانتفاع من هذا الاختبار المحزن الذي صدمه في بدء حكمه. وقد نجح في هذا المسعى "فبنى مدناً للحصار في يهوذا" "وشدّد الحصون وجعل فيها قادة وخزائن مأكل وزيت خمر". كما حرص على تحصين هذه المدن "وشدّدها كثيراً جداً" (2 أخبار الأيام 5:11، 11، 12). إلا أن سر نجاح يهوذا في السنوات الأولى من ملك رحبعام لم يكن في هذه الإجراءات التي قام بها، بل بالاعتراف بالله بوصفه الحاكم الأعلى الذي وضع سبطي يهوذا وبنيامين في وضع ضمن لهما النجاح. وقد انضمّ إليهما كثيرون من الرجال الخائفين الله من الأسباط الشمالية. وقال الكتاب: "وبعدهم جاء إلى أورشليم من جميع أسباط إسرائيل الذين وجهوا قلوبهم إلى طلب إله إسرائيل ليذبحوا للرب إله آبائهم. وشدّدوا مملكة يهوذا وقووا رحبعام بن سليمان ثلاث سنين لأنهم ساروا في طريق داود وسليمان ثلاث سنين" (2 أخبار الأيام 16:11، 17).

لو ظلّ رحبعام سالكاً هذا الطريق، لضمن لنفسه فرصة يصلح فيها أخطاء الماضي إلى حد كبير ويستعيد الثقة في مقدرته على الحكم بفطنة. إلا أن قلم الوحي تتبّع تاريخ خليفة سليمان المحزن لكونه أخفق في بذل مجهود إضافي [77] للظفر بولاء الشعب للرب. كان بطبعه عنيداً وواثقاً في نفسه ميَّالا للوثنية، ومع ذلك فقد وضع كل ثقته في الله لما في قوة الخلق والإيمان المتين خاضعاً لأوامر الله ومطالبه. ولكن بمرور الزمن وضع الملك ثقته في قوة المركز والتحصينات التي أقامها. وأفسح المجال تدريجياً للضعف الموروث ليأخذ مجراه حتى ألقى بكل ثقله إلى جانب الوثنية: "ولما تثبّتت مملكة رحبعام وتشددت ترك شريعة الله هو و كل إسرائيل معه" (2 أخبار الأيام 1:12).

كم هو مؤلم القول وغني بالمعنى: "وكل إسرائيل معه" فالشعب الذي اختاره الله ليرسل نوراً إلى الأمم المحيطة ارتد عن نبع قوّته وجعل يحاول التشبه بالأمم من حولهم.

وكما كانت الحال مع سليمان كذلك مع رحبعام، فتأثير القدوة السيئة أضلّ كثيرين. وكما صدق هذا القوم عليهما فهو يصدق على الناس في أيامنا هذه إلى حد قليل أو كثير ويصدق على كل من يسلّم نفسه لفعل الشر — فتأثير عمل الشر لا ينحصر في فاعله. لا أحد يعيش لنفسه. ولا واحد يهلك وحده في إثمه. فحياة الإنسان إما أن تكون نوراً ينير ويبهج طريق الآخرين، أو أن تكون ذات تأثير مظلم ومدمر يفضي إلى اليأس والهلاك. فنحن نقود الآخرين إمّا إلى السعادة والخلود أو الحزن والموت الأبدي. وإذا كنا ندعم قوى الشر في حياة من حولنا أو نرغمها على ممارسة عملها الشرير بأعمالنا، فإننا بذلك نشارك الخطاة في خطيئتهم.

لم يسمح الله بأن يظل ارتداد ملك يهوذا دون قصاص. يقول الكتاب: "في السنة الخامسة للملك رحبعام صعد شيشق ملك مصر على أورشليم لأنهم خانوا [78] الرب بألف ومائتي مركبة وستين ألف فارس ولم يكن عدد الشعب الذين جاءوا معه من مصر .. وأخذ المدن الحصينة التي ليهوذا وأتى إلى أورشليم.

"فجاء شمعيا النبي إلى رحبعام ورؤساء يهوذا الذين اجتمعوا في أورشليم من وجه شيشق وقال لهم هكذا قال الرب أنتم تركتموني وأنا أيضاً تركتكم ليد شيشق" (2 أخبار الأيام 2:12 — 5).

لم يكن الشعب قد أوغل في ارتداده بحيث يحتقر أحكام الله. فلقد رأى في الخسائر التي حدثت نتيجة غزو شيشق أنها من الله واعترف بذلك، وتذلّل لبعض الوقت واعترف قائلاً: "بار هو الرب".

"فلما رأى الرب أنهم تذللوا كان كلام الرب إلى شمعيا قائلاً قد تذللوا فلا أهلكهم بل أعطيهم قليلاً من النجاة ولا ينصب غضبي على أورشليم بيد شيشق لكنهم يكونون له عبيداً ويعلمون خدمتي ممالك الأراضي.

فصعد شيشق ملك مصر على أورشليم وأخذ خزائن بيت الرب وخزائن بيت الملك. أخذ الجميع وأخذ أتراس الذهب التي عملها سليمان فعمل الملك رحبعام عوضاً عنها أتراس نحاس وسلّمها إلى أيدي رؤساء

الرُعاة الحافظين باب بيت الملك .. ولما تذلل ارتد عنه غضب الرب فلم يهلكه تماماً. وكذلك كان في يهوذا أمور حسنة" (2 أخبار الأيام 6:12 — 12).

ولكن عندما ارتفعت عنهم يد التأديب وأصابت الأمة نجاحاُ مرة أخرى، نسي كثيرون من الشعب مخاوفهم وارتدّوا إلى الوثنية ثانية. كان الملك رحبعام نفسه واحداً من هؤلاء. فمع أنه قد تذلّل بسبب الكارثة التي حلّت به فقد أخفق في جعل هذا الإختبار نقطة تحوّل حاسم في حياته. وإذ نسي الدرس الذي حاول [79] الله أن يعلّمه إيّاه فقد ارتدّ إلى الخطايا التي جلبت تلك الأحكام على الأمة. فبعد سنوات قليلة وشائنة من حكمه "عمل الشر لأنه لم يهيء قلبه لطلب الرب" و "اضطجع رحبعام مع آبائه ودفن في مدينة داود وملك أبيّا ابنه عوضاً عنه" (2 أخبار الأيام 14:12، 16).

بدأ مجد شعب الله يرحل بانقسام المملكة في بدء حكم رحبعام، على ألا يعود في ملئه مرة أخرى. وفي غضون القرون التي مرت بعد ذلك جلس على عرش داود رجال لهم قيمتهم الأدبية العظيمة وحكمتهم البعيدة النظر. تحت حكم هؤلاء الملوك فاضت البركات التي حلّت على رجال يهوذا وامتدت إلى الأمم المحيطة بهم. وفي بعض الأوقات كان الرب يتمجّد فوق كل الآلهة الكاذبة وكان الناس يحترمون شريعته. وبين وقت وآخر قام أنبياء أقوياء لتشديد أيدي الملوك وتشجيع الشعب على المداومة على الأمانة. لكن بذار الشر الذي كان قد نما وترعرع عندما اعتلى رحبعام العرش لم يكن من الممكن استئصاله تماماً. وفي بعض الأحيان انحطّ ذلك الشعب الذي كان قبلئذ محبوباً من الله وصار مثلاً وهزأة بين الوثنيين.

وبالرغم من الفساد الذي تفشّى في حياة من مالوا نحو الممارسات الوثنية، فالله في رحمته قصد أن يفعل ما في وسعه لإنقاذ المملكة المنقسمة من الهلاك التام. وعندما بدأ بمرور السنين وكأن قصد الله نحو شعبه قد تعطّل بسبب مكايد من كانت تحفزهم القوات الشيطانية، فقد أظهر مقاصده الخيّرة الرحيمة في أثناء سبي الأمة المختارة ورجوعها.

إن انقسام المملكة لم يكن إلا بدء تاريخ عجيب أُعلن فيه صبر الله وطول أناته ورحمته. فالذين أراد الله أن يطهّرهم لنفسه شعباً خاصاً غيوراً في أعمال [80] حسنة، في كور المشقة الذي كان عليهم أن يجوزوا فيه بسبب ميلهم الموروث والمكتسب لفعل الشر، كان لهم أن يعترفوا أخيراً قائلين: "لا مثل لك يا رب عظيم أنت وعظيم اسمك في الجبروت. من لا يخافك يا ملك الشعوب؟ .. لأنه في جميع حكماء الشعوب وفي كل ممالكهم ليس مثلك" "أما الرب الإله فحق. هو إله حي وملك أبدي" (إرميا 6:10، 10:7).

وكان سيتعلم عابدو الأوثان أخيراً هذا الدرس وهو إن الآلهة الكاذبة لا قدرة لها على السمو بالإنسان أو تخليصه: "الآلهة التي لم تصنع السموات والأرض تبيد من الأرض ومن تحت هذه السموات" (إرميا 11:10). إنما فقط في الولاء للإله الحي خالق الجميع وملك الجميع يمكن للإنسان أن يجد الراحة والسلام.

أما الذين وقع عليهم التأديب وتابوا من إسرائيل ويهوذا فجددوا عهد صلتهم برب الجنود إله آبائهم وأعلنوا عنه برأي واحد قائلين: "صانع الأرض بقوته مؤسس المسكونة بحكمته وبفهمه بسط السموات. إذا أعطى قولاً تكون كثرة مياه في السماوات ويصعد السحاب من أقاصي الأرض. صنع بروقاً للمطر وأخرج الريح من خزائنه. بلُد كل إنسان من معرفته. خزي كل صائغ من التمثال لأن مسبوكه كذب ولا روح فيه. هي باطلة صنعة الأضاليل. في وقت عقابها تبيد. ليس كهذه نصيب يعقوب لأنه مصور الجميع وإسرائيل قضيب ميراثه. رب الجنود اسمه" (إرميا 12:10 — 16). [81]

الفصل السابع—— يربعام

بعد أن تربّع يربعام الذي كان قبلاً عبداً لسليمان على عرش الأسباط العشرة الذين تمردوا على بيت داود كان في وضع يتيح له فرصة للقيام بإصلاحات في الشؤون المدنية والدينية. وقد أظهر مقدرة واستعداداً عظيمين تحت حكم سليمان. وأهّلته المعرفة التي حصل عليها في خلال سنّي خدمته الأمينة كي يحكم بتعقّل ودراية. ولكن يربعام لم يتّكل على الرب.

فأعظم ما كان يخشاه هو استمالة الملك الجالس على عرش داود في مستقبل الأيام قلوب رعاياه. فأخذ يفكّر قائلاً إنه إذا سمح للأسباط العشرة بزيارات متكرّرة لكرسي المملكة اليهودية القديم حيث ما تزال خدمات الهيكل تقام كما في أيام حكم سليمان، فقد يميل كثيرون لتجديد عهد ولائهم للحكومة التي مركزها أورشليم. فإذ استشار يربعام مشيريه عوّل على أن يضرب ضربة جريئة للتقليل قدر المستطاع من إمكانية قيام ثورة ضدّ حكمه. وهو سينفّذ هذا الأمر بتعيين مركزين للعبادة داخل تخوم مملكته المكوّنة حديثاً، أحدهما في بيت إيل وآخر في دان. وفي هذين المكانين كان يجب أن يدعي الأسباط العشرة للاجتماع، بدلاً من الذهاب إلى أورشليم لعبادة الله.

لقد فكر يربعام أن بتدبيره لهذا التحوّل فهو يلجأ إلى خيال الإسرائيليين بوضعه أمامهم شيئاً منظوراً يرمز إلى حضور الله غير المنظور. لذلك أمر بصنع [82] عجلين من ذهب وضعا في الهيكلين المحددين كمركزين للعبادة. وبهذه المحاولة التي قصد بها يربعام تصوير الله، انتهك أمر الرب الواضح القائل: ”لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً .. لا تسجد لهن ولا تعبدهن“ (خروج 2:4-، 5).

كان يربعام شديد الرغبة في الحيلولة بين العشرة الأسباط والذهاب إلى أورشليم بحيث غاب عن باله الضعف الأساسي في خطته. فهو لم يفكر في الخطر العظيم الذي عرض له الإسرائيليين بوضعه أمامهم تمثالاً لوثني في مكان الله. تلك التماثيل التي كانت مألوفة لدى أسلافهم في أثناء القرون التي كانوا فيها مُستعبدين في مصر. ولا بد أن يربعام تعلم عندما كان يعيش في مصر منذ عهد قريب حماقة وضع مثل هذه التماثيل أمام الشعب. ولكن قصده الذي أصر عليه في إغواء أسباط المملكة الشمالية للانقطاع عن الزيارة السنوية المقدسة قاده إلى أتخاذ مثل هذا الإجراء الذي هو في منتهى الحماقة والغباء. فقال للشعب: ”كثير عليكم أن تصعدوا إلى أورشليم. هوذا آلهتك يا إسرائيل الذين أصعدوك من أرض مصر“ (1 ملوك 28:12). وهكذا أُمروا بالسجود أمام عجل الذهب فقبلوا طقوساً غريبة للعبادة.

وحاول الملك إقناع بعض اللاويين الموجودين في مملكته أن يخدموا بوصفهم كهنة من الهيكلين المقامين حديثاُ في بيت إيل ودان، لكنه أخفق في مسعاه. فاضطر لأن يرفع درجة الكهنوت بعضاً ”من أطراف (أحطّ) الشعب“ (1 ملوك 31:12). فكثيرون من الأمناء من بينهم عدد غفير من اللاويين، إذ أفزعهم هذا المنظر، هربوا إلى أورشليم حيث يمكنهم أن يعبدوا الله وفقاً للمطالب الإلهية. [83]

”وعمل يربعام عيداُ في الشهر الثامن في اليوم الخامس عشر من الشهر كالعيد الذي في يهوذا وأصعد على المذبح. هكذا فعل في بيت إيل بذبحه للعجلين الذين عملهما. وأوقف في بيت إيل كهنة المرتفعات التي

عملها“ (1 ملوك 32:12).

إن تحدي الملك الجريء في نبذه للقوانين التي وضعها الله لم يسمح أن يمر دون توبيخ. ففيما كان يخدم ويحرق البخور في أثناء تدشين ذلك المذبح الغريب في بيت إيل، ظهر أمامه رجل الله من مملكة يهوذا مرسلاً إليه لينذره ويشجبه لكونه تجرأ بإدخاله على العبادة طقوساً جديدة. ”فنادى نحو المذبح .. وقال يا مذبح يا مذبح هكذا قال الرب هوذا سيولد لبيت داود ابن اسمه يوشيّا ويذبح عليه كهنة المرتفعات الذين يوقدون عليه وتُحرق عليك عظام الناس“.

”وأعطى في ذلك اليوم علامة قائلاً هذه هي العلامة التي تكلم بها الرب هوذا المذبح ينشق ويذّرى الرماد الذي عليه“. وفي الحال ”انشقّ المذبح وذُرى الرماد من على المذبح حسب العلامة التي أعطاها رجل الله بكلام الرب“ (1 ملوك 2:13، 3، 5).

فإذ رأى يربعام هذا امتلأ قلبه بروح التحدي لله وحاول إيقاف من قدّم تلك الرسالة عند حده. ففي غضبه ”مد يربعام يده عن المذبح قائلاً امسكوه“ فقوبل عمله المتهور بتوبيخ سريع. فيبست يده حالما مدها نحو رسول الرب وصارت عاجزة ولم يستطع ردها ثانية.

وتوسل الملك إذ شمله الرعب إلى النبي كي يتضرع إلى الله لأجله وقال له: ”تضرع إلى وجه الرب إلهك وصلّ من أجلي فترجع يدي إليّ. فتضرّع رجل الله إلى وجه الرب فرجعت يد الملك إليه وكانت كما في الأول“ (1 ملوك 6،13:4). [84]

عبثاً حاول يربعام أن يضفي على تدشين ذلك المذبح الغريب صفة الكرامة أو القداسة أو الاحترام الذي كان القصد منه جلب الاحتقار على عبادة الرب في هيكل أورشليم. كان ممكن أن تقود رسالة النبي ملك إسرائيل إلى التوبة ونبذ أغراضه الشريرة التي كانت ترمي إلى إبعاد الشعب عن العبادة الحقيقية لله. لكنه قسّى قلبه وصمم على اتّباع الطريق الذي اختاره لنفسه.

لم تكن قلوب الشعب في وقت ذلك العيد الذي أقيم في بيت إيل قد تقسّت تماماً. كثيرون كانوا قابلين لتأثير الروح القدس. فقد قصد الرب أن يتوقف الذين كانوا يسيرون نحو الارتداد بخطى سريعة عن متابعة السير قبل فوات الأوان. فأوفد رسوله لإيقاف الإجراءات الوثنية ولإنذار الملك والشعب بعواقب هذا الارتداد. كان انشقاق المذبح علامة سخط الله ضد هذا الرجس الذي يُصنع في وسط الشعب.

يطلب الرب أن يخلص لا أن يُهلك. إنه يسر بخلاص الخُطاة. وهو الذي قال: ”حي أنا يقول السيد الرب إني لا أسر بموت الشرير“ (حزقيال 11:33). فهو يدعو العصاة بإنذاراته وتوسلاته ليكفوا عن فعل الشر ويرجعوا إليه ليحيوا. إنه يعطي رسله المختارين جرأة مقدسة لكي يخاف سامعوهم ويتوبوا. بأي ثبات وشجاعة وبخ رجل الله الملك. كان هذا الثبات لازماً إذ لم يكن ممكناً أن يوبخ الله الشرور الراهنة توبيخاً فعالاً بغير هذه الوسيلة. لقد أعطى الرب لخادمه جرأة لكي يدوم تأثير رسالته في قلوب السامعين. ينبغي لرسل الرب ألا يخافوا وجه إنسان بل أن يثبتوا إلى جانب الحق بلا وجل. وطالما هم يثقون في الله لا يوجد ما يدعو إلى الخوف لأن ذلك الذي يرسلهم يعطيهم يقين رعايته الحافظة. [85]

بعدما انتهى النبي من تبليغ رسالته كان مزمعاُ على العودة من حيث أتى. وإذ يربعام يقول له: ”ادخل معي إلى البيت وتقوّت فأعطيك أجرة“. فأجابه النبي قائلا: ”لو اعطيتني نصف بيتك لا ادخل معك ولا آكل خبزاً ولا أشرب ماء في هذا الموضع لأني هكذا أُوصيت بكلام الرب قائلاً لا تأكل خبزاً ولا تشرب ماء ولا ترجع في الطريق الذي ذهب فيه“ (1 ملوك 7:13 — 9).

كان خيراً لذلك النبي لو التزم بعزمه للعودة إلى اليهودية بلا إبطاء. فإذ كان عائداُ إلى وطنه من طريق آخر لحق به رجل شيخ ادّعى أنه نبي. وقدم له تقريراً كاذباً يقول فيه: ”أنا أيضاً نبي مثلك وقد كلمني ملاك بكلام الرب قائلاً: ”ارجع به معك إلى بيتك فيأكل خبزاً ويشرب ماء“. فإذ ردد هذه الكذبة

مراراً وتكراراً وألح عليه في قبول دعوته اقتنع أخيراً بالعودة معه.

فلكون النبي الحقيقي سمح لنفسه باتّخاذ طريق مغاير لطريق الواجب سمح الله بأن يقع عليه قصاص العصيان. فإذ كان هو والنبي الذي دعاه للعودة إلى بيت إيل جالسين معاً على المائدة حلّ الوحي على النبي الكاذب: "فصاح إلى الرجل الذي جاء من يهوذا قائلاً هكذا قال الرب من أجل أنّك خالفت قول الرب ولم تحفظ الوصية التي أوصاك بها الرب إلهك .. لا تدخل جثتك قبر آبائك" (1 ملوك 18:13 — 22).

وسرعان ما تمت هذا النبوة حرفياً إذ يقول الكتاب: "ثم بعدما أكل خبزاً وبعد أن شرب شد له على الحمار .. وانطلق فصادفه أسد في الطريق وقتله وكانت جثته مطروحة في الطريق والحمار واقف بجانبها والأسد واقف بجانب الجثة. وإذا بقوم يعبرون فرأوا الجثة مطروحة في الطريق .. فأتوا وأخبروا في [86] المدينة التي كان النبي الشيخ ساكناً بها. ولما سمع النبي الذي أرجعه عن الطريق قال هو رجل الله الذي خالف قول الرب" (1 ملوك 23:13 — 26).

القصاص الذي أصاب الرسول غير الأمين كان برهاناً إضافياً على صدق النبوة التي قيلت على المذبح. فلو أن ذلك النبي سُمح له بالذهاب في طريقه بسلام بعدما خالف كلمة الرب لكان الملك يستخدم هذه الحقيقة محاولاً بها تزكية عصيانه. كان يجب أن يرى يربعام في المذبح الذي انشقّ وذراعه التي يبست، والمصير الرهيب الذي حل بمن تجرّأ على مخالفة أمر الرب الصريح، إن غضب الله السريع يحل على من يهينه. وكان ينبغي أن تكون هذه الأحكام رادعاً ليربعام يمنع من الإصرار في عمل الشر. ولكنه بدلاً من أن يتوب عاد "فعمل من أطراف الشعب كهنة المرتفعات". وهكذا لم يكتف بارتكاب خطايا عظيمة بنفسه بل "جعل إسرائيل يخطئ"، "وكان من هذا الأمر خطيئة لبيت يربعام وكان لإبادته وخرابه عن وجه الأرض" (1 ملوك 33:13، 34، 16:14).

أصيب الملك يربعام قرب نهاية حكمه المزعزع الذي دام اثنتين وعشرين سنة، بهزيمة ساحقة في حربه مع أبيّا خليفة رحبعام: "ولم يقو يربعام بعد في أيام أبيّا فضربه الرب ومات" (أخبار الأيام 20:13).

الارتداد الذي ابتدأ به حكم يربعام صار ظاهراً وتوضّحت معالمه تدريجياً حتى انتهى بخراب مملكة إسرائيل خراباً كاملاً. وحتى قبل موت يربعام أعلن أخيّا النبي الشيخ في شيلوه، والذي كان قد تنبأ قبل ذلك بسنوات طويلة، بارتقاء يربعام سدة الملك، قائلاً: "ويضرب الرب إسرائيل كاهتزاز القصب في الماء. ويستأصل إسرائيل عن هذه الأرض الصالحة التي أعطاها لآبائهم ويبدّدهم [87] إلى عبر النهر لأنهم عملوا سواريهم وأغاظوا الرب. ويدفع إسرائيل من أجل خطايا يربعام الذي أخطأ وجعل إسرائيل يخطئ" (1 ملوك 15:14، 16).

ومع ذلك فالرب لم يدفع شعبه إلا بعد أن عمل كل ما يمكن عمله لإعادتهم إلى حالة الولاء له. فلمدى سنوات طويلة مظلمة كان يقف ملك بعد آخر يتحدّى إله السماء لإسقاط شعب الله إلى أعماق الوثنية، كان الله يرسل إلى شعبه المرتد رسولاً بعد آخر ويفتقدهم برحمته. وقدم لهم بواسطة أنبيائه كل فرصة ممكنة لوقف تيار الارتداد والرجوع إليه. وفي غضون السنوات التي تلت انقسام المملكة عاش إيليّا وإليشع وخدما وتعبا وكانت دعوات الأنبياء هوشع وعاموس وعوبديا الرقيقة سيرنّ في الأرض صداها. لم تكن مملكة إسرائيلل لتُترك من دون شهود نبلاء على قدرة الله العظيمة للخلاص من الخطيئة. وحتى في أحلك الساعات ظلّ بعض الناس مخلصين أمناء لمليكهم الإلهي، وعاشوا في وسط الوثنية بلا لوم أمام الإله القدوس. هؤلاء حُسبوا ضمن البقية الصالحة الذين كان قصد الله الأزلي سيتم أخيراً عن طريقهم. [88]

الفصل الثامن ـــ الارتداد القومي

منذ اليوم الذي مات فيه يربعام إلى اليوم الذي تراءى فيه إيليا لآخاب ظلّ شعب الله يعاني من انحطاط روحي مستمر. وإذ كان يحكمهم رجال لا يخافون الرب بل كانوا يشجّعون على انتشار طقوس عبادة غريبة. فإن السواد الأعظم منهم غاب واجبهم عن أنظارهم سريعاً لخدمة الله الحي واعتنقوا كثيراً من الممارسات الوثنية.

ولم يجلس ناداب بن يربعام على العرش أكثر من شهور قليلة. وُضع بعدها حد مفاجئ لحياة الشر التي عاشها وذلك عن طريق مؤامرة دبرها بعشا أحد قادة جيشه للاستيلاء على مقاليد الحكم. وقد قُتل ناداب وكل من كان سيؤول له الحكم من عائلة الملك "حسب كلام الرب الذي تكلم به عن يد عبده آخيا الشيلوني لأجل خطايا يربعام التي أخطأها والتي جعل بها الشعب يخطئ" (1 ملوك 15:29، 30).

وبذلك هلك بيت يربعام. لقد جلبت العبادة الوثنية التي أدخلها على المذنبين أحكام السماء وانتقامها ومع ذلك فإن الملوك الذين جاءوا بعد ذلك ـــ بعشا، إيلة، زمري وعمري ظلّوا سائرين في طريق الشر المميت ذاته الذي استمر ما يقرب من أربعين سنة. [89]

وفي غضون الجانب الأكبر من زمن الارتداد كان آسا ملكاً على مملكة يهوذا. ولمدى سنين طويلة "عمل آسا ما هو صالح ومستقيم في عيني الرب إلهه ونزع المذابح الغريبة والمرتفعات وكسر التماثيل وقطع السواري. وقال ليهوذا أن يطلبوا الرب إله آبائهم وأن يعملوا حسب الشريعة والوصية. ونزع من كل مدن يهوذا المرتفعات وتماثيل الشمس واستراحت المملكة أمامه" (2 أخبار الأيام 14:2 ـــ 5).

وقد امتُحن إيمان آسا امتحاناً قاسياً عندما غزا مملكته "زارح الكوشي بجيش ألف ألف، وبمركبات ثلاث مئة" (2 أخبار الأيام 14:9). في هذه الحالة المتأزمة لم يركن آسيا إلى "المدن الحصينة في يهوذا" التي قد بناها "بأسوار وأبراج وأبواب وعوارض" ولا إلى رجال حربه الذين كانوا "جبابرة بأس" الذين كانوا يكوّنون جيشه المدرّب جيداً (2 أخبار الأيام 14:6 ـــ 8). ولكن الملك اتّكل على رب الجنود الذي باسمه العجيب أُجريت حوادث نجاة عجيبة لشعبه في أيام القدم. فبعدما صفّ قواته طلب معونة الله.

وقد تقابلت الجيوش المعادية الآن وجهاً لوجه. كان ذلك الوقت وقت تجربة وامتحان قاس لمن كانوا يعبدون الرب. فهل اعترفوا بكل خطاياهم؟ وهل رجال يهوذا يثقون ثقة كاملة في قوة الله على الخلاص؟ لقد خطرت مثل هذه الأفكار لعقول قادة الجيش. فمن وجهة النظر البشرية كان يظن الجيش العظيم القادم من مصر سيكتسح أمامه كل شيء. إلا أن آسا لم يسلّم نفسه للتسليات والملذّات فكان في أيام السلم يعد العدة لكل الطوارئ. كان تحت يده جيش مدرب على الحرب، وقد حاول أن يقود شعبه للمصالحة من الله. والآن مع أن جيوشه أقل عدداً من جيوش العدو فإن إيمانه بالرب الذي اتّكل عليه لم يضعف. [90]

إذ طلب الملك الرب في أيام نجاحه، أمكنه الآن الاعتماد عليه في يوم الشدة. وقد برهنت طلباته أنه لم يجهل قدرة الله العجيبة. فقد توسل إلى الرب قائلاً: "ليس فرقاً عندك أن تساعد الكثيرين ومن ليس لهم قوة. فساعدنا أيها الرب إلهنا لأننا عليك اتّكلنا وباسمك قدمنا على هذا الجيش. أيها الرب أنت إلهنا لا يقو عليك

إنسان" (2 أخبار الأيام 11:14).

صلاة آسا تناسب كل مسيحي مؤمن لكي يرفعها إلى الله. إن محاربتنا ليست مع دم ولحم بل مع الرؤساء مع السلاطين مع أجناد الشر الروحية في السماويات (انظر أفسس 12:6). وفي معركة الحياة علينا أن نصطدم مع قوات الشر المصطفة ضد الحق. ثم إن رجاءنا ليس في إنسان بل في الله الحي. علينا أن ننتظر بيقين الإيمان الكامل أن يوحّد الله قدرته العظيمة مع الوسائط البشرية لمجد اسمه. ونحن إذ نلبس سلاح برّه يمكننا أن ننتصر على كل عدو.

وقد كوفئ إيمان آسا بطريقة مميزة: "فضرب الرب الكوشيين أمام آسا وأمام يهوذا فهرب الكوشيون. وطردهم آسا والشعب الذي معه إلى جرار وسقط من الكوشيين حتى لم يكن لهم حي لأنهم انكسروا أمام الرب وأمام جيشه" (2 أخبار الأيام 12:14، 13).

وإذا كانت جيوش يهوذا وبنيامين الظافرة عائدة إلى أورشليم: "كان روح الله على عزريا بن عوديد فخرج للقاء آسا وقال له اسمعوا لي يا آسا وجميع يهوذا وبنيامين الرب معكم ما كنتم معه وإن طلبتموه يوجد لكم وإن تركتموه يترككم .. فتشدّدوا أنتم ولا ترتخ أيديكم لأن لعملكم أجراً" (2 أخبار الأيام 1:15، 2، 7). [91]

فإذ تشجع آسا كثيراً حين سمع هذا الكلام تقدّم للقيام بإصلاح ثان في يهوذا. فقد "نزع الرجاسات من كل أرض يهوذا وبنيامين ومن المدن التي أخذها من جبل إفرايم وجدد مذبح الرب الذي أمام رواق الرب".

وجمع كل يهوذا وبنيامين والغرباء معهم من إفرايم ومنسى ومن شمعون لأنهم سقطوا إليه من إسرائيل بكثرة حين رأوا أن الرب إلهه معه. فاجتمعوا في أورشليم في الشهر الثالث في السنة الخامسة عشر من ملك آسا وذبحوا للرب في ذلك اليوم من الغنيمة التي جلبوا سبع مئة من البقر وسبعة آلاف من الضأن. ودخلوا في عهد أن يطلبوا الرب إله آبائهم بكل قلوبهم وكل أنفسهم" "فوجد لهم وأراحهم الرب من كل جهة" (2 أخبار الأيام 8:15 — 15،12).

إلا أن تاريخ الملك آسا الطويل الحافل بالخدمة الأمينة شوّهته بعض الأخطاء التي ارتكبها عندما لم يضع ثقته الكاملة في الله. ففي ذات المرات عندما دخل ملك إسرائيل مملكة يهوذا وأخذ مدينة الرامة المحصّنة التي لا تبعد عن أورشليم أكثر من خمسة أميال، طلب آسا النجاة بأن عقد حلفاً مع بنهدد ملك آرام. لقد وبّخ النبي حناني الملك بكل صرامة على عدم اتّكاله على الله وحده في وقت الحاجة. وقد ظهر أمامه مقدماً له هذه الرسالة:

"من أجل أنك استندت على ملك آرام ولم تستند على الرب إلهك لذلك قد نجا جيش ملك آرام من يدك. ألم يكن الكوسيون واللوبيون جيشاً كثيراً بمركبات وفرسان مثيرة جداً؟ فمن أجل أنك استندت على الرب دفعهم ليدك. لأن عيني الرب تجولان في كل الأرض ليتشدد مع الذين قلوبهم كاملة نحوه. فقد حمقت في هذا حتى أنه من الآن تكون عليك الحروب" (2 أخبار الأيام 7:16 -9). [92]

ولكن آسا بدلاً من أن يتّضع ويتذلّل أمام الله بسبب هذه الغلطة فإنه "غضب على الرائي ووضعه في السجن لأنه اغتاظ منه من أجل هذا. وضايق آسا بعضاً من الشعب في ذلك الوقت" (2 أخبار الأيام 10:16).

ومرض آسا في السنة التاسعة والثلاثين من ملكه في رجليه حتى اشتد مرضه وفي مرضه أيضاً لم يطلب الرب بل الأطباء" (2 أخبار الأيام 12:16). وبعد ذلك مات الملك في السنة الحادية والأربعين من ملكه فملك يهوشافاط ابنه عوضاً عنه.

قبل موت الملك آسا بسنتين ابتدأ آخاب يملك على مملكة إسرائيل. ومنذ البداية دُمغ ملكه بارتداد

غريب ورهيب. فأبوه عمري منشئ السامرة: "عمل الشر في عيني الرب وأساء أكثر من جميع الذين قبله" (1 ملوك 25:16). ولكن خطايا آخاب كانت أشنع من ذلك. فلقد "زاد في العمل لإغاظة الرب أكثر من جميع الملوك الذين قبله"، "وكأنه كان أمراً زهيداً سلوكه في خطايا يربعام بن نباط" (1 ملوك 33:16، 31). وإذ لم يقتنع بتشجيع طقوس الخدمة الدينية التي كانت تقام في بيت إيل وفي دان فهو بكل جر الشعب إلى أشر ضروب الوثنية باستبدال عبادة الرب بعبادة البعل.

إذ اتّخذ آخاب "إيزابل ابنه البعل ملك الصيدونيين" ورئيس كهنة البعل، زوجة له "عبد البعل وسجد له. وأقام مذبحاً للبعل في بيت البعل الذي بناه في السامرة" (1 ملوك 31:16، 32).

ولم يكتف آخاب بإدخال عبادة البعل إلى العاصمة لكنّه انقاد وراء إيزابل وأقام مذابح للأوثان في كثير من المرتفعات حيث اتّبع الكهنة وغيرهم ممن كانت لهم صلة بهذا الطقس الوثني المخادع، تأثيرهما الوبيل تحت ظلال [93] الغابات المحيطة، حتى اعتنقت الغالبية العظمى من إسرائيل عبادة البعل. "ولم يكن كآخاب الذي باع نفسه لعمل الشر في عيني الرب الذي أغوته إيزابل امرأته ورجس جداً بذهابه وراء الأصنام حسب كل ما فعل الأموريون الذين طردهم الرب من أمام بني إسرائيل" (1 ملوك 25:21، 26).

كان آخاب ضعيفاً أدبياً. وقد نتج عن زواجه بامرأة وثنية ذات خلق عنيد وطبع حاد كوارث شديدة عليه وعلى الأمة. فإذ كان رجلاً بلا مبدأ، ولم يكن أمامه مقياس سام لعمل الحق، أمكن صوغ خلقه بسهولة عن طريق روح إيزابل العنيدة. ولم تستطع طبيعته الأنانية أن تقدّر مراحم الله لشعبه أو التزاماته كحارس وقائد للشعب المختار.

قد ضل الشعب بعيداً عن الإله الحي تحت تأثير حكم آخاب الفاسد. كما فقدوا الإحساس بالوقار والرهبة المقدسة لسنوات طويلة. كان يبدو أنه لا يوجد من يجرؤ على كشف تصرفاتهم المشينة مجاهرة بالوقوف ضد التجديف المتفشّي في الأمة. لقد خيّم ظلام الارتداد في كل مكان وغشي وجه الأرض. فكانت تُرى تماثيل للبعليم وعشتروت منصوبة في كل مكان. وتكاثرت هياكل الأوثان والغياض المكرسة لها حيث كان الناس يسجدون لما صنعته أيديهم. وتلوث الهواء من دخان المحرقات المقدمة للآلهة الكاذبة. كما رددت التلال والوديان صدى صيحات كهنة الأوثان السكارى الذين كانوا يذبحون للشمس والقمر والنجوم.

وتعلم الشعب بواسطة تأثير إيزابل وكهنتها الملحدين أن الأوثان التي أقيمت هي آلهة تحكم بقوتها السرية الغامضة على عناصر الأرض والنار والماء. وقد نسبت كل هبات السماء من جداول المياه الجارية، وينابيع المياه الحية وقطرات الندى الرقيقة، وسيول الأمطار التي تحيي الأرض وتجعل الحقول تجود بالثمار [94] الوفيرة إلى رضى البعل وعشتروت بدلاً من أن تنسب إلى الله مصدر كل عطية صالحة وموهبة تامة. ونسي أن التلال والأودية والأنهار وينابيع المياه التي هي ملك الله الحي، وأنه هو المتسلّط على الشمس وسحب السماء وقوى الطبيعة.

لقد أرسل الرب إنذارات متكررة إلى الملك وشعبه المرتدين بواسطة رسله الأمناء إلا أنها ذهبت كلها عبثاً. كما ذهبت تأكيدات الرسل الملهمين، على حق الرب أن يكون هو الإله الأوحد بين شعبه، هدراً. وعبثاً أيضاً عظموا الشرائع التي قد ائتمنهم الله عليها. فإذ استأسرت المظاهر الجميلة والطقوس الفاتنة الخاصة بعبادة الأوثان ألباب الشعب فقد اتّبعوا مثال مليكهم ورجال البلاط واستسلموا بالتمام لملذات العبادة الشهوانية النجسة. واختاروا في حماقتهم العمياء أن يرفضوا الله وعبادته. فالنور الذي منحهم الله إياه تكرماً منه صار ظلاماً. واكدر الذهب.

واآسفاه، كيف رحل مجد شعب الله، ذلك الشعب الذي لم يسبق أن سقط في هاوية الارتداد السحيق إلى هذا الحد. كان يوجد أربع مئة وخمسون من "أنبياء البعل" فضلاً عن "أنبياء السواري" البالغ عددهم أربع مئة (1 ملوك 19:18).

ولم يكن يمكن لأية قوة أقل من قوة الله المعجزية أن تحفظ الأمة من الهلاك التام. لقد انفصل شعب الله بمحض اختيارهم عن الرب، ومع ذلك فالرب في رحمته كان مازال يتوق لرجوع من ضلّوا في طريق الخطيئة. كان مزمعاً أن يرسل إليهم واحداً من أقوى أنبيائه ليعود كثيراً بواسطته إلى سابق ولائهم لإله آبائهم. [95]

الباب الثاني— أنبياء المملكة الشمالية

[96]

“ من هو حكيم حتى يفهم هذه الأمور وفيهم حتى يعرفها. فإن طرق الرب مستقيمة والأبرار يسلكون فيها وأمّا المنافقون فيعثرون فيها“

(هوشع 9:14)

[97] * * * * *

الفصل التاسع— إيليّا التشبي

(إعتمد هذا الفصل على ما ورد في ملوك الأول 1:17 — 7)

في أيام آخاب كان يسكن في جبال جلعاد الواقعة شرقي الأردن رجل من رجال الإيمان والصلاة وكان المقصود من خدمته الجريئة التي لم يخش فيها بأس إنسان، توقّف انتشار الارتداد السريع في إسرائيل. وإذ كان إيليا التشبي بعيداً عن كل مدينة ذات شهرة، لم يحتل مركزاً سامياً في الحياة. مع كل ذلك فقد باشر خدمته وهو واثق من قصد الله في تمهيد الطريق أمامه وإعطائه النجاح، كانت رسالته حين جاء إلى الشعب مبكتاً على الخطيئة، بمثابة بلسان جلعاد للنفوس المعذّبة ولكل راغب في الشفاء.

فإذا رأى إيليا أن الشعب يغوص إلى أعماق الوثنية، انزعجت روحه واحتدم غضبه. لقد عمل الله عظائم مع شعبه وحرّرهم من العبودية، "وأعطاهم أراضي الأمم .. لكي يحفظوا فرائضه ويطيعوا شرائعه" (مزمور 44:105، 45).

لكن مقاصده الرحيمة كادت أن تُنسى. وكان عدم الإيمان يعمل بسرعة على عزل الأمة المختارة عن مصدر قوتها. [98]

فإذا رأى إيليا هذا الارتداد وهو في معتكفه الجبلي، طغى على قلبه الحزن. وتوسّل في انسحاق نفسه إلى الله كي يوقف الشعب، الذي كان محبوباً لديه قبلئذ، عن التوغل في طريق الشر وأن يفتقدهم بتأديبه وأحكامه إذا لزم الأمر، كي يروا ارتدادهم عن السماء في نوره الحقيقي. كما تاق أن يراهم تائبين ونادمين قبل التوغل بعيداً عن الله كيلا يثيروا سخط الرب عليهم ويضطر إلى إفنائهم.

وقد أجيبت صلاة إيليا. فالتوسلات والاحتجاجات والإنذارات المتكررة لم تستطع أن تقود الشعب إلى التوبة. وقد حان الوقت الذي فيه ينبغي أن يخاطبهم الله بواسطة أحكامه. وإذ ادّعى عبدة البعل أن خزائن السماء، الطل والمطر، لا تأتي من الرب بل من قوات الطبيعة التي تحكمها، وأنه عن طريق طاقة الشمس الخالقة أخصبت الأرض وأتت ثمارها الوفيرة، فإن لعنة الله كانت ستستقر بثقلها على الأرض التي تدنّست. وكان لابد أن يتبرهن لأسباط الشعب المرتد حماقة الاتكال على قوة البعل لنيل البركات الزمنية. فما لم يرجعوا إلى الله بالتوبة معترفين بأنه هو وحده مصدر كل بركة، لن يكون على الأرض طل ولا مطر.

وقد أُسند إلى إيليا أمر تبليغ رسالة السماء عن الحكم بالدينونة. وهو لم يطلب أن يكون رسول الرب بل إن كليم الرب كان إيليا. وإذ كان يغار على كرامة الله وعمله، لم يتردد في إطاعة أمر الله، بالرغم أن الطاعة كانت بمثابة دعوة لهلاك سريع بيد الملك الشرير. سافر النبي فوراً ليلاً ونهاراً حتى وصل السامرة. لم يتوسّل أمام القصر في طلب إذن الدخول، أو انتظر ليدعى رسمياً للمثول في حضرة الملك بل مر في وسط الحراس وكأن أحداً لم يلحظه وإذ [99] كان لابساً ثوباً خشناً اعتاد على لبسه الأنبياء في ذلك العصر، فقد وقف لمدى لحظة أمام الملك الذي علته الدهشة.

لم يقدّم إيليا اعتذاراً عن وقوفه المفاجئ أمام الملك. لقد أوفده شخص أعظم من ملك إسرائيل ليتكلم. وإذ رفع يده إلى السماء أكّد باسم الإله الحي أن أحكام العلي موشكة أن تحل على الشعب. فقد أعلن قائلاً:

”حي هو الرب الذي وقفت أمامه أنه لا يكون طل ولا مطر في هذه السنين إلا عند قولي“ (1 ملوك 1:17).

لقد تمكن إيليا من تبليغ رسالته بممارسة إيمان متين بكلمة الله التي لا تخيب. لو لم يثق ضمناً بالرب الذي كان يخدمه لما تمكّن من الوقوف أمام آخاب. وفي طريقه إلى السامرة مر إيليا بالأنهار الفائضة والتلال الخضراء و الغابات الكثيفة التي بدا وكأن القحط لن يصيبها. وكل ما كانت تقع عليه العين كان مكسواً بالجمال. ربما تساءل النبي كيف يمكن للجداول التي لم تكف عن جريانها أن تعرف الجفاف وكيف يمكن لتلك التلال والأودية أن يصيبها القحط. إلا أنه لم يفسح مجالاً لعدم الإيمان. كان يؤمن تماماً أن الله سيذل شعبه المرتد، وأن أحكامه كفيلة بأن تقودهم إلى التوبة. لقد صدر حكم السماء وكلمة الله لن تخيب. وإذ قدّم إيليّا رسالته كان يخاطر بحياته بلا خوف وقد وقعت رسالة الدينونة الوشيكة على أذني الملك الشرير وقوع الصاعقة من سماء صافية. وقبل أن أفاق آخاب من دهشته، أو يجد كلاماً يجيب به، اختفى إيليّا فجأة كما جاء دون أن ينتظر ليشهد أثر رسالته. وقد سار الرب أمامه وأوضح له الطريق قائلاً له: ”اتّجه نحو الشرق واختبئ عند نهر كريث الذي هو مقابل الأردن فتشرب من النهر وقد أمرت الغربان أن تعولك هناك“ (1 ملوك 3:17،4). [100]

وفتش الملك باجتهاد عن النبي. ولكن العثور عليه لم يكن ممكناً. وغضبت الملكة إيزابل من رسالة النبي القاضية بإغلاق مخزن السماء، ولم تضيع الوقت بل تشاورت بسرعة مع كهنة البعل الذين شاركوها في استنزال اللعنة على النبي وتحدّى غضب الرب. ولكن بالرغم من رغبتهم في العثور على إيليّا الذي نطق بالويل، حكم أيضاً على جهودهم بالخيبة. ولم يستطيعوا أن يخفوا عن الشعب موضوع الحكم الذي قضى به على الأمة نتيجة ارتدادهم المشين. إن أخبار شجب إيليّا لخطايا الشعب ونبوّته الخاصة بالقصاص الوشيك انتشرت بسرعة في كل أنحاء البلاد. وثارت مخاوف بعض الناس إلا أن رسالة السماء قوبلت بصورة عامّة، بالسخرية والازدراء.

وكان لكلمات النبي تأثيرها المباشر. فالذين كانوا بادئ ذي بدء يميلون إلى السخرية من فكرة الكارثة، سرعان ما وجدوا أن لديهم فرصة للتفكير الخطير الجاد. إذ بعد شهور قليلة جفّت الأرض ويبست بسبب عدم هطول المطر وامتناع الطل والندى عن إنعاشها فذبل العشب ومات الكلأ. وبمرور الوقت ابتدأ منسوب المياه بالتناقص كما بدأت الجداول بالجفاف وهي التي كانت دائمة الجريان. ومع ذلك فقد حرص رؤساء الشعب على وضع ثقتهم في البعل وقدرته واعتبار نبوة إيليا كلاماً بلا مضمون. وأصر الكهنة أن سيول المطل تهطل بقوة البعل. وألحّوا على الشعب قائلين لا تخافوا إله إيليّا ولا ترتعبوا من كلامه، فالبعل هو الذي يعطينا الحصاد في حينه وهو الذي يلبي حاجة الإنسان والحيوان.

لقد قدّمت رسالة الله لآخاب، فرصة إيزابل وكهنتها وكل عابدي البعل وعشتروت، لإختبار قوة آلهتهم وإذا أمكن إقامة الدليل الحسي على بطلان أقوال إيليّا. وقد صمدت نبوة إيليّا وحدها ضد تأكيدات المئات من كهنة الأوثان. فإذا [101] كان البعل، يستطيع كسب مطر وطل على الأرض بالرغم من إعلان النبي وجعل مياه الجداول تفيض من جديد وتنعش الأرض، إذن فليعبده ملك إسرائيل وليقل عنه الشعب أنه إله.

وإذا صمم الكهنة على إبقاء الشعب تحت سلطان خداعهم ظلوا يقدمون الذبائح لآلهتهم ويتوسلون إليها ليلاً ونهاراً لكي تنعس الأرض. وحاولوا تهدئة غضب آلهتهم بأن قدّموا لها ذبائح غالية الثمن. وظلوا ملازمين لمذابح الأوثان بغيرة ومواظبة خليقين بدعوة أفضل من دعوتهم وهم مجتمعين حولها يصلّون بغيرة في طلب انسكاب المطر. وكانت تصعد صرخاتهم وتوسّلاتهم في كل أنحاء البلاد المحكوم عليها بالدينونة. ورغم كل هذه الجهود المضنية لم تظهر في السماء سحابة لتحجب عن العيون أشعة الشمس الحارقة. ولا انسكب مطر لإنعاش الأرض العطشى. وتظل كلمة الرب ثابتة لا يبدلها شيء مما يفعله كهنة البعل.

ويمر عام ويمتنع المطر عن الهطول وتحترق الأرض كما بنار. ويجف حر الشمس اللافع العشب القليل الباقي. وتنضب ينابيع الماء وتكف مياه الجداول عن الجريان وتستغيث الماشية وقطعان الغنم وهي تجول من مكانٍ إلى آخر في ضيق شديد. أما الحقول التي كانت مزدهرة، فغدت كرمال الصحراء المحرقة، قفزاً، يباباً. وذوت الغياض المكرسة لعبادة الأوثان وتساقطت أوراقها. وتوارث ظلال الأشجار والغابات التي أمست كالهياكل العظمة الشاحبة. وغدا الهواء جافًّا خانقاً وعواصف الغبار تعمي العيون وتكاد تقطع الأنفاس. والمدن والقرى التي كانت ناجحة ومزدهرة أمست أماكن للندب والعويل. وأثر الجوع والعطش تأثيراً سيئاً على الإنسان والحيوان فمات كثيرون ميتات رهيبة واقتربت المجاعة بكل أهوالها مكشرة عن أنيابها. [102]

ولكن مع كل هذه البراهين على قدرة الله فإن الشعب لم يتُب ولا تعلموا الدرس المنشود. ولم يروا في الذي خلق الطبيعة كائناً مسيطراً على نواميسها وأنه يستطيع أن يجعلها أداة بركة أو هلاك. كانوا متشامخي الروح لدرجة فتنتهم العبادة الكاذبة ولم يريدوا أن يتواضعوا تحت يد الله القوية، وبدأوا يفكّرون في سبب آخر ينسبون إليه آلامهم ومصائبهم.

وقد رفضت إيزابيل رفضاً قاطعاً الاعتراف بأن القحط كان قضاء من الرب. وإذ كانت لا تلين في تصميمها على تحدّي إله السماء، فقد اتّفقت مع غالبية الشعب على ذم إيليّا واعتباره علّة شقائهم. ألم يشهد ضد طقوس عبادتهم؟ وأكّدت إيزابل قائلة أنه لو أزيح إيليّا من الطريق يمكن تهدئة غضب آلهتهم وتنتهي عندئذ متاعبهم وضيقاتهم.

فبإيعاز وتحريض من الملكة أمر آخاب رجاله أن يبحثوا باجتهاد عن مخبأ النبي. وأرسل رسله إلى الأمم المحيطة القريبة والبعيدة، للبحث عن الرجل الذي كان يبغضه ويخشاه في آن واحد. وفي جزعه واهتماماته بالبحث الدقيق كان يستحلف الممالك إذا كانوا لا يعلمون شيئاً عن الأماكن التي يختلف النبي إليها. إلا أن بحثه كان عبثاً. كان النبي في مأمن من غدر وخبث الملك الذي أوقعت خطاياه على البلاد قضاء الإله الذي قد أسخطه.

وإذ أخفقت إيزابل في مساعيها ضد إيليا عولت على الثأر لنفسها بقتل أنبياء الرب في إسرائيل، دون الإبقاء حتى على واحد منهم. وقد نفذّت تلك المرأة الحانقة غرضها بقتل كثيرين من عبيد الله. ومع ذلك فلم يهلك الجميع. فإنّ عوبديا الذي كان مدبراً لبيت آخاب وأميناً لله، "أخذ مئة نبي" مُخاطر بحياته "وخبّأهم خمسين رجلاً في مغارة وعالهم بخبز وماء" (1 ملوك 4:18). [103]

ومرت السنة الثانية من سني الجوع، دون أن تظهر في السموات العديمة الرحمة أية علامة على قرب هطول المطر. وظلّ القحط والجوع ينهشان الأرض وما عليها في طول البلاد وعرضها. فإذ كان الآباء والأمهات عاجزين عن تخفيف آلام الجوع عن أطفالهم اضطروا للتخلّي عنهم مرغمين ومراقبتهم بألم يعتصر القلب وهم يموتون. ومع ذلك فإن شعب إسرائيل المرتد لم يتذلل بقلبه أمام الله وظل يتذمر من الإنسان الذي بسبب كلمته حلت بهم هذه الأحكام الرهيبة. وبدا أنهم عاجزون عن أن يروا في آلامهم وضيقهم أية دعوة لهم للتوبة وتدخلا إليها لإنقاذهم من اتّخاذ خطوة مميتة قاتلة تقودهم إلى ما وراء حدود غفران السماء.

كان ارتداد الشعب شراً أرهب من كل أهوال الجوع. كان الله يطلب تحرير شعبه من غرورهم وضلالاتهم واقتيادهم إلى إدراك مسؤوليتهم نحو ذلك الذي كانوا مدينين له بالحياة وكل شيء. حاول أن يعينهم على استعادة إيمانهم الذي أضاعوه، وفي سبيل ذلك سمح أن تحلّ بهم المآسي علّها تردعهم وتعيدهم إلى رشدهم.

"هل مسرة أسر يموت الشرير يقول الرب، إلا برجوعه عن طريقه فيحيا؟" "طرحوا عنكم كل

معاصيكم التي عصيتم بها واعلموا لأنفسكم قلباً جديداً وروحاً جديدة فلماذا تموتون يا بيت إسرائيل؟ لأني لا أُسر يموت من يموت يقول السيد الرب فارجعوا واحيوا" "ارجعوا عن طرقكم الرديئة فلماذا تموتون يا بيت إسرائيل" (حزقيال 18 : 23 ، 31 ، 32 ، 33 : 11).

لقد أرسل الله رسلاً إلى شعبه طالباً إليهم العودة إلى سابق ولائهم. فلو اهتمّوا بهذه الدعوات ورجعوا عن عبادة البعل إلى الله الحي لما جائتهم رسالة الدينونة [104] على يد إيليّا. إلا أن الإنذارات التي كان يمكن أن تكون رائحة حياة لحياة برهنت أنها رائحة موت لموت. لقد جرحت كبريائهم فثار غضبهم على الرسل، والآن هم يبغضون إيليّا النبي أشد البغض. ولو أنه وقع بين أيديهم لأسلموه إلى إيزابل مسرورين اعتقاداً منهم أنهم لو تمكنوا من إخراس صوته لحالوا دون إتمام نبوءته. ففي وجع الكارثة ظلوا متشبثين بوثنيتهم. وبذلك زادوا من الجرم الذي جلب على المملكة أحكام السماء.

لا يوجد غير علاج واحد للعشب الذي حلت به هذه الضربات وهو ترك الخطايا التي جلبت التأديب من يد الله القدير والرجوع إلى الرب بعزم القلب. كان الله قد سبق فقدّم لهم هذا الوعد القائل "إن أغلقت السماء ولم يكن المطر وإن أمرت الجراد أن يأكل الأرض. وإن أرسلت وبأ على شعبي. فإذا تواضع شعبي الذين دُعي إسمي عليهم وصلّوا وطلبوا وجهي ورجعوا عن طرقهم الردية فأنني أسمع من السماء وأغفر خطيتهم وأبرئ أرضهم" (2 أخبار الأيام 7 : 13 ، 14). فمن أجل الوصول إلى هذه النتيجة المباركة حبس الله عنهم المطر والطل إلى أن يتم إصلاح حاسم.

[105] * * * * *

الفصل العاشر ــــ صوت التوبيخ الحاسم

(اعتمد هذا الفصل على ما ورد في ملوك الأول 17: 8 — 24 ، 18: 1 — 19).

ظل النبي إيليّا مختفياً في الجبال بجوار نهر كريث لبعض الوقت. وأعيل هناك لشهور طويلة بطعام جاءه بكيفية معجزية. بعد ذلك إذ طالت شهور القحط وجف النهر أمر الله خادمه بالانتقال من هناك واللجوء إلى إحدى البلاد الوثنية قائلاً: "قم اذهب إلى صرافة التي لصيدون وأقم هناك. هوذا قد أمرت هناك امرأة أرملة أن تعولك" (1 ملوك 17 : 9).

لم تكن المرأة إسرائيلية ولم تتمتع بشيء من الامتيازات والبركات التي تمتّع بها شعب الله، إلا أنها كانت تؤمن بالإله الحقيقي وسارت بموجب النور الذي أشرق على طريقها. والآن عندما لم يبق لإيليّا أمان في أرض إسرائيل أرسله الله إلى هذه المرأة ليجد ملاذاً في بيتها.

" فقام وذهب إلى صرفة. وجاء إلى باب المدينة وإذا امرأة أرملة هناك تقشّ عيداناً. فناداها وقال هاتي لي قليل من الماء في إناء فاشرب. وفيما هي ذاهبة لتأتي به ناداها وقال هاتي لي كسرة خبز في يدك" (1 ملوك 17 : 10 — 11).

في هذا البيت الذي ضربه الفقر اشتدّت وطأة الجوع وكان الطعام القليل البسيط الذي فيه على وشك النفاذ. إن مجيء إيليّا في ذات اليوم الذي كانت [106] تخشى فيه الأرملة الإستسلام في صراعها لأجل البقاء، كان تجربة قاسية جداُ لإيمانها بالإله الحي في تدبير إحتياجاتها. ولكن حتى في حاجتها القصوى شهدت لإيمانها بإجابة ذلك الغريب إلى طلبه إذ كان يطلب أن يقاسمها آخر كسرة خبز تمتلكها.

وإجابة لطلبه للطعام والشراب قالت له: "حي هو الرب إلهك إنه ليست عندي كعكة ولكن ملء كف من الدقيق في الكوار وقليل من الزيت في الكوز وهأنذا أقش عودين لآتي وأعمله لي ولإبني لنأكله ثم نموت" فقال لها إيليّا: "لا تخافي أدخلي وأعملي كقولك ولكن أعملي لي منها كعكة صغيرة أولاً وأخرجي بها إلي ثم أعملي لك ولإبنك أخيراً. لأنه هكذا قال الرب إله إسرائيل إن كوار الدقيق لا يفرغ وكوز الزيت لا ينقص إلى اليوم الذي يعطي الرب مطراً على وجه الأرض" (1 ملوك 17 : 12 — 14).

لا يمكن أن يُطلب الإمتحان للإيمان أقسى من هذا. كانت الأرملة قد عاملت جميع الغرباء سابقاً بالرفق والسخاء. أما الآن فبغض النظر عن الآلام التي قد تحيق بها وبابنها، فإذا اتّكلت على الله لتلبية كافة احتياجاتهم قابلت أقسى امتحان لكرم الضيافة بكونها "فعلت حسب قول إيليّا" (عدد 15).

كان الكرم الذي أظهرته هذه المرأة الفينيقية نحو نبي الله عجيباً حقاً، وقد كوفئ إيمانها وسخاؤها بكيفية عجيبة أيضاً لأنها "أكلت هي وهو وبيتها أياماً. وكوار الدقيق لم يفرغ وكوز الزيت لم ينقص حسب قول الرب الذي تكلم به عن يد إيليّا. [107]

" وبعد هذه الأمور مرض ابن المرأة صاحبة البيت واشتد مرضه جداُ حتى لم تبق فيه نسمة. فقالت لإيليا ما لي ولك يا رجل الله هل جئت إلي لتذكير إثمي إماتة إبني"

" فقال لها أعطيني ابنك وأخذه من حضنها وصعد به إلى العلية التي كان مقيماً بها وأضجعه على

سريره. فتمدد على الولد ثلاث مرات وصرخ إلى الرب .. فسمع الرب لصوت إيليّا فرجعت نفس الولد إلى جوفه فعاش.

” فأخذ إيليّا الولد ونزل به من العليّة إلى البيت ودفعه لأمه. وقال إيليّا انظري ابنك حي. فقالت المرأة إيليّا هذا الوقت علمت أنك رجل الله وأن كلام الله في فمك حق“ (1 ملوك 17 : 15 — 24).

لقد سمحت إمرأة صرفة لإيليا بمقاسمتها كسرة الخبز التي عندها، وفي مقابل ذلك حفظت حياتها وحياة ابنها. وكل من يقدمون عطفاً ومساعدة لمن هم أشد عوزاً منهم في وقت التجربة والعوز قد وعدهم الله ببركة عظيمة. وهو اليوم كما كان بالأمس ولم يتغيّر. وقوّته الآن ليست أقل مما كانت في أيام إيليّا. ووعد الله الآن أكيد كما كان عندما نطق به المخلّص قائلاً: ”من يقبل نبياً فأجر نبي يأخذ“ (متى 10 : 41).

”لا تنسوا إضافة الغرباء لأن بها أضاف أناس ملائكة وهم لا يدرون“ (عبرانيين 13 : 2). هذا القوم لم يفقد شيئاً من قوّته بمرور الزمن. إن أبانا السماوي ما زال يقدّم لأولاده فرصاً هي بركات مقنعة وكل من يحسنون استخدامها ينالون فرحاً عظيماً: ”إن .. أنفقت نفسك للجائع وأشبعت النفس الذليلة يشرق في الظلمة نورك ويكون ظلامك الدامس مثل الظهر. ويقودك الرب [108] على الدوام ويشبع في الجدوب نفسك وينشط عظامك فتصير كجنة ريا وكنبع مياه لا تنقطع مياهه“ (إشعياء 58 : 10 ، 11).

يقول المسيح لخدّامه الأمناء اليوم: ”من يقبلكم يقبلني ومن يقبلني يقبل الذي أرسلني“ (متى 10 : 40). لا يمكن أن يقدم عملاً من أعمال الشفقة باسمه إلا ويعترف به ويكافئ عليه. وبنفس الاعتراف الرقيق يشمل المسيح حتى أضعف وأحقر أفراد أسرة الله. فيقول: ”ومن سقى أخذ هؤلاء الصغار“ — أولئك الذين يشبهون الصغار في إيمانهم ومعرفتهم للمسيح ”كأس ماء بارد فقط باسم تلميذ فالحق أقول لكم أنه لا يضيع أجره“.

كان إيليّا مدى سنوات القحط والجوع الطويلة يصلّي بحرارة كي ترجع قلوب بني شعبه عن الوثنية إلى ولائها لله. وظل ينتظر بصبر حين ثقلت يد الرب عن تلك الأرض المضروبة بالجوع. فإذ رأى دلائل الألم والعوز تتكاثر من كل جانب، اعتصر الحزن قلبه وتاق إلى قوة يقوم بها بإصلاح عاجل. ولكن الله نفسه كان ينفذ خطته، وكل ما كان على خادمه أن يفعله هو المداومة على الصلاة بإيمان وانتظار الوقت الذي يقوم فيه (الرب) بعمل حاسم.

كان الارتداد الذي تفشّى في عهد آخاب ارتكاب الشعب شروراً كثيرة خلال سنوات طويلة. وظل الشعب يتباعد عن طريق الحق خطوة خطوة وعاماً بعد عام. رفض الشعب جيلاً بعد جيل أن يصنعوا لأرجلهم مسالك مستقيمة وسلّمت الغالبية العظمى من الشعب نفسها في النهاية لقيادة قوات الظلمة.

كان قد مر قبل ذلك حوالي قرن من الزمن عندما اتّحد الشعب بفرح تحت حكم داود في التغني بمزامير الحمد لله العلي اعترافاً منهم باعتمادهم التام عليه لأجل المراحم اليومية. أصغ إلى أقوال التمجيد والتعبد عندما سبّحوا قائلين: [109]

”يا إله خلاصنا .. تجعل مطالع الصباح والمساء تبتهج. تعهّدت الأرض وجعلتها تفيض. تغنيها جداً. سواقي الله ملآنه ماء. تهيء طعامك لأنك هكذا تعدها. أرو أتلامها مهد أخاديدها. بالغيوث تحللها. تبارك غلتها. كللت السنة بجودك آثارك تقطر دسماً. تقطر مراعي البرية وتتنطق الآكام بالبهجة. اكتست المروج غنماً والأودية تتعطف براً. تهتف وأيضاً تغني“ (مزمور 65 : 5 ، 8 — 13).

لقد اعترف الشعب حينئذ بأن الله هو ”المؤسس الأرض على قواعدها“. وللتعبير عن إيمانهم تغنوا قائلين: ”كسوتها الغمر كثوب. فوق الجبال تقف المياه. من انتهارك تهرب من صوت رعدك تفر. تصعد إلى الجبال تنزل إلى البقاع إلى الموضع الذي أسّسته لها. وضعت لها تخماً لا تتعداه. لا ترجع لتغطي

الأرض. (مزمور 104 : 5 — 9).

إن عناصر الطبيعة في الأرض والبحر والهواء محفوظة ضمن حدود لا تتعداها، بالقوة العظيمة التي للإله غير المحدود. وهو يستخدم هذه العناصر في إسعاد خلائقه. إنه ينفق "كنزه الصالح" بسخاء "ليعطي مطر أرضك في حينه وليبارك كل عمل" يدي الإنسان (تثنية 28 : 12).

"المجر عيوناً في الأودية بين الجبال تجري. تسقي كل حيوان البر. تكسر الفراء ظمأها. فوقها طيور السماء تسكن من بين الأغصان تسمع صوتاً .. المنبت عشباً للبهائم وخضرة لخدمة الإنسان لإخراج خبز من الأرض وخمر تفرح قلب الإنسان لإلماع وجهه أكثر من الزيت وخبز يسند قلب الإنسان ..

"ما أعظم أعمالك يا رب كلها بحكمة صنعت. ملآنة الأرض من غناك. هذا البحر الكبير الواسع الأطراف هناك دبابات بلا عد صغار حيوان من كبار .. كلها [110] إياك تترجى لترزقها قوتها في حينه تعطيها فتلتقط. تفتح يدك فتشبع خيراً" (مزمور 10 : 10 — 15، 24-28).

كانت لدى شعب الله فرص كثيرة للفرح. فالأرض التي أتى بهم الرب إليها كانت تفيض لبناً وعسلاً. وفي أثناء تيهانهم في البرية أكّد لهم الله أنه يقودهم إلى بلاد لن يعانوا فيها لعدم وجود مطر. وقال لهم "الأرض التي أنت داخل إليها لكي تمتلئها ليست مثل أرض مصر التي خرجت منها حيث كنت تزرع زرعك وتسقيه برجلك كبستان بقول. بل الأرض التي أنتم عابرون إليها كي تمتلكوها هي أرض جبال وبقاع من مطر السماء تشرب ماء. أرض يعتني بها الرب إلهك. عينا الرب إلهك عليها دائماً من أول السنة إلى آخرها".

إلا أن الوعد بوفرة المطر الغزير أُعطي على شرط الطاعة. فقد أعلن الرب قائلاً: "فإذا سمعتم لوصاياي التي أنا أوصيكم بها اليوم لتحبوا الرب إلهكم وتعبدوه من كل قلوبكم ومن كل أنفسكم أعطى مطر أرضكم في حينه المبكر والمتأخر. فتجمع حنطك وخمرك وزيتك. وأعطى لهائمك عشباً في حقلك فتأكل أنت وتشبع".

وقد أوصاهم الرب قائلاً: "فاحترزوا من أن تنغوي قلوبكم فتزيغوا وتعبدوا آلهة أخرى وتسجدوا لها فيحمى غضب الرب عليكم ويغلق السماء فلا يكون مطر ولا تعطي الأرض غلتها فتبيدون سريعاً عن الأرض الجيدة التي يعطيكم الرب" (تثنية 11 : 10 — 17).

وقد أنذر الرب شعبه بقوله "إن لم تسمع لصوت الرب إلهك لتحرص أن تعمل بجميع وصاياه وفرائضه .. تكون سماؤك التي فوق رأسك نحاساً والأرض التي [111] تحتك حديداً ويجعل الرب مطر أرضك غباراً وتراباً ينزل عليك من السماء حتى تهلك" (تثنية 28 : 15، 23، 24).

وكان ضمن الوصايا الحكيمة التي قدمها الرب للشعب قديماً هذه الأقوال: "ضعوا كلماتي هذه على قلوبكم ونفوسكم واربطوها علامة على أيديكم ولتكن عصائب بين عيونكم. وعلّموها لأولادكم متكلمين بها حين تجلسون في بيوتكم وحين تمشون في الطريق وحين تنامون وحين تقومون" (تثنية 11 : 18، 19). كانت هذه الأوامر واضحة صريحة، ومع ذلك فمع تتابع القرون وإذ مر جيل غابت عن أذهان الناس الشروط المقدمة لأجل نجاحهم الروحي. وقد هددت قوى الارتداد المدمرة باكتساح كل حواجز النعمة الإلهية.

ولذلك افتقد الله شعبه الآن بأقسى أحكامه وتأديبه إذ تمّت نبوة إيليّا إتماماً رهيباً. ولمدى ثلاث سنوات كان الناس يبحثون عن رسول الويل والشقاء في مدينة بعد أخرى وأمة بعد أمة. وبناء على طلب آخاب أقسم كثيرون من الحكام بشرف أن ذلك النبي الغريب لا وجود له في بلادهم. ومع ذلك ظلّ البحث جارياً لأن إيزابل وأنبياء البعل كانوا يبغضون إيليّا بغضاً قاتلاً ولم يدّخروا جهداً في الإتيان به إلى متناول أيديهم ليتمكنوا منه. ومع ذلك فلم يكن مطر. أخيراً "بعد أيام كثيرة" كان كلام الرب إلى إيليّا يقول "اذهب وتراء

لآخاب فأعطي مطراً على وجه الأرض".

فامتثالاً للأمر "ذهب إيليّا ليتراءى لآخاب". ونحو الوقت الذي انطلق فيه النبي إلى السامرة كان آخاب قد اقترح على عوبديا، مدبّر بيته أن يفتّشا تفتيشاً دقيقاً عن جميع الينابيع وعيون الماء على أمل أن يجدوا مراعي للمواشي والقطعان الموشكة على الموت جوعاً. فحتى في بلاط الملك تألم الناس من [112] القحط الذي طال أمده. فقد قرر الملك الذي كان مهتماً اهتماماً عظيماً بمستقبل بيته أن يشترك بنفسه من عبده (عوبديا) في البحث عن بعض الأماكن المناسبة حيث يمكن أن توجد مراعي: "فقسما بينهما الأرض ليعبرا بها فذهب آخاب في طريق واحد وحده وذهب عوبديا في طريق آخر وحده".

"وفيما كان عوبديا في الطريق إذ إيليّا قد لقيه فعرفه وخرّ على وجهه وقال أأنت هو سيدي إيليّا؟".

في أثناء سنّي ارتداد إسرائيل ظل عوبديا أميناً. ولم يستطع مولاه الملك أن يحوّله عن ولائه لله الحي. والآن فها هو إيليّا يكرمه بأن يرسله في مأمورية إذ قال له: "اذهب وقل لسيّدك هوذا إيليّا" (1 ملوك 18 : 1، 2،7،8).

فصاح عوبديا يقول وهو في أشد حالات الرعب: "ما هي خطيئتي حتى أنك تدفع عبدك ليد آخاب ليميتني؟" فكونه يحمل رسالة كهذه إلى آخاب معناه أنه يعشق الموت الأكيد. فأوضح الأمر للنبي قائلاً: "حي هو الرب إلهك أنه لا توجد أمة ولا مملكة لم يرسل سيدي إليها ليفتش عليك. وكانوا يقولون أنه لا يوجد وكان يستحلف المملكة والأمة أنهم لم يجدوك. والآن أنت تقول اذهب قل لسيدك هوذا إيليا. ويكون إذا انطلقت من عندك أن روح الرب يحملك إلى حيث لا أعلم فإذا أتيت وأخبرت آخاب ولم يجدك فإنه يقتلني".

وتوسّل عوبديا إلى النبي بحرارة كيلا يلح عليه. فقال: "وأنا عبدك أخشى الرب منذ صباي. ألم أخبر سيدي بما فعلت حين قتلت إيزابل أنبياء الرب إذ خبأت من أنبياء الرب مئة رجل خمسين رجلاً في مغارة وعلتهم بخبز وماء؟ وأنت الآن تقول اذهب قل لسيدك هوذا إيليا فيقتلني" (1 ملوك 18 : 9 — 14). [113]

فوعد إيليا عوبديا بقسم مقدس بأن ذهابه لن يكون باطلاً إذ قال له: "حي هو رب الجنود الذي أنا واقف أمامه إني اليوم أتراءى له". فبعد هذا التأكيد: "ذهب عوبديا للقاء آخاب وأخبره" (1 ملوك 18 : 15، 16).

فبدهشة ممتزجة بالرعب أصغى الملك إلى الرسالة من الرجل الذي كان يخشاه ويبغضه والذي ظل وقتاً طويلاً يبحث عنه بلا كلل. كان يعلم جيداً أن إيليّا لا يخاطر بحياته لمجرد أن يقابله. فهل ممكن أن النبي مزمع أن ينطق بويل جديد على الشعب؟ وهكذا استولى الرعب على قلب الملك، وقد تذكر يربعام الذي يبست يده. ولم يسع آخاب إلا أن يطيع الأمر دون أن يتجرأ على رفع يده ضد رسول الله. وهكذا سار الملك المرتعب للقاء النبي مصحوباً بثلاثة من الجنود.

ثم تقابل الملك والنبي وجهاً لوجه. ومع أن آخاب كان يحتدم غيظاً وكراهية على إيليا، إلا أنه الآن يقف أمامه مرتعباً عاجزاً. وإذ خاطب بكلماته الأولى المتلعثمة إيليّا قائلاً: "أأنت هو مكدّر إسرائيل" كشف في غير وعي منه عن مشاعر قلبه الداخلية. لقد علم آخاب أن السماء صارت كالنحاس بقوة كلمة الله ومع ذلك فقد حاول أن يلقي باللوم على النبي بسبب أحكام السماء التي ثقلت على الأرض.

إنه لأمر طبيعي أن يحمّل فاعل الشر رسل الله مسؤولية الكوارث التي تحدث كنتيجة حتمية لارتداد الناس عن طريق البر. إن الذين يضعون أنفسهم تحت سيطرة الشيطان يعجزون عن رؤية الأمور كما يراها الله. فعندما ترتفع مرآة الحق أمام أنظارهم يغضبون من مجرّد التفكير بتوبيخ يوجه إليهم. إنهم يرفضون التوبة [114] لأن الخطيئة أعمت أذهانهم وهم يحسّون أن خدّام الله قد انقلبوا عليهم ولذلك هم يستحقون اللوم القاسي.

إذ وقف إيليّا أمام آخاب شاعراً ببرائته لم يحاول الإعتذار عن نفسه أو أن يتملّق الملك. ولا هو حاول تجنّب غضبه كونه يخبره أن أيّام القحط موشكة على الانتهاء. ولم يكن لديه أي اعتذار عمّا حدث. فهو إذ كان ساخطاً وغيوراً على كرامة الله فقد رد تهمة آخاب في وجهه قائلاً له بلا خوف أن خطاياه وخطايا آبائه هي التي جلبت هذه الكارثة الهائلة على الشعب. وقال له مؤكداً بجرأة: "فقال لم أكدّر إسرائيل بل أنت وبيت أبيك بترككم وصايا الرب وبسيرك وراء البعليم" (1 ملوك 18 : 17، 18).

الحاجة ماسة اليوم إلى صوت التوبيخ الصارم على الخطايا الشنيعة التي فصلت الناس عن الله. فالإلحاد موشك أن يصير أمراً واقعاً مألوفاً. وآلاف الناس يقولون بأفواههم أو بلسان حالهم: "لا نريد أن هذا الملك علينا" (لوقا 19 : 14). ولم تعد العظات التي تُلقى كثيراً من على المنابر والتي تحتوي على كلمات ناعمة، تحدث أثراً دائماً في النفوس. ولم يعد البوق يعطي صوتاً واضحاُ. والناس لم تعد تتأثر قلوبهم بواسطة حقائق كلمة الله الواضحة القاطعة.

يوجد كثيرين من المعترفين بالمسيحية الذين لو عبّروا عن مشاعرهم الحقيقية لقالوا: ما الحاجة إلى الكلام بمثل هذه الصراحة؟ ويمكنهم أن يسألوا كذلك: ما الذي دفع يوحنا المعمدان ليقول للفريسيين: "يا أولاد الأفاعي من أراكم أن تهربوا من الغضب الآتي" (لوقا 3 : 7). ولماذا لزم أن يثير ثائرة غضب هيرودا بقوله لهيردوس أنه لا يحل له أن يعيش مع امرأة أخيه؟ لقد فقد يوحنا المعمدان، [115] سابق المسيح، حياته بهذا الكلام الصريح. فلماذا لم يتابع مسيرة حياته بحيث لا يجلب على نفسه سخط ذينك اللذين عاشا في الخطيئة؟

بهذا النمط تجادل من كان يجب أن يقفوا حراساُ أمناء على شريعة الله حتى احتلّت السياسة مكان الأمانة واستمرت الخطيئة سافرة دون أن يوبّخها أحد. متى يسمع صوت التوبيخ الصادق في الكنيسة مرة أخرى؟

"أنت هو الرجل" (2 صموئيل 12 : 7). كلام في منتهى الوضوح والصراحة خاطب به ناثان داود قلما يُسمع اليوم من على المنابر بل قلما يقرأ في الصحف أو في الكتب. ولولا ندرته لرأينا الكثير من براهين قدرة الله الظاهرة بين الناس. ينبغي ألا يشتكي رسل الرب قائلين إن جهودهم هي بلا ثمر، وحتى يتوبوا عن خطيئتهم التي هي محبة مدح الناس واستحسانهم ورغبتهم في إرضائهم الأمر الذي يؤدي بهم إلى كتمان الحق.

أما الخادمون الذين دأبهم إرضاء الناس، الذين يصيحون قائلين: سلام سلام في حين أن الله لم يتكلم بالسلام، فيحسن بهم أن يتذللوا أمام الله طالبين الغفران عن عدم إخلاصهم وانعدام الشجاعة الأدبية من قلوبهم. إنهم يجعلون الرسالة المسلّمة إليهم ناعمة، لا لأنهم يحبون أقرباءهم، بل لأنهم منغمسون في الملذات ومحبون للراحة. المحبة الحقيقية هي التي تطلب أولاً مجد الله وخلاص النفوس. الذين عندهم هذه المحبة لم يتنحوا عن الحق لتجنيب أنفسهم النتائج المحزنة لصراحتهم. وعندما تكون النفوس في خطر فخدّام الله لا يهتمون بذواتهم بل يتكلمون بالكلمة المعطاة لهم ليبلغوها للناس ويرفضون الاعتذار عن الشر أو التهوين من خطره. [116]

ليت كل خادم يتحقق من قدسية وظيفته وقداسة عمله ويبدي شجاعة كالتي أبداها إيليّا! فالخدم باعتبارهم رسلاً معينين من قبل الله هم في مركز ينطوي على مسؤولية خطيرة. عليهم أن "يوبخوا وينتهروا ويعظوا بكل أناة وتعليم" (2 تيموثاوس 4 : 2). وأن يخدموا كوكلاء سرائر السماء كنواب عن المسيح فيشجعون المطيعين وينذرون العصاه ولا يقيمون وزناً للسياسة الدنيوية. وينبغي لهم ألا ينحرفوا عن الطريق الذي أمرهم يسوع بالسير فيه. وأن يتقدموا إلى الأمام بإيمان متذكرين أنهم محاطون بسحابة من الشهود. وألا ينطقوا بكلامهم بل بالكلام الذي يأمرهم ذاك الذي هو أعظم من ملوك الأرض. وأن تكون

رسالتهم: "هكذا قال الرب". إن الله يطلب رجالاً كإيليّا وناثان ويوحنا المعمدان — رجالاً يحملون رسالته بأمانة بغض النظر عن النتائج، رجالاً يقولون الحق بشجاعة حتى لو أدى بهم ذلك إلى التضحية بكل ما يملكون.

لا يمكن لله أن يستخدم الذين يخافون من الثبات إلى جانب الحق في وقت الخطر، عندما يحتاج الأمر إلى قوة الجميع وشجاعتهم وتأثيرهم. أنه يطلب رجالاً يحاربون بأمانة ضد الخطأ والضلال، وضد الرؤساء والسلاطين وولاة العالم على ظلمة هذا الدهر، ضد أجناد الشر الروحية في السماويات. لمثل هؤلاء سيقول: "نعما أيها العبد الصالح والأمين .. ادخل إلى فرح سيّدك" (متى 25 : 23).

* * * * * [117]

الفصل الحادي عشر ــــ جبل الكرمل

(اعتمد هذا الفصل على ما ورد في 1 ملوك 18 : 19 — 40).

إذا كان إيليّا واقفاً أمام آخاب أمر أن يجتمع جميع الشعب وأنبياء البعل والعشتروت للقائه على جبل الكرمل. فقد أمره قائلاً: "أرسل واجمع إلى كل إسرائيل إلى جبل الكرمل وأنبياء البعل أربع المئة والخمسين وأنبياء السواري أربع المئة يأكلون على مائدة إيزابل" (1 ملوك 18 : 19).

فقد صدر الأمر من فم إنسان بدا كأنه يقف في محضر الرب ذاته. وأطاع آخاب في الحال كما لو كان النبي هو الملك وكان الملك واحداً من رعاياه. وقد أوفد رسلاً على جناحي السرعة إلى كل أنحاء المملكة يدعو الناس للاجتماع في الوقت المعين. وفيما كانوا يسافرون إلى ذلك المكان امتلأت قلوب الكثيرين منهم بهواجس غريبة. لابد أن شيئاً غير عادي مزمع أن يحدث، وإلا فلماذا يدعون للاجتماع فوق جبل الكرمل؟ أية كارثة جديدة مزعمة أن تحل بالشعب والبلاد؟

قبل أيام القحط والجفاف كان جبل الكرمل مكاناً جميلاً وقد استمدت جداوله مياهها من ينابيع فائضة بالماء وكانت منحدراته الخصبة مكسوة بالأزهار الجميلة والحدائق المزدهرة. أمّا الآن فقد غاب جماله بسبب اللعنة التي أدت به [118] إلى الجفاف. وكانت المذابح المقامة لعبادة البعل وعشتروت تحيط بها حدائق ذابلة لا ورق فيها. وفي قمة الجبل وُجد مذبح الرب المنهدم على نقيض مذابح البعل.

كان جبل الكرمل يشرف على رقعة واسعة من البلاد، كما شوهدت مرتفعاته من أماكن كثيرة في مملكة إسرائيل وعند سفح الجبل وجدت أماكن مناسبة لمراقبة ما يحدث فوق الجبل. كانت عبادة الأوثان التي مورست في منحدراته المكسوة بالأشجار. إهانة بالغة لله، وقد اختار إيليّا ذلك المرتفع لكونه أبرز مكان يبدو للعيان ليظهر فيه قدرة الله لتزكية كرامة اسمه.

وفي الصباح الباكر من ذلك اليوم المحدد توافد الشعب المرتد بشوق وانتظار بالقرب من قمة الجبل. وارتقى أنبياء إيزابل الجبل بحللهم المهيبة وظهر الملك بأبهة وجلال وهو يقف على رأس الكهنة، فيهتف عابدوا الأوثان ترحيباً به ولكن الرهبة والخوف كانا يستبدان بقلوب الكهنة عندما يذكرون أن البلاد لم ينزل عليها طل ولا مطر على مدى ثلاث سنوات ونصف بناء على كلمة النبي. إنهم يحسّون بحق أن أزمة رهيبة وشيكة الوقوع. فالآلهة التي اتّكلوا عليها عجزت عن إقامة الدليل أن إيليّا نبي كذاب. وما أدهشهم بالأكثر أن آلهتهم التي كانوا يتعبدون لها أبدت عدم اكتراث لصرخاتهم الجنونية ودموعهم وتذللهم وطقوسهم وممارستهم الثائرة وذبائحهم الغالية التي لم تنقطع.

لقد وقف إيليا وحيداً في مواجهة الملك آخاب والأنبياء الكذبة وهو محاط بجموع الشعب مدافعاً عن كرامة الرب. فذاك الذي اتّهمته المملكة كلها بأنه السبب في ذلك الشقاء الذي حل بها، يقف أمامهم الآن وهو في الواقع أعزل من وسائل الدفاع في حضرة ملك إسرائيل وأنبياء البعل ورجال الحرب وآلاف [119] الشعب المحيطين به. إلا أن إيليا لم يكن وحيداً. فمن فوقه ومن حوله يوجد حراس هم جند السماء ــــ الملائكة المقتدرون قوة.

ويقف النبي أمام ذلك الجمع بلا رعب أو وجل وهو مدرك تماماً مدى خطورة رسالته الموكل إليه أمر تنفيذها من قبل الرب، ووجهه يلمع بنور مقدس. أما الشعب فينتظر منه بجزع أن يتكلم. فإذ ينظر إيليا أولا إلى مذبح الرب المنهدم ثم إلى الشعل يهتف بصوت يجلجل كصوت البوق قائلاً: "حتى متى تعرجون بين الفرقتين إن كان الرب هو الله فاتبعوه وإن كان البعل فاتبعوه" (1 ملوك 17 : 21).

ولم يجبه الشعب بكلمة. ولا واحد في ذلك الجمع الحاشد تجرأ على إعلان ولائه للرب. لقد خيّم الخداع والعمى على إسرائيل كغيمة قاتمة. ولم يفاجئ هذا الارتداد المميت الشعب مرة واحدة بل بالتدريج عندما كانوا يرفضون الإصغاء لصوت الإنذار من حين لآخر ويرفضون التوبيخ الذي أرسله الرب إليهم. ففي كل مرة انحرفوا عن عمل الحق، ورفضوا التوبة ترسخ الشر في نفوسهم وأبعدهم عن السماء أكثر. والآن ففي هذه الأزمة أصروا على رفض الوقوف إلى جانب الله.

يبغض الرب بل ويمقت عدم الاكتراث والغدر في وقت حدوث أزمة في عمله. والمسكونة كلها تراقب المشاهد الختامية للصراع العظيم المحتدم بين الخير والشر باهتمام كبير. وشعب الله يقترب من حدود عالم الأبد. فأي شيء بالنسبة إليهم أهم من إظهار ولائهم لإله السماء؟ كان لله أبطال من ذوي الأخلاق السامية في كل الأجيال، وكذلك له أبطال اليوم، الذين هم كيوسف وإيليا ودانيال لا يخجلون من الاعتراف بأنهم شعبه الخاص. إن بركته الخاصة ترافق [120] خدمات الرجال العاملين الذين لا ينحرفون عن طريق الواجب المستقيم بل يسألون قائلين بقوة إلهية: "من الرب؟" (خروج 32 : 26). الذين لا يكتفون بمجرد تقديم السؤال بل يطلبون ممكن يختارون الانضمام إلى شعب الله التقدم إلى الأمام والمجاهرة بولائهم لملك الملوك ورب الأرباب دون خطأ أو التباس. مثل هؤلاء الناس يخضعون إرادتهم وخططهم لشريعة الله. ولأجل محبته لا يحسبون حياتهم عزيزة عندهم. وعملهم هو الاستنارة بكلمة الله وجعلها تنير على العالم في ملء قوتها الثابتة. وشعارهم الإخلاص والولاء لله.

فيما كان بنو إسرائيل على جبل الكرمل يتخبطون في شكوكهم وترددهم، يأتيهم صوت إيليا قاطعاً عليهم حبل صمتهم مرة أخرى، يقول: "أنا بقيت نبياً للرب وحدي وأنبياء البعل أربع مئة وخمسون رجلاً. فليعطونا ثورين فيختاروا لأنفسهم ثوراً واحداً ويقطعوه ويضعوه على الحطب ولكن لا يضعوا ناراً وأنا أقرّب الثور الآخر وأجعله على الحطب ولكن لا أضع ناراً ثم تدعون باسم آلهتكم وأنا أدعو باسم الرب والإله الذي يجيب بنار فهو الله" (1 ملوك 18 : 22 — 24).

كان الإقتراح الذي قدمه إيليا معقولاً بحيث لم يستطع الشعب المراوغة منه أو التهرب. لذلك كانت لديهم بعض الشجاعة جعلتهم يجيبون قائلين: "الكلام حسن" (1 ملوك 18 : 24). ولم يجرؤ أنبياء البعل على رفع أصواتهم احتجاجاً على هذا الاقتراح. ووجه إليهم إيليا الكلام قائلاً: "اختاروا ثوراً واحداً وقربوا أولاً لأنكم أنتم الأكثر وادعوا باسم آلهتكم ولكن لا تضعوا ناراً" (1 ملوك 18 : 25).

بدأ الكهنة الكاذبون بإعداد المذبح ووضع الحطب والذبيحة عليه ومن ثم تلاوة تعاويزهم ورقاهم، وهم يتظاهرون بالجرأة والتحدي، ولكنهم في أعماق قلوبهم المذنبة كانوا يبطنون الرعب. وقد رنّ صدى صيحاتهم المجلجلة في [121] الغابات والمرتفعات المحيطة وهم يدعون باسم إلههم قائلين: "يا بعل أجبنا". ويتجمع الكهنة حول مذبحهم وهو يقفزون ويتلون ويصرخون وينتفون شعورهم ويمزقون أجسادهم متوسلين إلى إلههم كي يسرع لنجدتهم.

مرت ساعات الصباح وأقبل الظهر ومع ذلك لم يكن من برهان أن البعل يسمع صرخات كهنته المخدوعين. لم يأت صوت ولا جواب لصلواتهم المجنونة. وتبقى الذبيحة على حالها لا تأكلها النار.

وإذ يواصلون ممارسة فروض عبادتهم بخبل يواصل الكهنة الماكرون أيضاً محاولة ابتكار وسيلة يمكنهم بها إشعال النار على المذبح وجعل الناس يعتقدون إنها جاءت من البعل مباشرة. إلا أن عين إيليا

اليقظة راقبت كل حركة وإذ ظل الكهنة يرجون خلافاً للرجاء أن تسنح فرصة للخداع فقد واصلوا ممارسة طقوسهم العديمة المعنى.

وعند الظهر سخر بهم إيليا وقال: "ادعوا بصوت عال لأنه إله لعله مستغرق أو في خلوة أو في سفر أو لعله نائم فيتنبه فصرخوا بصوت عال وتقطّعوا حسب عادتهم بالسيوف والرماح حتى سال منهم الدم. ولما جاز الظهر وتنبأوا إلى حين إصعاد التقدمة .. لم يكن صوت ولا مجيب ولا مصغ" (1 ملوك 18 : 27 — 29).

كان الشيطان يسر بالاسراع لنجدة أولئك الذين قد خدعهم وجعلهم يكرسون ذواتهم لخدمته. وكان يرغب بكل سرور أن يرسل برقاً يشعل الذبيحة بالنار. ولكن الله وضع للشيطان حدوداً لا يتعداها — وردع قوته — لذلك فلم يكن ممكناً أن تنقل كل مكايد العدو وحيله شرارة واحدة إلى مذبح البعل. [122]

أخيراً بعدما بحت أصوات الكهنة من كثرة الصياح وبعدما تلطّخت ثيابهم بالدماء التي جرت من جراحهم، أسقط في يدهم وشملهم اليأس. ففي جنونهم واهتياجهم جعلوا يخلطون بين توسلاتهم لعنات وجهوها إلى إلههم، إله الشمس. ولكن ظل إيليا يراقب بكل انتباه لأنه كان يعلم أنه لو أفلحت أية حيلة من حيل الكهنة في إشعال النار على مذبحهم فلابد أن يمزقوه إرباً إرباً.

ويقترب السماء ويصيب أنبياء البعل الإعياء والارتباك. فكان أحدهم يقترح شيئاً، وغيره يقترح شيئاً آخر، حتى كفوا عن محاولاتهم. وما عاد صدى صرخاتهم أو لعناتهم يرن فوق جبل الكرمل. وفي يأسهم ينسحبون من حومة النضال. ظل الشعب يشهد طوال اليوم مظاهرات الكهنة المغلوبين على أمرهم وهم يرقصون رقصاتهم الهستيرية حول المذبح كما لو كانوا يريدون أن يقبضوا على أشعة الشمس لإتمام غرضهم. ونظروا برعب إلى التشويهات الكثيرة التي أحدثها الكهنة في أجسادهم. لذلك كانت لديهم فرصة للتأمل في جهالات عبادة الأوثان. وضجر كثيرون في ذلك الجمع من تلك المشاهد الشيطانية، وها هم الآن ينتظرون تحركات إيليا باهتمام بالغ.

الوقت هو وقت تقديم ذبيحة المساء. ويأمر إيليا الشعب قائلاً: "تقدموا إلي فإذ يقتربون منه وهم مرتعبون، يلتفت هو إلى المذبح المنهدم حيث كان الناس يعبدون إله السماء سابقاً، ثم يرممه، كانت كومة الأنقاض هذه أغلى في نظره من كل المذابح الوثنية الفخمة.

إذ رمم إيليا المذبح القديم أعلن احترامه للعهد الذي قطعه الرب مع شعبه عند عبورهم الأردن إلى أرض الميعاد. فقد اختار "اثني عشر حجراً بعدد أسباط بني يعقوب .. وبنى الحجارة مذبحاً باسم الرب" (1 ملوك 18 : 32،31). [123]

إذ كان كهنة البعل الذين خابت آمالهم منهوكين بسبب جهودهم الفاشلة جلسوا لينظروا ما الذي سيفعله إيليا. فهم يبغضونه لأنه قدم اقتراحاً كشف به ضعف آلهتهم وعجزها ولكنهم مع ذلك يخشون قوته. وإذ كان الشعب خائفاً أيضاً ولا يكاد يلتقط أنفاسه أخذ ينتظر ما سيحدث ويراقب إيليا وهو يقوم باستعداداته. وقد تصرف النبي في هدوء على نقيض الجنون الذي أبداه عبدة البعل بلا جدوى.

بعدما أكمل النبي بناء المذبح عمل قناة حوله، ورتب الحطب وأعد الثور ووضع الذبيحة على المذبح ثم أمر الشعب أن يصبوا ماء على الذبيحة والمذبح. وقال لهم: "املأوا أربع جرات ماء وصبوا على المحرقة وعلى الحطب. ثم قال ثنّوا فثنّوا وقال ثلثوا فثلثوا فجرى الماء حول المذبح وامتلأت القناة أيضاً ماء" (1 ملوك 18 : 33 — 35).

بعدما ذكر إيليا الشعب بارتدادهم الطويل الأمد الذي أثار غضب الرب دعاهم الآن أن يتذللوا بقلوبهم ويرجعوا إلى إله آبائهم كي ترتفع اللعنة عن أرضهم. ثم جثا بخشوع أمام الإله غير المنظور ورفع يديه إلى السماء وقدم صلاة بسيطة. كان كهنة البعل يصيحون ويصرخون والزبد يخرج من أفواههم وهم

يرقصون من الصباح الباكر إلى ما بعد الظهر أما إيليا فإذ يصلي فلا تتردد فوق شوامخ جبل الكرمل صرخات بلا معنى تخرج من فمه. ولكنه يصلي كمن يؤمن أن الرب موجود في ذلك المكان يشهد ما يحدث ويصغي إلى توسلاته. كان أنبياء البعل يصلون بوحشية وجنون، أما إيليا فعلى نقيض ذلك، صلّى ببساطة وغيرة وهدوء سائلاً الله أن يبرهن على تفوّقه على البعل لكي يرجع الشعب إليه. [124]

توسل النبي قائلاً في صلاته: "أيها الرب إله ابراهيم واسحق وإسرائيل ليُعلم اليوم أنك أنت الله وإني أنا عبدك وبأمرك قد فعلت كل هذه الأمور. استجبني يا رب استجبني ليعلم هذا الشعب أنّك أنت الرب الإله وأنك أنت حوّلت قلوبهم رجوعاً" (1 ملوك 18 : 37، 38).

وهنا يستولي على الجميع صمت مهيب. ويرتجف كهنة البعل من هول الرعب. وإذ أحسوا بجرمهم كانوا يتوقعون الانتقام السريع.

وفور انتهاء إيليا من صلاته نزلت نار من السماء كوميض برق لامع، على المذبح فأكلت المحرقة ولحست المياه التي في القناة وأكلت حتى حجارة المذبح. وقد أنار بهاء تلك النار جوانب الجبل وبهر أبصار الجمهور المحتشد. وقد انتظر في الأودية القريبة كثيرون وهم يترقبون بشوق ما كان يحدث فوق الجبل، فقد رأوا نزول النار بوضوح. فذهل الجميع بهذا المنظر. فهي تشبه عمود النار الذي كان يفصل بين بني إسرائيل وجيوش المصريين في عرض البحر الأحمر.

عندئذ سقط الشعب الذي فوق الجبل على وجوههم في خوف أمام الإله غير المنظور. فهم لا يجرؤون على الاستمرار في التحديق في النار النازلة من السماء خوفاً لئلا تلتهمهم. وإذ يقتنعون بأنه يجب عليهم الاعتراف بأن الرب إله إيليا هو إله آبائهم الذي يدينون له بالولاء، يصرخون معاً بصوت واحد قائلين: "الرب هو الله. الرب هو الله" (1 ملوك 18 : 39). ويرن ذلك الصوت المفزع في أعالي الجبل بوضوح تام، ويتردد صداه في أسفل الوادي. لقد استيقظ شعب إسرائيل أخيراً وزال عنه الخداع وآب إلى رشده ورأى أخيراً إلى أي حد أهان الله. هنا يُرى الفرق الشاسع بين صفة عبادة البعل والخدمة المعقولة التي يطلبها الإله الحقيقي، [125] كل هذا يبدو واضحاً تمام الوضوح. ويعترف الشعب بعدالة الله ورحمته في كونه حجز عنهم الطل والمطر إلى أن آل ذلك إلى اعترافهم باسمه. وهم الآن مستعدون للاعتراف بأن إله إيليا هو فوق كل الآلهة الوثنية.

أما كهنة البعل فينظرون بذعر إلى مظاهر قدرة الرب العجيبة. ولكن رغم هزيمتهم وخيبتهم، ورغم وجودهم في محضر جلال الله ومجده فقط رفضوا التوبة عن عمل الشر. وأرادوا أن يظلّوا أنبياء للبعل بالرغم من كل ما رأوا. وهكذا برهنوا أنهم نضجوا للهلاك. فلكي يحفظ الشعب التائب من غوايات أولئك الذين علّموهم أن يعبدوا البعل، أرشد الرب إيليا أن يهلك هؤلاء المعلّمين الكذبة. وكان غضب الشعب قد ثار على هؤلاء الذين كانوا دعاة العصيان. وعندما اصدر إيليا أمره قائلاً: "امسكوا أنبياء البعل ولا يفلت منهم رجل" (1 ملوك 18 : 40). أطاعه الشعب فوراً. فأمسكوا الكهنة وأخذوهم إلى نهر قيشون وهناك قبيل الغروب، غروب ذلك اليوم الذي كان بدء إصلاح حاسم، ذبحوا خدّام البعل ولم يسمح لأحد منهم أن ينجو.

* * * * * [126]

الفصل الثاني عشر ـــ من يزرعيل إلى حوريب

(اعتمد هذا الفصل على ما ورد في 1 ملوك 18: 41-46، 19: 1-8).

بعدما ذُبح أنبياء البعل انفتح الطريق للقيام بإصلاح روحي عظيم بين أسباط المملكة الشمالية العشرة. لقد وضع إيليا أمام الشعب ارتدادهم بوضوح ودعاهم كي يتواضعوا ويتذللوا بقلوبهم ويرجعوا إلى الرب. لقد نُفذن أحكام السماء واعترف الشعب بخطاياهم والله إله آبائهم بوصفه الإله الحي. فحان الوقت الآن لكي تزول عنهم لعنة السماء وتتجدد لهم بركات الحياة الزمنية وتنتعش الأرض بالمطر وقال إيليا لآخاب: "اصعد كل واشرب لأنه حس دوي المطر" (1 ملوك 18 : 14). حينئذ صعد النبي إلى قمة الجبل ليصلّي.

وبثقة أمر إيليا آخاب كي يستعد لهطول المطر ولكن ليس بسبب أي برهان خارجي. فالنبي لم ير سحاباً في السماء ولا سمع أصوات الرعود، إنه فقط نطق بالكلمة التي حركه بها روح الرب إجابة لقوة إيمانه. فهو تمم إرادة الله طوال ذلك اليوم بلا تراجع، وأعلن ثقته التامة في نبوّات كلمة الله، والآن بعدما عمل كل ما في وسعه علم أن السماء ستمنح بسخاء البركات التي سبق وأنبأ بها.

فالإله ذاته الذي أرسل القحط والجفاف وعد بإرسال المطر الغزير مكافأة عن عمل الصواب والحق. والآن أخذ إيليا ينتظر هطول المطر الموعود به وبوداعة. [127] شديدة جعل "وجهه بين ركبتيه" وجعل يتوسط أمام الله متوسلاً لأجل بني شعبه التائبين.

ثم أرسل إيليا غلامه مراراً إلى بقعة تشرف على البحر الأبيض المتوسط ليعلم ما إذا كانت هناك أية علامة ظاهرة أن الله سمع صلاته. وكان الغلام يعود في كل مرة ليقول: "ليس شيء". ولم يضجر النبي ولا تزعزع إيمانه، لكنه ظل يرفع صلواته الحارة. وذهب الغلام وعاد ست مرات ليقول أنه لا توجد علامة على نزول المطر من السماء التي كانت كالنحاس. لكن إيليا الشجاع أرسله للمرة السابعة، وعاد الغلام في هذه المرة ليقول: "هوذا غيمة صغيرة قد كف إنسان صاعدة من البحر" (1 ملوك 18 : 44).

كان هذا كافياً بالنسبة لإيليا. فهو لم ينتظر حتى تظلم السماء بالسحب الداكنة. فقد ساعده إيمانه أن يرى في تلك الغيمة الصغيرة، مطراً وفيراً. فكان تصرفه منسجماً مع إيمانه إذ أرسل غلامه برسالة عاجلة إلى آخاب تقول "اشدد وانزل لئلا يمنعك المطر" (1 ملوك 18 : 44).

كان إيليا رجلاً ذا إيمان عظيم بحيث استطاع الله استخدامه في هذه الأزمة العصيبة من تاريخ إسرائيل. فعندما صلّى ازداد إيمانه وتمسك بمواعيد السماء، وظل مثابراً على الصلاة حتى أجيبت طلباته. ولم ينتظر كي يحصل على أكمل برهان أن الله قد سمعه. لكنه كان على استعداد بالمجازفة بكل شيء لأقل علامة من علامات رضى الله. ومع ذلك فكل ما استطاع أن يفعله تحت يد الله يمكن للجميع أن يفعلوه في محيط نشاطهم في خدمة الله، لأنه مكتوب على النبي الذي من جبال جلعاد هذا القول: "كان إيليا إنساناً تحت الآلام مثلنا وصلّى صلاة أن لا تمطر على الأرض ثلاث سنين وستة أشهر" (يعقوب 5 : 17). [128]

يحتاج العالم اليوم إلى إيمان كهذا يتمسك بمواعيد كلمة الله ولا يسمح لها بالإفلات منه ما لم تستجيب

السماء. إن إيماناً كهذا يربطنا بالسماء ويأتينا بالقوة التي نكافح بها قوات الظلمة. استطاع أولاد الله بالإيمان أن يعملوا أعمالاً باهرة فقد "قهروا ممالك، صنعوا براً، نالوا مواعيد، شدوا أفواه أسود، أطفأوا قوة النار، نجوا من حد السيف، تقووا من ضعف، صاروا أشداء في الحرب، هزموا جيوش غرباء" (عبرانيين 11 : 34،22). نستطيع نحن اليوم أن نصل إلى أسمى مقاصد الله نحونا بالإيمان: "إن كنت تستطيع أن تؤمن. كل مستطاع للمؤمنين" (مرقس 9 : 23).

الإيمان عنصر جوهري من عناصر الصلاة الغالبة: "يجب أن الذي يأتي إلى الله يؤمن بأنه موجود وأنه يجازي الذين يطلبونه". "إن طلبنا شيئاً حسب مشيئته يسمع لنا. وإن كنا نعلم أنه مهما طلبنا يسمع لنا نعلم أن لنا الطلبات التي طلبناها منه" (عبرانيين 11: 7، 1 يوحنا 14، 15). يمكننا أن نقدم طلباتنا إلى الآب بإيمان ومثابرة كإيمان يعقوب وبإصرار وعدم استسلام كإصرار إيليا، طالبين منه أن يتمم ما وعد به. فكرامة عرشه متوقّفة على إتمام كلامه.

كان ظلام الليل يزحف حول جبل الكرمل عندما كان آخاب يتأهب للنزول: "وكان من هنا إلى هنا أن السماء اسودّت من الغيم والريح وكان مطر عظيم. فركب آخاب ومضى إلى يزرعيل" (1 ملوك 18 : 45). إذ كان آخاب مسافراً إلى عاصمة ملكه والظلام محدق به والأمطار تنهمر عليه، كاد يعمى عن رؤية الطريق أمامه. أما إيليا كنبي الله إذ كان قد أذلّ آخاب في ذلك اليوم أمام رعاياه وذبح كهنته الوثنيين، كان مازال يعترف به ملكاً على إسرائيل، ولكي يبرهن الآن على [129] ولائه للملك، وإذ تقوّى بقوّة الله، فقد ركض أمام المركبة الملكية وأرشد الملك إلى باب المدينة.

إننا نجد في ذلك العمل الكريم الذي قام به رسول الله لملك شرير، قدوة لكل من يدّعون بأنهم خدّام الله ومع ذلك هم مترّفعون في نظر أنفسهم. يوجد من يحسون بأنهم أرفع من أن يمارسوا واجبات تبدو حقيرة في نظرهم. وهم يترددون في القيام حتى بالخدمة اللازمة إذ يخشون أن يراهم أحد وهم يقومون بعمل الخدم. هؤلاء الناس يحتاجون إلى تعلّم الكثير من مثال إيليا. فبكلمته احتبس المطر لمدى ثلاث سنوات، وقد أكرمه الله إكراماً خاصاً بإجابة صلاته التي قدّمها على جبل الكرمل إذ نزلت نار من السماء وأكلت الذبيحة، ونفذ حكم الله بقتله أنبياء البعل بنفسه وأجيبت صلاته حين طلب هطول المطر. ومع ذلك فبعد الإنتصارات الشهيرة التي سر الله أن يكرم بها خدمته الجهارية كان مستعداً للقيام بعمل الخدم.

وعند باب يزرعيل افترق إيليا عن آخاب. فإذ اختار النبي أن يبقى خارج الأسوار لف نفسه بردائه واضطجع على الأرض الجرداء لينام. أما الملك فإذ ولج الأسوار أسرع للاحتماء في قصره حيث أخبر امرأته بالأحداث العجيبة التي وقعت بحيث تبرهن للشعب أن الرب هو الإله الحقيقي وأن إيليا هو رسوله المختار. وحين أخبر آخاب الملكة عن قتل أنبياء البعل ثارت إيزابل القاسية المتحجرة القلب واهتاجت، ورفضت أن ترى في ما حدث على جبل الكرمل عناية الله المسيطرة، وإذ كانت سادرة في تحدّيها أعلنت بكل جرأة أن إيليا يجب أن يموت. [130]

في تلك الليلة جاء رسول إلى ذلك النبي التعب وأيقظه وسلّم إليه رسالة إيزابل التي تقول: "هكذا تفعل الآلهة وهكذا تزيد إن لم أجعل نفسك كنفس واحد منهم في نحو هذا الوقت غداً" (1 ملوك 19 : 2).

كان يبدو أنه بعدما أبدى إيليا شجاعة لا تعرف الخوف، وبعد نصرته الكاملة على الملك والكهنة والشعب، لن يستسلم لليأس فيما بعد ولن يرتعب أو يجبن. ولكن ذاك الذي باركه الله بتلك البراهين المحسومة الكثيرة على عناية محبته لم يكن فوق متناول الضعفات البشرية، في هذه الساعة المُظلمة فارقه إيمانه وتبدّدت شجاعته. وقد صحا من نومه وهو مرتبك ومتحير. كان المطر مازال ينهمر وغطى الظلام كل مكان. لقد نسي النبي أنه منذ ثلاث سنوات أرشده الله ووجّه خطواته إلى مكان لجأ إليه من عداوة إيزابل وتفتيش آخاب، فنراه الآن يهرب لحياته. ولما وصل إلى بئر السبع: "ترك غلامه هناك، ثم سار في

البرية مسيرة يوم" (1 ملوك 19 : 3، 4).

ما كان يجب على إيليا أن يهرب من مركز خدمته وواجباته. كان عليه مقابلة وعيد إيزابل بأن يلجأ في طلب الحماية ممن أرسله لتحقيق وتأييد كرامة الرب. كان ينبغي له أن يقول لذلك الرسول أن الإله الذي يتكل عليه سيحفظه من كراهية الملكة. لم يكن قد مر غير وقت قصير منذ شاهد استعراضاً عجيباً لقدرة الله، وكان يجب أن يؤكد له ذلك أنه لن يُترك الآن. ولو بقي حيث هو وجعل الله ملجأه وهو واقف بثبات إلى جانب الحق لكان قد حُفظ من كل أذى. وكان الرب سيعطيه انتصاراً شهيراً آخر بإيقاع أحكامه وضرباته على إيزابل نفسها، والتأثير الذي كان سيحدث للملك والشعب كان سيحقق إصلاحاً عظيماً. [131]

توقع إيليا الكثير من المعجزة التي حدثت على جبل الكرمل. كان يؤمن أنه بعد ظهور قدرة الله لن يعود لإيزابل تأثير على عقل آخاب وأن إصلاحاً سريعاً سيعم الشعب. وطوال ذلك اليوم الذي قضاه فوق قمة جبل الكرمل أرهق نفسه بالخدمة دون أن يتناول طعاماً. ومع ذلك فعندما تقدّم راكضاً أمام مركب آخاب إلى باب يزرعيل كان قوياً في شجاعته برغم الإجهاد الجسماني الذي صاحب عمله هذا.

ولكن رد فعل كالذي غالباً ما يتبع إيماناً قوياً ونجاحاً مجيداً كان يضغط على إيليا. كان يخشى ألا يدوم الإصلاح الذي بدأ على جبل الكرمل، فاستبدت بقلبه الكآبة. بالأمس ارتفع إلى قمة "الفسجة" والآن يهوي إلى الأعماق. عندما كان تحت إلهام الله القدير، ثبت إيمانه أمام أقسى امتحان، ولكن عندما دهمه الخوف ورن في أذنيه تهديد إيزابل، وعندما كان يبدو أن الشيطان انتصر بواسطة مؤامرة إيزابل الشريرة، كف إيليا عن تمسكه بالله. كان قد ارتفع إلى علو شاهق، فكان رد الفعل هائلاً مريعاً. إذ نسي إيليا الله، هرب حتى وجد نفسه وحيداً في قفر موحش. وإذ كان في أشد حالات التعب جلس تحت رتمة ليستريح، وهناك طلب الموت لنفسه قائلاً: "قد كفى الآن يا رب خذ نفسي لأني لست خيراً من آبائي" (1 ملوك 19 : 4). كان هارباً بعيداً عن مساكن الناس وخارت قواه وتلاشت تحت ثقل الفشل المرير، لذلك لم يُرد أن ينظر إلى وجه إنسان قط. وإذ كان منهوك القوى اضطجع ونام أخيراً.

تأتي على الجميع أوقات اختبار فيها يحسون بخيبة أمل قاسية ووهن شديد. أيام يكون الحزن من نصيب الإنسان بحيث يغدو من الصعب عليه الاعتقاد أن الله مازال هو المحسن الرحيم نحو أولاده الضعفاء، أيام تزعج فيها الضيقات [132] النفس وتشرذمها حتى ليفضل الإنسان الموت على الحياة. في ذلك الحين يكف كثيرون عن التمسك بالله ويقعون أسرى الشك وعدم الإيمان. فلو أمكننا في مثل تلك الأوقات أن نميّز ببصيرتنا الروحية معنى أعمال عناية الله، لرأينا الملائكة يحاولون إنقاذنا من أنفسنا ويجاهدون لتثبيت أقدامنا على الآكام الدهرية لينبثق في أعماقنا إيمان جديد وحياة جديدة.

أعلن أيوب الأمين في يوم بليته المظلم قائلاً: "ليته هلك اليوم الذي ولدت فيه". "ليت كربي وزن ومصيبتي رفعت في الموازين جميعها". "يا ليت طلباتي تأتي ويعطيني الله رجائي أن يرضى الله بأن يسحقني ويطلق يده فيقطعني فلا تزال تعزيتي". "أنا أيضاً لا أمنع فمي أتكلّم بضيق روحي أشكو بمرارة نفسي". "فاختارت نفسي .. الموت على عظامي هذه. قد ذبت لا إلى الأبد حياً. كف عني لأن أيامي نفخة" (أيوب 3 : 3، 6 : 2، 8-10، 7 : 11، 15، 16).

ولكن مع أن أيوب كان ضجراً من الحياة لم يسمح له بأن يموت. فقد كُشف له عن إمكانات المستقبل وقدّمت له رسالة الرجاء:

"وتكون ثابتاً ولا تخاف. لأنك تنسى المشقة كمياه عبرت تذكرها. وفوق الظهيرة يقوم حظك. الظلام يتحول صباحاً. وتطمئن لأنه يوجد رجاء .. وتضطجع آمناً. وتربض وليس من يزعج ويتضرع إلى وجهك كثيرون. أما عيون الأشرار فتتلف ومناصبهم يبيد ورجاؤهم تسليم النفس" (أيوب 11 : 16 — 20).

ارتفع أيوب من حضيض الوهن واليأس إلى قمة الثقة التامة في رحمة الله وقوته المخلِّصة. وأعلن يقول بلهجة الإنتصار: "هوذا يقتلني. لا أنتظر شيئاً (أتكل عليه). فهذا يعود إلى خلاصي.." "أما أنا فقد علمت أن وليي حي والآخر على [133] الأرض يقوم ويعد أن يفنى جلدي هذا وبدون جسدي أرى الله. الذي أراه أنا لنفسي وعيناي تنظران وليس آخر.." (أيوب 13 : 15 — 16، 19 : 25 — 27).

"فأجاب الرب أيوب من العاصفة" (أيوب 28 : 1)، وأعلن لخادمه قوة سلطانه. وعندما رأى أيوب لمحة من خالقه رفض نفسه وندم في التراب والرماد. وحينئذ استطاع الرب أن يباركه بركة غزيرة وأن يجعل سنواته الأخيرة أفضل سنّي حياته.

الرجاء والشجاعة لازمان وجوهريان لتقديم خدمة كاملة لله. وهذان هما من ثمار الإيمان. اليأس خطيئة وهو غير معقول. الله يقدر ويريد "أكثر كثيراً" (عبرانيين 6 : 17) أن يمنح لعبيده القوة التي يحتاجونها لأجل الامتحان والتجربة. قد تبدو مؤامرات أعداء عمله بأنها رسمت جيداً وثبتت بقوة ولكن الله يستطيع أن يبطل أقوى المؤامرات. وهذا ما يفعله في وقته الملائم وبطريقته الفعالة عندما يرى أن إيمان عبيده قد امتحن بما فيه الكفاية.

للخائري العزائم والضعاف القلوب يوجد علاج أكيد — الإيمان والصلاة والعمل. فالإيمان والنشاط يمنحان اليقين والرضا ويتزايدان يوماً بعد يوم. فهل أنت مجرب وتكاد تستسلم للتوجش والجزع واليأس التام. فحتى في أحلك الأيام عندما تدل كل الظواهر على انعدام الأمل، لا تخشى شيئاً. بل ليكن لك إيمان بالله. إنه يعرف حاجتك وله كل سلطان. ومحبته وحنانه السرمديان لا يكلّان قط. لا تخش أن يفشل في إتمام وعده، فهو الحق السرمدي. لا يمكن أن ينكث عهده الذي قد أبرمه مع محبّيه. وسيمنح عبيده الأمناء قدراً من الطاقة والفاعلية يكفي لتلبية حاجاتهم. وقد شهد الرسول بولس قائلاً: "فقال لي تكفيك نعمتي لأن قوتي في الضعف تكمل .. لذلك أسر بالضعفات والشتائم والضرورات [134] والضيقات لأجل المسيح. لأني حينما أنا ضعيف فحينئذ أنا قوي" (2 كورنثوس 12: 9، 10).

فهل نسي الله إيليا في ساعة تجربته؟ كلا أبداً! فمحبته لخدمه عندما أحسّ إيليا بأن الله والناس قد تركوه، لم تكن أقل منها عندما نزلت نار من السماء وأنارت أعالي الجبل إجابة لصلاته. والآن عندما نام إيليا استيقظ على أثر لمسة رقيقة وصوت جميل سمعه فنهض مرتعباً وكأنما كان يحاول الهرب إذ كان يخشى أن يكون الأعداء قد اكتشفوا مكانه. ولكن الوجه المشفق الذي كان منحنياً فوقه لم يكن وجه عدو بل وجه صديق. لقد أرسل الله إلى خادمه ملاكاً من السماء يحمل له طعاماً. قال له الملاك: "قم وكل. فتطلّع وإذا كعكة رضف وكوز ماء عند رأسه" (1 ملوك 19 : 5، 6).

فبعدما تناول إيليا من هذه المؤونة المعدة له عاد ونام. فجاءه الملاك مرة ثانية. وإذ لمس وهو خائر القوى قال له برقة وعطف: "قم وكل لأن المسافة كثيرة عليك. فقام وأكل وشرب وسار بقوة تلك الأكلة أربعين نهاراً وأربعين ليلة إلى جبل الله حوريب" (1 ملوك 19 : 7، 8) حيث وجد هناك ملاذاً في مغارة.

[135] * * * * *

الفصل الثالث عشر ــــ "مالك ههنا؟"

(اعتمد هذا الفصل على ما ورد في 1 ملوك 19 : 9 — 18).

المعتكف الذي لجأ إليه إيليا على جبل حوريب وإن كان محجوباً عن عيون الناس فقد كان مكشوفاً لدى الله، ولم يترك ذلك النبي الخائف المتعب ليكافح قوات الظلمة وحده، تلك التي أناخت عليه بكلكلها. فعند باب المغارة التي التجأ إليها تقابل معه الله بواسطة ملاك عظيم أرسل إليه ليسأله عما يحتاجه وليوضح له مقاصد الله نحو شعبه.

لم يستطع إيليا تكميل عمله مع الذين ضلّوا بعبادة البعل إلا بعدما تعلم الوثوق في الله بالتمام. فانتصاره الفريد الذي أحرزه على جبل الكرمل فتح أمامه الطريق لانتصارات أعظم، ومع ذلك فإنه قد حيل بينه وبين الفرص العجيبة المقدمة له بسبب هروبه من تهديد إيزابل. لذلك ينبغي لرجل الله أن يدرك ضعف مركزه الحالي بالمقارنه مع المركز الممتاز الذي أراده الله أن يشغله.

وقد واجه الله خادمه المجرب بهذا السؤال: "مالك هاهنا يا إيليا؟" (1 ملوك 19 : 9). أراد أن يقول له بكلمات أخرى بأني أرسلتك إلى نهر كريث، ثم أرملة صرفة. ثم أوفدتك كي ترجع إلى الشعب ولتقف أمام كهنة الأوثان على جبل الكرمل، وفي سبيل ذلك منطقتك بالقوة لتتقدم أمام مركبة الملك [136] حتى باب يزرعيل. لكن من ذا الذي أرسلك لتهرب هذا الهروب المشين إلى البرية؟ أي لك هنا؟

وأجاب إيليا بتفجع ومرارة النفس: "قد غرت غيرة للرب إله الجنود لأن بني إسرائيل قد تركوا عهدك ونقضوا مذابحك وقتلوا أنبياءك بالسيف فبقيت أنا وحدي وهم يطلبون نفسي ليأخذوها" (1 ملوك 19 : 10).

وإذ دعا الملاك النبي للخروج من المغارة أمره بأن يقف أمام الرب على الجبل ويصغي إلى كلامه: "وإذا بالرب عابر وريح عظيمة وشديدة قد شقت الجبال وكسرت الصخور أمام الرب ولم يكن الرب في الريح. وبعد الريح زلزلة ولم يكن الرب في الزلزلة. وبعد الزلزلة نار ولم يكن الرب في النار. وبعد النار صوت منخفض خفيف. فلما سمع إيليا لف وجهه بردائه وخرج ووقف في باب المغارة (1 ملوك 19 : 11 — 13).

لقد اختار الله أن يعلن نفسه لعبده لا في مظاهر قدرته الإلهية العظيمة بل في "صوت منخفض خفيف". أراد أن يعلم إيليا أن أنجح وسيلة لإتمام قصده ليست دائماً ما يرافقها استعراض المظاهر. فإذ كان إيليا ينتظر إعلان الرب هبت العاصفة ولمعت البروق وشبت نار آكلة ولم يكن الله في هذا كله. بعد ذلك جاء صوت منخفض خفيف فغطى النبي رأسه في محضر الرب. لقد استكان طبعه الشكس وهدأت روحه. والآن عرف أن الثقة الهادئة والاعتماد الثابت على الله كفيلان بأن يحققا له العون في وقت الحاجة.

ليس التقديم العلني البليغ لحق الله هو الذي يبكت النفس دائماً ويجددها. كما لا يمكن الوصول إلى قلوب الناس بالفصاحة أو بالمنطق بل بتأثير الروح [137] القدس الرقيق الذي يعمل بهدوء وفاعلية أكيدة في تغيير الخلق وتطويره. إنه صوت روح الله الهادي الذي له القوة على تغيير القلب.

"مالك ههنا يا إيليا؟" كان هو السؤال الموجه إليه. فعاد النبي يجيب قائلاً: "غرت غيرة للرب إله الجنود لأن بني إسرائيل قد تركوا عهدك ونقضوا مذابحك وقتلوا أنبياءك بالسيف فبقيت أنا وحدي وهم يطلبون نفسي ليأخذوها" (1 ملوك 19 : 14).

وأجاب الرب إيليا بأن فاعلي الشر في إسرائيل لن يظلوا دون عقاب وأنه سيختار بعض الرجال بصورة خاصة لإتمام قصده في معاقبة المملكة العابدة للأوثان. كان لابد من إجراء عمل حاسم لإعطاء الفرصة للجميع للوقوف إلى جانب الإله الحق. كان على إيليا نفسه أن يعود إلى إسرائيل ويشترك مع آخرين في حمل عبء القيام بإصلاح.

وأمر الرب إيليا قائلاً: "اذهب راجعاً في طريقك إلى برية دمشق وأخل وامسح حزائيل ملكاً على آرام وامسح ياهو بن نمشي ملكاً على إسرائيل وامسح أليشع بن شافاط من آبل محوله نبياً عوضاً عنك. فالذي ينجو من سيف حزائيل يقتله ياهو والذي ينجو من سيف ياهو يقتله أليشع" (1 ملوك 19 : 15 — 17).

ظن إيليا أنه الشخص الوحيد في إسرائيل الذي ظل يعبد الإله الحقيقي. لكن العارف قلوب الجميع أعلن للنبي أنه يوجد كثيرون غيره ظلوا أمناء لله مدى سنّي الارتداد الطويلة وقال: "أبقيت في إسرائيل سبعة آلاف كل الركب التي لم تجث للبعل وكل فم لم يقبله" (1 ملوك 19 : 18). [138]

يمكننا نحن أيضاً أن نتعلم دروساً كثيرة من اختبار إيليا في أيام الخوف وتثبيط الهمة تلك التي بدا وكأنها أيام هزيمة. دروس لها قيمتها الكبرى لخدّام الله في هذا العصر الذي اتّصف بالجنوح عن الحق. فما أشبه الارتداد المتفشي اليوم بالذي انتشر في إسرائيل في أيام النبي. فجماهير كثيرة من الناس يتبعون اليوم البعل بتعظيم الأمور البشرية فوق الأمور الإلهية، ويمجدّون القادة المشهورين ويتعبدون لإله المال ويضعون مبادئ العلم فوق مبادئ الوحي الإلهي. وقد ترك الشك وعدم الإيمان أثرهما الوبيل في العقل والقلب. واستبدل كثيرون أقوال الله بنظريات الناس. بل يوجد من يجاهرون بالتعليم القائل أننا وصلنا إلى زمن ينبغي أن يسمو فيه العقل فوق تعاليم كلمة الله. ويعلن كثيرون عن شريعة الله التي هي المقياس الإلهي للبر أنها عديمة التأثير. فعدو الحق يعمل بقوته الخادعة لجعل الرجال والنساء يضعون القوانين البشرية في مكان الله وينسون الوسائل التي تعينت لخلاص وسعادة بني الإنسان.

ومع ذلك فإن ذلك الارتداد وإن يكن منتشراً كما هو الآن، فهو ليس شاملاً ولا عاماً. فليس كل الناس الذين في العالم هم خطاة عصاة، وليس الجميع انضمّوا إلى صفوف العدو. يوجد آلاف الأنفس لله لم يحنوا ركبة للبعل وكثيرون يتوقون لإدراك ما يختصّ بالمسيح والشريعة إدراكاً أفضل كما يرجو كثيرون أن يأتي يسوع سريعاً ليضع نهاية لملك الخطيئة والموت. كما يوجد أيضاً من ظلوا يسجدون للبعل عن جهل ومع ذلك فروح الله مازال يجاهد معهم.

هؤلاء بحاجة إلى عون شخصي من الذين تعلّموا أن يعرفوا الله وقوة كلمته. ففي زمن كالذي نعيش فيه ينبغي لكل واحد من أولاد الله أن يعمل بجد ونشاط لمساعدة الآخرين. فإذ يحاول الذين يدركون الحق إدراكاً صحيحاً البحث عن [139] الرجال والنساء العطاش إلى النور فإن ملائكة الله يرافقونهم. وحيثما توجد الملائكة فلا خوف من التقدم إلى الأمام. ويرجع كثيرون عن الوثنية لعبادة الإله الحي نتيجة الجهود الأمنية التي يبذلها الخدّام المكرسون. وسيمتنع كثيرون عن تقديم ولائهم للقوانين التي هي من صنع البشر، ويقفون بلا خوف إلى جانب الله وشريعته.

يتوقف الكثير على النشاط المستمر الذي يبذله المخلصون الأمناء، ولذلك يبذل الشيطان قصارى جهده ليعطل القصد الإلهي الذي يجب أن يتمّمه المطيعون. وهو يحمل بعض الناس على تناسي رسالتهم السامية المقدسة فتغيّب عن أنظارهم. ويجعلهم يقتنعون بالمسرّات الدنيوية ويبقيهم مستريحين في أماكنهم، أو يجعلهم ينتقلون من الأماكن التي كان يمكنهم فيها أن يصيروا قوة للخير في سبيل الحصول على ميزات

دنيوية أعظم. ويجعل آخرين يهربون يائسين من القيام بالواجب بسبب المقاومة أو الإضطهاد. أمثال هؤلاء جميعاُ هم موضوع عطف السماء وحنانها القوي. فكل ابن الله أفلح عدو النفوس في إسكات صوته يقدّم له السؤال التالي: "مالك هاهنا؟" لقد أرسلتكم لتذهبوا إلى العالم أجمع وتكرزوا بالإنجيل وتعدّوا الشعب ليوم الله. فلماذا أنتم هنا؟ ومن ذا الذي أرسلكم؟

السرور الموضوع أمام المسيح الذي أعانه وأسنده وهو يتألم حين قدم نفسه ذبيحة، كان باعثة رؤية الخطاة وهو يخلصون. وهو ماينبغي أن يكون فرح جميع تابعيه والدافع لهم في طموحهم. فالذين يتحققون ولو إلى درجة محدودة، معنى الفداء بالنسبة إليهم وإلى بني جنسهم، لابد أن يدركوا إلى حد ما حاجات البشرية العظيمة. فقلوبهم تتأثر إشفاقاُ إذ يتحسسون الفقر الأدبي والروحي الذي [140] يعاني منه آلاف ممن أطبقت عليهم ظلمة الدينونة الرهيبة التي لو قورنت بها الآلام الجسدية لما كانت شيئاً مذكوراً بل كانت كالعدم.

وهذا السؤال ذاته المقدم للأفراد يقدم للعائلات: "مالك ههنا؟" توجد في الكثير من الكنائس عائلات متعلمة ومتمكنة من حقائق كلمة الله بحيث يمكنهم أن يوسعوا أفق تأثيرهم بالانتقال إلى الأماكن المحتاجة إلى الخدمة التي في مقدورهم القيام بها. فالله يدعو الأسر المسيحية للدخول في شعاب الأرض المظلمة للخدمة بحكمة ومثابرة للذين اكتنفهم الظلام الروحي. إن تلبية هذه الدعوة تتطلب التضحية. ففي حين ينتظر الكثيرون إزاحة كل العراقيل والعوائق من طريقهم تلهم النفوس بلا رجاء وبلا إله. فالناس في سبيل الحصول على فوائد عالمية ومعرفة علمية مستعدون للمخاطرة بأنفسهم بالدخول في أقاليم موبوءة واحتمال المشقات والعوز والفقر. فأين هم أولئك المستعدون لأن يفعلوا بالمثل في سبيل تعريف الآخرين بالمخلّص؟

وإن كان الناس من ذوي القوة الروحية يتضايقون بأكثر من طاقتهم وهم في ظروف قاسية فتثبط هممهم وييأسون، ولا يرون في الحياة شيئاً يرغبهم فيها، فهو ليس بالأمر الغريب أو الجديد. فليذكر أمثال هؤلاء أن واحداُ من أعظم الأنبياء وأقواهم هرب من أجل حياته أمام غضب امرأة ثائرة. فإذ كان هارباً من طول السفر، وقد خارت قواه ونقصت شجاعته تحت ضغط الخيبة المريرة، طلب الموت لنفسه. ولكنه تعلم درساً من أثمن الدروس في حياته عندما فارقه الأمل، عندما بدا كل عمل حياته مهدداُ بالهزيمة والضياع. ففي أشد ساعات ضعفه تعلم الحاجة إلى الاتكال على الله وإمكانية الثقة به تحت أقسى الظروف. [141]

الذين يقعون في تجربة الاستسلام لليأس والشكوك عندما يستنزفون قوى حياتهم في خدمات التضحية، يمكنهم استمداد الشجاعة من اختبار إيليا. إن رعاية الله الساهرة ومحبته وقدرته تظهر خصوصاً لأجل خدامه الذين يساء فهم غيرتهم أو عندما لا يقدرها الناس كما يجب، الذين يستهان بمشورتهم وتوبيخهم وتجازى جهودهم في سبيل الإصلاح بالكراهية والمقاومة.

يهاجم الشيطان النفس بأقسى تجاربه وهي في أشد حالات الضعف، وبهذه الوسيلة كان يرجو أن ينتصر على ابن الله، لأنه أحرز بسياسته هذه انتصارات كثيرة على الإنسان. فعندما ضعفت قوة الإرادة وفشل الإيمان استسلم للتجربة الذين ثبتوا وقتاً طويلاً بشجاعة إلى جانب الحق. فموسى أفلت يده لمدى لحظة من التمسك بالقدرة السرمدية إذ أضنته أربعون سنة قضاها مع الشعب في التجوال وعدم الإيمان. لقد فشل وهو على حدود أرض الموعد. وكذلك كانت الحال بالنسبة إلى إيليا الذي ظل محتفظاً بإيمانه وثقته في الرب في أثناء سني القحط والجوع. فذاك الذي وقف أمام آخاب بلا خوف، والذي وقف، مدى ذلك اليوم القاسي، على جبل الكرمل، أمام شعب إسرائيل بأسره، بوصفه الشاهد الوحيد للإله الحقيقي، سمح لخوف الموت أن ينتصر على إيمانه بالله في لحظة من لحظات الضعف.

وكذلك هي الحال اليوم، فعندما تحدق بنا الشكوك وتربكنا الظروف، أو إذا تألمنا من فقر وضيق عندئذ يحاول الشيطان أن يزعزع ثقتنا في الرب ويصف أخطاءنا أمام أعيننا ويجربنا كي نشك في الله

ومحبته محاولة منه تثبيط النفس وفصم عراها عن الله. [142]

كثيراً ما يحس الذين يقفون في جبهة القتال وهم ملزمون من الروح القدس للقيام بعمل خاص، برد فعل عندما يزول الضغط. فقد يزعزع اليأس إيمان أشجع الرجال ويوهن إرادتهم. ولكن الله يتفهم أحوالنا وهو مازال يعطف ويحب لأنه مطلع على نوازع القلب ومقاصده. فالدرس الذي يحتاج أن يتعلمه القادة في عمل الله هو أن ينتظروا بثقة وصبر عندما تبدو الأجواء مكفهرة من حولهم. فالسماء لن تخذلهم في يوم ضيقهم. ما من شيء يبدو في منتهى العجز والقوة في آن واحد، من النفس التي تحس بتفاهتها وتعتمد على الله بالتمام.

إن الدرس الذي يستفاد من اختبار إيليا في تعلم كيفية الثقة في الله في ساعة التجربة، لا يقتصر على الذين هم في مراكز ذات مسؤولية عظيمة. فالله الذي كان قوة لإيليا يقوي كل ابن مجاهد من أولاد الله مهما يكن ضعيفاً. فهو ينتظر الولاء من كل واحد وهو يمنح القوة حسب حاجة كل فرد. والإنسان ضعيف في قوته الذاتية ولكنه بقدرة الله يمكنه أن يغلب الشر ويساعد الآخرين على الانتصار. فالشيطان لا يستطيع أن يقهر من جعل الله ملجأه: "قال لي إنما بالرب البر والقوة" (إشعياء 45 : 24).

أيها الرفيق المسيحي، يعرف الشيطان ضعفك، تمسك إذاً بيسوع. فإذا تثبت في محبته يمكنك أن تصمد أمام أي امتحان. إن بر المسيح يستطيع وحده أن يمنحك القوة لصد تيار الشر الذي يكتسح العالم. أدخل الإيمان في اختبارك فهو يخفف الحمل ويحرر من التعب والضجر. وأعمال العناية التي تبدو لك غامضة يمكنك أن تحلها باتكالك المستمر على الله. سر بإيمان في الطريق الذي يرسمه الله لك. ستدهمك التجارب ولكن واصل السير إلى الأمام. بذلك يتقوى إيمانك وتتأهل للخدمة. فسجلات التاريخ المقدس لم تكتب لنقرأها ونصاب بالدهشة بل [143] ليعمل الإيمان ذاته فينا الذي عمل في عبيد الله قديماً. وسيعمل الرب الآن بقوة مماثلة أينما وجدت قلوب مؤمنة لتغدو قنوات لقدرته.

والقول الذي وجه إلى بطرس يوجه إلينا. يقول الرب: "هوذا الشيطان طلبكم لكي يغربلكم كالحنطة ولكني طلبت من أجلك لكي لا يفنى إيمانك" (لوقا 22 : 31، 32). لا يمكن للمسيح التخلي عن الذين مات لأجلهم. قد نتركه فتكتنفنا التجربة، ولكن المسيح لا يمكن أن يترك إنساناً بذل حياته ثمناً لفدائه. ولو أمكن إنعاش بصيرتنا الروحية لرأينا نفوساً منحنية تحت ثقل الظلم والحزن والضغوط الحياتية كعربة مثقلة بالحزم، وهي موشكة على الموت خوفاً ويأساً. ولرأينا أيضاً الملائكة يطيرون بسرعة لإغاثة أولئك المجربين، فيطردون جنود الشر التي تحدق بهم، ويثبتون أرجلهم على الأساس الراسخ. والمعارك التي تنشب بين الجيشين هي معارك حقيقية كالمعارك التي تثيرها جيوش هذا العالم، وتتوقف المصائر الأبدية على نتائج هذه الحرب.

في رؤيا حزقيال النبي وجد شبه يد تحت أجنحة الكروبيم. والذين يستخدمهم الله كرسل له ينبغي ألا يظنوا أن عمله يتوقف عليهم. فالله لن يسمح للخلائق المحدودة أن تحمل عبء هذه المسؤولية وحدها فذاك الذي لا ينعس الذي يعمل بلا انقطاع بإتمام مقاصده سيقود عمله نحو النجاح وهو سيحبط نوايا الأشرار ويربك مشورات المتآمرين بالشر ضد شعبه فذاك الذي هو الملك ورب الجنود يجلس بين الكروبيم ومازال يحرس أولاده في وسط خصومات الأمم وجلبتها وعندما تنهدم حصون الملوك ومعاقلهم وتطعن سهام الغضب صميم قلوب أعدائه فشعبه سيكونون آمنين بين يديه. [144]

الفصل الرابع عشر ـــ "بروح إيليا وقوته"

لقد منح تاريخ عمل إيليا مع توالي القرون، إلهاماً وشجاعة لمن دُعوا للوقوف إلى جانب الحق في وسط الارتداد أما بالنسبة إلينا: "نحن الذين انتهت إلينا أواخر الدهور" (1 كورنثوس 10 : 11) فله معنى خاص لأن التاريخ يعيد نفسه. ففي العالم اليوم يوجد أناس يشبهون آخاب وإيزابل. إن عصرنا الراهن هو عصر الوثنية، تماماً كالعصر الذي عاش فيه إيليا. قد لا توجد هياكل منظورة أو تمثال تقع عليه العين، ومع ذلك فإن آلافاً من الناس يتبعون آلهة هذا العالم، يسيرون وراء الغنى والشهرة واللذة والخرافات التي تسوق الإنسان للرضوخ لأهواء قلبه غير المتجدد. ولدى جماهير غفيرة من الناس فكرة خاطئة عن الله وصفاته، وهم في الواقع يعبدون إلهاً كاذباً كما عبد الناس البعل في التاريخ القديم. كثيرون من مدّعي المسيحية يتحالفون من القوات المضادة لله ولحقّه المقدس. وبذلك ينساقون للارتداد عن الشؤون الإلهية إلى تعظيم الشؤون البشرية.

الروح الغالبة في عصرنا هذا هي روح الإلحاد والارتداد. إنها استنارة ظاهرة في معرفة الحق ولكنها في حقيقتها غطرسة عمياء. النظريات البشرية تُمتدح وتحل مكان الله وشريعته. والشيطان يجرّب الرجال والنساء لارتكاب العصيان زعماً أنهم بذلك يظفرون بالحرية والاستقلال اللذين يجعلان منهم آلهة. وترى روح المقاومة لكلمة الله الصريحة، روح التعظيم الوثني للحكمة البشرية تتعالى [145] فوق الإعلان الإلهي. فقد سمح الناس لعقولهم أن تغرق في ظلام الارتباك والتشبه بالعالم وعاداته ومؤثراته بحيث يبدو أنهم فقدوا قوة التمييز بين النور والظلمة، بين الحق والضلال. وقد ابتعدوا عن الطريق السليم وأوغلوا في بعدهم بحيث تمسكوا بآراء جماعة قليلة من أدعياء الفلسفة باعتبارها أكثر صدقاً من الكتاب المقدس. وقد بدت توسلات كلمة الله ومواعيدها، وتهديداتها ضد العصيان والوثنية عاجزة عن تليين قلوبهم المُحجرة. فالإيمان الذي حس بولس وبطرس ويوحنا يعتبرونه من طراز عتيق يلفّه الغموض وغير جدير بذكاء المفكرين العصريين.

أعطى الله شريعته للجنس البشري منذ البدء كوسيلة لبلوغ السعادة والحياة الأبدية. كان المدخل الوحيد للشيطان لتعطيل غرض الله هو حمل الرجال والنساء على عصيان تلك الشريعة. وقد دأب على التحريض ضد تعاليمها والتقليل من أهميتها. كانت ضربته الصائبة هي محاولة تغيير الشريعة نفسها وبذلك يقود الناس إلى انتهاك نصوصها في الوقت الذي هم يدّعون حفظها.

لقد شبّه كاتب محاولة تغيير شريعة الله بعمل شرير تم قديماً، وهو وضع لوحة مثبّتة في مكان هام في تقاطع طرق في وضع معاكس لوضعها الصحيح، فكان الارتباك والحيرة والمشقة التي أحدثها هذا العمل عظيم.

لقد وضع الله لوحة للناس المسافرين في هذا العالم. وأشار أحد أسهمها إلى الطاعة بقلب راغب للخالق على أنها الطريق إلى الحياة والنجاح، بينما أشار السهم الآخر إلى العصيان بوصفه الطريق الذي يفضي إلى الشقاء والموت. وقد تم تحديد طريق السعادة بذلك الوضوح الذي حُدد به الطريق إلى مدينة الملجأ [146] في النظام اليهودي القديم. ولكن في ساعة شريرة جاء عدو الجنس البشري وغير وضع اللوحة إلى

الجهة العكسية، فضل كثيرون في الطريق.

أوصى الله الإسرائيليين على لسان موسى قائلاً: "سبوتي تحفظونها لأنه علامة بيني وبينكم في أجيالكم لتعلموا أني أنا الرب الذي يقدسكم. فتحفظون السبت لأنه مقدس لكم. من دنسه يقتل قتلاً. إن كل من صنع فيه عملاً .. في يوم السبت يقتل قتلاً. فيحفظ بنو إسرائيل السبت ليصنعوا السبت في أجيالهم عهداً أبدياً. هو بيني وبين بني إسرائيل علامة إلى الأبد. لأنه في ستة أيام صنع الرب السماء والأرض، وفي اليوم السابع استراح وتنفّس" (خروج 31 : 13 — 17).

وصف الرب في هذه الأقوال الطاعة بكل وضوح على أنها الطريق إلى مدينة الله. إلا أن إنسان الخطيئة غيّر وضع اللوحة بحيث جعلها تشير إلى الاتجاه الخاطئ. لقد وضع سبتاً زائفاُ وجعل الرجال والنساء يظنون أنهم إذ يستريحون فيه يحفظون وصية الخالق.

لقد أعلن الله أن اليوم السابع هو سبت للرب. فعندما "أكملت السموات والأرض" عظّم هذا اليوم بوصفه تذكاراً لعمل الخلق. وإذ استراح في اليوم السابع "استراح من جميع عمله الذي عمل" "وبارك الله اليوم السابع وقدّسه" (تكوين 2 : 1 — 3).

وضعت في وقت الخروج من مصر شريعة السبت أمام شعب الله بكل سمو وفي مكان بارز. وعندما كانوا بعد في أرض العبودية حاول مسخّروهم إرغامهم على العمل في يوم السبت بزيادة كمية العمل المفروض عليهم كل أسبوع. وصارت حالة الشغل مراراً كثيرة أقسى و أشد عنفاً. ولكن الإسرائيليين تحرروا من العبودية وجيء بهم إلى مكان أمكنهم فيه حفظ كل وصايا الرب دون أن [147] يزعجهم أحد. وفي سيناء تكلم الله بالشريعة وأعطيت لموسى نسخة منها على لوحي حجر "مكتوبين بإصبع الله" (خروج 31 : 18). وفي مدة تقرب من أربعين سنة من التيهان في البرية ذكّر الله الإسرائيليين باستمرار بيوم الراحة الذي عيّنه لهم عندما كان يمنع نزول المنّ في اليوم السابع من كل أسبوع، وينزل النصيب المضاعف في يوم الاستعداد بكيفية معجزية.

قبل الدخول إلى أرض الموعد أوصى موسى الإسرائيليين قائلاً: "احفظ يوم السبت لتقدّسه" (تثنية 5 : 12). وقد قال الرب أن حفظهم لوصية السبت بأمانة يكون مذكراً دائماً لهم بمسؤوليتهم تجاه الله بوصفه خالقهم وفاديهم. وإذ يحفظونه بروح راضية لائقة فلن يكون للوثنية وجود. أما إذا استخفوا بمطالب هذه الوصية باعتبارها غير ملزمة لهم، فسينسون الخالق وسيحملون الناس على عبادة آلهة أخرى.

وقد أعلن الله قائلاً: "وأعطيتهم أيضاُ سبوتي لتكون علامة بيني وبينهم ليعلموا أني أنا الرب مقدّسهم" ومع ذلك، "رفضوا أحكامي ولم يسلكوا في فرائضي بل نجسوا سبوتي لأن قلبهم ذهب وراء أصنامهم". وإذ دعاهم ليرجعوا إليه وجهّ التفاتهم من جديد إلى أهمية حفظ السبت مقدساً بقوله: "أنا الرب إلهكم فاسلكوا في فرائضي واحفظوا أحكامي واعملوا بها. وقدّسوا سبوتي فتكون علامة بيني وبينكم، لتعلموا أني أنا الرب إلهكم" (حزقيال 10 : 12، 16، 19، 20).

وإذ وجه الرب انتباه شعب يهوذا إلى الخطايا التي انتهت بهم إلى السبي في بابل أعلن قائلاً: "نجست سبوتي" "فسكبت سخطي عليهم. أفنيتهم بنار غضبي. جلبت طريقهم على رؤوسهم: (حزقيال 22 : 8، 31). [148]

وعندما استردت أورشليم في عهد نحميا قوبلت خطيئة كسر السبت بهذا السؤال القاسي: "ألم يفعل آباؤكم هكذا فجلب إلهنا علينا كل هذا الشر وعلى هذه المدينة وأنتم تزيدون غضباُ على إسرائيل إذ تدنسون السبت" (نحميا 13 : 18).

في أثناء خدمته على الأرض أكّد المسيح على المطالب الملزمة بحفظ السبت مشدُّدا عليها، وفي كل تعاليمه أبدى إجلاله للشريعة التي كان قد سنّها بنفسه. وفي عصره كان السبت قد انحرف عن غايته

الصحيحة بحيث عكس حفظه صفات الناس الأنانيين الإستبداديين لا صفات الله. وقد ألقى المسيح بالتعليم الزائف جانباً الذي أساء أدعياء الحق والمعرفة بواسطته تصير الله. ومع أن المعلّمين كانوا يلاحقونه بعداوتهم التي لا تعرف الرحمة فلم يكن يبدو عليه أنّه امتثل لمطالبهم، بل حافظ على قدسية السبت حسب شريعة الله.

وشهد بكلام واضح لاحترامه شريعة الرب. فقال: "لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء. ما جئت لأنقض بل لأكمّل. فإني الحق أقول لكم إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل. فمن نقض إحدى هذه الوصايا الصغرى وعلّم الناس هكذا يُدعى أصغر في ملكوت المسوات. وأما من عمل وعلّم فهذا يُدعى عظيماً في ملكوت السموات" (متى 5 : 17 — 19).

وفي أثناء العصر المسيحي جعل الشيطان، العدو الأكبر لسعادة الإنسان، سبت الوصية الرابعة هدفاً لهجوم خاص. وهو يقول: "سأعمل لتحقيق أغراض مضادة لأغراض الله. وسأزود أتباعي بسلطان لتنحية تذكار الله أي اليوم السابع جانباً وسأبرهن للعالم أن اليوم الذي قدّسه الله وباركه قد تبدّل كي لا يظل ماثلاً في [149] أذهان الشعب وسأمحو ذكراه وأضع بدلاً منه يوماً لا يحمل أسانيد كتابية بحيث لا يمكنه أن يكون علامة بين الله وشعبه. وسأقود الناس الذين يقبلونه لإضفاء صفة القدسية عليه، تلك التي أضفاها الله على اليوم السابع.

"وسأمجّد نفسي عن طريق نائبي بتقديسه لليوم الأول، وسيقبل العالم البروتستنتي هذا السبت الزائف بوصفه اليوم الحقيقي. وبإهمال حفظ يوم السبت الذي سنّه الله سأجلّل شريعته بالازدراء وسأجعل الكلمات القائلة "لأنه علامة بيني وبينكم في أجيالكم" تخدم أغراضي في تأييد سبتي. "بذلك يصير العالم ملكاً لي. وسأكون حاكم الأرض ورئيس العالم. وسأسيطر على العقول التي تحت سلطاني بحيث يصير سبت الله هدفاً للاحتقار. علامة؟ - إني سأجعل حفظ اليوم السابع علامة على خيانة الناس لسلطات الأرض الحاكمة. وستكون الشرائع البشرية صارمة جداً بحيث لا يتجرأ الرجال والنساء على حفظ اليوم السابع. ولخوفهم من الاحتياج إلى الطعام والكساء سينضمون إلى العالم في التعدّي على شريعة الله لتصير الأرض كلها تحت سلطاني".

لقد فكّر العدو أنه بتأسيس سبت زائف يتمكن من تغيير الأوقات والسنة. ولكن هل أفلح حقاً في تغيير شريعة الله؟ إن ما ورد في الاصحاح الحادي والثلاثين من سفر الخروج هو الجواب على هذا السؤال. فذاك الذي هو أمس واليوم وإلى الأبد أعلن عن سبت اليوم السابع قائلاً: "أنه علامة بيني وبينكم في أجيالكم". "علامة .. إلى الأبد" (خروج 31 : 13، 17), فاللوحة المتغيرة تشير إلى الطريق الخطأ. ولكن الله لم يتغير وهو مايزال الإله القدير. "هوذا الأمم كنقطة من دلو وكغبار الميزان تحسب. هوذا الجزائر يرفعها كدقة. ولبنان ليس كافياً للإيقاد وحيوانه ليس كافياً لمحرقة. كل الأمم كل شيء قدامه من العدم والباطل تحسب [150] عنده" (إشعياء 40 : 15 — 17). وهو مازال غيوراً على شريعته الآن كما كان في أيام آخاب وإيليا.

ولكن كيف أهملت تلك الشريعة؟ العالم اليوم في حالة تمرد سافر ضد الله. وجيلنا الراهن هو في الواقع جيل متمرد جاحد يتمسّك بالرسميات ويتجلبب بالرياء والكبرياء وينتهي إلى الارتداد، ولذلك فالناس يهملون الكتاب المقدس ويبغضون الحق. ويرى يسوع بمنتهى الألم أن شريعته مرفوضة ومحبته مزدرى بها وسفراءه يعاملون بلا مبالاة. وكم تكلّم بواسطة مراحمه ولكن لم يُعترف بها، وتكلّم عن طريق إنذاراته ولم يلتفت إليها. فقد تحولت مقادس النفس البشرية إلى أماكن لتجارة آثمة، كالأنانية والحسد والخُبث والكبرياء.

كثير من الناس لا يتورعون عن السخرية بكلمة الله. والذين يؤمنون بها كما سطّرتها يد الوحي، يسخر منهم. واحتقار الناس للشريعة والنظام هو في تزايد مستمر ومردّ ذلك هو انتهاك أوامر الرب الصريحة. فالعنف والجرائم هي من نتائج الانحراف عن طريق الطاعة. أنظروا إلى شقاء وبؤس من يسجدون للأوثان، الذين عبثاً يبحثون عن السعادة والسلام.

أنظروا إلى إهمال وصية السبت الذي يكاد يكون شاملاً. وأنظروا أيضاً إلى وقاحة الإلحاد من الذين يسنون القوانين لحماية القدسية المزعومة لليوم الأول من الأسبوع في الوقت الذي يصوغون فيه القوانين التي تبيح الإتجار في المسكرات. فإذ يظنون أنفسهم أحكم من أن يسترشدوا بما هو مكتوب يحاولون أن يجبروا ضمائر الناس على الطاعة بينما هم يستحسنون الشر الذي يحيل الناس المخلوقين على صورة الله وحوشاً كاسرة. الشيطان هو الذي يوحى بمثل هذا التشريع. وهو يدرك جيداً أن لعنة الله تستقر على من يمجدون القوانين البشرية [151] ويرفعونها فوق الشريعة الإليهة، وهو يبذل كل قصاراه ليقود الناس في الطريق الواسع الذي يؤدي إلى الهلاك.

لقد ظل الناس أمداً طويلاً يعبدون الآراء البشرية وشرائعها حتى يكاد العالم كله يعبد الأوثان. وذاك الذي حاول تغيير شريعة الله مازال يستخدم كل الحيل الخادعة ليوعز إلي الرجال والنساء للاصطفاف ضد الله وضد العلامة التي يعرف بها الأبرار. ولكن الرب لا يسمح دائماً أن تُنتهم شريعته وتُحتقر بدون قصاص رادع. سيأتي وقت فيه ”توضع عينا تشامخ الإنسان وتخفض رفعة الناس ويسمو الرب وحده في ذلك اليوم“ (إشعياء 2 : 11). يمكن أن يتهاون الالحاد والملحدون بشريعة الله والسخرية بها وإنكارها. ويمكن لروح محبة العالم أن تلوّث كثيرين وتسيطر على قليلين، يمكن لعمل الله أن يحتفظ بمقوماته عن طريق التضحيات المستمرة فقط، ولكن في النهاية سوف لا يحرز النصر المجيد سوى الحق وحده.

وستُرفع، في عمل الله الختامي في الأرض، راية شريعته من جديد. وقد تنتصر الديانة الزائفة وقد يكثر الإثم وتبرد محبة الكثيرين، ويغيب صليب الجلجثة عن الأنظار وتغشى الظلمة الأرض كما لو كانت غطاء نعش الموت. وقد تتحوّل كل قوة تيار الرأي العام ضد الحق، وتحاول المؤامرات الواحدة في إثر الأخرى لإبادة شعب الله. ولكن عندما يبلغ الخطر غايته القصوى فإن إله إيليا سيقيم أناساً يحملون شهادة لا يمكن إسكاتها. وسيُسمع في المدن المزدحمة بالسكان في بلادنا وفي الأماكن التي فيها تجاوز الناس حدودهم في إهانة العلي والتكلم ضده، صوت التوبيخ الصارم. وسيشجب الرجال الذين أقامهم الله بكل شجاعة اتّحاد الكنيسة بالعالم. وسيطلبون بكل غيرة وجرأة من الرجال والنساء أن يكفّوا [152] عن حفظ تشريعات الناس ويحفظوا السبت الحقيقي. فيعلنون قائلين لكل أمّة: ”خافوا الله وأعطوه مجداً لأنه قد جاءت ساعة دينونته واسجدوا لصانع السماء والأرض والبحر وينابيع المياه .. إن كان أحد يسجد للوحش ولصورته ويقبل سمته على جبهته أو على يده. فهو أيضاً سيشرب من خمر غضب الله المصبوب صرفاً في كأس غضبه“ (رؤيا 14 : 7 — 10).

لن ينكث الله عهده أو يغير ما خرج من شفتيه وستثبت كلمته إلى الأبد التي لا تقبل التغيير كعرشه تماماً. وعند الدينونة سيظهر هذا العهد مكتوباً بكل وضوح بإصبع الله وسيقف العالم أمام محكمة العدل السرمدية ليسمع الحكم.

واليوم كما في أيام إيليا يبدو الخط الفاصل بين شعب الله الحافظ وصيته وبين عابدي الآلهة الكاذبة واضحاً جداُ ـــ لقد صرخ إيليا قائلاً: ”حتى متى تعرجون بين الفرقتين. إن كان الرب هو الله فاتبعوه وإن كان البعل فاتبعوه“ (1 ملوك 18 : 21). والرسالة الموجة إلى عصرنا هي التالية: ”سقطت سقطت بابل العظيمة .. اخرجوا منها يا شعبي لئلا تشتركوا في خطاياها ولئلا تأخذوا من ضرباتها لأن خطاياها لحقت السماء وتذكر الله آثامها“ (رؤيا 18 : 2، 4، 5).

والوقت الذي فيه يُمتحن كل إنسان ليس بعيداً. وسيلح علينا الآخرون بل يحاولون إرغامنا على حفظ السبت الزائف. وسيشتد النزاع بين وصايا الله ووصايا الناس. فالذين خضعوا لأوامر العالم خطوة فخطوة واستكانوا للعادات الدنيوية وسيرضخون للسلطات الحاكمة بدلاً من تعريض أنفسهم للسخرية والإهانات والتهديد بالسجن والموت. وفي ذلك الحين سيعزل الذهب عن الزغل وستمتاز التقوى الحقيقية على صورتها ومظهرها الكاذبين. وكثيراً ما يحدث أن نرى نجماً باهراً أعجبنا بلمعانه وإذا بنا نراه يهوي بين أحضان الظلام. فالذين يدّعون أنّهم [153] تزيّنوا بزينة المقدس ولم يتسربلوا ببر المسيح سيظهرون حينئذ مجللين بعار عريهم.

يوجد بين سكان الأرض المنتشرين في كل مكان جماعة لم يحنوا ركبهم لبعل. وسيضيء هؤلاء كنجوم السماء التي تظهر في الليل فقط عندما تُغطي الظلمة الأرض والظلام الدامس الأمم. ففي أفريقيا الوثنية وفي الممالك الكاثوليكية في أوروبا وأمريكا الجنوبية والهند وجزائر البحار وفي كل زوايا الأرض المظلمة أبقى الله نخبة من المختارين الذين سيسرق نورهم في وسط الظلمة معلنين بكل وضوح للعالم المرتد القوة المغيرة، قوة الطاعة لشريعته. وهم يظهرون الآن في كل أمة وبين كل لسان وشعب. وعندما يبذل الشيطان قصاراه في أحلك ساعات الارتداد ليجعل "الجميع الصغار والكبار والأغنياء والفقراء والأحرار والعبيد" (رؤيا 13 : 16). يقبلون سمة الولاء ليوم راحة زائف تحت قصاص الموت، فهؤلاء الأمناء الذين هم "بلا لوم وبسطاء أولاداً لله بلا عيب" "يضيئون .. كأنوار في العالم" (فيلبى 2 : 15). وكلما اشتدت حلوكة ظلام الليل وأد لمعان نورهم.

كم كان عمل إيليا يبدو غريباً عندما أحصى إسرائيل في الوقت الذي كانت أحكام الله تنزل على الشعب المرتد. لم يكن يوجد، في رأيه، غير رجل واحد فقط في جانب الرب. ولكن عندما قال: "بقيت أنا وحدي وهم يطلبون نفسي"، أدهشه كلام الرب حين قال له: "أبقيت في إسرائيل سبعة آلاف كل الركب التي لم تجث للبعل" (1 ملوك 19 : 4، 18).

إذاً فلا يحاول أحد أن يُحصي شعب الله اليوم، بل ليكن لكل واحد قلب لحم، قلب رقيق عطوف، كقلب المسيح يتوق لخلاص العالم الهالك. [154]

الفصل الخامس عشر ـــ يهوشافاط

ظل يهوشافاط متمثلاً بالملك آسا الصالح إلى أن دُعي لاعتلاء العرش وهو في الخامسة والثلاثين من العمر. لقد "عمل آسا المستقيم في عيني الرب" في كل الأزمات تقريباً (1 ملوك 15 : 11). ومدى سنّي ملكه الناجح الذي دام خمساً وعشرين سنة سار يهوشافاط في كل طريق آسا أبيه لم يحد عنها (1 ملوك 22 : 43).

إذ كان يهوشافاط يريد أن يحكم ويملك بحكمة، حاول أن يحث شعبه على الوقوف موقفاً حازماً ثابتاً ضد الممارسات الوثنية. إلا أن كثيراً من الشعب في مملكته "كان لا يزال يذبح ويوقد على المرتفعات" (1 ملوك 22 : 43). ولم يهدم الملك هذه الهياكل في الحال لكنه حاول من البدء أن يقي يهوذا من الخطايا التي اتّصفت بها المملكة الشمالية تحت حكم آخاب الذي كان معاصراً له لسنين عديدة. كان يهوشافاط نفسه مخلصاً في ولائه لله: "لم يطلب البعليم ولكنه طلب إله أبيه وسار في وصاياه لا حسب أعمال إسرائيل" وبسبب استقامته كان الرب معه. فثبّت الرب المملكة في يده" (2 أخبار الأيام 17 : 3 — 5).

"وقدم كل يهوذا هدايا ليهوشافاط وكان له غنى وكرامة بكثرة. وتقوى قلبه في طرق الرب" (2 أخبار الأيام 17 : 5، 6). وإذ مرّ الوقت وتمّت إصلاحات "نزع الملك أيضاً المرتفعات والسواري من يهوذا" (2 أخبار الأيام 17 : 6). "وبقية المأبونين الذين بقوا في أيام آسا أبيه أبادهم من الأرض" (1 ملوك 22 : 46). [155] وهكذا تحرر سكان يهوذا تدريجياً من مخاطر كثيرة كانت تهدد بإعاقة نموهم الروحي بشكل خطير.

كان الشعب في كل أنحاء المملكة محتاجاً إلى التعليم من شريعة الله. كانت سلامة وهناء بفهمه لهذه الشريعة، فإذ يجعل حياته متوافقة مع مطالبها سيكون مخلصاً لله وللإنسان. لذلك إذ أدرك يهوشافاط هذه الأمور اتّخذ الخطوات اللازمة لتأمين سلامة شعبه عن طريق تعليمه الشريعة الإلهية المقدسة تعليماً وافياً. وقد أعطيت التوجيهات للرؤساء المسؤولين في مختلف أنحاء المملكة كي ينظّموا خدمات أمينة يقوم بها الكهنة المعلّمون. وإذ كان هؤلاء المعلّمون يعملون تحت رقابة الرؤساء المباشرة حسبما عين الملك ـــ "جالوا في جميع مدن يهوذا وعلّموا الشعب" (2 أخبار الأيام 17 : 7 — 9). وإذ حاول كثيرون أن يفهموا مطالب الله ويطرحوا عنهم الخطيئة، حدث انتعاش نتيجة لذلك.

وقد عزا يهوشافاط جانباً كبيراً من نجاحه كحاكم وملك إلى هذا الإجراء الحكيم الذي لبّى حاجات رعاياه الروحية. ففي حفظ شريعة الله ثواب عظيم. وفي الامتثال للوصايا الإلهية قوة مغيرة تأتي بالسلام والمسرّة بين الناس. ولو أن تعاليم كلمة الله كانت هي القوة المسيطرة على حياة كل رجل وامرأة، ولو أخضع العقل والقلب لقوّتها الرادعة لما سادت الشرور على الحياة القومية والإجتماعية. ولكان خرج من كل بيت تأثير صالح يصوغ رجالاً ونساء أقوياء في البصيرة الروحية والمجال الأدبي، وبذلك تتبوأ الأمم والأفراد مراكز ممتازة.

وقد عاش يهوشافاط متمتعاً بالسلام سنوات عديدة ولم يزعجه مزعج من الأمم المحيطة به: "وكانت

هيبة الرب على جميع ممالك الأراضي التي حول يهوذا" (2 أخبار الأيام 17 : 10). فمن بلاد الفلسطينيين جاءته جزية وهدايا، ومن بلاد [156] العرب أحضرت إليه قطعان كبيرة من الكباش والتيوس: "وكان يهوشافاط يتعظّم جداً وبنى في يهوذا حصوناً ومدن ومخازن .. وكان له رجال حرب جبابرة بأس .. هؤلاء خدام الملك فضلاً عن الذين دعاهم الملك في المدن الحصينة في كل يهوذا" (2 أخبار الأيام 17 : 12 — 19). فإذا أجزل الله له البركات من "الغنى والكرامة" (2 أخبار الأيام 18 : 1)، أمكنه حيازة قوة إضافية لأجل الحق والبر.

وبعد إعتلاء يهوشافاط العرش ببضع سنوات، إذ وصل إلى ذروة النجاح، رضي أن يتزوج ابنه يهورام من عثليا إبنة آخاب وإيزابل. وبواسطة هذه المصاهرة أبرم حلف بين مملكتي يهوذا وإسرائيل لم يكن ضمن نظام الله ولا بأمره والذي وقت وقوع أزمة جلب الكوارث على الملك وعلى كثير من رعاياه.

ففي إحدى المناسبات ذهب يشوهافاط لزيارة ملك إسرائيل في السامرة. وقد قدّم إكراماً خاصاً للملك الضيف القادم من أورشليم، وقبل انتهاء الزيارة تم إقناعه للاشتراك مع ملك إسرائيل في حرب ضد الأراميين. وكان آخاب يرجو أنه باشتراك جيوشه مع جيش يهوذا قد يتمكّن من استرجاع راموت وهي إحدى مدن الملجأ القديمة التي احتجّ قائلاً إنها من حق الإسرائيليين شرعاً.

في لحظة من لحظات الضعف والتهوّر وعد يهوشافاط أن ينضمّ إلى ملك إسرائيل في حربه ضد الأراميين، إلا أن حكمته جعلته يطلب أن يعرف إرادة الله قبل الشروع في الحرب. فاقترح على آخاب قائلاً: "اسأل اليوم عن كلام الرب". ورداً على هذا الطلب دعا آخاب إليه أربع مئة من الأنبياء الكاذبة الذين من السامرة وسألهم: "أنذهب إلى راموت جلعاد للقتال أو أمتنع؟" فأجابوه قائلين: "اصعد فيدفعها الله ليد الملك" (2 أخبار الأيام 18 : 4، 5). [157]

فإذ لم يقنع يهوشافاط بذلك طلب أن يعرف إرادة الله عن يقين. فسأل يقول: "أليس هنا أيضاً نبي للرب فنسأل منه" (2 أخبار الأيام 18 : 6) فأجاب آخاب يقول: "إنه يوجد بعد رجل واحد لسؤال الرب به ولكنني أبغضه لأنه لا يتنبأ على خيراً بل شراً وهو ميخا بن يمله". وكان يهوشافاط مصرًّا في طلبه لاستدعاء رجل الله. فلمّا جاء ومثل أمامهم واستحلفه آخاب ألا يقول "إلا الحق باسم الرب" قال ميخا "رأيت كل إسرائيل مشتتين على الجبال كخراف لا راعي لها. فقال الرب ليس لهؤلاء فليرجعوا كل واحد إلى بيته بسلام" (1 ملوك 22 : 8، 16، 17),

كان يجب أن يكون ما قاله النبي كافياً لإقناع الملكين بأن مشروعهما لا تصادق عليه السماء. ولكن ولا واحد من ذينك الملكين كان يبدو عليه أنه التفت إلى الإنذار. كان آخاب قد رسم لنفسه الطريق وكان مصرّا على السير فيه. أمّا يهوشافاط فقد وعده وعد شرف إذ قال له: "مثلي مثلك وشعبي كشعبك ومعك في القتال" (2 أخبار الأيام 18 : 3)، وبعدما أعطاه هذا الوعد تردّد في سحب جيوشه: "فصعد ملك إسرائيل ويهوشافاط ملك يهوذا إلى راموت جلعاد" (1 ملوك 22: 29).

وفي أثناء المعركة التي نشبت بعد ذلك أصيب آخاب بسهم فمات عند المساء "عند غروب الشمس" "وعبرت الرنّة في الجند"، "لكل رجل إلى مدينته وكل رجل إلى أرضه" (1 ملوك 22: 36). وهكذا تحقق قول النبي.

وقد عاد يهوشافاط من هذه الحرب المكتنفة بالنكبات إلى أورشليم. وإذ اقترب من المدينة خرج للقائه النبي ياهو موجُّها إليه رسالة توبيخ قائلاً له: "أتساعد الشرير وتحب مبغضي الرب. فلذلك الغضب عليك من قبل الرب. غير أنه [158] وجد فيك أمور صالحة لأنك نزعت السواري من الأرض وهيأت قلبك لطلب الله" (2 أخبار الأيام 19 : 2، 3).

قضى يهوشافاط سنوات حكمه الأخيرة في تحصين دفاعات يهوذا القومية والروحية. "ثم رجع وخرج

أيضاً بين الشعب من بئر سبع إلى جبل أفرايم وردهم إلى الرب إله آبائهم“ (2 أخبار الأيام 19 : 4).

من بين الخطوات الهامة التي اتّخذها الملك إنشاء محاكم فعالة للعدالة نافذة الكلمة ومحافظة على صيانتها: ”وأقام قضاة في الأرض في كل مدن يهوذا المحصنة في كل مدينة فمدينة“. وفي الأمر الذي أوصاهم به حثهم قائلاً: ”أنظروا ما أنتم فاعلون لأنكم لا تقضون للإنسان بل للرب وهو معكم في أمر القضاء. والآن لتكن هيبة الرب عليكم. احذروا وافعلوا. لأنه ليس عند الرب إلهنا ظلم ولا محاباة ولا ارتشاء“ (2 أخبار الأيام 19 : 5 — 7).

وقد أكمل النظام القضائي بإنشاء محكمة إستئناف في أورشليم. ”أقام يهوشافاط من اللاويين والكهنة ومن رؤوس آباء اسرائيل لقضاء الرب والدعاوي“ (2 أخبار الأيام 19 : 8). وقد أوصى الملك أولئك القضاة بأن يكونوا أمناء فقال لهم: ”وهكذا تفعلون بتقوى الرب بأمانة وقلب كامل. وفي كل دعوة تأتي إليكم من إخوتكم الساكنين في مدنهم بين دم ودم بين شريعة ووصية من جهة فرائض أو أحكام حذروهم فلا يأثموا إلى الرب فيكون غضب عليكم وعلى إخوتكم. هكذا افعلوا فلا تأثموا.

”وهوذا أمريا الكاهن الرأس عليكم في كل أمور الرب وزبديا ابن يشمعئيل الرئيس على بيت يهوذا في كل أمور الملك والعرفاء اللاويون أمامكم“ [159] ”تشددوا وافعلوا وليكن الرب مع الصالح“ (2 أخبار الأيام 19 : 9 — 11).

أكّد يهوشافاط، في سهره وحرصه على حقوق رعاياه وحريّاتهم، الاعتبار والتقدير الذي يناله كل فرد من أفراد الأسرة البشرية من إله العدل الذي يملك على الكل: ”الله قائم في مجمع الله. في وسط الآلهة يقضي“. والقضاة الذين أقيموا تحت رقابته يوصيهم بقوله: ”اقضوا للذليل ولليتيم. انصفوا المسكين والبأس“ ”من يد الأشرار أنقذوا“ (مزمور 82 : 1، 3، 4).

وقرب انتهاء حكم يهوشافاط غزا مملكة يهوذا جيش عظيم ارتعبت قلوب سكان الأرض عند قدومه: ”أتى بنو مرآب وبنو عمون ومعهم العمونيون على يهوشافاط للمحاربة“. وقد وصل خبر هذا الغزو إلى الملك بواسطة رسول ظهر أمامه وأنبأه هذا النبأ من أرام وها هم في حصون تامار. هي عين جدي“ (2 أخبار الأيام 20 : 1، 2).

كان يهوشافاط رجلاً شجاعاً ذا بأس. وظلّ سنوات عدة يقوّي جيوشه ويحصّن المدن. كان على تمام الأهبة لمنازلة أي عدو، إلا أنه في هذه الأزمة لم يتّكل على ذراع بشر. فليس بالجيوش المدربّة والمدن المحصنة، بل بالإيمان الحي في إله إسرائيل كان ينتظر إحراز نصر على هؤلاء الوثنيين الذين كانوا يفخرون بقدرتهم على إذلال يهوذا في عيون الأمم.

”فخاف يهوشافاط وجعل وجهه ليطلب الرب ونادى بصوم في كل يهوذا. واجتمع يهوذا ليسألوا الرب. جاءوا أيضاً من كل مدن يهوذا ليسألوا الرب“.

فإذ وقف يهوشافاط في فناء الهيكل أمام شعبه سكب نفسه في صلاة طالباً إلى الله أن يتمّم وعوده معترفاً بعجز إسرائيل. فتوسّل قائلاً: ”يا رب إله آباءنا أما أنت [160] هو الله في السماء وأنت المتسلط على جميع ممالك الأمم؟ وبيدك قوة وجبروت وليس يقف من يقف معك. ألست أنت إلهنا الذي طردت سكان هذه الأرض من أمام شعبك إسرائيل وأعطيتها لنسل إبراهيم خليلك إلى الأبد؟ فسكنوا فيها وبنوا لك فيها مقدساً لاسمك قائلين إذا جاء علينا شرسيف قضاء أو وبأ أو جوع ووقفنا أمام هذا البيت وصرخنا إليك من ضيقنا فإنّك تسمع وتخلّص.

”والآن هوذا بنو عمون وموآب وجبل ساعير الذين لم تدع إسرائيل يدخلون إليهم حين جاءوا من أرض مصر بل مالوا عنهم ولم يهلكوهم. فهوّذا هم يكافئوننا بمجيئهم لطردنا من ملكك الذي ملكتنا إياه. يا إلهنا أما تقضي عليهم. لأنه ليس فينا قوة أمام هذا الجمهور الكثير الآتي علينا. ونحن لا نعلم ماذا تعمل

ولكن نحوك أعيننا" (2 أخبار الأيام 20 : 3 — 12).

لقد استطاع يهوشافاط أن يقول بثقة للرب: "نحوك أعيننا". لقد ظل سنوات عدة يعلّم الشعب كي يتكلوا على الرب الذي في العصور القديمة تدخل مراراً لإنقاذ مختاريه من الهلاك التام، والآن، والمملكة مهددة بالخطر، فإن يهوشافاط لم يقف وحده بل "كان كل يهوذا واقفين أمام الرب مع أطفالهم ونسائهم وبنيهم" (2 أخبار الأيام 20 : 13). لقد اتّحدوا معاً في الصوم والصلاة، واتّحدوا معاً في التوسل إلى الرب لينزعج أعدائهم ويشتّت شملهم ليتمجّد اسم الرب.

"اللهم لا تصمت. لا تسكت ولا تهدأ يا الله. فهوذا أعداؤك يعجّون مبغضوك قد رفعوا الرأس. على شعبك مكروا مؤامرة وتشاوروا على أحميائك. قالوا هلم نبدهم من بين الشعوب ولا يذكر اسم شعبك بعد. لأنهم تآمروا بالقلب معاً. عليك تعاهدوا عهداً. خيام أدوم والإسمعيليين. موآب والهاجريون. جبال وعمون وعماليق... [161]

"إفعل بهم كما بمديان كما بسيسرا كما بيابين في وادي قيشون ... ليخزوا ويرتاعوا إلى الأبد وليخجلوا ويبيدوا. ويعلموا أنك اسمك يهوه وحدك العلي على كل الأرض" (مزمور 83).

وفيما اشترك الشعب مع الملك في التذلل أمام الله وفي طلب العون منه، كان روح الرب على يحزئيل "اللاوي من بني آساف" فقال:

"اصغوا يا جميع يهوذا وسكان أورشليم وأيها الملك يهوشافاط هكذا قال الرب لكم لا تخافوا ولا ترتاعوا بسبب هذا الجمهور الكثير لأن الحرب ليست لكم بل لله. غداً انزلوا عليهم هوذا هم صاعدون في عقبة صيص فتجدوهم في أقصى الوادي أمام برية يروئيل. ليس عليكم أن تحاربوا في هذه. قفوا اثبتوا وانظروا خلاص الرب معكم يا يهوذا وأورشليم. لا تخافوا ولا ترتاعوا. غداً اخرجوا للقائهم والرب معكم.

"فخر يهوشافاط لوجهه على الأرض وكل يهوذا وسكان أورشليم سقطوا أمام الرب سجوداً للرب. فقام اللاويون من بني القهاتيين ومن بني القورحيين ليسبحوا الرب إله إسرائيل بصوت عظيم جداً.

وبكّروا صباحاً وخرجوا إلى برية تقوع. وعند خروجهم للقتال قال لهم يهوشافاط "اسمعوا يا يهوذا وسكان أورشليم آمنوا بالرب إلهكم فتأمنوا. آمنوا بأنبيائه فتفلحوا. ولما استشار الشعب أقام مغنين للرب ومسبحين في زينة مقدّسة" (2 أخبار الأيام 20 : 14 — 21). وتقدّم المغنّون أمام الجيش ورفعوا أصواتهم تسبيحاً لله على وعده لهم بالنصرة. [162]

كانت طريقة خروجهم تلك طريقة غريبة وشاذّة لمحاربة جيش العدو — تسبيح الرب بالغناء وتمجيد الله. كانت هذه أناشيد الرب بالنسبة لهم، وقد تزيّنوا بجمال القداسة. فلو صرف المؤمنون وقتاً أطول في تسبيح الله في هذه الأيام لزاد ذلك من رجائهم وشجاعتهم وإيمانهم باستمرار. أما كان يشدّد هذا أيادي الجنود الشجعان الذين يقفون اليوم دفاعاً عن الحق؟

و "جعل الرب أكمنة على بني عمون وموآب وجبل ساعير الآتين على يهوذا فانكسروا. وقام بنو عمون وموآب على سكان جبل ساعير ليحرموهم ويهلكوهم ولما فرغوا من سكان ساعير ساعد بعضهم على إهلاك بعض".

"ولما جاء يهوذا إلى المرقب في البرية تطلعوا نحو الجمهور وإذا هم جثث ساقطة على الأرض ولم ينفلت أحد" (2 أخبار الأيام 20 : 22 — 24).

كان الله قوة ليهوذا في هذه الأزمة، وهو قوة لشعبه اليوم. علينا ألا نتّكل على الرؤساء ولا أن نضع الناس في مقام الله. ولنذكر أن الخلائق البشرية غير معصومة، إنهم يخطئون وإن الرب الذي له مطلق السلطان هو برج قوتنا وملجأنا. وفي كل الطوارئ علينا أن ندرك أن الحرب للرب. وموارده لا تنفد ولا

حدود لها، والمستحيلات الظاهرة ستزيد من عظمة الانتصار.

"خلصنا يا إله خلاصنا واجمعنا وأنقذنا من الأمم لنحمد اسم قدسك ونتفاخر بتسبيحتك" (2 أخبار الأيام 17 : 35).

وقد رجعت جيوش يهوذا بفرح محمّلة بالغنائم "لأن الرب فرحهم على أعدائهم ودخلوا أورشليم بالرباب والعيدان والأبواق إلى بيت الرب" (2 أخبار الأيام 20 : 27، 28). لقد كان لديهم سبب عظيم للفرح. وإطاعة لأمر الرب القائل: " [163] قفوا اثبتوا وانظروا خلاص الرب .. لا تخافوا ولا ترتاعوا" (2 أخبار الأيام 20 : 7)، اتّكلوا على الرب إتكالاً كاملاً فأثبت لهم أنه حصنهم ومخلّصهم. والآن استطاعوا أن يتمرّنوا بادراك بمزامير داود الموحى بها حين قال:

"الله لنا ملجأ وقوة. عونا في الضيقات وجد شديداً .. يكسر القوس ويقطع الرمح. المركبات يحرقها بالنار كفوا واعلموا أني أنا الله أتعالى بين الأمم أتعالى في الأرض. رب الجنود معنا ملجأنا إله يعقوب" (مزمور 46).

"نظير اسمك يا الله تسبيحك إلى أقاصي الأرض. يمينك ملآنة براً. يفرح جبل صهيون تبتهج بنات يهوذا من أجل أحكامك .. لأن الله هذا هو إلهنا إلى الدهر والأبد هو يهدينا حتى إلى الموت" (مزمور 48 : 10، 11، 14).

وبسبب إيمان ملك يهوذا وجيوشه "كانت هيبة الله على كل ممالك الأراضي حين سمعوا أن الرب حارب أعداء شعبه. واستراحت مملكة يهوشافاط وأراحه إلهه" (2 أخبار الأيام 20 : 29، 30).

[164] * * * *

الفصل السادس عشر ـــ سقوط بيت آخاب

(اعتمد هذا الفصل على ما ورد في 1 ملوك 21 : 2 ملوك 1).

ظل التأثير الشرير الذي أحدثته إيزابل في حياة آخاب وتصرّفاته بادئ ذي بدء، على حاله حتى أواخر سنّي حياته وأثمر في الأعمال المشينة والظلم والقسوة التي قلّ أن يوجد لها مثيل في التاريخ المقدس: "ولم يكن كآخاب الذي باع نفسه لعمل الشر في عيني الرب الذي أغوته إيزابل امرأته" (1 ملوك 21 : 25).

إذ كان آخاب ميالاً إلى الطمع بطبعه وإذ أعانته إيزابل على عمل الشر، اتّبع أهواء قلبه الشرير حتى سيطرت عليه روح الأنانية بالتمام. فهو لم ينكر على نفسه رغباتها والأشياء التي اشتهاها اعتبر من حقّه الحصول عليها.

لقد تجلّت هذه النزعة التي سيطرت على آخاب وأثّرت على موارد المملكة وثرواتها بشكل فادح، تحت حكم خلفائه في حادثة وقعت عندما كان إيليّا مازال نبيا في إسرائيل. فقد وجد بالقرب من قصر الملك كرم يملكه نابوت اليزرعيلي. فقرر آخاب امتلاكه واقترح أولاً أن يبتاعه بفضّة أو أن يعطي لصاحبه كرماً عوضاً عنه في موقع آخر. فقال مخاطباً نابوت: "اعطني كرمك فيكون لي بستان بقول [165] لأنه قريب بجانب بيتي فأعطيك عوضه كرماً أحسن منه أو إذا حسن في عينيك اعطيتك ثمنه فضة" (1 ملوك 21: 2).

أما نابوت فكان متعلقاً بكرمه ويقدره تقديراً عظيماً لأنه كان يخص آباءه وقد ورثه عنهم لذلك رفض التنازل عنه. فقال لآخاب: "حاشا لي من قبل الرب أن أعطيك ميراث آبائي" (1 ملوك 21 : 3). فلم يكن جائز بموجب القانون اللاوي نقل ملكية الأرض بصفة دائمة لا بالبيع ولا بالاستبدال. بل كان على كل واحد ملازمة "نصيب سبط آبائه" (عدد 36 : 7).

وقد آلم رفض نابوت قلب الملك الأناني وأسقمه: "فدخل آخاب بيته مكتئباً مغموماً من أجل الكلام الذي كلمه به نابوت اليزرعلي .. واضطجع على سريره وحول وجهه ولم يأكل خبزاً" (1 ملوك 21 : 4).

وسرعان ما علمت إيزابل بتفاصيل الموقف، وإذ أغضبها أن واحداُ من الشعب يرفض تلبية رغبات الملك، أكدت لآخاب أن لا حاجة به إلى الحزن أو الاكتئاب. وقال له: "أأنت الآن تحكم على إسرائيل؟ قم كل خبزاً وليطلب قلبك. أنا أعطيك كرم نابوت اليزرعلي" (1 ملوك 21 : 7).

ولم يكن آخاب يكترث للوسيلة التي ستلجأ زوجته إليها لتحقيق ذلك الغرض الشهي. وبدأت إيزابل بتنفيذ نواياها الشريرة الخبيثة فوراً. فكتبت رسائل باسم الملك وختمتها بخاتمه وأرسلتها إلى شيوخ وأشراف المدينة التي كان يسكنها نابوت. وذكرت في الرسائل تقول: "نادوا بصوم وأجلسوا نابوت في رأس الشعب. وأجلسوا رجلين من بني بلعيال تجاهه ليشهدا قائلين قد جدفت على الله وعلى الملك ثم اخرجواه وارجموه فيموت" (1 ملوك 21 : 9، 10). [166]

ونُفّذ الأمر: "ففعل رجال مدينته الشيوخ والأشراف .. كما هو مكتوب في الرسائل التي ارسلتها (إيزابل) إليهم. "ثم ذهبت إيزابل إلى الملك وأمرته أن يقوم ويرث الكرم" (1 ملوك 21 : 11). فإذ كان

آخاب لا يعير العواقب أي اهتمام انقاد لمشورتها انقياداً أعمى ونزل إلى الكرم الذي طالما تاق لامتلاكه ودخل إليه ليرثه.

ولم تترك الفرصة للملك للاستمتاع بما كسبه بالخداع وسفك الدم دون توبيخ: "فكان كلام الرب إلى إيليا التشبي قائلاً قم انزل للقاء آخاب ملك إسرائيل الذي في السامرة هوذا هو في كرم نابوت الذي نزل إليه ليرثه. وكلمه قائلاً هكذا قال الرب هل قتلت وورثت أيضاً؟" (1 ملوك 21: 17 — 19). وبعد ذلك أمر الرب إيليا بأن ينطق على آخاب بحكم رهيب.

وأسرع النبي بتنفيذ أمر الرب. فإذ وقف الملك المجرم في الكرم وجهاً لوجه أمام رسول الرب الصارم النظرات، عبّر عن خوفه وفزعه بالقول: "هل وجدتني يا عدوي" (1 ملوك 21 : 20).

أجابه رسول الرب بدون تردد قائلاً: "قد وجدتك لأنك قد بعت نفسك لعمل الشر في عيني الرب. هأنذا أجلب عليك شراً وأبيد نسلك". لم يكن ليستحق أن يعامل بأي رحمة. كان لابد من أن يبيد بيت آخاب ابادة كاملة ويصير: "كبيت يربعام بن نباط وكبيت بعشا بن أخيّا". هكذا أعلن الله على لسان خادمه: "لأجل الإغاظة التي اغطتني ولجعلك إسرائيل يخطئ".

وقد أعلن الرب عن إيزابل قائلاً: "إن الكلاب تأكل إيزابل عند مترسة يزرعيل. من مات لآخاب في المدينة تأكله الكلاب ومن مات في الحقل تأكله طيور السماء". [167]

فلما سمع الملك هذه الرسالة الرهيبة: "شق ثيابه وجعل مسحا على جسده وصام واضطجع بالمسح ومشى بسكوت".

"فكان كلام الرب إلى إيليا التشبي قائلاً هل رأيت كيف اتضع آخاب أمامي فمن أحل أنه قد اتضع أمامي لا أجلب الشر في أيامه بل في أيام ابنه أجلب الشر على بيته" (1 ملوك 21 : 20 — 25، 27، 28).

لم تمض بعد ذلك ثلاث سنوات حتى كان الملك آخاب قد لقي مصرعه بأيدي الآراميين. أما اخزيا ابنه فقد قيل عنه أنه: "عمل الشر في عيني الرب وسار في طريق أبيه وطريق أمه وطريق يربعام .. وعبد البعل وسجد له وأغاظ الرب إله إسرائيل" كما فعل آخاب أبوه (1 ملوك 22 : 52، 53). ولكن الأحكام سارت في أعقاب خطايا الملك المتمرد، فقد نشبت حرب مدمرة بينه وبين موآب، كما وقعت حادثة هددت حياته بالموت، كانت شاهداً على غضب الله عليه.

فإذ "سقط أخزيا من الكوة التي في عليته" وأصابه ضرر بليغ، وكان يخاف من العواقب الوخيمة المتوقعة، أرسل بعض عبيده ليسألوا بعل زبوب إله عقرون أن كان يبرأ من مرضه أم لا. كان يظن أن إله عقرون يعرف الغيب بواسطة كهنته ليخبر الناس عما سيحدث لهم مستقبلاً. وكان يذهب إليه كثيرون ليسألوه. ولكن كان مصدر التنبوات التي كانت تقدم للناس والمعرفة التي تعطى للشعب، هو سلطان الظلمة.

وقد التقى عبيد أخزيا بأحد رجال الله الذي أوصاهم أن يعودوا إلى الملك بالرسالة التالية: "أليس لأنه لا يوجد في إسرائيل إله تذهبون لتسألوا بعل زبوب إله عقرون؟ فلذلك هكذا قال الرب إن السرير الذي صعدت عليه لا تنزل عنه بل موتاً تموت" (2 ملوك 1 : 3، 4). وحالما ألقى النبي رسالته ارتحل. [168]

أسرع العبيد المندهشون عائدين إلى الملك ورددوا على مسامعه أقوال رجل الله. فسألهم الملك قائلاً: "ما هي هيئة الرجل؟" فأجابوه قائلين: "إنه رجل اشعر متنطق بمنطقة من جلد على حقويه". فصاح أخزيا يقول: "هو إيليا التشبي" (2 ملوك 1 : 7، 8). وكان يعلم أنه إذا كان ذلك الغريب الذي التقى به رسله هو إيليا بعينه، فلابد من إتمام الحكم الذي نطق به عليه. فإذ كان مشتاقاً إلى تفادي الحكم الذي يهدده لو أمكن ذلك، عول على استدعاء النبي.

وقد أرسل أخزيا فرقتين من الجند على مرحلتين لإدخال الرعب إلى قلب النبي، وفي كلتا المرتين كان غضب الله ينصب على كل فرقة في دينونة رهيبة. أما الفرقة الثالثة فقد تذلل جنودها أمام الله، ولما اقترب رئيس الفرقة إلى رسول الرب: "جثا على ركبتيه أمام إيليا وتضرع إليه وقال له يا رجل الله لتكرم نفسي وأنفس عبيدك هؤلاء الخمسين في عينيك".

"فقال ملاك الرب لإيليا انزل معه لا تخف منه. فقام ونزل معه إلى الملك. وقال له هكذا قال الرب. من أجل أنت أرسلت رسلاً لتسأل بعل زبوب إله عقرون أليس لأنه لا يوجد في إسرائيل إله لتسأل عن كلامه؟ لذلك السرير الذي صعدت عليه لا تنزل عنه بل موتاً تموت" (2 ملوك 1 : 13، 15، 16).

لقد شهد أخزيا في إبان حكم ابيه عجائب العلي. فرأى البراهين الجلية المرعبة التي قدمها الله لشعبه المرتد تعبيراً عن الكيفية التي ينظر بها إلى الذين لا يلتزمون بمطالب شريعته. ولكن أخزيا تصرف بمنأى عن هذه الحقائق الواقعية المذهلة واعتبرها حكايات عاطلة. فبدلاً من أن يتذلل أمام الرب سار وراء البعل، وأقدم أخيراً على هذه المجازفة الطائشة التي كانت أعظم عمل إلحادي وقح [169] وإذ كان متمرداً وغير راغب في التوبة مات "حسب قول الرب الذي تكلم به إيليا" (2 ملوك 1 : 17).

يوجد إنذار في تاريخ خطيئة الملك أخزيا بحيث لا يمكن لإنسان الاستخفاف به من دون عقاب. قد لا يقدم الناس ولاءهم اليوم للآلهة الوثنية، لكن آلافاً يسجدون في هيكل الشيطان بالتأكيد كما فعل ملك إسرائيل. إن روح الوثنية متفشية في العالم اليوم، بالرغم من تسترها وراء العلم والتهذيب واتخاذها لنفسها أسماء أكثر تهذيباً وجاذبية عما كانت عليه الحال في الأيام التي أرسل فيها أخزيا رسله إلى إله عقرون. وكل يوم يحمل إلينا برهاناً مؤلماً جديداً على أن الإيمان بكلمة النبوة الثابتة بدأ يتضاءل ويتدهور، وأن الخرافات والعرافة الشيطانية احتلتا مكانة هامة تأسران عقول الكثيرين.

ونجد اليوم أن غوامض العبادة الوثنية استبدلت بالجلسات السرية وعجائب وسطاء مناجاة الأرواح. وإن آلافاً ممن يرفضون قبول نور كلمة الله أو وساطة روحه، يتهافتون بشوق وشغف للحصول على معلومات وأسرار يكشفها الوسطاء. وقد يعبر من يعتقدون بمناجاة الأرواح عن احتقارهم للسحرة القدامى، ولكن المخادع الأكبر يسخر منهم بزهو وانتصار عندما يراهم يخضعون لحيله في هيئة أخرى.

كثيرون ينكمشون رعباً من فكرة استشارة وسطاء الأرواح إلا أنهم ينجذبون لأشكال روحانية أخرى تسرهم وآخرون تضللهم تعاليم العلم المسيحي الروحاني [170] ومذهب المثوصوفية، أي التعبير الروحي والتأمل الفلسفي المبهم واللاعقلاني للديانات الشرقية*.

يزعم غالبية دعاة مناجاة الأرواح أن عندهم قوة للشفاء. وهم ينسبون هذه القوة للكهرباء أو المغناطيس التي تسمى "العلاج بالمشاركة الوجدانية" أو للقوى الخفية في داخل عقل الإنسان. ويوجد عدد غير قليل حتى في العصر المسيحي هذا ممن يذهبون إلى مدعي الشفاء هؤلاء بدلاً من اتّكالهم على قدرة الإله الحي ومهارة الأطباء المتخصصين. فالأم التي تسهر إلى جوار سرير طفلها المريض تصرخ أخيراً بجزع قائلة: "لا أستطيع أن أفعل أكثر من ذلك. ألا يوجد طبيب له القدرة التي يجريها طبيب روحاني أو مغناطيسي، فتستودع عزيزها بين يديه وهي في الواقع تضعه بين يدي الشيطان كما لو كان واقفاً إلى جوارها. وفي كثير من الحالات تسيطر على حياة الطفل المستقبلية قوة شيطانية يبدو من المستحيل التخلص منها.

كان لدى الله سبب وجيه لسخطه على إلحاد أخزيا. أي شيء قصر الرب عن عمله لكسب قلوب شعبه وإلهامهم الثقة في شخصه؟ لقد ظل عصوراً طويلة يظهر لشعبه إعلاناته الكثيرة عن رحمته ومحبته التي لا تبارى. فمنذ البدء أعلن قائلاً: "لذاتي مع بني آدم" (أمثال 8 : 31). لقد كان عوناً حاضراً لكل الذين طلبوه بإخلاص. ومع ذلك فها هو ملك إسرائيل يطلب العون من ألد أعداء شعبه ويعلن

---

* (العلم المسيحي هو دين وطريقة في معالجة أدوات العقل والجسد، ويعتقد المنادون به أن الخطيئة والمرض والموت يمكن القضاء عليها بفهم تعاليم المسيح فهماً كاملاً والعمل بموجبها) — قلم التحرير

[171]

بذلك للوثنيين أنه يثق بأوثانهم أكثر مما يثق بإله السماء. ويهينه الرجال والنساء بالكيفية ذاتها عندما يتركون نبع القوة والحكمة ويسألون العون والمشورة من قوات الظلمة. فإذا كان غضب الله قد اشتعل على أخزيا بسبب تصرفه المشين، فكيف يعتبر من يختارون طريقاً مماثلاً رغم النور الذي بحوزتهم؟

قد يفخر من يسلمون أنفسهم لسحر الشيطان كونهم حصلوا على نفع عظيم، ولكن هل يبرهن مسلكهم هذا أنه ينطوي على الحكمة وأن فيه الأمان؟ ماذا لو طالت أعمارهم؟ ماذا لو أصابوا ربحاً زمنياً؟ فهل يعوضهم هذا في النهاية عن احتقارهم لإرادة الله؟ إن كل ربح ظاهري كهذا سيبرهن في النهاية أنه خسارة لا يمكن تعويضها. فنحن لا يمكننا أن ننقض سياجاً واحداً من السياجات التي أقامها الله لحراسة شعبه من قوة الشيطان دون أن نجني العواقب.

وإذ لم يكن لأخزيا ابن فقد تولى الملك من بعده يهورام أخوه الذي ملك على الأسباط العشرة اثنتي عشرة سنة. وكانت أمه إيزابل على مدى هذه السنين ماتزال على قيد الحياة، وظلت تستخدم نفوذها الشرير في كل شؤون الأمة. وكان كثير من الشعب ما يزالون يمارسون العادات الوثنية. أما يهورام نفسه فإنه: ”عمل الشر في عيني الرب ولكن ليس كأبيه وامه فإنه أزال تمثال البعل الذي عمله أبوه. إلا أنه لصق بخطايا يربعام بن نباط الذي جعل إسرائيل يخطئ. لم يحد عنها“ (2 ملوك 3 : 2، 3),

وفي أثناء ملك يهورام على إسرائيل مات يهوشافاط فملك ابنه عوضاً عنه واسمه يهورام أيضاً، فتولى عرش مملكة يهوذا. وإذ تزوج بابنة آخاب وإيزابل ارتبط يهورام ملك يهوذا بملك إسرائيل ارتباطاً وثيقاً. وفي ملكه تمسك بعبادة [172] البعل: ”كما فعل بيت آخاب“. ”وهو أيضاً عمل مرتفعات في جبال يهوذا وجعل سكان أورشليم يزنون وطوح يهوذا“ (2 أخبار الأيام 21 : 6، 11).

ولم يسمح لملك يهوذا أن يمعن في ارتداده دون أن يناله التوبيخ. لم يكن النبي إيليا قد صعد بعد إلى السماء، ولم يستطع أن يظل صامتاً وهو يرى مملكة يهوذا تسلك ذات الطريق الذي أودى بالمملكة الشمالية إلى حافة الإنهيار. فأرسل النبي إلى يهورام ملك يهوذا رسالة مكتوبة قرأ فيها الملك الشرير هذه الأقوال القاسية التالية: ”هكذا قال الرب إله داود أبيك. من أجل أنك لم تسلك في طرق يهوشافاط أبيك وطرق آسا ملك يهوذا بل سلكت في طرق ملوك إسرائيل وجعلت يهوذا وسكان أورشليم يزنون كزنا بيت آخاب وقتلت أيضاً إخوتك من بيت أبيك الذي هم أفضل منك. هوذا يضرب الرب شعبك وبنيك ونساءك وكل ما لك ضربة عظيمة. وإياك بأمراض كثيرة“.

وإتماماً لهذه النبوة: ”أهاج الرب على يهورام روح الفلسطينيين والعرب الذين بجانب الكوشيين فصعدوا إلى يهوذا واقتحموها وسبوا كل الأموال الموجودة في بيت الملك مع بنيه ونسائه أيضاً ولم يبق له ابن إلا يهوآحاز أصغر بنيه (أي أخزيا أو عزريا).

”وبعد هذا كله ضربه الرب في أمعائه بمرض ليس له شفاء. وكان من يوم إلى يوم حسب ذهاب المدة عند نهاية سنتين .. مات بأمراض ردية“ وملك أخزيا (يهوآحاز) ابنه عوضاً عنه (2 أخبار الأيام 21 : 12 — 19، 2 ملوك 8 : 24).

كان يهورام ابن آخاب ما زال يملك على مملكة إسرائيل عندما اعتلى عرش مملكة يهوذا أخزيا ابن أخته. وقد ملك أخزيا سنة واحدة كان في خلالها واقعاً تحت تأثير أمه عثليا التي ”كانت تشير عليه بفعل الشر“. ”وسار في طريق بيت [173] آخاب وعمل الشر في عيني الرب“ (2 أخبار الأيام 22 : 3، 4، 2

ملوك 8 : 27). وكانت إيزابل جدته مازالت على قيد الحياة، وقد عقد حلفاً مع خاله يهورام ملك إسرائيل بلا اكتراث بالنتائج.

وسرعان ما لقي أخزيا ملك يهوذا مصرعه ومات ميتة مفجعة. أما الأحياء الباقون من بيت آخاب فكانوا "له مشيرين بعد وفاة أبيه لإبادته" (2 أخبار الأيام 22 : 3، 4). وبينما كان أخزيا في زيارة خاله في يزرعيل أمر الله أليشع النبي أن يرسل واحداً من بني الأنبياء إلى راموت جلعاد ليمسح ياهو ملكاً على إسرائيل. وكانت جيوش يهوذا وإسرائيل المتحدة مشغولة حينئذ في حملة حربية ضد الآراميين في راموت جلعاد. وقد جرح يهورام في الحرب وعاد إلى يزرعيل تاركاً ياهو ليتولى أمر الجيوش الملكية.

وأعلن رسول أليشع الذي أرسله لمسح ياهو قائلاً له: "قد مسحتك ملكاً على شعب الرب". وحينئذ أوصى ياهو أن يقوم بمأمورية خاصة من السماء فقال له: "فتضرب بيت آخاب سيدك" وقد أعلن الرب قائلاً بفم هذا الرسول: "وانتقم لدماء عبيدي الأنبياء ودماء جميع عبيد الرب من يد إيزابل فيبيد كل بيت آخاب" (2 ملوك 9 : 6 — 8).

فبعدما نادى الجيش بياهو ملكاً أسرع ياهو إلى يزرعيل حيث بدأ عملية قتل وإعدام الذين أصروا على الاستمرار في ارتكاب الخطيئة وإغراء الآخرين على ارتكابها. وقتل يهورام ملك إسرائيل وأخزيا ملك يهوذا وإيزابل الملكة الأم "وكل الذين بقوا لبيت آخاب في يزرعيل وكل عظمائه ومعارفه وكهنته". "وجميع أنبياء البعل وكل عابديه وكل كهنته" الذين كانوا عائشين في مركز عبادة البعل بالقرب من السامرة قتلوا بحد السيف. وكل تماثيل البعل سحقت [174] وهدمت وأحرقت وصار هيكل البعل خراباً: "واستأصل ياهو البعل من إسرائيل" (2 ملوك 10 : 11، 28،19).

ووصلت أنباء هذه الإبادة إلى مسامع عثليا ابنة إيزابل التي كان لا يزال لها مركز الثقل في مملكة يهوذا وعندما رأت أن ابنها ملك يهوذا قد مات: "قامت وأبادت جميع النسل الملكي من بيت يهوذا". وفي هذه المذبحة هلك كل نسل داود الذين كان لهم الحق في اعتلاء العرش، فيما عدا واحداً كان طفلاً يدعى يوآش الذي خبأته امرأة يهوياداع الكاهن الأعظم في داخل تجوم الهيكل. وظل الطفل مخبأ ست سنين: "وعثليا مالكة على الأرض" (2 أخبار الأيام 22 : 10، 12).

وفي نهاية هذه المدة اتحد "اللاويون وكل يهوذا" (2 أخبار الأيام 23 : 8) مع يهوياداع الكاهن الأعظم في تتويج الطفل يوآش ومسحه والمناداة به ملكاً عليهم "وصفقوا وقالوا ليحي الملك" (2 ملوك 11 : 12).

"ولما سمعت عثليا صوت الشعب يركضون ويمدحون الملك دخلت إلى الشعب في بيت الرب" (2 أخبار الأيام 23 : 12). "ونظرت وإذا الملك واقف على المنبر حسب العادة والرؤساء ونافخوا الأبواق بجانب الملك وكل شعب الأرض يفرحون ويضربون بالأبواق".

"فشقت عثليا ثيابها وصرخت خيانة خيانة". (2 ملوك 11 : 14). ولكن يهوياداع الكاهن أمر قواد الجيش أن يلقوا القبض عليها وعلى كل تابعيها ويخرجوهم إلى خارج الهيكل إلى مكان الاعدام حيث كانوا سيقتلون. [175]

وهكذا هلكت آخر سلالة بيت آخاب. فالشر الرهيب الذي حدث من جراء زواجه بإيزابل ظل باقياً حتى وفاة آخر امرأة من نسله. وفد أفلحت عثليا حتى في أرض يهوذا حيث لم تمهل عبادة الإله الحقيقي بصفة رسمية، في تضليل كثيرين. وحالما قتلت الملكة المتحجرة القلب، "دخل جميع شعب الأرض إلى بيت البعل وهدموا مذابحه وكسروا تماثيله تماماً وقتلوا متان كاهن البعل أمام المذابح" (2 ملوك 11 : 18).

وقد تبع ذلك إصلاح. والذين اشتركوا في المناداة بيوآش ملكاً تعاهدوا بوقار: "أن يكونوا شعباً للرب".

والآن بعدما زال تأثير ابنة إيزابل من مملكة يهوذا وقتل كهنة البعل وهدم هيكلهم فقد "فرح كل شعب الأرض واستراحت المدينة" (2 أخبار الأيام 23 : 16، 21). [176]

الفصل السابع عشر ـــــ دعوة أليشع

كان الله قد أمر إيليا بأن يمسح شخصاً آخر ليكون نبيا عوضاً عنه فقال له: ”وامسح أليشع بن شافاط .. نبياً عوضاً عنك“ (1 ملوك 19 : 16). فإطاعة لهذا الأمر ذهب إيليا يبحث عن أليشع. وفيما كان يسافر شمالاً لاحظ أن المشهد قد تبدّل كثيراً عمّا كان عليه منذ عهد قريب. كانت الأرض ملفوحة قاحلة والأقاليم الزراعية عاطلة عن العمل ولا حياة فيها لعدم هطول طل أو مطر مدى ثلاث سنين ونصف. أما الآن فقد اكتست بالخضرة اليانعة في كل مكان وطلع النبات كأنما للتعويض عن زمن الجفاف والجوع.

كان أبو أليشع مزارعاً ثرياً، وكان هو وأهل بيته ضمن الجماعة التي لم يحنوا ركبة للبعل في أيام الارتداد الذي كاد يكون شاملاً. وقد أكرم الله في هذه العائلة حيث كان الولاء القديم لله هو قانون حياتهم اليومية. في مثل هذه البيئة قضى أليشع سني حداثته. ففي هدوء الحياة الريفية، وتحت تعليم الله والطبيعة وتهذيب العمل النافع تلقى تدريباً على عادات البساطة والطاعة لأبويه ولله مما أعان على تأهيله للمركز السامي الذي كان مزعماً أن يشغله فيما بعد.

جاءت الدعوة النبوية إلى أليشع عندما كان يحرث الحقل مع أُجراء أبيه. لقد شرع في العمل الأقرب إليه. وقد اتّصف بوداعة إنسان كان مستعداً للخدمة فضلاً عن مؤهلات القيادة بين الناس. وإذ كانت روحه وديعة هادئة كان مع ذلك [177] نشطاً ثابتاً. كما اتّصف بروح الاستقامة والولاء وحبّه لله وتقواه. وفيما كان يقوم بمهام خدمته اليومية المتواضعة ويزداد باستمرار في النعمة والمعرفة اكتسب قوة العزيمة ونبل الأخلاق. وفيما كان يعين أباه في القيام بواجبات الحياة البيتية، تعلّم التعاون مع الله.

كان أليشع بأمانته في الأمور الصغيرة يعدّ نفسه لمسؤوليات أخطر وودائع أغلى. وقد اكتسب يوماً فيوماً عن طريق الاختبار العملي، أهلية لعمل أسمى وأكثر اتساعاً. وتعلّم أن يخدم ويرشد ويقود في جملة ما تعلّم. وهذا درس نافع للجميع. ليس من يعرف قصد الله من التدريب، ولكن يمكن أن يتحقق الجميع من أن الأمانة في الأمور الصغيرة هي البرهان على أهلية الإنسان لمسؤوليات أعظم. كل عمل من أعمال الحياة يكشف عن الخلق، وليس غير ذاك الذي يبرهن بقيامه بالواجبات الصغيرة أنه ”عاملاً لا يخزى“ (2 تيموثاوس 2 : 15) يمكن أن يكرمه الله بخدمة أسمى.

وذاك الذي يظن أنه ليس بالأمر الهام كيفية ممارسة الأعمال الصغيرة، يبرهن على عدم أهليته لمركز أجلّ من مركزه. قد يظن نفسه قادراً على الإضطلاع بواجبات أعظم ولكن الله ينظر نظرة أعمق من مجرد النظرة السطحية. فبعد الاختبار والتجربة يسجل عليه هذا الحكم: ”وزنت بالموازين فوجدت ناقص“ (دانيال 5 : 27). إن عدم أمانته لها رد فعل عليه. وهو سيشعر بالخيبة والإحباط عن اكتساب النعمة والمقدرة وقوة الخلق التي يمكن الحصول عليها عن طريق التسليم دون تحفظ.

يظن كثير من الناس بل يشعرون أن حياتهم عديمة النفع وأنهم لا يعملون شيئاً لتقدم ملكوت الله وذلك لعدم ارتباطهم بعمل ديني مباشر. وكم سيسرون لو [178] أمكنهم القيام بعمل عظيم. ولكن لكونهم لا يستطيعون القيام إلا بالمهام الصغيرة فهم يظنّون أنه يجوز لهم ألا يفعلوا شيئاً. ولكنّهم مخطئون في هذا. قد

يوجد إنسان نشط في خدمة الله ويقوم في ذات الوقت بواجباته اليومية العادية مثل قطع الأشجار أو تسوية الأرض وتنقيتها وحراستها. إن الأم التي تربّي أولادها لأجل المسيح تخدم الله كخادم في منبره تماماً.

كثيرون يتوقون للحصول على موهبة خاصة يعملون بها عملاً عجيباً، بينما الأعمال التي في متناول أيديهم التي يجعل إتمامها الحياة عبقة عطرة، تغيب عن أنظارهم. ليتناول أمثال هؤلاء الواجبات الموضوعة في طريقهم مباشرة. فالنجاح لا يتوقّف بالأكثر على المواهب أو الوزنات كما على النشاط والرغبة الصادقة في العمل. ليست هي المواهب العظيمة التي تمكنّنا من القيام بخدمة مقبولة، بل القيام بواجباتنا اليومية بضمير صالح، وبروح قانعة وباهتمام حقيقي خالص لخير الآخرين. قد يوجد التفوّق الحقيقي في أبسط الواجبات، والأعمال العادية جداً تكون جميلة في عيني الله إذا عملناها بمحبة وأمانة.

وإذ عبر إيليا الحقل الذي كان يحرثه أليشع مسترشداً برأي الله بحثاً عن خليفة له، ألقى رداء التكريس على كتف الشاب. لقد ألفت عائلة شافاط عمل إيليا ورسالته في أثناء سنّي الجوع، والآن روح الله يؤثر على قلب أليشع فيما يختص بمعنى عمل النبي في طرح الرداء عليه. فكان تصرّف النبي بالنسبة إليه علامة على أن الله قد دعاه ليكون خليفة له.

"فترك البقر وركض وراء إيليا وقال له دعني أقبّل أبي وأمي وأسير وراءك". فأجابه إيليا بقوله: "اذهب راجعاً لأني ماذا فعلت لك" (1 ملوك 19 : 20). لم يكن هذا صداً ولا رفضاً بل امتحاناً لإيمانه. ينبغي لأليشع أن يحسب النفقة — فيقرر [179] لنفسه ما إذا كان يقبل الدعوة أو يرفضها. فإذا كانت رغائبه متعلقة ببيته وما فيه من مزايا فإن له كامل الحرية للبقاء هناك. ولكن أليشع أدرك معنى الدعوة. فقد علم أنها موجهة إليه من الله لذلك لم يتردد في الطاعة. فهو لا يريد التنازل عن الفرصة المقدمة له ليصير رسولاً لله أو أن يضحي بامتياز مصاحبة خادمه، في سبيل الميزات الدنيوية. وقد "أخذ فدان بقر وذبحهما وسلق اللحم بأدوات البقر وأعطى الشعب فأكلوا ثم قام ومضى وراء إيليا وكان يخدمه" (1 ملوك 19 : 21). لقد ترك بيته، دون تردد، الذي كان فيه محبوباً، ليتبع النبي في حياته غير المستقرة.

لو سأل أليشع إيليا عما هو منتظر منه وماذا سيكون عمله، لأجابه بقوله: "الله يعلم وهو سيعرفك به". فإذا انتظرت الرب فهو سيجيب كل أسئلتك. يمكنك أن تأتي معي إذا كان لديك البرهان أن الله قد دعاك. فاعرف لنفسك أن الله يظاهرني ويناصرني، وأن صوته هو الذي تسمعه. فإذا كنت تحسب كل شيء نفاية لكي تربح رضى الله، فتعالى معي.

كان جواب المسيح على سؤال الرئيس الشاب الذي سأله: "أي صلاح أعمل لتكون لي الحياة الأبدية؟" شبيهاً بالدعوة التي قدمت إلى أليشع. فأجابه المسيح: "إن أردت أن تكون كاملاً فإذهب وبع أملاكك وأعط الفقراء فيكون لك كنز في السماء وتعال اتبعني" (متى 19 : 16، 21، 22).

قبل أليشع دعوة الخدمة ولم يلتفت إلى الوراء ليلقي نظرة على المسرات والراحة التي كان سيهجرها. بعدما سمع الشاب الغني كلام المخلص: "مضى حزيناً لأنه كان ذا أموال كثيرة". لم يكن راغباً في الإقدام على التضحية فمحبته لأمواله فاقت محبته لله. فإذ رفض ترك كل شيء لأجل المسيح، برهن على عدم استحقاقه لأن يأخذ مكاناً في خدمة السيد. [180]

تجيء الدعوة لوضع كل شيء على مذبح الخدمة لكل واحد. إنه لا يطلب منا جميعاً أن نخدم كما خدم أليشع، ولا أن نبيع كل ما نملك، ولكن الله يطلب منا أن نعطي خدمته المركز الأول في حياتنا، وألا ندع يوماً يمر دون أن نعمل شيئاً يؤول إلى تقدم عمله في الأرض. وهو لا ينتظر من الجميع أن يقوموا بالخدمة ذاتها. فقد يدعى أحد للخدمة في بلد أجنبي، وقد يطلب من آخر أن يقدم من أمواله لأجل إعانة الإنجيل. والله يقبل عطية كليهما. إن الأمر اللازم هو تكريس الحياة وكل مصالحها. فالذين يقومون بهذا التكريس سيسمعون دعوة السماء ويطيعونها.

الرب يعين لكل من يصير شريكاً في نعمته عملاً يقوم به لأجل الآخرين. وعلى كل فرد منا أن يقف في قرعته قائلاً: "هأنذا أرسلني". "وسواء كان الإنسان خادماً للكلمة أو طبيباً سواء كان تاجراً أو مزارعاً، محترفاً مهنة فنية أو ميكانيكية، فالمسؤولية تستقر عليه. فعمله هو أن يعلن للآخرين إنجيل خلاصهم. وكل مشروع يشتغل فيه ينبغي أن يكون وسيلة لهذه الغاية.

لم يكن العمل الذي أسند إلى أليشع بادئ ذي بدء عظيماً، فإن واجبات مألوفة هي التي حددت تدريبه. وقد قيل عنه أنه كان يصب الماء على يدي إيليا سيده ومعلمه. وكان راضياً بعمل أي شيء أمره به الرب، وفي كل خطوة تعلم دروس الوداعة والخدمة. وظل كتابع شخصي للنبي يبرهن على أمانته في الأشياء الصغيرة، في حين أنه بعزمه القوي كرس نفسه كل يوم للرسالة التي قد عينها له الله. [181]

لم تكن حياة أليشع بعد انضمامه إلى إيليا خالية من التجارب. فقد انهالت عليه المحن من كل جانب ولكنه اعتمد على الله في كل الطوارئ. وجرب لكي يفكر في البيت الذي تركه ولكنه لم يفلتفت إلى هذه التجربة. فبعدما وضع يده على المحراث عزم على ألا يلتفت إلى الوراء. لقد برهن في كل المحن والتجارب على إخلاصه نحو الأمانة الموكلة إليه.

تشمل الخدمة أموراً أكثر من مجرد الكرازة بالكلمة. فهي تعني تدريب الشباب كما درب إيليا أليشع، بأخذهم من وسط واجباتهم العادية وإسناد مسؤوليات إليهم ليقوموا بها في عمل الله. مسؤوليات صغيرة في بادئ الأمر، وعندما يحصلون على القوة والخبرة يكلفون بمسؤوليات أعظم. يوجد في الخدمة رجال ذوو إيمان وصلاة يمكنهم أن يقولوا: "الذي كان من البدء الذي سمعناه الذي رأيناه بعيوننا الذي شاهدناه ولمسته أيدينا من جهة كلمة الحياة .. الذي رأيناه وسمعناه نخبركم به" (1 يوحنا 1 : 1 — 3). فعلى الخدام من الشباب غير المحنكين أن يتدربوا على الخدمة العملية مع خدام الله المختبرين. وبذلك يتدربون على حمل الأعباء.

والذين يقومون بتعليم الخدام من الشباب يقومون بخدمة نبيلة. الرب نفسه يتعاون معهم في جهودهم. أما الشباب الذين سمعوا كلمة التكريس ويتمتعون بامتياز الشركة الوثيقة مع الخدام الغيورين الأتقياء فعليهم أن يستفيدوا من هذه الفرصة أعظم إفادة. لقد أكرمهم الله بأن اختارهم لخدمته ووضعهم في مكان فيه يكتسبون أهلية أعظم للخدمة. لذلك ينبغي لهم أن يكونوا متواضعين، أمناء مطيعين وراغبين في التضحية. فإذا هم خضعوا لتدريب الله ونفذوا تعليماته [182] واختاروا خدامه مشيرين لهم فسيشبون ليصيروا رجالاً أبراراً ثابتين وراسخين وذوي مبادئ سامية يمكن لله أن يعتمد عليهم ويسند مسؤوليات في عمله.

فإذ ينادي بالإنجيل في نقاوته، فالناس يدعون من وراء المحراث ومن الأشغال التجارية العادية والمهن التي يزاولونها التي تشغل العقل، ويتدربون على أيدي رجال مختبرين. فإذ يتعلمون أن يخدموا خدمة فعالة فسيذيعون الحق بقوة. وعن طريق أعمال العناية الإلهية العجيبة جداً ستنتقل جبال الصعوبات وتطرح في أعماق البحر. والرسالة المهمة جداً لسكان الأرض ستسمع وتفهم. وسيعرف الناس ما هو الحق. وسيسير العمل قدماً إلى الأمام حتى يصل الإنذار إلى كل سكان الأرض، ثم يأتي المنتهى.

بعد دعوة أليشع بعدة سنوات ظل إيليا وأليشع يعملان معاً، وكان ذلك الشاب يتلقى كل يوم تدريباً أعظم لعمله. فكان إيليا الوسيلة التي استخدمها الله لتقويض وهدم شرور هائلة. فالوثنية التي أضلت الأمة، والتي كان يساندها آخاب وإيزابل الشريرة، وقد تأثر كل شعب إسرائيل تأثراً عميقاً وبدأ كثيرون يعودون إلى عبادة الله. وقد أعدته معاشرته لإيليا الذي كان أعظم نبي منذ أيام موسى، للعمل الذي كان مزمعاً أن يضطلع بأعبائه وحده.

وفي أثناء سنّي الخدمة المتحدة كان إيليا يدعى بين وقت وآخر لمواجهة الشرور الفاضحة بالتوبيخ الصارم. فعندما استولى آخاب الشرير على كرم نابوت كان صوت إيليا هو الذي تنبأ بوقوع الدينونة

والهلاك عليه وعلى كل بيته. وعندما ارتد أخزيا عن عبادة الله إلى بعل زبوب إله عقرون بعد موت آخاب أبيه كان صوت إيليا هو الذي سمع مرة أخرى محتجاً بغيرة عظيمة. [183]

ومدارس الأنبياء التي كان قد أنشأها صموئيل أصابها الانحطاط والانحلال في غضون سنّي الارتداد. وقد أعاد إيليا تجديد هذه المدارس إذ أعد ما يكفل للشباب لينالوا تعليماً وتهذيباً يقودانهم إلى تعظيم الشريعة وإكرامها. والكتاب يذكر ثلاثاً من هذه المدارس، فواحدة كانت في الجلجال وواحدة في بيت إيل والثالثة في أريحا. فقبيل صعود إيليا إلى السماء ذهب مع إليشع لتفقد مراكز التعليم هذه. وقد كرر للتلاميذ فيها الدروس التي لقنها لهم من قبل في زيارته السالفة. وعلى الخصوص علمهم ما يختص بامتيازهم العظيم امتياز الإخلاص والاحتفاظ بولائهم لإله السماء. كما أنه طبع على عقولهم أهمية جعل البساطة تميز كل مراحل تعليمهم. فبهذه الوسيلة وحدها يمكنهم أن يصاغوا في قالب السماء ويخرجوا لعملهم في طرق الرب. وقد ابتهج إيليا عندما رأى ما تم إنجازه بواسطة هذه المدارس. لم يكن عمل الإصلاح قد كمل لكنه استطاع أن يرى في كل المملكة صدق قول الرب حين قال: "وقد ابقيت في إسرائيل سبعة آلاف كل الركب التي لم تجث للبعل" (1 ملوك 19 : 18).

وإذ كان أليشع يرافق النبي في مهمة خدمته من مدرسة إلى أخرى امتحن إيمانه وعزمه مرة أخرى. ففي الجلجال كما في بيت إيل وأريحا طلب النبي منه أن يرجع إذ قال له "امكث هنا لأن الرب قد أرسلن إلى بيت إيل" ولكن أليشع عند بدء عهده بالحراثة تعلم ألا يفشل أو ييأس أو يخاف. فالآن وقد وضع يده على المحراث في ناحية أخرى من الواجب فهو لا يريد أن يتحول عن غرضه. أنه لا يريد الانفصال عن معلمه طالما بقيت لديه فرصة للحصول على أهلية أكثر للخدمة. فالأعلان عن صعود إيليا وإن كان إيليا نفسه يجهله، قد أعلم به تلاميذه في مدارس الأنبياء وعلى الخصوص أليشع. والآن فها هو خادم رجل الله المجرب يظل ملازماً له. ففي كل مرة قدمت إليه الدعوة للرجوع كان جوابه هكذا: "حي هو الرب [184] وحية هي نفسك إني لا أتركك". "وانطلقا كلاهما .. ووقف كلاهما بجانب الأردن. وأخذ إيليا رداءه ولفه وضرب الماء فانفلق إلى هنا وهناك فعبرا كلاهما في اليبس. ولما عبرا قال إيليا لأليشع اطلب ماذا أفعل لك قبل أن أوخذ منك".

فلم يطلب إليشع كرامة أرضية أو مركزاً سامياً بين عظماء الأرض. ولكن الذي اشتهاه هو نصيب كبير من الروح الذي منحه الله بكل غنى وسخاء لإيليا الذي كان مزعماً أن ينال كرامة عظيمة بإصعاده إلى السماء. فكان يعلم أنه لا شيء سوى الروح الذي استقر على إيليا يمكن أن يؤهله ليملأ المكان الذي دعاه الله إليه بين شعبه. ولهذا سأل قائلاً: "ليكن نصيب اثنين من روحك علي".

وجواباً على هذا الطلب قال إيليا: "صعبت السؤال. فان رأيتني أوخذ منك يكون لك كذلك وإلا فلا يكون. وفيما هما يسيران ويتكلمان إذا مركبة من نار وخيل من نار ففصلت بينهما فصعد إيليا في العاصفة إلى السماء". (2 ملوك 2 : 1 — 11).

كان إيليا رمزاً للقديسين الذين سيكونون أحياء على الأرض في وقت مجيء المسيح ثانية الذين سيتغيرون: "في لحظة في طرفة عين عند البوق الأخير" دون أن يذوقوا الموت. وتأكيداً لهذه الحقيقة سمح لإيليا، قرب انتهاء خدمة المسيح على الأرض، أن يقف مع موسى إلى جوار المخلص فوق جبل التجلي. وقد رأى التلاميذ في الأشخاص الممجدين أمامهم، رمزاً لملكوت المفديين. رأوا يسوع متسربلاً بنور السماء، وسمعوا "الصوت من السحابة" معترفاً به كابن الله، رأوا موسى ممثلاً الذين سيقامون من الأموات في وقت المجيء الثاني، كما [185] وقف هناك أيضاً إيليا ممثلاً عند انتهاء تاريخ الأرض سيتغيرون من حال الفناء إلى حال الخلود ويخطفون إلى السماء دون أن يروا الموت. (1 كورنثوس 15 : 51، 52، لوقا 9 : 35).

إذ كان إيليا في البرية في وحشته وخوفه قال إنه يكفيه ما عاشه من الحياة وصلة طالباً الموت لنفسه. ولكن الرب في رحمته لم يأخذه حسب كلامه. كان باقياً لإيليا عمل عظيم ليعمله، وعندما أنجز ذلك العمل لم يكن له أن يهلك في يأسه ووحدته. لم يكن له أن ينزل إلى القبر بل أن يصعد مع ملائكة الله إلى محضر مجده.

"وكان أليشع يرى وهو يصرخ يا أبي يا أبي مركبة إسرائيل وفرسانها. ولم يره بعد فأمسك ثيابه ومزقها قطعتين. ورفع رداء إيليا الذي سقط عنه ورجع ووقف على شاطئ الأردن. فأخذ رداء إيليا الذي سقط عنه وضرب الماء وقال أين هو الرب يا إيليا؟ ثم ضرب الماء أيضا فانفلق إلى هنا وهناك فعبر أليشع. ولما رآه بنو الأنبياء الذين في أريحا قبالته قالوا قد استقرت روح إيليا على أليشع. فجاءوا للقائه وسجدوا له إلى الأرض" (2 ملوك 2 : 12 — 15). عندما يرى الرب في عنايته أنه من المناسب أن ينقل من عمله الذي أعطيت لهم الحكمة فهو يعين خلفاءهم ويشددهم إذا التفتوا إليه في طلب العون وسلكوا في طرقه. بل قد يكونون أحكم من أسلافهم إذ قد ينتفعون باختباراتهم ويتعلمون الحكمة من أخطائهم.

ومن ذلك الوقت وقف أليشع في مكان إيليا. فذاك الذي كان أميناً في القليل كان عليه أن يبرهن على أمانته في الكثير أيضاً. [186]

الفصل الثامن عشر ـــــإبراء المياه

كانت دائرة الأردن في عصور الآباء: "جميعها سقي .. كجنة الرب". وفي هذا الوادي الجميل اختار لوط أن يرسي دعائم بيته، عندما "نقل خيامه إلى سدوم" (تكوين 13 : 10، 12). وفي الوقت الذي فيه دمّرت مدن السهل وهلكت، أمسى كلّ ذلك الإقليم في برية الفقراء. ومنذ ذلك الحين أصبحت جزءاً من برية اليهودية.

ولكن جزءاً من ذلك الوادي الجميل ظلّ يفرح قلب الإنسان بأنهاره وينابيعه المحيية. وفي هذا الوادي الذي كان غنيًّا بحقول الحنطة وغابات النخيل والأشجار المثمرة الأخرى، نصبت جموع إسرائيل خيامها بعد عبور الأردن. ولأول مرة أكلوا من ثمار أرض الموعد. وقد وقفت أمامهم أسوار أريحا التي كانت حصناً وثنياً ومركزاً لعبادة عشتروت، أحطّ أشكال الوثنية الكنعانية كلّها. ولكن سرعان ما سقطت أسوارها وقُتل سكانها. وفي وقت سقوطها أذيع الإعلان الجليل في مسامع جميع الشعب القائل: "ملعون قدّام الرب الرجل الذي يقوم ويبني هذه المدينة أريحا. ببكره يؤسسها وبصغيره ينصب أبوابها" (يشوع 6 : 26).

وقد مرّت بعد ذلك خمسة قرون كانت تلك البقعة خربة وموحشة وواقعة تحت لعنة الله. وحتى ينابيع المياه التي جذبت الناس للسكن في هذا الجزء من الوادي قاست الويلات من آثار اللعنة التي حلّت عليها. ولكن في أيام ارتداد آخاب بنيت مدينة أريحا، عندما انتعشت عبادة عشتروت نظراً لنفوذ إيزابل وقوّة [187] تأثيرها، وكانت مركز هذه العبادة منذ القدم، مع أن الذي أعاد بناءها دفع ثمناً باهظاً في سبيل ذلك. فإنّ حيئيل البيتئيلي: "بأبيرام بكره وضع أساسها وبسجوب صغيرة نصب أبوابها حسب كلام الرب" (1 ملوك 16 : 34).

وفي وسط الغابات المثمرة غير البعيدة عن أريحا كانت توجد إحدى مدارس الأنبياء، وقد ذهب أليشع إلى هناك بعد صعود إيليّا. وفي أثناء إقامته بينهم جاء رجال المدينة إلى النبي وقالوا له: "هوذا موقع المدينة حسن كما يرى سيدي وأمّا المياه فرية والأرض مجدبة". فذلك الينبوع الذي ظلّ نقياً عذباً في السنين الماضية ومحيياً للناس، الذي زود المدينة والإقليم المحيط بها بأكبر كمية من الماء، أمسى الآن غير صالح للشرب.

واستجابة لتوسلات رجال أريحا قال أليشع: "أئتوني بصحن جديد وضعوا فيه ملحاً" فلمّا أتوه بما طلب: "خرج إلى نبع الماء وطرح فيه الملح وقال هكذا قال الرب قد ابرأت هذه المياه، لا يكون فيها أيضاً موت ولا جدب" (2 ملوك 2 : 19 — 21).

إن إبراء مياه أريحا قد تمّ لا بأية حكمة بشرية بل بتدخّل الله المعجزي. فالذين أعادوا بناء المدينة كانوا غير مستحقّين لمراحم السماء، إلا أن الله الذي: "يشرق شمسه على الأشرار والصالحين ويمطر على الأبرار والظالمين" (متى 5 : 45) رأى أنه من المناسب في تلك الفرصة أن يعلن من خلال عمل الشفقة والرحمة هذا، عن رغبته في شفاء شعبه من أمراضهم الروحية.

كان إبراء الماء ذا فاعلية مستمرة: "فبرئت المياه إلى هذا اليوم حسب قول أليشع الذي نطق به" (2

ملوك 2 : 22). وقد ظلّت المياه تجري وتفيض من جيل إلى جيل جاعلة ذلك الجزء من الوادي واحدة في غاية الاخضرار والجمال. [188]

إننا نستطيع أن نستنبط كثيراً من الدروس الروحية من قصة إبراء المياه. فالصحن الجديد والملح والنبع — كلها رموز سامية.

فإذ طرح أليشع الملح في نبع الماء المر علّم الدرس الروحي ذاته الذي علّمه المخلّص لتلاميذه بعد ذلك بعدة قرون عندما أعلن قائلاً: "أنتم ملح الأرض" (متى 5 : 13). فإذ امتزج الملح بالنبع الملوّث طهّر مياهه وجلب الحياة والبركة إلى المكان الذي حلّ فيه الجفاف والموت. وعندما يشبّه الله أولاده بالملح فهو يريد أن يعلّمهم أن هدفه من جعلهم رعايا نعمته هو ليكونوا عاملين على تخليص الآخرين. إن غرض الله من اختياره شعباً أمام كل العالم، لم يكن فقط لكي يجعلهم أبناء له وبنات، بل لكي يقبل العالم عن طريقهم النعمة التي تأتي بالخلاص. فعندما اختار الرب إبراهيم لم يكن الغرض من ذلك مجرد أن يصير خليل الله الخاص، بل ليصير واسطة للامتيازات الخاصة التي قصد الله أن يمنحها للأمم.

العالم بحاجة إلى أدلّة على المسيحية المخلّصة. فسم الخطيئة يعمل عمله في قلب المجتمع. لقد انحدر الناس في درك الخطيئة في كل مدينة وبلدة، وغاصوا إلى أعماق الفساد الأدبي. والعالم مليء بالمرض والألم والإثم. ففي الأماكن القريبة والبعيدة توجد نفوس تعاني آلام الفاقة والضيق وهي مثقّلة بالشعور بالذنب وتهلك لعدم وجود تأثيرات مخلصة. فإنجيل الحق موضوع أمامهم ومع ذلك فهم يهلكون لأن مثال الذين كان ينبغي أن يكونوا رائحة حياة لهم، هي رائحة الموت. فنفوسهم تتجرّع المرارة لأن الينابيع مسمومة، في حين كان ينبغي أن تكون ينبوع ماء تنبع إلى حياة أبدية. [189]

ينبغي أن يمتزج الملح بالمادة التي يضاف إليها، ويخترقها ويتشرب فيها لكي تحفظ. وكذلك يمكن الوصول إلى الناس بقوة الإنجيل المخلّصة عن طريق الاتصال الشخصي والعشرة. إنّهم لا يخلصون كجماعات بل كأفراد. فالتأثير الشخصي قوّة، الذي ينبغي أن يعمل بتأثير المسيح ومثاله ويقدّم مبادئ صحيحة ويوقف انتشار الفساد في العالم. وهو ينشر تلك النعمة التي يستطيع المسيح وحده أن يمنحها. ويلطّف حياة الآخرين وصفاتهم بواسطة قوة مثاله الطاهر المتّحد بالإيمان الحار والمحبة.

وقد أعلن الرب عن ذلك النبع الذي كان ملوثاً من قبل في أريحا قائلاً: "قد أبرأت هذه المياه لا يكون فيها أيضاً موت ولا جدب". إن النبع الملوّث يرمز إلى النفس المنفصلة عن الله. فالخطيئة لا تبعد النفس عن الله وحسب ولكنّها تلاشي منها الرغبة في معرفته والقدرة عليها. وعن طريق الخطيئة يتعطّل الجهاز البشري كلّه ويُصاب بالشلل، فيفسد العقل ويتنجّس التصوّر وتنحط قوى النفس، وينعدم وجود الديانة الطاهرة وقداسة القلب. وقوة الله المجددة في تغيير الخلق لا تعد تعمل. وهكذا تضعف النفس، ولافتقارها للقوة الأدبية للانتصار تغدو ملوثة ومنحطة.

أما القلب الذي تطهر فيتبدل كل شيء بالنسبة إليه. فتغيير الخلق هو الشهادة الحية لدى العالم على سكنى المسيح في القلب. وروح الله يخلق حياة جديدة في النفس ويجعل الأفكار والرغبات مطيعة لإرادة المسيح، ويتجدّد الإنسان الباطن على صورة الله. والرجال والنساء الضعفاء المخطئون يظهرون للعالم أن قوة النعمة الفادية تستطيع أن تجعل الخلق المتهافت المليء بالعيوب سوياً متناسقاً، وبالتالي كالشجرة اليانعة ينتج ثماراً وفيرة. [190]

إن القلب الذي يتقبل كلمة الله لا يشبه بركة يتبخر ماؤها، ولا يشبه بئراً مشققة تذهب مياهها هدراً بل يشبه نبعاً يتحدّر من جبل يستمد مياهه من ينابيع لا تنفذ وهي تتراقص من فوق الصخور وتقفز وتحيي بمياهها الباردة المنعشة الناس الخائرين المتعبين والعطاش والثقيلي الأحمال. وكنهر دائم الجريان، إذ يتقدّم يغدو أكثر عمقاً واتساعاً إلى أن تمتلئ الأرض كلها من مياهه المحيية. إن النبع الذي يسير فيه طريقه وهو

يترنم بخريره يترك خلفه الخصب والخضرة والثمار اليانعة، أما العشب النامي على ضفّتيه فيبدو أخضراً ناضراً. والأشجار يكسوها الاخضرار والأزهار تكون وفيرة وعطرة. وعندما تبدو الأرض قاحلة وجرداء تحت أشعة شمس الصيف الحارقة فإن خط الخضرة الذي يبدو للعيان يدل على مجرى النهر الذي يخترق تلك الأرض.

كذلك هو الحال مع أولاد الله الحقيقيين، فديانة المسيح تعلن عن نفسها كمبدأ محيي منتشر، وقوة روحية حية عاملة. وعندما ينفتح القلب لتأثير الحق والمحبة الإلهية فستجري هذه المبادئ وتفيض ثانيةً كجداول في قفر بحيث تجعل الخصب يظهر حيث الآن الجدب والجوع.

فإذ يعمل الذين تطهروا وتقدّسوا بمعرفة الحق الكتابي، في عمل ربح النفوس يصيرون فعلاً رائحة حياة لحياة. وإذ يشربون ويرتوون كل يوم من نبع النعمة والمعرفة الذي لا ينضب يجدون أن قلوبهم ممتلئة وفائضة بروح سيدهم وأنه عن طريق خدمتهم الخالية من الأثرة انتفع كثيرون بفوائد جسمانية وفكرية وروحية. فالمتعبون ينتعشون والمرضى يستعيدون صحتهم، والمثقلون بالخطيّة يستريحون. وفي البلدان القاصية تُسمع عبارات الشكر من أفواه الذين رجعوا من دروب الخطيئة إلى البر. [191]

”أعطوا تعطوا“ (لوقا : 38) لأن كلمة الله هي: ”ينبوع جنّات بئر مياه حية وسيول من لبنان“ (نشيد الأنشاد 4 : 15). [192]

الفصل التاسع عشر ــــنبي السلام

كان عمل أليشع بوصفه نبياً يختلف عن عمل إيليا في بعض النواحي. فلقد أعطيت إيليا رسائل للإدانة والقضا. وكان صوته يوبخ ولا يعرف الخوف وهو يدعو الملك والشعب ليرجعوا عن طرقهم الشريرة. أما رسالة النبي أليشع فكانت رسالة سلام، كانت مهمته تهدف إلى تقوية العمل الذي بدأه إيليا وإرساء دعائمه، وأن يعلّم الشعب طريق الرب. ويصوّره الوحي بأنه كان يتصل بالشعب اتصالاً شخصياً وهو محاط ببني الأنبياء. أما خدمته ومعجزاته فكانت تأتي بالشفاء والفرح.

كان أليشع رجلاً تنطوي جوانحه على روح هادئة لطيفة رقيقة. أما كونه استطاع أن يكون أيضاً صارماً فقد برهنت على ذلك تصرفاته عندما سخر منه بعض الصبيان الأشقياء، وهو في طريقه إلى بيت إيل، إذ كانوا خارجين من المدينة. وكان هؤلاء الشبان قد سمعوا عن صعود إيليا.

فاتّخذوا من هذه الحادثة المقدّسة موضوعاً لسخريتهم واستهزائهم قائلين لأليشع: "اصعد يا أقرع، اصعد يا أقرع". فإذ سمع النبي منهم هذه السخرية التفت إليهم، وبإلهام من الله القدير سكب عليهم لعنته. كان الحكم الرهيب الذي [193] تبع ذلك هو من الله: "فخرجت دبّتان من الوعر وافترسا منهم اثنين وأربعين ولداً" (2 ملوك 2 : 23، 24).

فلو سمح أليشع للسخرية بأن تمر دون اكتراث لكان الرعاع مضوا في الاستهزاء به ووجهوا إليه الشتائم، وكانت رسالته في التعليم والتخليص، في وقت كانت فيه الأمة في خطر جسيم تتعطّل وتفشل. فكان هذا الحادث الوحيد الذي يتسم بالصرامة كافياً ليلزم الناس بإكرامه مدى الحياة. ولمدى خمسين سنة كان يدخل ويخرج من باب بيت إيل وينتقل في كل أنحاء البلاد من مدينة إلى أخرى في وسط جموع الشباب العاطلين عن العمل والأجلاف والفاجرين ولكن ما من أحد تجرّأ للنيل منه أو الاستخفاف بمؤهلاته بوصفه نبياً لله العلي.

حتى الشفقة نفسها ينبغي ألا تتعدى حدودها. ينبغي للسلطة أن تستند إلى الشدة والحزم الثابت وإلا فكثيرون سيقابلونها بالسخرية والازدراء والاستهانة. إن كل ما يُسمّى بالرقة والتعلّق والملاطفة والتدليل التي يبديها الآباء وأولياء الأمور والمربّون نحو الأولاد هي من أردأ الشرور التي تصيبهم. ففي كل عائلة نجد أن الثبات والتصميم والأوامر الحازمة جوهرية جداً.

إن الوقار الذي كان يفتقر إليه أولئك الصبية الذين سخروا من أليشع هو نعمة ينبغي أن يسعى لامتلاكها الجميع ويحتفظون بها. فعلى كل ولد أن يتعلّم أن يُظهر توقيراً حقيقياً لله. وينبغي ألا يذكر اسمه باستخفاف أو طيش. فالملائكة إذ ينطقون به يغطون وجوههم. فبأي وقار ينبغي لنا نحن الخطاة الساقطين أن ننطق به على شفاهنا؟

ينبغي إظهار الوقار لمن هم نواب الله. مثل الخدام والمعلمين والآباء الذين يدعون ليتكلّموا ويعملوا نيابة عنه. ففي توقيرهم إكرام الله. [194]

ثم إن اللطف هو أيضاً من نعم الروح وثماره وينبغي أن يعزز في نفوس الجميع. فاللطف والكياسة

والاحترام لها القوة على تلطيف الطباع التي من دونها تغدو فظة قاسية. فالذين يعترفون بأنهم أتباع المسيح وهم في الوقت ذاته يتصرفون في منتهى الفظاظة، غير مشفقين ولا لطفاء، لم يتعلّموا بعد من المسيح. قد لا يشك أحد في إخلاصهم أو يرتاب في استقامتهم. ولكن إخلاصهم واستقامتهم لا ينوبان عن افتقارهم إلى روح الرفق واللطف.

إن روح الرفق التي أعانت أليشع على إحداث تأثير قوي في حياة كثيرين تظهر في قصة علاقته الودية بعائلة كانت تقيم في شونم. كان يتجول هنا وهناك في أنحاء المملكة. "وفي ذات يوم عبر أليشع إلى شونم. وكانت هناك امرأة عظيمة فأمسكته ليأكل خبزاً. كان كلّما عبر يميل إلى هناك ليأكل خبزاً" لقد علمت ربة البيت أن أليشع "رجل الله مقدّس" فقالت لرجلها: "فنعمل علية على الحائط صغيرة ونضع له هناك سريراً وخواناً وكرسياً ومنارة حتى إذا جاء إلينا يميل إليها". وقد أتى أليشع إلى هذا المعتكف مراراً كثيرة وكان ممتناً لهذا الهدوء والسكون الذي وجده فيه وكذلك الله، لمس شفقة تلك المرأة وإحسانها. ولم يكن لها أولاد في بيتها وها هو الرب الآن يكافئ كرمها بأن أعطاها ابناً" (2 ملوك 4 : 8 — 10).

ومرت السنون وكبر الطفل وخرج إلى الحقل مع الحصادين. وفي ذات يوم أصابته ضربة شمس: "وقال لأبيه رأسي رأسي" فأمر أبوه غلاماً بأن يحمل الصبي إلى أمه "فحمله وأتى به إلى أمه فجلس على ركبتيها إلى الظهر ومات. فصعدت واضجعته على سرير رجل الله وأغلقت عليه وخرجت". [195]

وقد عوّلت تلك الشونمية على الذهاب إلى أليشع في كربتها في طلب العون منه. وكان النبي حينئذ عند جبل الكرمل، فشرعت المرأة في الذهاب إليه في الحال يصحبها غلامها: "فلما رآها رجل الله من بعيد قال لجيحزي غلامه هوذا تلك الشونمية. اركض الآن للقائها وقل لها أسلام لك؟ أسلام لزوجك. أسلام للولد." ففعل الغلام كما أُمر .. ولكن تلك الأم الثكلى لم تفض بشكواها ولم تكشف مصدر حزنها إلى أن وصلت إلى أليشع. فإذ سمع أليشع بخسارتها أمر جيحزي قائلاً: "اشدد حقويك وخذ عكازي بيدك وانطلق وإذا صادفت أحداً فلا تباركه وإن باركك أحد فلا تجبه وضع عكازي على وجه الصبي" (2 ملوك 4 : 29).

ولكن الأم لم تكتف بغير ذهاب أليشع معها. فأعلنت تقول: "حي هو الرب وحية هي نفسك أنني لا أتركك. فقام وتبعها وجاز جيحزي قدامها ووضع العكاز على وجه الصبي فلم يكن صوت ولا مصغ. فرجع للقائه وأخبره قائلاً لم ينتبه الصبي: (2 ملوك 4 : 30، 31). ولما وصلوا إلى البيت دخل أليشع إلى الغرفة التي كان الصبي الميّت مضجعاً فيها: "وأغلق الباب على نفسيهما كليهما وصلى إلى الرب. ثم صعد واضطجع فوق الصبي ووضع فمه على فمه وعينيه على عينيه ويديه على يديه وتمدّد عليه فسخن جسد الولد. ثم عاد وتمشى في البيت تارة إلى هنا وتارة إلى هناك وصعد وتمدّد عليه فعطس الصبي سبع مرات ثم فتح الصبي عينيه" (2 ملوك 4 : 33 — 35). وإذ دعا أليشع جيحزي أمره بأن يرسل إليه الأم: "ولما دخلت إليه قال احملي ابنك فأتت وسقطت على رجليه وسجدت إلى الأرض ثم حملت ابنها وخرجت" (2 ملوك 4 : 36، 37).

وهكذا كوفئ إيمان هذه المرأة. إن المسيح معطي الحياة العظيم أعاد إليها ابنها. وهكذا سيكافئ عبيده الأمناء، عندما تُكسر شوكة الموت في مجيئه [196] ويُسلب من القبر انتصاره الذي ادّعاه لنفسه. حينئذ سيردّ إلى عبيده أولادهم الذين أُخذوا منهم بالموت: "هكذا قال الرب. صوت سُمع في الرامة نوح بكاء مر. راحيل تبكي على أولادها وتأبى أن تتعزّى عن أولادها لأنهم ليسوا بموجودين. هكذا قال الرب. امنعي صوتك عن البكاء وعينيك عن الدموع لأنه يوجد جزاء لعملك .. فيرجعون من أرض العدو. ويوجد رجاء لآخرتك يقول الرب فيرجع الابناء إلى تخمهم" (ارما 31 : 15 — 17).

إن يسوع يعزّينا عن أحزاننا لأجل موتانا برسالة رجاء غير محدودة فيقول: "من يد الهاوية أفديهم من الموت أخلّصهم. أين أوباؤك يا موت أين شوكتك يا هاوية" (هوشع 13 : 14). "أنا هو .. الحي. وكنت

ميتاً وها أنا حي إلى أبد الآبدين .. ولي مفاتيح الهاوية والموت" (رؤيا 1 : 17، 18). "الرب نفسه بهتاف بصوت رئيس الملائكة وبوق الله سوف ينزل من السماء والأموات في المسيح سيقومون أولاً. ثم نحن الأحياء الباقين سنخطف جميعاً معهم في السحب لملاقاة الرب في الهواء وهكذا نكون كل حين مع الرب" (1 تسالونيكي 4 : 16، 17).

إن أليشع في خدمته بين الناس ضم عمل الشفاء إلى التعليم كما فعل مخلّص بني الإنسان الذي كان أليشع رمزاً له. وقد حاول بكل أمانة وبلا كلل مدى خدمته الطويلة الفعالة أن يقوّي ويرقي عمل التهذيب العام الذي كانت تضطلع به مدارس الأنبياء. وبعناية الله تعزّزت تعاليمه لدى الجماعات الغيّورة جداً من الشباب المجتمعين، بتأثير الروح القدس العميق، وأحياناً بواسطة براهين لا تخطئ على سلطانه بوصفه خادماً للرب.

وفي إحدى زيارته للمدرسة الكائنة في الجلجال شفى السليقة (حساء من الخضر واللحم) المسمومة: "وكان جوع في الأرض وكان بنو الأنبياء جلوساً [197] أمامه. فقال لغلامه ضع القدر الكبيرة وأسلق سليقة لبني الأنبياء. وخرج واحد إلى الحقل ليلتقط بقولاً فوجد يقطيناً بريًّا فالتقط منه قثّاء برياً ملء ثوبه وأتى وقطّعه في قدر السليقة لأنهم لم يعرفوا. وصبوا للقوم ليأكلو. وفيما هم يأكلون من السليقة صرخوا وقالو في القدر موت يا رجل الله ولم يستطيعوا أن يأكلوا. فقال هاتو دقيقاً فألقاه في القدر وقال صبّ للقوم فيأكلوا. فكأنه لم يكن شيء رديء في القدر" (2 ملوك 4 : 38 — 41). وفي الجلجال أيضاً عندما كان الجوع ما زال في الأرض أطعم أليشع مائة رجل من هدية جائته من "رجل من بعل شلشية". خبز باكورة عشرين رغيفاً من شعير وسويقاً في جرابه". كان معه جماعة في أشدّ حالات الاحتياج إلى الطعام فلما أتى بالتقدمة قال لخادمه "إعط الشعب ليأكلوا. فقال خادمه ماذا. هل أجعل هذا أمام مائة رجل؟ فقال إعط الشعب فيأكلوا وفضل عنهم حسب قول الرب" (2 ملوك 4 : 42، 43).

ما كان أعظم تنازل المسيح بواسطة رسوله في إجراء هذه المعجزة لإشباع الجياع! ومراراً عديدة منذ ذلك الوقت وأن لم يكن دائماً بكيفية ملحوظة ومحسوسة أشبع الرب يسوع حاجة البشر، ولو كان عندنا تمييز روحي أكثر صفاء ورهافة لاعترفنا بأسرع مما نفعل الآن، بمعاملات الله الرحيمة لبني الإنسان. إن نعم الله التي تحلّ على النصيب القليل هي التي تجعله كافياً. ويمكن ليد الله أن تضاعفه مئة ضعف. فمن موارده التي لا تفرغ يستطيع أن يرتّب مائدة في البرية. وبلمسة يديه يمكن أن يزيد القليل بحيث يكفي الجميع. إن قوّته هي التي أكثرت الأرغفة والسويق في أيدي بني الأنبياء. [198]

في أيام خدمة المسيح على الأرض، عندما أجرى معجزة مماثلة في إشباع الجماعير ظهر عدم الإيمان ذاته الذي أظهره من صاحبوا النبي قديماً. قال خادم أليشع: "ماذا، هل أجعل هذا أمام مئة رجل"، وعندما أمر يسوع تلاميذه أن يعطوا الجموع ليأكلوا أجابوه قائلين: "ليس عندنا أكثر من خمسة أرغفة وسمكتين ألا أن نذهب ونبتاع طعاماً لهذا الشعب كله" (لوقا 9 : 13). ما هذا بين جمع عدده؟ هذا الدرس مقدّم لأولاد الله في كل عصر فعندما يُعطي الرب عملاً ليُعمل فلا ينبغي للناس أن يسألوا عن معقولية الأمر أو النتائج المحتملة لاجتهادهم في الطاعة. إن ما في أيديهم قد يبدو أنه لا يكفي لتلبية الحاجة، أمّا في يد الرب ففيه الكفاية وزيادة. "جعل (الخادم) أمامهم فأكلوا وفضل عنهم حسب قول الرب" (2 ملوك 4 : 43).

إن الإحساس الأكمل بعلاقة الله بمن افتداهم ببذله ابنه والإيمان الأعظم بنجاح عمله وتقدّمه في الأرض — هذه هي حاجة الكنيسة العظمى اليوم. فلا يضيّع أحد الوقت في التحسّر على قلّة موارده المنظورة فقد يكون المظهر الخارجي لا يُرجى منه خير ولكن النشاط والإتكال على الله يزيد تلك الموارد. فالتقدمة التي تقدّم به بشكر وصلاة في طلب بركاته سيضاعفها كما ضاعف الطعام المقدّم لبني الأنبياء والجموع المتعبين. [199]

الفصل العشرون ـــــ نعمان

"وكان نعمان رئيس جيش ملك آرام رجلاً عظيماً عند سيده مرفوع الوجه لأنه عن يده اعطى الرب خلاصاً لآرام وكان الرجل جبار بأس ابرص" (2 ملوك 5 : 1).

لقد هزم بنهدد ملك آرام جيوش إسرائيل في المعركة التي انتهت بموت آخاب. ومنذ ذلك الحين ظلّ الآراميون يحاربون إسرائيل على الحدود، في إحدى غاراتهم سبوا فتاة صغيرة، ففي أرض سبيها "كانت بين يدي امرأة نعمان" (2 ملوك 5 : 2). كانت هذه الفتاة الصغيرة جارية وبعيدة عن وطنها ومع ذلك كانت واحدة من شهود الله، وبلا وعي منها كانت تتمم الغرض الذي لأجله اختار الله شعباً خاصاً له. فإذ كانت تخدم في ذلك البيت الوثني ثار عطفها على سيدها، وإذ ذكرت معجزات الشفاء التي حدثت بواسطة أليشع قالت لمولاتها: "يا ليت سيدي أمام النبي الذي في السامرة فإنه كان يشفيه من بصه" (2 ملوك 5 : 3). لقد علمت أن قوة السماء مع أليشع وكانت تؤمن أن هذه القوة كفيلة بأن تشفي نعمان. إن تصرّف تلك الفتاة الأسيرة والنهج الذي سارت عليه في ذلك البيت الوثني هما شهادة قوية على قوة التربية البيتية في بكور حياة الأطفال. لا توجد وديعة أسمى من تلك المسلّمة لأيدي الآباء والأمهات في رعاية أولادهم وتربيتهم. إن للآباء دوراً فعالاً في أسس العادات والأخلاق. فبمثالهم وتعليمهم يتقرر مستقبل [200] أولادهم إلى حد كبير.

سعداء هم الآباء الذين حياتهم في انعكاس لحياة الله بحيث أن مواعيد الله وأوامره توقظ في نفس الطفل روح الشكر والوقار. فالآباء الذين تُترجم رقّتهم وعدالتهم واحتمالهم للطفل محبة لله وعدالته واحتماله، والذين بتعليمهم للطفل أن يحبّهم ويثق بهم و يطيعهم، يعلمونه في ذات الوقت أن يحب أباه السماوي ويثق به ويطيعه. والآباء الذين يقدمون للطفل عطية كهذه إنما يمنحونه كنزاً أثمن من ثروات كل الأجيال ـــ كنزاً يبقى مدى الأبدية.

إننا لا نعلم في أية ناحية من نواحي العمل يمكن لأولادنا أن يُدعوا ليخدموا. فقد يقضون حياتهم داخل محيط البيت وقد يشتغلون في مهن الحياة العادية المألوفة أو يذهبون إلى البلاد الوثنية ليعلّموا الإنجيل، ولكن الجميع يُدعون على السواء لأن يكونوا رسل الله وخدّام الرحمة للعالم. وعليهم أن يتلقّوا تعليماً يعينهم على الوقوف إلى جانب المسيح في خدمة لا أنانية فيها.

عمل والدا تلك الفتاة العبرانية على تعليمها عن الله ولم يكونا يعلمان ماذا سيكون مصيرها. ولكنهما كانا أمينين على ما أؤتُمنا عليه، وفي بيت رئيس جيش آرام شهدت ابنتهما هذه للإله الذي تعلّمت أن تُكرمه.

وقد سمع نعمان الكلام الذي قالته تلك الفتاة لمولاتها وبعدما أذن له الملك ذهب يطلب الشفاء آخذاً معه "عشر وزنات من الفضّة وستة آلاف شاقل من الذهب وعشر حلّل من الثياب" (2 ملوك 5 : 5). وقد حمل معه أيضاً كتاباً من ملك آرام إلى ملك إسرائيل مكتوباً فيه هذه الرسالة: ".. فالآن عند وصول هذا الكتاب إليك هوذا قد ارسلت إليك نعمان عبدي فاشفه من برصه". فلما قرأ ملك [201] إسرائيل الكتاب "مزّق

ثيابه وقال هل أنا الله لكي أميت وأحيي حتى أنّ هذا يرسل إليّ أن أشفي رجلاً من برصه؟ فاعلموا وانظروا أنه إنما يتعرّض لي" (2 ملوك 5 : 6، 7).

وقد علم أليشع خبر ما حدث فأرسل إلى الملك يقول: "لماذا مزّقت ثيابك؟ ليأتي إليّ فيعلم أنه يوجد نبيّ في إسرائيل".

"فجاء نعمان بخيله ومركباته ووقف عند باب بيت أليشع". فأرسل إليه أليشع رسولاُ يقول: "اذهب واغتسل سبع مرات في الأردن فيرجع لحمك إليك وتطهر" (2 ملوك 5 : 8 — 10).

كان نعمان ينتظر أن يرى مظهراً عجيباً لقوة من السماء. فقال: "هوذا قلت أنه يخرج إلي ويقف ويدعو باسم الرب إلهه ويردد يده فوق الموضع فيشفي الأبرص". وعندما أمر بأن يغتسل في الأردن جرحت كبرياؤه، وفي غم وكمد وخيبة صاح يقول: "أليس أبانة وفرفر نهرا دمشق أحسن من جميع مياه إسرائيل؟ أما كنت أغتسل بهما فأطهر؟ ورجع ومضى بغيظ" (2 ملوك 5 : 11، 12).

إن روح نعمان المتكبرة قد تمردّت على اتّباع الطريق الذي قد رسمه أليشع. لقد جُمّلت ضفاف النهرين العظيمين اللذين ذكرهما رئيس جيش آرام بالغياض والبساتين، وتقاطر كثيرون إليها لعبادة أوثانهم. ولم ولن يكلّف نعمان النزول للغطس في أحد النهرين إذلالاً كثيراَ. ولكنّه لم يكن يستطيع أن يحصل على الشفاء إلا باتّباع تعليمات النبي المحددة. فالطاعة بمحض الاختيار هي وحدها التي تحقق النتيجة المرجوة. [202]

وقد توسّل عبيد نعمان إليه أن ينفذ تعليمات أليشع فألحّوا عليه قائلين: "لو قال لك النبي أمراً عظيماً أما كنت تعمله؟ فكم بالحري إذا قال لك اغتسل واطهر" (2 ملوك 5 : 13). لقد جاز إيمان نعمان في الامتحان، في حين أن كبرياءه كافحت لأجل السيادة. ولكن الإيمان انتصر فأخضع ذلك الآرامي المتعجرف كبرياء قلبه وانحنى خضوعاً لإرادة الرب المُعلنة. فغطس في الأردن سبع مرات "حسب قول رجل الله". وقد أكرم إيمانه: "فرجع لحمه كلحم صبي صغير وطهر" (2 ملوك 5 : 14).

فبشكر عظيم: "رجع إلى رجل الله هو وكل جيشه" معترفاً وقائلاً: "هوذا قد عرفت أنه ليس إله في كل الأرض إلا في إسرائيل" (2 ملوك 5 : 15).

وحسب عادة ذلك العصر طلب نعمان من أليشع أن يقبل هدية ثمينة. ولكن النبي أبى. فلم يكن له أن يأخذ أجراً عن بركة منحها الله للرجل في رحمته. فقال: "حي هو الرب الذي أنا واقف أمامه إني لا آخذ" "فألح عليه أن يأخذ فأبى" (2 ملوك 5 : 16).

"فقال نعمان أما يعطي لعبدك حمل بغلين من التراب لأنه لا يُقرّب بعد عبدك محرقة ولا ذبيحة لآلهة أخرى بل للرب. عن هذا الأمر يصفح الرب لعبدك عند دخول سيدي إلى بيت رمون ليسجد هناك ويستند على يدي فأسجد في بيت رمون فعند سجودي في بيت رمون يصفح الرب لعبدك عن هذا الأمر".

"فقال له امض بسلام .. و .. مضى من عنده مسافة من الأرض .." (2 ملوك 5 : 17 — 19). [203]

لقد كانت لدى حيجزي غلام أليشع فرصة مدى السنين لأن يعزز في نفسه روح إنكار الذات التي اتّصفت بها أعمال سيده مدى حياته. كان امتيازاً له أن يصبح حاملاً لواءً نبيلاً في جيش الرب. وكانت أفضل هبات السماء في متناول يده أمداً طويلاً، ولكن إذ تحوّل عنها اشتهى بدلاً منها ثروة العالم الخسيسة. والآن تقوده رغباته الخفية الجامحة التي اتّصفت بها روحه الجشعة إلى الخضوع لتجربة تحكّمت فيه. فتساءل قائلاً: "وذا سيدي قد امتنع عن ان يأخذ من يد نعمان الآرامي هذا ما أحضره .. إني أجري وراءه وآخذ منه شيئاً" (2 ملوك 5 : 20). وهكذا حدث سراً أن: "سار حيجزي وراء نعمان" (2 ملوك 5 : 21).

”ولما رآه نعمان راكضاً وراءه نزل عن المركبة للقائه وقال أسلام. فقال سلام“. وحينئذ نطق حيجزي بكذبة متعمدة فقال: ”إن سيدي قد أرسلني قائلاً هوذا في هذا الوقت قد جاء إليّ غلامان من جبل أفرايم من بني الأنبياء فأعطهما وزنه فضّة وحلتي ثياب“. فبكل سرور أجابه نعمان إلى طلبه وألح على جيحزي وصر وزنتي فضّة في كيسين بدلاً من وزنة واحدة ”وحلتي الثياب“ وأرسل اثنين من غلمانه ليعودا معه بذلك الكنز (2 ملوك 5 : 21 — 23).

وعندما اقترب جيحزي من بيت أليشع صرف الغلامين وأخفى الفضّة وحلتي الثياب. فلمّا فقل هذا: ”دخل ووقف أمام سيده“، ولكي يحمي نفسه من اللوم نطق بكذبة ثانية وأجاب على سؤال النبي إذ سأله قائلاً: ”من أين يا جيحزي؟“ بقوله: ”لم يذهب عبدك إلى هنا أو هناك“ (2 ملوك 5 : 25).

حينئذ جاء الشجب الصارم مبيناً أن أليشع عرف كل شيء إذ قال له: ”ألم يذهب قلبي حين رجع الرجل من مركبته للقاءك؟ أهو وقت لأخذ الفضّة ولأخذ ثياب وزيتون وكروم وغنم وبقر وعبيد وجوار. فبرص نعمان يلصق بك وبنسلك [204] إلى الأبد“. وسرعان ما حلّ العقاب بذلك الرجل الآثم. فخرج من أمام أليشع ”أبرص كالثلج“ (2 ملوك 5 : 26، 27). خطيرة هي الدروس التي نتعلّمها من اختبار ذلك الذي كانت قد اعطيت له امتيازات سامية ومقدسة. لقد كان تصرّف جيحزي عثرة في طريق نعمان الذي كان قد أشرق على ذهنه نور عجيب، فمال قلبه نحو عبادة الإله الحي. أمّا الخداع الذي ارتكبه جيحزي فلم يكن له ما يبرّره. وقد ظلّ أبرص إلى يوم موته، فكان ملعوناً من الله ومكروهاً من بني جنسه.

”شاهد الزور لا يتبرأ والمتكلم بالأكاذيب لا ينجو“ (أمثال 19 : 5). قد يفكّر الناس في إخفاء أعمالهم الشريرة عن العيون البشرية ولكنّهم لا يستطيعون أن يخدعوا الله: ”كل شيء عريان ومكشوف لعيني ذلك الذي معه أمرنا“ (عبرانيين 4 : 13). لقد فكّر جيحزي في أن يخدع أليشع ولكن الله كشف لنبيّه الأقوال التي قالها جيحزي لنعمان وكل تفاصيل المشهد الذي حدث بين الرجلين.

الحق من الله، أما الخداع بكل اشكاله المتعدّدة فهو من الشيطان. وأي إنسان ينحرف عن طريق الحق المستقيم بأية كيفية كانت، إنما يسلّم نفسه لسلطان الشرير. والذين تعلّموا من المسيح لا يشتركون ”في أعمال الظلمة غير المثمرة“ (أفسس 5 : 11). ففي الكلام كما في الحياة يكونون بسطاء القلب ومستقيمين وأمناء لأنهم يتأهبّون ليكونوا في صحبة الذين في أفواهم لم يوجد غش (رؤيا 14 : 5).

وبعد عودة نعمان السرياني إلى وطنه بعدّة قرون وقد شُفي جسده واهتدت روحه: أشار المخلّص إلى إيمانه العجيب وامتدحه كدرس مرئي لكل من يدّعون بأنهم يعبدون الله فقال: ”وبرص كثيرون كانوا في إسرائيل في زمان أليشع [205] النبي، ولم يطهر واحد منهم إلا نعمان السرياني“ (لوقا 4 : 27). لقد أمر الله ببرص كثيرين في شعبه لأن عدم إيمانهم أغلق على وجوههم باب الخير والإحسان. ولكن أحد أشراف الوثنيين الذي كان أميناً لاقتناعه بالحق وأحسّ بحاجته إلى المعونة كان في نظر الله أكثر استحقاقاً لبركته من المرضى والمتألمين في شعبه الذي استخفّوا وازدروا بالامتيازات الممنوحة لهم من الله. والله يعمل لخير من يقدّرون إحساناته ويستجيبون للنور المُعطى لهم من السماء.

يوجد اليوم في كل بلد قوم أمناء القلوب وعليهم يشرق نور السماء. فإذا ظلّوا أمناء في اتّباع ما يدركون أنّه الواجب. فسيُعطى لهم مزيد من النور إلى أن يقتنعوا ويعترفوا كنعمان قديماً أنه: ”ليس إله في كل الأرض“ إلا الإله الحي الخالق.

فكل نفس مخلصة وكل من ”يسلك في الظلمات ولا نور له“ تقدّم إليه الدعوة ”ليتّكل على اسم الرب ويستند إلى إلهه“. ”منذ الأزل لم يسمعوا ولم يصغوا. لم تر عين إلهاً غيرك يصنع لمن ينتظره. تلاقي الفرح الصانع البر. الذين يذكرونك في طرقك“ (إشعياء 50 : 10، 64 : 4، 5). [206]

الفصل الحادي والعشرون ـــخدمات أليشع الختامية

كان أليشع قد دُعي للوظيفة النبوية عندما كان آخاب متربِّعا على عرش المُلك، وقد عاش ليرى كثيراً من التطورات تحدث في مملكة إسرائيل. لقد حلّ بالاسرائيليين عقاب في إثر عقاب إبّان حكم حزائيل ملك آرام الذي مُسح ليكون سوط عذاب للأمة المرتدّة. وكان من نتائج إجراءات الإصلاح الصارمة التي قام بها ياهو هو القضاء بالموت على كل بيت آخاب. وقد خسر يهوآحاز خليفة ياهو بعض المدن الواقعة شرق الأردن في حروبه الطويلة الأمد مع الآراميين. وكان يبدو في وقت ما كما لو أن الآراميين سيتولّون زمام المملكة كلها. ولكن الإصلاح الذي بدأ به إيليا وأتمّه أليشع قاد كثيرين إلى طلب الله. فبدأ الناس يهجرون مذابح البعل، وغرض الله أخذ يتمّ وإن يكن ببطء في حياة أولئك الذين اختاروا أن يعبدوه بكل قلوبهم.

بسبب محبة الله لشعبه الخاطئ سمح للآراميين التنكيل بهم .. وبسبب رأفته على الذين ضعفت فيهم القوى الأدبية أقام ياهو ليقضي على إيزابل الشريرة وبيت آخاب. ومرة أخرى وبعناية الله الرحيمة نُحّي كهنة البعل والعشتروت جانباً. فتهدّمت مذابحهم الوثنية. وقد رأى الله بسابق حكمته أنه لو أُزيلت التجربة سيهجر البعض الوثنية ويتّجهون نحو السماء. وهذا هو السبب الذي لأجله سمح [207] الله للبلايا أن تحلّ بهم الواحدة تلو الأخرى. كانت أحكامه ممتزجة بالرحمة، وعندما تم غرضه، حُوّل التيار لصالح الذين تعلّموا أن يطلبوه.

عندما كانت قوّات الخير والشر تتصارع معاً في سبيل الظفر بالسيادة، وعندما كان الشيطان يبذل قصاراه لإكمال الخراب الذي بدأه أثناء حكم آخاب وإيزابل، ظلّ أليشع يواصل حمل رسالته. لقد واجهته تحدّيات، إلا أن أحداً من الناس لم يستطع أن يناقض أقواله. ففي كل أنحاء المملكة كان محترماً وموقراً. وقد جاء كثيرون طلباً لمشورته.

وعندما كانت إيزابل لا تزال على قد الحياة كان يورام ملك إسرائيل يطلب مشورته، وفي ذات يوم إذ كان في دمشق زاره رسل من قبل بنهدد ملك آرام الذي كان يرغب في معرفة ما إذ كان سيموت بالمرض الذي كان قد ألم به. وقد قدّم النبي للجميع شهادة أمينة في زمن كان فيه الحق يُحرّف في كل مكان وكانت غالبية الناس في حالة عصيان سافر ضد السماء.

لم يترك الله رسوله المختار قط. ففي ذات مرة عندما غزا الآراميون أرض إسرائيل، حاول ملك آرام أن يهلك أليشع بسبب نشاطه في إطلاع ملك إسرائيل على خطط العدو. فقد تآمر ملك آرام عبيده قائلاً: "في المكان الفلاني تكون محلّتي". ولكن الرب كشف لأليشع أمر هذه المؤامرة " فأرسل .. إلى ملك إسرائيل يقول إحذر أن تعبر بهذا الموضع لأن الآراميين حالون هناك. فأرسل ملك إسرائيل إلى الموضع الذي قال له عنه رجل الله وحذّره منه وتحفّظ هناك لا مرة ولا مرتين.

"فاضطرب قلب ملك آرام من هذا الأمر ودعا عبيده وقال لهم أما تخبرونني من منّا هو لملك إسرائيل؟ فقال واحد من عبيده ليس هكذا يا سيدي الملك. [208] ولكن أليشع النبي الذي في إسرائيل يخبر

ملك إسرائيل بالأمور التي تتكلم بها في مخدع مضطجعك" (2 ملوك 6 : 8 — 12).

فإذ عقد ملك آرام العزم على التخلّص من النبي، أمر قائلاً: "اذهبوا وانظروا أين هو فأرسل وآخذه". وكان النبي في دوثان، فلمّا علم الملك بذلك أرسل إلى هنا "خيلاً ومركبات وجيشاً ثقيلاً وجاءوا ليلاً وأحاطوا بالمدينة. فبكّر خادم رجل الله وقام وخرج وإذا جيش محيط بالمدينة وخيل ومركبات" (2 ملوك 6 : 13 — 15).

ففي رعب وفزع جاء خادم أليشع بهذا الخبر قائلاً: "آه يا سيدي كيف نعمل" فجاءه جواب النبي يقول: "لا تخف لأن الذين معنا أكثر من الذين معهم". ولكي يتأكد الغلام من هذا بنفسه "صلّى أليشع وقال يا رب افتح عينيه فيبصر. ففتح الرب عيني الغلام فأبصر وإذا الجبل مملوء خيلاً ومركبات نار حول أليشع" (2 ملوك 6 : 15 — 17). فبين خادم الله و بين الجيوش المسلحين من الأعداء كان يعسكر جيش من ملائكة السماء. لقد نزلوا بقوّة عظيمة لا ليهلكوا الناس ولا ليرغموهم على الولاء بل ليعسكروا حول عبيد الرب الضعفاء ويخدموهم.

عندما يأتي شعب الله إلى أماكن عسرة ويبدو كأن لا حياة لهم، ينبغي أن يكون الرب وحده معتمدهم.

فإذ تقدّم جنود آرام بشجاعة وهم يجعلون كل شيء عن جيوش السماء غير المنظورة: "صلّى أليشع إلى الرب وقال اضرب هؤلاء الأمم بالعمى فضربهم بالعمى كقول أليشع. فقال لهم أليشع ليست هذه هي الطريق ولا هذه هي المدينة. اتبعوني فأسير بكم إلى رجل الذي تفتشون عليه. فسار بهم إلى السامرة. [209]

"فلما دخلوا السامرة قال أليشع يا رب افتح أعين هؤلاء فيبصروا ففتح الرب أعينهم فأبصورا وإذ هم وسط السامرة. فقال ملك إسرائيل لأليشع لما رآهم هل أضرب هل أضرب يا أبي. فقال لا تضرب. تضرب الذين سبيتهم بسيفك وقوسك؟ ضع خبزاً وماء أمامهم فيأكلوا ثم ينطلقون إلى سيدهم. فأولم لهم وليمة عظيمة فأكلوا وشربوا ثم اطلقهم إلى سيدهم" (2 ملوك 6 : 18 -23).

وقد ظلّ شعب إسرائيل لبعض الوقت بمأمن من هجمات الآراميين. ولكن بعد ذلك، وتحت إدارة حزائيل الحاسمة (حفيد حزائيل الذي مسح ليكون سوط عذاب لإسرائيل)، أحاطت جيوش آرام بالسامرة وحاصرتها. ولم يسبق لإسرائيل أن أصابهم ضيق أو وقعوا في مثل ذلك المأزق مثلما حدث عندما فرض عليهم ذلك الحصار. لقد افتقدت ذنوب الآباء في الأبناء وأبناء الأبناء. إن أهوال الجوع الطويل الأمد ساقت ملك إسرائيل لاتخاذ إجراءات يائسة، في الوقت الذي تنبأ فيه أليشع بالخلاص والنجاة في اليوم التالي.

وحوالي فجر اليوم التالي أسمع الرب "جيش الآراميين صوت مركبات وصوت خيل، صوت جيش عظيم". فإذا استبدّ بهم الخوف قاموا وهربوا والظلام بعد باق إذ لم يكن قد انقشع تماماً أمام تباشير الفجر. وتركوا خيامهم وخيلهم وحميرهم، المحلة كما هي وفيها مخازن ملآنة طعاماً. "هربوا لأجل نجاة أنفسهم" (2 ملوك 7 : 6، 7). ولم يتوقفوا إلا بعدما عبروا الأردن.

وفي ليلة الهروب كان يوجد عند باب المدينة أربعة رجال برص، إذ ساقهم الجوع إلى التهوّر، فكّروا في زيارة معسكر الآراميين وإلقاء أنفسهم على مراحم أولئك الغزاة على أمل أن يستدرّوا عطفهم ويحصلوا على طعام منهم. فكم كانت دهشتهم لدى دخولهم المحلّة إذ وجدوا أنه "لم يكن هناك أحد". فإذ لم يكن [210] من يزعجهم أو يمنعهم: "دخلوا خيمة واحدة فأكلوا وشربوا وحملوا منها فضّة وذهباً وثياباً ومضوا وطمروها. ثم رجعوا ودخلوا خيمة أخرى وحملوا منها ومضوا وطمروها. ثم قال بعضهم لبعض لسنا عاملين حسناً. هذا اليوم بشارة ونحن ساكتون" (2 ملوك 7 : 5، 8، 9). فرجعوا بسرعة إلى المدينة لإذاعة البشرى. كانت الغنيمة عظيمة، والمؤونة كثيرة ووفيرة جداً حتى "كانت كيلة الدقيق في ذلك اليوم بشاقل وكيلتا الشعير بشاقل" كما أنبأ أليشع في اليوم السابق. ومرة أخرى تمجد اسم الله في عيون الوثنيين

”حسب كلام الرب“ على لسان نبيّه الذي في إسرائيل (انظر 2 ملوك 7 : 5 — 16).

وهكذا ظلّ رجل الله يعمل سنة بعد أخرى وهو يقترب من الشعب في خدمة أمينة، وفي أوقات الأزمة كان يقف إلى جانب الملوك كمشير حكيم. لقد أحدثت السنون الطويلة سنّي الارتداد إلى الوثنية من جانب الملوك والشعب آثارها الوبيلة. كان ظلام الارتداد الكثيف مازال ظاهراً في كل مكان، ومع ذلك كان يوجد من ظلوا مصرّين على رفض السجود للبعل. وإذ ظلّ أليشع يواصل عمل الإصلاح رجع كثيرون عن الوثنية وتعلّموا أن يفرحوا بعبادة الإله الحقيقي. وقد ابتهج قلب النبي إذ رأى معجزات النعمة الإلهية هذه، وقد أُلهم بشوق عظيم أن يصل إلى من كانوا أمناء القلوب، وأينما وُجد حاول أن يكون كارزاً بالبرّ.

فمن وجهة النظر البشرية كانت الدلائل على تجديد الأمة روحياً أمراً ميؤوساً منه كما هي الدلائل اليوم أمام خدّام الله الذين يخدمون في الأماكن المظلمة في الأرض ولكن كنيسة المسيح هي وسيلة الله لإعلان الحق، وهي مزوّدة بقوّته لتعمل عملاً خاصاً، فإن كانت مخلصة لله ومطيعة لوصاياه فستحلّ فيها قدرة الله [211] الفائقة. إن كانت أمينة لولائها فلا تستطيع قوة ما أن تقف ضدها، ولن تستطيع قوى العدو أن تجتاحها فيما بعد بأكثر مما تقاوم العاصفة الإعصار الشديد.

إن أمام الكنيسة فجر يوم مشرق مجيد إذ كانت تتسربل بثوب برّ المسيح وتنفض يديها من كل ولاء للعالم.

يدعو الله عبيده الأمناء الذين يؤمنون به ليشجعوا غير المؤمنين واليائسين. ارجعوا إلى الرب يا أسرى الرجاء. اطلبوا القوة من الله الإله الحي. أظهروا إيماناً متواضعاً ثابتاً لا يتزعزع بقدرته ورغبته للخلاص. فعندما نتمسك بقوّته بالإيمان فهو سيغيّر المستقبل المثبط للعزائم إلى أقصى حد بكيفية عجيبة. وهو سيفعل هذا لأجل مجد اسمه.

وطالما كان أليشع قادراً على التنقل من مكان إلى آخر في أنحاء مملكة إسرائيل ظلّ يهتم إهتماماً نشطاً وعاملاً في تأسيس مدارس الأنبياء. وكان الله معه أينما كان، معطياً إياه كلاماً ينطق به وقوة بها يصنع المعجزات. فذات مرة: ”قال بنو الأنبياء لأليشع هوذا موضع الذي نحن مقيمون فيه أمامك ضيّق علينا. فلنذهب إلى الأردن ولنأخذ من هناك كل واحد خشبة ونعمل لأنفسنا هناك موضعاً لنقيم فيه“ (2 ملوك 6 : 1، 2). وذهب أليشع معهم إلى الأردن مشجعاً إياهم بحضوره، ومقدَّما لهم إرشادات وتعاليم، وقد صنع معجزة ليعينهم في عملهم. فإذ ”كان واحد يقطع خشبة وقع الحديد في الماء. فصرخ وقال آه يا سيدي لأنه عارية. فقال رجل الله أين سقط فأراه الموضع فقطع عوداً وألقاه هناك فطفا الحديد. فقال ارفعه لنفسك فمدّ يده وأخذه“ (2 ملوك 6 : 5 — 7).

كانت خدمته فعالة وتأثيره واسع النطاق بحيث أنه عندما كان مضطجعاً على سرير الموت فحتى الملك الشاب يوآش الذي كان عابداً للأوثان ولم يكرم الله [212] كثيراً. رأى في النبي أباً في إسرائيل واعترف بأن وجوده بينهم كان في وقت الشدة والضيق أغلى وأعظم قوة مع كونهم يمتلكون جيشاً من خيل ومركبات. فالكتاب يقول: ”ومرض أليشع مرضه الذي مات به. فنزل إليه يوآش ملك إسرائيل وبكى على وجهه وقال يا أبي يا أبي يا مركبة إسرائيل وفرسانها“ (2 ملوك 13 : 14).

توجد نفوس كثيرة متعبة ومتضايقة بحاجة إلى العون، وجدت في النبي أباً حكيماً عطوفاً. وفي هذه المرة نجد أنه لم يحوّل وجهه عن ذلك الشاب غير التقي الماثل أمامه الذي لم يكن مستحقاً لتبوّ ذلك المركز الخطير الذي ينطوي على مسؤوليات جسام، والذي كان مع ذلك في أشدّ حاجة إلى النصح. فالله في عنايته أعطى الملك فرصة فيها يفتدي هزائمه الماضية ويجعل مملكته في مركز ممتاز. إن أعداءه الآراميين الذين كانوا الآن يحتلون الإقليم الواقع شرقي الأردن كان يجب طردهم. وكان يجب أن تظهر قوة الله مرة أخرى لخير شعبه المخطئ.

وأمر ذلك النبي المحتضر الملك قائلاً: "خذ قوساً وسهاماً" وأطاعه يوآش. ومن ثم قال له النبي: "ركّب يدك على القوس فركّب (يوآش) يده. ثم وضع أليشع يده على يدي الملك وقال افتح الكوّة لجهة الشرق" — أي في اتجاه المدن التي في عبر الأردن التي يحتلّها الآراميون. فبعدما فتح الملك الكوة أمره أليشع أن يرمي فعندما انطلق السهم أوحي إلى النبي أن يقول "سهم خلاص للرب وسهم خلاص من آرام، فإنك تضرب آرام في أفيق إلى الفناء".

والآن فها هو النبي يمتحن إيمان الملك. فإذ أمر يوآش أن يأخذ السهام قال: "اضرب على الأرض". وقد ضرب الملك على الأرض ثلاث مرات ثم كفّ يده [213] ووقف. فصاح أليشع يقول له غاضباً: "لو ضربت خمس أو ست مرات حينئذ ضربت آرام إلى الفناء. وأما الآن فإنك إنما تضرب آرام ثلاث مرات" (2 ملوك 13 : 15 — 19).

هذا الدرس هو لكل من يشغلون مراكز ذات مسؤولية. فعندما يفتح الله الطريق لإنجاز عمل ما ويقدّم ضماناً للنجاح، فعلى من يستخدمه الله أن يفعل كل ما في مقدوره، بعدما يختاره، ليحقق النتيجة الموعود بها. فبنسبة الحماس والمثابرة التي يتقدّم بهما خادم الرب بالعمل إلى الأمام ستكون نسبة النجاح الذي يُعطى له. إن الله يستطيع أن يصنع المعجزات لأجل شعبه عندما يقومون بنصيبيهم بنشاط لا يكلّ. وهو يطلب رجالاً مكرّسين لعمله، رجالاً ذوي شجاعة أدبية ومحبة ملتهبة للنفوس وغيرة لا تخمد. أمثال هؤلاء العاملين لن يجدوا عملاً شاقاً لا يمكن إنجازه ولا أملاً ميؤوساً منه. وهم سيعملون ويكدون بلا خوف حتى تستحيل الهزيمة الظاهرة إلى انتصار مجيد. فحتى أبواب السجن أو الآلة التي يُربطون إليها التي تنتظرهم ليُحرقوا ويصيروا شهداء لا يمكن أن تجعلهم ينحرفون عن العمل مع الله لأجل بناء ملكوته.

بعدما قدم أليشع ليوآش النصح والتشجيع انتهى عمله. فذاك الذي حل عليه الروح الذي كان مستقراً على إيليا وحلّ عليه بملء كامل برهن على أمانته إلى النهاية. وهو لم يضطرب أو يتردد قط. كلا ولا فقد ثقته واتّكاله بقدرة الله القادر على كل شيء. فكان كلّما بدا الطريق أمامه مقلقاً فإنه كان دائماً يتقدّم بالإيمان، وقد أكرم الله ثقته وفتح الطريق أمامه.

لم يعط لأليشع أن يتبع سيده في مركبة نارية. ولكن الله سمح بأن يلازمه مرض طويل. وفي خلال الساعات الطويلة من الضعف والألم البشري ظلّ إيمانه [214] متمسكاً بمواعيد الله وكان دائماً يرى أمامه وحوله رسل العزاء والسلام السماويين. فكما رأى من فوق مرتفعات دوثان جيوش السماء محيطة به ومركبات إسرائيل وفرسانها النارية، كان الآن يحس بحضور الملائكة المشفقين المواسين فحصل على السند والمعونة. لقد مارس الإيمان القوي في حياته، وعندما تقدّم في معرفة أعمال عناية الله ورأفته الرحيمة نضج إيمانه فصار وطيد الثقة في إلهه، ولما دعاه داعي الموت كان مستعداً لأن يستريح من أتعابه. "عزيز في عيني الرب موت أتقيائه" (مزمور 116 : 15). "الصديق فواثق عند موته" (أمثال 14 : 32). وقد أمكن لأليشع أن يقول مع المرنم بكل ثقة: "إنما الله يفدي نفسي من يد الهاوية لأنه يأخذني" (مزمور 49 : 15). وقد أمكنه أن يشهد بفرح قائلاً: "أما أنا فقد علمت أن وليي حي والآخر على الأرض يقوم" (أيوب 19 : 25). "أما أنا فبالبر أنظر وجهك. أشبع إذا استيقظت بشبهك" (مزمور 17 : 15). [215]

الفصل الثاني والعشرون ـــ"نينوى المدينة العظيمة"

تعتبر نينوى من كُبريات المدن في العالم القديم في أيام مملكة إسرائيل المنقسمة، وهي عاصمة مملكة أشور. فإذ بُنيت هذه المدينة على شاطىء نهر دجلة الخصيب بعد تشتّت الناس الذين شرعوا في بناء برج بابل فقد ازدهرت على مدى العصور إلى أن صارت: "مدينة عظيمة .. مسيرة ثلاثة أيام" (يونان 3 : 3).

وفي إبّان نجاحها الزمني كانت نينوى مركزاً للجريمة والشر. وقد وصفها الوحي بأنها: "مدينة الدماء .. كلها ملآنة كذباً وخطفاً" (ناحوم 3 : 1). والنبي ناحوم يشبّه سكان نينوى بلغة مجازية على أنّهم يشبهون الأسد المفترس. ويسأل النبي قائلاً: "على من لم يمرّ شرّك على الدوام" (ناحوم 3 : 19).

ومع أن نينوى غدت شريرة فإنها لم تستسلم للشر كلياً فإن ذاك الذي "رأى جميع بني البشر" (مزمور 33 : 13)، "وعينه ترى كل ثمين" (أيوب 28 : 10)، رأى في تلك المدينة كثيرين ممن كانوا يتوقون إلى شيء أفضل وأسمى، الذين لو أعطيت لهم فرصة للتعلّم عن الإله الحي كانوا يطرحون عنهم أعمالهم الشريرة ويعبدونه. وهذا فالله في حكمته أعلن نفسه لهم بطريقة لا تخطئ ليقودهم إلى التوبة إن أمكن. [216]

كان النبي يونان ابن أمتاي هو الوسيلة المختارة لهذا العمل. فقد صار إليه قول الرب: "قم اذهب إلى نينوى المدينة العظيمة وناد عليها لأنه قد صعد شرهم أمامي" (يونان 1 : 1، 2).

فإذ فكّر النبي في الصعوبات والمستحيلات المحتملة لهذه المأمورية جرب أن يتساءل عن الحكمة في هذه الدعوة. فقد بدأ، من وجهة النظر البشرية، أنه لا خير يرجى من إطلاق مثل هذا النداء أو إذاعة مثل هذه الرسالة في تلك المدينة المتكبرة وقد نسي في لحظة أن الله الذي يخدمه هو كلي الحكمة والقدرة وفيما كان متردداً وكانت الشكوك ماتزال تساوره ملأه الشيطان بالخوف فأصاب النبي رعب عظيم: "فقام يونان ليهرب إلى ترشيش". فإذ ذهب إلى يافا ووجد هناك سفينة مستعدة للاقلاع "دفع أجرتها ونزل فيها ليذهب معهم" (يونان 1 : 3).

في المهمة المسلّمة ليونان أنيطت به مسؤولية ثقيلة ومع ذلك فالذي أمره بالذهاب كان قادراً على دعمه ومنحه النجاح. لو أطاع النبي دون تساؤل لوفّر على نفسه كثيراً من الاختبارات المرة وكان قد بورك بركة وافرة. ومع ذلك ففي ساعة يأسه لم يهجره الرب. وعن طريق سلسلة من التجارب وحوادث العناية الغريبة كان يجب أن تتثبت ثقة النبي في الله وفي قدرته اللامتناهية على الخلاص.

لو وقف يونان عندما جاءته الدعوة أول مرة يتأمل في هدوء لعرف مقدار الجهل والغباء في محاولته التهرّب من المسؤولية الموضوعة عليه. ولكن لم يُسمح له بالتوغل طويلاً في هروبه الجنوني دون إزعاج: "فأرسل الرب ريحاً شديدة إلى البحر فحدث نوء عظيم في البحر حتى كادت السفينة تنكسر. فخاف [217] الملاحون وصرخوا كل واحد إلى إلهه وطرحوا الأمتعة التي في السفينة إلى البحر ليخفّفوا عنهم. وأمّا يونان فكان قد نزل إلى جوف السفينة واضطجع ونام نوماً ثقيلاً" (يونان 1 : 4، 5).

وإذ كان الملاحون يتوسلون إلى آلهتهم الوثنية في طلب العون فإن ربّان السفينة الذي كان متضايقاً ومغموماً إلى أقصى حد ذهب يبحث عن يونان ولما وجده قال له: ”مالك نائماً قم اصرخ إلى إلهك عسى أن يفتكر الإله فينا فلا نهلك“ (يونان 1 : 6).

ولكن صلاة الرجل الذي مال عن طريق الواجب لم تأت بأية معونة. وإذ كان الملاحون متأثرين بفكرة كون العاصفة الشديدة تشير إلى غضب آلهتهم لجأوا أخيراً إلى إلقاء القرعة كملجأ أخير يلودون به قائلين: ”لنعرف بسبب من هذه البليّة. فألقوا قرعاً فوقعت القرعة على يونان. فقالوا له أخبرنا بسبب من هذه المصيبة علينا. ما هو عملك؟ ومن أين أتيت؟ ما هي أرضك؟ ومن أي شعب أنت؟“.

”فقال لهم أنا عبراني وأنا خائف من الرب إله السماء الذي صنع البحر والبر“.

”فخاف الرجال خوفاً عظيماً وقالوا له لماذا فعلت هذا؟ فإن الرجال عرفوا أنه هارب من وجه الرب لأنه أخبرهم“.

”فقالوا له ماذا نصنع بك ليسكن البحر عنّا؟ لأن البحر كان يزداد اضطراباً. فقال لهم خذوني واطرحوني في البحر فيسكن البحر عنكم لأنني عالم أنه بسببي هذا النوء العظيم عليكم“. [218]

”ولكن الرجال جذّفوا ليرجعوا السفينة إلى البر فلم يستطيعوا لأن البحر كان يزداد اضطراباً عليهم. فصرخوا إلى الرب وقالوا آه يا رب لا نهلك من أجل نفس هذا الرجل ولا تجعل علينا دماً بريئاً لأنك يا رب فعلت كما شئت. ثم أخذوا يونان وطرحوه في البحر فوقف البحر عن هيجانه. فخاف الرجال من الرب خوفاً عظيماً وذبحوا ذبيحة للرب ونذروا نذوراً“.

وأما الرب فأعد حوتاً ليبتلع يونان في جوف الحوت ثلاثة أيام وثلاث ليال“.

”فصلى يونان إلى الرب إلهه من جوف الحوت وقال: ”دعوت من ضيقي الرب فاستجابني. صرخت من جوف الهاوية فسمعت صوتي. لأنك طرحتني في العمق في قلب البحار. فأحاط بي نهر. جازت فوقي جميع تياراتك ولججك. فقلت قد طردت من أمام عينيك ولكنني أعود وانظر إلى هيكل قدسك. قد اكتنفتني مياه إلى النفس. أحاط بي غمر. التف عشب البحر برأسي. نزلت إلى أسافل الجبال. مغاليق الأرض عليّ إلى الأبد. ثم اصعدت من الوهدة حياتي إيها الرب إلهي. حين أعيت فيّ نفسي ذكرت الرب فجاءت إليك صلاتي إلى هيكل قدسك. الذين يراعون أباطيل كاذبة يتركون نعمتهم. أما أنا فبصوت الحمد أذبح لك وأوفي بما نذرته. للرب الخلاص“ (يونان 1 : 7 — 2 : 9).

أخيراً تعلّم يونان أن: ”للرب الخلاص“ (مزمور 3 : 8). فبالتوبة والاعتراف بنعمة الله المخلّصة جاءه الخلاص. لقد نجا يونان من مخاطر الغمر العظيم فقُذف به إلى البر.

ومرة أخرى أُرسل خادم الله ليحذّر نينوى: ”ثم صار قول الرب إلى يونان ثانية قائلاً قم اذهب إلى نينوى المدينة العظيمة وناد لها المناداة التي أنا [219] مكلمك بها“. ولكنه في هذه المرة لم يتساءل أو يشك بل أطاع دون تردّد ”فقام يونان وذهب إلى نينوى بحسب قول الرب“ (يونان 3 : 1 — 3). فإذ دخل يونان المدينة ابتدأ في الحال بالرسالة قائلاً: ”بعد أربعين يوماً تنقلب نينوى“ (يونان 3 : 4). وجعل يجول من شارع إلى شارع منادياً برسالة الإنذار.

لم تكن الرسالة لتذهب هباء. فتلك الرسالة التي رنّ صداها في شوارع تلك المدينة الشريرة تناقلتها الألسنة حتى سمع بخبرها المفزع كل ساكن. وقد أدخل روح الله الرسالة إلى كل قلب فأخذت جماهير كثيرة من الناس ترتعد من خطاياهم وتتوب في تذلّل عميق.

”فآمن أهل نينوى بالله ونادوا بصوم ولبسوا مسوحاً من كبيرهم إلى صغيرهم. وبلغ الأمر ملك نينوى فقام عن كرسيه وخلع رداءه عنه وتغطّى بمسح وجلس على الرماد. ونودي وقيل في نينوى عن أمر الملك

وعظائمه قائلاً لا تذق الناس ولا البهائم ولا البقر ولا الغنم شيئاً. لا ترع ولا تشرب ماء. وليتغطّ بمسوح الناس والبهائم ويصرخوا إلى الله بشدة ويرجعوا كل واحد عن طريقه الرديئة وعن الظلم الذي في أيديهم. لعل الله يعود ويندم ويرجع عن حمو غضبه فلا نهلك" (يونان 3 : 5 — 9).

وفيما الملك والنبلاء مع عامة الشعب العال والدون: "تابوا بمناداة يونان" (متى 12 : 41) واتّحدوا في الصراخ إلى إله السماء منحهم الله رحمته: "فلمّا رأى الله أعمالهم أنهم رجعوا عن طريقهم الرديئة ندم الله على الشر الذي تكلّم أن يصنعه بهم فلم يصنعه" (يونان 3 : 10) لقد تحوّلت الدينونة عنهم فلم يهلكوا وتمجّد الله وأكرم في كل أنحاء العالم الوثني وأكرمت شريعته. وقد مرت سنين طويلة بعد ذلك قبل أن تسقط نينوى وتصير غنيمة للأمم المحيطة بها بسبب [220] نسيانها الله وبسبب الكبرياء والتفاخر. (لكي تحصل على بيان لإذلال مملكة آشور وسقوطها أنظر ما ورد في الفصل الثلاثين).

حين علم يونان بقصد الله في الإبقاء على المدينة التي برغم شرورها تابت في المسوح والرماد كان ينبغي له أن يكون أول من يفرح بسبب نعمة الله المدهشة ولكن بدلاً من ذلك فقد سمح لعقله بالاستنتاج أن الناس قد يحسبونه نبياً كاذباً. فإذ كان يغار على سمعته غابت عن ذهنه القيمة العظيمة التي لا تقدّر للنفوس التي في تلك المدينة التعسة. إن الرفق والإشفاق الذي أظهره الله لأهل نينوى التائبين: "غم .. يونان غماً شديداً فاغتاظ". وقد سأل الرب قائلاً: "أليس هذا كلامي إذ كنت بعد في أرضي لذلك بادرت إلى الهرب إلى ترشيش لأني علمت أنك إله رؤوف ورحيم بطيء الغضب وكثير الرحمة ونادم على الشر (يونان 4 : 1، 2).

ومرة أخرى استسلم للتساؤل والشكوك ومرة أخرى اكتنفه الخوف. فإذ غابت عنه مصالح الناس وأحس أن موته خير من حياته كيلا يرى المدينة التي أبقي عليها صرخ في تبرّمه وغيظة قائلاً: "فالآن يا رب خذ نفسي مني لأني موتي خير من حياتي".

فسأله الرب قائلاً: "هل اغتظت بالصواب؟" وخرج يونان من المدينة وجلس شرقي المدينة وصنع لنفسه هناك مظلّة وجلس تحتها في الظلّ حتى يرى ماذا يحدث في المدينة. فأعدّ الرب الإله يقطينة فارتفعت فوق يونان لتكون ظلاً على رأسه لكي يخلّصه من غمّه ففرح يونان من أجل اليقطينة فرحاً عظيماً" (يونان 4 : 3 — 6). [221]

حينئذ أعطى الرب ليونان درساً مرئياً. فقد "أعدّ الله دودة عند طلوع الفجر في الغد فضربت اليقطينة فيبست وحدث عند طلوع الشمس أن الله أعدّ ريحاً شرقية حارّة فضربت الشمس على رأس يونان فذبُل فطلب لنفسه الموت وقال موتي خير من حياتي" (يونان 4 : 7، 8).

ومرة أخرى تكلّم الله مع نبيّه قائلاً: "هل اغتظت بالصواب من أجل اليقطينة؟" فقال "اغتظت بالصواب حتى الموت".

"فقال الرب أنت شفقت على اليقطينة التي لم تتعب فيها ولا ربيتها التي بنت ليلة كانت وبنت ليلة هلكت. أفلا أشفق أنا على نينوى المدينة العظيمة التي يوجد فيها أكثر من اثنتي عشرة ربوة من الناس الذين لا يعرفون يمينهم من شمالهم وبهائم كثيرة" (يونان 4 : 9 — 11).

مع أن يونان قد أصيب بالإذلال والحيرة وعجز عن إدراك قصد الله في الإبقاء على نينوى فقد تمّم المأمورية الموكلة إليه في إنذار تلك المدينة العظيمة. ومع أن الحادث الذي أنبأ به لم يتمّ فمع ذلك كانت رسالته من الله وقد حققت الغرض الذي قصده الله فيها وأعلن مجد نعمته بين الأمم. فالذين ظلّوا طويلاً جلوساً "في الظلمة وظلال الموت موثقين بالذل والحديد" "صرخوا إلى الرب في ضيقهم فخلّصهم من شدائدهم. أخرجهم من الظلمة وظلال الموت وقطع قيودهم" "أرسل كلمته فشفاهم ونجاهم من تهلكاتهم" (مزمور 107 : 10، 13، 14، 30).

لقد أشار المسيح خلال سنّي خدمته على الأرض إلى الخير الذي حدث بسبب كرازة يونان ومناداته في نينوى وقارن بين سكّان مركز الوثنية ذاك وبين من كانوا يعترفون بأنهم شعب الله في أيامه. فأعلن قائلاً: "رجال نينوى [222] سيقومون في الدين مع هذا الجيل ويدينونه لأنهم تابوا بمناداة يونان وهوذا أعظم من يونان ههنا" (متى 12 : 14). ففي وسط العالم الذي يضج بالحركة الممتلئ بضوضاء التجارة ومشاجرات الصناعة حيث كان الناس يجتهدون للحصول على ما يبتغون لأجل الذات جاء المسيح وقد ارتفع صوته فوق كل ضجة وارتباك كصوت بوق الله قائلاً: "ماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه؟ أو ماذا يعطي الإنسان فداء عن نفسه" (مرقس 8 : 36، 37).

وكما كانت كرازة يونان آية لأهل نينوى كذلك كانت كرازة المسيح آية لجيله. ولكن ما كان أعظم الفرق في قبول الناس للكلمة! ومع ذلك ففي وجه عدم الاكتراث والاحتقار ظل المخلّص يدأب على الخدمة إلى أن أتمّ رسالته.

الدرس موجه لرسل الله في هذه الأيام. فعندما تكون مدن الأمم بحاجة إلى معرفة صفات الإله الحقيقي ومقاصده كما كان أهل نينوى قديماً فعلى سفراء المسيح أن يوجهوا انتباه الناس إلى العالم الأكثر نبلاً وكرامة الذي غاب عن الأنظار إلى حد بعيد. وبناء على تعاليم كلمة الله المقدسة نعلم أن المدينة الوحيدة الباقية هي المدينة التي صانعها وبارئها الله. فبعين الإيمان يمكن للإنسان أن يرى أبواب السماء وقد غمرها مجد الله الحي. فالرب يسوع يدعو الناس بواسطة خدّامه لكي يجاهدوا بطموح مقدّس للظفر بالميراث الذي لا يفنى. وهو يلح عليهم أن يكنزوا كنوزهم بجوار عرش الله.

سيستقر الإثم والذنب بصورة تكاد تكون شاملة على سكان المدن برمتها بصورة أكيدة وسريعة بسبب تفاقم الشر المستمر والتصميم عليه. ولا يستطيع قلم إنسان بشري أن يصف الفساد السائد. فكل يوم يكشف لنا عن كثير من المنازعات والرشوة والاحتيال وكل يوم يأتينا بأخبار تسقم القلب عن ضروب القسوة والتمرّد [223] وعدم المبالاة بآلام البشر وعن إهلاك الحياة البشرية بكيفية وحشية شيطانية. وكل يوم يشهد تكاثر الجنون وحوادث القتل والانتحار.

لقد حاول الشيطان من جيل إلى آخر إبقاء الناس في حالة الجهل بمقاصد الرب الرحيمة. وقد حاول أن يبعد عن أنظارهم شريعة الله ومبادئ العدل والرحمة والمحبة المدونة فيها. والناس يفخرون بالتقدم العجيب والإستنارة التي يتمتع بها هذا العصر الذي نعيش فيه ولكن الله يرى الأرض وقد امتلأت بالإثم والقسوة. والناس يعلنون أن شريعة الله قد ألغيت وأن الكتاب المقدس ليس كتاباً معتمداً أو صحيحاً وينتج عن ذلك تياراً للشر جارفاً، أكثر مما حدث في أيام نوح وأيام ارتداد إسرائيل، يكتسح العالم اليوم. لقد باع الناس نبل النفس وكرامتها واللطف والتقوى لكي يشبعوا نهمهم ورغائبهم الشهوانية للحصول على المحرمات وقائمة الجرائم السوداء التي ترتكب في سبيل الحصول على الربح تكفي لأن تجمّد الدم في العروق وتملأ النفس هلعاً ورعباً.

إن إلهنا هو إله الرحمة. وهو بكل صبر ورأفة يتعامل مع ناقضي شريعته. ومع ذلك ففي يومنا هذا عندما توجد لدى الرجال والنساء فرص كثيرة لمعرفة شريعة الله كما هي معلنة في السفر المقدس فإن سيد الكون العظيم لا يمكنه أن ينظر نظرة الرضى إلى المدن الشريرة التي تستبد بها القسوة والجرائم. إن نهاية صبر الله واحتماله نحو من يصرّون على العصيان قادمة سريعاً.

فهل يستغرب الناس حدوث تبدّل مفاجئ وغير منتظر في معاملات الحاكم الأعلى تجاه سكان العالم الساقط؟ وهل يستغربون عندما يلحق العقاب العصيان والجرائم المتزايدة؟ أيستغربون أن يجلب الله الهلاك والموت على الذين حصلوا على المكاسب الحرام بواسطة الخداع والاحتيال؟ إن كثيرين بالرغم من حقيقة [224] كون النور المتزايد فيما يختص بمطالب الله قد أشرق على طريقهم فقد رفضوا الاعتراف بسلطان

الرب وسيادته واختاروا البقاء تحت الراية السوداء راية مبتدع كل عصيان ضد حكم السماء.

إن صبر الله عظيم جداً بحيث نصاب بالدهشة عندما نفكّر في الإهانات المتكررة الموجهة إلى وصاياه المقدسة. وقد ضبط الله الكلي القدرة غضبه بصورة عظيمة ليبقى ضمن مميزات صفاته المتأنية. ولكن لابد له من أن يقوم ليعاقب الأشرار الذين يتحدون مطالب الوصايا العشر العادلة بكل جرأة.

إن الله يقدّم للناس فرصة اختبار ولكن يوجد حد ينفذ بعده صبر الله. ولابد من أن تقع أحكام الله أخيراً. فالرب يصبر على الناس طويلاً وكذلك على المدن ويقدّم لهم الإنذارات لإنقاذهم من غضبه. ولكن سيأتي وقت فيه لا تُسمع بعده التوسلات في طلب الرحمة وعنصر العصيان الذي يمعن في رفض نور الحق سيُمحى ويدمّر، رحمة بالعصاة وبالذين لو لا هذا القضاء لتأثروا بمثالهم.

قريب هو الوقت الذي سيعمم العالم فيه حزن ليس له شفاء. إن روح الله ينسحب والكوارث والفواجع في البحر والبر تأتي أحدها في إثر الأخرى في تتابع سريع. فكم من المرات سمعنا عن حدوث زلازل وأعاصير وحرائق وفياضانات تبعتها خسائر فادحة في الأرواح والأموال! يبدو أن هذه الكوارث هي ثورات متقلّبة الأطوار لقوى الطبيعة المشوّشة غير المنضبطة وهي فوق سلطان الإنسان بالكلية، ولكن يمكننا أن نرى فيها كلها قصد الله. إنها من ضمن الوسائل التي يحاول الله بواسطها أن ينبّه الرجال والنساء للشعور بخطرهم.

على رسل الله الذين يخدمون في المدن الكبرى ألا يخافوا أو تضعف هممهم بسبب الشر والظلم والانحطاط الذين يدعون لمواجهته وهم يسعون إلى [225] إذاعة بشرى الخلاص السارّة. فالرب يشجّع كل خادم من أولئك الخدّام بالرسالة ذاتها التي قدّمها لبولس الرسول وهو في مدينة كورنثوس الشريرة إذ قال له: "لا تخف بل تكلّم ولا تسكت لأني أنا معك ولا يقع بك أحد ليؤذيك لأن لي شعباً كثيراً في هذه المدينة" (أعمال 18 : 9، 10). ليذكر الذين يعملون في خدمة ربح النفوس وتخليصها أنه في حين يوجد كثيرون ممكن لا يعيرون مشورة الله اهتماماً كما جاءت في كلمته، فلن يرتدّ العالم كلّه عن النور والحق أو عن دعوات المخلّص الصبور الطويل الأناة. ففي كل مدينة مهما تكن ممتلئة بالقسوة والجريمة يوجد كثيرون ممن يمكنهم أن يصيروا أتباعاً ليسوع عن طريق التعليم الصحيح. ويمكن أن تصل رسالة الحق والإخلاص إلى آلاف من الناس ويمكنّهم أن يقبلوا المسيح مخلّصا شخصياً لهم.

إن رسالة الله لسكان الأرض اليوم هي: "كونوا أنتم أيضاً مستعدين لأنه في ساعة لا تظنون يأتي ابن الإنسان" (متى 24 : 44). فالأحوال السائدة في المجتمع وعلى الخصوص في المدن الكبرى في الأمم تُعلن بأصوات كالرعد أن ساعة دينونة الله قريبة وقد حانت، وأن نهاية كل الأشياء الأرضية قريبة. إننا واقفون على باب أزمة الأجيال وأحكام الله ستتبع إحداها الأخرى في تتابع سريع كالحرائق والفيضانات والزلازل والحروب وسفك الدماء. ولا نستغرب في هذا الزمن الحوادث العظيمة الحاسمة. لأن ملاك الرحمة لا يمكنه أن يظلّ أكثر من ذلك يحمي غير التأبين.

"لأنه هوذا الرب يخرج من مكانه ليعاقب إثم سكان الأرض فيهم فتكشف الأرض دماءها ولا تغطّي قتلاها في ما بعد" (إشعياء 26 : 21). إن عاصفة غضب الله تجتمع، فالذين يستجيبون لدعوة الرحمة هم وحدهم الذين يثبتون كما فعل [226] سكان نينوى إذ سمعوا مناداة يونان وتقدّسوا عن طريق الطاعة لشرائع ملك السماء. والأبرار وحدهم يستترون مع المسيح في الله إلى أن ينتهي الخراب فليكن هذا لسان حالنا

[227]

الفصل الثالث والعشرون ـــــالسبي الأشوري

طبعت السنوات الأخيرة لمملكة إسرائيل المشؤومة بطابع القسوة وسفك الدماء اللذين لم يكن لهما نظير حتى في أشرّ أوقات النزاع وعدم الاستقرار تحت حكم بيت آخاب. ففي فترة من الزمن جاوزت القرنين كان ملوك الأسباط العشرة يزرعون الريح وهم الآن يحصدون الزوبعة. كان يغتال أحد الآخر لإفساح المجال للطامعين في الحكم. وقد أعلن الرب عن هؤلاء المغتصبين المُلحدين قائلاً: ”هم أقاموا ملوكاً وليس مني. وأقاموا رؤساء وأنا لم أعرف“ (هوشع 8 : 4). لقد طُرحت مبادئ العدل جانباً والذين كان ينبغي أن يقفوا أمام أمم الأرض كمستودعات للنعمة الإليهة ”قد غدروا بالرب“ (هوشع 5 : 7) كما غدروا ببعضهم بعضاً.

لقد حاول الله بأقصى التوبيخ إيقاظ الأمة غير التائبة لتتحقق من خطر الهلاك التام الذي يتهددها. فأرسل على لسان هوشع وعاموس إلى الأسباط العشرة رسائل متتالية حاثاً إياهم على التوبة الكاملة مهدداً بالكوارث كنتيجة حتمية لعصيانهم المستمر. فقد أعلن هوشع قائلاً: ”قد حرثتم النفاق حصدهم الإثم أكلتم ثمر الكذب. لأنك وثقت بطريقك بكثرة أبطالك. يقوم ضجيج في شعوبك [228] وتخرب جميع حصونك. في الصبح يهلك ملك إسرائيل هلاكاً“ (هوشع 10 : 13 — 15).

أما أفرايم (يشير هوشع النبي كثيراً إلى أفرايم الذي كان قائداً للعصيان بين أسباط إسرائيل، كرمز للأمة المرتدة) فقد شهد النبي عنه قائلاً: ”أكل الغرباء ثروته وهو لا يعرف وقد رش عليه الشيب وهو لا يعرف“. ”قد كره إسرائيل الصلاح“. ”مسحوق القضاء“. وإذ كان رجال الأسباط العشرة عاجزين عن معرفة وتمييز النتائج الوبيلة لمسلكهم فسرعان ماصاروا ”تائهين بين الأمم“ (هوشع 7 : 9، 8 : 3، 5 : 11، 9 : 17).

بعض رؤساء إسرائيل أحسّوا إحساساً عميقاً بضياع كرامتهم وكانوا يرجون استردادها. ولكن بدلاً من الابتعاد عن الأعمال التي أضعفت المملكة ظلّوا سادرين في ضلالهم وهم يخدعون أنفسهم بأنهم عند سنوح الفرصة سيصلون إلى ذروة القوة السياسية التي كانوا يطمحون إليها بالتحالف مع الوثنيين ”ورأى أفرايم مرضه ويهوذا جرحه فمضى أفرايم إلى أشور“. ”صار أفرايم كحمامة رعناء بلا قلب. يدعون مصر يمضون إلى أشور“ ”ويقطعون مع أشور عهداً“ (هوشع 5 : 13، 7 : 11، 12 : 1).

وبواسطة رجل الله الذي ظهر أمام المذبح في بيت إيل وإيليا وإليشع وعاموس وهوشع عدّد الله للأسباط العشرة مراراً وتكراراً شرور العصيان ولكن بالرغم من التوبيخ والتوسّل فقد غاص إسرائيل إلى عمق الارتداد: ”قد جمح إسرائيل كبقرة جامحة“. وأعلن الرب قائلاً: ”شعبي جانحون إلى الارتداد عني“ (هوشع 4 : 16، 11 : 7). [229]

لقد جاءت أوقات انصبت فيها أحكام السماء يثقلها على الشعب المرتد. وأعلن الله قائلاً: ”لذلك أرضهم بالأنبياء أقتلهم بأقوال فمي والقضاء عليك كنور قد خرج. إني أريد رحمة لا ذبيحة ومعرفة الله أكثر من محرقات ولكنّهم كآدم تعدّوا العهد هناك غدروا بي“ (هوشع 6 : 5 — 7).

وكانت الرسالة التي جاءتهم أخيراً هي التالية: "اسمعوا قول الرب يا بني إسرائيل .. ولأنك نسيت شريعة إلهك أنسى أنا أيضاً بنيك. على حسبما كثروا هكذا أخطأوا إليّ فأبدل كرامتهم بهوان .. أعاقبهم على طرقهم وأرد أعمالهم عليهم" (هوشع 4 : 1، 6 — 9).

كان الإثم الذي تفشى في الشعب أثناء النصف الثاني من القرن الذي سبق سبي أشور، شبيهاً بذاك الذي كان متفشياً في أيام نوح وفي أي عصر آخر عندما رفض الناس الله وأسلموا نفوسهم بالتمام لعمل الشر. إن تمجيد الطبيعة فوق خالقها وعبادة المخلوق والسجود له بدل الخالق نجمت عنها دائماً أفظع الشرور. وعندما قدّم إسرائيل ولاءهم لقوّات الطبيعة وعبدوا البعل وعشتروت قطعوا بذلك كل الربط التي تربطهم بكل ما يسموا بالشخصية ويشرفها، وسقطوا فريسة سهلة المنال للتجربة. فبعدما هُدمت كل حصون النفس لم يكن أمام العابدين الضالّين أي سياج يمنعهم من ارتكاب الخطيئة فأسلموا أنفسهم لأهواء القلب البشري الشريرة.

لقد رفع الأنبياء أصواتهم محتجين ضد الظلم والجور والترف والإسراف وإقامة الولائم والسكر، والخلاعة والفجور الفظيعة — رفعوا أصواتهم محتجين ضد تلك الشرور المتفشية في عصرهم ولكن عبثاً كانت احتجاجاتهم وعبثاً كان تشهيرهم بالخطيئة. وقد أعلن عاموس قائلاً: "إنهم في الباب يبغضون المنذر [230] ويكرهون المتكلم بالصدق". "المضايقون البار الآخذون الرشوة الصادون البائسين في الباب" (عاموس 5 : 10، 12).

مثل هذه كانت بعض النتائج التي نجمت عن إقامة يربعام لعجلي الذهب. وأوّل انحراف عن طقوس العبادة المقررة، قاد الشعب إلى إدخال أشنع طقوس الوثنية بحيث أسلم غالبية الناس نفوسهم لممارسات عبادة الطبيعة المغريّة فإذ نسي شعب الله صانعهم فقد: "توغلوا وفسدوا" (هوشع 9 : 9).

وواصل الأنبياء احتجاجهم ضد هذه الشرور والتوسّل إلى الناس لإقامة الحق. وألّح هوشع عليهم قائلاً: "ازرعوا لأنفسكم بالبر احصدوا بحسب الصلاح (الرحمة) احرثوا لأنفسكم حرثاً فإنه وقت لطلب الرب حتى يأتي ويعلّمكم البر". "وأنت فارجع إلى إلهك. احفظ الرحمة والحق وانتظر إلهك دائماً". "ارجع يا إسرائيل إلى الرب إلهك لأنك قد تعثرت بإثمك .. قولوا له ارفع كل إثم واقبل حسناً" (هوشع 10 : 12، 12 : 6، 14 : 1، 2).

لقد قدّمت للعصاة فرص كثيرة للتوبة. كانت رسالة الله إليهم في أعمق ساعات ارتدادهم وحاجتهم القصوى رسالة غفران ورجاء. وأعلن قائلاً: هلاكك منك يا إسرائيل إنما معونتك فيّ. أين هو ملكك حتى يخلّصك" (هوشع 13 : 9 — 10).

توسّل النبي إليهم قائلاً: "هلم نرجع إلى الرب لأنه هو افترس فيشفينا. ضرب فيجبرنا يحيينا بعد يومين. في اليوم الثالث يقيمنا فنحيا أمامه. لنعرف فلنتتبع لنعرف الرب. خروجه يقين كالفجر. يأتي إلينا كمطر. كمطر متأخر يسقي الأرض" (هوشع 6 : 1 — 3). [231]

لقد قدم الرب للذين غاب عن أنظارهم تدبير الدهور لخلاص الخطاة الذين أخذوا في إشراك الشيطان، قدّم لهم الشفاء والسلام. فقد أعلن قائلاً: "أنا اشفي ارتدادهم أحبهم فضلاً لأن غضبي قد ارتد عنه. أكون (لشعبي) كالندى. يزهر كالسوسن ويضرب أصوله بلبنان. تمتد خراعيبه ويكون بهاؤه كالزيتونة وله رائحة كلبنان. يعود الساكنون في ظلّه، يحيون كحنطة ويزهرون كجفنة. يكون ذكرهم كخمر لبنان. يقول أفرايم ما لي أيضاً وللأصنام. أنا قد أجبت فألاحظه. أنا كسروة خضراء. من قلبي يوجد ثمرك".

"من هو حكيم حتى يفهم هذه الأمور وفيهم حتى يعرفها. فإن طرق الرب مستقيمة والأبرار يسلكون فيها وأمّا المنافقون فيعثرون فيها" (هوشع 14 : 4 - 9).

لقد ألح عليهم الرب بشدة للحصول على منافع طلب وجهه. فدعائهم قائلاً: "اطلبوا فتحيوا. ولا تطلبوا

بيت إيل وإلى الجلجال لا تذهبوا وإلى بئر سبع لا تعبروا لأن الجلجال تسبى سبياً وبيت إيل تصير عدماً".

"اطلبوا الخير لا الشر لكي تحيوا فعلى هذا يكون الرب إله الجنود معكم كما قلتم. ابغضوا الشر أحبوا الخير وثبتوا الحق في الباب لعل الرب إله الجنود يتراءف على بقية يوسف" (عاموس 5 : 4، 5، 14، 15).

إلى هذا الحد رفض السواد الأعظم ممن سمعوا هذه الدعوات الانتفاع بها. كانت أقوال رسل الله مناقضة جداً لرغائب غير التائبين الشريرة بحيث أن كاهن الأوثان في بيت إيل أرسل إلى ملك إسرائيل يقول: "قد فتن عليك عاموس في وسط بيت إسرائيل. لا تقدر الأرض أن تطيق كل أقواله" (عاموس 7 : 10). [232]

وقد أعلن الرب على لسان هوشع قائلاً: "حينما كنت أشفي إسرائيل أعلن إثم آفرايم وسرور السامرة" "وقد أذلّت عظمة إسرائيل في وجهه وهم لا يرجعون إلى الرب إلههم ولا يطلبونه مع كل هذا" (هوشع 7 : 1، 10).

وقد احتمل الرب أولاده العصاة من جيل إلى جيل وحتى الآن كان ما يزال يتوق إلى الإعلان عن نفيه لهم في مواجهة التمرّد والتحدّي من أجل تخليصهم. فقد هتف يقول: "ماذا أصنع بك يا آفرايم؟ ماذا أصنع بك يا يهوذا؟ فإن إحسانكم كسحاب الصبح وكالندى الماضي باكراً" (هوشع 6 : 4).

وقد تفاقمت الشرور التي انتشرت في الأرض بحيث لم يعد إصلاحها ممكناً، فحكم على إسرائيل بهذا الحكم المخيف: "آفرايم موثّق بالأصنام. اتركوه. جاءت أيام العقاب. جاءت أيام الجزاء. سيعرف إسرائيل" (هوشع 4 : 17 ، 9 : 7).

كان لابد من عشرة أسباط إسرائيل أن يحصدوا الارتداد الذي تمثّل في إقامة المذابح الغريبة في بيت إيل ودان. وكانت رسالة الله إليهم هي هذه: "قد زنخ عجلك يا سامرة. حمي غضبي عليهم. إلى متى يستطيعون النقاوة؟ إنه هو أيضاً من إسرائيل. صنعه الصانع وليس هو إلهاً. إن عجل السامرة يصير كسراً". "على عجول بيت آون يخاف سكان السامرة. إن شعبه ينوح عليه وكهنته عليه يرتعدون على مجده لأنه انتفى عنه. وهو أيضاً يُجلب إلى أشور هدية لملك عدو (سنحاريب)" (هوشع 8 : 5، 6، 10 : 5، 6).

"هوذا عينا السيد الرب على المملكة الخاطئة وأبيدها عن وجه الأرض. غير أني لا أبيد بيت يعقوب تماماً يقول الرب. لأنه هأنذا آمر فأغربل بيت إسرائيل بين جميع الأمم كما يغربل في الغربال رحبة لا تقع إلى الأرض. بالسيف يموت كل خاطئي شعبي القائلين لا يقترب الشر ولا يأتي بيننا". [233]

"فتبيد بيوت العاج وتضمحل البيوت العظيمة يقول الرب". "والسيد رب الجنود الذي يمس الأرض فتذوب وينوح الساكنون فيها". "بنوك وبناتك يسقطون بالسيف، وأرضك تقسم بالحبل، وانت تموت في أرض نجسة. وإسرائيل يسبي سبياً عن أرضه" "فمن أجل أني أصنع بك هذا فاستعد للقاء إلهك يا إسرائيل" (عاموس 9 : 8 — 10، 3 : 15، 9 : 5، 7 : 17، 4 : 12).

وقد وقف تنفيذ هذه الأحكام التي لم التنبؤ بها لبعض الوقت، وفي أثناء الحكم الطويل ليربعام الثاني أحرزت جيوش إسرائيل انتصارات باهرة وعظيمة ولكن هذا الوقت الذي بدا أنه وقت نجاح منظور لم يحدث فيه أي تغيير في قلوب غير التائبين، وأخيراً صدر هذا الأمر: "يموت يربعام بالسيف ويسبي إسرائيل عن أرضه" (عاموس 7 : 11).

ضاعت الجرأة التي بها قيل هذا الكلام على الملك والشعب. وقد أوغلوا في قساوة قلوبهم. إذ أن امصيا الذي كان رئيساً على كهنة الأوثان في بيت إيل أثارته الأقوال الصريحة التي نطق بها النبي ضد الأمة

والملك فقال لعاموس: ”أيها الرائي اذهب اهرب إلى أرض يهوذا وكل هناك خبزاً وهناك تنبأ. أما بيت إيل فلا تعد تتنبأ فيها بعد لأنها مقدس الملك وبيت الملك“ (عاموس 7 : 12، 13).

فأجاب النبي على هذا الكلام قائلاً بكل ثبات: ”هكذا قال الرب .. إسرائيل يسبي سبياً“ (عاموس 7 : 17).

وقد تمّت الأقوال التي قيلت في الأسباط المرتدّة حرفياً ومع ذلك فإن الهلاك والخراب الذي حلّ بالمملكة جاء تدريجياً. ففي الغضب ذكر الرب الرحمة. ففي البداية عندما: ”جاء فول الملك أشور إلى الأرض“ لو يؤخذ منحيم أسيراً الذي كان حينئذ ملكاً على إسرائيل بل يُمح له أن يظلّ على [234] عرشه كتابع لمملكة أشور: ”فأعطى منحيم لفول ألف وزنة من الفضّة لتكون يداه معه ليثبّت المملكة في يده. ووضع منحيم الفضّة على إسرائيل على جميع جبابرة البأس ليدفع لملك أشور خمسين شاقل فضّة على كل رجل“ (2 ملوك 15 : 19، 20). فبعدما أذلّ الأشوريون الأسباط العشرة عادوا إلى بلادهم إلى حين.

وإذا لم يتب منحيم عن الشر الذي سبّب لمملكته الدمار ظلّ يرتكب ”خطايا يربعام بن نباط الذي جعل إسرائيل يخطئ“ وكذلك فقحيا وفقح اللذين ملكا من بعده ”عملا الشر في عيني الرب“. ”وفي أيام فقح“ (2 ملوك 15 : 18، 24، 28) الذي ملك عشرين سنة غزا تغلث فلناسر ملك أشور إسرائيل وحمل معه جمهوراً من الأسرى من بين الأسباط الساكنين في الجليل وشرق الأردن. وقد تشتّت: ”الرأوبينيون وكل أرض نفتالي“ (1 أخبار الأيام 5 : 26، 2 ملوك 15 : 29) بين الوثنيين في بلدان بعيدة جداً عن فلسطين.

ولم تستفق المملكة الشمالية من هذه الضربة الهائلة قط. وظلّت البقيّة الضعيفة تمارس نظام الحكم مع أنّها ما عادت تملك السلطان. ولم يملك بعد ذلك ملك سوى هوشع الذي ملك بعد فقح. وسرعان ما كانت المملكة ستكتسح إلى الأبد. ولكن في ذلك الوقت، وقت الحزن والضيق، ظل الله يذكر الرحمة فأعطى الشعب فرصة أخرى ليرجعوا عن عبادة الأوثان. ففي السنة الثالثة من حكم هوشع ابتدأ حزقيا الملك الصالح يملك على يهوذا. وبأقصى سرعة ممكنة قام بإصلاحات هامة في خدمة الهيكل في أورشليم. ووضعت الترتيبات للاحتفال بذكرى عيد الفصح وقد دعى إلى هذا العيد ليس فقط سبطا يهوذا وبنيامين [235] اللذين مسح حزقيا ملكاً عليهما بل أيضاً كل الأسباط الساكنين في الشمال. وقد أطلق نداء في جميع إسرائيل من ”بئر سبع“ إلى ”دان“ كي يأتوا لعمل الفصح للرب إله إسرائيل في أورشليم لأنهم لم يعملوه كما هو مكتوب منذ زمان كثير.

”فذهب السعاة بالرسائل من يد الملك ورؤسائه في جميع إسرائيل ويهوذا“ وفي أفواههم هذه الدعوة الملحّة التي تقول: ”يا بني إسرائيل ارجعوا إلى الرب إله ابراهيم واسحق وإسرائيل فيرجع إلى الناجين الباقين لكم من يد ملوك أشور .. الآن لا تصلّبوا رقابكم كآبائكم بل اخضعوا للرب وادخلوا مقدسه الذي قدّسه إلى الأبد واعبدوا الرب إلهكم فيرتد عنكم حمو غضبه. لأنه برجوعكم إلى الرب يجد اخوتكم وبنوكم رحمة أمام الذين يسبونهم فيرجعون إلى هذه الأرض لأن الرب إلهكم حنّان ورحيم ولا يحول وجهه عنكم إذا رجعتم إليه“ (2 أخبار الأيام 30 : 5 — 9).

فكان السعاة المرسلون من قبل حزقيا يعبرون حاملين الرسالة “ من مدينة إلى مدينة في أرض أفرايم ومنسى حتى زبولون“. كان ينبغي لشعب إسرائيل أن يتحققوا إن في هذه الدعوة توسلاً إليهم ليتوبوا ويرجعوا إلى الله. ولكن بقية الأسباط العشرة الذين كانوا لا يزالون ساكنين داخل أقليم المملكة الشمالية التي كانت قبلاً مزدهرة عاملوا رسل الملك القادمين من يهوذا بعدم الاكتراث بل حتى بالاحتقار: ”كانوا يضحكون عليهم ويهزأون بهم“. ومع ذلك فقد وجد قليلون الذين استجابوا للدعوة بكل سرور. ”إن قوماً من أشير ومنسى وزبولون تواضعوا وأتوا إلى أورشليم .. لعمل عيد الفطير“ (2 أخبار الأيام 30 : 10 — 13).

وبعد ذلك بحوالي سنتين حاصرت جيوش أشور السامرة تحت قيادة شلمناصر، وفي الحصار الذي تبع ذلك هلك خلق كثير بالجوع والمرض كما [236] بحد السيف. وقد سقطت المدينة والأمة. والبقية المنسحقة من الأسباط العشرة حملوا أسرى وتشتتوا في مقاطعات أشور.

كان الدمار الذي حصل بالمملكة الشمالية قضاء مباشراً من السماء. ولم يكن الأشوريون أكثر من آلات استخدمها الله لإتمام قصده. وقد أشار الله على لسان إشعياء الذي ابتدا يتنبأ قبيل سقوط السامرة بوقت قصير أشار إلى جيوش أشور على أنها "قضيت غضبي". "العصا في يدهم هي سخطي" (هكذا قال الرب) (إشعياء 10 : 5).

لقد أخطأ شعب الله "إلى الرب إلههم" خطأ عظيماً .. "وعملوا أموراً قبيحة". "رفضوا فرائضه وعهده الذي قطعه مع آبائهم وشهاداته التي شهد بها عليهم". فلكونهم "تركوا جميع وصايا الرب إلههم وعملوا لأنفسهم مسبوكان عجلين وعملوا سواري وسجدوا لجميع جند السماء وعبدوا البعل"، وبكل إصرار رفضوا أن يتوبوا، إن الرب: "أذلّهم ودفعهم ليد ناهبين حتى طرحهم من أمامه". وكان هذا وفق إنذاراته الصريحة التي أرسلها إليهم "عن يد جميع عبيده الأنبياء".

"فسبى إسرائيل من أرضه إلى أشور"، "لأنهم لم يسمعوا لصوت الرب إلههم بل تجاوزوا عهده وكل ما أمر به موسى عبد الرب" (2 ملوك 17 : 7، 11، 14 — 16، 20، 23، 18 : 12).

إذا أوقع الرب أحكامه الرهيبة على الأسباط العشرة كان له قصد حكيم ورحيم. فما لم يتمكّن من عمله بواسطتهم في أرض آبائهم حاول إتمامه بتشتيتهم بين الوثنيين. إن خطته لأجل خلاص جميع الذين يختارون الانتفاع بالغفران بواسطة مخلّص الجنس البشري ينبغي أن تتم. وفي البلايا التي حلّت على إسرائيل كان يعدّ الطريق لإعلان مجده بين أمم الأرض. لم يكن كلّ [237] المسبيين متحجري القلوب. كان بينهم بعض من ظلّوا أمناء لله، وبعض الذين تواضعوا أمامه. وعن طريق "أبناء الله الحي" هؤلاء)هوشع 1 : 10)، أراد أن يأتي بكثيرين من مملكة أشور لمعرفة سجاياه وصفاته وجود شريعته. [238]

الفصل الرابع والعشرون ـــ"هلك لعدم المعرفة"

كانت مراحم الله وإحساناته لبني إسرائيل مشروطة دائماً بطاعتهم. فعندما كانوا حالّين عند سفح جبل سيناء ودخلوا معه في عهد ليكونوا له "خاصّة من بين جميع لشعوب" وعدوا بكل وقار أن يسيروا في طريق الطاعة. فقالوا: "كل ما تكلّم به الرب نفعل". وعندما أعطيت شريعة الله من فوق جبل سيناء بعد أيام قليلة وأُعطيت لهم تعاليم إضافية على شكل فرائض وأحكام على يد موسى وعد الإسرائيليون ثانية بصوت واحد قائلين: "كل الأقوال التي تكلّم بها الرب نفعل". وعند تجديد العهد وتثبيته أجمع الشعب مرة أخرى على إعلان هذا القول: "كل ما تكلّم به الرب نفعل ونسمع له" (خروج 19 : 5، 8، 24 : 3، 7). لقد اختار الله إسرائيل شعباً له كما اختاروه ملكاً عليهم.

وقد أعيد تكرار شروط العهد مرة أخرى قرب انتهاء مدة تيهانهم في البرية. كما جدد الذين ظلّوا أمناء عند بعل فغور، على تخوم أرض الموعد نفسها حيث سقط كثيرون صرعى التجربة الماكرة، نذور ولائهم. كما أُنذروا على لسان موسى للحذر من التجارب التي قد تهاجم في المستقبل وأوصوا بكل غيرة ليظلّوا بمنأى عن الأمم المحيطة بهم ويعبدوا الله وحده. [239]

وقد أوصاهم موسى قائلاً: "فالآن يا إسرائيل اسمع الفرائض والأحكام التي أنا أعلمكم لتعلموها لكي تحيوا وتدخلوا وتمتلكوا الأرض التي الرب إله آبائكم يعطيكم. لا تزيدوا على الكلام الذي أنا أوصيكم به ولا تنقصوا منه لكي تحفظوا وصايا الرب إلهكم التي أنا أوصيكم بها .. فاحفظوا واعملوا. لأن ذلك حكمتكم وفطنتكم أمام أعين الشعوب الذين يسمعون كل هذه الفرائض فيقولون هذا الشعب العظيم إنما هو شعب حكيم وفطن" (تثنية 4 : 1 — 6).

وقد أوصى الله الإسرائيليين بوجه خاص بألا تغيب عن أعينهم وصاياه التي بحفظها ينالون القوة والبركة. فكان كلام الرب لهم على لسان موسى قائلاً: "إنما احترز وتحفظ نفسك جداً لئلا تنسى الأمور التي أبصرت عيناك ولئلا تزول من قلبك كل أيام حياتك وعلّمها أولادك وأولاد أولادك" (تثنية 4 : 9). فالمشاهد التي كانت توحي بالرهبة والخوف عند إعطاء الشريعة في سيناء كان ينبغي ألا تُنسى. وكانت التحذيرات المقدّمة للشعب حول التعلّق بالعادات الوثنية التي كانت سائدة في الأمم المجاورة واضحة وصريحة وحاسمة. فقد أوصاهم قائلاً: "فاحتفظوا جداً لأنفسكم ... لئلا تفسدوا وتعملوا لأنفسكم تمثالاً منحوتاً صورة مثال ما". "ولئلا ترفع عينيك إلى السماء وتنظر الشمس والقمر والنجوم كل جند السماء التي قسمها الرب إلهك لجميع الشعوب التي تحت كل السماء فتغتر وتسجد لها وتعبدها"، "احترزوا من أن تنسوا عهد الرب إلهكم الذي قطعه معكم وتصنعوا لأنفسكم تمثالاً منحوتاً صورة كل من نهاك عنه الرب إلهك" (تثنية 15 : 16، 19، 23).

وقد تتبع موسى الشرور التي تنجم عن الابتعاد عن فرائض الرب. وإذ أشهد السماء والأرض أعلن أنه إذا كان الشعب بعدما يسكن أمداً طويلاً في أرض [240] الموعد يدخلون طقوس عبادة فاسدة ويسجدون أمام التماثيل المنحوتة ويرفضون الرجوع لعبادة الإله الحقيقي فإن غضب الرب سيشتعل ويسبون ويتشتتون بين الوثنيين. وقد حذرهم منذراً إياهم قائلاً: "إنكم تبيدون سريعاً عن الأرض التي أنتم

عابرون الأردن إليها لتمتلكوها. لا تطيلون الأيام عليها بل تهلكون لا محالة. ويبددكم الرب في الشعوب فتبقون عدداً قليلاً من بين الأمم التي يسوقكم الرب إليها. وتصنعون هناك آلهة صنعة أيدي الناس خشب وحجر مما لا يبصر ولا يسمع ولا يأكل ولا يشم" (تثنية 4 : 26 — 28).

فهذه النبوة التي تمّت جزئياً في عهد القضاة، تمّت إتماماً كاملاً وحرفياً في سبي إسرائيل إلى أشور وسبي يهوذا إلى بابل.

لقد حدث ارتداد في الشعب بصورة تدريجية فقد بذل الشيطان من جيل إلى جيل محاولات متكررة ليُنسي الأمة المختارة: "الوصايا والفرائض والأحكام" التي وعدوا بحفظها إلى الأبد (تثنية 6 : 1). وقد عرف أنه لو أمكنه حمل الشعب على نسيان الله والسير وراء آلهة أخرى وعبادتها والسجود لها فإنهم لا محالة سيهلكون (تثنية 8 : 19).

لم يحسب عدو كنيسة الله على الأرض حساب طبيعة الرحمة والرأفة التي لله الذي وإن كان "لن يبرئ إبراء" إلا أن مجده يتضمن كونه "إله رحيم ورؤوف بطيء الغضب وكثير الإحسان والوفاء. حافظ الإحسان إلى ألوف. غافر الإثم والمعصية والخطية" (خروج 34 : 6، 7). وبالرغم من محاولات الشيطان في تعطيل قصد الله نحو شعبه فقد أعلن الله عن ذاته بكل لطف وشفقة حتى في أحلك ساعات تاريخهم، عندما بدا أن قوات الشر مزمعة أن تحرز الانتصار. وبسط أمام إسرائيل الأمور التي تؤول إلى خير الأمة. لذلك أعلن على لسان هوشع يقول: [241] "اكتب له كثرة شرائعي فهي تحسب أجنبية". "وأنا درجت أفرايم ممسكاً إياهم بأذرعهم فلم يعرفوا إني شفيتهم" (هوشع 8 : 12، 11 : 3). فقد عاملهم الرب بكل رقة وحنان معلّما إياهم بواسطة أنبيائه أمراً على أمر وفرضاً على فرض.

فلو أعار إسرائيل التفاتاً لرسائل الأنبياء لكانوا وفّروا على أنفسهم الإذلال الذي حلّ بهم. فلكونهم أصرّوا على الزيغان عن شريعة الله اضطر أن يسمح بسبيهم: "قد هلك شعبي من عدم المعرفة"، هذه كانت الرسالة التي أرسلها إليهم على لسان هوشع "لأنك أنت رفضت المعرفة أرفضك أنا .. ولأنك نسيت شريعة إلهك" (هوشع 4 : 6).

وفي كل عصر نتج عن التعدي على شريعة الله النتيجة ذاتها. ففي أيام نوح عندما انتهكت مبادئ الحق وتأصّل الإثم واستشرى بحيث لم يستطع الله احتماله بعد، خرج قضاء الله يقول: "أمحو عن وجه الأرض الإنسان الذي خلقته" (تكوين 6 : 7). وفي عهد ابراهيم تحدّى أهل سدوم الله علانية وتحدّوا شريعته وحدث أعقاب ذلك الشر والفساد والانغماس الجامح في الشهوات التي اتّصف بها العالم قبل الطوفان. لقد تجاوز سكّان سدوم حدود صبر الله وهناك اشتعلت ضدّهم نيران انتقامه.

كان الوقت الذي سبق سبي الأسباط العشرة شبيهاً بما كان في سدوم من الشر والعصيان. لقد حُسبت شريعة الله كأنها عبث لا طائل وراءه مما فجّر سيول الإثم ضد الشعب. وقد أعلن هوشع يقول: "إن للرب محاكمة مع سكان الأرض لأنه لا أمانة ولا إحسان ولا معرفة الله في الأرض. لعن وكذب وسرقة وفسق. يعتنفون ودماء تلحق دماء" (هوشع 4 : 1، 2). [242]

ولكن النبوات التي أنبأت بالدينونة التي نطق بها كل من عاموس وهوشع صحبتها نبوّات عن المجد العتيد. إلا أن الأسباط العشرة الذين ظلّوا طويلاً سادرين في تمردهم وقساوة قلوبهم لم يعط لهم وعد باسترجاع قوّتهم وسلطانهم السابق كاملاً في فلسطين. وإلى انقضاء الدهر كانوا سيظلون "تائهين بين الأمم". ولكن توجد نبوّة نطق بها هوشع قدمت لهم امتياز اشتراكهم في ود سبيهم والرجوع الذي سيشمل شعب الله عند ختام تاريخ الأرض عندما يستعلن المسيح كملك الملوك ورب الأرباب. وقد أعلن النبي أن الأسباط العشرة كانوا: "سيعقدون أياماً كثيرة بلا ملك وبلا رئيس وبلا ذبيحة وبلا تمثال وبلا أفود وترافيم". وقد استطرد النبي وقال: "بعد ذلك يعود بنو اسرائيل ويطلبون الرب إلههم وداود ملكهم

ويفزعون إلى الرب وإلى جوده في آخر الأيام" (هوشع 3 : 4، 5).

وقد بسط النبي هوشع أمام الأسباط العشرة في لغة رمزية خطة الله في استرجاع البركات التي مُنحت لهم في أيام ولائهم له في أرض الموعد، لكل نفس تائبة تنضم إلى كنيسته على الأرض، وإذ أشار الرب إلى شعبه كمن يسر بأن يمنحهم رحمة أعلن قائلاً: "هأنذا أتملّقها وأذهب بها إلى البرية وألاطفها وأعطيها كرومها من هناك ووادي عخور باباً للرجاء. وهي تغني هناك كأيام صباها وكيوم صعودها من أرض مصر. ويكون في ذلك اليوم يقول الرب أنك تدعينني وجلي (زوجي) ولا تدعينني بعد بعلي (ربي). وأنزع أسماء البعليم من فمها فلا تُذكر أيضاً بأسمائها" (هوشع 2 : 14 — 17).

وفي أواخر أيام تاريخ هذه الأرض سيتجدد عهد الله مع شعبه حافظي وصاياه. يقول الله وأقطع لهم عهداً في ذلك اليوم مع حيوان البرية وطيور [243] السماء ودبابات الأرض واكسر القوس والسيف والحرب من الأرض. وأجعلهم يضطجعون آمنين. واخطبك لنفسي إلى الأبد وأخطبك لنفسي بالعدل والحق والإحسان والمراحم. أخطبك لنفسي بالأمانة لتعرفين الرب.

"ويكون في ذلك اليوم إني استجيب يقول الرب. استجيب السموات وهي تستجيب الأرض. والأرض تستجيب القمح والمسطار والزيت وهي تستجيب يزرعيل. وازرعها لنفسي في الأرض وارحم لورحامة وأقول للوعمي أنت شعبي وهو يقول أنت إلهي" (هوشع 2 : 18 — 23).

ويكون في ذلك اليوم إن بقية "شعبي والناجين من بيت يعقوب .. يتوكلون على الرب بالحق" (إشعياء 10 : 20). ومن "كل أمة وقبيلة ولسان وشعب سيكون هنالك من يستجيبون بكل سرور للرسالة القائلة. "خافوا الله وأعطوه مجداً لأنه قد جاءت ساعة دينونته". وسيرجعون عن كل صنم يربطهم بالأرض. و "يسجدون لصانع السماء والأرض والبحر وينابيع المياه". وسيتحررون من كل ما يربكهم ويعيقهم ويقفون أمام العالم بمثابة نصب تذكارية لرحمة الله. وحيث أنهم قد أطاعوا أوامر الله فسيعترف الملائكة والناس أنهم هم الذين "يحفظون وصايا الله وإيمان يسوع" (رؤيا 14 : 6، 7، 12).

"ها أيام تأتي يقول الرب يدرك الحارث الحاصد ودائس باذر الزرع وتقطر الجبال عصيراً وتسيل جميع التلال. وأرد سبي شعبي إسرائيل فيبنون مدناً خربة ويسكنون ويغرسون كروماً ويشربون خمرها ويصنعون جنات ويأكلون أثمارها. واغرسهم في أرضهم ولن يُقلعوا بعد من أرضهم التي أعطيتهم قال الرب إلهك" (عاموس 9 : 13 — 15). [244]

الباب الثالث ـــكارز للبر

[245]

”هل تسلب من الجبار غنيمة؟ وهل يُفلت سبي المنصور؟ فإنه هكذا قال الرب حتى سبي الجبّار يُسلب وغنيمة العاتي تُفلت“.

”يخزى خزياً المتكلمون على المنحوتات القائلون للمسبوكات أنتن آلهتنا“

(إشعياء 49 : 24، 25، 42 : 17). [246]

الفصل الخامس والعشرون ــــدعوة إشعياء

منذ مات سليمان قبل حوالي مئتي سنة امتاز عهد الملك عزّيا (ويعرف أيضاً باسم عزريا) الطويل في أرض يهوذا وبنيامين بنجاح أعظم من كل الملوك السابقين. وظلّ الملك يحكم سنوات طويلة بفطنة. واستردّت جيوشه ببركة السماء بعضاً من الأقليم الذي كان قد فقد في السنوات السالفة. وقد أعيد بناء المدن وتحصينها وتقوّى مركز الأمة إلى حد كبير بين الأمم المحيطة. وانتعشت أسواق التجارة وفاضت ثروات الأمم على أورشليم. "فامتد اسمه إلى بعيداً، إذ عجبت مساعدته حتى تشدّد". "وذاعت شهرته في الآفاق وآزاره الله وأعانه وقوّاه بصورة مدهشة" ـــ الترجمة التفسيرية ـــ (2 أخبار الأيام 26 : 15).

ومع ذلك فإن هذا النجاح الخارجي لم يلازمه انتعاش روحي مماثل. ظلّت الخدمات في الهيكل قائمة كما كانت في السنوات السالفة وكان الناس يجتمعون ليعبدوا الله الحي إلا أن الكبرياء والتمسّك بالرسميات والطقوس احتلّا بالتدريج مكان الوداعة والإخلاص. وهذا ما كتب عن عزّيا نفسه في الكتاب: "ولمّا تشدّد ارتفع قلبه إلى الهلاك وخان الرب" (2 أخبار الأيام 26 : 16).

كانت الخطيئة التي نجمت عنها هذه الكارثة للملك عزّيا هي خطيئة الغطرسة. فإذ تعدّى أمر الرب الصريح الذي يحرّم على من لم يكونوا من نسل [247] هارون أن يكهنوا دخل الملك إلى القدس " ليوقد على مذبح البخور". وقد عارضه عزريا رئيس الكهنة وزملاؤه وتوسّلوا إليه أن يرجع عمّا عزم عليه القائلين: "لأنك خنت وليس لك من كرامة" (2 أخبار الأيام 26 : 16، 18).

فحنق عزيا وامتلأ غضباً لأنه وهو الملك يُوجّه إليه هذا التوبيخ. ولكن لم يُسمح له بتنجيس القدس تحدًّيا للاحتجاج الجماعي الذي قدمه من بيدهم السلطة. فإذ كان واقفاً هناك في تمرّد وغضب ضربه الله ضربة مفاجئة فظهرت أعراض البرص على جبهته. فهرب في فزع ولم يعدّ يدخل إلى أروقة الهيكل بعد ذلك قطّ. وظلّ عزيا أبرص حتى يوم وفاته بعد ذلك بسنين ـــ فكان مثالاً وعبرة لجهالة الانحراف عن أمر الرب القائل: "هكذا قال الرب". فلا مركزه السامي الرفيع ولا حياة الخدمة الطويلة أمكن أن تشفع فيه أو تكون عذراً عن تلك الخطيئة الوقحة التي بها شوّه سنوات ملكه الأخيرة وجلبت عليه دينونة السماء.

الله لا يُحابي بالوجوه: "وأما النفس التي تعمل بيد رفيعة من الوطنيين أو من الغرباء فهي تزدري بالرب فتقطع تلك النفس من بين شعبها" (سفر العدد 15 : 30).

إن القضاء الذي حلّ على عزيا بدا كأن له قوة رادعة بالنسبة لابنه. لقد اضطلع يوثام بتبعات جسام أثناء سني ملك أبيه الأخيرة وخلفه على العرش بعد موته. ويقول الكتاب عن يوثام: "وعمل ما هو مستقيم في عيني الرب عمل حسب كل ما عمل عزيا لأبوه. إلا أن المرتفعات لم تنتزع بل كان الشعب لا يزالون يذبحون ويوقدون على المرتفعات" (2 ملوك 15 : 34، 35). [248]

كان حكم عزيا يقترب من نهايته، وكان يوثام قد سبق فاضطلع بكثير من أعباء الدولة عندما دعي إشعياء وهو من النسل الملكي الذي لم يكن قد تجاوز طور الحداثة بعد، للقيام بالخدمة النبوية. كانت الأوقات التي كان على إشعياء أن يخدم فيها مليئة بالمخاطر على شعب الله. كان على النبي أن يشهد الغزو

الذي قامت به مملكة إسرائيل الشمالية متحالفة مع آرام ضد يهوذا. كما كان عليه أن يشهد جيوش أشور وهي تعسكر أمام المدن الكبرى للمملكة. وفي أيامه كانت السامرة ستسقط وأسباط إسرائيل العشرة كانوا سيتشتتون بين الأمم. وكانت جيوش أشور ستغزو يهوذا مراراً وتكراراً وكانت أورشليم مزمعة أن تقاسي أهوال الحصار الذي كان يمكن أن ينتهي بسقوطها لو لم يتدخّل الله بكيفية معجزية. وقد انسحبت حماية الله. وكانت جيوش أشور موشكة على الاستيلاء على أرض يهوذا.

إلا أن المخاطر الآتية من الخارج وإن بدت شاملة وغامرة لم تكن في مثل جسامة الأخطار الآتية من الداخل. إن انحراف الشعب وتمرّدهم هو الذي جلب على خادم الرب أعظم ارتباك وأعمق حزن. فالذين كان يجب أن يكونوا واقفين كحملة نور بين الأمم كانوا سيُنزلون على أنفسهم أحكام الله بارتدادهم وتمرّدهم. فالشرور الكثيرة التي كانت تعجّل بالتدمير السريع للمملكة الشمالية والتي كان هوشع وعاموس قد وبّخاها عليها منذ عهد قريب بعبارات لا تخطئ كانت تسرع في إفساد مملكة يهوذا.

كانت دلائل المستقبل مثبّطة للهمم من جهة أحوال الشعب الاجتماعية. فالناس إذ كانوا متعطّشين إلى الكسب كانوا يصلّون بيتاً ببيت ويضمّون حقلاً لحقل (انظر إشعياء 5 : 8). لقد حرّف الناس العدل ولم يظهروا عطفاً واشفاقاً على [249] الفقراء. وقد أعلن الرب عن هذه الشرور قائلاً: "سُلب البائس في بيوتكم .. تسحقون شعبي وتطحنون وجوه البائسين" (إشعياء 3 : 4، 15). بل حتى القضاة الذين يقتضيهم واجبهم حماية الضعفاء العاجزين صمّوا آذانهم عن سماع صرخات المساكين والبؤساء والأرامل والأيتام (انظر إشعياء 10 : 1، 2).

وقد جاء مع الظلم والثراء، الكبرياء وحب التظاهر والمفاخرة (انظر إشعياء 2 : 11، 12، 3 : 16، 18 : 23) وإدمان الخمر وروح العربدة (إشعياء 5 : 22، 11، 12). وحتى في أيام إشعياء لم تكن الوثنية لتثير دهشة أحد (إشعياء 2 : 8، 9). وانتشرت الأعمال الآثمة وسادت كل الطبقات إلى حد أن الأقلية الذين بقوا أمناء لله جرّبوا مراراً للاستسلام للضعف والخوف واليأس. وقد بدا كأن قصد الله نحو شعبه مزمع أن يفشل، وكأن تلك الأمّة العاصية مزمعة أن تقاسي أهوال مصير شبيه لما أصاب سدوم وعمورة.

ففي مواجهة مثل تلك الظروف لم يكن أمراً مستغرباً عندما دعي إشعياء في آخر سني حكم عزيا ليحمل إلى يهوذا رسالة إنذار وتوبيخ من الله، أن ينكمش ويتراجع أمام جسامة تلك المسؤولية. فقد عرف جيداً أنه سيواجه مقاومة عنيدة. فإذ تحقق من عجزه عن مواجهة الموقف، وفكر في عناد الشعب وعدم إيمانهم بالذي أرسله ليخدم بينهم، بدا كأن عمله ميؤوس منه. فهل يسوقه اليأس إلى التنحي عن أداء رسالته ويترك شعب يهوذا يعمون في ضلال الوثنية دون رادع؟ وهل آلهة نينوى ستملك على الأرض متحدية إله السماء؟

كانت مثل هذه الأفكار تتسارع في ذهن إشعياء عندما وقف تحت رواق الهيكل. وفجأة بدا كأن الباب قد فُتح وحجاب الهيكل الداخلي قد رفع وأزيح جانباً وسُمح له أن ينظر إلى الداخل إلى قدس الأقداس الذي لم يكن يُسمح [250] حتى للنبي نفسه بالدخول إليه. وقد ظهرت أمامه رؤيا الرب وهو جالس على كرسي عال ومرتفع وأذياله تملأ الهيكل. وعلى جانبي العرش كان يقف من فوقه السرافيم وقد غطّوا وجوههم توقيراً واحتراماً، وهم يخدمون أمام صانعهم وقد اشتركوا جميعاً في تقديم الابتهال المقدّس قائلين: "قدّوس قدّوس قدّوس رب الجنود مجده ملء كل الأرض" (إشعياء 6 : 3). حتى اهتزّت أساسات العتب من صوت الصارخ وامتلأ كل البيت بأصوات التسبيح.

فإذ شاهد إشعياء رؤيا مجد الله هذه وجلاله غمره شعور بنقاوة الله وقداسته. وكم كان الفرق عظيماً وحاداً بين كمال خالقه المنقطع النظير وبين المسلك الخاطئ الذي سلكه أولئك الذين كانوا معدودين ضمن الشعب المختار في كل من إسرائيل ويهوذا. وكان هو واحداً منهم! فصرخ قائلاً: "ويل لي إني هلكت لأني

إنسان نجس الشفتين وأنا ساكن بين شعب نجس الشفتين لأن عيني قد رأتا الملك رب الجنود" (إشعياء 6 : 5). فإذ كان كمن يقف مغموراً بنور حضور الله الكامل في القدس الداخلي فقد تحقّق أنه لو ترك في نقصه وعدم كفائته فلن يكون قادراً على إتمام الرسالة التي دُعي إليها. ولكن واحداً من السرافيم أرسل إليه ليخفف من كرفه وليؤهله لرسالته العظيمة. وقد مست شفتيه جمرة من المذبح ثم قال له الملاك: "إن هذه قد مست شفتيك فانتزع إثمك وكفّر عن خطيئتك". حينئذ سمع صوت الله يقول: "من أرسل ومن يذهب من أجلنا؟" فأجابه إشعياء قائلاً: "هأنذا أرسلني" (إشعياء 6 : 7، 8).

وقد أمر الزائر السماوي ذلك الرسول المنتظر قائلاً:

"اذهب وقل لهذا الشعب"

" [251]

"

.(10 9 : 6)

كان واجب النبي واضحاً حيث كان يقتضيه أن يرفع صوته احتجاجاً على الشرور المتفشية. ولكنه كان يخشى الإضطلاع بهذا العمل من دون أن يحصل على يقين الرجاء. فسأل قائلاً: "إلى متى أيها السيد؟" (إشعياء 6 : 11) ألا يوجد بين شعبك المختار من يفهم أو يتوب ليُشفى؟

فالعبء الذي أخذه على عاتقه لأجل شعب يهوذا الخاطئ لن يذهب عبثاً. ولم يكن مقرراً لرسالته أن تكون عميقاً تماماً. إلا أن الشرور التي ظلت تتراكم وتتضاعف أجيالاً طويلة لم يكن في المستطاع إزالتها في أيامه. كان عليه أن يكون معلماً صبوراً وشجاعاً مدى حياته — نبياً للرجاء وللدينونة كذلك. وعندما يتحقق القصد الإلهي في الختام ستظهر الثمار الكاملة لجهوده، وكذلك ثمار خدمات جميع رسل الله الأمناء. ولابد من أن تخلص بقية. ولكي يتم هذا كان لابد من تقديم رسائل الإنذار والتوسّل إلى الأمة المتمردة وقد أعلن الرب قائلاً:

"

[252]

"

.(12 11 : 6)

فالأحكام الثقيلة التي كانت ستحلّ على غير التائبين — كالحروب والسبي والظلم وضياع القوة والكرامة بين الأمم — كل هذه كانت مزمعة أن تحيق بهم لتحمل على التوبة الذين يعترفون أن يد الرب هي التي فعلت كل ذلك لأنهم أسخطوه بعصيانهم. كان أسباط المملكة الشمالية العشرة سيشتتون سريعاً بين الأمم ومدنهم كانت ستُهجر وتترك خراباً وكانت جيوش الأمم المهلكة المعادية ستكتسح بلادهم وتغير عليها مراراً وتكراراً بل حتى أورشليم نفسها كانت ستسقط في النهاية. وكان شعب يهوذا سيؤخذون أسرى ألا أن أرض الموعد لم تكن لتظل مهجورة إلى الأبد. وقد أكدّ الزائر السماوي لإشعياء قائلاً:

"

.(“

.(13 : 6)

فهذا التأكيد بإتمام قصد الله في النهاية ملأ قلب إشعياء شجاعة. فلماذا لو جرّدت جيوش الأرض قواتها ضد يهوذا؟ وماذا لو قوبل رسول الرب بالصد والمقاومة؟ لقد رأى إشعياء الملك رب الجنود. وسمع أغنية السرافيم القائلة: ”مجده ملء كل الأرض“ (إشعياء 6 : 3)، وقد أعطي له الوعد أن رسائل الرب المقدمة لشعب يهوذا المرتد ستتبعها قوة الروح القدس المبكّتة، وقد نشّط هذا [253] التشجيع النبي للقيام بالعمل الذي أمامه. وفي كل أعمال خدمته الطويلة الشاقة حمل النبي في عقله ذكرى هذه الرؤية. وقد وقف أمام بني يهوذا ستين سنة أو يزيد، نبياً للرجاء. وكان يزداد جرأة يوماً بعد يوم وهو يتنبّأ عن نصرة الكنيسة العتيدة. [254]

الفصل السادس والعشرين ــــ”هوذا إلـهك“

كان الإدراك الروحي لبني البشر أيام إشعياء مظلماً بسبب عدم معرفته لله. لقد حاول الشيطان طويلاً أن يجعل الناس ينظرون إلى خالقهم كأنه علّة الخطيئة والآلام والموت. لقد تصوّر الذين خدعهم أن الله صارم كثير المطالب. وأنه يراقبهم ليفضحهم ويدينهم. ويرفض قبول الخاطئ طالما وجد عذراً شرعياً لعدم مد يد العون إليه. وقد حرّف الشيطان شريعة المحبة الإلهية التي تسري حتى على ساكني السماء وشوّهها قائلاً إنها تضيّق على الناس عيشهم وتنغّص عليهم سعادتهم وهي بمثابة نير ثقيل يسرّهم التخلّص منه. وأعلن أنه لا يمكن إطاعة الفرائض والوصايا، وأن عقوبات العصيان فرضت على نحو استبدادي.

إذ غابت عن أنظار شعب إسرائيل صفات الله الحقيقية أمسوا بلا عذر. كان الله قد أعلن نفسه لهم مراراً على أنه إله: ”رحيم ورؤوف طويل الروح وكثير الرحمة والحق“. وقد شهد قائلاً ”لما كان إسرائيل غلاماً أحببته ومن مصر دعوت ابني“ (مزمور 86 : 15، هوشع 11 : 1).

لقد عامل الرب شعبه بكل رقة وحنان في إنقاذهم من عبودية مصر وفي أثناء ترحالهم إلى أرض الموعد: ”في كل ضيقهم تضايق وملاك حضرته خلّصهم. بمحبة ورأفته هو فكّهم ورفعهم وحملهم كل الأيام القديمة“ (إشعياء 63 : 9). [255]

وهذا هو الوعد الذي قدّم لهم في أثناء سيرهم في البرية: ”وجهي يشير (معك)“ (خروج 33 : 14). وقد صحب هذا التأكيد إعلان عجيب عن صفات الرب، الأمر الذي أعان موسى للإعلان لكل الشعب عن صلاح الله ولتعليمهم تعليماً كاملاً عن صفات ملكهم غير المنظور: ”فاجتاز الرب قدّامه ونادى الرب الرب إله رحيم ورؤوف بطيء الغضب وكثير الإحسان والوفاء. حافظ الإنسان إلى ألوف. غافر الإثم والمعصية والخطية. ولكنه لن يبرئ إبراء“ (خروج 34 : 6، 7).

لقد بنى موسى التماسه العجيب للإبقاء على حياة الشعب انطلاقاً من إدراكه طول أناة الرب ومحبته ورحمته اللامحدودة، عندما رفضوا وهم عند تخوم أرض الموعد التقدّم إطاعة لأمر الله. فإذ كانوا في ذروة تمرّدهم أعلن الرب قائلاً: ”إني أضربهم بالوبا وأبيدهم“. وأراد أن يجعل نسل موسى: ”شعباً أكبر وأعظم منهم“ (سفر العدد 14 : 12). ولكن النبي توسّل إلى الرب ذاكراً حوادث عنايته العجيبة ومطالباً الله بمواعيده لأجل الشعب المختار. والآن ها هو يقدّم التماساً أقوى ألا وهو محبة الله البشرية الساقطة (انظر سفر العدد 14 : 17 — 19).

وقد أجاب الرب في رحمته وحنانه قائلاً: ”قد صفحت حسب قولك“. ثم أعطى موسى، في هيئة نبوءة، معرفة قصده بالنسبة إلى نصرة شعبه النهائية. فأعلن قائلاً: ”ولكن حي أنا فتُملأ كل الأرض من مجد الرب“ (سفر العدد 14 : 20، 21). إن مجد الله وصفاته ورأفته ومحبّته ــــ التي طلبها موسى متوسًّلا لأجل الشعب ــــ كانت مزمعة أن تعلن لكل الجنس البشري. وقد تأكّد وعد الرب هذا بما لا يحتمل الشك فقد تثبّت بقسم. فكما نحن متحققون من أن الله حيّ ويملك فينبغي أن يعلن: ”بين الأمم بمجده بين جميع الشعوب بعجائبه“ (مزمور 96 : 2). [256]

و بالنسبة إلى إتمام هذه النبوءة مستقبلاً سمع إشعياء السرافيم المتلألئين بالضياء يسبّحون أمام العرش قائلين: ”مجده ملء كل الأرض“ (إشعياء 6 : 3). وإذ كان النبي واثقاً من يقينيّة هذه الأقوال أعلن هو نفسه بعد ذلك بكل جرأة قائلاً عن الذين كانوا يسجدون أمام التماثيل المصنوعة من الخشب والحجر: ”هم يرون مجد الرب بهاء إلهنا“ (إشعياء 35 : 2).

”واليوم تجد هذه النبوّة إتماماً سريعاً. إن نواحي نشاطات كنيسة الله الكرازية على الأرض تحمل ثماراً وفيرة ورسالة الإنجيل ستذاع سريعاً بين كل الأمم. فلأجل: ”مدح مجد نعمته“، فالرجال والنساء من كل قبيلة ولسان وشعب يُقبلون ”في المحبوب“. ”ليظهر في الدهور الآتية غنى نعمته الفائق باللطف علينا في المسيح يسوع“ (أفسس 1 : 6، 2 : 7).

”مبارك الرب الله .. الصانع العجائب وحده. ومبارك اسم مجده إلى الدهر ولتمتلئ الأرض كلها من مجده“ (مزمور 72 : 18، 19).

لقد أعطي لإشعياء في الرؤيا التي رآها في رواق الهيكل إعلان واضح لصفات الله. إن ”العلي المرتفع ساكن الأبد القدوس اسمه“ ظهر أمامه في جلال عظيم، ومع ذلك فقد كان على النبي أن يدرك طبيعة الرب الرحيمة. فذاك الذي يسكن في ”الموضع المرتفع المقدّس“ يسكن أيضاً ”ومع المنسحق والمتواضع الروح لأحيي روح المتواضعين ولأحيي قلب المنسحقين“ (إشعياء 57 : 15). إن الملاك الذي أرسل ليمس شفتي إشعياء قدّم له هذه الرسالة: ”انتزع إثمك وكفّر عن خطيّتك“ (إشعياء 6 : 7).

إذ رأى النبي إلهي، مثل شاوب الطرسوسي عند باب دمشق، لم ير عدم استحقاقه فحسب، فلقد جاء إلى قلبه المثقل يقين الغفران الكامل المجاني فقام [257] إنساناً جديداً. لقد رأى ربّه وإلهه كما رأى لمحة من جمال الصفات الإلهية. وأمكنه أن يشهد للتغيّر الذي حدث له عندما رأى المحبة السرمدية. ومن ذلك الوقت ألهم برغبة حارّة لأن يرى بني شعبه المخطئين يتحررون من حمل الخطيئة وعقابها. وقد تساءل النبي قائلاً: ”على من تضربون بعد؟ .. هلم نتحاجج يقول الرب إن كانت خطاياكم كالقرمز تبيض كالثلج إن كانت حمراء كالدودي تصير كالصوف“. ”إغتسلوا. تنقّوا. اعزلوا شر أفعالكم من أمام عيني. كفوا عن فعل الشر. تعلّموا فعل الخير“ (إشعياء 1 : 5، 18، 16، 17).

فالإله الذي كانوا يدّعون أنهم يعبدونه والذي لم يدركوا صفاته على حقيقتها عرض أمامهم بوصفه الشافي العظيم للأسقام الروحية. ماذا لو أن كل الرأس مريض وكل القلب سقيم؟ وماذا لو أنه من هامة الرأس إلى أخمص القدم ليس فيه صحّة بل جرح واحبط وضربة طرية؟ (انظر إشعياء 1 : 6). إن من ذهب عاصياً في طريق قلبه كان يمكنه أن يجد الشفاء بالرجوع إلى الرب. لقد أعلن الرب قائلاً: ”رأيت طرقه وسأشفيه وأقوده وأرد تعزيات له .. سلام سلام للبعيد وللقريب قال الرب وسأشفيه“ (إشعياء 57 : 18، 19).

وقد مجّد النبي الله بوصفه خالق الجميع. وكانت رسالته لمدن يهوذا هي هذه: ”هوذا إلهك!“ ”هكذا يقول الله الرب خالق السموات وناشرها باسط الأرض ونتائجها“، ”أنا الرب صانع كل شيء“. ”مصوّر النور وخالق الظلمة“، ”أنا صنعت الأرض وخلقت الإنسان عليها. يدي أنا نشرتا السموات، وكل جندها أنا أمرت“ (إشعياء 40 : 9، 42 : 5، 44 : 24، 45 : 7، 12). ”فبمن تشبهونني فأساويه يقول القدّوس. ارفعوا إلى العلاء عيونكم وانظروا من خلق هذه من الذي يخرج بعدد [258] جندها يدعو كلها بأسماء الكثيرة القوة وكونه شديد القدرة لا يفقد أحد“ (إشعياء 40 : 25، 26).

أما الذين كانوا يخشون الرفض إذا ما رجعوا إلى الله فقد أعلن النبي قائلاً لهم: ”لماذا تقول يا يعقوب وتتكلّم يا إسرائيل قد اختفت طريقي عن الرب وفات حقّي إلهي؟ أما عرفت؟ أم لم تسمع؟ إله الدهر الرب خالق أطراف الأرض لا يكل ولا يعيا. وأما منتظرو الرب فيجددون قوة. يرفعون أجنحة كالنسور.

يركضون ولا يتعبون يمشون ولا يعيون: (إشعياء 40 : 27 — 31).

إن قلب المحبة السرمدية يحن إلى الذين يحسّون بعجزهم عن تحرير أنفسهم من أشراك الشيطان وهو في رحمته يقدّم لهم القوة كي يعيشوا له. ويأمرهم قائلاً: ”لا تخف لأني معك. لا تتلفت لأني إلهك. قد أيدتك وأعنتك وعضدتك بيمين برّي“. ”أنا الرب إلهك الممسك بيمينك القائل لك لا تخف أنا أعينك. لا تخف يا دودة يعقوب يا شرذمة إسرائيل أعينك يقول الرب وفاديك قدوس إسرائيل“ (إشعياء 41 : 10، 13، 14).

كان سكان يهوذا قوماً عديمي الاستحقاق إلا أن الله لم يرد أن يتركهم. كان اسمه سيتمجّد بين الأمم بواسطتهم. وكثيرون ممن لم يكونوا يعرفون شيئاً عن صفاته كانوا سيرون مجد الصفات الإلهية فيما بعد. فلكي تتضح مقاصده الرحيمة ظلّ يرسل عبيده الأنبياء بهذه الرسالة: ”ارجعوا كل واحد عن طريقه الرديء“ (إرميا 25 : 5). وقد أعلن على لسان أشعياء قائلاً: ”من أجل إسمي أبطئ غضبي ومن أجل فخري أمسك عنك حتى لا أقطعك“. ”من أجل نفسي من أجل نفسي أفعل. لأنه كيف يدنس اسمي؟ وكرامتي لا أعطيها لآخر“ (إشعياء 48 : 9، 11). [259]

وقد قدمت الدعوة للتوبة بوضوح تام لا يمكن تجاهله، وقد دعي الجميع ليرجعوا. فقد أعلن النبي قائلاً: ”اطلبوا الرب ما دام يوجد ادعوه وهو قريب. ليترك الشرير طريقه ورجل الإثم أفكاره وليتب إلى الرب فيرحمه وإلى إلهنا لأنه يكثر الغفران“ (إشعياء 55 : 6، 7).

فهل اخترت طريقك الخاص أيها القارئ العزيز؟ وهل ضلّلت بعيداُ عن الله؟ وهل التمست أن تتلذذ بثمار الإثم فوجدت أنها استحالت على شفتيك إلى طعم الرماد؟ والآن بعدما تعطّلت خطط حياتك وتلاشت آمالك فهل تجلس وحدك مستوحشاً يائساً؟ إن ذلك الصوت الذي ظلّ يحادث قلبك طويلاً الذي رفضت الاستمتاع إليه يأتيك واضحاً جلياً قائلاً: ”قوموا واذهبوا لأنه ليست هذه هي الراحة. من أجل نجاسة تهلك والهلاك شديد“ (فلكونها نجسة فهي ستهلككم هلاكاً شديداً“ (ميخا 2 : 10). فارجع إلى بيت أبيك. إنه يدعوك قائلاً: ”ارجع إليّ لأني فديتك“ (إشعيا 44 : 22). ”هلمّوا إليّ اسمعوا فتحيا أنفسكم واقطع لكم عهداً أبدياً مراحم داود الصادقة“ (إشعياؤ 55 : 3).

لا تصنع إلى ما يقترحه عليك العدو وبيقائك بعيداً عن المسيح ريثما تصلح نفسك، أو إلى أن تغدو صالحاً بحيث يمكنك الدنوّ من الله. فلو انتظرت إلى أن تتحسّن فلن تأتي قطّ. وعندما يوجّه الشيطان نظرك إلى ثيابك الملوثة فعليك بترديد وعد المخلّص القائل: ”من يُقبل إليّ لا أخرجه خارجاً“ (يوحنا 6 : 37). وقل للعدو إن دم يسوع المسيح يطهّر من كل خطيئة. واجعل صلاة داود صلاتك قائلاً: ”طهّرني بالزوفا فأطهر. اغسلني فأبيض أكثر من الثلج“ (مزمور 51 : 7). [260]

لم تكن إرشادات النبي لشعب يهوذا للنظر إلى الله الحي وقبول هبات رحمته بلا جدوى. فقد وُجد بعض من اهتمّوا اهتماماً جديًّا ورجعوا عن أوثانهم ليعبدوا الرب. وتعلّموا أن يروا في صانعهم المحبة والرحمة والإشفاق والرأفة. وفي الأيام المظلمة التي كانت تزحف على شعب يهوذا في تاريخهم، عندما لم يبق في البلاد غير أقليّة ضئيلة، جادت أقوال النبي بأثمارها الشهيّة في الإصلاح الحاسم. وقد أعلن إشعياء قائلاً: ”في ذلك اليوم يلتفت الإنسان إلى صانعه وتنظر عيناه إلى قدوس إسرائيل. ولا يلتفت إلى المذابح صنعه يديه ولا ينظر إلى ما صنعته أصابعه السواري والشمسات“ (إشعياء 17 : 7، 8).

كثيرون كانوا سينظرون ذاك الذي كلّه مشتهيات المعلم بين ربوة: ”الملك ببهائه تنظر عيناك“ (إشعياء 33 : 17) — هذا هو الوعد الرحيم الذي قُدّم لهم. كانت خطاياهم ستغفر وكانوا سيفتخرون بالرب وحده. في ذلك اليوم العظيم السعيد يوم فدائهم من الوثنية سيصرخون قائلين: ”هناك الرب العزيز لنا مكان أنهار وترع .. الرب قاضينا الرب شارعنا. الرب ملكنا هو يخلّصنا“ (إشعياء 33 : 21 — 22).

إن الرسائل التي حملها إشعياء إلى الذين اختاروا الرجوع عن طرقهم الشريرة كانت مفعمة بالتعزية

والتشجيع. اسمعوا كلام الرب على لسان نبيّه:

”اذكر هذه يا يعقوب .. فإنك أنت عبدي قد جبلتك. عبد لي أنت .. لا تُنسى مني. قد محوت كغيم ذنوبك وكسحابة خطاياك. ارجع إليّ لأنّي فديتك“ (إشعياء 44 : 21، 22).

”وتقول في ذلك اليوم أحمدك يا رب لأنه إذ غضبت عليّ ارتد غضبك فتعزيني. ”هوذا الله خلاصي فأطمئن ولا أرتعب، لأن ياه يهوة قوتي وترنيمتي [261] وقد صار لي خلاصاً .. رنمو للرب لأنه قد صنع مفتخراً. ليكن هذا معروفاً في كل الأرض. صوتي واهتفي يا ساكنة صهيون لأن قدوس اسرائيل عظيم في وسطك“ (إشعياء 12 : 1، 2، 5). [262]

الفصل السابع والعشرون ـــآحاز

أوقف اعتلاء آحاز العرش إشعياء ورفاقه وجهاً لوجه أمام ظروف أشد رعباً وفزعاً من كل الظروف التي مرت على مملكة يهوذا إلى ذلك الحين. وكثيرون ممن كانوا قد صمدوا من قبل أمام قوة الأعمال الوثنية الخادعة أخذوا الآن يرضخون للاقتناع بالاشتراك في السجون للأوثان. كما برهن رؤساء الشعب على خيانتهم للثقة الموكلة إليهم. وقد قام أنبياء وقدّموا رسائل لتضليل الشعب بل حتى بعض الكهنة كانوا يعلّمون نظير حصولهم على الربح المادي. ومع ذلك فإن دعاة الإرتداد ظلّوا مواظبين على ممارسة طقوس عبادة الله وكانوا يدّعون أنّهم محسوبون مع شعب الله.

لقد أعلن النبي ميخا الذي حمل رسالته في تلك الأيام المضطربة أن الخطأة في أورشليم فيما كانوا يدّعون أنهم "يتوكلون على الرب" ويتجديف يفاخرون قائلين: "أليس الرب في وسطنا؟ لا يأتي علينا شر، "فقد ظلموا" "يبنون صهيون بالدماء وأورشليم بالظلم" (ميخا 3 : 11، 10). وقد رفع إشعياء النبي صوته عالياً موبخاً هذه الشرور توبيخاً صارماً فقال: "اسمعوا كلام الرب يا قضاة سدوم اصغوا إلى شريعة إلهنا يا شعب عمورة لماذا لي كثرة ذبائحهم يقول الرب .. حينما [263] تأتون لتظهروا أمامي، من طلب هذا من أيديكم أن تدوسوا دوري" (إشعياء 1 : 10 — 12).

ويعلن الوحي الإلهي قائلاً: "ذبيحة الشرير مكرهه فكم بالحري حين يقدّمها بغش" (أمثال 21 : 277). إن عيني الله إله السماء "أطهر من أن تنظر الشر ولا تستطيع النظر إلى الجور" (حبقوق 1 : 13). يحوّل وجهه عن الإنسان العاصي لا لأنه لا يريد أن يغفر بل لأن الخاطئ يرفض الاستفادة من الخطيئة: "إن يد الرب لم تقصر عن أن تخلص ولم تثقل أذنه عن أن تسمع. بل آثامكم صارت فاصلة بينكم وبين إلهكم وخطاياكم سترت وجهه عنكم حتى لا يسمع" (إشعياء 59 : 1، 2).

لقد كتب سليمان يقول: "ويل لك أيتها الأرض إذا كان ملكك ولداً" (جامعة 10 : 16). وكذلك كانت الحال مع أرض يهوذا. فبسبب الإمعان في العصيان صار رؤساؤها وملوكها كالأولاد. وقد استرعى إشعياء انتباه الشعب إلى ضعف مركزهم بين أمم الأرض. وقد أراهم أن هذا كان نتيجة الشر الذي ارتكبوه على التلال والمرتفعات. فقال: "فإنه هوذا السيد رب الجنود ينزع من أورشليم ومن يهوذا السند والركن كل سند خبز وكل سند ماء. الجبّار ورجل الحرب القاضي النبي والعراف والشيخ ورئيس الخمسين والمعتبر والمشير والماهر بين الصناع والحاذق بالرقية واجعل صبياناً رؤساء لهم وأطفالاً تتسلط عليهم". "لأن أورشليم عثرت ويهوذا سقطت لأن لسانهما وأفعالهما ضد الرب" (إشعياء 3 : 1، 4، 8).

وقد استطرد النبي فقال: "مرشدوك مصلون ويبلغون طريق مسالكك" (إشعياء 3 : 12). وكان هذا الكلام صادقاً بحذافيره في إبّان حكم آحاز لأن الكتاب [264] يقول عنه: "سار في طريق ملوك إسرائيل وعمل أيضاً تماثيل مسبوكة للبعليم. وهو أوقد في وادي ابن هنوم" (2 أخبار الأيام 287 : 2، 3).

حقاً كان هذا الوقت وقت خطر عظيم على الأمة المختارة. فبعد سنوات قصيرة كان أسباط مملكة إسرائيل العشرة مزمعين أن يتشتّتوا بين أمم العالم الوثني. وكذلك بالنسبة إلى مملكة يهوذا كان المستقبل

مظلماً. وكانت قوّات الخير تتناقص بسرعة بينما قوات الشر كانت تتكاثر وتتضاعف. وإذ شاهد النبي ميخا هذا الموقف أجبر على أن يهتف قائلاً: ”قد باد التقى من الأرض وليس مستقيم بين الناس“، ”احسنهم مثل العوسج وأعدلهم من سياج الشوك“ (ميخا 7 : 2، 4). وقد أعلن إشعياء قائلاً: ”لولا أن رب الجنود أبقى لنا بقية صغيرة لصرنا مثل سدوم و ... عمورة“ (إشعياء 1 : 9).

ففي كل عصر، ولأجل من قد لبثوا أمناء كما لأجل محبّته اللامحدودة للضالّين احتمل الله تمرّدهم في صبر عظيم وألّح عليهم في التنكب عن طريق الشر والرجوع إليه: ”أمر على أمر .. فرض على فرض. هنا قليل هناك قليل“ (إشعياء 28 : 10). وقد علّم العصاة طريق البر بواسطة رجال اختاروهم.

وهكذا كانت الحال في أثناء حكم آحاز. فقد قُدّمت إلى الضالين من الشعب دعوة بعد أخرى ليعودوا إلى ولائهم للرب. وقد كانت توسلات الأنبياء إليهم رقيقة، وإذ وقفوا أمام الشعب متوسّلين إليهم ليقوموا ويصلحوا طرقهم أثمرت أقوالهم لمجد الله.

وقد جاءت على لسان ميخا هذه الاستغاثة العجيبة: ”اسمعوا ما قاله الرب. قم خاصم لدى الجبال ولتسمع التلال صوتك. اسمعي خصومة الرب أيتها الجبال ويا أسس الأرض الدائمة. فأن للرب خصومة مع شعبه وهو يحاكمهم. [265]

”يا شعبي ماذا صنعت بك؟ وبماذا اضجرتك؟ اشهد عليّ. إني اصعدتك من أرض مصر وفككتك من بيت العبودية وأرسلت أمامك موسى وهارون ومريم.

”يا شعبي اذكر بماذا تآمر بالاق ملك موآب وبماذا أجابه بلعام بن بعور — من شطيم إلى الجلجال — لكي تعرف إجادة الرب“ (ميخا 6 : 1 — 5).

إن الإله الذي نعبده هو إله طويل الأناة: ”مراحمه لا تزول“ (مراثى 3 : 22). ففي كل مدة الامتحان والإمهال هذه، يتوسّل روحه إلى الناس ليقبلوا هبة الحياة: ”حي أنا يقول السيد الرب إني لا أسر بموت الشرير بل بأن يرجع الشرير عن طريقه ويحيا. ارجعوا ارجعوا عن طرقهم الرديئة فلماذا تموتون يا بيت إسرائيل“ (حزقيال 33 : 11). إن حيلة الشيطان الخاصة هي أن يدفع الإنسان في الخطيئة ومن ثم يتركه هناك عاجزاً يائساً خائفاً من طلب الغفران ولكن الله يدعو قائلاً: ”يتمسّك بحصني فيصنع صلحاً معي. صلحاً يصنع معي“ (إشعياء 27 : 5). ففي المسيح يوجد تلبية لكل حاجة وهو يقدّم كل تشجيع.

في أيام الارتداد الذي وقع في يهوذا وإسرائيل سأل كثيرون هذا السؤال: ”بك أتقدّم إلى الرب وأنحني للإله العلي؟ هل أتقدّم بمحرقات بعجول أبناء سنة؟ هل يسر الرب بألوف الكباش بربوات أنهار زيت؟“ فيجيء الجواب الواضح الصريح الإيجابي قائلاً: ”قد اخبرك أيها الإنسان ما هو صالح وماذا يطلبه منك الرب إلى أن تصنع الحق وتحب الرحمة وتسلك متواضعاً مع إلهك“ (ميخا 6 : 6 — 8).

وفي التشديد على قيمة القداسة العملية ظلّ النبي يردّد المشورة المقدّمة للشعب منذ قرون مضت. فإذ كانوا موشكين على دخول أرض الموعد جاءتهم كلمة الرب على لسان موسى تقول: ”فالآن يا (شعبي) ماذا يطلب منك الرب [266] إلهك الا ان تتقي الرب إلهك من كل قلبك. ومن كل نفسك وتحفظ وصايا الرب وفرائضه التي أنا أوصيك بها اليوم لخيرك“ (تثنية 10 : 12، 13). ومن جيل إلى جيل كان خدام الله يرددون هذه النصائح على مسامع من كانوا في خطر السقوط في عادات التمسّك بالرسميات ونسيان عمل الرحمة. إن المسيح نفسه عندما اقترب إليه رجل ناموسي في أثناء خدمته على الأرض وسأله هذا السؤال: ”يا معلم أية وصية هي العظمى في الناموس؟“ أجابه ”تحب الرب إلهك من كل قلبك. ومن كل نفسك ومن كل فكرك. هذه هي الوصية الأولى والعظمى. والثانية مثلها تحب قريبك كنفسك. بهاتين الوصيتين يتعلّق الناموس كله والأنبياء“ (متى 22 : 36 — 40).

ينبغي أن تقبل هذه الأقوال الصريحة التي نطق بها الأنبياء على لسان الرب بوصفها صوت الله لكل

نفس. وينبغي لنا أيضاً ألا نضيّع أية فرصة من فرص القيام بأعمال الرحمة والتبصر الرقيق واللطف المسيحي للمثقلين والمظلومين والمضطهدين. فإذا كنا لا نتمكن من أن نفعل أشياء أكثر فيمكننا أن ننطلق بكلام الشجاعة والرجاء في آذان من لم يتعرفوا على الله بعد والذين يمكن الاقتراب منهم عن طريق العطف والمحبّة.

المواعيد المقدسة للذين يترقبوا الفرص لكي يجيئوا بالفرح والبركة إلى حياة الآخرين هي مواعيد غنية وافرة: "إن أنفقت نفسك للجائع وأشبعت النفس الذليلة يشرق في الظلمة نورك ويكون ظلامك الدامس مثل الظهر. ويقودك الرب على الدوام ويشبع في الجدوب نفسك وينشط عظامك فتصير كجنة ريا وكنبع مياه لا تنقطع مياهه" (إشعياء 58 : 10، 11). [267]

إن انصراف آحاز إلى عبادة الأوثان في وجه توسلات الأنبياء الحارة لم يكن له غير نتيجة واحدة: "كان غضب الرب على يهوذا وأورشليم وأسلمهم للقلق والدهش والصفير" (2 أخبار الأيام 29 : 8). وقد حل بالمملكة انحطاط سريع، وسرعان ما تعرض كيانها ذاته للخطر بسبب الجيوش المغيرة عليها: "حينئذ صعد رصين ملك آرام وفقح بن رمليا ملك إسرائيل إلى أورشليم للمحاربة فحاصروا آحاز" (2 ملوك 16 : 5).

فلو كان آحاز وكبار رجال مملكته أمناء للعلي لما خافوا ذلك التحالف غير العادي الذي أبرم ضدّهم. ولكن عصيانهم المتكرر جرّدهم من القوة. فإذ أصاب الملك رعب مجهول من الأحكام الجزائية من الإله الذي قد اسخطه: "رجف قلبه وقلوب شعبه كرجفان شجر الوعر قدّام الريح" (إشعياء 7 : 2). فجاءت كلمة الرب إلى إشعياء في هذه الأزمة يأمره بالذهاب إلى الملك المرتعب ليقول له: "احترز واهدأ. لا تخف ولا يضعف قلبك .. لأن آرام تآمرت عليك بشرّ مع افرايم وابن رمليا قائله نصعد على يهوذا ونقوضها ونستفتحها لأنفسنا ونملّك في وسطها ملكاً .. هكذا يقول السيد الرب لا تقوم لا تكون". وقد أعلن النبي أن مملكة إسرائيل وكذلك مملكة آرام ستتلاشيان سريعاً. وفي ختام كلامه قال: "إن لم تؤمنوا فلا تأمنوا" (إشعياء 7 : 4 — 7، 9).

فلو قبل آحاز هذه الرسالة كما هي من السماء لآل ذلك إلى مملكة يهوذا خيراً. ولكن إذ اختار الاستناد إلى الذراع البشرية طلب المعونة من الأمم. ففي يأسه أرسل إلى تغلث فلاسر ملك أشور يقول: "أنا عبدك وابنك. اصعد وخلصني من يد ملك آرام ومن يد ملك إسرائيل القائمين عليّ" (2 ملوك 16 : 7). وقد كان الطلب مصحوباً بهدية سخية من خزائن الملك ومن خزانة هيكل الرب. [268]

وقد أرسلت المعونة المطلوبة وأعطيت للملك آحاز نجدة مؤقتة. ولكن ما أفدح الثمن الذي دفعته يهوذا! فتلك الجزية المقدّمة إلى أشور أثارت مطامعها وسرعان ما هددت تلك الأمة الغادرة بالإغارة على يهوذا ونهبها. فتضايق آحاز ورعاياه التعساء خوفاً من أن يسقطوا سقوطاً كاملاً في أيدي الأشوريين القساة:

"الرب ذلّل يهوذا" بسبب العصيان المستمر. ففي وقت التأديب هذا بدلاً من أن يتوب آحاز فقد "زاد خيانة بالرب .. لأنه ذبح لآلهة دمشق" إذ قال: "لأن آلهة ملوك آرام تساعدهم أنا أذبح لهم فيساعدونني" (2 أخبار الأيام 28 : 19، 22، 23).

وقرب نهاية حكم هذا الملك المرتد أمر بإغلاق أبواب الهيكل. وبذلك توقّفت الخدمات المقدّسة. وما عادت أضواء المنائر تشتعل أمام المذبح، وما عادت الذبائح تقدّم عن خطايا الشعب وما عاد البخور العطر يصعد إلى السماء في وقت ذبيحة الصباح وتقدمة المساء. فإذ هج سكان تلك المدينة الملحدة أروقة بيت الله وأوصدوا أبوابه باحكام فأنهم أقاموا مذابح لعبادة الآلهة الوثنية في الشوارع وعلى قارعة الطريق وفي كل أحياء أورشليم بكل جرأة. وقد بدا كأن الوثنية انتصرت وكادت قوات الظلمة أن تغلب.

ولكن كان يوجد في مدن يهوذا جماعة ظلّوا محتفظين بولائهم للرب إذ رفضوا بكل إباء وثبات الانسياق مع تيار الوثنية. وقد نظر إشعياء وميخا وزملاؤهما إلى هؤلاء الأمناء برجاء وهم يستعرضون أمامهم الدمار الذي حدث أثناء سنوات آحاز الأخيرة. لقد أغلق مقدسهم ولكن أولئك الأمناء جاءهم هذا التأكيد: "الله معنا"، "قدّسوا رب الجنود فهو خوفكم وهو رهبتكم. ويكون مقدساً" (إشعياء 8 : 10، 13، 14). [269]

الفصل الثامن والعشرون ـــــحزقيا

كان الإصلاح الذي حدث في إبّان حكم حزقيا الناجح، على نقيض حكم آحاز أبيه الطائش. لقد اعتلى حزقيا العرش وهو عاقد العزم على بذل كل ما في طوقه لينقذ يهوذا من المصير الذي بدأ يهدد المملكة الشمالية. ولم تشجّع رسائل الأنبياء أحداً على اتخاذ إجراءات ناقصة. فلم يكن تفادي الأحكام التي تتهددهم ليحصل بغير إجراء إصلاح عظيم حاسم.

وقد برهن حزقيا في تلك الأزمة أنه رجل الساعة الذي يمكن الاعتماد عليه. فما إن اعتلى العرش حتى بدأ في رسم الخطط وتنفيذها. فاتّجه انتباهه أولاً إلى إعادة خدمة الهيكل التي أهملت زمناً طويلاً، وفي هذا العمل التمس بكل حرارة من الكهنة واللاويين الذين ظلّوا أمناء لدعوتهم المقدّسة أن يمدّوا أيديهم ويتعاونوا معه. فإذ كان واثقاً من تعضيدهم وإخلاصهم خاطبهم بصراحة عن رغبته في القيام بإصلاحات سريعة وبعيدة المدى. واعترف قائلاً: ”لأن آباءنا خانوا وعملوا الشر في عيني الرب إلهنا وتركوه وحولوا وجوههم عن مسكن الرب“. ”فالآن في قلبي أن أقطع عهداً مع الرب فيرد عنا حمو غضبه“ (2 أخبار الأيام 29 : 6، 10). [270]

وقد استعرض الملك في كلمات قليلة منتقاة الموقف الذي كانوا يواجهونه ـــ الهيكل المغلق الأبواب، وتوقف الخدمات التي في نطاقه، وعبادة الأوثان الفاضحة الشائنة التي كانت تمارس في شوارع المدينة وفي جميع أنحاء المملكة، وارتداد جموع كثيرة ممن كان يمكنهم أن يظلّوا أمناء للرب لو كان معلمو يهوذا قد وضعوا أمامهم مثالاً صالحاً، وانحطاط المملكة وضياع كرامتها في عيون الأمم المحيطة بها. كانت المملكة الشمالية تسير بسرعة في طريقهما إلى الدمار والتمزق، وكثيرون ماتوا بحد السيف، وجوه كثيرة كانت قد أخذت إلى السبي، وكانت مملكة إسرائيل ستسقط تماماً في أيدي الأشوريين وتصبح خراباً شاملاً، وهكذا كان لابد أن يكون مصير يهوذا أيضاً ما لم يعمل الله بقوة عن طريق أناس يتم اختيارهم نواباً عنه.

وتحدث حزقيا إلى الكهنة مباشرة كي يتحدوا معه في تحقيق الإصلاح اللازم. فأوصاهم قائلاً: ”يا بني لا تضلّوا الآن لأن الرب اختاركم لكي تقفوا أمامه وتخدموه وتكونوا خادمين وموقدين له“. ”تقدسوا الآن وقدسوا بيت الرب إله آبائكم“ (2 أخبار الأيام 29 : 11، 5).

كان ذلك الوقت وقت عمل سريع. فبدأ الكهنة في العمل فوراً وقد تعاون آخرون من الذين لم يكونوا حاضرين في هذا المؤتمر، فاشتغلوا بإخلاص في عملية تطهير الهيكل وتقديسه. ووجد الكهنة صعاباً كثيرة في العمل بسبب تدنيس الهيكل وإهماله تلك السنين الطوال. إلا أن الكهنة واللاويين اشتغلوا بلا كلل، وفي فترة قصيرة جداً أمكنهم أن يقرروا انتهاءهم من العمل. كما أصلحت أبواب الهيكل وفتحت من جديد على مصاريعها، وجُمعت الأواني المقدسة ووضعت في أماكنها، وكان كل شيء معداً لإعادة إقامة خدمات المقدس. [271]

وفي أول خدمة أقيمت اشترك رؤساء المدينة مع الملك حزقيا والكهنة واللاويين في التماس الغفران عن خطايا الأمة. وقد وضعت ذبائح الخطيئة على المذبح: ”تكفيراً عن جميع الشعب“. ”وعند انتهاء

المحرقة خر الملك وكل الموجودين معه وسجدوا“. ومرة أخرى رددت أروقة الهيكل صدى كلمات الحمد والتمجيد. وقد تغنّوا بمزامير داود وآساف بفرح عندما تحقق العابدون من أنهم قد تخلّصوا من عبودية الخطيئة والارتداد. ”وفرح حزقيا وكل الشعب من أجل أن الله أعدّ الشعب لأن الأمر كان بغتة“ (2 أخبار الأيام 29 : 24، 29، 36).

لقد أعدّ الله قلوب رؤساء يهوذا ليكونوا طليعة إصلاح حاسم من أجل إيقاف تيار الارتداد. كان الله قد أرسل أنبياءه إلى شعبه برسائل متتالية تنطق بكلام التوسل الحار — رسائل ازدرى لها ورفضها رجال الأسباط العشرة في مملكة إسرائيل الذي أسلموا الآن إلى أيدي الأعداء. أما في يهوذا فقد ظلّت بقية صالحة ممتازة، وظل الأنبياء يقدمون رسائلهم إليهم. اسمعوا إشعياء النبي وهو يلح عليهم قائلاً: ”ارجعوا إلى الذي ارتد بنو إسرائيل عنه متعمّقين“ { ”ارجعوا إلى من تمردهم عليه أشد التمرد“ — الترجمة التفسيرية } (إشعياء 31 : 6). ثم ميخا وهو يعلن بثقة قائلاً: ”أراقب الرب أصبر لإله خلاصي. يسمعني إلهي. لا تشمتي بي يا عدوتي. إذا سقطت أقوم. إذا جلست في الظلمة فالرب نور لي. احتمل غضب الرب لأني أخطأت إليه حتى يقيم دعواي ويجري حقي. سيخرجني إلى النور سأنظر بره“ (ميخا 7 : 7، 9).

هذه وأمثالها من الرسائل التي تُعلن عن استعداد الله لأن يغفر للذين رجعوا إليه بعزم صادق وكامل بقلبهم، أتت بالرجاء لنفوس كثيرة خائرة في سنوات [272] الظلام عندما ظلّت أبواب الهيكل الموصدة. والآن بعدما شرع الرؤساء في القيام بإصلاح كان كثير من الشعب الذي تعب وسئم عبودية الخطيئة مستعداً للاستجابة للنداء.

لقد نال الذين دخلوا إلى أروقة الهيكل طلباً للغفران ولتجديد ولائهم للرب تشجيعاً قُدّم لهم من الأجزاء النبوية في الكتاب. إن الإنذارات المقدسة الخطيرة ضد الوثنية التي نطق بها موسى في مسامع جميع إسرائيل، كانت مصحوبة بنبوات عن استعداد الله لأن يسمع ويغفر للذين يطلبونه بكل القلب في عصور الارتداد. فقد قال موسى إذا كنت ”ترجع إلى الرب إلهك وتسمع لقوله لأن الرب إلهك إله رحيم لا يتركك ولا يهلكك ولا ينسى عهد آبائك الذي أقسم عليه“ (تثنية 4 : 30، 31).

وفي الصلاة النبوية التي قدّمت عن تدشين الهيكل الذي كان حزقيا الآن وزملاؤه يقدمون فيه العبادة والخدمة، صلّى سليمان قائلاً: ”إذا انكسر شعبك أمام العدو لأنهم أخطأوا إليك ثم رجعوا إليك واعترفوا باسمك وصلّوا وتضرعوا إليك نحو هذا البيت. فاسمع أنت من السماء واغفر خطيّة شعبك“ (1 ملوك 8 : 33، 34).لقد خُتمت هذه الصلاة بختم استحسان الله وقبوله لأنه عند انتهائه من صلاته نزلت النار من السه لتأكل المحرقة والذبائح وملأ مجد الرب الهيكل (انظر 2 أخبار الأيام 7 : 1). وفي الليل تراءى الرب لسليمان وقال له إن صلاته قد سمعت وأنه سيظهر رحمته لمن يسجدون هناك. كما أعطى له هذا التأكيد الرحيم: ”إذا تواضع شعبي الذين دعي اسمي عليهم وصلّوا وطلبوا وجهي ورجعوا عن طرقهم الرديّة فأنني اسمع من السماء واغفر خطيتهم وأبرئ أرضهم“ (2 أخبار الأيام 7 : 14). [273]

وقد تمت هذه الوعود إتماماً كاملاً في أثناء الإصلاح الذي قام به حزقيا.

وتبعت البداية الحسنة التي تمّت عند تطهير الهيكل حركة أوسع في نطاقها ساهم فيها إسرائيل كما ساهم يهوذا سواء بسواء. لقد عوّل حزقيا في غيرته لأن يجعل خدمات الهيكل بركة حقيقية للشعب على إحياء العادة القديمة عادة جمع الإسرائيليين لإحياء عيد الفصح.

لم يُمارس عيد الفصح كعيد قومي منذ سنين طويلة. فانقسام المملكة في نهاية حكم سليمان جعل الأمر غير عملي. ولكن الأحكام الرهيبة التي حاقت بالأسباط العشرة أيقظت في قلوب البعض الرغبة في أمر أفضل، وكان لرسائل الأنبياء المثيرة أثرها الفعال، وقد أذاع رسل الملك الدعوة لحضور أفرايم ومنسي حتى زبولون“. وقد قوبل حاملو دعوة الرحمة بالصدّ والجفاء إذ استخف غير التائبين القساة القلوب. ومع

ذلك فإن بعضاً إذ كانوا يتوقون إلى طلب الله للحصول على معرفة أكمل لمشيئته: "تواضعوا وأتوا إلى أورشليم" (2 أخبار الأيام 30 : 10، 11).

وفي أرض يهوذا استجاب جميع الناس للنداء لأن "يد الله" كانت عليهم "فأعطاهم قلباً واحداً ليعملوا بأمر الله والرؤساء" (2 أخبار الأيام 30 : 12) — وكان الأمر متوافقاً مع إرادة الله المُعلنة على أفواه أنبيائه.

وكانت تلك الفرصة فرصة ربح عظيم لجماهير المجتمعين. فشوارع المدينة التي نجستها مذابح الأوثان التي أقيمت هناك في أثناء مُلك آحاز أزيلت منها تلك الأجراس. وفي اليوم المحدد مُورس الفصح، وقضى الشعب ذلك الأسبوع في تقديم ذبائح السلامة وفي تعلّم ما كان الله يريدهم أن يتعلّموه. وفي كل يوم [274] كان " اللاويون الفطنين فطنة صالحة للرب" يعلّمون الشعب، والذين هيأوا قلوبهم لطلب الله وجدوا غفراناً. وقد ملأت الغبطة والبهجة العظيمة جوانح ذلك الجمع الساجد لله: "وكان اللاويون والكهنة يسبّحون الرب يوماً فيوماً بآلات حمد الرب" (2 أخبار الأيام 30 : 22، 21). وقد اشترك الجميع في الشوق لأن يسبّحوا ذلك الذي برهن على أنه صالح ورحيم إلى هذا الحد.

وقد مرت الأيام السبعة المخصصة لعيد الفصح بسرعة عظيمة، فعزم العابدون قضاء سبعة أيام أخرى في الحصول على معرفة كاملة لطريق الرب. وقد واصل الكهنة المعلّمون عمل التعليم من سفر الشريعة، فكان الشعب يجتمع في الهيكل كل يوم ليقدّم فريضة الحمد والشكر، وعندما قارب ذلك الاجتماع العظيم على الإنفضاض كان واضحاُ أن الله عمل عجباً في هداية شعب يهوذا المرتد، وفي صد تيار الوثنية الذي كان يهدد باكتساح الجميع أمامه. لم تكن إنذارات الأنبياء المقدّمة، عبثاً: "وكان فرح عظيم في أورشليم لأنه من أيام سليمان بن داود لم يكن كهذا في أورشليم" (2 أخبار الأيام 30 : 26).

وقد جاء الوقت الذي فيه يعود العابدون إلى بيوتهم: "وقام الكهنة اللاويون وباركوا الشعب فسُمع صوتهم ودخلت صلاتهم إلى مسكن قدسه إلى السماء" (2 أخبار الأيام 30 : 27). لقد قبل الله أولئك الذين اعترفوا بخطاياهم بقلوب منسحقة، وبعزم صادق اتّجهوا إليه في طلب الغفران والعون.

وقد بقي الآن عمل هام كان يجب على من كانوا عائدين إلى بيوتهم أن يساهموا فيه بنصيب وافر، وكان إتمام هذا العمل يحمل في ذاته برهاناً على أن الإصلاح الذي تم كان حقيقياً، فالكتاب يقول: "خرج كل الحاضرين إلى مدن يهوذا وكسّروا الانصاب وقطعوا السواري وهدموا المرتفعات والمذابح من كل [275] يهوذا وبنيامين ومن أفرايم ومنسى حتى أفنوها. ثم رجع كل الشعب كل واحد إلى ملكه إلى مدنهم" (2 أخبار الأيام 31 : 1).

وقد قام حزقيا ورفاقه بإصلاحات لإقامة مصالح المملكة الروحية والزمنية وتدعيمها: "هكذا عمل حزقيا في كل يهوذا وعمل ما هو صالح ومستقيم وحق أمام الرب إلهه. وفي كل عمل ابتدأ به .. إنما عمله بكل قلبه وأفلح". "على الرب اتّكل .. ولم يحد عنه بل حفظ وصاياه التي أمر بها الرب موسى. ومكان الرب معه .. وكان ينجح" (2 أخبار الأيام 31 : 20، 21، 2 ملوك 18 : 5 — 7).

وقد امتاز حكم حزقيا بسلسلة من حوادث العناية العظيمة التي أعلنت للأمم المحيطة أن الله كان مع شعبه. لقد جعل نجاح الأشوريين في احتلال السامرة وفي تشتيت البقية المحطمة من الأسباط العشرة بين كل الأمم في أوائل سنّي ملكه. كثيرين يشكّون في قدرة الله. لقد تجرّأ أهل نينوى بنجاحهم المتوالي، على إلقاء الرسالة التي قدّمها لهم يونان منذ زمن طويل، جانباً وتحدي مقاصد السماء ومقاومتها. وبعد سقوط السامرة بسنوات قليلة عادت تلك الجيوش الظافرة لتظهر مرة أخرى في فلسطين، وفي هذه المرة وجّهوا جيوشهم ضد مدن يهوذا الحصينة، وقد أحرزوا بعض النجاح، إلا أنهم انسحبوا لبعض الوقت بسبب صعوبات ومناوشات قامت في أجزاء أخرى في مملكتهم. ولكن بعد مرور بضع سنوات قرب انتهاء سنّي

ملك حزقيا كان سيُعلن أمام شعوب العالم ما إذا كانت آلهة الأمم ستحرز انتصاراً حاسماً أم لا. [276]

الفصل التاسع والعشرون ـــــسفراء من بابل

أصيب الملك حزقيا فجأة في منتصف سنّي ملكه الناجح بمرض مميت، وكانت حالته فوق تعزيات البشر ومعونتهم. وقد بدا كأنه قد انقطع عنه آخر رجاء عندما أتاه النبي إشعياء وقدّم له هذه الرسالة: ”هكذا يقول الرب أوص بيتك لأنك تموت ولا تعيش“ (إشعياء 38 : 1).

كان المستقبل مظلماً تماماً، ومع ذلك فقد أمكن للملك أن يصلّي إلى الله الذي سبق أن كان له ”ملجأ وقوة، عوناً في الضيقات“ (مزمور 46 : 1). وهكذا ”وجّه وجهه إلى الحائط وصلّى إلى الرب قائلاً آه يا رب اذكر كيف سرت أمامك بالأمانة وبقلب سليم وفعلت الحسن في عينيك. وبكى حزقيا بكاء عظيماً“ (2 ملوك 20 : 2، 3).

منذ أيام داود لم يقم ملك عمل بقوة عظيمة لأجل إقامة ملكوت الله في أيام الارتداد والمخاوف كما قد فعل حزقيا. لقد خدم ذلك الملك المحتضر إلهه بكلّ أمانة وشدّد ثقة شعبه في الرب بوصفه ملكهم الأعلى. وكداود أمكنه أن يتوسل قائلاً:

”لتأت قدامك صلاتي. أما اذنك إلى صراخي لأنه قد شبعت من المصائب نفسي وحياتي إلى الهاوية دنت“ (مزمور 88 : 2، 3). [277]

”لأنك أنت رجائي يا سيدي الرب، متكلي منذ صباي. عليك استندت“. ”لا تتركني عند فناء قوتي“. ”يا الله لا تبعد عني. يا إلهي إلى معونتي أسرع“. ”يا الله لا تتركني حتى أخبر بذراعك الجيل المقبل وبقوتك كل آت“ (مزمور 71 : 5، 9، 12، 18).

فذاك الذي ”مراحمه لا تزول“ (مراثي 3 : 22). سمع صلاة عبده: ”ولم يخرج إلى المدينة الوسطى“ { ”وقبل أن يبلغ إشعياء فناء القصر الأوسط“ } (الترجمة التفسيرية). حتى كان كلام الرب إليه قائلاً: ارجع وقل لحزقيا رئيس شعبي. هكذا قال الرب إله داود أبيك. قد سمعت صلاتك قد رأيت دموعك. ها أنا أشفيك في اليوم الثالث تصعد إلى بيت الرب. وأزيد على أيامك خمس عشرة سنة وأنقذك من يد ملك أشور مع هذه المدينة وأحامي عن هذه المدينة من أجل نفسي ومن أجل داود عبدي“ (2 ملوك 20 : 4 — 6).

وقد عاد النبي فرحاً وهو يحمل كلام اليقين والرجاء. فإذ أشار إشعياء بأن يضعوا قرص تين على مكان الألم من جسم الملك، قدّم له رسالة رحمة الله ورعايته الحافظة.

وكما حدث مع موسى وهو في أرض مديان. ومع جدعون وهو ماثل في حضرة رسول السماء، ومع أليشع قبيل صعود سيده. كذلك توسّل حزقيا في طلب علامة تؤكد له أن تلك الرسالة هي من السماء. فسأل النبي قائلاً: ”ما العلامة أن الرب يشفيني فأصعد في اليوم الثالث إلى بيت الرب؟“.

فأجابه النبي قائلاً: ”هذه لك علامة من قبل الرب على أن الرب يفعل الأمر الذي تكلّم به. هل يسير الظل عشر درجات أو يرجع عشر درجات؟“ فأجاب حزقيا [278] يقول: ”إنه يسير على الظل أن يمتد عشر درجات، لا بل يرجع الظل إلى الوراء عشر درجات“.

ما كان يمكن للظل الذي على المزولة (ساعة شمسية) أن يرجع عشر درجات إلى الوراء لو لم يتدخل

الله تدخلاً مباشراً. وكانت هذه علامة لحزقيا أن الله قد سمع صلاته. وتبعاً لذلك: "دعا إشعياء النبي الرب فأرجع الظل بالدرجات التي بها بدرجات آحاز عشر درجات إلى الوراء" (2 ملوك 20 : 8 — 11). (ونشجع القارئ الكريم على مراجعة هذه الآيات في الترجمة التفسيرية أيضاً — المحرر).

فإذ رجعت إلى ملك يهوذا صحّته العادية وقوّته اعترف بمراحم الرب في ترنيمة جميلة، ونذر أن يقضي باقي أيام عمره في خدمة طوعية لملك الملوك. إنّ اعترافه الشكور بمعاملة الله الرحيمة معه هو بمثابة الهام لكل من يتوقون لأن يقضوا سنيهم فيما يؤول لمجد صانعهم. قال حزقيا:

"أنا قلت .. في عز أيامي اذهب إلى أبواب الهاوية. قد أعدمت بقية سنّي. قلت لا أرى الرب، الرب في أرض الأحياء. لا أنظر إنساناً بعد من سكان الفانية. مسكني قد انقلع وانتقل عني كخيمة الراعي. لففت كالحائك حياتي. من النول يقطعني. النهار والليل تفنيني صرخت إلى الصباح. كالأسد هكذا يهشم جميع عظامي. النهار والليل تفنيني صرخت إلى الصباح. كسنونة مزقزقة هكذا أصيح. أهدر كحمامة. قد ضعفت عيناي ناظرة إلى العلاء. يا رب قد تضايقت. كن لي ضامناً. بماذا اتكلّم فإنه قال لي وهو قد فعل. أتمشّى متمهلاً كل سّني من أجل مرارة نفسي. أيها السيد بهذه يحيون وبها كل حياة روحي فتشفيني وتحييني. هوذا للسلامة قد تحوّلت لي المرارة وأنت تعلقت بنفسي من وهدة الهلاك فإنك طرحت وراء ظهرك كل خطاياي. أن الهاوية لا تحمدك الموت لا يسبحك. لا [279] يرجوا الهابطون إلى الجب أمانتك. الحي الحي هو يحمدك كما أنا اليوم. الأب يُعرّف البنين حقّك. فنعزف بأوتارنا كل أيام حياتنا في بيت الرب" (إشعياء 38 : 10 — 20 انظر أيضاً الترجمة التفسيرية).

في وديان نهر دجلة والفرات الخصبة كانت تسكن أمة عريقة، وهي وإن كانت خاضعة لأشور حينئذ، إلا أنه كان من المقدّر لها أن تحكم العالم. وكان يوجد بين شعبها رجال حكماء اهتمّوا اهتماماً عظيماً بدراسة علم الفلك، وعندما لاحظوا أن الظلّ على المزولة (الساعة الشمسية) رجع عشر درجات أصابتهم الدهشة. فإذ سمع مرودخ بلدان ملكهم أن هذه المعجزة تمّت كعلامة لملك يهوذا على أن إله السماء قد مدّ في أجله، أرسل رسلاً إلى حزقيا لتهنئته بالشفاء، وليعرفوا، إذا أمكن شيئاً أكثر عن الإله الذي استطاع أن يجري مثل تلك الأعجوبة العظيمة.

وقد تمّت هذه الزيارة التي قام بها رسل موفدون من قبل ملك في أرض بعيدة، وقُدّمت لحزقيا فرصة فيها يعظّم ويمجّد الإله الحي. كم كان من السهل عليه أن يخبرهم عن الله حامل كل الخلائق الذي بواسطة رحمته ورضاه أبقى على حياته عندما انتفى عنه آخر رجاء! ما كان أخطر التغييرات التي كان يمكن أن تحدث لو تمّ إرشاد طالبي الحق القادمين من سهول الكلدانيين للاعتراف بالسيادة العليا للإله الحي!

ولكن الكبرياء والغرور تسلّطت على قلب حزقيا، وفي تعظيمه لنفسه فتح أمام تلك العيون الجشعة الطامعة الخزائن التي أغدقها الله على شعبه. فأراهم "بيت ذخائره الفضّة والذهب والأطياب والزيت الطيب وكل بيت أسلحته وكل ما وجد في خزائنه. لم يكن شيء لم يرهم أياه حزقيا في بيته وفي كل ملكه" [280] (إشعياء 39 : 2). ولكنّه لم يفعل هذا تمجيداً لله بل ليمجّد نفسه في عيون أولئك الرؤساء الغباء. ولم ينتظر ليفكر في أن هؤلاء الرجال يمثلون أمة قوية ولا يوجد في قلوبهم أثر لخشية الله أو محبّته، وأن كونه يأتمنهم على أسراره أمر يجافي الفطنة إذ يطلعهم على مقدار ثراء الأمة الزمني.

إن زيارة أولئك المبعوثون لحزقيا كانت امتحاناً لشكرانه وتعبّده وتقواه. يقول السفر المقدّس: "وهكذا في أمر تراجم رؤساء بابل الذين أرسلوا إليه ليسألوا عن الأعجوبة التي كانت في الأرض تركه الله ليجربه ليعلم ما في قلبه" (2 أخبار الأيام 32 : 31). فلو كان حزقيا قد أحسن استخدام الفرصة المقدّمة ليشهد لقدرة الله وصلاحه ورأفته لكان تقرير السفراء قد أصبح نوراً يبدد غياهب الظلام. ولكنّه مجّد نفسه فوق رب الجنود. إنّه "لم يُرد .. حسبما أنعم عليه { "لم يتجاوب مع ما أبداه الله نحوه من نعم" }. لأن قلبه

ارتفع" (2 أخبار الأيام 32 : 25).

وما كان أرهب الكوارث التي كانت ستحدث في إثر ذلك! فقد كُشف لإشعياء أن أولئك السفراء العائدين كانوا يحملون معهم تقريراً عن الثروة الهائلة التي رأوها. وأن ملك بابل ومشيريه سيدبّرون خطة لنقل ثروة أورشليم وكنوزها إلى بلادهم يغتنوا بها. لقد أخطأ حزقيا خطيئة شنيعة: "فكان غضب عليه وعلى يهوذا وأورشليم" (2 أخبار الأيام 22 : 25).

"فجاء إشعياء النبي إلى الملك حزقيا وقال له ماذا قال هؤلاء الرجال ومن أين جاءوا إليك؟ فقال حزقيا جاءوا إليّ من أرض بعيدة من بابل. فقال ماذا رأوا في بيتك؟ فقال حزقيا رأوا كل ما في بيتي ليس في خزائني شيء لم أرهم إياه. [281]

"فقال إشعياء لحزقيا اسمع قول رب الجنود. هوذا تأتي أيام يُحمل فيها كل ما في بيتك وما خزنه آباؤك إلى هذا اليوم إلى بابل. لا يُترك شيء يقول الرب. ومن بنيك الذين يخرجون منك الذين تلدهم يأخذون فيكونون خصياناً في قصر ملك بابل.

"فقال حزقيا لإشعياء جيّد هو قول الرب الذي تكلّمت به" (إشعياء 39 : 3 — 8).

فإذ امتلأ قلبه بالندامة: "تواضع حزقيا بسبب ارتفاع قلبه هو وسكّان أورشليم فلم يأت عليهم غضب الرب في أيام حزقيا" (2 أخبار الأيام 32 : 26). ولكن الزرع الشرير كان قد بُرز وكان مزمعاً أن يطلع ويثمر ثمار الخراب والشقاء بمرور الوقت. كان النجاح العظيم حليف ملك يهوذا في سنيه الأخيرة بسبب عزمه الثابت على افتداء الماضي وجلب الكرامة لاسم الرب الذي يعبده. مع ذلك فكان لا بد من أن يجوز إيمانه في امتحان عسير. كان عليه أن يتعلّم أنّه بواسطة وضع ثقته الكاملة في الرب، يرجوا الانتصار على قوات الظلمة التي كانت تتآمر عليه لإهلاكه وشعبه بالتمام.

إن قصة إخفاق حزقيا في إثباته أنه جدير بالثقة التي أسندت إليه عندما زاره أولئك السفراء، مليئة بالتعاليم العامة للجميع. إننا نحتاج إلى أن نتحدّث عن الحوادث الثمينة في اختباراتنا، أكثر مما نفعل الآن، وعن رحمة الله ورأفته والأعماق التي لا يسبر غورها لمحبة المخلّص. فعندما يمتلئ الذهب والقلب بمحبة الله فلن يكون من الصعب إشراك الآخرين في المسائل الروحية. فالأفكار العظيمة والمطامع النبيلة والأفكار الواضحة عن الحق، والمقاصد غير الأنانية والحنين إلى التقوى والقداسة ستجد لها تعبيراً في الأقوال التي تكشف عن طبيعة الكنز الذي في القلب. [282]

إن من نعاشرهم يومياً هم بحاجة إلى معونتنا وإرشادنا. فقد يكونون في حالة نفسية خاصة بحيث أن كلمة تقال في وقتها تكون كمسمار يُدق في مكانه الخاص. فغداً قد ينتقل بعض هؤلاء إلى مكان بحيث لا يمكننا الوصول إليهم فيه مرة أخرى. فما هو تأثيرنا على زملائنا في دروب هذه الحياة؟

كل يوم من أيامنا مزدحم بالتبعات التي علينا الاضطلاع بها. ففي كل يوم يكون لكلامنا وأعمالنا أثراً في من نعاشرهم. فما أحوجنا إلى أن نضع حارساً على شفاهنا وأن نحسب خطواتنا بدقة! فإن حركة واحدة طائشة وخطوة غير حكيمة كفيلة بأن تجعل أمواج التجارب الصاخبة تسوق النفس إلى هاوية سحيقة. ونحن لا نستطيع استرداد الأفكار التي غرسناها في العقول البشرية أو استئصالها. فإذا كانت الأفكار شريرة فقد تحرّك سلسلة من الظروف. وتياراً من الشر نعجز عن صدّه أو السيطرة عليه.

من الناحية الأخرى إذا كنا بمثالنا نساعد الآخرين على تنمية المبادئ الصالحة فإننا نزودهم بقوة لعمل الخير. وهو بدورهم يبذلون القوة الخيرة ذاتها للتأثير على الآخرين. وهكذا يتأثر المئات والآلاف ويحصلون على العون بفضل تأثيرنا الذي لا نشعر به. إن تابع المسيح الأمين يشدّد ويقوّي المقاصد الصالحة لكل من يتصل بهم. ويعلن أمام عالم عديم الإيمان. محب للخطيئة، قوة نعمة الله وكمال صفاته. [283]

الفصل الثلاثون ـــــ الخلاص من أشور

إذ كانت جيوش أشور تغير على أرض يهوذا دهم الأمة خطر عظيم، وبدا حينئذ كأن لا شيء يمكن أن ينقذ أورشليم من الخراب التام، عندئذ حشد حزقيا جيوش مملكته لمقاومة ظالميهم الوثنيين بشجاعة لا تخيب متّكلا على قوة الرب للإنقاذ. وأوصى حزقيا رجال يهوذا قائلاً: ”تشدّدوا وتشجّعوا. لا تخافوا ولا ترتاعوا من ملك أشور ومن كل الجمهور الذي معه لأن معنا أكثر مما معه. معه ذراع بشر ومعنا الرب إلهنا ليساعدنا ويحارب حروبنا“ (2 أخبار الأيام 32 : 7، 8).

لم يتكلّم حزقيا عن تأكده من النتيجة دون مبرر. فاستخدم الله الأشوريين المتبجحين لبعض الوقت بمثابة قضيب غضبه (انظر إشعيا 10 : 5). لتأديب الشعوب، لا يعني مطلقاً أنهم ينتصرون على الدوام: ”لا تخف من أشور يا شعبي“. هذه كانت رسالة الله على لسان إشعياء إلى الساكنين في صهيون قبل ذلك بسنوات. وأضاف: ”أنه بعد قليل جداً .. يقيم عليه رب الجنود سوطاً كضربة مديان عند صخرة غراب وعصاه على البحر ويرفعها على أسلوب مصر. ويكون في ذلك اليوم أن حمله يزول عن كتفك ونيره عن عنقك ويتلف النير بسبب السمانة“ (إشعياء 10 : 24 — 27). وفي رسالة نبوية أخرى أعطيت ”في سنة وفاة الملك آحاز“ أعلن النبي قائلاً: ”قد حلف رب الجنود قائلاً أنه كما قصدتُ يصير وكما نويت يثبت أن أحطم أشور في أرضي وأدوسه على جبالي فيزول عنهم [284] نيره ويزول عن كتفهم حمله. هذا هو القضاء المقضي به على كل الأرض وهذه هي اليد الممدودة على كل الأمم. فإن رب الجنود قد قضى فمن يبطل ويده هي الممدودة فمن يردها؟“ (إشعياء 14 : 28، 24 — 27).

كانت قوة الظالمين المعتدين ستتحطم. ومع ذلك فإن حزقيا في أوائل سني حكمه ظل يدفع جزية لأشور بموجب الاتفاق الذي أقره آحاز. وفي أثناء ذلك تشاور الملك ”هو ورؤساؤه وجبابرته“ وعمل كل ما في مقدوره للدفاع عن مملكته. وقد تأكد من وفرة كميات المياه التي في داخل أسوار أورشليم بينما كان ينبغي أن يكون الماء خارج المدينة نادراً وقليلاً: ”وتشدد وبنى كل السور المنهدم وأعلاه إلى الأبراج وسوراً آخر خارجاً وحصن القلعة مدينة داود وعمل سلاحاً بكثرة وأتراساً. وجعل رؤساء قتال على الشعب“ (2 أخبار الأيام 32 : 3، 5، 6). ولم يترك شيئاً ناقصاً مما يمكن عمله استعداداً للحصار.

في الوقت الذي فيه اعتلى حزقيا عرش يهوذا كان الأشوريون قد سبوا جمعاً غفيراً من بني إسرائيل من المملكة المشالية، أسرى، وعندما ابتدأ يملك بسنوات قليلة، وفيما كان يسدد وسائل الدفاع عن أورشليم حاصر الأشوريون السامرة واحتلوها وشتتوا الأسباط العشرة في أقاليم مملكة أشور المختلفة. ولم تكن تخوم يهوذا تبعد أكثر من أميال قليلة عنها. ولم تكن أورشليم تبعد عن تلك الحدود إلا مسافة أقل من خمسين ميلاً، وكانت الأسلاب والغنائم الكثيرة التي في داخل الهيكل تغزي العدو بالعودة.

ولكن ملك يهوذا كان قد عقد العزم على أن يقوم بدوره في التأهب لمقاومة العدو. وعندما أتم كل ما يمكن للمهارة والبراعة والنشاط البشري أن تفعله، جمع جيوشه وأوصاهم بأن يتشجعوا. كانت رسالة إشعياء النبي إلى يهوذا هي هذه: [285] ”(الله) عظيم في وسطك“ (إشعياء 12 : 6). وقد أعلن الملك بإيمان لا يتقلقل قائلاً: ”معنا الرب إلهنا ليساعدنا ويُحارب حروبنا“ (2 أخبار الأيام 32 : 8).

أسرع وسيلة يمكن أن تلهم النفس الإيمان هي ممارسة الإيمان. لقد تأهّب ملك يهوذا للعاصفة القادمة والآن، إذا كان واثقاً من أن النبوة التي قيلت ضد الأشوريين لابد أن تتم ثبّت نفسه مستنداً على الله: "فاستند الشعب على كلام حزقيا ملك يهوذا" (2 أخبار الأيام 32 : 8). فماذا لو أن جيوش أشور وهي قادمة لتوها من غزو أعظم أمم الأرض وقد انتصرت على السامرة في إسرائيل توجه الآن جيوشها لمحاربة يهوذا؟ وماذا لو أنهم يتحججون قائلين: "كما أصابت يدي ممالك الأوثان وأصنامها المنحوتة هي أكثر من التي لأورشليم وللسامرة. أفليس كما صنعت بالسامرة وبأوثانها أصنع بأورشليم وأصنامها؟" (إشعياء 10 : 10، 11). ولم يكن هنالك ما يخافه شعب يهوذا لأنهم كانوا متكلّمين على الرب.

أخيراً جاءت الأزمة المتوقّعة التي طال انتظارها. ذلك أن جيوش أشور التي كانت تتقدّم من نصرة إلى نصرة ظهرت اليهودية. وإذ كان قادة الجيش واثقين من الانتصار قسموا قواتهم إلى جيشين، فكان على أحدهما أن يواجه جيش مصر القادم من الجنوب بينما على الجيش الثاني أن يحاصر أورشليم.

كان الرجاء الوحيد لشعب يهوذا هو في الله. فلقد انقطعت عنهم كل معونة ممكنة من مصر. ولم تكن هنالك أمم قريبة يمكن أن تمد إليهم يد العون.

وإذ كان قادة أشور واثقين من قوة جيوشهم المدربة دبروا إجراء مفاوضات مع رؤساء يهوذا، طلبوا في أثنائها منهم بكل وقاحة تسليم المدينة، وقد كان هذا الأمر مصحوباً بالشتائم والتجاديف ضد إلههم. فبسبب ضعف إسرائيل ويهوذا [286] وارتدادهم ما عاد إسم الله مرهوباً بين الأمم بل صار عرضة للتعيير الدائم والإهانات التي لا تنقطع (انظر إشعياء 52 : 5). فقال ربشاقي أحد كبار قادة جيش سنحاريب: "قولوا لحزقيا هكذا يقول الملك العظيم ملك أشور ما الاتكال الذي اتكلت. قلت إنما كلام الشفتين هو مشورة وبأس للحرب. والآن على من اتكلت حتى عصيت علي؟" (2 ملوك 18 : 19، 20).

كان رؤساء الجيش يتداولون خارج أبواب المدينة ولكن على مسمع من الحراس الذين على السور، وإذ كان نواب ملك أشور يلحون على رؤساء يهوذا بأصوات عالية بقبول مقترحاتهم. طلب منهم أن يتكلموا بالأرامية لا باللغة اليهودية حتى لا يفهم الواقفون على السور إجراءات المداولة. فإذ رفض ربشاقي هذا الاقتراح باحتقار. رفع صوته أعلى مما كان واستطرد يتكلم باللغة اليهودية قائلاً:

"اسمعوا كلام الملك العظيم ملك أشور، هكذا يقول الملك لا يخدعكم حزقيا لأنه لا يقدر أن ينقذكم. ولا يجعلكم حزقيا تتكلمون على الرب قائلاً: إنقاذاً ينقذنا الرب لا تدفع هذه المدينة إلى يد ملك أشور.

"لا تسمعوا لحزقيا لأنه هكذا يقول ملك أشور اعقدوا معي صلحاً واخرجوا إلي وكلوا كل واحد من جفنته وكل واحد من تينته واشربوا كل واحد ماء بئره. حتى آتي وآخذكم إلى أرض مثل أرضكم أرض حنطة وخمر أرض خبز وكروم.

"لا يغركم حزقيا قائلاً الرب ينقذنا. هل أنقذ آلهة الأمم كل واحد أرضه من يد ملك أشور؟ أين آلهة حمادة وأرفاد؟ أين آلهة سفراويم؟ هل أنقذوا السامرة من يدي؟ من من كل آلهة هذه الأراضي أنقذ أرضهم من يدي حتى ينقذ الرب أورشليم من يدي؟" (إشعياء 36 : 13 — 20). [287]

أما بنو يهوذا "فلم يجيبوا بكلمة" على هذه التعييرات وقد انتهت المداولة. فعاد نواب يهوذا إلى حزقيا "وثيابهم ممزقة فأخبروه بكلام ربشاقي" (إشعياء 36 : 21، 22). فإذ علم الملك بأقوال التحدي والتجاديف التي سمعوها: "مزق ثيابه وتغطى بمسح ودخل بيت الرب" (2 ملوك 19 : 1).

ثم أرسل رسولاً إلى إشعياء ليخبره عن نتيجة المفاوضات وقد أرسل إليه الملك يقول" "هذا اليوم يوم شدة وتأديب وإهانة .. لعل الرب إلهك يسمع جميع كلام ربشاقي الذي أرسله ملك أشور سيده ليعير الإله الحي فيبوخ على الكلام الذي سمعه الرب إلهك. فارفع صلاة من أجل البقية الموجودة" (2 ملوك 19 : 3، 4).

”فصلى حزقيا الملك وإشعياء بن أموص النبي وصرخا إلى السماء“ (2 أخبار الأيام 32 : 20).

وقد استجاب الله لصلوات عبديه. فقد جاءت إلى إشعياء رسالة ليبلغها لحزقيا، وهي تقول: ”هكذا قال الرب لا تخف بسبب الكلام الذي سمعته الذي جدف عليك به غلمان ملك أشور. هأنذا أجعل فيه روحاً فيسمع خبراً ويرجع إلى أرضه وأسقطه بالسيف في أرضه“ (2 ملوك 19 : 6، 7).

لقد اتصل ممثلوا أشور بعدما ودعوا رؤساء يهوذا، بملكهم مباشرة، الذي كان مع القسم الآخر من الجيش الذي كان يحرس طريق الجيش القادم من مصر. فعندما سمع منحاريب ذلك التقرير: ”كتب رسائل لتعيير الرب إله إسرائيل وللتكلم ضده قائلاً كما أن آلهة أمم الأراضي لم تنقذ شعوبها من يدي كذلك لا ينقذ إله حزقيا شعبه من يدي“ (2 أخبار الأيام 32 : 17). [288]

وقد رافقت ذلك التهديد المتبجج رسالة تقول: ”لا يخدعك إلهك الذي أنت تتكل عليه قائلاً لا تدفع أورشليم إلى يد ملك أشور. إنك قد سمعت ما فعل ملوك أشور بجميع الأراضي لإهلاكها وها تنجو أنت؟ هل أنقذت آلهة الأمم هؤلاء الذين أهلكهم آبائي جوزان وحاران ورصف وبني عدن الذين في تلاسار؟ أين ملك حماة وملك أرفاد وملك مدينة سفروايم وهينع وعوا؟“ (2 ملوك 19 : 10 — 13).

وعندما استلم ملك يهوذا رسالة التعيير أخذها ودخل بها إلى الهيكل: ”ونشرها حزقيا أمام الرب“ (2 ملوك 19 : 14). ثم صلّى بإيمان قوي طالباً معونة من السماء لكي تعلم أمم الأرض إن الله لا يزال حيا وهو ملك يتسلط على الجميع. لقد كانت كرامة الرب في خطر، وهو وحده الذي كان يستطيع أن يأتي بالنجاة.

فتوسل حزقيا قائلاً: ”أيها الرب الجالس فوق الكروبيم أنت هو الإله وحدك لكل ممالك الأرض. أنت صنعت السماء والأرض أمل يا رب اذنك واسمع. افتح يا رب عينيك وانظر واسمع كلام سنحاريب الذي أرسله ليعير الله الحي. حقاً يا رب أن ملوك أشور قد خربوا الأمم وأراضيهم ودفعوا آلهتهم إلى النار ولأنهم ليسوا آلهة بل صنعة أيدي الناس خشب وحجر فأبادوهم. والآن أيها الرب خلصنا من يده فتعلم ممالك الأرض كلها أنك أنت الرب الإله وحدك“ (2 ملوك 19 : 15 — 19).

”يا راعي إسرائيل اصغ يا قائد يوسف كالضأن يا جالساً على الكروبيم أشرق قدام أفرايم وبنيامين ومنسى أيقظ جبروتك وهلم لخلاصنا. يا الله ارجعنا وأنر بوجهك فنخلص.

”يا رب الجنود إلى متى تدخن على صلاة شعبك؟ قد اطعمتهم خبز الدموع وسقيتهم الدموع بالكيل جعلتنا نزاعاً عند جيراننا وأعداؤنا يستهزئون بين أنفسهم. يا إله الجنود أرجعنا وأنر بوجهك فنخلص. [289]

”كرمة من مصر نقلت. طردت أننا وغرستها. هيأت قدامها فأصلت أصولها فملأت الأرض. غطى الجبال ظلها وأغصانها أرز الله. مدت قضبانها إلى البحر وإلى النهر فروعها. فلماذا هدمت جدرانها فيقطفها كل عابري الطريق. يفسدها الخنزير من الوعر ويرعاها وحش البرية. يا إله الجنود ارجعن اطلع من السماء وانظر وتعهد هذه الكرمة. والغرس الذي غرسته يمينك والابن الذي اخترته لنفسك...

”أحينا فندعوا باسمك. يا رب إله الجنود أرجعنا أنر بوجهك فنخلص“ (مزمور 80).

لقد كانت توسلات حزقيا لأجل يهوذا ولأجل كرامة مليكهم الأعلى على وفاق مع فكر الله. لقد صلّى سليمان في بركته عند تدشين الهيكل إلى الرب قائلاً: ”ليقضي قضاء عبده وقضاء شعبه .. أمر كل يوم في يومه ليعلم كل شعوب الأرض إن الرب هو الله وليس آخر“ (1 ملوك 8 : 59، 60). على الخصوص كان سيظهر رحمته عندما يدخل رؤساء شعبه بيت الصلاة ويتوسلون في طلب النجاة في أوقات الحرب أو عندما يضايقهم جيش يعتدي على أرضهم“ (انظر ملوك 8 : 23، 34).

لم يترك حزقيا بلا رجاء. فقد أرسل إليه إشعياء يقول: "هكذا قال الرب ... الذي صليت إليه من جهة سنحاريب ملك أشور. قد سمعت. هذا هو الكلام الذي تكلم به الرب عليه"

"احتقرتك استهزأت بك العذراء ابنه صهيون ونحوك أنغضت ابنه أورشليم رأسها. [290]

من عيرت وجدفت وعلى من عليت صوتاً وقد رفعت إلى العلاء عينيك على قدوس إسرائيل. على يد رسلك عيرت السيد وقلت بكثرة مركباتي قد صعدت إلى علو الجبال إلى عقاب لبنان وأقطع أرزه الطويل وأفضل سروره وأدخل أقصى علوه وعر كرمله. أنا قد حفرت وشربت مياهاُ غريبة وانشف بأسفل قدمي جميع خلجان مصر.

"ألم تسمع. منذ البعيد صنعته منذ الأيام القديمة صورته. الآن أتيت به فتكون لتخريب مدن محصنة حتى تصير روابي خربة. فسكانها قصار الأيدي قد ارتاعوا وخجلوا. صاروا كشعب الحقل كالنبات الأخضر كحشيش السطوح وكملفوح قبل نموه.

"ولكني عالم بجلوسك وخروجك ودخولك وهيجانك علي. لأن هيجانك علي وعجرفتك قد صعدا إلى أذني. أضع خزامتي في أنفك ولجامي في شفتيك وأردك في الطريق الذي جئت فيه" (2 ملوك 19 : 20 — 28).

كان جيش الاحتلال قد خرب أرض يهوذا ولكن الله كان وعد أن يعول شعبه ويلبي أعوازهم بكيفية معجزية. وقد جاءت هذه الرسالة إلى حزقيا: "هذه لك علامة. تأكلون هذه السنة زريعاُ وفي السنة الثانية خلفة وأما السنة الثالثة ففيها تزرعون وتحصدون وتغرسون كروماً أثمارها. ويعود الناجون من بيت يهوذا الباقون يتأصلون إلى أسفل ويصنعون ثمراً إلى ما فوق. لأنه من أورشليم تخرج البقية والناجون من جبل صهيون. غيرة رب الجنود تصنع هذا.

"لذلك هكذا قال الرب عن ملك آشور لا يدخل هذه المدينة ولا يرمي هناك سهماً ولا يتقدم عليها بترس ولا قيم عليها مترسة. في الطريق الذي جاء فيه [291] يرجع وإلى هذه المدينة لا يدخل يقول الرب. وأحامي عن هذه المدينة لأخلصها من أجل نفسي ومن أجل داود عبدي" (2 ملوك 19 : 29 — 34).

وفي نفس تلك الليلة جاء الفرج والنجاة: "وكان في تلك الليلة أن ملاك الرب خرج وضرب من جيش أشور مئة وخمسة وثمانين ألفاً" (2 ملوك 19 : 35). "ومكل جبار بأس ورئيس وقائد في محلة ملك أشور" قتلوا جميعاً (2 أخبار الأيام 32 : 21).

وسرعان ما وصلت أنباء ذلك القضاء الهائل على الجيش الذي قد أرسل ليستولي على أورشليم، إلى مسامع سنحاريب الذي كان لا يزال يراقب جيش مصر القادم إلى اليهودية. فإذ أصابه الرعب أسرع ملك أشور بالرحيل: "فرجع بخزى الوجه إلى أرضه" (2 أخبار الأيام 32 : 21). ولكن لم يكن مقدراً له أن يملك طويلاً بعد ذلك. فإتماماً للنبوة التي قيلت عن موته الفجائي قتله أهل بيته: "وملك آسرحدون ابنه عوضاُ عنه" (إشعياء 37 : 38).

لقد انتصر الله على ملك أشور المتعجرف. وقد زكيت كرامة الرب في عيون الأمم المحيطة. وفي أورشليم امتلأت قلوب الشعب بالفرح المقدس. لقد امتزجت توسلاتهم الحارة في طلب النجاة بالاعتراف بالخطيئة والدموع الغزيرة. ففي حاجتهم العظمى وثقوا ثقة تامة بقدرة الله على الخلاص، ولم يخذلهم. أما الآن فقد رنت في أروقة الهيكل أغاني التسبيح المقدس:

"الله معروف في يهوذا واسمه عظيم. كانت في ساليم مظلته ومسكنه في صهيون. هناك سحق القسي البارقة. المجن والسيف والقتال. [292]

"أبهى أنت أمجد من جبال السلب. سلب أشداء القلب. ناموا سنتهم. كل رجال البأس لم يجدوا أيديهم

{"ناموا نوم الموت ولم تنفعهم قدراتهم"}. من انتهارك يا إله يعقوب يسبح فارس وخيل.

"أنت مهوب أنت فمن يقف قدامك حال غضبك. من السماء أسمعت حكماً. الأرض فزعت وسكتت عند قيام الله للقضاء لتخليص كل ودعاء الأرض.

"لأن غضب الإنسان يحمدك. بقية الغضب تتمنطق بها. انذروا وأوفوا للرب إلهكم يا جميع الذين حوله. ليقدموا هدية للمهوب. يقطف روح الرؤساء. هو مهوب لملوك الأرض" (مزمور 76).

إن قيام الامبراطورية الأشورية وسقوطها غني بالدروس لأمم الأرض اليوم. لقد شبه الوحي مجد أشور في عز نجاحها بشجرة عظيمة في جنة الله تعلو بقامتها فوق الأشجار المحيطة بها.

"هوذا أشور أرزه بلبنان" (ترجمة 1878). "جميل الأغصان وأغبى الظل وقامته طويلة وكان فرعه بين الغيوم .. وسكن تحت ظله كل الأمم العظيمة فكان جميلاً في عظمته وفي طول قضبانه لأن أصله كان على مياه كثيرة. الأرز في جنة الله لم يفقه. السرو لم يشبه أغصانه والدلب لم يكن مثل فروعه. كل الأشجار في جنة الله لم تشبهه في حسنه .. حسدته كل أشجار عدن التي في جنة الله" (حزقيال 31 : 3 — 9).

إلا أن ملوك أشور بدلاً من أن يستخدموا بركاتهم غير العادية لخير بني الإنسان صاروا سوط عذاب لبلدان كثيرة. فإذ كانوا قساة عديمي الرحمة دون أن يفكروا في الله ولا في بني جنسهم فقد واصلوا تنفيذ سياستهم التي تقضي بإكراه [293] الأمم على الاعتراف بسيادة آلهة نينوى التي مجدوها وعظموها فوق الله العلي. مكان الله قد أرسل يونان إليهم برسالة إنذار، وقد تواضعوا وتذللوا بعض الوقت أمام رب الجنود وطلبوا الغفران. ولكنهم سرعان ما عادوا إلى عبادة الأوثان وغزو العالم.

وهتف ناحوم النبي وهو يتهم فاعلي الشر في نينوى يقول: "ويل لمدينة الدماء. كلها ملآنة كذباً وخطفاً. لا يزول الافتراس. صوت السوط وصوت رعشة البكر وخيل تخب ومركبات تقفز وفرسان تنهض ولهيب السيف وبريق الرمح وكثرة جرحى ووفرة قتلى .. هأنذا عليك يقول رب الجنود" (ناحوم 3 : 1 — 5).

إن الإله السرمدي لا يزال يحاسب الأمم حساباً دقيقاُ. ففي حين أن رحمته تقدم مصحوبة بدعوات للتوبة فهذا الحساب يظل مفتوحاً، ولكن متى وصلت الأرقام إلى الحد الذي قد عينه الله فإن خدمة غضبه تبدأ ويقفل الحساب وينضب صبر الله ولا تعود الرحمة تتوسل لأجلهم.

"الرب بطيء الغضب وعظيم القدرة ولكنه لا يبرئ البتة. الرب في الزوبعة وفي العاصف طريقة والسحاب غبار رجليه. ينتهر البحر فينشفه ويجفف جميع الأنهار. يذبل باشان والكرمل وزهر لبنان يذبل. الجبال ترجف منه والتلال تذوب والأرض ترفع من وجهه والعالم وكل الساكنين فيه. من يقف أمام سخطه؟ ومن يقوم في حمو غضبه؟ غيظه ينسكب كالنار والصخور تنهدم منه" (ناحوم 1 : 3 — 6).

وهكذاُ فإن نينوى: "المدينة المبتهجة الساكنة مطمئنة القائلة في قلبها أنا وليس غيري" صارت خراباً "فراغ وخلاء وخراب" مأوى الأسود ومرعى أشبال [294] الأسود حيث يمشي الأسد واللبؤة وشبل الأسد وليس من يخوف" (صفنيا 2 : 15 ؛ ناحوم 2 : 10، 11).

إن صفنيا إذ نظر إلى الأمام إلى الوقت الذي فيه كانت ستذل كبرياء أشور، تنبأ عن نينوى قائلاً: "تربض في وسطها القطعان كل طوائف الحيوان. القوق أيضاً والقنفذ يأويان إلى تيجان عمدها. صوت ينعب في الكوى. خراب على الأعتاب لأنه قد تعرى أرزيها" (صفنيا 2 : 14).

لقد كان مجد مملكة أشور عظيماً، وكذلك كان سقوطها. وإذ استخدم النبي حزقيال شجرة الأرز العظيمة بمثابة تشبيه عن سقوط أشور بسبب كبريائها وقسوتها، أعلن قائلاً:

”هكذا قال السيد الرب .. جعل فرعه بين الغيوم وارتفع قلبه بعلوه. اسلمته إلى يد قوي الأمم فيفعل به فعلاً. لشره طردته. ويستأصله الغرباء عتاة الأمم ويتركونه فتتساقط قضبانه على الجبال وفي جميع الأودية وتتكسر قضبانه عند كل أنهار الأرض وينزل عن ظله كل شعوب الأرض ويتركونه. على هشيمه تستقر جميع طيور السماء وجميع حيوان البر تكون على قضبانه. لكيلا ترتفع شجرة ما وهي على المياه لقامتها...

”هكذا قال السيد الرب في يوم نزوله إلى الهاوية أقمت نوحاً .. وكل أشجار الحقل ذبلت عليه. من صوت سقوطه أرجفت الأمم“ (حزقيال 31 : 10 — 16).

يجب أن يكون كبرياء أشور وسقوطها درساً عملياً إلى انقضاء الدهر. إن الله يسأل أمم الأرض اليوم التي في غطرستها وكبريائها تصطف لمحاربته قائلاً: ”من [295] أشبهت في المجد والعظمة هكذا بين أشجار عدن؟ ستحدر مع أشجار عدن إلى الأرض السفلي“ (حزقيال 31 : 18).

”صالح هو الرب حصن في يوم الضيق وهو يعرف المتوكلين عليه. ولكنه بطوفان عابر يصنع هلاكاً تاماً“ (ناحوم 1 : 7، 8) على كل من يحاولون أن يمجدوا أنفسهم ويتعظموا على العلي.

”تخفض كبرياء أشور ويزول قضيب مصر“ (زكريا 10 : 11). وهذا يصدق ليس فقط على الأمم التي اصطفت لمحاربة الله في العصور الغابرة، بل يصدق أيضاً على الأمم التي تفشل في إتمام مقاصد الله في هذه الأيام. ففي يوم الدينونة الأخير عندما ”يغربل (الديان العادل) الأمم“ (إشعياء 30 : 28)، وعندما يسمح لمن حفظوا الحق بالدخول إلى مدينة الله، فستهتز قباب السماء بأغاني انتصار المفديين. وقد أعلن النبي قائلاً: ”تكون لكم أغنية كليلة تقديس عيد وفرح قلب كالسائر بالناي ليأتي إلى جبل الرب. ويسمع الرب جلال صوته .. من صوت الرب يرتاع أشور. بالقضيب يضرب. ويكون كل مرور عصا القضاء التي ينزلها الرب عليه بالدفوف والعيدان“ (إشعياء 30 : 29 — 32). [296]

الفصل الحادي والثلاثون ـــــرجاء للأمم

قدّم إشعياء مدى سني خدمته شهادة واضحة صريحة عن قصة الله نحو الأمم. وقد ذكر الأنبياء الآخرون تدبير الله إلا أن لغتهم لم تكن مفهومة دائماً. ولكن إشعياء هو الذي أعطي له أن يوضّح لشعب يهوذا هذه الحقيقة وهي أن كثيرين من شعب الله ممن لم يتناسلوا من إبراهيم حسب الجسد سيكونون بيت إسرائيل الروحي. لم يكن هذا التعليم متفقاً مع اللاهوت الذي كان سائداً في عصره، إلا أنه أذاع الرسالة المعطاة له من الله فجلبت الرجاء لكثير من القلوب التي كانت تتلهّف لنيل البركات الروحية الموعودة لنسل إبراهيم.

يوجّه رسول الأمم الانتباه إلى هذه الصفة المميزة في تعليم إشعياء، في رسالته إلى المؤمنين في رومية، فيعلن بولس الرسول قائلاً: "ثم إشعياء يتجاسر ويقول وجدت من الذين لم يطلبوني وصرت ظاهراً للذين لم يسألوا عني" (10 : 20).

كثيراً ما كان يبدو أن شعب الله لا يستطيع بل لم يكن يرغب أن يفهم قصد الله نحو الأمم ومع ذلك فإن هذا القصد ذاته هو الذي جعلهم شعباً منفصلاً معتزلاً. وهو الذي أقامهم كأمة مستقلة بين أمم الأرض. فإن أباهم إبراهيم الذي قُدّم إليه أولاً عهد الموعد دُعي ليخرج من عشيرته إلى الأقاليم البعيدة ليكون حامل مشعل النور للأمم. ومع أن الوعد المقدّم إليه اشتمل على نسل كثير كرمل [297] البحر، وكان مزمعاً أن يؤسس أمة عظيمة في أرض كنعان، إلا أن هذا كان لأغراض خالية من الأثرة. وشمل وعد الله كل أمم الأرض. فقد أعلن الرب قائلاً: "فأجعلك أمة عظيمة وأباركك وأعظّم اسمك. وتكون بركة. وأبارك مباركيك ولاعنك ألعنه. وتتبارك فيك جميع قبائل الأرض" (تكوين 12 : 2، 3).

وعند تجديد العهد قبل ولادة إسحق بقليل، توضح قصد الله للبشرية مرة أخرى. وهذا هو التأكيد الذي قدّمه الله بخصوص ابن الموعد إذ قال: "يتبارك به جميع قبائل الأرض" (تكوين 18 : 18). وبعد ذلك أعلن الزائر السماوي مرة أخرى قائلاً: "ويتبارك في نسلك جميع قبائل الأرض" (تكوين 22 : 18).

كانت الشروك الشاملة بهذا العهد مألوفة لدى نسل إبراهيم. فلكي يكون شعب الله بركة للأمم ولكي يُعرف اسم الله "في كل الأرض" (خروج 9 : 16) فقد تم إنقاذهم من عبودية مصر. فلو أطاعوا أوامره كانوا سيصيرون في مقدمة الشعوب في الحكمة والفهم، إلا أن هذا السمو وهذا التفوق كانوا سيبلغونه ويحتفظون به لغرض واحد وهو إتمام قصد الله نحو "كل أمم الأرض" عن طريقهم.

إن أعمال عناية الله العجيبة المرتبطة بنجاة شعبه من عبودية مصر، وبامتلاكهم لأرض الموعد قادت أمماً كثيرة للاعتراف بالله بوصفه الملك الأعلى. فقد ورد هذا الوعد يقول: "فيعرف المصريون أني أنا الرب حينما أمد يدي على مصر واخرج شعبي من بينهم" (خروج 7 : 5). وحتى فرعون المتكبر نفسه أجبر على الاعتراف بقدرة الرب .. فقد ألح على موسى وهارون قائلاً: "واذهبوا اعبدوا الرب .. وباركوني أيضاً" (خروج 12 : 31، 32). [298]

وقد وجدت جموع الشعب المتقدمة أن معرفة الأعمال والعجائب العظيمة التي أجراها الله قد سبقتهم

وأن بعض أفراد تلك الأمم المحيطة بهم بدأوا يعلمون أنه هو الإله الحقيقي وحده. ففي أريحا الشريرة شهدت امرأة أممية وثنية تقول: ”الرب إلهكم هو الله في السماء من فوق وعلى الأرض من تحت“ (يشوع 2 : 11). وإن معرفة الرب التي وصلتها برهنت على خلاصها. فالكاتب يقول: ”بالإيمان راحاب .. لم تهلك مع العصاة“ (عبرانيين 11 : 31). ولك يكن اهتداؤها هو الحالة الفريدة لرحمة الله نحو الوثنيين الذين اعترفوا بسلطانهم الإلهي. ففي وسط الأرض نبذ شعب غفير — الجبعونيون — وثنيّتهم وانضمّوا إلى شعب الله وقاسموهم بركات العهد.

لا يعترف الله بأي امتياز من ناحية القومية أو الجنس أو الطبقة الاجتماعية. فهو خالق الجنس البشري بأكمله وجميع الناس هم أسرة واحدة بالخلق، والجميع يكونون واحداُ بالفداء. لقد جاء المسيح ليقوّض كل سياج وليفتح كل قسم من أروقة الهيكل على سعته كي تتمكن كل نفس من المثول أمام الله بحرية. إن محبته رحبة جداً وعميقة جداً وكاملة بحيث تنفذ إلى كل مكان. فهي ترفع الذين أسرتهم خدع الشيطان، وتجعلهم في متناول عرش الله المحاط بقوس قزح الوعد. وفي المسيح لا يوجد يهودي ولا يوناني. لا عبد ولا حر.

ولكن في السنوات التي تلت احتلال الشعب لأرض الموعد غابت مقاصد الرب الخيّرة لخلاص الأمم، عن الأنظار إلى حد بعيد، فصار لزاماً على الله أن يكرر تدبيره من جديد. وقد أوحى إلى المرنم بأن يتغنى قائلاً: ”تذكر وترجع إلى الرب كل أقاصي الأرض وتسجد قدّامك كل قبائل الأمم“ ”يأتي شرفاء من مصر. كوش تسرع بيديها إلى الله“. ”وتخشى الأمم اسم الرب وكل ملوك الأرض [299] مجدك“. ”يكتب هذا للدور الآخر وشعب سوف يُخلق يسبح الرب، لأنه أشرف من علو قدسه الرب من السماء نظر ليسمع أنين الأسير ليُطلق بني الموت. لكي يحدث في صهيون باسم الرب وبتسبيحه في أورشليم عند اجتماع الشعوب معاً والممالك لعبادة الرب“ (مزمور 22 : 27 ؛ 68 : 31 ؛ 102 : 15، 18 — 20).

فلو كان شعب الله أميناً على وديعته المسلّمة له لاشتركت كل قبائل الأرض في بركاته. ولكن قلوب الذين سُلّمت إليهم معرفة الحق الخلاصي لم تتأثر باحتياجات من كانوا حولهم. فإذ غاب قصد الله عن الأنظار. تطلّعوا إلى الأمم بوصفهم بعيدين عن حظيرة رحمته. لقد حُجب نور الحق، فساد الظلام. وغطّى الأمم حجاب الجهل، فلم يعفوا عن محبة الله إلا النزر اليسير وتفشّت الخرافات.

كان هذا هو المشهد الذي وقعت عليه عينا إشعياء عندما دُعي لخدمة النبوة، ومع ذلك لم يخف ولم يفشل لأن أغنية النصرة التي كان يتغنى لها الملائكة المحيطون بالعرش كانت ترن في أذنيه قائلة: ”مجده ملء كل الأرض“ (إشعياء 6 : 3). وقد تشدّد إيمانه برؤى الانتصارات المجيدة التي كانت ستحرزها كنيسة الله عندما ”الأرض تمتلئ من معرفة الرب كما تغطّي المياه البحر“ (إشعياء 11 : 9). و ”النقاب الذي على كل الشعوب والغطاء المغطى به على كل الأمم“ (إشعياء 25 : 7) كان سيتلاشى أخيراً. وكان روح الله مزمعاً أن ينسكب على كل البشر. والذين يجوعون ويعطشون إلى البر كانوا سيحسبون ضمن شعب الله (إسرائيل الروحي). ”فينبتون بين العشب مثل الصفصاف على مجاري المياه“. هذا ما قاله النبي، كما قال أيضاُ: ”هذا يقول أنا للرب وهكذا يُكنّي باسم يعقوب وهذا يكتب بيده للرب وباسم (شعب الله) يلقب“ (إشعياء 44 : 4، 5). [300]

وقد أعلن للنبي قصد الله الخيّر من تشتيت شعب يهوذا القساة القلوب وعير التائبين بين أمم الأرض. وأعلن الرب قائلاً: ”لذلك يعرف شعبي اسمي، لذلك في ذلك اليوم يعرفون إني أنا هو المتكلّم. هأنذا“ (إشعياء 52 : 6). ولم يكونوا ليتعلّموا هم أنفسهم درس الطاعة والثقة وحسب، بل كان عليهم وهم في أرض سبيهم أن ينشروا بين الناس معرفة الإله الحي. وكثيرون من بني الغرباء كانوا سيتعلّمون أن يحبوه بوصفه خالقهم وفاديهم، وكان عليهم أن يبدأوا بحفظ سبته المقدّس تذكاراً لقدرته الخالقة، وعندما ”يشمر الرب عن ذراع قدسه أمام عيون كل الأمم“ لينقذ شعبه من السبي ترى كل أطراف الأرض خلاص إلهنا“ (إشعياء 52 : 10). وكثيرون من هؤلاء المهتدين من الوثنية سيتوقون للاتحاد مع شعب الله اتَّحادا تاماً

ويصحبوهم في عودتهم إلى اليهودية. ولن يقول أي واحد من هؤلاء: "إفرازاً أفرزني الرب من شعبه" (إشعياء 56 : 3). فكانت كلمة الرب عن طريق نبيّه الموجهّة للذين عليهم إخضاع ذواتهم له وحفظ شريعته، هي أنّهم من ذلك الحين فصاعداً سيعدّون من ضمن إسرائيل الروحي — كنيسته التي على الأرض.

"وأبناء الغريب الذين يقترنون بالرب ليخدموه وليحبوا اسم الرب ليكونوا له عبيداً كل الذين يحفظون السبت لئلا ينجسوه ويتمسكون بعهدي آتي بهم إلى جبل قدسي وأفرّحهم في بيت صلاتي. وتكون محرقاتهم وذبائحهم مقبولة على مذبحي لأن بيتي بيت الصلاة يدعى لكل الشعوب يقول السيد الرب جامع منفيي (شعبه)، اجمع بعد إليه مجموعيه" (إشعياء 56 : 7 — 8).

وقد سمح للنبي أن ينظر عبر الأجيال إلى وقت مجيء المسيّا الموعود به. ففي بادئ الأمر رأى فقط: "شدة وظلمة قتام الضيق" (إشعياء 8 : 22). إن [301] كثيرين ممن ظلوا مشتاقين طويلاً إلى نور الحق أضلّهم المعلمون الكذبة في متاهات الفلسفة ومخاطبة الأرواح، وآخرون وضعوا ثقتهم في التقوى ولكنّهم لم يمارسوا القداسة الحقة في حياتهم العملية. لقد بدا المستقبل بلا رجاء، ولكن سرعان ما تغير المشهد وانكشفت لعيني النبي رؤيا عجيبة. فقد رأى (يسوع) — شمس البر يشرق والشفاء في أجنحته، وإذ كان مستغرقاً في ذهوله هتف قائلاً: "ولكن لا يكون ظلام للتي عليها ضيق. كما أهان الزمان الأول أرض زبولون وأرض نفتالي يكرم الأخير طريق البحر عبر الأردن جليل الأمم الشعب السالك في الظلمة أبصر نوراً عظيماً. الجالسون في أرض ظلال الموت أشرق عليهم نور" (إشعياء 9 : 1، 2).

إن يسوع — نور العالم المجيد هذا، كان مزمعاً أن يأتي بالخلاص لكل أمة وقبيلة ولسان شعب. أما عن العمل الذي كان أمامه فقد سمع النبي، الآب الأبدي يصرح قائلاً: "قليل أن تكون لي عبداً الإقامة أسباط يعقوب ورد محفوظي إسرائيل. فقد جعلتك نوراً للأمم لتكون خلاصي إلى أقصى الأرض". "في وقت القبول استجبتك وفي يوم الخلاص أعنتك. فأحفظك وأجعلك عهداً للشعب لإقامة الأرض لتمليك أملاك البراري قائلاً للأسرى اخرجوا. للذين في الظلام اظهروا". "هؤلاء من بعيد يأتون وهؤلاء من الشمال ومن الغرب وهؤلاء من أرض سينيم" (إشعياء 49 : 6، 8، 9، 12).

وإذ تطلّع النبي إلى أبعد من ذلك عبر الأجيال المقبلة رأى الإتمام الحرفي لهذه المواعيد المجيدة. فقد رأى حاملي بشرى الخلاص وهم يذهبون إلى أقاصي الأرض إلى كل قبيلة وشعب. وقد سمع الرب يتكلّم عن الكنيسة في عهد الإنجيل قائلاً: "هأنذا أدير عليها سلاماً كنهر ومجد الأمم كسيل جارف" [302] (إشعياء 66 : 12)، وسمع هذا الأمر: "أوسعي مكان خيمتك، ولتبسط شقق مساكنك. لا تمسكي. أطيلي أطنابك وشددي أوتادك لأنك تمتدين إلى اليمين وإلى اليسار ويرث نسلك أمماً" (إشعياء 54 : 2، 3).

وقد أعلن الرب للنبي بأنه سيرسل شهوده: "إلى الأمم، إلى ترشيس وفول لود .. إلى توبال وياوان، إلى الجزائر البعيدة" (إشعياء 66 : 19).

"ما أجمل على الجبال قدمي المبشّر المُخبر بالسلام المبشّر بالخير المُخبر بالخلاص القائل لصهيون قد ملك إلهك" (إشعياء 52 : 7).

وقد سمع النبي صوت الله يدعو كنيسته للعمل المعيّن لها لإعداد الطريق لمجيء ملكوته الأبدي. وقد كانت الرسالة واضحة وضوحاً تاماً. وهي تقول: "قومي استنيري لأنه قد جاء نورك ومجد الرب أشرق عليك لأنه هوذا الظلمة تغطي الأرض والظلام الدامس الأمم، أما عليك فيشرق الرب ومجده عليك يرى، فتسير الأمم في نورك والملوك في ضياء إشراقك.

"ارفعي عينيك حواليك وانظري، قد اجتمعوا كلّهم جاءوا إليك .. يأتي بنوك من بعيد وتحمل بناتك على الأيدي .. وبنو الغريب يبنون أسوارك وملوكهم يخدمونك لأني بغضبي ضربتك وبرضواني رحمتك.

وتنفتح أبوابك دائماً نهاراً وليلاً لا تغلق ليؤتي إليك بغنى الأمم وتقاد ملوكهم".

"إلتفوا إليّ واخلصوا يا جميع أقاصي الأرض لأني أنا الله وليس آخر" (إشعياء 60 : 1 — 4، 10، 11 ؛ 45 : 22).

هذه النبوات التي تتبئ عن انتعاش روحي عظيم في وقت تسود فيه الظلمة الداجية، تتم في أيامنا هذه في تقدّم فروع المراكز المرسلية التي تصل إلى [303] الأقاليم البعيدة المكتنفة بالظلام. وقد شبّه النبي المرسلين في الأراضي الوثنية بأعلام مرفوعة لإرشاد الباحثين عن نور الحق.

يقول إشعياء: "ويكون في ذلك اليوم أن أصل يسّى القائم راية للشعوب إياه تطلب الأمم ويكون محلّه مجداً. ويكون ذلك اليوم أن السيّد يعيد يده ثانية ليقتني بقيّة شعبه .. ويرفع راية الأمم ويجمع منفيي شعبه ويضمّ مشتتي يهوذا من أربعة أطراف الأرض" (إشعياء 11 : 10 — 12). إن يوم النجاة قريب: "لأن عيني الرب تجولان في كل الأرض ليتشدد مع الذين قلوبهم كاملة نحوك" (2 أخبار الأيام 16 : 9). فبين كل الأمم والقبائل والألسنة يرى الرجال والنساء الذين يصلّون في طلب النور والمعرفة. إن نفوسهم لم تشبع، فلقد اقتاتت طويلاً على الرماد (انظر إشعياء 44 : 20). لقد ألقى بهم عدو كل بر جانباً وهم يلتمسون طريقهم كالعميان. ولكنهم أمناء القلوب وهم يتوقون إلى طريق أفضل. ومع أنهم يتخبطون في أغوار الوثنية ولا يعرفون شيئاً عن الشريعة الإلهية المكتوبة وعن ابن الله يسوع المسيح، فقد أظهروا بطرق كثيرة فاعلية قوة الله في أذهانهم وصفاتهم.

ويكون في بعض الأحيان أولئك الذين ليست لديهم معرفة الله، فيما عدا ما قد حصلوا عليه بتأثير عمل النعمة الإلهية، مشفقين على خدّامه وهم يحافظون عليهم مخاطرين في ذلك بحياتهم. إن الروح القدس يغرس نعمة المسيح في قلوب كثيرين من طالبي الحق الشرفاء، فيأتي النشاط في عواطفهم ومشاعرهم على عكس طبيعتهم وعلى عكس تهذيبهم السابق، "إن النور الذي ينير كل إنسان آتياً إلى العالم" (يوحنا 1 : 9). يشرق في نفوسهم. فلو اهتموا بهذا النور وحرصوا عليه فسيقود أقدامهم إلى ملكوت الله. لقد قال ميخا النبي: "إذا [304] جلست في الظلمة فالرب نور لي .. سيخرجني إلى النور سأنظره بره" (ميخا 7 : 8، 9).

إن تدبير السماء للخلاص رحب بحيث يحتضن كل العالم. والله يتوق لأن ينفخ في البشرية الساقطة نسمة الحياة. ولن يسمح بخذلان أية نفس مخلصة في شوقها إلى ما هو أسمى وأشرف من كل ما يقدّمه العالم، فهو على الدوام يبعث بملائكته إلى الذين بالرغم من أنهم محاطون بظروف مفشّلة جداً فهم يصلون بإيمان في طلب قوة أسمى منهم لتمتلكهم وتأتيهم بالنجاة والسلام. والله يعلن نفسه لهم بطرق مختلفة ويجعلهم على اتّصال بظروف معينة تثبت ثقتهم في ذلك الذي قدّم نفسه فدية عن الجميع "فيجعلون على الله اعتمادهم ولا ينسون أعمال الله بل يحفظون وصاياه" (مزمور 78 : 7).

هل تسلب من الجبار غنيمة وهل يفلت سبي المنصور؟" "هكذا قال الرب حتى سبي الجبار يسلب وغنيمة العاتي تُفلت" (إشعياء 49 : 24، 25) "يُخزى خزياً المتكلمون على المنحوتات القائلون للمسبوكات أنهن آلهتنا" (إشعياء 42 : 17).

"طوبى لمن إله يعقوب معينه ورجاؤه على الرب إلهه" (مزمور 146 : 5). "ارجعوا إلى الحصن يا أسرى الرجاء" (زكريا 9 : 12). فلكل أمناء القلوب في البلدان الوثنية "المستقيمين" في نظر السماء "وأسيّر العمي في طريق لم يعرفوها، في مسالك لم يدروها أمشيهم. أجعل الظلمة أمامهم نوراً، والمعوجات مستقيمة. هذه الأمور أفعلها ولا أتركهم" (إشعياء 42 : 16). [305]

الباب الرابع ـــ العقاب القومي

[306]

”أؤدّبك بالحق ولا أبرّئك تبرئة“

(إرميا 30 : 11) [307]

الفصل الثاني والثلاثون — منسى ويوشيا

إن مملكة يهوذا التي كانت ناجحة، مزدهرة في إبان حكم حزقيا انحطّت مرة أخرى أيام سني حكم منسى الشرير الطويلة عندما انتعشت الوثنية وضلّ كثيرون من الشعب في مجاهل عبادة الأوثان: ”ولكن منسى أضلّ يهوذا وسكان أورشليم ليعملوا أشر من الأمم“ (2 أخبار الأيام 33 : 9). فالنور المجيد الذي أشرق في الأجيال الغابرة تبعه ظلام الخرافات والضلال. وظهرت شرور شنيعة وترعرعت — كالاستبداد والظلم وكراهية كل ما هو صالح وتحريف العدل وتفشي الظلم.

ومع ذلك فإن تلك الأوقات الشريرة لم تعدم شهوداً لله وللحق. فالاختبارات الصعبة القاسية التي اجتازها شعب يهوذا في أثناء حكم حزقيا ولدت في قلوب الكثيرين صلابة في الخلق كانت كفيلة بأن تكون سدًّا منيعاً لصد تيار الإثم المتفشي. إلا أن شهادتهم للحق والبر أثارت غضب منسى وزملائه المتسلّطين الذين حاولوا تثبيت أنفسهم في عمل الشر بإسكات كل أصوات التوبيخ الموجّهة إليهم: ”وسفك أيضاً منسى دماً بريئاً كثيراً جداً حتى ملأ أورشليم من الجانب إلى الجانب“ (2 ملوك 21 : 16).

كان إشعياء النبي أول من سقط ضحية النظام الجديد، ذلك الذي وقف أمام شعب يهوذا بوصفه الرسول المعيّن من الرب مدة تزيد عن نصف قرن: ”وآخرون تجرّبوا في هزء وجلد ثم في قيود أيضاً وحبس. رُجموا، نُشروا، جُرّبوا، ماتوا قتلاً [308] بالسيف، طافوا في جلود غنم وجلود معزى معتازين مكروبين مذلّين وهم لم يكن العالم مستحقاً لهم. تائهين في براري وجبال مغاير وشقوق الأرض“ (عبرانيين 11 : 36 — 38).

إن بعض من ذاقوا آلام الإضطهاد في أثناء حكم منسى كانوا قد أرسلوا حاملين رسائل توبيخ ودينونة خاصة. وقد أعلن الأنبياء قائلين: ”إن ملك يهوذا أساء أكثر من جميع .. الذين قبله“. فبسبب هذا الشر كانت مملكته مقبلة على أزمة، فبعد قليل كان سكان البلاد سيسبون إلى بابل ليكونوا ”غنيمة ونهباً لجميع أعدائهم“ (2 ملوك 21 : 11، 14). ولكن الرب لم يُرد أن يتخلّى نهائياً عن الذين اعترفوا به في أرض غريبة، بوصفه مليكهم قد يصادفون ضيقات عظيمة، ولكنه سيأتيهم بالنجاة في الوقت المناسب وبطريقته التي عينها. فالذين يضعون فيه ثقتهم المطلقة سيجدون به ملجأ أميناً.

وواصل الأنبياء تقديم إنذاراتهم وتعاليمهم وتحذيراتهم بأمانة. وكلّموا منسى بكل شجاعة وباقي شعبه، ولكن تلك الرسائل احتُقرت ولم يعد شعب يهوذا المرتد يكترث لشيء. وقد سمح الرب لفرقة من جيش أشور بالقبض على ملكهم للدلالة على ما سيحل بهم فيما لو ظلّوا سائرين في قساوة قلوبهم، ثم ”قيدوه بسلاسل نحاس وذهبوا به إلى بابل“ عاصمتهم المؤقتة، وقد أعادت هذه البلية الملك إلى صوابه: و ”طلب وجه الرب إلهه وتواضع جداً أمام إله آبائه. وصلّى إليه فاستجاب له وسمع تضرعه ورده إلى أورشليم إلى مملكته. فعلم منسى أن الرب هو الله“ (2 أخبار الأيام 33 : 11 — 13). إلا أن هذه التوبة مع كونها عظيمة ومقبولة جاءت متأخرة جداً بحيث لم يكن ممكناً إنقاذ المملكة من المؤثرات [309] الوثنية الفاسدة على مدى سنوات. فلقد تعثّر كثيرون وسقطوا ولم يستطيعوا القيام أبداً بعد ذلك.

من بين الذين تشكّلت اختبارات حياتهم إلى حد اللاعودة، بسبب الارتداد المميت لمنسى، كان ابنه، الذي اعتلى العرش في الثانية والعشرين من عمره. ويقول السفر المقدس عن الملك آمون ما يلي: "وسلك في كل الطريق الذي سلك فيه أبوه وعبد الأصنام التي عبدها أبوه بل ازداد آمون إثماً". ولم يُسمح للملك الشرير أن يملك طويلاً، ففي غمرة عدم تقواه وعناده قتله عبيده في القصر ولم يكن قد مضى على اعتلائه العرش أكثر من عامين "وملّك شعب الأرض يوشيّا ابنه عوضاً عنه" (2 أخبار الأيام 33 : 23، 25).

فإذ اعتلى يوشيّا العرش ملك احدى وثلاثين سنة، وبدأ الذين ظلّوا محتفظين بنقاوة إيمانهم يؤمّلون أن تتوقف المملكة عن سلوك طريق الانحدار الشائن الذي بدأت تتجه نحوه. لأن الملك الجديد مع أنه كان حدثاً لا تزيد سنّه عن ثماني سنوات فكان يتّقي الله. ومن بدء سني حكمه: "عمل المستقيم في عيني الرب وسار في جميع طريق داود أبيه ولم يحد يميناً ولا شمالاً" (2 ملوك 22 : 2). إن يوشيّا مع كونه ابناً لملك شرير ومكتنفاً بتجارب تقوده للسير في أثر خطوات أبيه، ولم يكن يجد غير قليل من المشيرين لتشجيعه على السير في طريق الحق، فإنه مع ذلك كان أميناً لله. فإذ كانت أخطاء الأجيال الماضية عبرة له اختار أن يصنع الحق بدلاً من طريق الخطيئة. والسقوط الذي تردى فيه أبوه وجده: "لم يحد يميناً ولا شمالاً. وكمن يشغل مركزاً ذا مسؤولية عقد العزم على إطاعة الأوامر والتعليمات المعطاة لملوك إسرائيل لإرشادهم. بحيث أمكن الله أن يستخدمه إناء للكرامة بسبب طاعته. [310]

عندما بدأ يوشيا بتولى شؤون المُلك، وحتى قبل ذلك بسنوات عديدة، جعل الأمناء القلوب في يهوذا يتساءلون عما إذا كانت مواعيد الله لشعبه يمكن إتمامها أم لا. فمن وجهة النظر البشرية كان يبدو أن قصد الله نحو الأمة المختارة أمراً يستحيل إتمامه. ذلك أن الارتداد الذي حدث في القرون السالفة زاد قوة بمرور الأعوام، وكان عشرة من الأسباط قد تشتتوا بين الأمم، ولم يبقى غير سبطي يهوذا وبنيامين، وحتى هذان السبطان بدا كأنهما على شفا الدمار الأدبي والقومي. كان الأنبياء قد بدأوا بالتنبؤ عن الخراب التام الذي سيحلّ بمدينتهم الجميلة التي كان الهيكل مقاماً فيها، الذي بناه الملك سليمان، حيث كانت كلّ آمالهم في العظمة القومية مركّزة عليها. فهل يمكن أن يتخلى الله عن قصده بالخلاص والنجاة للذين يضعون ثقتهم به؟ وهل يمكن مواجهة الاضطهاد الطويل الأمد المحيق بالأبرار ونجاح الأشرار الظاهري؟ وهل يرجو الذين ظلّوا أمناء لله أن يشاهدوا أياماً أفضل؟

وقد جاهر بهذه الاستفسارات القلقة حبقوق النبي. حين شاهد موقف الأمناء في أيامه. فقد عبر عن العبء الذي أثقل قلبه بهذا السؤال: "حتى متى يا رب أدعو وأنت لا تسمع، أصرخ إليك من الظلم وأنت لا تخلّص، لم تريني إثماً وتبصر جوراً، وقدامي اغتصاب وظلم ويحدث خصام وترفع المخاصمة نفسها. لذلك جمدت الشريعة ولا يخرج الحكم بتة لأن الشرير يحيط بالصديق فلذلك يخرج الحكم معوجاً" (حبقوق 1 : 2 — 4).

وقد أجاب الله صرخة أولاده المخلصين. فبواسطة كليمه المختار أعلن عن عزمه بإيقاع التأديب على الأمة التي ارتدّت عنه لتعبد آلهة أخرى. ففي زمن حياة بعض من كانوا يسألون حينئذ عن المستقبل، كان الله سيوجّه شؤون الدول [311] الحاكمة في الأرض بكيفية معجزية، ويرفع البابليين إلى ذرى السيادة والسلطان. والكلدانيون الذين قيل عن أمّتهم "هائلة ومخوفة" (حبقوق 1 : 7). كانوا سيقتحمون فجأة أرض يهوذا كسوط موجّه من الله. فرؤساء يهوذا وأبرع الناس جمالاً كانوا سيُسبون إلى بابل. والمدن والقرى اليهودية والحقول المزروعة كانت ستُخرّب ولا يبقى منها شيء.

إذ كان حبقوق واثقاً من أن قصد الله سيتم بكيفية ما حتى في هذا الحكم الرهيب، فقد انحنى خضوعاً لإرادة الله المعلنة. فصرخ يقول: "ألست أنت منذ الأزل يا رب إلهي قدوسي؟" وحينئذ تخطى إيمانه مشهد المستقبل القريب وإذ تمسك بالمواعيد الثمينة التي تعلن محبة الله لأولاده الواثقين، أضاف قائلاً: "لا نموت" (حبقوق 1 : 12). فبإعلان الإيمان هذا وضع قضيته كل مؤمن بين يديّ الله الرحيم.

لم يكن هذا هو اختيار حبقوق الوحيد في ممارسة الإيمان القوي. فذات مرة إذ كان يتأمل في المستقبل قال: ”على مرصدي أقف وعلى الحصن انتصب وأراقب لأرى ماذا يقول لي“. وقد أجابه الرب في رحمته قائلاً: ”أكتب الرؤيا وانقشها على الألواح لكي يركض قارئها لأن الرؤيا بعد إلى الميعاد. وفي النهاية تتكلّم ولا تكذب. أن توانت فانتظرها لأنها ستأتي إتياناً ولا تتأخر. هوذا منتفخة غير مستقيمة نفسه والبار بإيمانه يحيا“ (حبقوق 2 : 1 — 4).

إن الإيمان الذي شدّد حبقوق وكافّة القديسين والأبرار في أيام تلك التجربة القاسية هو الإيمان ذاته الذي يسند شعب الله اليوم. ففي أشد الساعات حلوكة وفي أسوأ الظروف يمكن للمسيحي المؤمن أن يحفظ نفسه بثبات بالرب نبع كل نور وقوة. ويوماً بعد يوم يمكن ان يتجدّد إيمانه وشجاعته بواسطة الإيمان بالله: ”البار بإيمانه يحيا“. ففي خدمة الله لا داعي لليأس والتردد والخوف. فالرب سيتمم بل سيحقق إسمى توقّعات من يتّكلون عليه وسيمنحهم الحكمة التي تتطلبها احتياجاتهم المتنوعة. [312]

يشهد بولس الرسول شهادة فصيحة للمؤن السخيّة المعدّة لكل نفس مجربة. فلقد أعطي له التأكيد الإلهي القائل: ”تكفيك نعمتي لأن قوتي في الضعف تكمل“. فبشكر وثقة أجاب خادم الله المجرب قائلاً: ”بكل سرور افتخر بالحري في ضعفاتي لكي تحل على قوة المسيح لذلك أسر بالضعفات والشتائم والضرورات والاضطهادات والضيقات لأجل المسيح لأني حينما أنا ضعيف فحينئذ أنا قوي“ (2 كورنثوس 12 : 9، 10).

علينا أنا نعزّز ونوطد الإيمان الذي شهد عنه الأنبياء والرسل — الإيمان الذي يتمسك بمواعيد الله وينتظر منه النجاة والخلاص في وقته المعين وبطريقته الخاصة. إن كلمة النبوة الثابتة ستتم نهائياً عند مجيء ربنا ومخلّصنا يسوع المسيح في مجده، كملك الملوك ورب الأرباب. فقد يبدو وقت الانتظار طويلاً وقد تتضايق النفس بسبب الظروف المثبطة، وكثيرون ممن كان يوثق بهم قد يسقطون على قارعة الطريق، ولكن علينا أن نتمثّل بالنبي الذي حاول أن يشدّد عزائم شعب يهوذا في فترة من أقسى فترات الارتداد ونعلن قائلين: ”أما الرب ففي هيكل قدسه. فاسكتي قدّامه يا كل الأرض“ (حبقوق 2 : 20). ولنذكر أبداً الرسالة المفرحة القائلة: ”لأن الرؤيا بعد إلى الميعاد وفي النهاية تتكلّم ولا تكذب. إن توانت فانتظرها أنها ستأتي إتياناً ولا تتأخر .. البار بإيمانه يحيا“ (حبقوق 2 : 3، 4). [313]

”يا رب عملك في وسط السنين أحيه. في وسط السنين عرّف. في الغضب أذكر الرحمة. الله جاء من تيمان والقدوس من جبل فاران. جلاله غطّى السموات والأرض امتلأت من تسبيحه. وكان لمعان كالنور. له من يده شعاع وهناك استتار قدرته. قدامه ذهب الوبأ وعند رجليه خرجت الحمى. وقف وقاس الأرض. نظر فرجفت الأمم ودكت الجبال الدهرية وخسفت آكام القدم. مسالك الأزل له“.

”خرجت لخلاص شعبك لخلاص مسيحك“.

”فمع أنه لا يهزر التين ولا يكون حمل في الكروم. يكذب عمل الزيتونة والحقول لا تصنع تماماً. ينقطع الغنم من الحظيرة ولا بقر في المذاود فإني أبتهج بالرب وأفرح بإله خلاصي. الرب السيد قوتي“ (حبقوق 3 : 2 — 6، 13، 17 — 19).

ولم يكن حبقوق هو الشخص الوحيد الذي حمل رسالة الرجاء المشرقة والنصرة العتيدة وكذلك القضاء الراهن. ففي إبّان حكم يوشيّا جاءت كلمة الرب إلى صفنيا التي عدّدت وحدّدت بكل وضوح عواقب الارتداد الطويل الأمد، وقد استرعت انتباه الكنيسة الأمينة إلى الرجاء المجيد الذي ينتظرها. وأن نبواته عن الدينونة المحيقة بيهوذا تنطبق بقوة متكافئة على الأحكام التي ستنصب على العالم غير التائب عندما يجيئ المسيح ثانية. يقول النبي صفنيا: ”قريب يوم الرب العظيم قريب وسريع جداً. صوت يوم الرب. يصرخ حينئذ الجبار مرأ. ذلك اليوم يوم سخط يوم ضيق وشدة يوم خراب ودمار يوم ظلام وقتام

يوم سحاب وضباب. يوم بوق وهتاف على المدن الحصينة وعلى الشرف الرفيعة“ (صفنيا 1 : 14 — 16). [314]

وقد استطرد يقول: ”وأضايق الناس فيمشون كالعمي لأنهم أخطأوا إلى الرب فيفسح دمهم كالتراب ولحمهم كالجلة. لا فضّتهم ولا ذهبهم يستطيع إنقاذهم في يوم غضب الرب بل بنار غيرته تؤكل الأرض كلّها. لأنه يصنع فناء باغتاً لكل سكان الأرض“ (صفنيا 1 : 17، 18).

”تجمعي واجتمعي يا أيتها الأمة غير المستحية. قبل ولادة القضاء. كالعصافة عبر اليوم. قبل أنا يأتي عليكم حمو غضب الرب قبل أن يأتي عليكم سخط الرب.

”اطلبوا الرب يا جميع بائسي الأرض الذين فعلوا حكمه. اطلبوا البر. اطلبوا التواضع. لعلّكم تسترون في يوم سخط الرب“ (صفنيا 2 : 1 — 3).

”هأنذا في ذلك اليوم أعامل كل مذلّليك. وأخلّص الظالعة وأجمع المنفيّة وأجعلهم تسبيحة واسماً في كل أرض خزيهم. في الوقت الذي فيه آتي بكم وفي وقت جمعي إياكم. لأني أصيركم اسماً وتسبيحة في شعوب الأرض كلّها حين أرد مسبييكم قدّام أعينكم قال الرب“ (صفنيا 3 : 19، 20).

”ترنمي يا ابنة صهيون اهتف يا إسرائيل افرحي وابتهجي بكل قلبك يا ابنة أورشليم قد نزع الرب الأقضية عليك أزال عدوك. ملك إسرائيل الرب في وسطك. لا تنظرين بعد شراً“.

”في ذلك اليوم يقال لأورشليم لا تخافي يا صهيون لا ترتخ يداك. الرب إلهك في وسطك جبار يخلّص. يبتهج بك فرحاً. يسكت في محبّته. يبتهج بك بترنم“ (صفنيا 3 : 14 — 17). [315]

الفصل الثالث والثلاثون ــــــسفر الشريعة

إن المؤشرات الصامتة والقوية في ذات الوقت التي كانت تعمل عن طريق رسائل الأنبياء فيما يختص بالسبي البابلي عملت كثيراً لإعداد الطريق لإصلاح حدث في السنة الثامنة عشرة من ملك يوشيّا. فحركة الإصلاح هذه التي كانت عاملاً من عوامل تجنيب الأمة وقوع الدينونة والأحكام الإلهية إلى حين، حدثت بكيفية غير منتظرة بواسطة اكتشاف ودراسة جزء من الأسفار المقدّسة، ظلّ لسنوات عديدة تتناوله يد الضياع والإهمال.

وقبل ذلك بما يقارب مئة عام، عند ممارسة الفصح لأول مرة بواسطة حزقيا، عمل تدبير بأن يُقرأ جهاراً من سفر الشريعة كل يوم في مسامع الشعب بواسطة الكهنة المعلّمين. فممارسة الفرائض التي كتبها موسى وعلى الخصوص تلك المعطاة في كتاب العهد الذي كوّن جزءاً من سفر التثنية، هو الذي جعل حكم حزقيا ناجحاً. ولكن منسى تجرأ على إلقاء هذه القوانين جانباً. وفي غضون سني ملكه ضاعت نسخة الهيكل من سفر الشريعة بسبب الإهمال واللامبالاة. وهكذا ظلّ الشعب لسنوات طويلة محروماً بصفة عامة من التعاليم المدوّنة فيه.

وقد وجد حلقيا رئيس الكهنة السفر الذي ظلّ ضائعاً أمداً طويلاً، عندما كانت تُجرى في الهيكل إصلاحات وترميمات واسعة النطاق تمشيًّا مع خطّة الملك يوشيا لحفظ ذلك البيت المقدّس. وقد سلّم رئيس الكهنة السفر الثمين إلى [316] شافان الكاتب المتعلّم الذي قرأه ثمّ أخذه إلى الملك وأخبره عن كيفية العثور عليه.

وقد تأثر يوشيّا تأثراً عميقاً عندما سمع لأول مرة الإنذارات والتحذيرات المسجّلة في هذا السفر القديم وهي تُقرأ على مسامعه. لم يسبق له أن تحقق تماماً من الوضوح الذي به وضع الله أمام شعبه " الحياة والموت. البركة واللعنة" (تثنية 30 : 19). وكيف ألحّ الرب عليهم مراراً عديدة كي يختاروا طريق الحياة ليصيروا تسبيحة في الأرض وبركة لكل الأمم. وقد أوصى موسى الشعب قائلاً: "تشدّدوا وتشجعوا لا تخفوا ولا ترهبوا لأن الرب إلهك سائر معك لا يهملك ولا يتركك" (تثنية 31 : 6).

وقد توافرت في السفر تأكيدات الله بأنه يريد أن يخلّص إلى التمام كل من يثقون فيه ثقة كاملة. فكما أعطاهم النجاة من عبودية مصر كذلك كان سيعمل بقوة على توطينهم في أرض الموعد وترسيخ أقدامهم فيها، وجعلهم في رأس أمم الأرض.

وقد رافقت رسائل التشجيع المقدّمة جزاء للطاعة. نبوّات عن أحكام ستحلّ بالعصاة. فعندما سمع الملك تلك الأقوال المُوحى بها لاحظ في الصورة المعروضة أمامه حالات شبيهة بتلك الموجودة في مملكته. لقد أفزعت هذه الصورة النبوية الملك إذ وجد تصريحات واضحة تدلّ على أن يوم البلية قادم سريعاً، وأن لا علاج لتلك الحالة. كان الكلام واضحاً لا التباس فيه. وفي ختام السفر توضّحت الأمور أكثر من مرة في معاملات الله مع شعبه في تلاوة حوادث المستقبل. وكان موسى قد أعلن في مسامع الشعب قائلاً: [317]

”انصتي أيتها السموات فأتكلم ولتسمع الأرض أقوال فمي. يهطل كالمطر تعليمي ويقطر كالندى كلامي. كالطلّ على الكلاء وكالوابل على العشب. إني باسم الرب أنادي أعطوا عظمة إلهنا. هو الصخر الكامل صنيعه. إن جميع سبله عدل. إله أمانة لا جور فيه صديق وعادل هو“ (تثنية 32 : 1 — 4).

”اذكر أيام القدم وتأملوا سني دور فدور. إسأل أباك فيخبرك وشيوخك فيقولوا لك. حين قسم العلي للأمم حين فرق بني آدم نصب تخوماً لشعوب حسب عدد بني إسرائيل. إن قسم الرب هو شعبه. يعقوب حبل نصيبه. وجده في أرض قفر وفي خلاء مستوحش خرب. أحاط به ولاحظه وصانه كحدقة عينه“ (تثنية 32 : 7 — 10)

ولكن إسرائيل ”رفض الإله الذي عمله وغبي عن صخرة خلاصه. أغاروه بالأجانب وأغاظوه بالأرجاس. ذبحوا لأوثان ليست الله. لآلهة لم يعفوها أحداث قد جاءت من قريب لم يرهبها آباؤكم. الصخر الذي ولدك تركته ونسيت الله الذي أبدأك“.

”فرأى الرب ورذل من الغيظ بنيه وبناته. وقال احجب وجهي عنهم وانظر ماذا تكون آخرتهم. إنهم جيل متقلب أولاد لا أمانة فيهم. هم أغاروني بما ليس إلهاً. أغاظوني بأباطيلهم. فأنا أغيرهم بما ليس شعباً. بأمة غبية أغيظهم“.

”اجمع عليهم شروراً وانفذ سهامي فيهم. إذ هم خاوون من جوع ومنهكون من حمى وداء سام“ [318]

”إنهم أمة عديمة الرأي ولا بصيرة فيهم. لو علّقوا لفطنوا بهذه وتأملوا آخرتهم. كيف طرد واحد ألفاً ويهزم اثنان ربوة لولا أن صخرهم باعهم والرب سلمهم. لأنه ليس كصخرنا صخرهم ولو كان اعداؤنا القضاة“.

”أليس ذلك مكنوزاً عندي مختوماً عليه في خزائني؟ لي النقمة والجزاء. في وقت تزلّ أقدامهم. أن يوم هلاكهم قريب والمهيآت لهم مسرعة“ (تثنية 32 : 15 — 21، 23، 24، 28 — 31، 34، 35).

فهذه الأقوال وأمثالها كشفت ليوشيّا عن محبة الله لشعبه وكراهته للخطيئة. فإذ قرأ الملك النبوات عن الدينونة السريعة التي ستحلّ بالذين يصرّون على العصيان ارتعب خوفاً مما سيأتي به المستقبل. كان ضلال شعب يهوذا وزيغانهم عظيماً، فماذا تكون مغبّة ارتدادهم الطويل الأمد؟

لم يكن الملك في السنين السالفة عديم الاكتراث للوثنية المتفشيّة: ”وفي السنة الثامنة من ملكه إذ كان بعد فتى“ كرّس نفسه بالتمام لخدمة الله وعبادته. وبعد ذلك بأربع سنوات حين بلغ العشرين من العمر بذل جهداً عظيماً في إبعاد التجربة عن رعاياه إذ ”ابتدأ يطهر يهوذا وأورشليم من المرتفعات والسواري والتماثيل والمسبوكات. وهدموا أمامه مذابح البعليم وتماثيل الشمس التي عليها من فوق قطعها وكسر السواري والتماثيل والمسبوكات ودقّها ورشّها على قبور الذين ذبحوا لها. واحرق عظام الكهنة على مذابحهم وطهر يهوذا وأورشليم“ (2 أخبار الأيام 34 : 3 — 5).

وإذ لم يقنع الملك الشاب بهذا العمل الكامل العظيم الذي عمله في أرض يهوذا، وسّع دائرة عمله إلى أجزاء فلسطين التي كان يسكنها الأسباط العشرة في إسرائيل، ولم يكن باقياً إلا شراذم قليلة. والكتاب يقول إنه فعل الشيء ذاته ”في [319] مدن منسى وأفرايم وشمعون حتى ونفتالي“. ولم يرجع إلى أورشليم إلا بعد ما طاف في كل هذا الإقليم ذي البيوت المهدّمة طولاً وعرضاً و ”هدم المذابح والسواري ودقّ التماثيل ناعماً وقطع جميع تماثيل الشمس في كل أرض إسرائيل“ (2 أخبار الأيام 34 : 6، 7).

وهكذا حاول يوشيّا منذ بكور أيام رجولته أن يستفيد من مركزه كملك بتعظيم مبادئ شريعة الله المقدسة. والآن فإذ كان شافان الكاتب يقرأ له من سفر الشريعة اكتشف الملك في هذا السفر كنزاً للمعرفة،

وحليفاً قوياً في عمل الإصلاح الذي كان يتحرق شوقاً إلى إجرائه في البلاد. وقد عقد العزم على السير في نور مشوراته وأن يفعل كل ما في مقدوره ليعرّف شعبه بمطالب الشريعة وتعاليمها وأن يقودهم إلى إكرام شريعة السماء ومحبّتها ما أمكنه ذلك.

ولكن هل كان من الممكن تحقيق الإصلاح اللازم؟ كاد شعب إسرائيل أن يستنزف صبر الله واحتماله، وكان الله سيقوم لمعاقبة من جلبوا على اسمه العار، وقد بدأ غضبه يشتعل على الشعب. فإذ كان الحزن والرعب قد غمرا قلب يوشيّا مزّق ثيابه وسجد أمام الله في انسحاق روحه طالباً الغفران للأمة الجاحدة القاسية القلب.

وفي ذلك الحين كانت خلدة النبية ساكنة في أورشليم قرب الهيكل. فإذ كان عقل الملك مكتنفاً بالتشاؤم والجزع لجأ إليهم وصمم أن يسأل الرب عن طريق هذا الرسول المختار ليعرف إذا أمكن، مدة فعالية الوسائل التي في مقدوره استخدامها لإنقاذ شعب يهوذا الذين كانوا حينئذ على حافة هاوية الدمار بسبب شرورهم. [320]

إن خطورة الموقف واحترامه للنبية جعلاه يختار رسله إليها من أكابر مملكته، وقال لهم: ”اذهبوا اسألوا الرب لأجلي ولأجل الشعب ولأجل كل يهوذا من جهة كلام هذا السفر الذي وُجد لأنه عظيم هو غضب الرب الذي اشتعل علينا من أجل أن آباءنا لم يسمعوا لكلام هذا السفر ليعملوا حسب كل ما هو مكتوب علينا“ (2 ملوك 22 : 13).

وأرسل الرب بلسان خلدة إلى يوشيّا رسالة تقول أن خراب أورشليم أمر لا يمكن تفاديه. فحتى لو تذلّل الشعب الآن أمام الله فلن يمكنهم الهروب من دينونتهم. لقد تخدّرت حواسهم بفعل الشر بحيث أنه إذا لم يأت الدينونة عليهم فسرعان ما يعودون إلى الطريق الشرير ذاته. وقد أعلنت النبية تقول: ”قولوا للرجل الذي أرسلكم إلي هكذا قال الرب هأنذا جالب شراً على هذا الموضع وعلى سكانه كل كلام السفر الذي قرأه ملك يهوذا. من أجل أنهم تركوني وأوقدوا لآلهة أخرى لكي يغيظوني بكل عمل أيديهم فيشتعل غضبي على هذا الموضع ولا ينطفئ“ (2 ملوك 22 : 15 — 17).

ولكن لأنه تواضع بقلبه أمام الله فقد أخذ الرب طلب الملك للغفران والرحمة بعين الاعتبار وأرسل بالرسالة التالية إليه: ”من أجل أنه قد رقّ قلبك وتواضعت أمام الرب حين سمعت ما تكلّمت له على هذا الموضع وعلى سكانه أنهم يصيرون دهشاً ولعنة ومزّقت ثيابك وبكيت أمامي. قد سمعت أنا أيضاً يقول الرب، لذلك هأنذا أضمك إلى آبائك فتضم إلى قبرك بسلام ولا ترى عيناك كل الشر الذي أنا جالبه على هذا الموضع“ (2 ملوك 22 : 19، 20).

كان يتعيّن على الملك أن يترك أحداث المستقبل بين يدي الله لأنه لا يمكنه أن يغيّر مقاصده الأزلية. ولكن إذ أعلن الرب أحكام السماء الجزائية فإنه لم [321] يحرمهم من فرصة التوبة والإصلاح، وإذ لاحظ يوشيّا رغبة الله واستعداده في تخفيف أحكامه بمزجها بالرحمة فقد عوّل على بذل غاية جهده في القيام بإصلاحات حاسمة. فعقد فوراً إجتماع عام عظيم دعي إليه كل الشيوخ والحكّام في أورشليم ويهوذا مع عامة الشعب. فالتقى هؤلاء، بالإضافة إلى الكهنة واللاويين بالملك في رواق الهيكل.

وقرأ الملك بنفسه في مسامع هذا الجمع: ”كل كلام سفر الشريعة الذي وجد في بيت الرب“ (2 ملوك 23 : 2). وتأثر عميقاً وقدّم رسالته بقلب منسحق وتحرّكت مشاعر الشعب بصدق. إن قوة الشعور التي ظهرت على مُحيّا الملك، وخطورة الرسالة نفسها، والإنذار بالأحكام الموشكة الوقوع — كان لكل هذه تأثيراتها، وعقد كثيرون العزم على الاشتراك مع الملك في طلب الغفران.

واقترح يوشيّا أن يقطع الذين يشغلون أسمى المناصب في الدولة والذين لهم السلطة عهداً بكل وقار مع باقي الشعب، أمام الله بأن يتعاونوا معاً في القيام بإصلاحات جذرية: ”ووقف الملك على المنبر وقطع

عهداً أمام الرب للذهاب وراء الرب ولحفظ وصاياه وشهادته وفرائضه بكل القلب و كل النفس لإقامة كلام هذا العهد المكتوب في السفر". وقد كانت الإستجابة أعظم إخلاصاً وصدقاً مما كان ينتظر الملك: "ووقف جميع الشعب عند العهد" (2 ملوك 23 : 3).

وقد وجّه الملك انتباهه في الإصلاح الذي تبع ذلك إلى إزالة كل أثر باق للوثنية. لقد ظلّ سكان البلاد يتبعون عادات الأمم المحيطة بهم لمدة طويلة بالسجود أمام تماثيل الخشب والحجر بحيث بدا أن إزالة كل آثار هذه الشرور هي فوق قدرة البشر. ولكن يوشيّا واصل بذل جهوده لتطهير البلاد. واجه تيار الوثنية بصرامة وعزم بحيث: "ذبح جميع كهنة المرتفعات" "وكذلك السحرة [322] والعرافون والترافيم والأصنام وجميع الرجاسات التي شوهدت في أرض يهوذا وفي أورشليم أبادها يوشيّا ليقيم كلام الشريعة المكتوب في السفر الذي وجده حلقيا الكاهن في بيت الرب" (2 ملوك 23 : 20، 24).

قبل ذلك بعدة قرون في أيام تمزيق المملكة أقام يربعام بن نباط مذبحاً وثنياً في بيت إيل متحدياً الله بوقاحة لإبعاد قلوب الشعب عن خدمات الهيكل في أورشليم وتوجيههم نحو طقوس عبادة مستحدثة. وفي أثناء تدشين هذا المذبح الذي كان كثيرون سيعودون إليه في السنين القادمة للاشتراك في الممارسات الوثنية، ظهر فجأة أحد رجال الله قادماً من يهوذا وتكلّم بكلام الدينونة بسبب تلك الإجراءات النجسة. و "نادى نحو المذبح" وأعلن قائلاً: "يا مذبح يا مذبح هكذا قال الرب هوذا سيولد لبيت داود ابن اسمه يوشيّا ويذبح عليك كهنة المرتفعات الذين يوقدون عليك وتحرق عليك عظام الناس" (1 ملوك 13 : 2). وقد رافقت هذا الإعلان علامة لإثبات حقيقة كون هذا الكلام هو من الرب.

كانت قد مرت بعد ذلك ثلاثة قرون. ففي أثناء الإصلاح الذي قام به يوشيا وجد الملك نفسه في بيت إيل حيث كان هذا المذبح القديم لا يزال قائماً. والنبوة التي قيلت منذ سنين طويلة أمام يربعام كانت ستتم الآن حرفياً.

وكذلك المذبح الذي في بيت إيل في المرتفعة التي عملها يربعام بن نباط الذي جعل إسرائيل يخطئ فذانك المذبح والمرتفعة هدمها وأحرق المرتفعة وسحقها حتى صارت غباراً وأحرق السارية. [323]

"والتفت يوشيّا فرأى القبور التي هناك في الجبل فأرسل وأخذا العظام من القبور وأحرقها على المذبح ونجسه حسب كلام الرب الذي نادى به رجل الله الذي نادى بهذا الكلام.

"وقال ما هذه الصورة التي أرى (ما هذا النصب الذي أراه)؟ فقال له رجال المدينة هي قبر رجل الله الذي جاء من يهوذا ونادى بهذه الأمور التي عملت على مذبح بيت إيل. فقال دعوه. لا يحركن أحد عظامه. فتركوا عظامه وعظام النبي الذي جاء من السامرة" (2 ملوك 23 : 15 — 18).

وعلى منحدرات جبل الزيتون الجنوبية مقابل هيكل الرب الجميل على جبل المُريّا كانت توجد هياكل وتماثيل أقامها سليمان إرضاءاً لزوجاته الوثنيات (انظر 1 ملوك 11 : 6 — 8). ففي حقبة من الزمن تجاوزت ثلاثة قرون ظلّت تلك التماثيل قائمة على جبل الإثم كشهود صامتة على ارتداد أحكم ملوك إسرائيل. وهذه أيضاً أزالها يوشيّا وهدمها.

وحاول الملك، إضافة لذلك، أن يثبّت إيمان شعب يهوذا في إله آبائهم بأن عمل فصحاً عظيماً تمشياً مع الشروط المكتوبة في سفر الشريعة. فالذين أنيطت بهم تلك الخدمة المقدسة أعدّوا العدّة لذلك، وفي يوم العيد العظيم قُدّمت الذبائح بسخاء بحيث: "لم يعمل مثل هذا الفصح منذ أيام القضاة الذين حكموا على إسرائيل ولا في كل أيام ملوك يهوذا" (2 ملوك 23 : 22). إلا أن غيرة يوشيّا مع أنها كانت مقبولة لدى الله لم يمكنها أن تكفّر عن خطايا الأجيال الغابرة، ولا كذلك التقوى التي أظهرها أتباع الملك أمكنها أن تُحدث تغييراً في قلوب كثيرين ممن رفضوا بكل إصرار التحوّل عن عبادة الأثان ليعبدوا الإله الحقيقي. [324]

وظلّ يوشيّا يملك ما يزيد على عشر سنوات بعد ممارسة الفصح. وعندما بلغ التاسعة والثلاثين من

العمر انقضى أجله إذ مات في معركة ضد جيوش مصر: ”ودفن في قبور أبائه“. ”وكان كل يهوذا وأورشليم ينوحون على يوشيّا. ورثى إرميا يوشيّا. وكان جميع المغنين والمغنيات يندبون يوشيّا بمراثيهم إلى اليوم وجعلوها فريضة على إسرائيل وها هي مكتوبة في المراثي“ (2 أخبار الأيام 35 : 24، 25). ”ولم يكن قلبه ملك مثله قد رجع إلى الرب بكل قلبه وكل نفسه وكل قوّته حسب كل شريعة موسى وبعده لم يقم مثله. ولكن الرب لم يرجع عن حمو غضبه العظيم .. من أجل جميع الإغاظات التي أغاظه إياها منسى“ (2 ملوك 23 : 25، 26). كان الوقت يقترب سريعاً حيث كانت أورشليم ستخرب خراباً شاملاً وسكان الأرض سيُسبون إلى بابل، ويتعلّمون هناك الدروس التي رفضوها سابقاً في ظروف أكثر ملائمة. [325]

الفصل الرابع والثلاثون ــــإرميا

كان إرميا واحداً من الذين كانوا يرجون حدوث انتعاش روحي دائم نتيجة للإصلاح الذي قام به يوشيّا، وقد دعاه الله ليشغل الوظيفة النبوية ولم يزل في طور الحداثة في السنة الثالثة عشرة من ملك يوشيّا. فإذ كان إرميا واحداً من الكهنة اللاويين فقد تدرّب على الخدمة المقدّسة منذ طفولته. وفي تلك السنين السعيدة، سني الاستعداد، لم يكن يعلم أنه قد عُيّن منذ ولادته ليكون: "نبياً للشعوب"، وعندما جاءته دعوة الله غمره إحساس بعدم الاستحقاق فصرخ قائلاً: "آه يا سيد الرب إني لا أعرف أن أتكلّم لأني ولد" (إرميا 1 : 5، 6).

لقد رأى الله في إرميا الشاب شخصاً يمكن استئمانه على وديعته للوقوف إلى جانب الحق ضد المقاومة الشديدة. ففي صباه برهن على أمانته، والآن عليه احتمال المشقات كجندي صالح للصليب. وقد أمر الرب رسوله المختار قائلاً: "لا تقل إني ولد لأنك إلى كل من أرسلك إليه تذهب وتتكلم بكل ما آمرك به. لا تخف من وجوههم لأني أنا معك لأنقذك" "أما أنت فنطق حقويك، وقم وكلّمهم بكل ما آمرك به. لا ترتع من وجوههم لئلا أريعك أمامهم. هأنذا قد جعلتك اليوم مدينة حصينة وعمود حديد وأسوار نحاس على كل الأرض. لملوك يهوذا ولرؤسائها ولكهنتها ولشعب الأرض فيحاربونك ولا يقدرون عليك لأني أنا معك يقول الرب لأنقذك" (إرميا 1 : 7، 8، 17 — 19). [323]

ولمدى أربعين سنة كان على إرميا أن يقف أمام الأمة شاهداً للحق والبر. وفي وقت ارتداد لا مثيل له. كان عليه أن يمثّل في حياته وصفاته عبادة الإله الحقيقي الوحيد. وفي غضون فترات الحصار الرهيبة التي وقعت على أورشليم تعيّن عليه أن يكون كليماً للرب، ويتنبأ بسقوط بيت داود وخراب الهيكل الجميل الذي بناه سليمان. وعندما زج به في السجن بسبب أقواله الجريئة كان عليه أن يتكلّم بصراحة ضد الخطيئة في المرتفعات، وإذ كان محتقراً ومنبوذاً من الناس توجّب عليه أخيراً أن يشهد الإتمام الحرفي لنبواته عن الدينونة المحدقة بالعصاة ويشاطر أمّته في تحمّل الحزن والشقاء اللذين سيأتيان نتيجة للخراب المحكوم به على المدينة المنكودة.

ومع ذلك ففي وسط الخراب العام الذي كانت الأمة ستجتازه سُمح لإرميا أن يتأمّل ملياً عبر المشاهد المحزنة الراهنة إلى آمال المستقبل المجيدة عندما يُفتدى شعب الله من أرض العدوّ ويُغرس في صهيون مرة أخرى. وقد سبق فرأى الزمان الذي فيه سيجدّد الرب صلة عهده معهم: "وتكون نفسهم كجنّة ريّا ولا يعودون يذنبون بعد" (إرميا 31 : 12).

وقد كتب إرميا نفسه عن مأموريته النبوية فقال: "ومد الرب يده ولمس فمي وقال الرب لي ها قد جعلت كلامي في فمك. انظر قد وكلتك هذا اليوم على الشعوب وعلى الممالك لتقلع وتهدم وتهلك وتنقض وتبني وتغرس" (إرميا 1 : 9، 10).

شكراً لله على هاتين الكلمتين "تبني وتغرس". فهاتان الكلمتان تؤكدان لإرميا غرض الرب في الاسترداد والشفاء. كانت الرسائل التي عليه أن يحملها في السنين التالية صارمة. كما تعيّن عليه أن ينطق

بالنبوات بلا خوف، تلك التي [324] تتكلّم عن الأحكام القادمة سريعاً. وقد أعلن الرب قائلاً أنه من سهول شنعار: "من الشمال ينفتح الشر على كل سكان الأرض"، "وأقيم دعواي على كل شرهم لأنهم تركوني" (إرميا 1 : 14، 16). ومع ذلك فكان على النبي أن يرفق هذه الأقوال بيقين الغفران لكل من يرجعون عن شرورهم.

وكبناء حكيم حاول إرميا في بدء عمل حياته تشجيع شعب يهوذا لوضع أسس حياتهم الروحية بحيث تكون واسعة وعميقة وذلك بتوبتهم توبة صادقة. وقد ظلّوا أمداً طويلاً يبنون بمواد شبّهها بولس الرسول بالخشب والعشب والقش، وشبّهها إرميا نفسه بالزغل. وأعلن عن الأمة غير التائبة قائلاً: "فضّة مرفوضة يدعون لأن الرب قد رفضهم" (إرميا 6 : 30). والآن ها هو يلح عليهم كي يبدأوا في البناء بحكمة لأجل الأبدية، طارحين جانباً نفاية الارتداد وعدم الإيمان وجاعلين الأساس من الذهب النقي والفضّة المصفاة والحجارة الكريمة — الإيمان والطاعة والأعمال الصالحة — التي هي بالذات دون سواها مقبولة أمام الإله القدوس.

وكانت كلمة الرب إلى شعبه على لسان إرميا تقول: "ارجعي أيتها العاصية إسرائيل .. لا أوقع غضبي بكم لأني رؤوف، يقول الرب. لا أحقد إلى الأبد. اعرفي فقط إثمك أنك إلى الرب إلهك أذنبت .. ارجعوا أيها البنون العصاة يقول الرب لأني سدت عليكم". "تدعينني يا أبي ومن ورائي لا ترجعين". "ارجعوا أيها البنون العصاة فأشفي عصيانكم" (إرميا 3 : 12 — 14، 19، 22).

وبالإضافة إلى هذه التوسلات العجيبة قدّم الرب لشعبه الضال الكلام ذاته الذي به يمكنهم أن يرجعوا إليه. فكان عليهم أن يقولوا: "ها قد أتينا إليك أنت الرب إلهنا. حقاً باطلة هي الاكام ثروة الجبال. حقاً بالرب إلهنا خلاص إسرائيل .. [325] نضطجع في خزينا ويغطينا خجلنا لأننا إلى الرب إلهنا أخطأنا نحن وأباؤنا منذ صبانا إلى هذا اليوم ولم نسمع لصوت الرب إلهنا" (إرميا 3: 22 — 25).

إن الإصلاح الذي أجري على يدي يوشيّا طهّر البلاد من مذابح الأوثان، ولكن قلوب الشعب لم تكن قد تغيّرت. وبذار الحق الذي كان قد نما ويبشر بحصاد وفير، خنقه الشوك. فلو حدث عصيان آخر لكان فيه الهلاك، وقد حاول الرب أن يوقظ الأمة لتتنبه إلى الخطر المحدق بها. فلا رجاء لهم في رضى الله ولا في النجاح إلا إذا برهنوا على ولائهم للرب.

وقد لفت إرميا انتباههم مراراً إلى الوصايا الواردة في سفر التثنية. وشدّد أكثر من أي نبي آخر على تعاليم الشريعة المسلّمة إلى موسى، وأظهر كيف أن هذه التعاليم يمكن أن تأتي بأسمى البركات الروحية للأمة ولكل قلب. وتوسّل إليهم قائلاً: "اسألوا عن السبل القديمة أين هو الطريق الصالح وسيروا فيه فتجدوا راحة لنفوسكم" (إرميا 6 : 16).

وقد ذهب النبي بأمر الرب ذات يوم واتّخذ موقفه عند أحد أبواب المدينة الرئيسية وجعل يشدّد ويحث الشعب على ضرورة حفظ يوم السبت مقدساً. كان سكان أورشليم في خطر اغفال قدسية السبت، فلفت نظرهم بإنذار خطير بألا يزاولوا أعمالهم الدنيوية اليومية في السبت. وقدّم الوعد بالبركة شرط الطاعة، وأعلن الرب قائلاً: "ويكون إذا سمعتم لي سمعاً" و "قدّستم يوم السبت ولم تعملوا فيه شغلاً ما. أنه يدخل في أبواب هذه المدينة ملوك ورؤساء جالسون على كرسي داود راكبون في مركبات وعلى خيل هم ورؤساؤهم رجال يهوذا وسكّان أورشليم وتسكن هذه المدينة إلى الأبد" (إرميا 17 : 24، 25). [326]

هذا الوعد بالنجاح جزاء الولاء، كانت ترافقه نبوّة عن الأحكام الرهيبة التي كانت ستحل بالمدينة لو برهن سكّانها على خيانتهم لله ولشريعته، فإذا لم يكترثوا للإنذارات بالطاعة للرب إله آبائهم وبتقديس يوم سبته فستحترق المدينة وصورها بالنار وتُمسي خراباً يباباً.

وهكذا وقف النبي بثبات في جانب مبادئ الحياة السليمة المستقيمة المرسومة بكل جلاء في سفر

الشريعة إلا أن الظروف التي سادت في أرض يهوذا لم تكن ملائمة بحيث كان يتعذر إجراء تغيير للأفضل من دون إجراءات حاسمة. لذلك خدم إرميا بكلّ غيرة لأجل التائبين. وتوسّل إليهم قائلاً: "احرثوا لأنفسكم حرثاً ولا تزرعوا في الأشواك"، "اغسلي من الشر قلبك يا أورشليم لكي تخلصي" (إرميا 4 : 3، 14).

ولكن لم تكترث الأكثرية العظمى من الشعب لهذه الدعوة إلى التوبة والإصلاح. فمنذ أن مات الملك يوشيّا الصالح برهن الملوك الذين حكموا الأمة بعده على خيانتهم للأمانة التي في حوزتهم وأضلّوا كثيرين. فيهواحاز الذي خُلع عن عرشه بتدخل ملك مصر خلفه يهوياقيم الإبن الأكبر ليوشيّا، ومنذ تولي يهوياقيم الملك كان إرميا ضعيف الأمل في إنقاذ بلاده المحبوبة من الهلاك ونجاة الشعب من السبي، ومع ذلك فلم يسمح لنفسه بالبقاء صامتاً في حين كان الدمار الكامل يهدد المملكة. فينبغي تشجيع الذين ظلّوا على ولائهم لله لأجل المواظبة على عمل الحق. كما ينبغي إقناع الخطأة ما امكن بالرجوع عن الإثم.

كانت الأزمة تتطلّب بذل جهد جاد بعيد المدى. فأمر الرب إرميا بالوقوف في رواق الهيكل ليكلّم شعب يهوذا الداخلين والخارجين. ولم يكن مسموحاً له [327] أن ينقص شيئاً من الرسائل المُعطاة له، لإعطاء الخطاة الذين في صهيون أكبر فرصة ممكنة ليسمعوا ويرجعوا عن طرقهم الشريرة.

وقد أطاع النبي ووقف في باب بيت الرب ورفع صوته محذِّرا ومتوسِّلا. وبإلهام الله القدير أعلن قائلاً: "اسمعوا كلمة الرب يا جميع يهوذا الداخلين في هذه الأبواب لتسجدوا للرب. هكذا قال رب الجنود إله إسرائيل اصلحوا طرقكم وأعمالكم فأسكنكم في هذا الموضع. لا تتكلوا على كلام الكذب قائلين هيكل الرب هيكل الرب هيكل الرب هو. لأنكم إن أصلحتم إصلاحاً طرقكم وأعمالكم. إن أجريتم عدلاً بين الإنسان وصاحبه. إن لم تظلموا الغريب واليتيم والأرملة ولم تسفكوا دماً زكياً في هذا الموضع ولم تسيروا وراء آلهة أخرى لأذائكم فإني أسكنكم في هذا الموضع في الأرض التي أعطيت لآبائكم من الأزل وإلى الأبد" (إرميا 7 : 2 — 7).

إن نفور الرب من التأديب يُرى هنا بوضوح تام. فهو يوجّل أحكامه ويحجزها ليتوسّل إلى غير التائبين. فذاك الذي يصنع "رحمة وقضاء وعدلاً في الأرض" (إرميا 9 : 24) يحنّ شوقاً إلى أولاده الخطاة، ويحاول بكلّ وسيلة ممكنة أن يعلّمهم طريق الحياة الأبدية، لقد أخرج الإسرائيليين من العبودية كي يعبدوه بوصفه الإله الحي الحقيقي الوحيد. وبالرغم من أنهم أوغلوا في الوثنية واستخفوا بإنذاراته، فهو مع ذلك يعلن الآن استعداده لأن يؤخّر التأديب ويمنحهم فرصة أخرى للتوبة. وهو يوضّح هذه الحقيقة لأنه بالإصلاح القلبي الكامل وحده يمكن تفادي الهلاك الذي يتهددهم، فعبثاً يتّكلون على الهيكل وخدماته. لأن الطقوس والفرائض لا تستطيع التكفير عن الخطيئة. وبالرغم من ادّعائهم أنهم شعب الله [328] المختار فإنّ إصلاح القلب والحياة يستطيع دون سواه أن ينقذهم من العاقبة الحتمية لعصيانهم المستمر.

وهذا ما حدث فعلاً. ففي مدن يهوذا وفي شوارع أورشليم "كانت رسالة إرميا إلى شعب يهوذا هي هذه: "اسمعوا كلام هذا العهد" — وصايا الرب الواضحة كما هي مسجّلة في الأسفار المقدّسة — "واعملوا به" (إرميا 11 : 6). وهذه هي الرسالة التي أعلنها وقف في أروقة الهيكل في بداءة حكم يهوياقيم.

وقد روجع اختبار الشعب منذ أيام الخروج باختصار. وكان عهد الله معهم هو هذا: "اسمعوا صوتي فأكون لكم إلهاً وأنتم تكونون لي شعباً، وسيروا في كلّ الطريق الذي أوصيكم به ليُحسَن إليكم" ولكنّهم نكثوا هذا العهد مراراً وتكراراً في غير استيحاء. فالشعب المختار سار "في مشورات وعناد قلبهم الشرير واعطوا القفا لا الوجه" (إرميا 7 : 23، 24).

وقد تساءل الرب قائلاً: "لماذا ارتدّ هذا الشعب في أورشليم ارتداداً دائماً" (إرميا 8 : 5). يقول النبي أنه لكونهم لم يطيعوا صوت الرب إلههم وأبوا قبول التأديب (انظر إرميا 5 : 3). لقد "باد الحق" هكذا قال

النبي وسط الدموع، "وقَطع عن أفواههم". " اللقلق في السموات يعرف ميعاده واليمامة والسنونة المزقزقة حفظتا وقت مجيئهما. أما شعبي فلم يعرف قضاء الرب" "أفما أعاقبهم على هذه يقول الرب أم لا تنتقم نفسي من أمة كهذه؟" (إرميا 7 : 28 ؛ 8 : 7 ؛ 9 : 9).

لقد حان وقت الفحص العميق للقلوب. عندما كان يوشيّا ملكاً عليهم كان يوجد لدى الشعب أساس للرجاء. ولكنّه ما عاد قادراً على التوسّل لأجلهم لأنه سقط في الحرب. كانت خطايا الأمة عظيمة بحيث أن وقت الشفاعة قد انقضى. وقد أعلن الرب قائلاً: "وان وقف موسى وصموئيل أمامي لا تكون نفسي نحو هذا [329] الشعب. اطرحهم من أمامي فيخرجوا. ويكون إذا قالوا لك إلى أين نخرج إنك تقول لهم، هكذا قال الرب الذين للموت فإلى الموت والذين للسيف فإلى السيف والذين للجوع فإلى الجوع والذين للسبي فإلى السبي" (إرميا 15 : 1، 2).

إن رفض الانتباه إلى دعوة الرحمة التي كان الله يقدّمها الآن سيجلب على الأمة غير التائبة الأحكام التي حلّت على مملكة إسرائيل الشمالية منذ قرن مضى ويزيد. كانت الرسالة الموجّهة إليهم الآن هي هذه: "إن لم تسمعوا لي لتسلكوا في شريعتي التي جعلتها أمامكم لكلام عبيدي الأنبياء الذين أرسلتهم أنا إليكم مبكراً ومرسلاً إياهم فلم تسمعوا. إجعل هذا البيت كشيلوه وهذه المدينة اجعلها لعنة لكل شعور الأرض" (إرميا 26 : 4 — 6).

لقد فهم جيداً، الذين كانوا واقفين في رواق الهيكل وهم يصغون إلى حديث إرميا، هذه الإشارة إلى شيلوه وإلى الوقت الذي كان فيه عهد عالي عندما هزم الفلسطينيون إسرائيل واستولوا على تابوت العهد وأخذوه.

كانت خطيئة عالي تنطوي على إغضائه عن إثم بنيه الذين أسندت إليهم وظيفة مقدسة وعن الشرور التي كانت متفشية في كل البلاد. فإهماله في إصلاح هذه الشرور جلب على الشعب كارثة مخيفة. فقد سقط أباؤه في الحرب، كما مات عالي نفسه، وأخذ تابوت الله من أرض إسرائيل، وقتل من الشعب ثلاثون ألفاً — وكل ذلك سببه السماح للخطيئة أن تنمو وتستشري دون توبيخ أو مقاومة. ظنّ الشعب أنه برغم أعمالهم الشريرة فإن وجود التابوت كفيل أن يحقق انتصارهم على الفلسطينيين. وكذلك في أيام إرميا كان سكّان يهوذا عرضة للاعتقاد أن تدقيقهم في حفظ الخدمات المعنية من الله في الهيكل سيحفظهم من القصاص العادل على مسلكهم الشرير. [330]

ما أعظمه من درس لمن يحتلون مراكز ذات مسؤولية في كنيسة الله اليوم، ويا له من إنذار خطير يقودنا للتعامل بكل أمانة لصدّ تيار الشرور التي تجلب العار على قضيّة الحقّ، فلا يخدعنّ أحد نفسه ممن يدّعون إنهم أؤتمنوا على شريعة الله، بأن تظاهرهم بحفظ وصايا الله وتقديرها سيحفظهم من إجراء العدالة الإلهية. وينبغي ألّا يرفض أحد قبول التوبيخ على الشرّ أو يتّهم خدّام الله بالحماسة المفرطة في محاولتهم تطهير المحلّة من عمل الشر. فالله الذي يكره الخطيئة يدعو الذين يتظاهرون بحفظ شريعته أن يبتعدوا عن كل إثم. إن إهمال التوبة وتقديم الطاعة القلبية الخالصة يجلب على الرجال والنساء اليوم عواقب وخيمة كما حدث لإسرائيل قديماً. فهنالك حدّ لو تعدّاه الإنسان فإن أحكام الرب لا يمكن تأجيلها بعد ذلك. إنّ خراب أورشليم في عهد إرميا هو إنذار خطير لإسرائيل الروحي الآن، من أن المشورات والإنذارات المقدّمة لهم بوسائل مختارة لا يمكن الاستخفاف بها دون قصاص.

وقد أثارت رسالة إرميا إلى الكهنة والشعب العداء في قلوب كثيرين. فبتشهير صاخب صاحوا قائلين: "لماذا تنبأت باسم الربّ قائلاً مثل شيلوة يكون هذا البيت وهذه المدينة تكون خربة بلا ساكن؟ واجتمع كلّ الشعب على إرميا في بيت الرب" (إرميا 26 : 9). وقد انقلب الكهنة والأنبياء الكذبة والشعب في غضب شديد ضدّ إرميا الذي لم يرد أن يتكلّم بالناعمات أو يتنبأ بالكذب والدجل وهكذا احقرت رسالة الله وأمسى

خدامه مهدداً بالموت.

وقد بلغت أنباء أقوال إرميا إلى رؤساء يهوذا فأسرعوا من قصر الملك إلى الهيكل ليعرفوا بأنفسهم الأمر على حقيقته: "فتكلّم الكهنة والأنبياء مع الرؤساء وكل الشعب قائلين حقّ الموت على هذا الرجل لأنه تنبأ على هذه المدينة كما [331] سمعتم بأذانكم" (إرميا 26 : 11). ولكن إرميا وقف بكل شجاعة أمام الرؤساء والشعب وأعلن قائلاً: "الرب أرسلني لأتنبأ على هذا البيت وعلى هذه المدينة بكلّ الكلام الذي سمعتموه. فالآن اصلحوا طرقكم وأعمالكم واسمعوا لصوت الرب إلهكم فيندم الرب عن الشر الذي تكلّم به عليكم. أما أنا فهأنذا بيدكم، اصنعوا بي كما هو حسن ومستقيم في أعينكم. لكن أعلموا علماً أنكم إن قتلتموني تجعلون دما ذكياً على أنفسكم وعلى هذه المدينة وعلى سكانها لأنه حقاً قد أرسلني الرب إليكم لأتكلّم في آذانكم بكلّ هذا الكلام" (إرميا 26 : 12 — 15).

فلو كان النبي قد جبن أمام موقف التهديد ممن كانت لهم السلطة العليا لما كان لرسالته أي تأثير وكان قد خسر حياته. ولكن الشجاعة التي ألقى بها ذلك الإنذار الخطير، أرغمت الشعب على احترامه وجعلت رؤساء يهوذا يقفون في صفه. وقد تباحثوا مع الكهنة والأنبياء الكذبة مبينين لهم مقدار جهالة اتّخاذ إجراءات مفرطة في الصرامة كالتي دافعوا عنها. وكان لكلامهم ردّ فعل في أذهان الشعب. وهكذا أقام الله رجالاً دافعوا عن خادمه.

وانضمّ الشيوخ أيضاً إلى الرؤساء في الاحتجاج ضدّ قرار الكهنة فيما يختصّ بمصير إرميا. واقتبسوا قضية ميخا الذي تنبّأ بأحكام ستقع على أورشليم قائلاً: "إن صهيون تفلح كحقل وتصير أورشليم خرباً وجبل البيت شوامخ وعر". ثم سألوا قائلين: "هل قتلاً قتله حزقيا ملك يهوذا وكل يهوذا ألم يخف الرب وطلب وجه الرب فندم الرب عن الشر الذي تكلّم به عليهم فنحن عاملون شراً عظيماً ضد أنفسنا" (إرميا 26 : 18، 19) [332]

وقد أبقي على حياة النبي بفضل توسّلات هؤلاء الرجال ذوي النفوذ، مع أن كثيرين من الكهنة والأنبياء الكذبة كان يسرّهم لو قُضي عليه بالموت بحجّة كونه أثار فتنة، لأنهم لم يكونوا يستطيعون احتمال الحقائق التي نطق بها وأدانتهم.

لقد وقف إرميا منذ دُعي للخدمة إلى نهاية خدمته أمام شعب يهوذا كـ "برج وحصن" ولم يستطع غضب الإنسان الانتصار عليه. وقد سبق الرب فأنذر عبده قائلاً: "يحاربونك ولا يقدرون عليك لأني معك لأخلّصك وانقذك من يد الأشرار وافديك من كف العتاة" (إرميا 6 : 27 ؛ 15 : 20، 21).

إذ كان إرميا بطبيعته خجولاً ومنكمشاً كان يتوق إلى حياة الهدوء والسلام في خلوة أو معتكف حيث لم يكن ليشاهد صلابة قلوب أبناء أمته المحبوبة وعدم توبتهم المستمرة. لقد اعتصر الحزن والألم قلبه وهو يرى الدماء الذي أحدثته الخطيئة. فقد ناح قائلاً: "يا ليت رأسي ماء وعيني ينبوع دموع فأبكي نهاراً وليلاً قتلى بنت شعبي، يا ليت لي في البرية مبيت مسافرين فأترك شعبي وانطلق من عندهم" (إرميا 9 : 1، 2).

وما كان أقسى ألفاظ السخرية التي دعي لاحتمالها. لقد اخترقت نفسه الحسّاسة، مراراً، سهام الاستهزاء التي أمطره بها أولئك الذين ازدروا برسائله واستخفوا بالعبء الذي كان يحمله لأجل هدايتهم. فقد أعلن قائلاً: "صرت ضحكة لكل شعبي وأغنية لهم اليوم كله". "صرت للضحك كل النهار. كل واحد استهزأ بي. "كل أصحابي يراقبون ظلعي (كبوتي) قائلين لعله يُطغى (يتعثر) فنقدر عليه وننتقم منه" (مراثي 3 : 14، إرميا 20 : 7، 10).

ولكن النبي الأمين نال العون على الاحتمال في كل يوم. وقد أعلن في إيمان يقول: "ولكن الرب معي كجبار قدير. من أجل ذلك يعثر مضطهدي ولا [333] يقدرون. خزوا جداً لأنهم لم ينجحوا. خزياً أبدياً لا ينسى". "رنموا للرب سبحوا الرب لأنه قد انقذ نفس المسكين من يد الأشرار" (إرميا 20 : 11، 13).

إن الإختبارات التي جاز فيها إرميا في أيام شبابه، وكذلك في أواخر سني خدمته علّمته هذا الدرس وهو: ”أنه ليس للانسان طريقه. ليس لإنسان يمشي أن يهدي خطواته“ وقد تعلّم أيضاً أن يصلّي قائلاً: ”أدبني يا رب ولكن بالحق لا بغضبك لئلا تفنيني“ (إرميا 10 : 23، 24).

وعندما دُعي ليشرب من كأس البليّة والضيق والحزن، وجُرّب أن يقول وهو في شقائه: ”بادت ثقتي ورجائي من الرب“، عاد فذكر أعمال عناية الله التي عملها لأجله فهتف هتاف الانتصار قائلاً: ”إنه من إحسانات الرب أننا لم نفن. لأن مراحمه لا تزول. هي جديدة في كل صباح. كثيرة أمانتك. نصيبي هو الرب قالت نفسي من أجل ذلك أرجوه. طيب هو الرب للذين يترجونه، للنفس التي تطلبه. جيد أن ينتظر الإنسان ويتوقع بسكوت خلاص الرب“ (مراثي 3 : 18، 22 — 26). [334]

الفصل الخامس والثلاثون ـــ الهلاك القادم

كانت السنوات الأولى من ملك يهوياقيم مشحونة بنذر الهلاك القادم. وكانت كلمة الله التي تكلّم بها الأنبياء وشيكة الإتمام. فبعدما تمتّعت مملكة أشور في الشمال بالسيادة أمداً طويلاً لم تكن لتستمر بسيادتها على الأمم فيما بعد. ومصر في الجنوب التي عبثاً وضع ملك يهوذا ثقته فيها، كانت مزمعة أن تتلقّى صدمة حاسمة تعيدها من حيث جاءت. وعلى غير انتظار ظهرت مملكة جديدة عالمية، هي امبراطورية بابل التي بدأت تنهض في الشرق، وبسرعة طغت على كل الأمم الأخرى.

وفي خلال سنوات قصيرة سيكون ملك بابل أداة غضب في يد الله على شعب يهوذا غير التائب. كانت أورشليم ستُحاصر مراراً عديدة وتدخلها جيوش نبوخذنصّر لافتتاحها. وكانت ستؤخذ جماعة بعد أخرى أسرى إلى أرض شنعار ـــ في بادئ الأمر تتكون من أفراد قليلي العدد. ولكن بعد ذلك سيبلغ عددهم آلافاً وربوات ـــ حيث يبقون هناك في منفى اضطراري. فيهوياقيم ويهوياكين وصدقيا ـــ كل هؤلاء الملوك اليهود، كان كل منهم في دوره سيصير عبداً تابعاً لملك بابل، وكل منهم كان سيتمرد بدوره. وكانت ستحل بتلك الأمة المتمردة عقوبات قاسية تتبعها عقوبات أخرى أشد قسوة إلى أن تصير أرضهم في نهاية الأمر خراباً يباباً، وأورشليم كانت مزمعة أن تلاقي المصير ذاته وتلتهمها النيران، [335] والهيكل الذي بناه سليمان كان سيخرب ومملكة يهوذا كانت ستسقط ولن تقوم ثانية لتتبوأ مركزها الأول بين أمم الأرض.

تلك هي أزمنة التغيير التي كانت مشحونة بالخطر على الأمة الإسرائيلية التي تواترت فيها رسائل السماء على لسان إرميا. وبذلك أعطى الرب بني يهوذا متّسعا من الوقت للتحرّر من الوقوع في شرك التحالف مع مصر، وتجنّب المنازعات مع ملوك بابل. وعند اقتراب الخطر الذي كان يتهددهم علّم إرميا الشعب بواسطة سلسلة من الأمثال، على أمل إيقاظ الشعور بالتزامهم نحو الله بهذه الوسيلة وليشجعهم أيضاً على تكوين أواصر صداقة مع حكومة بابل. ولكي يضرب لهم مثلاً على أهمية تقديم طاعة كاملة ثابتة لمطالب الله جمع إرميا بعض الركابيين في أحد مخادع الهيكل ووضع أمامهم خمراً ودعاهم لأن يشربوا منها. وكما كان منتظراً قوبل طلبه بالاحتجاج والرفض القاطع فقد أعلن الركابيون قائلين بكل ثبات "لا نشرب خمراً لأن يوناداب بن ركاب أبانا أوصانا قائلاً لا تشربوا خمراً أنتم ولا بنوكم إلى الأبد".

"ثم صارت كلمة الرب إلى إرميا قائلة هكذا قال رب الجنود إله إسرائيل اذهب وقل لرجال يهوذا وسكان أورشليم أما تقبلون تأديباً لتسمعوا كلامي يقول الرب؟ أن لا يشربوا خمراً فلم يشربوا إلى هذا اليوم لأنهم سمعوا وصية أبيهم" (إرميا 35 : 6، 12 ـــ 14).

وبهذه الوسيلة استطاع الله أن يبيّن في مفارقة شاسعة حادة طاعة الركابيين وعصيان شعبه وتمردهم. [336]

لقد أطاع الركابيون وصية أبيهم وقد رفضوا الآن الإغراء على العصيان. ولكن رجال يهوذا لم يصغوا إلى كلام الرب وكان من نتائج ذلك أنهم كانوا موشكين على الوقوع في أقسى معاناة أحكامه.

وأعلن الرب قائلاً: "أنا قد كلمتكم مبكراً مكلماً ولم تسمعوا لي. وقد أرسلت إليكم كل عبيدي الأنبياء

مبكراً مرسلاً قائلاً ارجعوا كل واحد عن طريقه الرديئة واصلحوا أعمالكم ولا تذهبوا وراء آلهة أخرى لتعبدوها فتسكنوا في الأرض التي أعطيتكم وأباءكم فلم تميلوا آذانكم ولا سمعتم لي. لأن بني يوناداب بن ركاب قد أقاموا وصية أبيهم التي أوصاهم بها. أما هذا الشعب فلم يسمع لي. لأن هكذا قال الرب إله الجنود، إله إسرائيل هأنذا أجلب على يهوذا وعلى كل سكان أورشليم كل الشر الذي تكلّمت به عليهم لأني كلمتهم فلم يسمعوا ودعوتهم فلم يجيبوا" (إرميا 35 : 14 — 17).

عندما تلين قلوب الناس وتخضع بقوة الروح القدس القاهرة فستنتبه إلى المشورة، ولكن عندما ترتد عن الإنذار وتتقسى، فالرب يسمح بأن ينقادوا وراء مؤثرات أخرى. إذ يرفضون الحقّ يقبلون الباطل الذي يمسي شركاً يؤدي بهم إلى الهلاك.

لقد توسّل الله إلى يهوذا كيلا يغيظوه أو يسخطوه ولكنّهم لم يسمعوا. أخيراً نطق عليهم بالحكم. كانوا سيسبون إلى بابل. وكان الله سيستخدم الكلدانيين بمثابة سوط لتأديب شعبه العاصي. وكانت آلام رجال يهوذا ستكون بنسبة النور المعطى لهم والإنذارات التي ازدروا بها ورفضوها. لقد أخرّ الله أحكامه طويلاً، أما الآن فسيفتقدهم بغضبه كآخر وسيلة لصدهم عن السير في طريقهم الشرير. [337]

وقد نطق الله على بيت الركابيين ببركة دائمة. فقد أعلن النبي قائلاً: "من أجل أنكم سمعتم لوصية يوناداب أبيكم وحفظتم كل وصاياه وعملتم حسب كل ما أوصاكم به. لذلك هكذا قال رب الجنود إله إسرائيل لا ينقطع ليوناداب بن ركاب إنسان يقف أمامي كل الأيام" (إرميا 35 : 18، 19). وهكذا علّم الله شعبه أن الأمانة والطاعة ستعودان على يهوذا بالبركة كما بورك الركابيون على طاعتهم لوصية أبيهم.

وهذا الدرس نافع لنا، فإذا كانت وصايا الآب الصالح الحكيم الذي اتّخذ أفضل وسيلة وأنبلها لصدّ نسله عن شرور إدمان الخمر كانت تستحق أن تُطاع طاعة كاملة، فبكل تأكيد ينبغي أن يُكرم سلطان الله إكراماً يتناسب مع عظم قداسته وسموه عن الإنسان. إن خالقنا وقائدنا الذي لا حد لسلطانه والذي هو رهيب في قضاءه يحاول بكل وسيلة أن يجعل الناس يرون خطاياهم ويتوبون عنها. وهو يتنبأ على أفواه خدامه بمخاطر العصيان، وينادي بالإنذار بكل أمانة موبِّخا للخطيئة. إن شعبه يحالفهم النجاح برحمته وحدها من خلال الرعاية الساهرة لوسائطه المختارة. وهو لا يستطيع أن يعضد أو يحرس من يرفضون مشورته ويحتقرون توبيخه. وقد يمنع أحكامه الجزائية إلى حين لكنه لا يمكنه أن يمنع يده إلى الأبد.

كان بنو يهوذا محسوبين مع من سبق الله فأعلن عنهم قائلاً: "أنتم تكونون لي مملكة كهنة وأمة مقدسة" (خروج 19 : 6). لم تغب عن نظر إرميا مدى سنّي خدمته، الأهمية الحيوية لقداسة القلب في كافة صلات الحياة المختلفة وعلى الخصوص في خدمة الله العلي. لقد سبق فرأى بوضوح المملكة وتشتت سكان يهوذا بين الأمم، إلا أنه رأى بعين الإيمان ما يكون بعد كل هذا، ونظر [338] إلى أزمنة رد سبيهم وكان يرن في مسامعه الوعد الإلهي القائل: "وأنا أجمع بقية غنمي من جميع الأراضي التي طردتها إليها. وأردّها إلى مرابضها .. ها أيام تأتي يقول الرب وأقيم لداود غصن بر فيملك ملك وينجح ويُجري حقاً وعدلاً في الأرض. في أيامه يُخلّص يهوذا ويسكن إسرائيل آمناً وهذا هو اسمه الذي يدعونه به الرب برُّنا" (إرميا 3 : 23 — 6).

وبذلك كانت النبوات عن الدينونة القادمة ممتزجة بوعود النجاة النهائية المجيدة فالذين يختارون المصالحة مع الله ويحيون حياة القداسة في وسط الارتداد الشامل سينالون قوة لمواجهة كل تجربة ويستطيعون أن يشهدوا له بقوة عظيمة وفي العصور التالية ستكون النجاة التي ستتم لأجلهم أشهر وأسمى من التي تمّت لبني إسرائيل في وقت الخروج (من عبودية مصر) وقد أعلن الرب على لسان نبيه قائلاً: "إنه ستأتي أيام فيها لا يقولون بعد حيّ هو الرب الذي أصعد بني إسرائيل من أرض مصر بل حيّ هو الرب الذي أصعد وأتى بنسل بيت إسرائيل من أرض الشمال ومن جميع الأراضي التي طردتهم إليها

فيسكنون في أرضهم“ (إرميا 23 : 7، 8). تلك كانت النبوّات العجيبة التي نطق بها إرميا في خلال السنوات الأخيرة من تاريخ مملكة يهوذا عندما بدأ البابليون يسيطرون سيطرة شاملة وبدأوا يحاصرون أسوار مدينة صهيون.

كان صدى هذه المواعيد عن النجاة كأجمل الأنغام الموسيقية المطربة وقعاً على آذان الذين ظلّوا ثابتين في عبادتهم للرب ففي بيوت الشرفاء والأدنياء حيث كان الناس يكرمون مشورات الله حافظ العهد والأمانة كانت أقوال النبي تتكرّر وتعاد مراراً وحتى الأولاد تأثّروا بها تأثراً عظيماً وقد انطبعت على عقولهم الغضة القابلة للتعلّم انطباعاً دائماً. [339]

إن حفظهم لأوامر الكتب المقدّسة ووصاياهم حسبما أوحت إليهم ضمائرهم الحية في عهد خدمة إرميا قدّمت لدانيال ورفاقه فرصاً لتمجيد الإله الحقيقي وتعظيمه أمام أمم الأرض فالتعاليم التي تلقّاها هؤلاء الفتية العبرانيون في بيوتهم عن آبائهم جعلتهم أقوياء في الإيمان وثابتين في عبادتهم وخدمتهم لله الحي خالق السموات والأرض فعندما حاصر نبوخذنصر مدينة أورشليم لأول مرة وافتتحها في أوائل سني حكم يهوياقيم وسبي دانيال ورفاقه وآخرين ممن أختيروا خصيصاً للخدمة في بلاط بابل فإن إيمان الأسرى العبرانيين جاز في أعظم تجربة وأقسى محنة ولكن الذين تعلّموا أن يضعوا ثقتهم في مواعيد الله وجدوها كافية تماماً في كل تجربة دعوا لإجتيازها مدى سني إقامتهم المؤقتة في أرض غريبة وقد برهنت الكتب المقدّسة أنها مرشدهم وسندهم.

وكمسر لمعنى الأحكام التي بدأت تقع على يهوذا وقف إرميا ليدافع بشجاعة عن عدالة الله ومقاصده الرحيمة حتى في أقسى العقوبات وأرهب المحن وقد خدم النبي بلا كلل فإذ كان يرغب في الوصول إلى جميع الطبقات وسّع دائرة تأثيره إلى خارج أورشليم في الأقاليم المحيطة بزيارات متعددة لأنحاء المملكة المختلفة.

كان إرميا في شهاداته للكنيسة يشير باستمرار إلى تعاليم سفر الشريعة الذي أكرم أعظم إكراماً إبان حكم يوشيّا وقد شدّد من جديد على أهمية إقامة صلة عهد مع ذلك الكائن الرحيم الرؤوف الذي نطق بالوصايا العشر من فوق جبل سيناء وقد وصلت إنذارات إرميا وتوسلاته إلى جميع أنحاء المملكة وكانت لدى الجميع فرصة فيها يعرفون إرادة الله نحو الأمة. [340]

وقد أوضح النبي حقيقة كون أبينا السماوي يسمح بأن تقع أحكامه ليعلّم الأمم أنهم بشر (مزمور 20 : 9). كان الرب قد سبق شعبه قائلاً: ”وإن سلكتم معي بالخلاف ولم تشاءوا أن تسمعوا لي فأنا أذرّيكم بين الأمم وأجرد وراء كم السيف فتصير أرضكم موحشة ومدنكم تصير خربة“ (لاويين 21 : 26، 28، 33).

ولكن في نفس الوقت الذي كانت فيه رسائل الدينونة المحدقة والمتوعدة تتلى على الرؤساء على الشعب فإن ملكهم يهوياقيم كان يقضي وقته في لهو حسّي في الوقت الذي كان ينبغي أن يكون قائداً روحياً حكيماً وفي طليعة من يعترفون بخطاياهم ويجرون إصلاحاً ويعملون أعمالاً صالحة وقد ارتأى قائلاً: ”أبني لنفسي بيتاً وسيعاً وعلالي فسيحة وهذا البيت الذي كان مزمعاً أن يسقف بأرز ويدهن بمغرة“ (إرميا 14 : 22) بنى وأكمل بأموال نالها بالغش والظلم.

وقد احتدم غضب النبي وأوحي إليه بأن ينطق بالدينونة على ذلك الملك الخائن فأعلن قائلاً: ”ويل لمن يبني بيته بغير عدل وعلاليه بغير حق الذي يستخدم صاحبه مجاناً ولا يعطيه أجرته .. هل تملك لأنك أنت تحاذي الأرز؟ أم أكل أبوك وشرب وأجرى حقاً وعدلاً. حينئذ كان خير. أليس ذلك معرفتي يقول الرب؟ لأن عينيك وقلبك ليست إلا على خطفك وعلى الدم الزكي لتسفكه وعلى الاغتصاب والظلم لتعملهما.

لذلك هكذا قال الرب عن يهوياقيم بن يوشيا ملك يهوذا لا يندبونه قائلين آه يا أخي أو آه يا أخت، لا يندبونه قائلين آه يا سيد، أو آه يا جلاله، يدفن دفن حمار مسحوباً ومطروحاً بعيداً عن أبواب أورشليم“

(إرميا 13 : 22 — 19).

وفي خلال سنوات قليلة كانت هذه الدينونة الرهيبة مزمعة أن تحل على يهوياقيم ولكن الرب في رحمته أخبر أولاً تلك الأمة غير التائبة بقصده الثابت [341] الذي سيتممه. ففي السنة الرابعة من ملك يهوياقيم تكلّم إرميا النبي على كل شعب يهوذا وعلى كل سكان أورشليم قائلاً إنه في مدة تربو على عشرين سنة من السنة الثالثة عشرة ليوشيا إلى هذا اليوم قد شهد عن استعداد الله لأن يخلّص ولكن رسائله احتقرت أما الآن فإن كلمة الرب إليهم كانت:

”هكذا قال رب الجنود من أجل أنكم لم تسمعوا لكلامي هأنذا أرسل فأخذ كل عشائر الشمال يقول الرب وإلى نبوخذنصر عبدي ملك بابل وآتي بهم على هذه الأرض وعلى كل سكانها وعلى كل هذه الشعوب حواليها فأحرمهم وأجعلهم دهشاً وصفيراً وخرباً أبدية. وأبيد منهم صوت الطرب وصوت الفرح وصوت العريس وصوت العروس وصوت الأرحية ونور السراج وتصير كل هذه الأرض خراباً ودهشاً وتخدم هذه الشعوب ملك بابل سبعين سنة“ (إرميا 8 : 25 — 11).

ومع أن حكم الدينونة نطق به بكل وضوح فإن السامعين لم يفهموا فحوى ذلك القول المخيف فلكي تكون لهم انطباعات أعمق أراد الرب أن يمثل للشعب معنى الكلام الذي قيل فأمر إرميا أن يشبّه مصير الأمة بإفراغ كأس ممتلئة بخمر غضب الله. ومن بين أول الدول التي كانت ستشرب من هذه الكأس، كأس الشقاء والويل ”أورشليم ومدن يهوذا وملوكها“. وكان آخرون سيشتركون في شرب هذه الكأس، منهم ”فرعون ملك مصر وعبيده ورؤساؤه وكل شعبه“ وكثير من أمم الأرض الأخرى حتى تتم مقاصد الله (انظر إرميا 25).

ولأجل المزيد من تمثيل طبيعة الأحكام القادمة سريعاً أمر الله النبي أن ”يأخذ من شيوخ الشعب ومن شيوخ الكهنة“ (ثم قال له) ”وأخرج إلى وادي ابن هنوم“. وهناك بعدما استعرض إرتداد يهوذا كان عليه أن يكسر ”ابريق فخاري من خزف“ (كان قد أخذه معه بأمر الرب) ويعلن بالنيابة عن الرب الذي كان هو [342] خادماً له قائلاً: ”هكذا أكسر هذا الشعب وهذه المدينة كما يُكسر وعاء الفخاري بحيث لا يمكن جبره بعد“.

وقد فعل النبي كما أمر. فلما عاد إلى المدينة وقف في رواق الهيكل وأعلن في مسامع الشعب قائلاً: ”هكذا قال رب الجنود إله إسرائيل هأنذا جالب على هذه المدينة وعلى قراها كل الشر الذي تكلمت به عليها لأنهم صلّبوا رقابهم فلم يسمعوا لكلامي“ (انظر إرميا 19).

ولكن أقوال النبي بدلاً من أن تقودهم إلى الاعتراف والتوبة أثارت غضب ذوي السلطة العليا وكان من نتائج ذلك أن جرّد إرميا من حريته. ومع أنه كان سجيناً ورجلاه في المقطرة فقد ظل النبي يتكلم برسالة السماء في مسامع الواقفين لديه فلم يمكن للاضطهاد أن يسكت صوته وقد أعلن عن كلام الحق قائلاً أنه: ”كان في قلبي كنار مُحرقة محصورة في عظامي، فمللت من الإمساك ولم أستطع“ (إرميا 20 : 9).

وحدث في نحو هذا الوقت أن الرب أمر إرميا بأن يشرع في كتابة الرسائل التي رغب في تبليغها إلى أولئك الذين كان قلبه العطوف يتوق إلى خلاصهم فأمر الرب خادمه قائلاً: ”خذ لنفسك درج سفر واكتب فيه كل الكلام الذي كلمتك به على إسرائيل وعلى يهوذا وعلى كل الشعوب من اليوم الذي كلمتك فيه من أيام يوشيا إلى هذا اليوم لعل بيت يهوذا يسمعون كل الشر الذي أنا مفكر أن أصنعه بهم ليرجعوا كل واحد عن طريقه الرديء فأغفر ذنبهم وخطيتهم“ (إرميا 36 : 2، 3).

فامتثالاً لهذا الأمر دعا إرميا لمساعدته صديقاً أميناً هو باروخ الكاتب وملى عليه: ”كل كلام الرب الذي كلمه به“ (إرميا 4 : 36). وقد كتب هذا الكلام بكل [343] حرص في درج من الجلد وفيه توبيخ مقدّس وخطير وإنذار بعواقب الارتداد المستمر الأكيدة ودعوة حارة ترك الشر.

وعندما أكملت الكتابة أرسل إرميا الذي كان سجيناَ، باروخ ليقرأ الدرج في مسامع الجماهير الذين كانوا مجتمعين في الهيكل بمناسبة يوم صوم قومي: "في السنة الخامسة ليهوياقيم بن يوشيا ملك يهوذا في الشهر التاسع" وقد قال النبي "لعل تضرعهم يقع أمام الرب فيرجعوا كل واحد عن طريقه الرديء لأنه عظيم الغضب والغيظ اللذان تكلّم بهما الرب على هذا الشعب" (إرميا 7 : 9 : 36).

وقد أطاع باروخ وقرأ السفر أمام كل شعب يهوذا. وبعد ذلك دُعي الكاتب ليمثل أمام الرؤساء ليقرأ لهم الكلام. وقد أصغوا بإهتمام عظيم ووعدوا بأن يخبروا الملك بكل ما سمعوه، ولكنهم نصحوا الكاتب بأن يذهب ويختبئ إذ كانوا يخشون لئلا يرفض الملك الشهادة ويحاول قتل من أعد الرسالة ومن قرأها.

وعندما أخبر الرؤساء الملك يهوياقيم بما قرأه باروخ في مسامعهم أمر بإحضار السفر في الحال وبأن يُتلى على مسامعه. وقد ذهب "يهودي" وهو أحد عبيد الملك وأحضر السفر وابتدأ يتلو كلام التوبيخ والإنذار. كان ذلك في فصل الشتاء وكان الملك وزملاؤه من رجال الدولة ورؤساء يهوذا مجتمعين معاً حول نار موقده. فبعدما قرئ جزء صغير من الرسالة وإذ لم يكن الملك مرتعباً من الخطر المعلق فوق رأسه ورؤوس شعبه أمسك بالسفر وفي شدّة غضبه "شقه بمبراة الكاتب وألقاه إلى النار التي في الكانون حتى فني كل الدرج" (إرميا 36 : 23).

ولم يخف الملك ولا الرؤساء "ولا شققوا ثيابهم". ومع ذلك فإن بعضاُ من الرؤساء: "ترجوا الملك أن لا يحرق الدرج فلم يسمع لهم". فبعدما احترق السفر [344] اشتعل غضب الملك الشرير على إرميا وباروخ وفي الحال أرسل الملك رجالاً ليقبضوا عليهما: "ولكن الرب خبأهم" (إرميا 26 : 24 : 26).

إذ لفت الله انتباه العابدين في اليهكل والرؤساء والملك إلى الإنذارات المكتوبة في الدرج الموحي به، كان في رحمته يحاول أن ينذر رجال يهوذا لخيرهم فقال: "لعل بيت يهوذا يسمعون كل الشر الذي أنا مفكر أن أصنعه بهم فيرجعوا كل واحد عن طريقه الرديء فأغفر ذنبهم وخطيتهم" (إرميا 3 : 36). إن الله يشفق على الناس الذين يكافحون في فسادهم الأعمى، ويحاول أن ينير الأذهان المظلمة بإرسال التوبيخ والتهديد ليجعل المرتفعين من الناس يحسون بجهلهم وينوحون على خطاياهم. وهو يحاول أن يساعد من هم راضون عن أنفسهم كيلا يرضوا بما هم عليه بل يسعون في طلب البركة الروحية عن طريق الاتصال الوثيق بالسماء.

إن خطة الله ليست هي إرسال رسل لكي يتملّقوا الخطاة وهو لا يرسل رسائل السلام ليهدد غير المكرسين في طمأنينتهم الجسدية. ولكنّه بدلاً من ذلك يضع أعباء ثقيلة على ضمير فاعل الشر ويطعن نفسه بسهام التبكيت الحادة. ثم أن الملائكة الخادمين يقدّمون له أحكام الله المخيفة ليعمقوا شعوره بالحاجة وليستخلصوا منه صرخة الحزن فيسأل بإهتمام قائلاً في الحال "ماذا ينبغي أن أفعل لكي أخلص؟" (أعمال 16 : 30). ولكن اليد التي تضع في التراب وتوبخ الخطيئة وتجلّل الكبرياء والطموح بالعار هي اليد التي ترفع التائبين المنسحقين. فذاك الذي يسمح بوقوع التأديب يسأل ذلك الإنسان برقة عظيمة قائلاً: "ماذا تريد أن أصنع بك؟". [345]

عندما يخطئ الإنسان ضد الإله القدوس الرحيم فليس أشرف له ولا أكرم من أن يسير في طريق التوبة الخالصة معترفاُ بخطاياه بدموع وهو مر النفس. وهذا ما يطلبه الله منه، فهو لا يقبل شيئاً أقل من القلب المنكسر والروح المنسحقة ولكن الملك يهوياقيم ورؤساؤه رفضوا دعوة الله في عجرفة وكبرياء فلم يلتفتوا إلى الإنذار ولم يتوبوا. أن فرصة الرحمة المقدّمة لهم عند إحراق الدرج المقدّس كانت آخر فرصة لهم وقد أعلن الله أنهم إن رفضوا سماع صوته في ذلك الحين فسيجلب عليهم عقاباً مخيفاً. وقد رفضوا السماع فنطق بآخر حكم على يهوذا مفتقداً بغضبه الخاص الذي تشامخ في كبريائه وترفع فوق الله القدير.

"هكذا قال الرب عن يهوياقيم ملك يهوذا لا يكون له جالس على كرسي داود. وتكون جثته مطروحة

للحر نهاراً وللبرد ليلاً. وأعاقبه ونسله وعبيده على إثمهم. واجلب عليهم وعلى سكان أورشليم وعلى رجال يهوذا كل الشر الذي كلّمتهم عنه" (إرميا 36 : 30، 36).

لم يكن إحراق الدرج هو فصل الخطاب في الأمر. إن التخلص من الكلام المكتوب كان أمراً سهلاً أما التوبيخ والإنذار المتضمن في ذلك الكلام، والقصاص السريع الذي قضى به الله على شعب إسرائيل العاصي فلم يكن ممكناً التخلّص منه بمثل تلك السهولة ولكن حتى الدرج الذي قضى به الله على شعب إسرائيل العاصي فلم يكن ممكناً التخلّص منه بمثل تلك السهولة. ولكن حتى الدرج الذي أحرق بالنار أعيد نسخه. فقد أمر الرب خادمه قائلاً: "عد فخذ لنفسك درجاً آخر وأكتب فيه الكلام الأول الذي كان في الدرج الأول الذي أحرقه يهوياقيم ملك يهوذا". إن ذلك السفر الذي كان يحتوي على النبوات عن يهوذا وأورشليم كان قد أحرق وصار رماداً، ولكن الكلام كان لا يزال حياً في [346] قلب إرميا "كنار محرقة" وقد سُمح للنبي بأن يعيد نسخ ما أراد غضب الإنسان ملاشاته.

فإذا أخذ إرميا درجاً آخر أعطاه لباروخ الذي "كتب فيه عن فم إرميا كل كلام السفر الذي أحرقه يهوياقيم ملك يهوذا بالنار وزيد عليه أيضاً كلام كثير مثله" (إرميا 36 : 28، 32). لقد حاول غضب الإنسان أن يعطل ويمنع خدمات نبي الله ولكن نفس الوسائل التي حاول بها يهوياقيم أن يحد من تأثير خادم الرب قدّمت فرصة جديدة لتوضيح الأوامر الإلهية.

إن روح مقاومة التوبيخ التي أدّت إلى إضطهاد إرميا وسجنه لا تزال باقية إلى اليوم. إن كثيرين يرفضون أن يلقوا بالاً إلى الإنذارات المتكررة، ويؤثرون على ذلك، الإصغاء إلى المعلّمين الكذبة الذين يشجعون أباطيلهم ويغضون عن شرورهم. أمثال هؤلاء لن يجدوا ملجأ أميناً يلوذون به في يوم الضيق والبلية ولا يحصلون على معونة من السماء. فعلى خدّام الله المختارين أن يواجهوا التجارب والآلام التي تصيبهم من جراء الإهمال والتشهير وسوء الفهم بشجاعة وصبر. عليهم أن يواظبوا على أداء عملهم الذي قد أعطي لهم ليعملوه بأمانة متذكرين دائماً أن الأنبياء في القديم ومخلّص الجنس البشري ورسله أيضاً إحتملوا الإهانات والاضطهادات لأجل الكلمة.

لقد كان قصد الله أن ينتبه يهوياقيم إلى مشورات إرميا وهكذا ينال نعمة في عيني نبوخذنصر، ويوفر على نفسه كثيراً من الآلام والأحزان. لقد حلف الملك الشاب يمين الولاء بين يد ملك بابل، فلو ظل أميناً في وعده لكان قد ظفر باحترام الأمم وكان هذا ينتهي إلى الحصول على فرص ثمينة لهداية النفوس. [347]

إذ ازدرى ملك يهوذا بالامتيازات الفريدة الممنوحة له أصر على إتباع الطريق الذي يختاره. فلقد حنث في وعد الشرف الذي قطعه مع ملك بابل وتمرد عليه. وهذا جعله وشعبه في مأزق حرج جداُ. فقد جرد عليه "غزاة الكلدانيين وغزاة الآراميين وغزاة بني عمون" (2 ملوك 2 : 24). فأمسى عاجزاً عن منع هؤلاء الغزاة من اقتحام بلاده وفي خلال سنين قليلة اختتم سني ملكه المشؤومة بالعار. فرفضته السماء وصار مكروهاً من أمته وشعبه واحتقره حكام بابل الذين خان ثقتهم فيه — وكل هذا نتج عن غلطته المميتة في انصرافه عن قصد الله الذي أعلنه له رسوله المختار.

أما يهوياكين بن يهوياقيم (ويعرف أيضاُ بيكنياً وكنياهو) فقد جلس على العرش ثلاثة أشهر وعشرة أيام فقط وبعد ذلك استسلم لجيوش الكلدانيين التي بسبب تمرد ملك يهوذا عادت فحاصرت المدينة المقضي عليها بالهلاك. وفي ذلك الحين سبي نبوخذنصر: "يهوياكين إلى بابل وأم الملك ونساء الملك وخصيانه وأقوياء الأرض"، ويصل عددهم إلى عدة آلاف "والصناع والاقيان ألف". ومع هؤلاء أخذ ملك بابل "جميع خزائن بيت الرب وخزائن بيت الملك" (2 ملوك 24 : 15، 16، 13).

فإذ تحطمت قوة مملكة يهوذا وجُرّدت من قوّتها في الرجال وفي الأموال سُمح لها مع ذلك أن تبقى كحكومة منفصلة. وقد أقام نبوخذ نصر عليه متنيًّا ابن يوشيا الأصغر. وقد غير اسمه إلى صدقيا. [348]

الفصل السادس والثلاثون ـــآخر ملوك يهوذا

وثق ملك بابل بصديقاً في بداية حكمه ثقة كاملة وكان إرميا النبي الرجل المحنك مشيراً له. فلو اتبع طريقاً شريفاً حيال البابليين. والتفت إلى الرسائل الإلهية المرسلة إليه على لسان إرميا لظفر بالاحترام من ذوي السلطات وكانت ستتاح له الفرصة لنقل معرفة الله إليهم. ولحظي الأسرى الذين سبوا إلى بابل بامتياز، ولاعطيت لهم الحرية في كثير من الأمور، وكان سيتمجد اسم الله في كل مكان، ولأمكن لمن بقوا في أرض يهوذا أن يُحفظوا من الكوارث الهائلة التي أصابتهم أخيراً.

كان الملك صدقيا وكل يهوذا بمن فيهم المسبيين إلى بابل قد سمعوا بما أشار عليهم إرميا بأن يخضعوا بصمت للحكم المؤقت الذي فرضه عليهم غالبوهم وكان أمراً هاماً على الخصوص أن يطلب المسبيون سلامة البلاد التي سبوا إليها. ومع ذلك فكان هذا على نقيض ميول القلب البشري، وإذ انتهز الشيطان ميزة الظروف الراهنة جعل الأنبياء الكذبة يندسون بين الشعب في أورشليم وفي بابل بحيث أعلنوا أن نير العبودية سينكسر سريعاً وتعود للأمة كرامتها السالفة.

كان تصديق مثل تلك النبوات التي ترمي إلى التملق والمداهنة كفيل بأن يقود الملك والمسبيين إلى تحركات مميتة، بحيث تعطل مقاصد الله الرحيمة من أجلهم، فحتى لا تقوم ثورة تنجم عنها آلام كثيرة أمر الرب إرميا بأن يواجه الأزمة [349] فوراً بإنذاره ملك يهوذا بعواقب التمرد الوخيمة والأكيدة. كما تم إنذار المسبيين برسائل مكتوبة لئلا يُغرّر بهم فيصدقوا أن نجاتهم قريبة وقال لهم النبي "لا يغشكم أنبياؤكم الذين في وسطكم" (إرميا 29 : 8). وبهذه المناسبة ذكر قصد الرب في رد سبي شعبه في نهاية سبعين سنة يقضونها في السبي، كما أعلن على أفواه رسله.

بأية رقة وحنان أخبر الله شعبه المسبي بتدبيره لهم. لقد أدرك أنه لو أمكن للأنبياء الكذبة إقناعهم بانتظار النجاة السريعة لأمسى مركزهم في بابل شاقاً وشائكاً جداً. وأية مظاهرة أو ثورة يقومون بها كانت كفيلة بإيقاظ القوات الكلدانية الساهرة الشريرة القاسية بحيث تفرض قوانين أخرى للحد من حريتهم. وسيكون من نتائج ذلك سيلاً من الآلام والكوارث. لذا كان إرميا يريدهم الخضوع بهدوء لمصيرهم وأن يجعلوا من عبوديتهم فرصة ممتعة قدر استطاعتهم. فأشار عليهم قائلاً: "ابنوا بيوتاً واسكنوا واغرسوا جنات وكلوا ثمرها .. واطلبوا سلام المدينة التي سبيتكم إليها وصلوا لأجلها إلى الرب لأنه بسلامها يكون لكم سلام" (إرميا 29 : 5 — 7).

كان بين المعلّمين الكذبة رجلان ادعيا لنفسيهما القداسة بينما كانت حياتهما فاسدة. وقد أدان إرميا الطريق الشرير الذي سلكه ذانك الرجلان كما أنذرهما بالخطر الذي يتهددهما. فإذ أغضبهما التوبيخ حاولا مقاومة عمل إرميا بإثارة الشعب ضده لمعارضة أقواله وللتصرف على نقيض مشورة الله في أمر الخضوع لملك بابل وقد شهد الرب على لسان إرميا بأن هذين النبيين الكاذبين لا بد أن يقعا في يدي نبوخذنصر ويقتلا أمام عينيه. وبعد وقت تمت هذه النبوة حرفياً. [350]

وإلى إنقضاء الدهر سيقوم، رجال لإثارة التشويش والعصيان بين مدعي اتباع الإله الحقيقي فالذين

يتنبأون بالأكاذيب يسجعون الناس على النظر إلى الخطيئة كأمر زهيد وطفيف. عندما تظهر العواقب الرهيبة لطرقهم الشريرة وأعمالهم الآثمة سيحاولون ما أمكنهم أن يجعلوا من أنذرهم بأمانة مسؤول عن مشقاتهم ومتاعبهم، كما اتهم اليهود إرميا بأنه السبب في حظهم المنكود وسوء طالعهم. ولكن على قدر ما نوقن من أن كلام الرب على فم نبيه قد تزكى قديماً، فبنفس ذلك اليقين سيثبت صدق رسائله اليوم.

وقد انتهج إرميا مسلكاً ثابتاً منذ البداية في إشارته على الشعب بالخضوع للبابليين. ولم تقدّم هذه المشورة إلى يهوذا وحسب بل إلى كثير من الأمم المحيطة. ففي أوائل ملك صدقيا زار سفراء من قبل ملوك أدوم وموآب وصور وأمم أخرى ملك يهوذا ليعلموا ما إذا كان الوقت بحسب حكمه موافقاً للاشتراك معاً في ثورة وما إذا كان سينضم إليهم في إثارة الحرب على ملك بابل. وإذا كان هؤلاء الرسل ينتظرون من الملك إستجابة كانت كلمة الرب إلى إرميا تقول: اصنع لنفسك ربطاً وأنياراً واجعلها على عنقك. وارسلها إلى ملك أدوم وإلى ملك موآب وإلى ملك بني عمون وإلى ملك صور وإلى ملك صيدون بيد الرسل القادمين إلى أورشليم إلى صدقيا ملك يهوذا" (إرميا 27 : 3 : 2).

وقد أمر إرميا بأن يعلم أولئك الرسل ليخبروا ملوكهم بأن الله قد أسلمهم جميعاً في يد نبوخذنصر ملك بابل وأن عليهم أن يخدموه وابنه وابن ابنه حتى يأتي وقت أرضه" (إرميا 27 : 7).

وقد أخبر أولئك الرسل فوق ذلك أن يعلنوا لملوكهم أنهم رفضوا خدمة ملك بابل فلابد من عقاب يحل بهم "بالسيف والجوع والوبا" حتى يفنوا. وكان [351] عليهم أن يرفضوا بوجه خاص تعليم الأنبياء الكذبة الذين قد يشيرون عليهم بمشورة مخالفة فأعلن الرب قائلاً: "فلا تسمعوا أنتم لأنبيائكم وعرافيكم وحالميكم وعائفيكم وسحرتكم الذين يكلمونكم قائلين لا تخدموا ملك بابل أنهم إنما يتنبأون بالكذب لكي يبعدوكم من أرضكم ولاطردكم فتهلكوا والأمة التي تدخل عنقها تحت نير ملك بابل وتخدمه أجعلها تستقر في أرضها يقول الرب وتعملها وتسكن بها" (إرميا 27 : 8 — 11). إن أخف قصاص كان يمكن لإله الرحيم أن يوقعه على شعب متمرد كان هو الخضوع لحكم بابل، أما إذا تمردوا على الحكم بالعبودية فلابد لهم من أنا ينالوا تأديباً صارماً.

وقد تجاوزت دهشة مجلس الأمم المجتمع كل حد عندما أخبرهم إرميا بإرادة الله وعرفهم بها وهو حامل نير الخضوع على عنقه.

وقد قاوم إرميا فكرة الإصرار على المقاومة والتمرد وحبّذ سياسة الخضوع. وكان حننيا النبي الكذاب الذي قيل للشعب أن يتحذروا منه، في طليعة الذين تجرأوا على معارضة ومقاومة مشورة الرب. وإذ ظن أن يظفر برضى الملك ورجال البلاط، رفع صوته محتجاً، معلناً أن الله قد أعطاه رسالة تشجيع لليهود. فقال: "هكذا تكلّم رب الجنود إله إسرائيل قائلاً قد كسرت نير ملك بابل. في سنتين من الزمان أراد إلى هذا الموضع كل آنية بيت الرب التي أخذها نبوخذنصر ملك بابل من هذا الموضع وذهب بها إلى بابل، وأراد إلى هذا الموضع يكنيا بن يهوياقيم ملك يهوذا وكل سبي يهوذا الذين ذهبوا إلى بابل يقول الرب لأني اكسر نير ملك بابل" (إرميا 28 : 2 — 4).

أما إرميا فقد توسل بإخلاص في حضور الكهنة والشعب بأن يخضعوا لملك بابل مدى الزمن الذي حدده الرب. وقد وجه انتباه رجال يهوذا إلى نبوات [352] هوشع وحبقوق وصفنيا وغيرهم الذين حملوا رسائل توبيخ وإنذار ألقوها على مسامع الشعب شبيهة برسالته. كما وجه انتباههم إلى حوادث تمّت طبقاً لنبوات إيقاع الجزاء على الخطيئة التي لم يعترف بها أصحابها ولا تابوا عنها. ففي الزمن الماضي افتقد الرب بأحكامه غير التائبين اتماماً مضبوطاً لقصده كما أعلن على أفواه رسله.

وفي الختام إقترح إرميا قائلاً: "النبي الذي تنبأ بالسلام فعند حصول كلمة النبي عُرف ذلك النبي أن الرب قد أرسله حقاً" (إرميا 28 : 9). فإذا اختار إسرائيل المجازفة فإن التطورات المستقبلية كانت ستقرر

بكيفية فعّالة من هو النبي الصادق.

ولكن أقوال إرميا التي أشار فيها على الشعب بالخضوع أثارت ثائرة حننيا ففي جرأة تحدي إرميا ليبرهن أن رسالته التي ألقاها هي رسالة غير موثوق بها فإذا أخذ النير الرمزي عن عنق إرميا كسره حننيا قائلاً: ”هكذا قال الرب هكذا اكسر نير نبوخذنصر ملك بابل في سنتين من الزمان عن عنق كل الشعوب“.

”وانطلق إرميا النبي في سبيله“ (إرميا 28 : 11). وكان يبدو أنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً أكثر من أن ينسحب من حومة الصراع. ولكن إرميا تلقي رسالة أخرى، فقد أمره الرب قائلاً: ”اذهب وكلّم حننيا قائلاً هكذا قال الرب قد كسرت أنيار الخشب وعملت عوضاً عنها أنياراً من حديد لأنه هكذا قال رب الجنود إله إسرائيل قد جعلت نيراً من حديد على عنق كل هؤلاء الشعوب ليخدموا نبوخذنصر ملك بابل فيخدمونه ..

”فقال إرميا النبي لحننيا النبي إسمع يا حننيا، إن الرب لم يسلك وأنت قد جعلت هذا الشعب يتّكل على الكذب. لذلك هكذا قال الرب هأنذا طاردك عن [353] وجه الأرض. هذه السنة تموت لأنك تكلمت بعصيان على الرب. فمات حننيا النبي في تلك السنة في الشهر السابع“ (إرميا 28 : 13— 17).

كان هذا النبي الكذاب قد قوى عدم إيمان الشعب وشكوكهم في إرميا ورسالته. وبكل شر وإثم وخبث أعلن عن نفسه أنه رسول الرب، وكان من نتائج ذلك أنه مات. ففي الشهر الخامس تنبأ إرميا بموت حننيا وفي الشهر السابع تمّت نبوته وهكذا ثبت صدقها.

إن عدم الاستقرار الذي كان سببه أكاذيب الأنبياء وأقوالهم الباطلة، أوقع صدقيا في موضوع الشك والخيانة. ولم يكن يُسمح له أن يظلّ ملكاً خاضعاً إلا بالفعل السريع الحاسم. وقد أحسن استخدام الفرصة التي سنحت بعد وقت قصير من عودة السفراء من أورشليم إلى ممالكهم المحيطة بيهوذا، للقيام بذلك العمل فذهب صدقيا في صحبة سرايا ”رئيس المحلة“ (إرميا 51 : 59). في مأمورية هامة إلى بابل. ففي أثناء زيارة صدقيا هذه للبلاط. الكلداني جدد يمين الولاء لنبوخذنصر.

وعن طريق دانيال وغيره من المسبيين العبرانيين تعرف ملك بابل على قوة الإله الحقيقي وسلطانه الفائق، وعندما وقد صدقيا مرة أخرى وعداً مقدساً خطيراً بأن يظل أميناً طلب منه نبوخذنصر بأن يحلف بإسم الرب إله إسرائيل تثبيتاً لذلك الوعد. فلو كان صدقيا قد احترم تجديد قسم العهد هذا لكان لولائه تأثير عظيم على عقول كثيرين ممن كانوا يراقبون تصرف أولئك الذين كانوا يدّعون أنهم يكرمون إسم إله العبرانيين ويكنون له كل إكرام وتوقير.

ولكن ملك يهوذا غض النظر عن الامتياز السامي الذي كان له بإكرام إسم الإله الحي. ويسجل لنا الوحي هذه الكلمات عن صدقيا: ”وعمل الشر في عيني [354] الرب إلهه ولم يتواضع أمام إرميا النبي من فم الرب. وتمرد أيضاً على الملك نبوخذنصر الذي حلّفه بالله وصلّب عنقه وقوّى قلبه عن الرجوع إلى الرب إله إسرائيل“ (2 أخبار الأيام 36 : 12، 13).

وفيما كان إرميا يواصل تقديم شهادته في أرض يهوذا أقيم النبي حزقيال من بين المسبيين في بابل لينذر المسبيين ويعزيهم، وبذلك يثبت كلمة الرب التي كان إرميا يتكلّم بها ففي أثناء السنوات التي بقيت من ملك صدقيا أوضح حزقيال جهالة الإتكال على النبوات الكاذبة التي كان ينطق بها الذين جعلوا بني السبي يؤملون في الرجوع إلى أورشليم سريعاً وقد أمر أيضاُ بأن ينبئ بواسطة جملة رموز ورسائل خطيرة عن حصار أورشليم سريعاُ وقد أمر أيضاً بأن ينبئ بواسطة جملة رموز ورسائل خطيرة عن حصار أورشليم وخرابها التام.

وفي السنة السادسة من ملك صدقيا أعلن الرب لحزقيال في رؤيا، بعض الرجاسات التي كانت تُرتكب في أورشليم وفي داخل باب بيت الرب وحتى الرواق الداخلي. فالغرف التي كانت فيها التماثيل وصور الأصنام من ”كل شكل دبابات وحيوان نجس وكل أصنام بيت إسرائيل“ (حزقيال 8 : 10) — كل هذه

مرت في تتابع سريع أمام عيني النبي المندهشين.

والذين كان ينبغي أن يكونوا قادة الشعب الروحيين "شيوخ بيت إسرائيل" البالغ عددهم سبعين رجلاً رآهم النبي وهم يبخرون أمام صور الأصنام التي كانت قد أدخلت إلى المخادع في داخل تخوم رواق الهيكل وإذا كان رجال يهوذا يمارسون هذه الأعمال الوثنية كانوا يخدعون أنفسهم بالقول: "الرب لا يرانا! الرب قد ترك الأرض" (حزقيال 8 : 11، 12). هكذا جدفوا وهكذا قالوا.

وكانت توجد "رجاسات أعظم" ليراها النبي. فعند باب يؤدي من الرواق الخارجي إلى الرواق الداخلي آراه الرب "نسوة يبكين على تمّوز". وفي داخل [355] "دار بيت الرب الداخلية وإذا عند باب هيكل الرب بين الرواق والمذبح نحو خمسة وعشرين رجلاً ظهورهم نحو هيكل الرب ووجوههم نحو الشرق وهم ساجدون للمشس نحو الشرق" (حزقيال 8 : 13 — 16).

أما الآن فها هو الكائن الإلهي المجيد الذي رافق حزقيال في كل هذه الرؤيا المدهشة عن الشر الذي في المرتفعات في أرض يهوذا يسأل النبي قائلاً: "أرأيت يا ابن آدم؟ اقليل لبيت يهوذا عمل الرجاسات التي عملوها هنا؟ لأنهم قد ملأوا الأرض ظلماً ويعودون لإغاظتي وها هم يقربون الغصن إلى أنفهم (وقربوا كل ما هو مُنتّن في هيكلي — الترجمة التفسيرية). فأنا أيضاً أعامل بالغضب لا تشفق عيني ولا أعفو. وإن صرخوا في أذني بصوت عال لا أسمعهم" (حزقيال 8 : 17، 18).

وقد أعلن الرب على لسان إرميا عن الناس الأشرار الذين تجرأوا في غطرستهم على الوقوف أمام الشعب باسمه، فقال: "لأن الأنبياء والكهنة تنجسوا جميعاً بل في بيتي وجدت شرهم" (إرميا 23 : 11). وفي المحاكمة الرهيبة ليهوذا كما سجلها المؤرخ في نهاية حديثه عن حكم صدقيا، تكرر ذكر التهمة المتعلقة بتنجيس قدسية الهيكل. فقد قال الكاتب المُلهم: "حتى أن جميع رؤساء الكهنة والشعب أكثروا الخيانة حسب كل رجاسات الأمم ونجسوا بيت الرب الذي قدّسه في أورشليم" (2 أخبار الأيام 36 : 14).

كان يوم الدينونة والهلاك على مملكة يهوذا قادم سريعاً. فما عاد الرب يستطيع أن يضع أمامهم الرجاء في تجنيبهم أقسى أحكامه: "فهل تتبرأون أنتم؟ لا تتبرأون" (إرميا 25 : 29). [356]

بل حتى هذا الكلام قوبل بالهزء والسخرية. فقد أعلن غير التائبين قائلين: "قد طالت الأيام وخابت كل رؤيا" (حزقيال 12 : 32). ولكن إنكار كلمة النبوّة الثابتة قد تلقى توبيخاً صارماً على لسان حزقيال. فقد أعلن الرب قائلاً: "قل لهم أبطل هذا المثل فلا يمثلون به بعد في إسرائيل بل قال لهم اقتربت الأيام وكلام كل رؤيا لأنه لا تكون بعد رؤيا باطلة ولأعرافه ملقى في وسط بيت إسرائيل. لأني أنا الرب أتكلم والكلمة التي أتكلم بها تكون. لا تطول بعد. لأني في أيامكم أيها البيت المتمرد أقول الكلمة وأجريها يقول السيد الرب".

وقد شهد حزقيال قائلاً: "وكان إلى كلام الرب قائلاً يا ابن آدم هوذا بيت إسرائيل قائلون الرؤيا التي هو رائيها هي إلى أيام كثيرة وهو متنبئ لأزمنة بعيدة. لذلك قل لهم هكذا قال السيد الرب لا يطول بعد شيء من كلامي. الكلمة التي تكلّمت بها تكون يقول السيد الرب" (حزقيال 12 : 21 — 28).

وكان في طليعة الذين كانوا يسرعون بالأمة إلى الهلاك صدقيا ملكهم. فإذ ترك مشورات الرب التي جاءت على أفواه الأنبياء ناسياً دين الشكر والامتنان الذي كان مديناً به لنبوخذنصر، وإذ حنث في العهد المقدّس، عهد الولاء باسم الرب إله إسرائيل، فإن ملك يهوذا قد عصى على الأنبياء وعلى من أحسن إليه، وعلى إلهه. ففي غرور حكمته الباطلة اتّجه في طلب المعونة من عدو إسرائيل القديم الذي لم يُرد لها النجاح والازدهار "تمرّد عليه بإرساله رسله إلى مصر ليعطوه خيلاً وشعباً كثيرين".

وقد سأل الرب عن ذاك الذي بكل خسّة خان عهده المقدّس قائلاً: "فهل ينجح؟ هل يفلت فاعل هذا؟ أو ينقض عهداً ويفلت؟ حي أنا يقول السيد الرب. إن في موضع الملك الذي ملّكه الذي ازدرى قسمه ونقض

عهده فعنده في [357] وسط بابل يموت ولا بجيش عظيم وجمع غفير يعينه فرعون في الحرب .. إذ ازدرى القسم لنقض العهد وهوذا قد أعطى يده وفعل هذا كلّه فلا يفلت" (حزقيال 17 : 15 — 18).

وقد جاء يوم الحساب الأخير على "النجس الشرير رئيس إسرائيل" فقد أعلن الرب قائلاً: "انزع العمامة. ارفع التاج". وما كان يُسمح لشعب يهوذا ثانية أن يُقيموا عليهم ملكاً إلا بعدما يقيم المسيح نفسه ملكوته. قد كان حكم الله عن عرش بيت داود هو هذا "منقلباً منقلباً منقلباً أجعله. هذا أيضاً لا يكون حتى يأتي الذي له الحكم فأعطيه إياه" (حزقيال 21 : 25 — 27). [358]

الفصل السابع والثلاثون — الملك يُسبى إلى بابل

في السنة التاسعة من ملك صدقيا: "جاء نبوخذنصر ملك بابل هو وكل جيشه على أورشليم" لكي يحاصر المدينة (2 ملوك 25 : 1). كانت دلائل المستقبل ليهوذا ميؤوساً منها. فقد أعلن الرب نفسه على لسان حزقيال يقول: "هأنذا عليك واستل سيفي من غمده .. لا يرجع أيضاً .. فيذوب في قلب وترتحي كل الأيدي وتيأس كل روح وكل الركب تصير كالماء". "واسكب عليك غضبي وانفخ عليك بناء غيظي واسلمك ليد رجال متحرقين ماهرين للإهلاك" (حزقيال 21 : 3، 5 — 7، 31).

وحاول المصريون أن يأتوا لإنقاذ المدينة المحاصرة، فلكي يصدّهم الكلدانيون فكوا الحصار عن عاصمة اليهودية بعض الوقت. فأنتعش الأمل في قلب صدقيا وأرسل رسولاً إلى إرميا يسأله أن يصلّي إلى الله لأجل العبرانية.

وكان جواب النبي هو أن الكلدانيين سيعودون إلى المدينة ويخربونها. لقد خرج الحكم ولن تستطيع تلك الأمة القاسية القلب أن تتفادى أحكام الله. فقد أنذر الرب شعبه قائلاً: "لا تخدعوا أنفسكم أن الكلدانيين .. لا يذهبون. لأنكم وإن ضربتم كل جيش الكلدانيين الذين يحاربونكم وبقي منهم رجال قد طُعنوا فأنهم يقومون كل واحد في خيمته ويحرقون هذه المدينة بالنار" (إرميا 37 : 9، 10). وكانت البقية الباقية من يهوذا مومعة أن تذهب إلى السبي، [359] لكي يتعلّموا بواسطة الضيق والشدة الدروس التي رفضوا أن يتعلموها في ظروف مؤاتية. ولم يكن يمكن نقض هذا الحكم الذي أصدره الساهر القدوس.

وكان بين الأبرار الذين كانوا لا يزالون في أورشليم الذين توضّحت أمامهم مقاصد الله، جماعة حاولت إبعاد التابوت المقدّس الذي كان يحتوي على لوحي الحجر المكتوب عليهما الوصايا العشر، كي لا تصل إليه الأيدي التي لا ترحم. وهذا مافعلوه. فبعيون دامعة حزينة اخفوا التابوت في مغارة بعيداً عن شعب إسرائيل ويهوذا بسبب خطاياهم، على ألا يُعاد إليهم قط. ولا يزال ذلك التابوت المقدّس مخفياً، ومنذ أخفي لم يمس بأذى.

وظلّ إرميا واقفاً أمام الشعب شاهداً أميناً لله سنين طويلة، أما الآن إذ كانت المدينة المقضي عليها بالهلاك مزمعة أن تسقط في أيدي الأمم اعتبر النبي أن عمله قد انتهي. فحاول أن يرحل ولكن ابن أحد الأنبياء الكذبة منعه ذلك وأخبر المسؤولين بأن إرميا مزمع أن ينضم إلى البابليين الذين كان قد ألح على رجال يهوذا مراراً بأن يستسلموا لهم. ولكن النبي انكر هذه التهمة الكاذبة عن هروبه، ومع ذلك: "غضب الرؤساء على إرميا وضربوه وجعلوه في بيت السجن" (إرميا 37 : 15).

وسرعان ما تلاشت وتحطمت الآمال التي كانت قد تولدت في قلوب الرؤساء والشعب عندما اتجهت جيوش نبوخذنصر جنوباً لمواجهة المصريين. وكانت هي كلمة الرب: "هأنذا عليك يا فرعون ملك مصر". وقد كانت قوة مصر قصبة مرضوضة. قد أعلن الوحي قائلاً: "ويعلم كل سكان مصر إني أنا الرب من أجل كونهم عكاز قصب لبيت إسرائيل". "واشدد ذراعي ملك بابل أما ذراعا [360] فرعون فتسقطان فيعلمون إني أنا الرب حين أجعل سيفي في يد ملك بابل فيمده على أرض مصر" (حزقيال 29 :

3، 6 ؛ 30 : 25، 26).

وبينما كان رؤساء يهوذا يتطلعون عبثاً إلى مصر في طلب العون فإن الملك صدقيا كان يفكر بقلق في نبي الله الذي كان قد ألقي به في السجن. فيعد أيام كثيرة استدعاه الملك وسأله سراً قائلاً: "هل توجد كلمة من قبل الرب؟ فقال إرميا توجد. فقال إنك تُدفع ليد ملك بابل".

"ثم قال إرميا للملك صدقيا ما هي خطيئتي إليك وإلى عبيدك وإلى هذا الشعب حتى جعلتموني في بيت السجن؟ فأين أنبياؤكم الذين تنبأوا لكم قائلين لا يأتي ملك بابل عليكم ولا على هذه الأرض؟ فالآن اسمع يا سيدي الملك ليقع تضرعي أمامك ولا تردني إلى بيت يوناثان الكاتب فلا أموات هنا" (إرميا 37 : 17 — 20).

وعند هذا أمر صدقيا: "أن يضعوا إرميا في دار السجن وأن يُعطى رغيف خبز كل يوم من سوق الخبازين. حتى ينفذ كل الخبز من المدينة. فأقام إرميا في دار السجن" (إرميا 37 : 21).

ولم يجرؤ الملك على المجاهرة بتصديقه لإرميا. فمع أن خوفه ساقه إلى استخباره سراً فكان أضعف من أن يعارض استنكار الرؤساء والشعب في الخضوع لإرادة الله كما أعلنها النبي.

وإذ كان إرميا في دار السجن ظلّ ينصح بوجوب الخضوع لحكم بابل. فالمقاومة معناها الترحيب بالموت الأكيد. وكانت رسالة الرب إلى يهوذا هي هذه: "الذي يقيم في هذه المدينة يموت بالسيف والجوع والوباء. أما الذي [361] يخرج إلى الكلدانيين فإنه يحيا وتكون له نفسه غنيمة فيحيا". فهذا الكلام الذي قيل كان واضحاً وإيجابياً. وبكل شجاعة أعلن النبي قائلاً باسم الرب: "هذه المدينة ستدفع دفعاً ليد جيش بابل فيأخذها" (إرميا 38 : 2، 3).

أخيراً إذ غضب الرؤساء من مشورات إرميا المتكررة التي كانت على نقيض سياسة المقاومة التي اتّبعوها، قدّموا احتجاجاً شديداً للملك مؤكدين له أن النبي عدو للأمة وأن أقواله جعلت أيدي الشعب ترتخي وجلبت عليهم سوء الطالع، ولذلك ينبغي أن يُقتل.

علم ذلك الملك الجبان أن آلهتهم كاذبة، ولكن لكي يهدئ من ثائرة الذين يشغلون مراكز ذات نفوذ في الدولة، تظاهر بأنه يصدق أكاذيبهم وأسلم إرميا بين أيديهم ليفعلوا به كما يحلو لهم. فألقى النبي: "في جب ملكيا ابن الملك الذي في دار السجن ودلوا إرميا بحبال. ولم يكن في الجب ماء بل وحل فغاص إرميا في الوحل" (إرميا 38 : 6). ولكن الله أقام له أصدقاء توسّلوا لأجله أمام الملك وقد نقلوه إلى دار السجن مرة أخرى.

ومرة أخرى أرسل الملك إلى إرميا سراً وأمره أن يحدّثه بكل أمانة عن قصد الله نحو أورشليم. وجواباً على ذلك الطلب سأله إرميا قائلاً: "إذا أخبرتك أما تقتلني قتلاً؟ وإذا أشرت عليك فلا تسمع لي". فدخل الملك في عهد سري مع النبي، وأعلن صدقيا يقول: "حي هو الرب الذي صنع لنا هذه النفس أني لا أقتلك ولا أدفعك ليد هؤلاء الرجال الذين يطلبون نفسك" (إرميا 38 : 15، 16).

كانت لا تزال توجد فرصة باقية فيها يظهر الملك استعداده للالتفات لإنذارات الرب عساه يمزج الرحمة بالحكم الذي بدأ يحلّ بالمدينة والأمّة. فكانت الرسالة المقدّمة للملك هي هذه: "إن كنت تخرج جروحاً إلى رؤساء ملك [362] بابل تحيا نفسك ولا تُحرق هذه المدينة بالنار بل تحيا أنت وبيتك. ولك أن كنت لا تخرج إلى رؤساء ملك بابل تدفع هذه المدينة ليد الكلدانيين فيحرقونها بالنار وأنت لا تفلت من يدهم.

"فقال صدقيا الملك لإرميا إني أخاف من اليهود الذين قد سقطوا للكلدانيين لئلا يدفعوني ليدهم". فوعده النبي قائلاً: "لا يدفعونك". وأضاف إلى ذلك توسّله الحار قائلاً: "اسمع لصوت الرب في ما أكلمك

أنا به فيحسن إليك وتحيا نفسك" (إرميا 38 : 17 — 20).

وهكذا فحتى إلى آخر ساعة أبدى الله استعداده لأن يُظهر الرحمة لمن يختارون الخضوع لمطالبة العادلة. فلو اختار الملك الطاعة لأبقى على حياة الشعب ولكانت نجت المدينة من الحريق، ولكنّه ظن أنه أوغل في طريقه إلى أبعد الحدود بحيث لا يمكنه الرجوع. كان خائفاُ من سخرية اليهود إذ كان يخشى على حياته. فبعد سنوات طويلة من العصيان على الله ظن صدقيا أنه من دواعي الإذلال والهوان له أن يقول لشعبه: "إني أقبل كلمة الرب كما تكلّم بها إرميا النبي، ولا أجرؤ على المخاطرة بمحاربة العدو أمام كل هذه الإنذارات".

وتوسّل إرميا بدموع إلى صدقيا لينقذ نفسه وشعبه. وفي عذاب روحه أكد له أنه ما لم ينتبه إلى مشورة الله فلن يستطيع أن ينجو بحياته، وكل أملاكه وثروته سيغتنمها البابليون. ولكن الملك كان قد بدأ بالسلوك في طريق الضلال ولم يرد أن يتراجع. لقد عزم على اتباع مشورة الأنبياء الكذبة ومشورة الرجال الذين كان يحتقرهم حقاً وكانوا يسخرون منه لضعفه في الخضوع بكل سرعة لرغباتهم. فقد ضحى بحرية رجولته وكرامته وأمسى عبداً ذليلاً للرأي العام. فإذ لم يكن لديه قصد ثابت لفعل الشر، لم يكن أيضاً ذا عزم للوقوف بشجاعة إلى جانب الحق. [363] ومع اقتناعه بقيمة المشورة له من إرميا كانت تعوزه القوة الأدبية على الطاعة وكان من نتائج ذلك أنه سار بإصرار في الاتجاه الخاطئ.

وأكثر من هذا فقد كان الملك أضعف من أن يطلع رجال بلاطه على لقائه مع إرميا، فقد تسلّط على نفسه خوف شديد من الناس. فلو وقف بشجاعة وأعلن تصديقه لأقوال النبي التي قد تحقق جانب كبير منها فما كان أعظم الخراب الذي كان يمكّنه أن يتفاداه، كان ينبغي له أن يقول: "إني سأطيع الرب وأنقذ المدينة من الدمار التام. أنا لا أجرؤ على الاستخفاف بأوامر الله لا خوفاً من الناس ولا سعياً وراء الظفر برضاهم. إني أحب الحق وأكره الخطيئة وسأتبع مشورة قدوس إسرائيل القدير". وحينئذ كان الشعب يحترمون روحه الباسلة، والذين كانوا يتأرجحون بين الإيمان والشك كانوا يقفون بثبات إلى جانب الحق. وإن عدم الخوف والعدالة التي ينطوي عليها هذا التصرف كان يمكن أن يلهم رعاياه بالإعجاب والولاء. وكان سيُحفظ من ويلات المذابح والمجاعات وحريق النار، التي لا يعبّر عنها.

كان ضعف صدقيا خطيئة أوقعت عليه قصاصاً مخيفاً. لقد اكتسح العدو البلاد كسيل جارف لا يُقاوم، ودمر المدينة، وقد انهزمت جيوش العبرانيين وارتدت وشملها الارتباك والفوضى. ودُحّرت الأمة. وأخذ صدقيا أسيراُ وقُتل بنوه أمام عينيه. ثم أخذ الملك أسيراً بعيداً عن أورشليم، وقُلعت عيناه، وبعدما وصل إلى بابل مات ميتة ذليلة. والهيكل الجميل الذي ظلّ يتوج هامة جبل صهيون حقبة تزيد على أربعة قرون لم يبق الكلدانيون عليه. "أحرقوا بيت الله. وهدموا سور أورشليم وأحرقوا جميع قصورها بالنار وأهلكوا جميع آنيتها الثمينة" (2 أخبار 36 : 19). [364]

وعند تخريب أورشليم نهائياُ بيد نبوخذنصر نجا كثيرون من أهوال الحصار الطويل ليقعوا بحد السيف. أما الذين ظلّوا أحياء، فبعض منهم وعلى الخصوص رئيس الكهنة ورؤساء الجيش ورؤساء المملكة أخذوا إلى بابل حيث قتلوا كخونة. وآخرون أخذوا مسبيين ليعيشوا في ذل العبودية لنبوخذنصر وبنيه "إلى أن ملكت فارس لإكمال كلام الرب بفم إرميا" (2 أخبار 36 : 20، 21).

أما إرميا فقد ورد عنه هذا القول: "أوصى نبوخذنصر ملك بابل على إرميا نبوزراذان رئيس الشرطة قائلاً خذه وضع عينيك عليه ولا تفعل به شيئاً رديئاً بل كما يكلمك هكذا أفعل معه" (إرميا 39 : 11، 12).

اختار النبي بعدما أخرجه رؤساء جيش بابل من السجن أن يلقي قرعته مع البقية الضعيفة: "فقراء الأرض" الذين ترمهم الكلدانيون ليكونوا "كرامين وفلاحين". وقد أقام البابليون على هؤلاء جدلياً حاكماً. ولكن لم تمر غير شهور قليلة بعد تعيين هذا الحاكم الجديد حتى قتل غيلة. وبع أن جاز ذلك الشعب الفقير

في تجارب ومحن كثيرة أقنعهم قادتها أن يحتموا في أرض مصر. ولكن إرميا رفع صوته محتجاً على هذه الحركة فتوسل إليهم قائلاً: "لا تذهبوا إلى مصر". ولكنهم لم يعيروا تلك المشورة الموحى بها أي إهتمام. و "كل بقية يهوذا .. الرجال والنساء والأطفال" هربوا إلى مصر: "لم يسمعوا لصوت الرب. وأتوا إلى تحفنحيس" (إرميا 43 : 5 — 7).

ولكن نبوات الدينونة التي نطق بها إرميا على البقية التي تمردت على نبوخذنصر بالهروب إلى مصر كانت ممتزجة بوعود الغفران لمن يتوبون عن جهالتهم ويقفون متأهبين للرجوع. ففي حين أن الرب لم يرد أن يبقى على من حادوا عن مشورته ومالوا إلى مغريات العبادة الوثنية في مصر، فقد أراد أن يظهر [365] رحمة لمن يبرهنون على ولائهم وأمانتهم. فقد أعلن قائلاً: "والناجون من السيف، يرجعون من أرض مصر إلى أرض يهوذا نفراً قليلاً فيعلم كل بقية يهوذا الذين أتوا إلى أرض مصر ليغتربوا فيها كلمة أينا تقوم" (إرميا 44 : 28).

وكان حزن النبي شديداً على الفساد الذي ظهر في حياة الشعب الذي كان ينبغي أن يكون النور الروحي للعالم، وعلى مصير صهيون والشعب الذي أخذ مسبياً إلى بابل. وقد عبر عن ذلك المراثي التي سجلها تذكاراً لجهالة الجنوح عن مشورات الرب إلى الحكمة البشرية. ففي وسط الخراب الذي حدث أمكن لإرميا أن يعلن قائلاً: "أنه من إحسانات الرب أننا لم نفن". وكانت صلاته الدائمة هي هذه: "لنفحص طرقنا ونمتحنها ونرجع إلى الرب" (مراثي 3 : 22، 40). عندما كانت يهوذا مملكة بين الأمم سأل إرميا إلهه قائلاً: "هل رفضت يهوذا رفضاً أو كرهت نفسك صهيون؟" وقد تجرأ على أن يتوسل قائلاً: "لا ترفض لأجل اسمك" (إرميا 14 : 19، 21). إن إيمان النبي التام في قصد الله الأزلي لتحويل الفوضى إلى نظام ولإظهار صفاته العادلة والمحبة أمام أمم الأرض والمسكونة كلها، ساقه للتسول بكل ثقة لأجل الذين كان يمكن أن يرجعوا عن الشر إلى البر.

أما الآن فها هي صهيون قد شملها الخراب التام، وشعب الله هم في أرض سبيهم. فإذ غمر نفس النبي حزن عظيم صرخ قائلاً: "كيف جلست وحدها المدينة الكثيرة الشعب، كيف صارت كأرملة العظيمة في الأمم، السيدة في البلدان صارت تحت الجزية. تبكي في الليل بكاء ودموعها على خديها. ليس لها معز من كل محبيها. كل أصحابها غدروا بها صاروا لها أعداء".

"قد سبيت يهوذا من المذلة ومن كثرة العبودية. هي تسكن بين الأمم لا تجد راحة. قد أدركها كل طارديها بين الضيقات. طرق صهيون نائحة لعد الآتين إلى [366] العيد. كل أبوابها خربة. كهنتها يتنهدون. عذاراها مذللة وهي في مرارة. صار مضايقوها رأساً نجح أعداؤها لأن الرب قد أذلها لأجل كثرة ذنوبها. ذهب أولادها إلى السبي قدام العدو".

"كيف غطى السيد بغضبه ابنة صهيون بالظلام. ألقى من السماء إلى الأرض فخر إسرائيل ولم يذكر موطئ قدميه في يوم غضبه. ابتلع السيد ولم يشفق كل مساكن يعقوب. نقض بسخطه حصون بنت يهوذا، أوصلها إلى الأرض نجس المملكة ورؤساءها. غضب (بتر) بحمو غضبه كل قرن لإسرائيل. رد إلى الوراء يمينه أمام العدو واشتغل في يعقوب مثل نار ملتهبة تأكل ما حواليها. مد قوسه كعدو نصب يمينه كمبغض وقتل كل مشتهيات العين في خباء بنت صهيون. سكب كنار غيظه.

"بماذا أنذرك؟ بماذا أحذرك؟ بماذا أشبهك يا ابنة أورشليم؟ بماذا أقاسيك فاعذبك أيتها العذراء بنت صهيون؟ لأن سحقك عظيم كالبحر. من يشفيك؟".

"أنت يا رب إلى الأبد تجلس. كرسيك إلى دور فدور. لماذا تنسانا إلى الأبد، وتتركنا طوال الأيام. أردنا يا رب إليك فنرتد. جدد أيامنا كالقديم" (مراثي 1 : 1 — 5 ؛ 2 : 1 — 4، 13 ؛ 5 : 1 — 3، 7، 8، 17، 19 — 21). [367]

الفصل الثامن والثلاثون — نور يبدد الظلام

كان يمكن أن تجلب سنوات الدمار والموت التي كانت النهاية الطبيعية التي انتهت إليها مملكة يهوذا اليأس إلى أشجع القلوب وأقواها لولا التشجيع الذي توفّر في الأقوال النبوية التي نطق بها رسل الله. فلقد أوضح الله رحمته وقصده الأزلي بواسطة إرميا في أورشليم، ودانيال في بلاط بابل وحزقيال على شواطئ نهر خابور، وقدّم تأكيداً لإستعداده لأن يتمم لشعبه المختار المواعيد المدونة في أسفار موسى. فقد تمم وعوده التي قطعها لمن أثبت ولاءه له بسبب "كلمة الله الحية الباقية إلى الأبد" (1 بطرس 1 : 23).

أعد الرب في أيام التيهان في البرية لأولاده العدة الكافية لتذكيرهم بأقوال شريعته. وبعدما استراحوا في أرض كنعان، كان ينبغي ترديد الوصايا الإلهية كل يوم وفي كل بيت، وكان ينبغي أن تُكتب بوضوح على قوائم أبواب البيت وعلى الأبواب وأن تُنقش على لوحات تذكارية وأن توضع لها ألحان موسيقية ليتغنى بها الصغار والكبار وكان على الكهنة أن يعلّموا هذه الوصايا المقدّسة للشعب في محافل عامة، وعلى حكّام الأرض أن يدرسوها كل يوم وقد أوصى الرب يشوع بخصوص سفر الشريعة قائلاً: "تلهج فيه نهاراً وليلاً لكي تتحفظ للعمل حسب كل ما هو مكتوب فيه لأنك حينئذ تصلح طريقك وحينئذ تفلح" (يشوع 1 : 8). [368]

وقد علّم يشوع أسفار موسى لكل الشعب "لم تكن كلمة من كل ما أمر به موسى لم يقرأها يشوع أمام كل جماعة إسرائيل والنساء والأطفال والغريب السائر في وسطهم" (يشوع 8 : 35). وكان هذا متوافقاً مع أمر الرب الصريح الذي كان يتطلب تلاوة أقوال سفر الشريعة على مسامع الشعب كل سبع سنوات عند حلول عيد المظال. وفيما يلي أمر الرب إلى قادة الشعب الروحيين: "إجمع الشعب، الرجال والنساء والأطفال والغريب الذي في أبوابك، لكي يسمعوا ويتعلموا أن يتّقوا الرب إلهكم ويحرصوا أن يعملوا بجميع كلمات هذه التوراة. وأولادهم الذين لم يعرفوا، يسمعون ويتعلّمون أن يتّقوا الرب إلهكم كل الأيام التي تحيون فيها على الأرض التي أنتم عابرون الأردن إليها لكي تمتلكوها" (تثنية 31 : 12، 13).

فلو تم الإصغاء إلى هذه المشورة مدى القرون التي تلت بعد ذلك، لكان الفرق كبيراً في تاريخ شعب الله، فعلى قدر ما يحتفظ الشعب بالاحترام والتوقير القلبي لكلمة الله المقدّسة، بذلك يرجون فقط أن يتمموا غرض الله. إن احترام شريعة الله هو الذي منح إسرائيل القوة في إبّان ملك داود وأوائل سنوات حكم سليمان. وبواسطة الإيمان بالكلمة الحية تمّ الإصلاح في أيام إيليا ويوشيا. وقد التجأ إرميا إلى أسفار الحق هذه نفسها، أغنى ميراث لشعب الله. في محاولته للإصلاح. فأينما كان يخدم كان يواجه الشعب بهذه الحجة الجادة "اسمعوا كلام هذا العهد" (إرميا 11 : 2). وهو كلام كان كفيلاً بأن يعطيهم إدراكاً كاملاً لقصد الله في أن ينشر بين كل الأمم معرفة الحق الخلاصي.

وفي أواخر سنوات ارتداد يهوذا كان يبدو أن إنذارات الأنبياء قليلة الجدوى، وعندما أتت جيوش الكلدانيين للمرة الثالثة والأخيرة لمحاصرة أورشليم نضب [369] الرجاء من كل قلب. لقد تنبأ إرميا بالخراب الشامل، وبسبب إصراره على وجوب التسليم، ألقي به أخيراً في السجن. ولكن الله لم يترك البقية الأمينة الذين كانوا لا يزالون في المدينة لليأس القاتل. وحتى حين كان إرميا تحت رقابة مشددة قام بها

الذين ازدروا برسائله. فقد جاءته إعلانات جديدة خاصة باستعداد السماء لأن تغفر وتخلّص، وكانت تلك الإعلانات ولا تزال نبع عزاء لا ينضب لكنيسة الله منذ ذلك الحين وإلى يومنا هذا.

وإذ تمسّك إرميا بمواعيد الله بكل قوته فإنه أوضح بمثال أمام سكان المدينة المقضي عليها بالهلاك إيمانه القوي بإتمام قصد الله لشعبه أخيراً. ففي محضر شهود ومع مراعاة كل الأنظمة القانونية اللازمة اشترى حقلاً موروثاً عن الأجداد في قرية عناثوث القريبة بسبعة عشر شاقلاً من الفضة.

كان يبدو من كل وجهات النظر البشرية أن شراء هذه الأرض الكائنة في إقليم تحت سيطرة البابليين عمل يدل على الغباء. كان النبي نفسه يتنبأ بخراب أورشليم ودمار اليهودية وخراب المملكة التام، كذلك تنبأ بسنوات طويلة من السبي في بابل البعيدة. وإذ كان متقدماً في السن لم يكن يؤمل قط الحصول على منفعة لنفسه من الصفقة التي عقدها .. ومع ذلك فإن دراسته للنبوات المدونة في الكتاب ولّدت في قلبه اقتناعاً ثابتاً بأن الرب قد قصد أن يعيد إلى بني السبي ملكيّتهم لأرض الموعد القديمة. فقد رأى إرميا بعين الإيمان المسبيين وهو يعودون إلى أرضهم بعد انقضاء سنوات تلك المحنة، يعودون إلى امتلاك أرض آبائهم. فبشرائه لذلك الحقل في عناثوث أراد أن يفعل كل ما في مقدوره ليلهم اللآخرين بالرجاء الذي قد جلب إلى قلبه عزاء عظيماً. [370]

فبعدما وقّع على صكوك نقل الملكية وظفر بتوقيعات التصديق من الشهود أوصى إرميا باروخ سكرتيره الخاص قائلاً: "خذ هذين الصكّين صك الشراء هذا المختوم والصك المفتوح هذا واجعلهما في إناء من خزف لكي يبقيا أياماً كثيرة لأنه هكذا قال رب الجنود إله إسرائيل سيشترون بعد بيوتاً وحقولاً وكروماً في هذه الأرض" (إرميا 32 : 14، 15).

كانت دلائل المستقبل مثبّطة جداً ليهوذا في وقت عقد هذه الصفقة غير العادية بحيث أنه عقب إتمام تفاصيل الشراء حالاً وبعد إعداد العدة لحفظ الوثائق المكتوبة، جاز الآن إيمان إرميا الذي لم يتزعزع من قبل، في امتحان قاس. فهل في محاولته تشجيع يهوذا قد تصرف بشيء من الغطرسة؟

وهل كان وهو يتوق إلى تثبيت ثقة الشعب في مواعيد كلمة الله، يضع أساساً لآمال كاذبة؟ إن الذين دخلوا في صلة عهد مع الله ظلّوا أمداً طويلاً يزدرون بالاستعدادات والتدابير التي قد أعدت لهم، فهل يمكن أن تتم المواعيد المقدمة للشعب المختار بحذافيرها؟

وإذا كان النبي متحيِّرا في روحه ومنحني النفس حزناً بسبب الآلام التي حلّت بمن رفضوا التوبة عن خطاياهم، فقد لجأ إلى الله في طلب مزيد من النور بالنسبة إلى المقاصد الإلهية نحو بني الإنسان.

فصلّى قائلاً: "آه أيها السيد الرب ها إنك قد صنعت السموات والأرض بقوّتك العظيمة وبذراعك الممدودة. لا يعسر عليك شيء. صانع الإحسان لألوف ومجازي ذنب الآباء في حضن بنيهم بعد، الإله العظيم الجبار رب الجنود اسمه. عظيم في المشورة وقادر في العمل الذي عيناك مفتوحتان على كل طرق بني آدم لتعطي كل واحد حسب طرقه وحسب ثمر أعماله. الذي جعلت آيات [371] وعجائب في أرض مصر إلى هذا اليوم وفي إسرائيل وفي الناس وجعلت لنفسك اسماً كهذا اليوم، وأخرجت شعبك إسرائيل من أرض مصر بآيات وعجائب وبيد شديدة وذراع ممدودة ومخافة عظيمة وأعطيتهم هذه الأرض التي حلفت لآبائهم أن تعطيهم إياها أرضاً تفيض لبناً وعسلاً. فأتوا وامتلكوها ولم يسمعوا لصوتك ولا ساروا في شريعتك. كل ما أوصيتهم أن يعملوه لم يعملوه فأوقعت بهم كل هذا الشر" (إرميا 32 : 17 — 23).

كانت جيوش نبوخذنصر مزمعة أن تستولي على أسوار صهيون اقتحاماً. لقد هلك آلاف من بني يهوذا وهم يدافعون دفاع مستميت عن المدينة وكانت آلاف أخرى أكثر من هذه تموت من الجوع والمرض. كان قد ختم على مصير أورشليم وكانت أبراج حصار قوات العدو قد أشرفت على الأسوار واستطرد النبي قائلاً في صلاته لله: "ها المتاريس. قد أتوا إلى المدينة ليأخذوها وقد دُفعت المدينة ليد الكلدانيين الذين

يحاربونها بسبب السيف والجوع والوباء وما تكلمت به قد حدث وها أنت ناظر. وقد قلت أنت لي أيها السيد الرب اشتر لنفسك الحقل بفضة واشهد شهوداً، وقد دفعت المدينة ليد الكلدانيين" (إرميا 32 : 24، 25).

وقد أجاب الرب على صلاة النبي في رحمته "صارت كلمة الرب إلى إرميا"، في ساعة الكرب والضيق تلك عندما امتُحن إيمان رسول الحق كما بنار "هأنذا الرب إله كل ذي جسد هل يعسر عليّ أمر ما؟" (إرميا 32 : 26، 25).

كانت المدينة مزمعة أن تسقط سريعاً في يد الكلدانيين. كانت النار ستلتهم أبوابها وقصورها. ولكن بالرغم من حقيقة كون الخراب والدمار وشيكين، وكون سكان أورشليم سيؤخذون سبايا، مع كل ذلك فإن قصد الرب الأزلي نحو شعبه [372] كان لا بد أن يتم. فإجابة لصلاة عبده أعلن الرب بعد ذلك عن أولئك الذين كانت تأديباته تنهال عليهم قائلاً:

"هأنذا أجمعهم من كل الأراضي التي طردتهم إليها بغضبي وغيظي وبسخط عظيم وأردّهم إلى هذا الموضع وأسكنهم آمنين. ويكونون لي شعباً وأنا أكون لهم إلهاً. وأعطيهم قلباً واحداً ليخافوني كل الأيام، لخيرهم وخير أولادهم بعدهم. وأقطع لهم عهداً أبدياً أني لا أرجع عنهم لأحسن إليهم، وأجعل مخافتي في قلوبهم فلا يحيدون عني. وارح بهم لأحسن إليهم وأغرسهم في هذه الأرض بالأمانة بكل قلبي وبكل نفسي.

"لأنه هكذا قال الرب كما جلبت على هذا الشعب كل هذا الشر العظيم هكذا أجلب أنا عليهم كل الخير الذي تكلّمت به إليهم. فتُشترى الحقول في هذه الأرض التي تقولون أنها خربة بلا إنسان ولا حيوان وقد دُفعت ليد الكلدانيين. يشترون الحقول بفضّة ويكتبون ذلك في صكوك ويختمون ويشهدون شهوداً في أرض بنيامين وحوالي أورشليم وفي مدن يهوذا ومدن الجبل ومدن السهل ومدن الجنوب لأني اردّ سبيهم يقول الرب" (إرميا 32 : 37 — 44).

وإثباتاً لهذه التأكيدات عن الإنقاذ وردّ السبي صارت كلمة الرب إلى إرميا ثانية وهو محبوس بعد في دار السجن قائلة:

"هكذا قال الرب صانعها الرب مصورها ليثبتها يهوه اسمه. ادعني فأجيبك وأخبرك بعظائم وعوائص لم تعرفها. لأنه هكذا قال الرب إله إسرائيل عن بيوت هذه المدينة وعن بيوت ملوك يهوذا التي هدمت للمتاريس والمجانيق. يأتون ليحاربوا الكلدانيين .. هأنذا أضع عليها رفادة وعلاجاً وأشفيهم وأعلن لهم كثرة السلام والأمانة. وارد سبي يهوذا وسبي إسرائيل وأبنيهم كالأول. وأطهرهم من [373] كل إثمهم الذي أخطأوا به إلي واغفر كل ذنوبهم التي أخطأوا بها إليّ التي عصوا بها عليّ. فتكون لي اسم فرح للتسبيح وللزينة لدى كل أمم الأرض الذين يسمعون بكل الخير الذي أصنعه معهم فيخافون ويرتعدون من أجل كل الخير ومن أجل كل السلام الذي أصنعه لها.

"هكذا قال الرب. سيُسمع بعد في هذا الموضوع الذي تقولون أنه خرب بلا إنسان ولا حيوان في مدن يهوذا وفي شوارع أورشليم الخربة بلا إنسان ولا ساكن ولا بهيمة، صوت الطرب وصوت الفرح صوت العريس وصوت العروس صوت القائلين احمدوا رب الجنود لأن الرب صالح لأن إلى الأبد رحمته. صوت الذين يأتون بذبيحة الشكر إلى بيت الرب لأني اردّ سبي الأرض كالأول يقول الرب.

"هكذا قال رب الجنود، سيكون بعد في هذا الموضوع الخرب بلا إنسان ولا بهيمة وفي كل مدنه مسكن الرعاة المربضين الغنم. في مدن الجبل ومدن السهل ومدن الجنوب وفي أرض بنيامين وحوالي أورشليم وفي مدن يهوذا تمر أيضاً الغنم تحت يدي المحصي يقول الرب".

"ها أيام يقول الرب وأقيم الكلمة الصالحة التي تكلّمت بها إلى بيت إسرائيل وإلى بيت يهوذا" (إرميا 33 : 1 — 41).

وهكذا اتعزّت كنيسة الله في ساعة من أحلك ساعات نضالها الطويل مع قوّات الشر. كان يبدو كأن الشيطان قد انتصر في محاولاته لإهلاك شعب الله، ولكن الرب كان مسيطراً على الحوادث الراهنة، وفي غضون السنين التي أتت بعد ذلك كانت ستُعطى لشعبه فرصة فيها يفتدون الماضي. وهذه هي رسالته إلى الكنيسة حينئذ: [374]

”أما أنت يا عبدي يعقوب فلا تخف ولا ترتعب يا إسرائيل لأن هأنذا أخلصك من بعيد ونسلك من أرض سبيه فيرجع يعقوب ويطمئن ويستريح ولا مزعج لأني أنا معك يقول الرب لأخلّصك“ ”لأني أرفدك وأشفيك من جروحك“ (إرميا 30 : 10، 11، 17).

وفي اليوم المُبهج الذي فيه رجعوا من سبيهم اتّحدت أسباط إسرائيل المنقسمة من جديد فصاروا شعباً واحداً. وكان الرب سيُعترف به بوصفه الحاكم ”لكل عشائر إسرائيل“، ”وهم يكونون لي شعباً“ قال الرب. ”رنموا ليعقوب فرّحوا واهتفوا برأس الشعوب. سمّعوا سبّحوا وقولوا خلّص يا رب شعبك بقية إسرائيل. هأنذا آتي بهم من أرض الشمال وأجمعهم من أطراف الأرض. بينهم الأعمى والأعرج .. بالبكاء يأتون وبالتضرعات أقودهم أسيرهم إلى أنهار ماء في طريق مستقيمة لا يعثرون فيها لأني صرت لإسرائيل أباً وأفرايم هو بكري“ (إرميا 31 : 1، 7 — 9).

فإذ كانوا مُذلين في عيون الأمم، فالذين كانوا سابقاً معتبرين محبوبين من السماء ومركزّمين فوق كل شعوب الأرض كان عليهم أن يتعلّموا في أرض سبيهم درس الطاعة الذي كان من ألزم الأمور لأجل سعادتهم المستقبلية. فلما لم يتعلموا هذا الدرس لم يكن الله يستطيع أن يفعل لأجلهم كل ما يريد أن يفعله. فعندما أوضح لهم قصده من تأديبهم لأجل خيرهم الروحي أعلن قائلاً: ”أؤدبك بالحق ولا أبرئك تبرئة“ (إرميا 30 : 11). ومع ذلك فإن اللذين كانوا موضع رأفته ومحبّته لم يكونوا ليُطرحوا جانباً وإلى الأبد، فأمام كل أمم الأرض كان سيظهر خطّته في تحويل الهزيمة الظاهرة إلى نصرة عظيمة، وفي التخليص لا الإهلاك. وقد أعطيت هذه الرسالة للنبي“ [375]

”مبدداً إسرائيل يجمعه ويحرسه كراع قطيعه. لأن الرب فدى يعقوب وفكه من يد الذي هو أقوى منه. فيأتون ويرنمون في مرتفع صهيون ويجرون إلى جنود الرب على الحنطة وعلى الخمر وعلى الزيت وعلى أبناء الغنم والبقر. وتكون نفسهم كجنة ريا ولا يعودون يذوبون بعد .. وأحوّل نوحهم إلى طرب وأعزيهم وأفرحهم من حزنهم وأروي نفس الكهنة من الدسم ويشبع شعبي من جودي يقول الرب“.

”هكذا قال رب الجنود إله إسرائيل سيقولون بعد هذه الكلمة في أرض يهوذا وفي مدنها عندما أرد سبيهم، يباركك الرب يا مسكن البر يا أيها الجبل المقدّس. فيسكن فيه يهوذا وكل مدنه معاً، الفلاحون والذين يسرحون القطعان لأني أرويت النفس المعيية وملأت كل نفس ذائبة“.

”ها ايام تأتي، يقول الرب، وأقطع مع بيت إسرائيل ومع بيت يهوذا عهداً جديداً. ليس كالعهد الذي قطعته مع آبائهم يوم أمسكتهم بيدهم لأخرجهم من أرض مصر، حين نقضوا عهدي فرفضتهم، يقول الرب. بل هذا هو العهد الذي أقطعه مع بيت إسرائيل بعد تلك الأيام، يقول الرب. أجعل شريعتي في داخلهم وأكتبها على قلوبهم، وأكون لهم إلهاً وهم يكونون لي شعباً. ولا يعلمون بعد كل واحد صاحبه وكل واحد آخاه قائلين اعرفوا الرب أنهم كلّهم سيعرفونني من صغيرهم إلى كبيرهم يقول الرب. لأني أصفح عن إثمهم، ولا أذكر خطيتهم بعد“ (إرميا 31 : 10 — 14، 23 — 25، 31 — 34).

* * * * [376]

الباب الخامس ـــــفي بلدان الأمم

[377]

”أنتم شهودي، يقول الرب، وعبدي الذي اخترته“ (إشعياء 43 : 10) [378]

الفصل التاسع والثلاثون — في بلاط بابل

(اعتمد هذا الفصل على ما ورد في الاصحاح الأول من سفر دانيال)

كان يوجد بين شعب الله الذين أخذوا أسرى إلى بابل في بدء سنوات السبي السبعين جماعة من المؤمنين المحبين لوطنهم، كانوا رجالاً ثابتين وصامدين على المبدأ، ولم يريدوا أن تفسد الأثرة أخلاقهم، بل أرادوا أن يُكرموا الله ولو خسروا كل شيء. كان سيُحقق هؤلاء الرجال غرض الله في أرض سبيهم بتقديمهم للأمم الوثنية البركات التي ترافق معرفتهم للرب. كان عليهم أن يكونوا نواباً عنه. وما كان لهم ان يساوموا أبداً على المبدأ مع عبدة الأوثان، بل أن يبرزوا إيمانهم واسمهم بوصفهم أتباع الإله الحقيقي كراية تُرفرف بشرف وسمو. هذا ما فعلوه بالتمام. ففي السراء والضرّاء أكرموا الله فأكرمهم.

لقد أورد المنتصرون حقيقة كون هؤلاء الرجال الذين يعبدون الرب قد ذهبوا إلى السبي في بابل، وكون أواني بيت الله قد وُضعت في هيكل آلهة بابل بمثابة برهان على سمو دينهم وعاداتهم فوق دين العبرانيين وعاداتهم. ومع ذلك فقد قدّم الله لبابل على سموه وسيادة مطالبه والنتائج الأكيدة للطاعة، عن طريق صنوف الاحتقار والإهانات التي أوقعها شعبه على أنفسهم بابتعادهم عن الله. وقد قُدّمت هذه الشهادة بواسطة من كانوا أمناء له إذ لم يكن يستطيع أن يقدّم هذه الشهادة أحد سواهم. [379]

بين الذين ظلّوا مُحتفظين بولائهم لله كان دانيال ورفاقة الثلاثة الذين كانوا أمثلة فائقة للنتيجة التي يمكن أن يصل إليها من يتّحدون بإله الحكمة والقدرة. كان هؤلاء الشبان من سلالة الملوك وقد انتزعوا من حياتهم البسيطة في وطنهم وانتقلوا إلى أفخم المدن، إلى بلاط أعظم ملوك العالم، "وأمر (نبوخذنصر) اشفنز رئيس خصيانه بأن يحضر من بني إسرائيل ومن نسل الملك ومن الشرفاء فتياناً لا عيب فيهم حسان المنظر حاذقين في كل حكمة وعارفين معرفة وذوي فهم بالعلم والذين فيهم قوة على الوقوف في قصر الملك..

"وكان بينهم من بني يهوذا دانيال وحننيا وميشائيل وعزريا" (عدد 3 — 6). فإذا رأى نبوخذنصر في هؤلاء الفتيات ما يبشّر بمقدرة عظيمة عقد العزم على تدريبهم كي يشغلوا وظائف هامة في مملكته. فلكي يكونوا مؤهلين تماماً لعمل حياتهم، رتّب الملك لتلقينهم لغة الكلدانيين. وأن تُعطى لهم لمدى ثلاث سنوات تهذيبية غير عادية، وهي التي تُمنح عادةً لرؤساء المملكة.

وقد أبدلت أسماء دانيال ورفاقه بأسماء تمثل آلهة الكلدانيين. كانت الأسماء التي أطلقها الآباء العبرانيون على أولادهم ذات أهمية ودلالة عظيمة. ففي الغالب كانت تدل أسماؤهم على ميزات خلقية كان الأب يتوق لأن يراها مترعرعة في حياة ابنه. ولكن ذلك الرئيس الذي كان منوطاً به أمر العناية بالفتية المسبيين: "سمّى دانيال بلطشاصر وحننيا شدرخ وميشائيل مشيخ وعزريا عبدنغو" (عدد 7).

ولم يرغم الملك الفتية العبرانيين على نبذ عقيدتهم واعتناق الوثنية، ولكنّه كان يؤميل أن يتمّ هذا تدريجياً. فهو كان يرجو أن يكونوا على اتصال بالعادات الوثنية بسبب أسمائهم التي لها دلالة وثنية. وإذ يتأثرون بطقوس العبادة الوثنية [380] كان يرجو أن يكون ذلك كفيلاً بإقناعهم بنبذ دين أمّتهم والاشتراك

في عبادة البابليين.

ومن بدء سيرهم في تلك الحياة الجديدة عرض لهم امتحان حاسم لأخلاقهم. كان مفروضاً عليهم أن يأكلوا من الطعام ويشربوا من الخمر التي كانت تأتيهم من على مائدة الملك. وقد ظنّ الملك أنه بهذا كان يعبّر عن رضاه عنهم وإهتمامه بخيرهم. ولكن إذ قدّم منه جزء للأوثان فإن الطعام الذي أتي به من على مائدة الملك كان مكرَّسا للأوثان أيضاً، فالذي يتناول من هذا الطعام كان يعتبر أنه يقدّم ولاءه لآلهة بابل. إلا أن ولاء دانيال ورفاقه للرب منعهم من الاشتراك في تقديم الولاء للأوثان. وحتى مجرد التظاهر بالأكل من أطايب الملك أو شرب خمره كان يعتبر انكاراً لإيمانهم. فكونهم يفعلون هذا معناه أنهم يتسربلون برداء الوثنية ويهينون مبادئ شريعة الله.

وهم لم يجرؤوا على القيام بتلك المخاطرة بجلب الآثار الموهنة لقوى الإنسان الناشئة بالترف والانغماس في الشهوات التي تسل قوى الجسم والعقل والروح وتعيقها عن النمو. كانوا على علم بتاريخ ناداب وأبيهو. من سجل الوحي وعن إدمانهما للخمر و ما نتج عن ذلك، فهو محفوظ في أسفار موسى الخمسة. كانوا يدركون أن قوى أجسامهم وعقولهم سيصيبها التلف إذا هم احتسوا الخمر.

كان دانيال ورفاقه قد تعلّموا من آباتهم وتدرّبوا على عادات التعفف وضبط النفس. وتعلّموا أن الله يعتبرهم مسؤولين عن إمكاناتهم وعليهم ألا يوهنوا قواهم بوسيلة ما. وكان هذا التهذيب بالنسبة إلى دانيال ورفاقه وسيلة حفظهم في وسط المؤثرات المفسدة في بلاط بابل. وما كان أقوى التجارب التي كانت محدقة بهم في ذلك البلاط المُترف الفاسد. ولكنّهم ظلّوا بعيدين عن النجاسة. فلم يكن [381] ممكناُ لأية قوى أو تأثير. إبعادهم عن المبادئ التي كانوا قد تعلّموها في صباهم حين درسوا كلمة الله وأعماله.

ولو رغب دانيال لكان وجد في البيئة التي عاش فيها عذراُ مقبولاً للانحراف عن عادات التعفف التام. فكان يمكنه أن يبرر تصرفه قائلاً إنه لكونه معتمداً في حياته على رضى الملك وقد اصبح خاضعاُ لسلطانه، فلم يكن أمامه من طريق آخر يسلكه غير الأكل من طعام الملك والشرب من خمره، إذ لو تمسّك بتعاليم الله فسيغضب الملك وقد يخسر مركزه ويفقد حياته. أما إذا تغاضى عن وصية الرب فقد يظل متمتُّعا برضى الملك ويحرز لنفسه الميزات العقلية والمطامح العالمية الخادعة.

لكن دانيال لم يتردد. فإن استحسان الله كان أغلى في نظره من رضى أقوى ملوك الأرض ومن الحياة نفسها. لقد عزم في قلبه أن يثبت على نزاهته واستقامته مهما كانت النتائج "جعل في قلبه أنه لا يتنجس بأطايب الملك ولا بخمر مشروبه" (عدد 8).

وقد سانده رفاقه الثلاثة في هذا العزم وإذ وصل الفتية العبرانيون إلى ذلك القرار لم يتصرّفوا بطيش أو غطرسة، ولكنّهم اعتمدوا على الله فهم لم يختاروا أن يكونوا في موقف شاذ. ولكنّهم فضّلوا هذا على إهانة الله. فلو أنهم تسامحوا مع الخطأ في هذا الأمر بالخضوع لضغط الظروف فإن انحرافهم عن المبدأ سيضعف إحساسهم بالحق وكراهيتهم للضلال. وأول خطوة خاطئة ستقود إلى خطوات أخرى إلى أن تنفصم صلتهم بالسماء فتجرفهم التجربة بعيداً.

"وأعطى الله دانيال نعمة ورحمة عند رئيس الخيصان" (عدد 9) وأخذ طلبه ألا يتنجّس في الاعتبار والتقدير، ومع ذلك فقد تردّد رئيس الخصيان في إجابته [382] إلى طلبه. فقد أوضح لدانيال قائلاً: "إني أخاف سيدي الملك الذين عيّن طعامكم وشرابكم فلماذا يرى وجهكم أهزل من الفتيان الذين من جيلكم فتدينون رأسي للملك؟" (عدد 10).

حينئذ تقدّم دانيال إلى ملزار الضابط الخاص المنوط به أمر رعاية الفتية العبرانيين طالباً منه إعفاءهم من أكل طعام الملك وشرب بخمره. وسأله أن يقوموا بتجربة وهي أن يتناولوا لمدّة عشرة أيام طعاماً بسيطاً. في حين يأكل زملاؤهم من أطايب الملك.

كان ملزار يخشى إجابتهم إلى طلبهم خوفاً من سخط الملك، ومع ذلك فقد رضخ لطلبهم، وعلم دانيال أنه كسب القضيّة ففي نهاية عشرة أيام التجربة كانت النتيجة على عكس ما يخشاه رئيس السقاه: "ظهرت مناظرهم أحسن وأسمن لحما من كل الفتيان الآكلين من أطايب الملك" (عدد 15). لقد برهن منظر الفتية العبرانيين على تفوّقهم على أقرانهم. وكان من نتائج ذلك أن سُمح لدانيال ورفاقه يتناول طعامهم البسيط طوال مدة تعليمهم.

ولمدى ثلاث سنوات درس الفتية العبرانيون ليعرفوا: "كتابة الكلدانيين ولسانهم" (عدد 4). وفي خلال هذه المدة ظلوا ثابتين على ولائهم لله واعتمدوا على قدرته على الدوام. وقد جمعوا بين عادات إنكار الذات والجدّ في السعي نحو الهدف والاجتهاد والثبات. لم تكن كبريائهم ولا طموحهم هو الذي أتى بهم إلى قصر الملك ومزاملة الذين لم يكونوا يعرفون الله أو يتّقونه. كانوا مسببين في بلاد غريبة، وقد أوجدتهم هناك حكمة الله الأزلية غير المحدودة. وإذ كانوا بعيدين عن الوطن بمؤثراته والعشراء المقدّسين والبيئة النقية حاولوا أن يتصرفوا [383] تصرفاً حميداً لأجل كرامة شعبهم المدوس بالأقدام ولأجل مجد الرب الذي كانوا يعبدونه.

وقد نظر الرب بعين الاستحسان والرضى إلى إنكار الذات الذي أبداه الفتية العبرانيون وإلى سلامة نزعاتهم بحيث لازمتهم بركته: "فأعطاهم الله معرفة وعقلاً في كل كتابة وحكمة. وكان دانيال فهيماً بكل الرؤى والأحلام" (عدد 17). وقد تم الوعد القائل: "إني أكرم الذين يكرمونني" (1 صموئيل 3 : 2). فإذ تمسّك دانيال بالله بثقة لا تتزعزع فإن روح القوة النبوية استقرّت عليه. ففي حين كان يتلقى التعليمات من الناس في واجبات الحياة في البلاط كان الله يعلّمه معرفة أسرار المستقبل، ليسجّل للأجيال القادمة، بواسطة التشبيهات والرموز، الحوادث التي تشمل تاريخ هذا العالم إلى انقضاء الدهر.

وعندما جاء وقت الإختبار أولئك الشبان اختُبر العبرانيون مع غيرهم من المرشحين لخدمة المملكة. ولكن "لو يوجد بينهم كلّهم مثل دانيال وحننيا وميشائيل وعزريا". إن فهمهم الثاقب وعلمهم الواسع ولغتهم الممتازة المضبوطة شهدت لقوتهم التي لم تصب بعطب وكذلك لنشاط قواهم العقلية. "وفي كل حكمة وفهم الذي سألهم عنه الملك وجدهم عشرة أضعاف فوق كل المجوس والسحرة الذين في كل مملكته"، "فوقوا أمام الملك" (عدد 19، 20).

وقد اجتمع في بلاط بابل ممثلون من كل البلاد رجال لهم أسمى المواهب رجال مُنحوا أغنى الهبات الطبيعية، ولهم ثقافة واسعة وأعظم تهذيب يمكن أن يمنحه العالم. ومع ذلك تبيّن لأولئك القوم أنه لم يكن للفتية العبرانيين ندّ أو نظير. ففي القوة الجسمانية والحسن واللياقة البدنية والنشاط الذهني وما بلغوه من ثقافة وعلم لم يكن من يضارعهم. كذلك في القامة المنتصبة والخُطى الثابتة [384] المرنة والوجه الجميل والحواس الصافية والنفس النقي غير الملوث. كانت كل هذه شهادات عالية على العادات الحسنة وأوسمة شرف تُكرم بها الطبيعة من يطيعون قوانينها.

إذ أحرز دانيال ورفاقه الحكمة فقد أصابوا نصيباً من النجاح أعظم بكثير من كل ما حصل عليه زملاؤهم الطلبة ولكن علمهم الذي أحرزوه لم يأت بمحض الصدفة، بل لأنهم إستخدموا قواهم ومواهبهم بأمانة تحت إرشاد الروح القدس. لقد ارتبطوا بنبع كل حكمة إذ جعلوا معرفة الله أساس تهذيبهم. وصلّوا بإيمان في طلب الحكمة وعاشوا بموجب صلواتهم. لقد وضعوا أنفسهم في الوضع الذي يمكن لله أن يباركهم فيه. وقد تجنبوا كل ما من شأنه أن يُضعف قواهم، وأحسنوا استخدام كل فرصة لكي يكونوا أذكياء في كل فروع العلم واتّبعوا كافة قوانين الحياة التي لا ينضب معينها في إعطائهم القوة والذكاء. وطلبوا الحصول على المعرفة من أجل غرض واحد. ألا وهو إكرام الله. وقد تحققوا أنهم لكي يستطيعوا أن يقفوا كممثلين للدين الحقيقي وسط الديانات الكاذبة الّتي يعتنقها العالم الوثني. عليهم أن يحتفظوا بأذهان صافية وأن يكمّلوا صفات مسيحية. وكان الله نفسه معلّماً لهم. فقد ساروا مع الله كأخنوخ إذ كانوا يصلّون باستمرار

ويدرسون بضمير صالح وعلى اتّصال دائم بالإله غير المنظور.

إن النجاح الحقيقي في أي نوع من أنواع العمل لا يأتي نتيجة للصدفة أو القضاء والقدر. إنما هو تفاعل حوادث عناية الله. ومكافأة الإيمان والفطنة والفضيلة والمثابرة. فالصفات العقلية الجميلة والأسلوب الأدبي السامي لا يأتي بمحض الصدفة. فالله يقدّم الفرص للناس ويتوقف النجاح عندئذ على كيفية استخدامها. [385]

وبينما كان الله يعمل في دانيال ورفاقه: "أن يريدوا وأن يعملوا من أجل" مسرته (فيلبي 2 : 13)، كانوا هم يتممون خلاصهم. وفي هذا أعلن عمل مبدأ التعاون الإلهي الذي بدونه لا يمكن إحراز أي نجاح حقيقي. فالمسعى البشري لا يُفيد شيئاً بدون قوة الله، وما لم يبذل الإنسان الجهد في سعيه فإن مجهود الله لا يُجدي فتيلاً بالنسبة لكثيرين. فلكي نمتلك نعمة الله علينا أن نبذل قصارانا في القيام بدورنا. فنعمته تُعطى لنا لتعمل فينا لكي نريد ونعمل، ولكنّها لا تعطى لنا لتكون بديلاً عن جهودنا.

وكما تعاون الرب مع دانيال ورفاقه فكذلك هو سيتعاون مع كل من يجتهدون في عمل إرادته. وإذ يمنحهم من روحه فهو يعضّد ويقوّي كل غاية حقيقية وكل عزم نبيل. والذين يسيرون في طريق الطاعة لابد أن واجههم معطّلات كثيرة قد تحاول المؤثرات القوية الخادعة الماكرة أن تربطهم بالعالم، ولكن الرب قادر أن يحبط كل وسيلة تعمل على هزيمة مختاريه. فبقوته يمكنهم أن ينتصروا على كل تجربة ويقهروا كل الصعاب.

لقد جعل الله دانيال ورفاقه على اتصال بعظماء بابل كي يمكنهم وهم في وسط أمة يعبد أهلها الأوثان، أن يمثّلوا صفاته للناس فكيف صاروا مؤهلين لذلك المركز الذي كان ينطوي على مسؤولية خطيرة وله كرامة فائقة؟ إن الأمانة في الأمور الصغيرة هي التي كانت طابع حياتهم كلها. فلقد أكرموا الله في أقل واجباتهم شأناً كما في المسؤوليات الأعظم خطراً.

وكما دعا الله دانيال ليشهد له في بابل كذلك هو يدعونا لنكون شهوده في العالم اليوم. ففي أصغر شؤون الحياة كما في أعظمها يريدنا أن نعلن للناس مبادئ ملكوته. إن كثيرين ينتظرونه ليُسند إليهم عمل عظيم بينما هم يُفتلون [386] من أيديهم كل يوم فرصاً لإظهار أمانتهم لله. وفي كل يوم هم يخفقون في القيام بواجبات الحياة الصغيرة بكل القلب. وفي حين أنهم ينتظرون أن يُسند إليهم عمل عظيم تتجلّى فيه مواهبهم العظيمة كما يزعمون لإشباع أشواقهم وطموحهم، تمر أيامهم سريعة بلا فائدة.

لا توجد في حياة المسيحي الحقيقي الأمين أمور غير جوهرية، ففي نظر الإله القدير يُعتبر كل واجب هاماً. إن الرب يقيس بكل دقة إمكانية كل إنسان للخدمة. والإمكانات المعطلة التي لا تُستعمل لابد أن يُحاسب أصحابها عليها كما يحاسبون على تلك التي يستعملونها. إننا سوف نُدان بموجب ما كان علينا أن نفعله ولكننا لم ننجزه لأننا لم نستخدم قوانا في تمجيد الله.

إن الخلق النبيل لا يأتي مصادفة، وهو لا يُعزّى إلى عطايا العناية أو هباتها. ولكنه يأتي نتيجة لتدريب النفس وترويضها وإخضاع طبائعنا الدنيا للطبيعة العليا، وتسليم الذات لخدمة الله والناس.

إن الله يخاطب شبّان اليوم عن طريق الولاء لمبادئ الاعتدال التعفف الذي أظهره أولئك الفتية العبرانيون. توجد حاجة ملحّة إلى رجال يعملون بجرأة على إتباع مبادئ الحق كدانيال. ثمّة حاجة إلى رجال ذوي قلوب نقيّة وأيد قوية وقلوب شجاعة لا تعرف الخوف، لأن الحرب بين الرذيلة والفضيلة تستلزم يقظة وسهراً دائمين. والشيطان يقدّم تجاربه لكل إنسان في أشكال كثيرة خدّاعة وجذّابة فيما يختص بالافراط في النهم.

والجسم هو أهم وسيلة ينمو ويتطوّر العقل والنفس عن طريقها لأجل بناء الأخلاق. ولهذا يصوّب خصم النفوس تجاربه إلى قوى الجسم لكي يوهنها ويحطّ من قدرها. فمتى نجح في ذلك فهذا ينتج عنه غالباً

إخضاع الإنسان كلّه للشر [387] إن ميول الطبيعة الجسدية إذا لم تُخضع لقوة أسمى لابد أن تنتهي إلى الدمار والموت. ينبغي أن يخضع الجسم لقوى الإنسان السامية وينبغي أن تتحكّم الإرادة في الأهواء، والإرادة نفسها يجب أن تخضعه لله. فقوة العقل السامية إذ تتقدّس بنعمة الله يجب أن تتسلّط على الحياة. إن قوى العقل والجسم وطول العمر تخضع لقوانين ثابتة. وبواسطة الطاعة لهذه النواميس يمكن للإنسان أن ينتصر على ذاته وعلى ميوله وعلى "الرؤساء، مع السلاطين، من وُلاة العالم على ظلمة هذا الدهر، مع أجناد الشر الروحية في السماويات" (أفسس 6 : 12).

في ذلك الطقس القديم الذي هو رمز للإنجيل لم يكن يُسمح بتقديم ذبيحة بها عيب على مذبح الله. فالذبيحة التي كانت ترمز إلى المسيح كان ينبغي أن تكون بلا دنس. وتشير كلمة الله إلى هذا كمثال لما يجب أن يكون عليه أولاده: - "ذبيحة حية"، "مقدسة وبلا عيب" (رومية 12 : 1 ؛ أفسس 5 : 27).

إن الفتية العبرانيين كانوا تحت الآلام مثلنا، ومع ذلك فبالرغم من المؤثرات المغرية في بلاط بابل وقفوا راسخين لأنهم كانوا يستندون إلى قدرة الله اللامتناهية. فقد رأت تلك الأمة الوثنية فيهم مثالاً لصلاح الله وجوده ولمحبة المسيح. وإننا نجد في اختبارهم مثالاً لإنتصار المبادئ على التجربة. والنقاوة على الفساد والتكريس والولاء على الإلحاد والوثنية.

يمكن أن يحصل شباب اليوم على الروح الذي امتلك قلب دانيال، وأن يستقوا من نبع القوة ذاته ويمتلكوا قوة التعفف وضبط النفس ذاتها. وأن يُظهروا النعمة ذاتها في حياتهم، حتى في مثل تلك الظروف المعاكسة قد يكونون مُحاطين بتجارب للإنغماس في الملذات، خصوصاً في المدن الكبيرة حيث يمكن إشباع كل نهم شهواني بسهولة بسبب الغوايات، ومع ذلك فبنعمة الله يظلّ [388] عزمهم على إكرام الله ثابتاً. وعن طريق العزيمة والقوة واليقظة والسهر يمكنهم الصمود أمام كل تجربة تهاجم النفس. ولكن النصرة لا يحرزها إلا ذاك الذي يفعل الحق لأنه الحق.

ما كان أنبل عمل الحياة ذاك الذي قام به أولئك العبرانيون الشرفاء، فإذ ودّعوا وطنهم الذي قضوا فيه سني طفولتهم، لم يكونوا يحلمون بالمصير السامي المجيد الذي كان من نصيبهم. وإذ كانوا أمناء وثابتين فقد خضعوا للإرشاد الإلهي حتى عن طريقهم تتم مقاصد الله.

إن الله يرغب أن يعلن بواسطة شباب وأطفال اليوم الحقائق القوية ذاتها التي أعلنت بواسطة هؤلاء الرجال. فحياة دانيال ورفاقه هي إعلان لما يُمكن أن يفعله الله لأجل أولئك الذي يسلّمون ذواتهم له وبكل قلوبهم يجتهدون في إتمام مقاصده.

[389] * * * * *

الفصل الأربعون ـــ حلم نبوخذنصر

(يعتمد هذا الفصل على ما جاء في الاصحاح الثاني من سفر دانيال)

حالما انتظم دانيال ورفاقه في خدمة ملك بابل وقعت أحداث أعلنت لتلك الأمة الوثنية قدرة الله وأمانته. ذلك أن نبوخذنصر كان قد حلم حلماً عظيماً: "فانزعجت روحه وطار عنه النوم" (عدد 1). ولكن مع أن عقل الملك قد تأثر بعمق فقد وجد بعدما استيقظ أنه يستحيل عليه أن يتذكّر تفاصيل الحلم.

ففي حيرته وارتباكه جمع حكماءه: "المجوس والسحرة والعرّافين" (عدد 2). والتمس منهم العون قائلاً: "قد حلمت حلماً وانزعجت روحي لمعرفة الحلم" (عدد 3). فإذ أنبأهم بحيرته وارتباكه طلب إليهم أن يكشفوا له ما يجلب إلى عقله الراحة.

فأجابه الحكماء قائلين: "أيها الملك عش إلى الأبد أخبر عبيدك بالحلم فنبين تعبيره" (عدد 4).

فإذ لم يقنع الملك بهذا الجواب الدال على المراوغة، ساورته الشكوك. فبرغم إدعاءاتهم بأنهم يستطيعون الكشف عن أسرار الناس فقد بدا مع ذلك كذبهم وأنهم لا يرغبون في تقديم العون له. لذا أمر الملك حكماءه، بعدما قدّم لهم وعداً بالغنى والكرامة من جهة، والتهديد بالموت من جهة أخرى، أن يخبروه لا [390] بتعبير الحلم فقط بل بالحلم نفسه فقال لهم الملك: "قد خرج مني القول إن لم تنبئوني بالحلم وبتعبيره تصيرون إرباً إرباً، وتُجعل بيوتكم مزبلة. وإن بيّنتم الحلم وتعبيره تنالون من قبلي هدايا وحلاوين وإكراماً عظيما" (عدد 5، 6).

ومرة أخرى أجاب الحكماء الملك قائلين: " ليخبر الملك عبيده بالحلم فنبيّن تعبيره" (عدد 7).

وهنا اهتاج الملك نبوخذنصر واحتدم غضبه بسبب الخيانة السافرة التي أبداها أولئك السحرة الذين وثق بهم وقال " إني أعلم يقيناً أنكم تكتسبون وقتاً إذ رأيتم أن القول قد خرج بأنه إن لم تنبئوني بالحلم فقضاؤكم واحد لأنكم قد إتّفقتم على كلام كذب وفاسد لتتكلموا به قدامي إلى أن يتحوّل الوقت فأخبروني بالحلم فأعلم أنكم تبنيون لي تعبيره" (عدد 8، 9).

فإذا امتلأت قلوب أولئك السحرة خوفاً وهلعاً بسبب عواقب إخفاقهم حاولوا أن يبرهنوا للملك أن كلامه غير معقول، واختباره الذي قدّمه لم يسبق أن قدّمه إنسان. لذلك احتجّوا قائلين: "ليس على الأرض إنسان يستطيع أن يُبيّن أمر الملك. لذلك ليس ملك عظيم ذو سلطان سأل أمراً مثل هذا من مجوسي أو ساحر كلداني. والأمر الذي يطلبه الملك عسر وليس آخر يبيّنه قدّام الملك غير الآلهة الذين ليست سكناهم مع البشر" (عدد 10، 11).

حينئذ غضب الملك واغتاظ جداً وأمر بإبادة كل حكماء بابل (عدد 12).

كان بين الذين طلبهم الضباط المتأهبين لتنفيذ أمر الملك، دانيال وأصحابه. وعندما قيل لهم أنهم لابد أن يموتوا أيضاً بموجب الأمر الملكي، عندئذ سأل دانيال أريوخ رئيس شرطة الملك، بحكمة وعقل قائلاً: "لماذا اشتدّ الأمر من قبل [391] الملك؟" (عدد 13، 15). حينئذ أخبره أريوخ قصة حيرة الملك عن حلمه الشهير وعن إخفاقه في الحصول على معونة من السحرة الذين وضع ثقته الكاملة فيهم حتى الآن. ولما

سمع دانيال هذا الكلام، وضع حياته بين يديه وتجاسر على المثول في حضرة الملك. وأخذ يتوسّل لإعطائه فرصة إمهال حتى يطلب من إلهه أن يكشف له عن الحلم وتعبيره.

فأجابه الملك إلى طلبه. ”حينئذٍ مضى دانيال إلى بيته وأعلم حننيا وميشائيل وعزريا أصحابه بالأمر“ (عدد 17). فطلبوا جميعهم الحكمة من نبع النور والمعرفة وكان إيمانهم قوياً لإحساسهم بأن الله وضعهم في ذلك الموضع وبأنهم كانوا يعملون عمله ويتممون واجبهم. وفي أوقات الحيرة والخطر كانوا يلجأون إليه دائماً في طلب الإرشاد والحماية، وقد برهن أنه المعين الحاضر الذي يقدّم العون في حينه. فبانسحاق قلب، سلّموا ذواتهم من جديد لديان كل الأرض متوسّلين إليه كي يمنحهم النجاة في ذلك الوقت، وقت الحاجة الملحّة، ولم تكن أصواتهم عبثاً فالإله الذي أكرموه يكرمهم الآن، وقد حلّ عليهم روح الرب. حينئذ كُشف لدانيال السر: ”في رؤيا الليل“ (عدد 19)، كُشف له حلم الملك ومعناه..

فكان أول ما عمله دانيال أنه شكر الله على الإعلام المُعطى له. فهتف يقول: ”ليكن اسم الله مباركاً من الأزل وإلى الأبد لأنه له الحكمة والجبروت. وهو يُغيّر الأوقات والأزمنة ويعزل ملوكاً وينصب ملوكاً. يُعطى الحكماء حكمة ويعلّم العارفين فهماً. وهو يكشف العمائق والأسرار، يعلم ما هو في الظلمة وعنده يسكن النور. إياك يا إله أبائي أحمد وأسبّح الذي أعطاني الحكمة والقوة وأعلمني الآن ما طلبناه منك لأنك أعلمتنا أمر الملك“ (عدد 20 — 23). [392]

فإذ ذهب دانيال فوراُ إلى أريوخ الذي كان الملك قد أمره بإبادة الحكماء، قال له: ”لا تبد حكماء بابل أدخلني إلى قدّام الملك فأبيّن للملك التعبير“ (عدد 24). حينئذ دخل أريوخ قائد الشرطة بدانيال إلى قدّام الملك مسرعاً وقال له: ”قد وجدت رجلاً من بني سبي يهوذا الذي يُعرف الملك بالتعبير“ (عدد 25).

ها هو الأسير اليهودي يقف بهدوء وهو رابط الجأش وماثل أمام ملك أعظم وأقوى إمبراطوريات العالم. وعندما بدأ بالكلام أنكر على نفسه استحقاقه لأيه كرامة، ومجّد الله بوصفه نبع كل حكمة. وعندما سأله الملك في جزع قائلاً: ”ها تستطيع أنت أن تُعرفني بالحلم الذي رأيت وبتعبيره؟“ أجابه يقوله: ”السر الذي طلبه الملك لا تقد الحكماء ولا السحرة ولا المجوس ولا المنجمون على أن يبيّنوه للملك. لكن يوجد إله في السموات كاشف الأسرار وقد عرّف الملك نبوخذنصر ما يكون في الأيام الأخيرة“.

ثم أعلن دانيال يقول: ”حلمك ورؤيا رأسك على فراشك هو هذا. أنت يا أيها الملك أفكارك على فراشك صعدت إلى ما يكون من بعد هذا وكاشف الأسرار يعرّفك بما يكون. أما أنا فلم يُكشف لي هذا السر لحكمة في أكثر من كل الأحياء. ولكن لكي يعرف الملك بالتعبير ولكي تعلم أفكار قلبك.

”أنت أيها الملك كنت تنظر وإذا بتمثال عظيم. هذا التمثال العظيم البهي جداً وقف قبالتك ومنظره هائل. رأس هذا التمثال من ذهب جيد. صدره وذراعاه من فضة. بطنه وفخذاه من نحاس. قدماه بعضهما من حديد والبعض من خزف.

”كنت تنظر إلى أن قطع حجر بغير يدين فضرب التمثال على قدميه اللتين من حديد وخزف فسحقهما. فانسحق حينئذ الحديد والخزف والنحاس والفضة [393] والذهب معاً وصارت كعصافة البيدر في الصيف فحملتها الربح فلم يوجد له مكان أما الحجر الذي ضرب التمثال فصار جبلاً كبيراُ وملأ الأرض كلها“.

وأعلن دانيال بكل ثقة“ ”هذا هو الحلم“. كان الملك يصغي بكل أحاسيسه إلى كافة التفاصيل، وكان عالماً أن هذا هو الحلم ذاته الذي كان منزعجاً بسببه. لذلك كان عقله مستعداً لقبول التعبير بكل رضا. كان ملك الملوك مزمعاُ أن يطّلع ملك بابل على حق عظيم. ويعلن أنه له تعالى السلطان على ممالك العالم —— له السلطان على تنصيب ملوك وعزل ملوك. كان عقل نبوخذنصر سيصحو ما أمكن إلى إحساسه بمسؤوليته تجاه إله السماء. وكانت ستُعلن له حوادث المستقبل التي كانت ستصل إلى انقضاء الدهر.

واستطرد دانيال يقول: "أنت أيها الملك ملك الملوك لأن إله السموات أعطاك مملكة واقتدار وسلطاناً وفخراً. وحيثما يسكن بنو البشر ووحوش البر وطيور السماء دفعها ليدك وسلّطك عليها. فأنت هذا الرأس من ذهب.

"وبعدك تقوم مملكة أخرى أصغر منك. ومملكة ثالثة أخرى من نحاس فتتسلّط على كل الأرض.

"وتكون مملكة رابعة صلبة كالحديد لأن الحديد يدق ويسحق كل شيء وكالحديد الذي يكسّر تسحق وتكسر كل هؤلاء.

"وبما رأيت القدمين والأصابع بعضها من خزف الفخار والبعض من حديد فالمملكة تكون منقسمة ويكون فيها قوة الحديد من حيث أنك رأيت الحديد مختلطاً بخزف الطين. وأصابع القدمين بعضها من حديد والبعض من خزف فبعض المملكة يكون قوياً والبعض قصماً. وبما رأيت الحديد مختلطاً بخزف [394]

التمثال الذي رأه نبوخذنصر في حلمه

إن التمثال الذي رآه نبوخذنصر ملك بابل ذلك العظيم الطموح، إنما هو نبوة عظيمة عن ممالك العالم، كان الملك يتوق لمعرفة ما سيتمخض عنه المستقبل وقد أعلمه الله بما سيحدث في حلم التمثال الذي لا يمكن لأي إنسان أن يعبّره.

لقد أعطى الله الحلم لنبوخذنصر الذي كان يعتقد أن بابل ستثبت إلى الأبد. وقدّم له تعبير الحلم بواسطة نبيّه ليعلمه أن بابل لن تثبت إلى الأبد، وليزيده علماً أن الحق أعظم من الطموحات الوطنية. وقد قدّم الله لنبوخذنصر الحلم وتعبيره لا ليكون حكراً عليه وحده بل لكل ملك آخر يأتي بعده لكي يعلم أن ممالك الأرض هي ممالك وقتية في أفضل حالاتها. ولابد من زوالها ذات يوم. وأن الملكوت الأبدي الوحيد الذي لم يزول أبداً هو ملكوت الحجر الحي. ملكوت المسيح يسوع.

إن التمثال بكامله الذي كان على شكل إنسان كان يرمز إلى مملكة الإنسان. أما أجزاء التمثال، أي الرموز المعدنية فكانت ترمز إلى الإمبراطوريات الأربع العظيمة التي ظهرت على مسرح التاريخ، والتي كان لا بد للعالم أن يعرفها قبل انتهاء حكم الإنسان على الأرض. هذه الممالك التي شكّلت العالم بكيفية فائقة تبدأ ببابل التي وصلت إلى أوج تفوّقها ومجدها تحت حكم نبوخذنصر ودمغت العالم بطابعها وشكّلته في قالبها. يقول سايس: "لقد فاقت مملكة بابل في الجنوب مملكة أشور العريقة والكثيرة السكان. هنا كان المركز ونقطة انطلاق الحضارة التي ازدهرت بعد ذلك وانتشرت في كل آسيا الغربية" (صفحة 93 من كتاب سايس الذي عنوانه، امبراطوريات الشرق القديمة).

وفي موسوعة تشف — هيرزوك نجد هذا القول: "أقدم تقاليد مدينتنا الحاضرة الدينية والعلمية والفنية نبعت أصلاً من بابل". (في مقال موضوعه "بابل").

ويقول روجرز: "لا توجد عاصمة أخرى في العالم ظلّت مركزاً لمثل هذا السلطان العظيم والغني والثقافة مدى هذه الحقبة الطويلة" (تاريخ بابل وأشور، الجزء الأول صفحة 397). [395]

كان المناسب أن يُقدّم الإعلان والإنذار من الله إلى أول وأعظم امبارطورية سيطرت في تاريخ العالم. ولكن بابل العظيمة التي من ذهب زالت في إبان حكم الملكين الضعيفين نبونايدس وابنه بيلشاصر في عام 538 ق.م في نفس الجيل الذي أعطي فيه الإعلان.

وبعد بابل جاءت مملكة مادي وفارس تحت حكم كورش الأعظم الذي اجلس استياجس على العرش

كملك محلي. واستياجس هذا معروف باللقب المشهور العام "جاريوس" الذي معناه حاكم أو وال، وهو لقب أطلق على كثيرين من ملوك فارس ولمدى 207 سنوات، ظلّت فارس التي يُرمز إليها بالفضة متربعة على عرش العالم.

وفي عام 331 ق.م حارب داريوس آخر (كودومانوس) الاسكندر الأكبر الذي بدأت قوته في الظهور والتقيا في معركة "أربيل" حيث صار الاسكندر ملك الاغريق، ملكاً على العالم. أما اليونان هذه فيُرمز إليها بالنحاس. وقد مات الاسكندر في عام 323 ق.م وبعد سنوات قليلة لم يكن بد من أن تنقسم مملكته. وقد سقطت فريسة للقوة الحربية التي بدأت تتحرك على ضفاف التيبر.

وقد قهرت روما القسم السوري من الامبراطورية الإغريقية في عام 190 ق.م، كما غلبت القسم المكدوني من تلك الامبراطورية في عام 168 ق.م، وقد اعترفت مصر بسيادة مملكة روما الحديدية في نفس العام. وكانت روما متحدة في بادئ أمرها، مع أنها كانت جمهورية. وقد صارت بعد ذلك امبراطورية. ولكن الانقسام تغلغل في الامبراطورية الرومانية، ويُرمز إليه باختلاط الحديد بالخزف، عن طريق غارات البرابرة من شمال أوروبا وشرقها في القرن الرابع، وهكذا تحطّمت روما المملكة الحديدية إلى الأبد. وقد بُذلت جهود جبارة لتوحيد أمم أوروبا. وجعل أقسام امبراطورية روما وحدة متجانسة عن طريق المصاهرة. وهذا ما أشير إليه في النبوة القائلة: "يختلطون بنسل الناس" (جانيال 2 : 43). ولكنّهم أخفقوا. لقد حاول شارلمان ونابليون أن يُقيما مملكة متحدة بقوة السلاح ولكنهما فشلا. وقد أعلنت النبوة أن تلك الأقسام لا يمكن توحيدها أو جمع شملها كما لا يمكن أن يختلط الحديد بالخزف. ولا تزال تلك الدول في حالة حرب رهيبة حتى اليوم. إن القول: "لا يتلاصق هذا بذاك" (عدد 43)، هو أقوى من الدبلوماسية وقوة السلاح.

وفي أيام انقسامات روما الأخيرة سيُقيم إله السماء ملكوته الذي لن ينقرض ولا يُعطى لشعب آخر غير شعبه الذين سيرثونه إلى الأبد: "الحلم حقّ وتعبيره يقين" (عدد 45). [396] الطين فإنهم يختلطون بنسل الناس ولكن لا يتلاصق هذا بذاك كما أن الحديد لا يختلط بالخزف.

"وفي أيام هؤلاء الملوك يُقيم إله السموات مملكة لن تنقرض أبداً وملكها لا يُترك لشعب آخر وتسحق وتُفنى كل هذه الممالك وهي تثبت إلى الأبد. لأنك رأيت أنه قد قطع حجر من جبل لا بيدين فسحق الحديد والنحاس والخزف والفضة والذهب. الله العظيم قد عرّف الملك ما سيأتي بعد هذا الحلم حق وتعبيره يقين" (عدد 31 — 45).

وقد اقتنع الملك بصدق التعبير، وفي تذلّل ورهبة: "وخرّ على وجهه وسجد" قائلاً: "حقاً إن إلهكم إله الآلهة ورب الملوك وكاشف الأسرار إذ استطعت على كشف هذا السر" (عدد 46، 47).

وقد ألغى نبوخذنصر حكمة بإهلاك الحكماء فقد أبقى على حياتهم بسبب اتصال دانيال بالرب كاشف الأسرار. "حينئذ عظم الملك دانيال وأعطاه عطايا كثيرة وسلّطه على كل ولاية بابل وجعله رئيس الشحن على جميع حكماء بابل. فطلب دانيال من الملك فولى شدرخ وميشخ وعبدنغو على أعمال ولاية بابل. أما دانيال فكان في باب الملك" (عدد 48، 49).

في أخبار التاريخ البشري يبدو أن نمو الأمم واتّساع أرضها، وقيام الامبراطوريات وسقوطها موقوفة على إرادة الإنسان وبسالته. كما يبدو أن تشكيل الأحداث محكوماُ بقوة الإنسان وطموحه وهواه إلى حد كبير. ولكننا نرى في كلمة الله أن الستار يُزاح جانباً وأن وسائل الرب الكلّي الرحمة ومشورات إرادته تتم في صبر وهدوء رغم تلاعب المصالح البشرية. وقوى الناس وأهوائهم في كل الاتجاهات. [397]

يضع الرسول بولس أمام حكماء أثينا، بكلام لا يُبارى في رونقه ورقته قصد الله في الخليقة وتوزيع الأجناس والأمم فأعلن قائلاً: "الإله الذي خلق العالم وكل ما فيه .. صنع من دم واحد كل أمة من الناس

يسكنون على كل وجه الأرض، وحتم بالأوقات المعيّنة وبحدود مسكنهم، لكي يطلبوا الله لعلّهم يتلمسونه فيجدوه" (أعمال 17 : 24 — 27).

لقد أوضح الله أن من يريد يمكنه الدخول: "في رباط العهد" (حزقيال 20 : 37). كان قصده في الخلق أن تسكن في الأرض خلائق يكون وجودهم بركة لأنفسهم ولبعضهم بعضاً وفخراً لخالقهم. وكل من يريد يمكنه أن يوحّد نفسه بهذا القصد ويندمج فيه. وقد قيل: "هذا الشعب جبلته لنفسي. يُحدّث بتسبيحي" (إشعياء 43 : 21).

وقد أوضح الله في شريعته المبادئ التي تكمن في أساس كل نجاح حقيقي — نجاح الأمم والأفراد. فقد أعلن موسى قائلاً لبني إسرائيل عن هذه الشريعة: "لأن ذلك حكمتكم وفطنتكم"، "لأنها ليست أمراً باطلاً عليكم بل هذه هي حياتكم" (تثنية 4 : 6 ؛ 32 : 47). هذه البركات التي تأكّدت لشعب الله هي مضمونة ومؤكدة لكل أمة ولكل فرد تحت قبّة السماء بموجب الشروط ذاتها وبنفس الدرجة.

وقبلما ظهرت بعض الأمم على مسرح الأحداث بمئات السنين نظر الله العليم بكلّ شيء عبر الدهور، وأنبأ بسقوط ممالك المسكونة. وقد أعلن الله لنبوخذنصر أن مملكة بابل ينبغي أن تسقط، ثم تقوم بعدها مملكة ثانية تُعطى لها فرصة إختبار. فإذا فشلت في تعظيم الإله الحقيقي فسيذوى مجدها وتحلّ مكانها [398] مملكة ثالثة. وهذه أيضاً تزول وتأتي بعدها مملكة رابعة، فإذ تكون قويّة وصلبة كالحديد فهي ستخضع أمم العالم.

لو كان ملوك بابل — التي كانت أغنى ممالك الأرض — وضعوا خوف الرب نصب عيونهم لكانت أعطيت لهم قوة وحكمة تربطهم به وتحفظهم أقوياء. لكنهم لم يجعلوا الله ملجأ لهم إلا عندما تضايقوا واحتاروا. ففي تلك الأحيان عندما أخفقوا في الحصول على العون من عظائمهم طلبوه من أناس عرفوا أنهم أكرموا الإله الحي فأكرمهم، مثل دانيال. فلجأوا إلى هؤلاء الرجال ليوضّحوا لهم ما استغلق عليهم من أسرار العناية لأنه مع كون ملوك بابل المتكبّرة، كانوا رجالاً ذوي عقول فطنة ذكية فقد أبعدوا أنفسهم عن الله بمعاصيهم بحيث لم يستطيعوا أن يدركوا الإعلانات والإنذارات المعطاة لهم عن المستقبل.

ففي تاريخ الأمم يمكن لمن تلمذ لكلمة الله أن يرى الإتمام الحرفي للنبوة الإلهية. إن بابل إذ تحطمت وتهشمت في النهاية زالت من الوجود لأن ملوكها في إبّان نجاحهم اعتبروا أنفسهم مستقلين عن الله ونسبوا مجد مملكتهم إلى إنجازات بشرية عظيمة. أما مملكة مادي وفارس فقد افتقدتها السماء بغضبها لأن شريعة الله قد ديست فيها بالأقدام. فمخافة الرب لم تجد لها مكاناً في قلوب السواد الأعظم من الشعب. وقد تفشى الشر والتجديف والفساد. وكانت المملكتان اللتان جاءتا بعدهما أعظم انحطاطاً وفساداً منهما، فانحدرتا أدبياً إلى أحطّ الدرجات.

إن السلطان الذي يستخدمه كل ملك على الأرض إنما هو ممنوح له من السماء ونجاحه يتوقف على كيفية استخدامه لهذا السلطان المُعطى له. وهذه هي رسالة الرب التي يوجهها الرقيب غير المنظور إلى كل من أولئك الملوك: [399] "نطقتك وأنت لم تعرفني" (إشعياء 45 : 5). ولكل منهم توجه الكلمات الموجّهة إلى نبوخذنصر قديماً كدرس للحياة قائلة: "فارق خطاياك بالبر وآثامك بالرحمة للمساكين لعلّه يطال اطمئنانك" (دانيال 4 : 27).

إن فهمنا لهذه الأمور — وإدراكنا: "يبأن البر يرفع شأن الأمة" وأن: "الكرسي يثبت بالبر" و "يُسند بالرحمة" عندما نعترف بتفوق هذه المبادئ في إظهار قدرة ذاك الذي: "يعزل ملوكاً وينصب ملوكاً" نكون قد بلغنا أوج الحكمة. عندئذ فقط نكون قد أدركنا فلسفة التاريخ (أمثال 14 : 34 ؛ 16 : 12 ؛ 20 : 28 ؛ دانيال 2 : 21).

ونجد هذا مفصلاً وموضَّحا في كلمة الله وحدها. ففيها يتّضح أن قوة الأمم والأفراد لا توجد في

الفرص أو التسهيلات التي يبدو أنها تكسبهم قوة ومناعة، ولا في عظمتهم التي يفاخرون بها. ولكنّها تُقاس بمقدار الولاء الذي به يتممون قصد الله.

[400] * * * * *

الفصل الحادي والأربعون — أتون النار

(يعتمد هذا الفصل على ما جاء في الإصحاح الثالث من سفر دانيال)

كشف حلم التمثال العظيم لنبوخذنصر عن حوادث تمتدّ إلى نهاية الزمن والدور الذي أعطي له ليمثّله في تاريخ العالم والعلاقة التي كان عليه توطيدها بين مملكته وملكوت السموات. وعند تعبير الحلم كان قد أحيط علماً فيما يختص بإقامة وتوطيد ملكوت الله الأبدي. كان دانيال قد أعلن للملك قائلاً: "وفي أيام هؤلاء الملوك يقيم إله السموات مملكة لن تنقرض أبداً وملكها لا يترك لشعب آخر وتسحق وتفني كل هذه الممالك وهي تثبت إلى الأبد .. الحلم حق وتعبيره يقين" (دانيال 2 : 44، 45).

كان الملك قد اعترف بسلطان الله قائلاً لدانيال: "حقاً إن إلهكم إله الآلهة .. وكاشف الأسرار" (دانيال 2 : 47). كما ظلّ لبعض الوقت متأثراً بخوف الله، إلا أن قلبه لم يكن قد تحوّل بعد عن المطامع الدنيوية والرغبة في تمجيد نفسه. ذلك أن النجاح الذي لازم حكمه ملأه غروراً وكبرياء. وقد كفّ في ذلك الوقت عن تمجيد الله وعاد إلى عبادة الأوثان بغيرة وتعصّب زائدين.

أما القول: "أنت هذا الرأس من ذهب" (دانيال 2 : 37)، فقد أحدث في عقل الملك تأثيراً عميقاً فإذ أراد حكماء مملكته أن يستفيدوا من هذا ومن عودته إلى [401] عبادة الأوثان اقترحوا عليه أن يقيم تمثالاً شبيهاً بذاك الذي رآه في حلمه، فيقيمه في مكان بارز يمكن لكل عابر أن يرى الرأس الذي من ذهب الذي قيل له أنه يرمز إلى مملكته.

فإذ أعجبه هذا الإقتراح المنطوي على الإطراء والمداهنة عوّل على تنفيذه على أن يذهب إلى أبعد من ذلك. فبدلاً من أن يقيم التمثال كما شاهده في الحلم أراد أن يتفوّق على النموذج. فتمثاله ينبغي ألا يقل في قيمته، من الرأس إلى القدمين، بل أن يكون كلّه من الذهب — فيرمز إلى بابل كمملكة أبدية قوية لا تنقرض بل تسحق كل الممالك الأخرى أما هي فتثبت إلى الأبد.

إن فكرة تثبيت الإمبراطورية والأسرة المالكة التي ستبقى إلى الأبد أعجبته كثيراً حيث لم تستطع أمم الأرض الصمود أمام أسلحته وجيوشه. ففي فورة حماسه وطموحه الذي لا حد له وأنانيته الشديدة، تشاور مع حكمائه في كيفية تحقيق هذا الأمر. فإذ نسي حوادث العناية الشهيرة المتّصلة بالحلم الذي شاهد فيه التمثال العظيم. ونسي أن الله قد أوضح له بواسطة دانيال خادمه مغزى التمثال ودلالته وأنه بواسطة هذا التعبير أنقذ عظماء الدولة من موت مشين، وإذ نسي هو ومشيروه كل شيء عدا رغبتهم في توطيد سلطانهم وسيادتهم، فقد عقدوا العزم على بذل كل ما في مقدورهم لتعظيم بابل كأعظم وأسمى أمة تستحق ولا الجميع.

كان التمثال الرمزي الذي بواسطته أعلن الله للملك والشعب مقاصده نحو أمم الأرض مزمعاً أن يصير عاملاً من عوامل تمجيد القوة البشرية. كان تعبير دانيال للحلم سيُرفض بل ويُنسى، ويساء تفسير الحق واستعماله وتطبيقه. والتمثال الرمزي الذي قصدت السماء أن يكشف لعقول الناس حوادث المستقبل الهامة [402] كان سيستخدم لعرقلة انتشار المعرفة التي أراد الله أن يحصل العالم عليها. وهكذا عن طريق

نزوات الناس الطامعين كان الشيطان يحاول تعطيل مقاصد الله نحو الجنس البشري. لقد عرف بني الإنسان أن الحق الذي لا يخالطه ضلال هو قوة مخلّصة عظيمة، ولكن متى استخدم لتمجيد الذات وإنجاز مشاريع دنيوية فسيصير قوة للشر لا للخير.

أمر نبوخذنصر أن تُفتح خزائنه العامرة بالذهب لكي يُصنع تمثالاً عظيماً من الذهب يشبه في تقاطيعه العامة ذلك الذي شاهده في الرؤيا ما خلا شيء واحد ألا وهو المادة التي يُصنع منها. فمع كون الكلدانيين معتادين على صنع التماثيل الفخمة لآلهتهم الوثنية. لم يسبق لهم أن صنعوا تمثالاً مهيباً أو جليلاً كهذا التمثال المتألق الذي كان ارتفاعه ستّون ذراعاً وعرضه ستة أذرع. وليس مما يدعو إلى الدهشة أن يُدشن تمثال جميل غالي الثمن في بلاد عمّت فيها عبادة الأوثان وتفشّت. وقد نُصب في بقعة دورا ليمثّل مجد بابل وعزمتها وقوّتها كموضوع العبادة وقبلة الساجدين. وتبعاً لذلك أعدّت لذلك فصدر أمر أنه في يوم التدشين ينبغي للجميع أن يبرهنوا على ولائهم الفائق لسلطان بابل بالسجود أمام التمثال.

وعندما جاء اليوم المحدّد احتشدت جموع غفيرة من كل "الشعوب والأمم والألسنة" (عدد 4)، في بقعة دورا. فامتثالاً لأمر الملك عندما دوى صوت الموسيقى: "خر كل الشعوب والأمم والألسنة وسجدوا لتمثال الذهب" (عدد 7). في ذلك اليوم الحافل بالأحداث بدا كأن قوات الظلمة قد أحرزت نصراً مبيناً. وقد صار السجود أمام تمثال الذهب مرتبطاً دائماً بالطقوس الوثنية الثابتة المعتبرة دين الدولة في كل أنحاء المملكة. وقد حاول الشيطان بذلك أن يُحبط [403] مقاصد الله في جعل وجود بني إسرائيل المسبيين في بابل وسيلة لمباركة كل الأمم الوثنية.

ولكن قصد الله كان على عكس ذلك. فلم تنحن كل الركب أمام التمثال الوثني الذي يمثّل السلطان البشري. ففي وسط تلك الجموع التي سجدت خاشعة أمام التمثال، وُجد ثلاث رجال عقدوا العزم على ألا يهينوا إله السماء بسجودهم للتمثال. لقد كان إلههم هو ملك الملوك ورب الأرباب، فلن يسجدوا لآخر سواه.

فإذا نبوخذنصر الذي ازدهى بحلاوة الظفر يُفاجأ بخبر يأتيه مفاده أنه يوجد بين رعاياه جماعة تجرأوا على عصيان أمره. فإن بعضاً من الحكماء الذين كانوا يحسدون أصدقاء دانيال الأمناء ويغارون منهم بسبب الكرامات التي أغدقت عليهم، أبلغوا الملك بانتهاك أولئك العبرانيين المشين لأوامره ورغباته.
فصاحوا قائلين: "أيها الملك عش إلى الأبد .. يوجد رجال يهود الذي وكّلتهم على أعمال ولاية بابل شدرخ وعبدنغو. هؤلاء الرجال لم يجعلوا لك أيها الملك اعتباراً. آلهتك لا يعبدون ولتمثال الذهب الذي نصبت لا يسجدون" (عدد 9، 12).

فأمر الملك بإحضار أولئك الرجال للمثول أمامه فلما جاءوا سألهم "تعمداً .. لا تعبدون آلهتي ولا تسجدون لتمثال الذهب الذي نصبت؟" (عدد 14). وقد حاول بواسطة تهديداته أن يقنعهم بالاشتراك مع الجموع (في السجود للتمثال). وإذ أشار إلى أتون النار ذكّرهم بالقصاص الذي ينتظرهم إن هم أصرّوا على رفض إطاعة مشيئته. ولكن أولئك العبرانيين شهدوا بكل ثبات بولائهم لإله السماء [404] وإيمانهم بقدرته على إنقاذهم. كان الجميع يفهمون أن السجود للتمثال هو عبادة. ومثل هذه العبادة لا يمكنهم تقديمها لغير الله.

وإذ وقف الثلاثة أمام الملك مقتنعاً بأنهم يملكون شيئاً لا يملكه حكماء المملكة الآخرون. فكانوا أمناء في مباشرة كل واجب. وقد أراد أن يعطيهم فرصة أخرى. فإن كانوا فقط يبدون استعدادهم لمشاركة الجماهير في السجود للتمثال فسيستقيم كل أمر بالنسبة إليهم. ثم أضاف قائلاً: "وإن لم تسجدوا ففي تلك الساعة تلقون في وسط أتون النار المتقدة". ثم مد يده إلى فوق في هيئة التحدّي وقال لهم: "ومن هو الإله الذي ينقذكم من يدي؟" (عدد 15).

ولكن تهديدات الملك كانت عبثاً. فلم يستطيع أن يُزحزح أولئك الرجال أو يميلهم عن ولائهم لملك

الكون. لقد تعلموا من تاريخ آبائهم أن عصيان الله ينتج عنه العار والكوارث والموت، كما تعلموا أن رأس الحكمة هو مخافة الله وأساس كل نجاح حقيقي. فإذ واجهوا الأتون قالوا بهدوء: "يا نبوخذنصر لا يلزمنا أن نجيبك على هذا الأمر. (فإن كان هذا ما حكمت به) هوذا يوجد إلهنا الذي نعبده يستطيع أن ينجينا من أتون النار المتقدة وأن ينقذنا من يدك أيها الملك". وإذ تقوى إيمانهم عندما أعلنوا أن الله سيتمجّد في إنقاذهم، وإذ تقوى باليقين المنتصر الذي هو وليد الثقة الكاملة في الله، أضافوا قائلين: "وإلا فليكن معلوماً لك أيها الملك أننا لا نعبد آلهتك ولا نسجد لتمثال الذهب الذي نصبته" (عدد 16 — 18).

وقد تجاوز غضب الملك كل الحدود: "حينئذ امتلأ نبوخذنصر غيظاً وتغيّر منظر وجهه على شدرخ وميشخ وعبدنغو" (عدد 19). إذ كانوا يمثّلون جماعة من المسبيين المحتقرين. فأمر الملك بأن يحمّوا الأتون سبعة أضعاف أكثر مما كان [405] معتاداً أن يُحمى وأمر جبابرة القوة في جيشه أن يوثقوا عابدي الله تمهيداً لموتهم السريع.

"ثم أوثق هؤلاء الرجال في سراويلهم وأقمصتهم وأرديتهم ولباسهم وألقوا في وسط أتون النار المتّقدة. ومن حيث أن كلمة الملك شديدة والأتون قد حمي جدا قتل لهيب النار الرجال الذين رفعوا شدرخ وميشخ وعبدنغو" (عدد 21، 22).

ولكن الرب لم ينس خاصّته. فإذ ألقي شهوده في الأتون أعلن المخلّص نفسه لهم شخصياً وساروا جميعهم يتمشون معاً وسط النار. ففي مضر رب الحرارة والبرودة فقد اللهب قوّته على الإحراق.

وإذ كان الملك جالساً على كرسيّ ملكه جعل يتطلّع في ما أمامه متوقعاً أن يرى الرجال الذين قد تحدّوه وقد هلكوا تماماً. ولكن شعوره بالانتصار تبدّل فجأة. فقد رأى النبلاء الواقفون هناك وإذ وجه الملك قد بدا شاحباً عندما قام من على عرشه وتطلّع بإمعان في النيران المتأججة. فإذ إلتفت الملك برعب إلى مشيريه سألهم قائلاً: "ألم نلقي ثلاثة رجال موثقين في وسط النار؟ .. ها أنا ناظر أربعة رجال محلولين يتمشون في وسط النار وما بهم ضرر ومنظر الرابع شبيه بابن الآلهة" (عدد 24، 25).

ولكن كيف عرف ذلك الملك الوثني هيئة ابن الله؟ إن أولئك العبرانيين المسبيين الذين كانوا يشغلون مراكز ذات مسؤولية في بابل، صوروا الحق أمام الملك في حياتهم وأخلاقهم. وعندما سُئلوا عن سبب إيمانهم قدّموا ذلك السبب بدون تردد. لقد قدّموا مبادئ البر بكل وضوح وببساطة وهكذا علّموا من حولهم عن الإله الذي كان يتعبّدون له. لقد أخبروا الناس عن المسيح الفادي [406] الآتي، وفي هيئة الرابع الذي كان يتمشى في النار رأى الملك، واعترف أنه ابن الله.

أما الآن وقد نسي الملك جلاله وعظمته، فقد نزل نبوخذنصر عن عرشه وإذ ذهب إلى فم الآتون نادى قليلاً: "يا عبيد الله العلي اخرجوا وتعالوا" (عدد 26).

حينئذ خرج شدرخ وميشخ وعبدنغو أمام كل ذلك الجمع الحاشد ولا ضرر فيهم. إن حضور مخلصهم حرسهم من كل ضرر ولم تحترق غير الربط التي كانوا موثقين بها: "فاجتمعت المرازبة والشحن والولاة ومشيرو الملك ورأوا هؤلاء الرجال الذين لم تكن للنار قوة على أجسامهم وشعرة من رؤوسهم لم تحترق وسراويلهم لم تتغير ورائحة النار لم تأت عليهم" (عدد 27).

أما التمثال الذي أقيم بتلك الأبهة والفخامة العظيمة فقد صار نسياً منسياً. ففي محضر الإله الحي خشع الناس وارتعبوا. والملك الذي أحسّ بالإذلال إضطر إلى الاعتراف قائلاً: "تبارك إله شدرخ وميشخ وعبدنغو الذي أرسل ملاكه وأنقذ عبيده الذين اتّكلوا عليه وغيّروا كلمة الملك. وأسلموا أجسادهم لكي لا يعبدوا أو يسجدوا لإله غير إلههم" (عدد 28).

إن اختبارات ذلك اليوم جعلت نبوخذنصر يصدر منشوراً يقول فيه: "بأن كل شعب وأمة ولسان يتكلّمون بالسوء على إله شدرخ وميشخ وعبدغنو فإنهم يصيرون إرباً إرباً وتُجعل بيوتهم مزبلة". وصرّح

إن السبب لإصدار ذلك المنشور هو أنه: "ليس إله آخر يستطيع أن ينجي هذا" (عدد 29). فبهذه الأقوال وأمثالها حاول ملك بابل أن ينشر أمام كل شعوب الأرض اقتناعه بأن قوة إله السموات وسلطانه تستحق كل إكرام وتمجيد. وقد سرّ الله من محاولة الملك أن يُقدّم له الإكرام وأن يجعل ذلك الاعتراف الملكي بالولاء، يُنشر في طول المملكة وعرضها. [407]

لقد كان أمراً صائباً وجميلاً من الملك أن يُجاهر باعترافه ويمجّد إله السماء فوق كل الآلهة الأخرى ولكنّه في محاولته إرغام رعاياه للمجاهرة بإيمانهم كما فعل هو، وإظهار الإكرام الذي قدّمه، تجاوز نبوخذنصر حدوده وحقّه كملك أرضي. فلم يكن له أي حق مدني أو أدبي في تهديد الناس بالموت عند رفضهم السجود لله أكثر مما كان له الحق في إصدار القرار الذي نصّ على طرح كلّ من لا يسجد لتمثال الذهب في أتون النار. إن الله لا يُرغم أي إنسان على الطاعة، بل هو يترك لكل إنسان الحرية التامة في اختيار الإله الذي يعبده.

إذ أنقذ الله عبيده الأمناء أعلن بأنّه يقف إلى جانب المُضطهدين ويوبّخ كل ملوك الأرض الذين يتمردون على سلطان السماء. لقد جاهر العبرانيون الثلاثة أمام كل أمة بابل بإيمانهم بالإله الذي كانوا يعبدونه واعتمدوا على الله. ففي ساعة التجربة ذكروا الوعد القائل: "إذا اجتزت في المياه فأنا معك وفي الأنهار فلا تغمرك. إذا مشيت في النار فلا تُلدغ واللهيب لا يحرقك" (إشعياء 43 : 2). وقد أكرم إيمانهم بالكلمة الحي (يسوع) بكيفية مدهشة وعجيبة على مرأى الجميع. وقد انتقلت أنباء نجاتهم العجيبة إلى بلدان كثيرة بواسطة ممثلي الأمم المختلفة الذين كان نبوخذنصر قد دعاهم لحضور حفل التدشين. لقد تمجّد الله في كل الأرض بواسطة أمانة أولاده.

إن لنا في إختبار الفتية العبرانيين في بقعة دورا دروس هامة جداً نتعلّمها. ففي يومنا هذا يوجد كثيرون من عبيد الله الذين مع أنهم أبرياء ولم يرتكبوا شراً فسيُسلمون إلى الإذلال والإهانات على أيدي الذين أوغر الشيطان صدورهم فامتلأت قلوبهم بالحسد والتعصب الديني. وسيثور غضب الناس على الخصوص [408] ضد من يقدّسون سبت الوصية الرابعة. وفي الأيام الأخيرة سيصدر منشور عام يشتكي فيه عليهم بأنهم مستوجبون الموت.

إن زمان الضيق الذي سيواجه شعب الله يتطلّب إيماناً لا يضعف ولا يتزعزع. وعلى أولاده أن يعلنوا أنه هو موضوع عبادتهم الوحيد، وأنه لا يمكن لأي اعتبار ولا حتى الحياة نفسها أن يغويهم على الإذعان ولو إلى حد يسير نحو العبادة الكاذبة. إن تعاليم وأوامر الناس الخطاة المحدودين هي في نظر الإنسان المُخلص الأمين غاية في التفاهة بالمقارنة مع كلمة الله الحي الأبدي. ولابد من إطاعة الحق ولو نجم عن ذلك السجن أو النفي أو الموت.

وكما كانت الحال في عهد شدرخ وميشخ وعبدنغو كذلك ستكون الحال في ختار تاريخ الأرض فالرب سيعمل بقوة لصالح من يقفون ثابتين في جانب الحق. فذاك الذي كان يتمشى مع أولئك العبرانيين في أتون النار سيكون مع تابعيه أينما كانوا. إن حضوره الدائم سيُعزّي ويعضّد. ففي إبان الضيق الذي لم يحدث مثله منذ كانت أمة، فإن مختاري الرب سيظلون ثابتين غير متزعزعين. إن الشيطان وكل أجناد الشر لن يستطيعوا إهلاك أضعف واحد من قدّيسي الله. فالملائكة المقتدرون قوة سيحرسونهم، والرب سيُعلن نفسه لهم بوصفه "إله الآلهة" القادر أن يخلّص إلى التمام من يتّكلون عليه.

[409] * * * * *

الفصل الثاني والأربعون ـــ العظمة الحقيقية

(يعتمد هذا الفصل على ما ورد في دانيال الإصحاح الرابع)

كان نبوخذنصر ينسب مجد ملكه وبهاء سلطانه أحياناً إلى فضل الرب وإحسانه رغم ذروة الكرامة العالمية التي بلغها واعترف الوحي به على أنه ملك الملوك. (حزقيال 26 : 7). وكذلك كانت الحال على أثر حلم التمثال الذي شاهده. كان تأثير تلك الرؤيا على عقله عظيماً جداً. كما كان متأثراً بفكرة كون امبراطورية بابل مع عظمتها واتّساعها ستسقط في النهاية وتملك مكانها ممالك أخرى. وتخلف أخيراً كل الممالك الأرضية مملكة يقيمها إله السماء لن تنقرض أبداً.

لقد غاب عن ذهن نبوخذنصر في اختباره فيما بعد إدراكه النبيل لقصد الله نحو الأمم. ومع ذلك فعندما أذلّت روحه المتكبّرة أمام الجموع المحتشدة في بقعة دورا اعترف مرة أخرى بأن ملكوت الله "ملكوت أبدي وسلطانه إلى دور فدور" (عدد 3). فمع أنه وليداً وثنياً وتربّى وترعرع على عبادة الأوثان وكان على رأس شعب يدين بالوثنية، كان لديه إحساس فطري بالعدالة والحق. وكان الله يستطيع أن يستخدمه أداة لتأديب العصاة وإتمام مقاصده الإلهية. وإذ كان نبوخذنصر من "عتاة الأمم" أي مرعبها (حزقيال 28 : 7). فقد أعطي له بعد سنوات الصبر والتعب المُضني أن يقهر مدينة صور. كما سقطت مصر أيضاُ غنيمة بين [410] أيدي جيوشه الظافرة، وإذ أضاف بعد أمة إلى مملكته البابلية، فقد ذاعت شهرته في كل الأرجاء على أنه أعظم ملك في جيله.

فلا غرابة إذا خضع هذا الملك الطموح الناجح والمتكبّر لتجربة الجنوح عن نهج الوداعة الذي هو لا سواه يفضي إلى العظمة الحقيقية. وفي الفترات التي تخلّلت حروبه وفتوحاته، ركز كثيراً على تحصين العاصمة بابل وتجميلها حتى صارت في النهاية فخر مملكته، "المدينة الذهبية" "فخر كل الأرض" فإن شغفه كبناء ونجاحه الفريد في جعل إحدى عجائب الدنيا، غذّى كبرياءه حتى بات في خطر كبير في أن يشوّه سجله التاريخي كملك عظيم يمكن لله أن يداوم على استخدامه وسيلة لتنفيذ مقاصده الإلهية.

وقد جعل الله الملك في رحمته يحلم حلماً آخر لإنذاره كيلا يدهمه الخطر ولكي يحذر الشرك المنصوب له لإهلاكه. فشاهد في رؤيا الليل شجرة عظيمة نامية في وسط الأرض يبلغ علوّها إلى السماء وامتدّت أغصانها إلى أقصى الأرض. وجاءت القطعان والمواشي من الجبال والتلال وتفيّأت تحت ظلّها الوارف. كما أقبلت أسراب الطيور لتبني أعشاشها بين أغصانها: "أوراقها جميلة وثمرها كثير وفيها طعام للجميع .. وطعم منها كل البشر" (عدد 12).

وفيما كان الملك نبوخذنصر يشخص إلى الشجرة نظر وإذا: "ساهر وقدوس" قد اقترب من الشجرة وصرخ بصوت عال يقول: "اقطعوا الشجرة واقبضوا أغصانها وانثروا أوراقها وأبذروا ثمرها، ليهرب الحيوان من تحتها والطيور من أغصانها. ولكن أتركوا ساق أصلها في الأرض وبقيد من حديد ونحاس في عشب الحقل وليبتلّ بندى السماء وليكن نصيبه مع الحيوان في عشب الحقل. ليتغيّر قلبه عن الإنسانية وليعط قلب حيوان ولتمض عليه سبعة أزمنة. هذا الأمر بقضاء الساهرين [411] والحكم بكلمة القدوسين

لكي تعلم الأحياء أن العلي متسلط في مملكة الناس فيعطيها لمن يشاء وينصب عليها أدنى الناس“ (عدد 13 — 17).

فاضطرب الملك أشد اضطراب من الحلم الذي كانت نبوءاته واضحة وتنبئ بوقوع بلوى أو كارثة تحلّ عليه، فسرده على مسامع ” المجوس والسحرة والكلدانيين والمنجمين “. ولكن مع أن الحلم كان واضحاً كل الوضوح لم يستطيع أي من الحكماء أن يعبّره (عدد 7).

ومرة أخرى كانت ستُقدّم شهادة في تلك البلاد الوثنية لحقيقة كون أولئك الذين يحبّون الله ويتّقونه هم وحدهم الذين يفهمون أسرار ملكوت السموات. فأرسل الملك في حيرته يستدعي عبده دانيال الذي كان رجلاً مكرماً لأجل نزاهته ووفائه وحكمته التي لا تبارى.

وعندما مثل في حضرة الملك إمتثالاً لأمره قال له نبوخذنصر: ”يا بلطشاصر كبير المجوس من حيث أني أعلم أن فيك روح الآلهة القدوسين ولا يعسر عليك سر فأخبرني برؤى حلمي الذي رأيته وبتعبيره“ (عدد 9). فبعدما سرد عليه نبوخذنصر الحلم قال: ”أما أنت يا بلطشاصر فبين تعبيره لأن كل حكماء مملكتي لا يستطيعون أن يعرفوني بالتعبير، أما أنت فتستطيع لأن فيك روح الآلهة القدوسين“ (عدد 18).

كان معنى الحلم واضحاً لدى دانيال ولكن معناه أفزعه فقد: ”تحيّر ساعة واحدة وأفزعته أفكاره“ (عدد 19). فإذ رأى الملك تردّد دانيال وضيق نفسه. عبّر عن عطفه تجاه عبده إذ قال له: ”يا بلطشاصر لا يفزعك الحلك ولا تعبيره“ (عدد 19). [412]

فأجابه دانيال قائلاً: ”يا سيدي الحلم لمبغضيك وتعبيره لأعاديك“ (عدد 19). وقد تأكد للنبي أن الله قد ألقى عليه واجباً مقدَّسا خطيراً ألا وهو أن يُصارح نبوخذنصر الحكم الذي كان مزعماً أن يقع عليه بسبب كبريائه وغطرسته. فعلى دانيال أن يعبّر الحلم بأسلوب يستطيع الملك استيعابه، ومع أن معناه المرعب جعله يتردد في حيرة خرساء فإن عليه مع ذلك أن يقرر الحق مهما أصابه من جراء ذلك.

حينئذ أخبر دانيال الملك بحكم العلي قائلاً: ”الشجرة التي رأيتها التي كبرت وقويت وبلغ علوها إلى السماء ومنظرها إلى كل الأرض وأوراقها جميلة وثمرها كثير وفيها طعام للجميع وتحتها سكن حيوان البر وفي أغصانها سكنت طيور السماء إنما هي أنت أيها الملك الذي كبرت وتقوّيت وعظمتك قد زادت وبلغت إلى السماء وسلطانك إلى أقصى الأرض.

”وحيث رأى الملك ساهراً وقدوساً نزل من السماء وقال اقطعوا الشجرة وأهلكوها ولكن اتركوا ساق أصلها في الأرض وبقيد من حديد ونحاس في عشب لحقل وليبتل بندى السماء، وليكن نصيبه مع حيوان البر حتى تمضي عليه سبعة أزمنة. فهذا هو التعبير أيها الملك وهذا هو قضاء العلي الذي يأتي على سيدي الملك. يطردونك من بين الناس. وتكون سكناك مع حيوان البر، ويطعمونك العشب كالثيران. ويبلونك بندى السماء. فتمضي عليك سبعة أزمنة حتى تعلم أن العليّ متسلّط في مملكة الناس ويعطيها من يشاء. وحيث أمروا بترك ساق أصول الشجرة فإن مملكتك تثبت لك عندما تعلم أن السماء سلطان“ (عدد 20 — 26).

فبعدما فسّر دانيال الحلم بكل أمانة ألحّ على الملك المتكبّر أن يتوب ويرجع إلى الله كي يمكنه بواسطة عمل الحق والصواب أن يبعد نفسه عن تلك الكارثة [413] التي تهدده. فتوسل النبي إلى الملك قائلاً: ”لذلك أيها الملك فلتكن مشورتي مقبولة لديك وفارق خطاياك بالبر وآثامك بالرحمة للمساكين لعله يُطال اطمئنانك“ (عدد 27).

وقد ظلّ وقع إنذار النبي ومشورته قوياً في نفس نبوخذنصر إلى حين، ولكن القلب الذي لا تغيّره نعمة الله سرعان ما تضيع منه تأثيرات الروح القدس. فالانغماس في الملذّات والطموح الدنيوي لم يكونا استؤصلا بعد من قلب الملك، فعادت تلك الخصال إلى الظهور. لقد سمح نبوخذنصر لنفسه مرة أخرى أن تتحكم فيه روح الحسد من الممالك التي ستأتي بعده، بالرغم من كل الإرشادات والنصائح التي قُدّمت إليه

بكل كرم ولطف، مع إنذارات اختباراته الماضية، وحكمه الذي اتّصف حتى ذلك الحين بالعدالة والرحمة إلى حدّ كبير، أصبح الآن يتّصف بالظلم والاستبداد. وإذ قسّى قلبه استخدم الهبات الممنوحة له من الله في تمجيد نفسه وتعظيمها فوق الإله الذي منحه الحياة والسلطان.

وقد تأجّل قضاء الله بضعة أشهر ولكن بدلاً من أن يقوده لطف الله وصبره إلى التوبة انغمس في الكبرياء إلى حدّ أنه ما عاد يثق في تعبير دانيال للحلم وصار يسخر من مخاوفه الماضية.

فبعد مرور عام منذ أبلغ الملك نبوخذنصر بالإنذار، إذ كان يمشي في قصره وهو يفكر بكبرياء في سلطانه كملك ونجاحه كبنّاء هتف يقول: ” أليست هذه بابل العظيمة التي بنيتها لبيت الملك بقوة اقتداري ولجلال مجدي؟“ (عدد 30).

وإذ كانت كلمات التفاخر لا زالت على شفتي الملك قد وقع صوت من السماء يعلن أن الوقت المعين من الله لتنفيذ قضائه قد حان. وقد سمعت أذناه حكم الرب قائلاً: ”لك يقولون يا نبوخذنضر الملك. إن المُلك قد زال عنك، [414] ويطردونك من بين الناس، وتكون سُكناك مع حيوان البر، ويطعمونك العشب كالثيران. فتمضي عليك سبعة أزمنة حتى تعلم أن العلي متسلّط في مملكة الناس فيعطيها من يشاء“ (عدد 31، 32).

ففي لحظة انتُزع من الملك عقله الذي قد وهبه الله إياه. فقد أخذ منه الفكر الذي ظنه الملك صائباً وحكمته التي طالما افتخر بها. وبعد أن كان ملكاً عظيماً أمسى إنساناً معتوهاً ولم تعد يده قادرة بعد ذلك للقبض على الصولجان. لم يكترث للإنذارات، والآن بعدما جرّد من السلطان الذي منحه إياه الخالق، وبعدما طُرد من بين الناس: ”أكل العشب كالثيران وابتل جسمه بندى السماء حتى طال شعره مثل النسور وأظافره مثل الطيور“ (عدد 33).

وظلّ نبوخذنصر مدى سبع سنوات موضع ذهول رعاياه وتمّ إذلاله أمام كل العالم. حينئذ عاد إليه عقله ونظر بوداعة إلى الله إله السماء واعترف بأن يده قد تدخّلت في تأديبه. واعترف بذنبه بإعلان نطق به على ملأ من الناس، وبرحمة الله العظيمة في إرجاعه. فقال: ”وعند انتهاء الأيام، أنا نبوخذنصر وقعت عينيّ إلى السماء فرجع إليّ عقلي وباركت العليّ وسبّحت وحمدت الحيّ إلى الأبد الذي سلطانه سلطان أبدي وملكوته إلى دور فدور، وحسبت جميع سكان الأرض كل شيء. وهو يفعل كما يشاء في جند السماء وسكان الأرض. ولا يوجد من يمنع يده أو يقول له ماذا تفعل؟

”في ذلك الوقت رجع إليّ عقلي وعاد إليّ جلال مملكتي ومجدي وبهائي وطلبني مشيري وعظمائي وتثبّت عليّ مملكتي وازدادت لي عظمة كثيرة“ (عدد 34 — 36). [415]

وذاك الذي كان سابقاً ملكاً متكبراً أمسى الآن ابناً لله متواضعاً. والملك الطاغية المعتز بنفسه صار ملكاً حكيماً ورحيماً. وذاك الذي كان يتحدى إله السماء ويجدف عليه، اعترف الآن بسلطان العلي وسعى بكل غيرة في نشر مخافة الرب وعمل على إسعاد رعاياه. لقد تعلّم أخيراً تحت توبيخ الرب الذي هو ملك الملوك وربّ الأرباب الدرس الذي على كل ملك أن يتعلّمه — هو أن العظمة الحقيقية هي في الصلاح الحقيقي وقد اعترف بأن الرب هو الإله الحي إذ قال: ”أنا نبوخذنصر أسبّح وأعظّم وأحمد ملك السماء الذي كل أعماله حق وطرقه عدل ومن يسلك بالكبرياء فهو قادر على أن يذله“ (عدد 37).

بذلك تمّ قصد الله في أن تعمل أعظم مملكة في العالم على إذاعة حمده. والبلاغ العالم الذي أذيع وبلغ كل الأسماع الذي فيه اعترف نبوخذنصر برحمة الله وصلاحه وسلطانه كان هو آخر عمل عمله في حياته وسجّله التاريخ المقدّس.

* * * * * [416]

الفصل الثالث والأربعون ـــ الرقيب غير المنظور

(يعتمد هذا الفصل على ما ورد في الإصحاح الخامس من سفر دانيال)

قبيل انتهاء حياة دانيال بدأت تطورات عظيمة تحدث في المملكة التي أخذ إليها أسيراً هو وأصحابه العبرانيون منذ أكثر من ستين سنة خلت. فنبوخذنصر "مرعب الأمم" (حزقيال 28 : 7) كان قد مات. وبابل "فخر كل الأرض" رُزقت بحكّام غير حكماء، وخلفه ملوك طائشون. وبدأ ينتج عن ذلك انحلال تدريجي أكيد.

كانت بابل المتكبّرة موشكة على الانهيار بسبب غباوة وضعف بيلشاصر حفيد نبوخذنصر فإذ كان قد سُمح في صدر شبابه أن ينال نصيباً من سلطة الملك فقد تباهى بهذا السلطان وارتفع قلبه ضد إله السماء. وقد أتيحت له فرص كثيرة لمعرفة إرادة الله وإدراك مسؤوليته في إطاعة تلك الإرادة. وعرف عن نفي جدّه وطرده من بين الناس بقضاء الله، كما كان ملماً باهتدائه وإرجاعه إلى وعيه وعرشه بكيفية معجزية. ولكن بيلشاصر سمح لمحبة الملذّات وتمجيد الذات بمحو الدروس التي كان ينبغي له ألا ينساها أبداً. لقد أضاع الفرص الممنوحة له تكرماً وأهمل استخدام الوسائل التي بين يديه ليغدوا أكثر دراية وعلماً بالحق. فما حصل عليه نبوخذنصر أخيراً بالمعاناة وشقاء النفس وبآلام وإذلال لا يمكن تقديرها، مر به بيلشاصر دون اكتراث. [417]

ولم يطل له الزمن قبلما تراكمت عليه المعاكسات. فقد حوصرت مدينة بابل بجيش كان على رأسه كورش ابن أخت داريوس المادي الذي كان القائد الأعلى لجيوش مادي وفارس المتحدة. ولكن في داخل تلك القلعة التي كان يبدو أنها منيعة بأسوارها الهائلة وأبوابها التي من نحاس التي كان يحميها نهر الفرات، وحيث اختزنت فيها مؤونة وافرة، أحس ذلك الملك الخليع أنه في أمان، فقضى وقته في المرح والمجون والعربدة.

فقد أولم بيلشاصر في كبريائه وغطرسته وطيشه وإحساسه بالأمان: "وليمة عظيمة لعظمائه الألف وشرب خمراً قدام الألف" (عدد 1). وكل ملذات الحياة التي كان يمكن أن يوفرها الغنى والسلطان زادت ذلك المشهد بهاء. وكان بين الضيوف الذين حضروا إلى وليمة الملك بعض النسوة الجميلات الفاتنات. كما كان هناك رجال عباقرة مشهورون بذكائهم ونبوغهم. والأمراء والساسة الذين يجرعون الخمر كالماء حيث وقعوا تحت تأثيرها الذي يصيب شاربها بالضياع ..

فإذ خلع الملك عقله عن عرشه بإدمانه المخزي للخمر، وإذ سيطرت عليه نوازع وأهواء منحطّة صار هو نفسه في طليعة السكيرين المشاغبين. وفيما كانوا يأكلون ويسكرون ويعربدون: "أمر بإحضار آنية الذهب والفضة التي أخرجها نبوخذنصر أبوه من الهيكل الذي في أورشليم ليشرب بها الملك وعظماؤه وزوجاته وسراريه" (عدد 2). أراد الملك أن يبرهن أنه لا يوجد شيء أقدس من أن يستعمله: "حينئذ أحضروا آنية الذهب .. وشرب بها الملك وعظماؤه وزوجاته وسراريه. كانوا يشربون الخمر ويسبّحون آلهة الذهب والفضة والنحاس والحديد والخشب والحجر" (عدد 3، 4). [418]

فلما كان بيلشاصر يظن أن هناك شاهداً سماوياً يرى ويسمع عربدته الماجنة. وأن ذلك الشاهد الإلهي غير المنظور يراقب ذلك المشهد الخليع ويسمع الألفاظ البذيئة. وذلك المرح الدنس، ويرى الوثنية في أبشع صورها. ولكن بعد قليل جعل ذلك الصيف الذي لم يدعه أحد، جعل الجميع يحسّون بوجوده مُكرهين.
فعندما بلغت العربدة مداها جاءت يد شاحبة وكتبت على حائط القصر حروفاً لمعت كالنار. وإن كانت غير مقروءة لدى الجميع المحتشد إلا أنها كانت إنذاراً بالهلاك لملك بيلشاصر الذي بدأ ضميره وضمير ضيوفه يبكتهم.

ثم سكن ذلك المرح الصاخب في حين جعل الرجال والنساء الذين استبدّ بقلوبهم رعب لا يدركون كنهه، يراقبون تلك اليد وهي تكتب ببطء كتابة غامضة. لقد مرّت أعمال حياتهم الشريرة أمامهم كما على شاشة كبيرة واسعة الأطراف، وبدا كأنهم قد استُدعوا للمثول أمام عرش دينونة الله السرمدي الذين كانوا يتحدّون قدرته وسلطانه حينئذ. ففي المكان الذي كانت تسوده البهجة وتُسمع من جوانبه الفكاهات التجديفية منذ لحظات، كُنت ترى الوجوه الشاحبة وتسمع صرخات الرعب. فعندما يخيف الله الناس فإنهم لا يستطيعون إخفاء شدة رعبهم.

كان بيلشاصر أشد الجميع رعباً. فكان هو المسؤول الأول عن ذلك العصيان ضد الله الذي بلغ في تلك الليلة حدوده القصوى في مملكة بابل. فقد شلّ الخوف الملك في حضرة الرقيب غير المنظور الذي كان نائباً عن الله الذي كان الملك ومدعووه قد تحدّوه وجدفوا على اسمه. لقد أيقظ ضميره "فانحلّت خرز حقويه واصطكّت ركبتاه" (عدد 6). لقد ترفع بيلشاصر في كفره ضدّ إله السماء محارباً إياه، ووثق في قوته، ولم يكن يظنّ أن أحداً يجرؤ أن يقول له: "ماذا [419] تفعل؟. أما الآن فقد تحقق من أنه لابد أن يقدّم حساباً عن وكالته المُسلّمة إليه وأنه لا يستطيع أن يقدّم عذراً مقبولاً عن الفرص التي أضاعها وأساء استخدامها، وموقف التحدي الذي وقفه من الله.

وعبثاً حاول الملك أن يقرأ تلك الكتابة المكتوبة بحروف من نار. أنه سر لا يمكنه سبر غوره، وقوة لا يمكنه فهمها أو مناقضتها. ففي يأسه اتّجه إلى حكماء مملكته في طلب العون. لقد رنّت صرخته واهتياجه في أرجاء دار الوليمة فسمعها المدعوون لإدخال السحرة والكلدانيين والمنجمين ليقرأوا الكتابة ووعدهم قائلاً: "أي رجل يقرأ هذه الكتابة ويبيّن لي تفسيرها فإنّه يلبس الأرجوان وقلادة من ذهب في عنقه ويتسلّط ثالثاً في المملكة" (عدد 7). ولكن عبثاً التجأ الملك إلى مشيريه الذين كان يثق بهم وعبثاً عرض عليهم مكافآته الثمينة. فالحكمة السماوية لا تُشترى ولا تُباع. "إن كل حكماء الملك لم يستطيعوا أن يقرأوا الكتابة ولا أن يُعرّفوا الملك بتفسيرها" (عدد 8). كانوا عاجزين عن قراءة تلك الحروف الغامضة كما عجز الحكماء في العصور السالفة عن تفسير أحلام نبوخذنصر.

حينئذ ذكرت الملكة الأم دانيال الذي منذ أكثر من نصف قرن مضى كان قد عرّف نبوخذنصر بحلم التمثال العظيم وبتعبيره، فقالت: "أيها الملك عش إلى الأبد لا تفزعك أفكارك ولا تتغير هيئتك. يوجد في مملكتك رجل فيه روح الآلهة القدوسين. وفي أيام أبيك وجدت فيه نيرة وفطنة وحكمة كحكمة الآلهة، والملك نبوخذنصر .. جعله كبير المجوس والسحرة والكلدانيين والمنجمين من حيث أن روحاً فاضلة ومعرفة وفطنة وتعبير الأحلام وتبيين ألغاز وحل عقد [420] وجدت في دانيال هذا الذي سمّاه الملك بلطشاصر فليُدع الآن دانيال فيبيّن التفسير.

"حينئذ أدخل دانيال إلى قدام الملك" (عدد 10 — 13). فإذ حاول بيلشاصر أن يستعيد رباطة جأشه قال للنبي: "أأنت هو دانيال من بني سبي يهوذا الذي جلبه أبي الملك من يهوذا؟ قد سمعت عنك أن فيك روح الآلهة وأن فيك نيرة وفطنة وحكمة فاضلة. والآن أدخل قدامي الحكماء والسحرة ليقرأوا هذه الكتابة ويعرّفوني بتفسيرها فلم يستطيعوا أن يبينوا تفسير الكلام. وأنا قد سمعت عنك أنك تستطيع أن تُفسّر تفسيراً وتحلّ عقداً. فإن استطعت الآن أن تقرأ الكتابة وتعرفني بتفسيرها فتلبس الأرجوان وقلادة من ذهب في

عنقك وتتسلط ثالثاً في المملكة“ (عدد 13 — 16).

وقد وقف دانيال في كرامة وهدوء بوصفه خادماً للعلي أمام ذلك الحشد الذي صعقه الرعب، ولم يتأثر بوعود الملك، كما لم ينطق بكلام التملّق بل وقف ليفسر رسالة تحكم بالدينونة. فقال: ”لتكن عطاياك لنفسك وهب هباتك لغيري. لكني أقرأ الكتابة للملك وأعرّفه بالتفسير“ (عدد 17).

بدأ النبي كلامه بأن ذكّر بيلشاصر بالأمور التي كان عالماً بها ولكنّها لم تعلّمه درس الوداعة الذي كان يمكن أن ينقذه. وتحدّث عن خطيئة نبوخذنصر وسقوطه ومعاملات الرب معه — الملكوت والجلال الذين أعطيا له وقضاء الله على كبريائه واعترافه الذي قدّمه بعد ذلك عن سلطان الله ورحمته، ثم جعل يوبّخ بيلشاصر على شرّه العظيم بكلام جريء ومؤثر. لقد وضع خطيئة الملك أمامه مبيناً له الدروس التي كان يمكن أن يتعلّمها ولكنّه لم يفعل. لم يتفهّم بيلشاصر جيداً اختبار جدّه، ولا التفت إلى إنذار الأحداث التي كانت ضرورية [421] جداً بالنسبة إليه. لقد قدّمت له الفرصة لمعرفة الإله الحقيقي وإطاعته ولكنّه لم يتذكّر ذلك ولا اتّعظ به وكان موشكاً أن يحصد ثمار تمردّه وعصيانه.

وأعلن النبي قائلاً: ”وأنت يا بيلشاصر .. لم تضع قلبك مع أنك عرفت كل هذا، بل تعظّمت على رب السماء فأحضروا قُدّامك آنية بيته وأنت وعظماؤك وزوجاتك وسراريك شربتم بها الخمر وسبّحت آلهة الذهب والفضّة والنحاس والحديد والخشب والحجر التي لا تبصر ولا تسمع ولا تعرف. أما الله الذي بيده نسمتك وله كل طرقك فلم تمجده. حينئذ أرسل من قبله طرف اليد فكتبت هذه الكتابة التي سُطّرت“ (عدد 22 — 25).

وإذ التفت النبي إلى الرسالة المرسلة من السماء جعل يقرأها وإذ هي تقول ”منا منا تقيل وفرسين“. لم يعد أحد يرى اليد التي قد سطّرت هذه الكلمات الأربع التي ظلّت تلمع بوضوح رهيب. وها هم الناس يستمعون إلى كلام النبي الشيخ وهم يحبسون أنفاسهم وهو يقول:

”وهذا تفسير الكلام: منا، أحصى الله ملكوتك وأنهاه. تقيل، وزنت بالموازين فوجدت ناقصاً. فرس، قُسمت مملكتك وأعطيت لمادي وفارس“ (دانيال 5 : 25 — 28).

وفي ليلة الطيش والجنون الأخيرة تلك كان بيلشاصر وعظماؤه قد ملأوا مكيال إثمهم وإثم مملكة الكلدانيين، ولم يعد يمكن ليد الله الرادعة أن تبعد عنهم الشر المحدق بهم. لقد حاول الله عن طريق حوادث العناية الكثيرة أن يعلّم أولئك الناس أن يكرموا شريعته. وأعلن الله عن الذين وصل قضاؤهم إلى السماء قائلاً: ”داوينا بابل فلم تشف“ (إرميا 51 : 9). فبسبب إنحراف القلب البشري [422] الغريب رأى الله أخيراً أنه لابد من أن يقضي قضاءه الذي لا يُرد. فكان لابد من سقوط بيلشاصر وأن تتسلّم ملكه أيد أخرى.

عندما كفّ النبي عن الكلام أمر الملك بمكافأته بالكرامات التي قد وعد بها، وطبقاً لهذا: ”ألبسوا دانيال الأرجوان وقلادة من ذهب في عنقه ونادوا عليه أن يكون متسلطاً ثالثاً في المملكة“ (عدد 29).

قبل ذلك التاريخ بأكثر من قرن من الزمان سبق الوحي فأنبأ بأن ”ليل .. سرور“ الذي فيه سيتنافس الملك ومشيروه معاً في التجديف على الله سينقلب فيه التجديف على المجدف فجأة، ويتحول إلى زمن خوف وهلاك. والآن تحدث في تتابع سريع أحداث جسام الواحدة تلو الأخرى تماماً كما تحدّثت الكتب النبوية قبلما ولد أولئك الرؤساء وفي هذه الرواية بسنوات عدة.

وإذ كان الملك جالساً في دار الوليمة محاطاً بمن قد خُتم على هلاكهم، يأتيه رسول ينبئه ”بأن مدينته قد أخذت“ من قبل الأعداء الذي ظنّ أنه بمأمن ضدّ حيلهم، ”وأن المعابر قد أمسكت .. ورجال الحرب اضطربت“ (إرميا 51 :31، 32). فحينما كان هو وشرفاؤه يشربون بآنية الرب المقدّسة ويسبّحون آلهة الفضّة والذهب. حول جيش مادي وفارس نهر الفرات عن مجراه وتقدّموا إلى قلب المدينة المفتوحة. فالآن يقف جيش كورش تحت جدران القصر وقد امتلأت المدينة بجنود العدو: ”كالغوغاء“ (إرميا 51 : 14).

وكانت هتافات الانتصار المنطلقة من حناجرهم أعلى من صرخات اليأس التي كانت تصدر عن هؤلاء الناس المعربدين والمذهولين في آن.

”في تلك الليلة قُتل بيلشاصر ملك الكلدانيين“ وجلس على العرش ملك غريب. (عدد 30). [423]

لقد تكلّم الأنبياء العبرانيون بوضوح عن كيفية سقوط بابل. وأعلن لهم الله كما في رؤيا أحداث المستقبل فصاحوا يقولون: ”كيف أخذت شيشك وأمسكت فخر كل الأرض، كيف صارت بابل دهشاً في الشعوب“، ”كيف قطعت وتحطمت مطرقة كل الأرض كيف صارت بابل خربة بين الشعوب“، ”من القول أخذت بابل رجفت الأرض وسُمع صراخ في الشعوب“.

”سقطت بابل بغتة وتحطّمت“. ”لأنه جاء عليها على بابل المخرب وأخذ جبابرتها وتحطمت قسيهم لأن الرب إله مجازاة يكافئ مكافأة. وأسكر رؤساءها وحكماءها وولاتها وحكامها وأبطالها فينامون نوماً أبدياً ولا يستيقظون يقول الملك، رب الجنود اسمه.

”قد نصبت لك شركاً فعلقت يا بابل وأنت لم تعرفي. قد وجدت وأمسكت لأنك قد خاصمت الرب. فتح الرب خزانته وأخرج آلات رجزه لأن للسيد الرب الجنود عملاً في أرض الكلدانيين.

”هكذا قال رب الجنود أن بني إسرائيل وبني يهوذا معاً مظلومون وكل الذين سبوهم أمسكوهم. أبوا أن يطلقوهم. وليهم قوي رب الجنود اسمه، يقيم دعواهم لكي يريح الأرض ويزعج سكان بابل“ (إرميا 51 : 42 ؛ 50 : 23، 46 ؛ 51 : 8، 56، 57 ؛ 50 : 24، 25، 32، 34).

وهكذا فإن: ”أسوار بابل العريضة تدمر تدميراً وأبوبها الشامخة تُحرق بالنار“. وهكذا أبطل ”(رب الجنود) تعظّم المستكبرين“، ووضع ”تجبر العتاة“. وقد حكم الرب على ”بابل بهاء الممالك وزينة فخر الكلدانيين أنها تصير كتقليب الله سدوم وعمرة. لا تعمر إلى الأبد ولا تسكن إلى دور فدور. ولا يخيّم هناك أعرابي ولا يربض هناك رعاة بل تربض هناك وحوش القفر ويملأ اليوم بيوتهم. وتسكن [424] هناك بنات النعام وترقص هناك معز الوحوش وتصيح بنات آوى في قصورهم“. ”واجعلها ميراثاً للقنفذ وآجام مياه وأكنسها بمكنسة الهلاك يقول رب الجنود“ (إرميا 51 : 58 ؛ إشعياء 13 : 11، 19، 22 ؛ 14 : 23).

كان الرقيب الإلهي قد أصدر حكمه على آخر ملوك بابل كمثال لأول ملوكها قائلاً: ”لك يقولون .. إن المُلك قد زال عنك“

”انزلي واجلسي على التراب أيتها العذراء ابنة بابل. اجلسي على الأرض بلا كرسي .. أجلسي صامتة وادخلي في الظلام يا ابنة الكلدانيين. لأنك لا تعودين تدعين سيّدة الممالك.

”غضبت على شعبي، دنست ميراثي ودفعتهم إلى يدك. لم تصنعي لهم رحمة .. وقلت إلى الأبد أكون سيدة حتى لم تضعي هذه في قلبك، لم تذكري آخرتها.

”فالآن اسمعي هذه أيتها المتنعّمة الجالسة بالطمأنينة القائلة في قلبها أنا وليس غيري. لا أقعد أرملة ولا أعرف الثكل. فيأتي عليكِ هذان الاثنان بغتة في يوم واحد الثكل والترمل. بالتمام قد أتيا عليك مع كثرة سحورك مع وفور رقاك جداً. وأنت اطمأننت في شرك، قلت ليس من يراني.

”حكمتك ومعرفتك هما افتناك فقلت في قلبك أنا وليس غيري. فيأتي عليك شر لا تعرفين فجره وتقع عليك مصيبة لا تقدرين أن تصدّيها وتأتي عليك بغتة تهلكة لا تعرفين بها.

”قفي في رقاك وفي كثرة سحورك التي فيها تعبت منذ صباك. ربما يمكنك أن تنفعي. ربما ترعبين. قد ضعفت من كثرة مشوراتك. ليقف قاسمو السماء [425] الراصدون النجوم المعرفون عند رؤوس الشهور ويخلصوك مما يأتي عليك. ها إنهم قد صاروا كالقش .. لا ينجون أنفسهم من يد اللهيب .. وليس

من يخلصك“ (إشعياء 47 : 1 — 15).

إن كل أمة ظهرت على مسرح التاريخ سُمح لها بأن تشغل مكانها على الأرض ليتقرر ما إذا كانت ستتمم مقاصد الرقيب القدوس. لقد تتبعت النبوّات قيام امبراطوريات العالم العظيمة وازدهارها — بابل ومادي وفارس واليونان وروما. وقد أعاد التاريخ نفسه بالنسبة إلى تلك الإمبراطوريات كما بالنسبة إلى الأمم الأقل سطوة وبأساً. فكانت لكل منها فترة اختبار فأخفقت كل منهن، فذوى مجدها وفارقتها قوتها.

في حين رفضت الأمم مبادئ الله وجلبت بذلك على نفسها الدمار، فإن غرض الله المسيطر ظلّ ساري المفعول على مدى الأجيال. هذا ما رآه النبي حزقيال في الرمز المُعطى له وهو في سبيه في أرض الكلدانيين، عندما رأى بعينيه الذاهلتين صورة الرموز التي أعلنت عن القوة المسيطرة التي تتدخل في شؤون ملوك الأرض.

فعلى ضفاف نهر خابور رأى حزقيال ريحاً عاصفة كان يبدو وأنها آتية من الشمال: ”سحابة عظيمة ونار متواصلة وحولها لمعان ومن وسطها كمنظر النحاس اللامع“. ”وكان هنالك عدد من البكرات المتقاطعة والمتداخلة في بعضها بعضاً تحركها أربعة كائنات حيّة. وفوق هذه كلّها وفي مكان عال جداً: ”شبع عرش كمنظر حجر العقيق الأزرق. وعلى شبه العرش شبه كمنظر إنسان عليه من فوق“، ”فظهر في الكروبيم شبه يد إنسان من تحت أجنحتها“ (حزقيال 1 : 4، 26 ؛ 10 : 8). وكانت البكرات معقدة في نظامها حتى كان يبدو للناظر لأول وهلة أنها على حالة [426] تشويش وإرتباك، ومع ذلك فقد كانت تسير في تناسق تام. ذلك أن بعض الكائنات السماوية التي كانت تسندها وتقودها اليد التي تحت أجنحة الكروبيم، كانت تحرك تلك البكرات وتسوقها، وفوقها على العرش الذي من ياقوت أزرق كان يوجد الإله السرمدي، وحول العرش كان يوجد قوس، هو رمز رحمة الله.

وكما كانت التعقيدات التي كانت تشبه البكرات تحت قيادة وإرشاد اليد التي تحت أجنحة الكروبيم، كذلك التعقيد الذي يُرى في الأحداث البشرية هو تحت سيطرة الله. ففي وسط المنازعات والصخب والضجيج الذي يحدثه في الأمم فالله الجالس فوق الكروبيم لا يزال في يده زمام شؤون هذه الأرض.

يتحدث إلينا تاريخ الأمم في هذه الأيام كيف أن الله عيّن لكل أمة ولكل فرد مكاناً في تدبيره العظيم. واليوم يُمتحن الناس والأمم بواسطة ثقل الفادن (ميزان الخيط) الذي في يد ذاك الذي لا يُخطئ أبداً. فالجميع يقررون مصيرهم بمحض اختيارهم. والله مسيطر على الجميع لأجل إتمام مقاصده.

إن النبوات التي أوردها الإله العظيم في كتابه والتي تربط حلقة بحلقة في سلسلة الأحداث من الأزل إلى الأبد. ترينا أين نحن اليوم من موكب الدهور وما يمكننا أن نتوقع حدوثه في الأيام القادمة. فكل ما أنبأت النبوات بأنه سيحدث في عصرنا الحاضر قد سُطّر على صفحات التاريخ. ولنا أن نتأكّد أن كل ما سيحدث في المستقبل سيتم في دوره ونظامه.

واليوم تعلن علامات الأزمة أننا واقفون على عتبة أحداث عظيمة خطيرة. إن كل شيء في عالمنا هو في حالة اهتياج. وأمام عيوننا تتم نبوة المخلّص عن الحوادث التي تسبق مجيئه: ”سوف تسمعون بحروب وأخبار حروب .. تقوم أمة [427] على أمة ومملكة على مملكة، وتكون مجاعات وأوبئة وزلازل في أماكن“ (متى 24 : 6، 7).

إن الوقت الحاضر هو وقت اهتمام شامل لجميع الناس الأحياء. فالملوك والساسة والذين يشغلون مراكز ذات مسؤولية وسلطة، رجال ونساء الفكر من كل الطبقات، الجميع وجّهوا انتباههم إلى الأحداث الجارية حولنا إنّهم يراقبون العلاقات الكائنة بين الأمم، وشدّة وازدياد التحكّم في كلّ عنصر أرضي. وهم يسلّمون بأن شيئاً عظيماً وحاسماً سوف يحدث — وأن العالم واقف على شفا أزمة هائلة.

والكتاب المقدّس وحده يعطينا فكرة صحيحة عن هذه الأمور. ففيه تعلن المشاهد الختامية العظيمة

لتاريخ عالمنا. أحداث قد ألقت ظلالها أمامها من قبل والتي تهز الأرض من صوت اقترابها وتجعلها ترتعد كما تجعل قلوب الناس تخذلهم من هول الخوف.

”هوذا الرب يخلي الأرض ويفرغها ويقلب وجهها ويبدد سكّانها .. لأنهم تعدّوا الشرائع، غيّروا الفريضة، نكثوا العهد الأبدي. لذلك لعنة أكلت الأرض وعوقب الساكنون فيها“ (إشعياء 24 : 1 — 6).

”آه على اليوم لأن يوم الرب قريب. يأتي كخراب من القادر على كل شيء .. عفنت الحبوب تحت مدرها خلت الأهراء. انهدمت المخازن لأنه قد يبس القمح. من تئن البهائم! هامت قطعان البقر لأن ليس لها مرعى. حتى قطعان الغنم تفنى“. ”الجفنة يبست والتينة ذبلت. الرمانة والنخلة والتفاحة، كل أشجار الحقل يبست. إنه قد يبست البهجة من بني البشر“ (يوئيل 1 : 15 — 18، 12). [428]

”توجعني جدران قلبي .. لا أستطيع السكوت. لأنك قد سمعت يا نفسي صوت البوق وهتاف الحرب. بكسر على كسر نودي لأنه قد خرجت كل الأرض“ (إرميا 4 : 19، 20).

”آه! لأن ذلك اليوم عظيم وليس مثله. وهو وقت ضيق على يعقوب، ولكنه سيُخلّص منه“ (إرميا 30 : 7).

”لأنك قلت أنت يا رب ملجإي. جعلت العلي مسكنك لا يلاقيك شر ولا تدنو ضربة من خيمتك“ (مزمور 91 : 9، 10).

”يا بنت صهيون .. هناك يفديك الرب من يد أعدائك. والآن قد اجتمعت عليك أمم كثيرة الذين يقولون لتتدنس ولتتفرس عيوننا في صهيون. وهم لا يعلمون أفكار الرب ولا يفهمون قصده“ (ميخا 4 : 10 -12). لن يخذل الله كنيسته أو يتخلى عنها في ساعة الخطر القصوى. لقد وعد بالإنقاذ إذ قال: ”هأنذا أردّ سبي خيام يعقوب وأرحم مساكنه“ (إرميا 30 : 18).

حينئذ يتم قصد الله، وكل من تحت الشمس سيكرمون مبادئ ملكوته.

* * * * * [429]

الفصل الرابع والأربعون — في جب الأسود

(يعتمد هذا الفصل على ما جاء في الاصحاح السادس من سفر دانيال)

عندما جلس داريوس المادي على العرش الذي جلس عليه قبلاً ملوك بابل شرع في الحال في إعادة تنظيم الدولة "حسن عنده أن يولي على المملكة مئة وعشرون مرزباناً .. وعلى هؤلاء ثلاثة وزراء أحدهم (أولهم) دانيال لتؤدي المرازبة إليه الحساب فلا تصيب الملك خسارة. ففاق دانيال على الوزراء والمرازبة لأن فيه روحاً فاضلة. وفكر الملك في أن يوليه على المملكة كلّها" (عدد 1 — 3).

وقد أثارت تلك الكرامة التي مُنحت لدانيال حسد رؤساء المملكة وحفيظتهم فحاولوا أن يجدوا علّة للشكوى ضده. إلا إنهم لم يجدوا علّة واحدة: "لأنه كان أمينا ولم يوجد فيه خطأ ولا ذنب" (عدد 4).

وقد أثارت أخلاق دانيال وتصرفاته التي لا غبار عليها حسد أعدائه إلى أبعد الحدود. وقد اضطروا للاعتراف قائلين: "لا نجد على دانيال هذا علّة إلا أن نجدها من جهة شريعة إلهه" (عدد 5).

وعلى ذلك دبر الوزراء والمرازبة مكيدة كانوا يأملون أنها كفيلة بإهلاك النبي دانيال. فعقدوا العزم أن يسألوا الملك كي يوقع أمراً ملكياً يعدّونه بأنفسهم فيه [430] ينهي كل إنسان في المملكة عن أن يطلب طلبه من إله أو إنسان إلا من داريوس الملك لمدة ثلاثون يوماً. وأية مخالفة لهذا الأمر يُعاقب مرتكبها بالطرح في جب الأسود.

وتبعاُ لذلك أعدّ المرازبة والوزراء ذلك المنشور وقدموه إلى الملك داريوس لتوقيعه. فإذ لجأوا إلى غرور الملك. ألحوا عليه قائلين إن تنفيذ مثل هذا المرسوم سيزيد من كرامته وسلطانه. وبما أن الملك كان يجهل النية الخبيثة التي كان يضمرها أولئك الرؤساء لم يفطن إلى حقدهم وقد وقّع على المرسوم إستجابة لتمليقهم.

ثم خرج أعداء دانيال من حضرة الملك فرحين متهلّلين لأجل الفخ الذي أحكموا نصبه لخادم الرب. كان للشيطان اليد الطويلة في المؤامرة التي دُبّرت على هذا النحو. كان النبي يشغل مركزاُ مرموقاً في المملكة فبات الملائكة الأشرار يخشون لئلا يضعف نفوذه وتأثيره من سيطرتهم على أولئك الحكام. هذه القوات الشيطانية هي التي أثارت أولئك الرؤساء للغيرة من دانيال. وهم الذين ألهموهم تلك المؤامرة الشريرة لإهلاكه، وإذا ارتضى أولئك الحكام أن يكونوا آلات لعمل الشر، بدأوا بإخراج المؤامرة إلى حيّز التنفيذ.

وقد عوّل أعداء دانيال على تمسّكه الشديد بمبادئه لإنجاح مؤامرتهم. ولم يكونوا مخطئين في تقديرهم لمتانة خلقه. فسرعان ما فطن إلى نواياهم الخبيثة في صياغة المرسوم، ولكنه لم يغير مسلكه في أدق وأصغر أمور حياته. فلماذا يقلع عن الصلاة الآن وهو في أشدّ الحاجة إليها؟ كان يفضل بالأحرى أن يتخلى عن الحياة نفسها، على أن يتخلى عن رجائه في معونة الله. فأدّى واجباته بكل هدوء كرئيس للوزراء، وفي ساعة الصلاة ذهب إلى علّيته وكواه مفتوحة نحو أورشليم، [431] فقد صلاوته وابتهالاته إلى إله السماء، كما كان معتاداً أن يفعل. لم يحاول الصلاة في الخفاء. ومع علمه بما سيجره عليه ولائه لله فلم تضطرب

روحه ولم يتراجع. فعلى مرأى من كانوا يتآمرون على هلاكه لم يرد أن يبدو عليه كأن صلته بالسماء قد انقطعت. في كل الحالات عندما كان للملك الحق في إصدار أمر ما، كان دانيال يطيعه، ولكن لا الملك ولا مرسومه أمكن أن يزحزحه قيد أنملة عن ولائه لملك الملوك.

وهكذا أعلن النبي بشجاعة وهدوء ووداعة أنه لا حق لأي سلطان أرضي أن يتدخل بين الإنسان والله. وإذ كان مُحاطاً بالناس الوثنيين كان هو شاهداً أميناً لهذا الحق. إن تمسكه بالحق الذي لا يعرف الخوف كان نوراً ساطعاً يبدّد الظلمة الأدبية في ذلك البلاد الوثني. وهو يقف أمام العالم اليوم كمثال يُحتذى للشجاعة والولاء الروحيين.

وظلّ أولئك الوزراء يراقبون دانيال يوماً كاملاً. فرأوه يدخل إلى علّيته ثلاث مرات وسمعوا صوته وهو يرتفع وهو يتشفّع ثلاث مرات. وفي اليوم التالي تقدّموا بشكواهم إلى الملك قائلين أن دانيال الذي كان أكثر الساسة كرامة لدى الملك وأشدّهم أمانة، يزدري المرسوم ويتحدّاه. وذكّروا الملك قائلين: "ألم تمض أيها الملك نهياً بأن كل إنسان يطلب من إله أو إنسان حتى ثلاثين يوماً إلا منك أيها الملك يطرح في جب الأسود؟".

"أجاب الملك وقال الأمر صحيح كشريعة مادي وفارس التي لا تنسخ".

فبرح عظيم أخبروا داريوس بما فعله مشيره الأمين الموثوق به. وصاحوا يقولون: "إن دانيال الذي من بني سبي يهوذا لم يجعل لك أيها الملك إعتباراً ولا للنهي الذي أمضيته بل ثلاث مرات في اليوم يطلب طلباته" (عدد 12، 13). [432]

فلما سمع الملك هذا الكلام رأى على الفور الفخ الذي نصب لخادمه الأمين. رأى أن السبب في تقديم الاقتراح بإصدار ذلك المرسوم لم يكن غيرتهم على مجد الملك وكرامته بل حسدهم من دانيال، حينئذ: "اغتاظ الملك على نفسه جداً.." لأنه كانت له يد في الشر الذي عمل. "واجهد إلى غروب الشمس" لينقذ صديقه. فإذ كان أولئك الرؤساء يتوقعون أن يقوم الملك بتلك المحاولة، قالوا له: "أعلم أيها الملك أن شريعة مادي وفارس هي أن كل نهي أو أمر يضعه الملك لا يتغير" (عدد 14، 15). فالمرسوم وإن كان صدر في غير رويّة، فلم يكن ممكناً تغييره بل كان لابد من تنفيذه.

"حينئذ أمر الملك فأحضروا دانيال وطرحوه في جب الأسود. أجاب الملك وقال لدانيال إن إلهك الذي تعبده دائماً هو ينجيك" (عدد 16). وقد وضع حجر على فم الجب: "وختمه الملك بخاتمه وخاتم عظمائه لئلا يتغير القصد في دانيال. حينئذ مضى الملك إلى قصره وبات صائماً ولم يؤت قدامه بسراريه وطار عنه نومه" (عدد 17، 18).

إن الله لم يمنع أعداء دانيال من طرحه في جب الأسود، فلقد سمح للملائكة والناس الأشرار، لتتميم قصدهم إلى هذا الحد. ولكن الله قصد من ذلك أن يزيد من شهرة نجاة عبده ويجعل هزيمة أعداء الحق والبر أكمل وأشمل: "غضب الإنسان يحمدك" (مزمور 76 : 10). هكذا شهد المرنم. فعن طريق شجاعة هذا الرجل الواحد الذي فضّل اختيار الحق والصواب على السياسة، كان الشيطان سينهزم واسم الله كان سيتمجد ويكرّم. [433]

وباكراً في صبيحة اليوم التالي أسرع الملك داريوس إلى الجب و " نادى دانيال بصوت أسيف". وقال له: "يا دانيال عبد الله الحي، حي إلهك الذي تعبده دائماً قدر على أن ينجيك من الأسود".

فردّ النبي يقول: "أيها الملك عش إلى الأبد. إلهي أرسل ملاكه وسدّ أفواه الأسود فلم تضرّني لأني وجدت بريئاً قدّامه وقدّامك أيضاً أيها الملك لم أفعل ذنباً.

" حينئذ فرح الملك به وأمر بأن يصعد دانيال من الجب. فأصعد دانيال من الجب ولم يوجد فيه ضرر

لأنه آمن بإلهه.

" فأمر الملك فأحضروا أولئك الرجال الذين اشتكوا على دانيال وطرحوهم في جب الأسود هم وأولادهم ونسائهم، ولم يصلوا إلى أسفل الجب حتى بطشت بهم الأسود وسحقت كل عظامهم" (عدد 20 — 24).

ومرة أخرى أصدر ملك وثني إعلاناً فيه عظّم إله دانيال بوصفه الإله الحقيقي: " ثم كتب الملك داريوس إلى كل الشعوب والأمم والألسنة الساكنين في الأرض كلّها. ليكثر سلامك. من قبلي صدر أمر بأنه في كل سلطان مملكتي يرتعدون ويخافون قدّام إله دانيال لأنه هو الإله الحي القيوم إلى الأبد وملكوته لن يزول وسلطانه إلى المنتهى. هو ينجي وينقذ ويعمل الآيات والعجائب في السموات وفي الأرض هو الذي نجّى دانيال من يد الأسود".

أما المقاومة الشريرة لخادم الله فقد تحطّمت الآن تماماً: " فنجح دانيال هذا في ملك داريوس وفي ملك كورش الفارسي" (عدد 25 — 28). وعن طريق [434] معاشرته أجبر هؤلاء الملوك الوثنيون على الاعتراف بإلهه على أنه: الإله الحي القيوم إلى الأبد وملكوته لن يزول".

ويمكننا نحن أن نتعلّم من قصة نجاة دانيال أن على أولاد الله أن يكونوا في أوقات التجربة والحزن كما كانوا عندما كانت آمالهم مشرقة بالرجاء. إن دانيال وهو في جب الأسود كان هو دانيال ذاته الذي وقف أمام الملك كرئيس وزراء الدولة وكنبي العلي. فالإنسان الذي قبله ثابت ومتّكل على الله سيظل كما هو عندما تحيق به أقسى التجارب، كما كان في أيام ازدهاره ونجاحه، عندما كان يشرق عليه نور رضى الله والإنسان. فالإيمان يصل إلى غير المنظور ويتمسك بالحقائق الأبدية.

إن السماء قريبة جداً من الذين يتألمون من أجل البر. فالمسيح يوحّد مصالحه بمصالح شعبه الأمناء ويتألم في شخص قيدسيه، ومن يمسّ قدّيسيه ومختاريه يمسه هو بالذات. إن القوة الحاضرة للإنقاذ من الأضرار الجسمانية والضيقات هي قريبة أيضاً لتخليص خادم الله من الشر الأعظم. ليظلّ محتفظاً باستقامته ونزاهته في كل الظروف لينتصر بنعمة الله.

إن اختبار دانيال كرجل سياسي في مملكة بابل ومادي وفارس يعلن حقيقة كون رجل الأعمال لا يكون بالضرورة مدبراً للخطط ورجل سياسة. ولكنّه يستطيع أيضاً أن يتعلّم من الله في كل خطوة. فدانيال الذي كان رئيساً للوزراء في أعظم ممالك الأرض كان في ذات الوقت نبياً لله، يتلقى نور الوحي السماوي. ومع أنه كان إنساناً تحت الآلام مثلنا فإن قلم الوحي يصفه كمن هو بلا عيب. ومعاملاته التجارية عندما فحصها أعداؤه فحصاً دقيقاً لم يكن يوجد فيها أي عيب ولا هفوة واحدة. كان مثالاً لما يمكن أن يكون عليه كل رجل من رجال [435] الأعمال عندما يكون قلبه متجدداً ومكرساً. وعندما تكون بواعثه مستقيمة أمام الله.

إن الإمتثال الدقيق لمطالب السماء يأتي بالبركات الزمنية كما بالبركات الروحية. فإذ كان دانيال ثابتاً على ولائه لله وغير متراخ في سيطرته على نفسه فإنه في عزة نفسه ونبله وأمانته الثابتة، وهو بعد شاب يافع نال "نعمة ورحمة" (دانيال 1 : 9). في عيني رئيس الخصيان الذي أوكل إليه أمر رعايته. وتلك الصفات ذاتها كانت هي الطابع المميز لحياته فيما بعد. لقد ارتقى بسرعة حتى وصل إلى مركز رئيس وزراء مملكة بابل. ومدى سني حكم الملوك الذين تولوا الحكم واحد بعد الآخر ولدى سقوط الأمة وقيام مملكة عالمية أخرى، فإن حكمته وحصافته في تدبير شؤون الدولة كانت عظيمة جداً. كما كانت لباقته كاملة، وكان لطيفاً ورقيقاً وطيب القلب وصالحاً بحق، وولاؤه لمبادئه كان عظيماً بحيث أجبر أعداؤه أنفسهم الاعتراف بأنهم "لم يقدروا أن يجدوا علّة ولا ذنباً لأنه كان أميناً" (دانيال 6 : 4).

إن دانيال فضلاً عن كونه قد أكرم من قبل البشر بالاضطلاع بتبعات الدولة وأسرار الممالك التي

كانت متسلّطة على العالم، قد أكرمه الله على أنه سفيره وأعطيت له إعلانات كثيرة لأسرار الدهور الآتية. إن النبوات العجيبة التي دوّنها في الاصحاحات الستة الأخيرة (7 — 12) من السفر الذي يحمل اسمه، لم تكن تفهم تماماً. وحتى النبي نفسه استغلق عليه فهمها، ولكن قبل انتهاء خدمة حياته أعطي له اليقين المبارك أنه: "في نهاية الأيام" — أي في الفترة الختامية من تاريخ العالم، سيُسمح له مرة أخرى بأن يقف في قرعته ومكانه. لم يُعط له أن يدرك كل ما أعلنه الله من مقاصده. أما بخصوص كتاباته النبوية فقد صدر إليه [436] هذا الأمر: " أخف الكلام واختم السفر". كان ينبغي أن تُختم هذه "إلى وقت النهاية". ومرة أخرى أوصى الملاك رسول الرب الأمين قائلاً له: "اذهب يا دانيال لأن الكلمات مخفية ومختومة إلى وقت النهاية .. أما أنت فاذهب إلى النهاية فتستريح وتقوم لقرعتك في نهاية الأيام" (دانيال 12 : 4، 9، 13).

إننا إذ نقترب من نهاية تاريخ هذا العالم، فإن النبوات التي دوّنها دانيال تسترعى انتباهها الخاص، حيث أنها تشير إلى هذا الزمن الذي نعيش فيه. وينبغي أن نقرن هذه النبوات بالتعاليم المدونة في آخر سفر في العهد الجديد. لقد جعل الشيطان كثيرين من الناس يعتقدون بأن الأقسام النبوية المذكورة من سفر دانيال وسفر الرؤيا الذي دوّنه يوحنا الرائي. لا يمكن فهمها. ولكن هنالك وعد واضح وصريح بأن بركة خاصة تصحب دراسة هذه النبوات. وقد جاء هذا القول عن رؤى دانيال التي كانت ستُفك ختومها في الأيام الأخيرة: "والفاهمون يفهمون" (دانيال 12 : 10). أما الإعلان الذي أعطاه المسيح لعبده يوحنا لأجل هداية شعب الله مدى العصور فقد ورد عنه هذا الوعد، "طوبى للذي يقرأ وللذين يسمعون أقوال النبوة ويحفظون ما هو مكتوب فيها" (رؤيا 1 : 3).

إننا بحاجة إلى أن نتعلم من قيام وسقوط الأمم كما هو موضّح في سفري دانيال والرؤيا، مدى تفاهة المجد الدنيوي. فقد زالت بابل بكل سلطانها وعظمتها وجلالها الذي لم ير العالم له مثيلاً منذ ذلك الحين. ذلك السلطان وتلك العظمة والفخامة، التي كان يبدو لأهل ذلك العصر وكأنهما باقيان. ولكن ما أسرع ما زالت وتلاشت تماماً وهلكت "كزهر العشب" وأصابها الذبول (يعقوب 1 : 10). وكذلك هلكت مملكة مادي وفارس ومملكة اليونان وروما. وكذلك تهلك كل أمة لا تجعل الله أساساً لها. أما الذي يبقى ويدوم فهو ما يرتبط بمقاصد الله ويعبّر [437] عن صفاته. إن مبادئ الله هو الأمور الراسخة دون سواها التي يجب أن يعرفها العالم.

الدراسة الواعية الوافية لإتمام مقاصد الله في تاريخ الأمم وفي إعلان الأمور الآتية، تعيننا على تقدير القيمة الحقيقية للأشياء المنظورة منها وغير المنظورة، كما تساعدنا على فهم هدف الحياة الحقيقي. وإذ نرى الأمور في نور الأبدية يمكننا أن نعيش كدانيال ورفاقه، لأجل الأهداف النبيلة الحقيقية الدائمة. وإذ نتعلّم في هذه الحياة مبادئ ملكوت ربنا ومخلّصنا، ذلك الملكوت الذي سيبقى إلى أبد الآبدين، يمكننا أن نكون مؤهلين عند مجيئه للدخول معه في ملكوته. [438]

الباب السادس — بعد السبي

[439]

” لينتهرك الرب يا شيطان. لينتهرك الرب الذي اختار أورشليم. أفليس هذا شعله منتشلة من النار؟“ (زكريا 3: 2) [440]

الفصل الخامس والأربعون — رجوع المسبيين

كان مجيء جيش كورش ووقوفهم أمام أسوار بابل، علامة عرف منها اليهود أن نجاتهم من السبي قد اقتربت. وقبلما ولد كورش بأكثر من قرن من الزمان ذكره الوحي المقدس بالإسم، وسجّل العمل الفعلي الذي كان عليه أن يقوم به في أخذ مدينة بابل على غرّة وإعداد الطريق لإطلاق المسبيين. وقد جاءت كلمة الله على لسان إشعياء تقول:

” هكذا يقول الرب لمسيحه لكورش الذي أمسكت بيمينه لأدوس أمامه أمماً .. لأفتح أمامه المصراعين، والأبواب لا تُغلق. أنا أسير قدّامك والهضاب أمهد. أكسر مصراعي النحاس ومغاليق الحديد أقصف وأعطيك ذخائر الظلمة وكنوز المخابئ لكي تعرف أني أنا الرب الذي يدعوك باسمك إله إسرائيل“ (إشعياء 45 : 1 — 3).

في دخول جيش فاتح الفارسي على غير انتظار إلى قلب عاصمة بابل عن طريق قناة النهر التي حوّلت مياهه في إتّجاه آخر، وعن طريق الأبواب الداخلية التي تركت مفتوحة، في طمأنينة كاذبة وعدم مبالاة معيبة وبلا حماية، كان لليهود برهان كاف على قرب إتمام نبوّة إشعياء حرفياً، بسقوط مضطهديهم المفاجئ. كان ينبغي أن يكون هذا لهم علامة لا تُخطئ على أن الله يوجّه شؤون الأمم لصالحهم. لأن الكلمات التالية كانت مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالنبوة [441] المشتملة على طريقة احتلال بابل وسقوطها: ” كورش راعي فكل مسيرتي يتمم. ويقول عن أورشليم ستُبنى وعن الهيكل ستؤسس“. ” أنا قد أنهضته بالنصر وكل طرقه أسهل. وهو يبني مدينتي ويطلق سبيي لا بثمن ولا بهدية قال رب الجنود“ (إشعياء 44 : 28 ؛ 45 : 13).

لم تكن هذه هي كل النبوات التي بنى عليها المسبيون أملهم في الخلاص. كانت نبوات إرميا في متناول أيديهم، وفيها ورد بكل وضوح طول المدة التي كان ينبغي أن تنقضي قبل رجوع شعب الله من بابل. فسبق الرب وأنبأ على لسان رسوله يقول: ”ويكون عند تمام السبعين سنة إني أعاقب ملك بابل وتلك الأمة يقول الرب على إثمهم وأرض الكلدانيين وأجعلهم خرباً أبدية“ (إرميا 24 : 12).

وسيُظهر الرب رحمته لبقية يهوذا إجابة للصلاة الحارة: ” فأوجد لكم يقول الرب وأرد سبيكم وأجمعكم من كل الأمم ومن كل المواضع التي طردتكم إليها يقول الرب وأردكم إلى الموضع الذي سبيتكم منه“ (إرميا 29: 14).

كثيراُ ما كان دانيال ورفاقه يتداولون هذه النبوات وسواها التي تحدّد قصد الله نحو شعبه. والآن إذ تتوالى الحوادث بسرعة وتشير إلى أن يد الله القوية تعمل عملها بين الأمم، فقد جعل دانيال يفكر تفكيراً خاصاً في المواعيد المعطاة لشعبه. وقاده إيمانه بالكلمة النبوية للدخول في اختبارات أنبأ بها الكتاب القديسون. فقد سبق الرب وأعلن قائلاً: ”إني عند تمام سبعين سنة لبابل أتعهدكم وأقيم لكم كلامي الصالح بردكم إلى هذا الموضوع. لأني عرفت الأفكار التي أنا مفتكر بها عنكم يقول الرب أفكار سلام لا شر لأعطيكم أخرى ورجاء، فتدعونني وتذهبون وتصلون إلي فأسمع لكم. وتطلبونني بكل قلبكم“ (إرميا 29 :

10 — 13). [442]

قبل سقوط بابل بوقت قصير إذ كان دانيال يتأمل في هذه النبوات ويطلب من الله أن يفهمه معرفة الأزمنة والأوقات أعطيت له سلسلة من الرؤى عن قيام الممالك وسقوطها. ففي أول رؤيا كما هو مدون في الاصحاح السابع من دانيال، قدم له التعبير، ومع ذلك فلم يتضح للنبي كل شيء. وقد كتب عن اختباره في ذلك الحين فقال: "أفكاري أفزعتني كثيراً وتغيرت على هيئتي وحفظت الأمر في قلبي" (دانيال 7 : 28).

وبواسطة رؤيا أخرى سلط نور أشد على حوادث المستقبل. وفي نهاية هذه الرؤيا سمع دانيال: "قدوساً واحداً يتكلم، فقال قدوس واحد لفلان المتكلم إلى متى الرؤيا؟" (دانيال 8 : 13) فجاء الجواب: "إلى ألفين وثلاث مئة صباح ومساء فيتبرأ القدس" (دانيال 8 : 14)، فملأه هذا بالحيرة والارتباك. وقد توسل بحرارة لمعرفة معنى الرؤيا. فلم يستطيع أن يدرك علاقة سنوات السبي السبعين كما أنبأ بها إرميا بالألفين والثلاث مئة سنة التي سمع الزائر السماوي يعلن في الرؤيا أنها ستمر قبل تطهير مقدس الله. وقدم له الملاك جبرائيل تفسيراً جزئياً، ومع ذلك فعندما سمع النبي هذه الكلمات "إن الرؤيا .. إلى أيام كثيرة"، شحب لونه ثم سجل اختباره قائلاً: "أنا دانيال ضعفت ونحلت أياماً ثم قمت وباشرت أعمال الملك. وكنت متحيراً من الرؤيا ولا فاهم" (جانيال 8 : 26، 27).

وإذ كان دانيال ما يزال مثقل القلب بالنسبة لإسرائيل، عاد ليدرس نبوات إرميا التي كانت من الوضوح بحيث أنه فهم من شهاداتها المدونة في كتب، "عدد السنين التي كانت عنها كلمة الرب إلى إرميا النبي لكمالة سبعين سنة على خراب أورشليم" (دانيال 9 : 2). [443]

فبإيمان يعتمد على كلمة النبوة الثابتة جعل دانيال يتوسل إلى الله طالباً سرعة إتمام هذه المواعيد. فقد توسل لأجل حفظ كرامة الله. وفي صلاته جعل نفسه واحداً ضمن الذين قصروا في إتمام قصد الله، معترفاُ بخطاياهم كأنها خطاياه.

وأعلن قائلاً: " فوجهت وجهي إلى الله السيد طالباً بالصلوات والتضرعات بالصوم والمسح والرماد. وصليت إلى الرب إلهي واعترفت" (دانيال 9 : 3، 4). فمع أن دانيال ظل يخدم الله طويلاً، وشهدت عنه السماء بأنه "محبوب" فقد وقف الآن أمام الله كخاطئ، مقدماً له الحاجة العظمى للشعب الذي أحبه. وكانت صلاته فصيحة في بساطتها وحارة جداً. اسمعه يصلي قائلاً:

" أيها الرب الإله العظيم المهوب حافظ العهد والرحمة لمحبيه وحافظي وصاياه. أخطأنا وأثمنا وعملنا الشر وتمردنا وحدنا عن وصاياك وعن أحكامك. وما سمعنا من عبيدك الأنبياء الذين لاسمك كلموا ورؤساءنا وآباءنا وكل شعب الأرض.

" لك يا سيد البر، أما لنا فخزي الوجوه كما هو اليوم لرجال يهوذا ولسكان أورشليم ولكن إسرائيل القريبين والبعيدين في كل الأراضي التي طردتهم إليها من أجل خيانتهم التي خانوك إياها..

" للرب إلهنا المراحم والمغفرة لأننا تمردنا عليه ". " يا سيد حسب كل رحمتك اصرف سخطك وغضبك عن مدينتك أورشليم جبل قدسك، إذ لخطايانا ولآثام آبائنا صارت أورشليم وشعبك عاراً عند جميع الذين حولنا. [444]

" فاسمع الآن يا إلهنا صلاة عبدك وتضرعاته وأضيء بوجهك على مقدسك الخرب من أجل السيد. أمل أذنك يا إلهي واسمع، افتح عينيك وانظر خربنا والمدينة التي دعي اسمك عليها لأنه لا لأجل برنا نطرح تضرعاتنا أمام وجهك بل لأجل مراحمك العظيمة".

"يا سيد اسمع، يا سيد اغفر، يا سيد اصغ واصنع. لا تؤخر من أجل نفسك يا إلهي لأن اسمك دعي على مدينتك وعلى شعبك" (دانيال 9 : 4 — 9 ؛ 16 — 19).

وقد انحنت السماء إلى أسفل لتصغي إلى تضرعات النبي الحارة. وحتى قبلما أنهى صلاته وتضرعاته في طلب الغفران ورد السبي ظهر له جبرائيل العظيم مرة أخرى ووجه انتباهه إلى الرؤيا التي كان قد رآها قبل سقوط بابل وموت بيلشاصر. وحينئذ حدد له الملاك بالتفصيل مدة السبعين أسبوعاً التي كانت ستبدأ "من خروج الأمر بتجديد أورشليم وبنائها" (دانيال 9 : 25).

قدم دانيال صلاته "في السنة الأولى لداريوس" (دانيال 9 : 1) ملك مادي وفارس الذي كان قائده العسكري كورش قد انتزع من بابل قضيب ملك العالم. وكان حكم داريوس مكرماً من الله. لقد أرسل إليه الملاك جبرائيل: "ليشدده ويقويه" (دانيال 11 : 1). فلما مات بعد سقوط بابل بحوالي سنتين اعتلى كورش العرش وكان بدء ملكه هو اكتمال السبعين سنة منذ حمل نبوخذ نصر أول جماعة من العبرانيين من وطنهم في اليهودية إلى بابل.

لقد استخدم الله نجاة دانيال من جب الأسود لطبع عقل كورش الأعظم بتأثير صالح. فالصفات النقية التي تحلى بها رجل الله بوصفه رجل سياسي موهوب بعيد النظر جعلت ملك فارس يبدي له احتراماً وإكراماً ملحوظاً ويكرم حكمه على الأمور. والآن ففي ذات الوقت الذي قال الله أنه سيأمر بإعادة [445] بناء هيكله، حرك قلب كورش كممثله ليفهم النبوات الخاصة به التي كان دانيال عالماً بها، ويمنح شعب اليهود حريتهم.

فإذا رأى الملك الأقوال التي دونت قبل ميلاده بأكثر من مائة سنة، والمنبئة بالكيفية التي ستسقط بها بابل، وإذ قرأ الرسالة المرسلة إليه من ملك الكون والقائلة: " نطقت وأنت لم تعرفني. لكي يعلموا من مشرق الشمس ومن مغربها أن ليس غيري". وإذ رأى أمام عينيه إعلان الإله السرمدي القائل: "لأجل عبدي يعقوب وإسرائيل مختاري دعوتك باسمك لقبتك وأنت لست تعرفني". " وإذ تتبع قول الوحي القائل: "أنا قد أنهضته بالنصر وكل طرقه أسهل. هو يبني مدينتي ويطلق سبيي لا بثمن ولا بهدية قال رب الجنود" (إشعياء 45 : 5، 6، 4، 13)، وتأثر قلبه تأثراً عظيماً وعول على إتمام المأمورية التي كلفه بها الله. فأراد إطلاق سراح اليهود المسبيين وتقديم العون لهم لإعادة بناء هيكل الرب.

فأعلن كورش في نداء مكتوب نشر "في كل مملكته" يعبر عن رغبته في تدبير أمر رجوع العبرانيين وإعادة بناء هيكلهم. واعترف الملك بشكر في هذا المنشور العام قائلاً: "جميع ممالك الأرض دفعها لي الرب إله السماء وهو أوصاني أن أبني له بيتاً في أورشليم التي في يهوذا. من منكم من كل شعبه؟ ليكن إلهه معه ويصعد إلى أورشليم .. فيبني بيت الرب إله إسرائيل (هو الإله) الذي في أورشليم. وكل من بقي في أحد الأماكن حيث هو مغترب فلينجده أهل مكانه بفضة وبذهب وبأمتعة وببهائم مع التبرع" (عزرا 1 : 1 — 4).

وبعد ذلك أصدر أمره الخاص ببناء الهيكل فقال: "ليبن البيت، المكان الذي يذبحون فيه ذبائح ولتوضع أسسه، ارتفاعه ستون ذراعاً. بثلاثة صفوف من حجارة عظيمة وصف من خشب جديد ولتعط النفقة من بيت الملك. وأيضاً آنية بيت [446] الله، التي من ذهب وفضة التي أخرجها نبوخذنصر من الهيكل الذي في أورشليم وأتى بها إلى بابل فلترد وترجع إلى الهيكل الذي في أورشليم" (عزرا 6 : 3 — 5).

وقد وصلت أنباء هذا المرسوم إلى أقصى أقاليم مملكة الملك، وفي كل مكان حيث وجد بنو السبي كان فرح عظيم. لقد كان كثيرون، كدانيال، يدرسون النبوات وكانوا يطالبون الله بأن يتدخل لأجل صهيون حسب وعده. والآن فها هي صلواتهم تستجاب. وبفرح قلبي عميق اشتركوا في إنشاد هذه التسبيحة:

"عندما رد الرب سبي صهيون صرنا مثل الحالمين. حينئذ امتلأت أفواهنا ضحكاً وألسنتنا ترنماً. حينئذ قالوا بين الأمم إن الرب قد عظم العمل مع هؤلاء. عظم الرب العمل معنا وصرنا فرحين" (مزمور

.(3 — 1 : 126

”فقام رؤوس آباء يهوذا وبنيامين والكهنة واللاويون مع كل من نبه الله روحه“، كان هؤلاء هو البقية الأمينة وعددهم يبلغ خمسون ألفاً من الأشداء من بين اليهود الذي في أرض السبي الذين عقدوا العزم على الاستفادة من هذه الفرصة العجيبة المقدمة لهم: ”ليصعدوا ليبنوا بيت الرب في أورشليم“. ولم يسمح لهم أصدقاؤهم بالذهاب خاوي الوفاض، بل ”كل الذين حولهم أعانوهم بآنية فضة وبذهب، وبأمتعة وببهائم وبتحف“. كما أضيف إلى هذه وإلى كثير من التبرعات الأخرى: ”آنية بيت الرب أخرجها نبوخذنصر من أورشليم .. أخرجها كورش ملك فارس عن يد مثردات الخازن .. خمسة آلاف وأربع مئة“، هذا هو عدها. لأجل استخدامها في الهيكل الذي كان سيعاد بناؤه من جديد (عزرا 1 : 5 — 11). [447]

أما زر بابل (ويعرف أيضاً باسم شيشبصر) والذي كان من نسل الملك داود فقد وضع عليه كورش مسؤولية القيام بوظيفة الوالي على الجماعة الراجعة إلى اليهودية. وكان يصحبه يهوشع الكاهن العظيم. وقد قاموا برحلتهم الطويلة عبر الصحراء والقفر المترامي الأطراف بسلام. وتلك الجماعة الفرحة السعيدة إذ كانوا يشكرون الله على مراحمه العديدة، شرعوا في إعادة بناء ما كان قد هدم وخرب. وكان ”رؤوس الآباء“ في مقدمة من أسدوا يد العون للمساعدة في دفع نفقات إعادة بناء الهيكل. وقد نسج الشعب على منوالهم فقدموا بسخاء مما كانوا ادخروه لإنجاز العمل. (أنظر ما ورد في عزرا 2 : 64 — 70).

وبأسرع ما يمكن أقيم مذبح على موقع المذبح القديم في دار الهيكل. ولأجل الممارسات المرتبطة بتدشين هذا المذبح: ”اجتمع الشعب كرجل واحد“، وهناك اتحدوا في إعادة إقامة الخدمات المقدسة التي كانت قد انقطعت في وقت خراب أورشليم على يد نبوخذنصر. وقبلما انصرفوا ليسكنوا في البيوت التي كانوا يحاولون إعادتها: ”حفظوا أيضاً عيد المظال“ (عزرا 1 : 3 — 6).

وقد فرحت البقية الأمينة بإقامة مذبح المحرقات الدائمة. وبكل إخلاص شرعوا في الاستعدادات اللازمة لأجل إعادة بناء الهيكل، وقد استجمعوا شجاعتهم عندما كانت تلك الاستعدادات تتقدم شهراً فشهراً. لقد ظلّوا محرومين من علامات حضور الله المنظورة سنوات طويلة. أما الآن وهم محاطون بأشياء كثيرة تذكرهم بإرتداد آبائهم المحزن كانوا يتوقون إلى علامة ثابتة على غفران الله ورحمته. كانوا يقدرون رضى الله أكثر من إستعادة أملاكهم وامتيازاتهم القديمة. لقد عمل لأجلهم عجباً فأحسوا بيقين حضوره بينهم، ومع ذلك فكانوا [448] يتوقون إلى بركات أعظم. فبأمل مفرح مشرق تطلعوا إلى الأمام إلى الوقت الذي ينبثق مجده من داخل الهيكل بعدما يبنى.

فإذ كان العمال دائبين على إعداد مواد البناء، وجدوا بين الأطلال بعض الأحجار الهائلة الحجم التي كانت قد أتى بها إلى موقع الهيكل في أيام سليمان. فأعدت هذه الأحجار لأجل استخدامها، ثم أعدت مواد كثيرة جديدة، وسرعان ما تقدم العمل إلى أن جاء الوقت الذي كان ينبغي أن يوضع فيه حجر الأساس. وقد تم هذا في محضر آلاف كثيرة ممن اجتمعوا لمشاهدة تقدم العمل وللتعبير عن فرحهم بالمساهمة فيه. وإذ كانوا يضعون حجر الأساس في مكانه فالشعب ومعهم أبراق الكهنة وصنوج بني آساف: ”غنوا بالتسبيح والحمد للرب لأنه صالح لأن إلى الأبد رحمته على إسرائيل“ (عزرا 3 : 11).

والبيت الذي كان مزمعاً أن يقام من جديد أشارت إليه من قبل نبوات كثيرة فيما تختص برضى الله الذي قصد أن يظهره لصهيون، وكل من كانوا حاضرين عند وضع حجر الزاوية، كان ينبغي لهم أن يشتركوا بإخلاص في تلك المناسبة الروحية. ومع ذلك فقد اختلطت بالموسيقى وهتافات الحمد التي سمعت في ذلك اليوم السعيد أصوات أخرى متنافرة: ”كثيرون من الكهنة واللاويين ورؤوس الآباء والشيوخ الذين رأوا البيت الأول بكوا بصوت عظيم، عند تأسيس هذا البيت أمام أعينهم“ (عزرا 3 : 12).

لقد كان من الطبيعي أن يملأ الحزن قلوب هؤلاء الرجال الطاعنين في السن، عندما فكروا في عواقب

تحجز قلوبهم الذي طال أمده. فلو كانوا قد أطاعوا الله هو ونسلهم وتمموا مقاصده نحو إسرائيل لما أخرب الهيكل الذي [449] بناه سليمان، ولما كان هنالك موجب للسبي. ولكن بسبب جحودهم تشتتوا بين الأمم.

أما الآن فقد تبدلت الأحوال وافتقد الرب شعبه برحمته وسمح لهم بالعودة إلى أرضهم. كان ينبغي أن يفسح حزنهم على أخطاء الماضي المجال لمشاعر الفرح العظيم. لقد حرك الله قلب كورش لكي يساعدهم في إعادة بناء الهيكل، وكان هذا مما يدعوا إلى التعبير عن شكرهم العظيم. ولكن البعض أخفقوا في فهم أعمال عناية الله التي فتحت الطريق أمامهم. فبدلاً من الفرح عززوا أفكار الاستياء والخيبة. كانوا قد رأوا مجد هيكل سليمان، فحزنوا عندما رأوا حقارة البناء الذي يبنى حينئذ.

إن التذمر والشكوى والمقارنة غير الموافقة التي عملوها كان لها تأثير محزن على عقول كثيرين فارتخت أيدي البنائين. وقد بدأ الصناع يتساءلون فيما إذا كانوا يتقدمون في إقامة ذلك البناء الذي قوبل منذ البدء بانتقادات كثيرة، وكان مصدؤاً للأشجان والأحزان.

ومع ذلك فقد وجد بين تلك الجماعة كثيرون ممن لم يجعلهم إيمانهم العظيم ورؤياهم البعيدة المدى أن ينظروا إلى هذا المجد الأقل شأناً تلك النظرة المتبرمة: "كثيرون كانوا يرفعون أصواتهم بالهتاف بفرح. ولم يكن الشعب يميز هتاف الفرح من صوت بكاء الشعب، لأن الشعب كان يهتف هتافاً عظيماً حتى أن الصوت سمع من بعد" (عزرا 3 : 12، 13).

لو أن أولئك الذين لم يفرحوا عند وضع حجر أساس الهيكل، رأوا عواقب عدم إيمانهم في ذلك اليوم لفزعوا. إنهم لم يتحققوا من تأثير أقوال عدم [450] الاستحسان والخيبة التي نطقوا بها، ولم يعرفوا كم سيؤخر تعبيرهم عن عدم رضاهم في إكمال بيت الرب.

إن فخامة الهيكل الأول والطقوس المهيبة في خدماته الدينية كانت موضوع فخر الشعب قبل السبي، إلا أن عبادتهم كان ينقصها في غالب الأحيان تلك الصفات التي يعتبرها الله جوهرية أكثر من غيرها. فمجد الهيكل الأول وجلال خدمته لم يجعلهم مقبولين لدى الله. لأنهم لم يقدموا له ذلك الشيء الوحيد الذي له قيمة عظيمة في عينيه. إنهم لم يقدموا له ذبيحة الروح المتواضعة المنسحقة.

عندما تغيب مبادئ ملكوت الله عن الأنظار يسرف الناس في الطقوس ويعتمدون عليها. عندما يهمل الناس في بناء الأخلاق وتنعدم من قلوبهم زينة الروح، وعندما يزدرون ببساطة التقوى والقداسة فإن الكبرياء وحب التظاهر والتفاخر يطلبان إقامة أبنية فخمة للكنائس وعمل زينات جميلة وإقامة طقوس مهيبة. ولكن الله لا يتمجد بهذا كله. فهو يقدر كنيسته لا على قدر إمتيازاتها الخارجية بل على قدر ما فيها من التقوى الخالصة التي تميزها عن العالم. وهو يقدرها بحسب نمو أعضائها في معرفة المسيح، وبحسب تقدمهم في الاختبار الروحي. إنه يبحث عن مبادئ المحبة والصلاح. إن جمال الفن لا يمكنه أن يضارع جمال الطبع والخلق الذي يجب أن يظهر في حياة من هم نواب المسيح.

يمكن أن تكون هنالك كنيسة هي أفقر الكنائس في البلاد، وقد لا تكون فيها أي جواذب أو مظاهر خارجية، ولكن إذا كان أعضائها متصفين بمبادئ المسيح [451] وصفاته فإن الملائكة يشتركون معهم في عبادتهم. وسترتفع أصوات التسبيح والشكر في قلوبهم الفائضة بالحمد أمام الله قرباناً ورائحة طيبة.

"احمدوا الرب لأنه صالح لأن إلى الأبد رحمته. ليقل مفديو الرب الذين فداهم من يد العدو".

"غنوا له أنشدوا بكل عجائبه افتخروا باسمه القدوس. لتفرح قلوب الذين يلتمسون الرب".

"لأنه أشبع نفساً مشتهية وملأ نفساً جائعة خبزاً" (مزمور 107 : 1، 2 ؛ 105 : 2، 3 ؛ 107 : 9). [452]

الفصل السادس والأربعون — "أنبياء الله يساعدونهم"

كان يسكن بالقرب من بني إسرائيل الذين كانوا دائبين على إعادة بناء الهيكل، جماعة السامريين الذين كانوا قد جاءوا نتيجة مصاهرة المستعمرين الوثنيين الذين أتوا من أقاليم أشور واختلطوا بالأسباط العشرة الباقين الذين ظلّوا في السامرة والجليل. وفي سنوات متأخرة بعد ذلك إدّعى السامريون بأنهم يعبدون الإله الحقيقي ولكنهم في قلوبهم وتصرّفاتهم كانوا وثنيين. صحيح أنهم ادّعوا بأن تماثيلهم هي فقط لتذكيريهم بالإله الحقيقي خالق الكون ومع ذلك كانت قلوبهم تميل إلى إكرام التماثيل المنحوتة.

وفي إبّان فترة الرجوع عرف هؤلاء السامرين أنهم "أعداء يهوذا وبنيامين". وإذ سمعوا كأن "أن بني السبي يبنون هيكلاً للرب، إله إسرائيل"، "تقدّموا إلى زربابل ورؤوس الآباء" وأبدوا رغبتهم في الاشتراك معهم في إقامته، قائلين لهم: "نبني معكم لأننا نظيركم نطلب إلهكم وله قد ذبحنا من أيام أسرحدون ملك أشور الذي أصعدنا إلى هنا". ولكن هذا الامتياز الذي طلبوه رُفض. فقال لهم شيوخ إسرائيل: "ليس لكم ولنا أن نبني بيتاً لإلهنا ولكننا نحن وحدنا نبني للرب إله إسرائيل كما أمرنا الملك كورش ملك فارس" (عزرا 41 : 1 — 3).

الذين اختاروا الرجوع من بابل كانوا أقليّة، والآن إذ تبرّعوا في عمل يبدو أنه فوق طاقتهم فإن جيرانهم الأقربين أرادوا تقديم المعونة لهم. وقد أشار [453] السامريون إلى أنهم كانوا يعبدون الإله الحقيقي ويعبّرون عن رغبتهم في مشاركتهم الإمتيازات والبركات الخاصّة بخدمة الهيكل. وأعلنوا قائلين: "إننا نظيركم نطلب إلهكم" فنحن "نبني معكم". ولكن لو أن رؤساء اليهود قبلوا هذا العرض للمساعدة لكانوا قد فتحوا الباب على مصراعيه لدخول الوثنية. لقد فطنوا إلى رياء السامريين. وتأكد لهم أن المعونة التي تأتيهم من تحالفهم مع هؤلاء القوم ما كانت لتعتبر شيئاً يُذكر في مقابل البركة التي كانوا ينتظرون الحصول عليها باتباعهم لأوامر الرب الصريحة.

وفيما يختص بعلاقة إسرائيل التي كان يجب أن تكون بينهم وبين الشعوب المحيطة بهم كان الرب قد سبق فأعلن على لسان موسى قائلاً: "لا تقطع لهم عهداً ولا تشفق عليهم ولا تصاهرهم .. لأنه يرد ابنك من ورائي فيعبد آلهة أخرى فيحمى غضب الرب عليكم ويهلككم سريعاً". "لأنك شعب مقدّس للرب إلهك وقد اختارك الرب لكي تكون له شعباً خاصاً فوق جميع الشعوب الذين على وجه الأرض" (تثنية 7 : 2 — 4 ؛ 14 : 2).

أما النتيجة التي كانت تستتبع الدخول في صلة عهد مع الأمم المحيطة فقد أنبئ عنها بوضوح وصراحة. فأعلن موسى قائلاً: "ويبددك الرب في جميع الشعوب من أقصاء الأرض إلى أقصاها، وتعبد هناك آلهة أخرى لم تعرفها أنت ولا آباؤك، من خشب وحجر. وفي تلك الأمم لا تطمئن ولا يكون قرار لقدمك، بل يعطيك الرب هناك قلباً مرتجفاً وكلال العينين وذبول النفس. وتكون حياتك معلّقة قدّامك، وترتعب ليلاً ونهاراً ولا تأمن على حياتك. في الصباح تقول يا ليته المساء، وفي المساء تقول يا ليته

الصباح، من ارتعاب قلبك الذي ترتعب، ومن [454] منظر عينيك الذي تنظر". ولكنه يقدّم وعداً فيقول: "ثم إن طلبت من هناك الرب إلهك تجده إذا التمسته بكل قلبك وبكل نفسك" (تثنية 28 : 64 — 67 ؛ 4 : 29).

كان زربابل ورفاقه على علم بهذه الآيات وبكثير غيرها من أمثالها. وفي السبي المؤخر كانت لديهم براهين عديدة على إتمامها. والآن بعد ما تابوا عن الشرور التي جلبت عليهم وعلى آبائهم الأحكام التي قد أنبئ بها بصراحة على لسان موسى، وبعد أن عادوا بكل قلوبهم إلى الله وجددوا علاقة العهد معه، سُمح لهم بالرجوع إلى اليهودية لكي يجددوا ما آل إلى الخراب. فهل منذ بدء شروعهم في ذلك العمل يدخلون في عهد مع الوثنين؟

لقد قال الله "لا تقطع معهم عهداً". أما الذين مرّسوا أنفسهم منذ عهد قريب للرب من جديد عند المذبح المقام أمام خرائب هيكله فقد تحققوا من أن الخط الفاصل بين شعبه وبين العالم ينبغي أن يظل واضح المعالم بلا خطأ أو غموض. وقد رفضوا التحالف مع السامريين الذين مع علمهم بشروط شريعة الله. فقد رفضوا الخضوع لمطالبيها.

إن المبادئ المدوّنة الواردة في سفر التثنية لأجل تعليم إسرائيل ينبغي لشعب الله أن يتبعوها إلى انقضاء الدهر. فالنجاح الحقيقي موقوف على دوام عهد صلتنا بالله. علينا ألا نجازف بالمساومة على المبدأ بالتحالف مع الذين لا يتّقون الله.

هنالك خطر قائم من أن يفكر المعترفون بالمسيحية أنه لكي يكون لهم تأثير صالح على أهل العالم عليهم أن يتشبّهوا بهم إلى حد ما. ولكن بالرغم مما يبدو أن مثل هذا التصرف قد يقدّم ميزات كثيرة، إلا أنه ينتهي دائماً بالخسارة الروحية. على شعب الله أن يتحفظوا من كل تأثير خبيث يحاول التسلّل عن [455] طريق الإغراءات الخادعة من أعداء الحق. إنهم غرباء ونزلاء في هذا العالم وهم يسيرون في طريق مكتنف بالمخاطر. فعليهم أن يحترسوا من الخدع الماكرة والإغراء الخادع الذي يحول بينهم وبين ولائهم لله.

الذي يُخشى خطره ليس هو العدو الذي يجاهر بعداوته لعمل الله، بل الذي يفعل ما فعله أعداء يهوذا وبنيامين، ويأتي بكلام التمليق الناعم والأقوال المعسولة ويتظاهر بالرغبة في التحالف الخالص مع أولاد الله. مثل هذا الإنسان لديه قوة فائقة على الخداع. على كل نفس أن تتحفظ عن أمثال هؤلاء لئلا تؤخذ رجلا الإنسان في الشرك المختفي المنصوب بمهارة دون أن يدري. وعلى الخصوص في هذه الأيام التي تقترب من نهاية التاريخ العالمي حيث يريد الرب أن يسهر أولاده سهراً متواصلاً لا تخاذل فيه ولا تراخي. ولكن مع أن هذا الصراع لا ينتهي، لا يترك أحد ليحارب وحده. فالملائكة يساعدون ويحرسون الذين يسلكون باتّضاع أما الله. إن ربنا لن يخيب ظنّ أحد يتّكل عليه. فإذ يقترب أولاده منه في طلب الحماية من الشرّ، فهو يرفع لهم راية تجاه العدو في رأفته ومحبّته، ويقول: لا تمسهم لأنهم مسحائي. لقد نقشتهم على كفي.

فالسامريون إذ لم يكلّوا من مقاومتهم: "كانوا يرخون أيدي شعوب يهوذا ويذعرونهم عن البناء، واستأجروا ضدّهم مشيرين ليبطلوا مشورتهم كل أيام كورش ملك فارس وحتى ملك داريوس" (عزرا 4 : 4، 5). فقد أثاروا الشكوك في العقول التي ترتاب بسهولة بالأخبار الكاذبة والوشايات. ولكن قوات الشر ظلّت واقفة عند حدّها لسنوات عديدة، وكانت لشعب يهوذا الحرية لمواصلة عملهم.

وفيما كان الشيطان يحاول التأثير على السلطات العليا في مملكة مادي وفارس لإشعال نار سخطهم على شعب الله ومجافاتهم، كان الملائكة يعملون [456] في صالح المسبيين. كان صراعاً إهتمّ به كل سكّان السماء إذ آرانا النبي دانيال لمحة من هذا النضال الرهيب بين أجناد الخير وقوّات الشر. فقد ظلّ جبرائيل يصارعهم ضد قوات الظلام ثلاثة أسابيع كاملة محاولاً إعاقة القوات التي أثرّت على عقل

كورش، وقبل نهاية الصراع خفى المسيح نفسه لنجده جبرائيل. وأعلن الملاك جبرائيل قائلاً: "ورئيس مملكة فارس وقف مقابلي واحداً وعشرين يوماً وهوذا ميخائيل واحداً من الرؤساء الأولين جاء لإعانتي وأنا أبقيت هناك عند ملوك فارس" (دانيال 10 : 13). وقد عُمل كل ما أمكن للسماء أن تفعله لأجل شعب الله، فتم النصر أخيراً. وأوقفت قوات العدو عند حدّها كل أيام كورش وكل أيام ابنه قمبيز الذي ملك حوالي سبع سنوات ونصف.

كانت هذه فرصة عجيبة لليهود. إذ أن قوات السماء العليا أثرت على قلوب الملوك. فكان على شعب الله أن يبذل أقصى جهوده لتنفيذ مرسوم كورش، ويعمل ما في وسعه لإعادة الهيكل وخدماته وليعودوا للاستيطان في بيوتهم في اليهودية. ولكن في يوم قوة الله برهن كثيرون على أنهم فقدوا حماستهم. كانت مقاومة أعدائهم قوية وعنيدة بحيث خارت قلوب البنائين تدريجياً. والبعض منهم لم يتمكنوا من نسيان المشهد الذي رأوه عند وضع حجر الأساس عندما عبر كثيرون عن عدم ثقتهم في المشروع. وإذ زادت جرأة السامريين بدأ كثيرون من اليهود يتساءلون فيما إذا كان الوقت قد جاء بعد للعودة للبناء. وعم هذا الشعور في كل مكان. وخاف كثير من الصناع وخارت قواهم بحيث عادوا إلى بيوتهم لممارسة أعمال حياتهم اليومية.

وفي إبان حكم قمبيز كان العمل في الهيكل يسير ببطء. وفي أثناء حكم سمرديس الكاذب الذي يُسمّى أرتحشستا (عزرا 4 : 7)، أوعز السامريون إلى ذلك [457] المحتال المستهتر بأن يصدر منشوراً ينهي به اليهود عن إعادة بناء هيكلهم ومدينتهم.

وظلّ الهيكل مهملاً مدة تزيد على العام وكاد يُهجر. وقد سكن الشعب في بيوتهم وسعوا في الحصول على النجاح الزمني. ولكن حالتهم كان يُرثى لها. فكانوا مهما كدّوا واشتغلوا لا يصيبون نجاحاً. وبدت كأن نفس عناصر الطبيعة تتآمر ضدهم لأنهم تركوا الهيكل خراباً بحيث أرسل الرب على ثروتهم جدباً وإضمحلالاً. لقد منحهم الله ثمار الحقل والبستان والحنطة والخمر والزيت علامة على رضاه. ولكن لكونهم استخدموا هذه العطايا السخيّة لإشباع أنانيتهم، فقد أخذت منهم.

هكذا كانت الحالة الراهنة في أوائل سنوات حكم داريوس هستاسبس. كان بنو إسرائيل في حالة يُرثى لها روحياً وزمنياً. ولطالما تذمّروا وشكوا، واختاروا بأن يجعلوا مصالحهم الذاتية في المقام الأول بينما هم في فتورهم وعدم مبالاتهم يرون هيكل الرب الخرب باق على حاله، حتى غاب عن أذهانهم غرض الله من رد سبيهم وإرجاعهم إلى اليهودية. وهذا ما كانوا يقولونه: "إن الوقت لم يبلغ وقت بناء بيت الرب" (حجي 1 : 2).

ولكن حتى في هذه الساعة المظلمة لم يمكن أولئك الذين وضعوا ثقتهم في الله بلا رجاء. فلقد أقام الرب النبيين حجي وزكريا لمواجهة تلك الأزمة. فأعلنا للشعب بشهاداتهما المثيرة علّة متاعبهم واضطرابهم، وأن حرمانهم من النجاح المادي كان نتيجة إهمالهم في إعطاء مصالح الله ومطالبه المقام الأول. فلو أمر بنو إسرائيل الله، وأبدوا نحوه الاحترام والكرم اللائقين بجلاله بناء بيته عملهم الأول وشغلهم الشاغل، لكانوا حصلوا على حضوره وبركته. [458]

وقد وجّه حجي إلى الجماعة الخائرة العزم والضعاف القلوب هذا السؤال الفاحص: "هل الوقت لكم أنتم أن تسكنوا في بيوتكم المغشاة، وهذا البيت خراب؟ والآن فهكذا قال رب الجنود اجعلوا قلبكم على طرقكم". لماذا لم تعملوا إلا القليل؟ لماذا تهتمون ببيوتكم وتهملون بيت الرب؟ أين غيرتكم الأولى التي أظهرتموها نحو إعادة بناء بيت الرب؟ وماذا جنيتم من جرّاء خدمة الذات؟ إن رغبتكم في النجاة من الفقر جعلتكم تهملون الهيكل ولكن هذا الإهمال جلب عليكم ما كنتم تخشونه: "زرعتم كثيراً ودخّلتم قليلاً — تأكلون وليس إلى الشبع، تشربون ولا تروون، تكتسون ولا تدفأون. والآخذ أجرة يأخذ أجرة لكيس

منقوب“ (حجي 1 : 4 — 6).

حينئذ كشف لهم الرب بكلام فهموه، عن السبب الذي لأجله حلّت بهم تلك الفاقة. فقال: ”انتظرتم كثيراً وإذ هو قليل. ولما أدخلتموه البيت نفخت عليه. لماذا؟ يقول رب الجنود، لأجل بيتي الذي هو خراب، وأنتم راكضون كل إنسان إلى بيته. لذلك منعت السماوات من فوقكم الندى، ومنعت الأرض غلّتها. ودعوت بالحر على الأرض وعلى الجبال وعلى الحنطة وعلى المسطار وعلى الزيت وعلى ما تنبته الأرض، وعلى الناس وعلى البهائم وعلى كل أتعاب اليدين“ (حجي 1 : 9 — 11).

وقد ألح عليهم الرب قائلاً: ”اجعلوا قلبكم على طرقكم. اصعدوا إلى الجبل وآتوا بخشب وابنوا البيت فأرضى عليه وأتمجّد“ (حجي 1 : 7، 8).

لقد أثرت رسالة المشورة هذه والتوبيخ التي جاءت على لسان حجي في قلوب رؤساء شعب إسرائيل. وأحسّوا بأن الله كان جاداً معهم. ولم يتجاسروا على إغفال الوصية التي سمعوها مراراً — والتي مفادها أن نجاحهم الزمني والروحي [459] موقوف على أمانتهم في إطاعة أوامر الله. فإذ تنبه زربابل ويهوشع وأيقظتهما إنذارات النبي قام كلاهما ”وكل بقية الشعب وسمعوا صوت الرب إلههم وكلام حجي النبي“ (حجي 1 : 12).

وحالما عزم الشعب على الطاعة تبعت كلام التوبيخ رسالة تشجيع: ”فقال حجي .. لجميع الشعب .. أنا معكم يقول الرب. ونبّه الرب روح زربابل بن شألتيئيل .. وروح يهوشع .. وروح كل بقية الشعب فجاءوا وعملوا الشغل في بيت رب الجنود إلههم“ (حجي 1 : 13، 14).

وفي أقل من شهر بعد استئناف العمل في الهيكل جاءت رسالة عزاء أخرى إلى البنائين. فقد قال الرب نفسه على لسان نبيّه: ”تشدّد يا زربابل .. وتشدّد يا يهوشع .. وتشدّدوا يا جميع شعب الأرض يقول الرب واعملوا فإني معكم يقول رب الجنود“ (حجي 2 : 4).

لقد أعلن الله في مسامع بني إسرائيل الذين كانوا حالين في خيامهم أمام جبل سيناء قائلاً: ”أسكن في وسط بني إسرائيل وأكون لهم إلهاً. فيعلمون أني أنا الرب إلههم الذي أخرجهم من أرض مصر لأسكن في وسطهم. أنا الرب إلههم“ (خروج 29 : 45، 46). والآن فالبرغم من حقيقة كونهم مراراً كثيرة ”تمرّدوا وأحزنوا روح قدسه“ (إشعياء 63 : 10)، فقد مدّ الله يده مرة أخرى عن طريق رسائل نبيّه ليخلّص. وكإعتراف منهم بتعاونهم مع قصده كان يجدّد عهده لهم بأن روحه سيمكث بينهم. فأمرهم قائلاً: ”لا تخافوا“.

والرب يعلن لأولاده اليوم قائلاً: ”تشدّدوا .. واعملوا فإني معكم“. إن للمسيحي دائماً معين قوي في شخص الرب. قد لا نعرف وسيلة الرب للمعونة، ولكن هذا ما نعلمه: إنه لن يخيب رجاء من يتّكلون عليه. ولو تحقق المسيحيون [460] كم مرة مهّد الرب طرقهم، وأن مقاصد العدوّ نحوهم لن تتم لما كانوا يتعثّرون أو يتذمرّون. وكان إيمانهم يرتكز على الله وما كانت أية تجربة تقوى على زحزحتهم. وكانوا يعترفون به بوصفه حكمتهم وكفايتهم وكان يتمم ما يقصد أن يفعله بواسطتهم.

هذا وأن التوسلات الحارة والتشجيع المقدّم للشعب على لسان حجي تمّ التأكيد عليه وأضيف إليه ما قاله زكريا الذي أقامه الله ليقف إلى جانبه ويسانده في الإلحاح على الشعب في تلبية الأمر فيقوموا ويبنوا. كانت أولى رسائل زكريا تأكيداً بأن كلمة الرب لن تخيب أبداً، ووعداً بالبركة للذين يصغون إلى كلمة النبوة الثابتة.

مع أن أرض الإسرائيليين كانت مقفرة والمؤونة المخزونة لديهم كادت تنفذ بسرعة بالإضافة إلى الشعوب المعادية المحيطة بهم، فأنهم مع ذلك تقدّموا إلى الأمام بإيمان إستجابة لنداء رسل الله وعملوا بكل جد على إعادة بناء الهيكل الخرب. وكان العمل يتطلّب إتّكالا ثابتاً على الله. فإذ حاول الشعب القيام

بنصيبهم من العمل طلبوا إلى الله أن يجدّد قلوبهم وحياتهم بنعمته. وقد قدّمت لهم رسالة تلو رسالة على لسان حجي وزكريا. وأكّد الرب لهم أن إيمانهم سيكون له جزاء عظيم، وأن كلمة الله عن مجد الهيكل العتيد الذي كانوا يقيمون جدرانه لن تخيب. ففي هذا الهيكل ذاته سيظهر في ملء الزمان مشتهى كل الأمم بوصفه معلّم بني الإنسان ومخلّصهم.

وهكذا لم يترك البناؤون ليناضلوا وحدهم بل "كان معهم أنبياء الله يساعدونهم" (عزرا 5 : 2). وأعلن رب الجنود نفسه قائلاً: "تشدّدوا .. واعملوا فإني معكم" (حجي 2 : 4). [461]

وجاء الوعد بالنجاح المادي مع التوبة القلبية والرغبة في التقدّم إلى الأمام بإيمان. فقد أعلن الرب قائلاً: "فمن هذا اليوم أبارك" (حجي 2 : 19).

أما زربابل قائدهم الذي مرّ بتجارب مرة لمدى سنوات منذ رجعوا من بابل، فقد قُدّمت له رسالة ثمينة جداً. فأعلن الرب قائلاً أنه سيأتي يوم فيه يسقط كل أعداء شعبه المختار: "في ذلك اليوم يقول رب الجنود أخذك يا زربابل عبدي .. وأجعلك كخاتم لأني قد اخترتك" (حجي 2 : 23). والآن أمكن لوالي إسرائيل أن يُدرك معنى تصرّفات العناية التي جعلته يجوز في وسط المخاوف والمثبطات والحيرة والارتباك. وأن يميّز قصد الله في ذلك كله.

وقد ظلّت هذه الرسالة الشخصية الموجّهة إلى زربابل باقية في الكتاب لأجل تشجيع شعب الله في كل عصر. إن لله قصداً في السماح للتجارب بأن تُصيب أولاده. فهو لا يقودهم في طريق آخر غير ما كانوا يختارون السير فيه لو أمكنهم أن يروا النهاية من البداية ويميزوا مجد الغرض الذي يتممونه. فكل ما يجلبه عليهم في الاختبار والتجربة يجلبه ليتقووا في العمل وفي احتمال الآلام لأجله.

لقد أيقظتهم الرسائل التي نطق بها حجي وزكريا في مسامع الشعب ليبذلوا أقصى جهدهم لأجل إعادة بناء الهيكل. ولكن فيما كانوا يشتغلون أزعجهم السامريون وغيرهم بوسائل مختلفة. ففي ذات مرة جاء بعض حكّام أقاليم مملكة مادي وفارس لزيارة أورشليم وسألوا عن اسم الشخص المفوّض إليه أمر إقامة البناء. فلو لم يكن اليهود في ذلك الحين متكلين على الرب لإرشادهم لكان هذا السؤال كفيلاً بأن يجلب عليهم النكبات: "وكانت على شيوخ اليهود عيّن إلههم فلم يوقفوهم حتى وصل الأمر إلى داريوس" (عزرا 5 : 5). فكان جوابهم على سؤال أولئك الحكّام حكيماً جداً حتى أنهم عزموا على كتابة رسالة إلى [462] داريوس هستاسبس الذي كان ملكاً على مملكة مادي وفارس حينئذ، وجّهوا فيها انتباهه إلى المرسوم الأصلي الذي أصدره كورش وفيه أمر بإعادة بناء بيت الله في أورشليم وأن تُدفع نفقاته من خزانة الملك.

وقد بحث داريوس عن هذا المرسوم فوجده، لذلك أمر أولئك الحكّام الذين قدّموا الاستفسار بأن يتركوا أمر ذلك البناء سائراً نحو الإنجاز حتى يكمل. فقد أمر قائلاً: "اتركوا عمل بيت الله هذا. أما والي اليهود وشيوخ اليهود فليبنوا بيت الله هذا في مكانه".

ثم استطرد داريوس يقول: "وقد صدر مني أمر بما تعلمون مع شيوخ اليهود هؤلاء في بناء بيت الله هذا. فمن مال الملك من جزية عبر النهر تعط النفقة عاجلاً لهؤلاء الرجال حتى لا يبطلوا. وما يحتاجون إليه من الثيران والكباش والخراف محرقة لإله السماء وحنطة وملح وخمر وزيت حسب قول الكهنة الذي في أورشليم لتُعط لهم يوماً فيوماً حتى لا يهدأوا عن تقريب روائح سرور لإله السماء والصلاة لأجل حياة الملك وبنيه" (عزرا 6 : 7 — 10).

وفوق ذلك أمر الملك بفرض عقوبات صارمة رادعة على من يبدّلون هذا الأمر بأية كيفية، وختم أمره بهذا التصريح العظيم إذ قال: "والله الذي أسكن اسمه هناك يهلك كلّ ملك وشعب يمدّ يده لتغيير أو لهدم بيت الله هذا الذي في أورشليم. أنا داريوس قد أمرت فليفعل عاجلاً" (عزرا 6 : 12). وهكذا مهّد الرب الطريق لإكمال الهيكل.

قبل صدور هذا المرسوم بشهور ظلّ بنو إسرائيل يشتغلون بإيمان، وكان أنبياء الله دائبين على مساعدتهم بتقديم الرسائل في حينها، والتي بواسطتها ظلّ غرض الله نحو شعبه ماثلاً أمام أولئك العاملين. وبعد شهرين من تقديم آخر رسائل [463] حجي المدونة في السفر رأى زكريا سلسلة من الرؤى عن عمل الله في الأرض. فجائت هذه الرسائل المقدّمة في صيغة أمثال ورموز في وقت حيرة وجزع عظيمين وكان لها معنى خاص للرجال الذين كانوا يتقدّمون باسم الرب. وقد تراءى للرؤساء كما لو أن الإذن المُعطى لليهود بإعادة البناء مزمع أن يُسحب، وقد بدا المستقبل مظلماً أمامهم جداً. فرأى الله أن شعبه بحاجة إلى إسناد وإنعاش قلوبهم بإعلان رأفته ومحبّته اللامحدودتين:

فرأى زكريا في رؤية وإذ ملاك الرب يسأل: ”يا رب الجنود إلى متى أنت لا ترحم أورشليم ومدن يهوذا التي غضبت عليها هذه السبعين سنة؟“ ثم أعلن زكريا قائلاً: ”فأجاب الرب الملاك الذي كلّمني بكلام طيب وكلام تعزية“.

”فقال لي الملاك الذي كلّمني ناد قائلاً هكذا قال رب الجنود غرت على أورشليم وعلى صهيون غيرة عظيمة. وأنا مغضب بغضب عظيم على الأمم المطمئنين لأني غضبت قليلاً وهم أعانوا الشر. لذلك هكذا قال الرب قد رجعت إلى أورشليم بالمراحم فبيتي يبنى فيها يقول رب الجنود ويمدّ المطمار على أورشليم“ (زكريا 1 : 12 — 6).

وقد أمر النبي الآن بأن يتنبأ قائلاً: ”هكذا قال رب الجنود أن مدني تفيض بعد خيراً والرب يعزي صهيون بعد ويختار بعد أورشليم“ (زكريا 1 : 17).

حينئذ رأى زكريا القوّات التي ”بدّدت يهوذا وإسرائيل وأورشليم“ مرموزاً إليها بأربعة قرون. وبعد ذلك حالاً رأى أربعة صنّاع يرمزون إلى القوات التي استخدمها الرب في إرجاع شعبه وبيت صلاته. (أنظر زكريا 1 : 18 — 12). [464]

ثم قال زكريا ”فرفعت عيني ونظرت وإذ رجل وبيده حبل قياس. فقلت إلى أين أنت ذاهب؟ فقال لي لأقيس أورشليم لأرى كم عرضها وكم طولها. وإذ بالملاك الذي كلّمني قد خرج وخرج ملاك آخر للقائه. فقال له أجر وكلّم هذا الغلام قائلاً كالأعراء تسكن أورشليم من مثيرة الناس والبهائم فيها. وأنا يقول الرب أكون لها سور نار من حولها وأكون مجداً في وسطها“ (زكريا 2 : 1 — 5).

لقد أمر الله بأن تُبنى أورشليم من جديد. إن رؤيا قياس المدينة كانت تأكيداً بأنه سيعطي لشعبه المتألمين المجربين عزاء وقوة وأنه سيتم لهم وعود عهده الأبدي. وقد أعلن أن رعايته الحارسة ستكون: ”سور نار من حولها وبواستطهم كان مجد الله سيُعلن لكل بني الإنسان. وما كان يفعله لأجل شعبه كان سيُعرف في كل الأرض: ”صوتي واهتفي يا ساكنة صهيون لأن قدوس إسرائيل عظيم في وسطك“ (إشعياء 12 : 6). [465]

الفصل السابع والأربعون—— يهوشع والملاك

إن التقدم المستمر الذي أحرزه البناؤون في إقامة الهيكل أحبط مكايد جيوش الشر وأفزعهم جداً. وقد قصد الشيطان أن يبذل مجهوداً آخر لإضعاف شعب الله وتثبيط عزائمهم وذلك بكشفه عن نقص أخلاقهم. فلو أمكن إغراء أولئك الذين تألموا طويلاً من جرّاء عصيانهم، للاستهانة بوصايا الله لأمكن استدراجهم مرة أخرى للوقوع تحت عبودية الخطيئة.

فلأن شعب إسرائيل قد اختيروا لحق معرفة الله في الأرض صاروا هدفاُ خاصاً لعداوة الشيطان، فعقد العزم على إهلاكهم. وهو لم يتمكن أن يلحق بهم أي أذى طالما كانوا طائعين، ولذلك حشد كل قواه ودهائه لإغوائهم على ارتكاب الخطيئة. فإذ نشبت أقدامهم في إشراك تجاربه تعدوا بذلك على شريعة الله وتُركوا عندئذ فريسة سهلة المنال لأعدائهم.

ولكن مع كونهم سبوا إلى بابل فالله لم يتركهم. فهو أرسل لهم أنبياءه للتوبيخ والإنذار، فأيقظونهم لرؤية آثامهم. فلما تواضعوا وتذلّلوا أمام الله ورجعوا إليه بتوبة صادقة أرسل إليهم رسائل تشجيع مُعلناً لهم أنه سيُرجعهم من أرض سبيهم ويعود للرضى عنهم ويثبتهم مرة أخرى في أرضهم. والآن بعدما بدأت عملية إرجاعهم وعادت بقية منهم إلى اليهودية، فقد عوّل الشيطان على إحباط تنفيذ قصد الله. ولأجل تلك الغاية كان يحرّض الأمم الوثنية على إهلاكهم تماماً. [466]

ولكن الله شدّد شعبه في هذه الأزمة: "بكلام طيب وكلام تعزية" (زكريا 1 : 13). فبواسطة تصير مؤثر لعمل الشيطان وعمل المسيح برهن على قدرة وسيطهم على قهر المُشتكي على شعبه.

فقد شاهد النبي في رؤيا: "يهوشع الكاهن العظيم، لابساً ثياباً قذرة، وواقفاُ قدّام ملاك الرب" (زكريا 3 : 1، 3)، وهو يتوسّل طالباً من الرب الرحمة لشعبه المُجرّب. فإذ كان يتوسّل إلى الله طالباً تتميم مواعيده لهم، وقف الشيطان ليقاومه بجرأة. وهو يشير إلى تعدّيات إسرائيل كذريعة يتعلّل بها كيلا يعود الرب للرضى عنهم. وهو يدّعي أنهم غنيمة ويطلب تسليم إلى يديه.

أما الكاهن العظيم فلا يستطيع أن يدفع عن نفسه أو عن شعبه اتّهامات الشيطان. وهو لا يدّعي أن شعب الله مناهزاً عن الخطأ. فهو يقف أمام الملاك لابساً ثياباً قذرة ترمز إلى خطايا الشعب التي يحملها كنائب عنهم مُعترفاً بآثامهم ولكنه مع ذلك يشير إلى توبتهم وتذلّلهم مستنداً على رحمة الفادي الغافر الخطايا. وبالإيمان يتمسّك بوعود الله.

وينبري الملاك حينئذ، الذي هو المسيح نفسه مخلّص الخطاة، ليبكم المشتكي على شعبه قائلاً: "لينتهرك الرب يا شيطان، لينتهرك الرب الذي اختار أورشليم. أفليس هذا شعلة منتشلة من النار؟" (زكريا 3 : 2). لقد ظلّ شعب الله في أتون التجربة أمداً طويلاً. فبسبب خطاياهم كادوا يحترقون ويفنون في اللهيب الذي أشعله الشيطان وجنوده لإهلاكهم، ولكن الله مد يده الآن لإنتشالهم.

فإذ تقبل شفاعة يهوشع وتضرعه يصدر هذا الأمر: "أنزعوا عنه الثياب القذرة"، ثم يوجّه الملاك كلامه إلى يهوشع قائلاً: "أنظر قد أذهبت عنك إثمك والبسك ثياباً مزخرفة". "فوضعوا على رأسه العمامة

الطاهرة وألبسوا ثيابا" (زكريا 3 : 4، 5). [467] لقد غُفرت خطاياه وخطايا شعبه. ولقد ألبس إسرائيل ثياباً مزخرفة — فقد نسب إليهم برّ المسيح. والعمامة التي وضعت على رأس يهوشع هي شبيهة بالعمائم التي كانت توضع على رؤوس الكهنة، وكان منقوشاً عليها هذه العبارة: "قدّس للرب" (خروج 28 : 36). للدلالة على أنه بالرغم من تعدياته الماضية فقد صار الآن مؤهلاً للخدمة أمام الله في مقدسه.

وها هو الملاك يعلن الآن ليهوشع قائلاً: "هكذا قال رب الجنود إن سلكت في طريقي وإن حفظت شعائري فأنت أيضاً تدين بيتي وتحافظ أيضاً على دياري وأعطيك مسالك بين هؤلاء الواقفين" (زكريا 3 : 7). فإذا أطاع الله فسيُكرم بوصفه القاضي أو الحاكم والمناظر على الهيكل وخدماته، وسيسير بين الملائكة الذين يحفون به حتى وهو في هذه الحياة، وأخيراً سينضم إلى جموع الممجدين حول عرش الله.

"فأسمع يا يهوشع الكاهن العظيم أنت ورفقاؤك الجالسون أمامك لأنهم رجال آية. لأني هأنذا آتي بعبدي الغصن" (زكريا 3 : 8). إن رجاء إسرائيل (أو الكنيسة) كان يرتكز في الغصن أو المنقذ الآتي (أي المسيح). فبالإيمان بالمخلّص الآتي حصل يهوشع وشعبه على الغفران. وبالإيمان بالمسيح عادوا للتمتع برضى الله. فبفضل استحقاقاته سيصيرون "رجال آية" إذا ساروا في طرقه وحفظوا فرائضه، ويُكرّمون بوصفهم مُختاري السماء بين أمم الأرض.

وكما اشتكى الشيطان على يهوشع وشعبه كذلك هو يشتكي في كل العصور على من يطلبون رحمة الله ورضاه إنه "المُشتكي على إخوتنا الذي كان يشتكي عليهم أمام إلهنا نهاراً وليلاً" (رؤيا 12 : 10). فالصراع يحتدم ضد كل نفس أنقذت من سلطان الشر واسمها مكتوب في سفر حياة الخروف. ولا يمكن أن يقبل أحد [468] في أسرة الله دون أن تثور ضده مقاومة العدو الغاشمة. ولكن ذاك الذي كان رجاء إسرائيل قديماً وحصنهم وبرهم وفداءهم، هو رجاء الكنيسة في أيامنا هذه.

أن شكايات الشيطان ضد من يطلبون الرب ليس واعزها أنه مستاء بسبب خطاياهم. فهو يبتهج عندما يرى في أخلاقهم نقصاً أو إلتواء لأنه يعلم أنه عن طريق تعدّيهم على شريعة الله يمكنه التغلّب عليهم. إن شكاياته منشؤها عداوته للمسيح. إن يسوع يحطّم بواسطة تدبير الخلاص سلطان الشيطان على الأسرة البشرية ويخلّص النفوس من سيطرته. وكل عداوة رئيس العصاة وخبثه تهتاج وتثور كلّما شاهد البراهين على تفوق المسيح وسموّه. وهو يحاول بقوته ودهائه الجهنمي أن يغتصب منه بني الإنسان الذين إياهم يفقدون ثقتهم في الله وينفصلون عن محبته. وهو يجربهم لكسر الشريعة، وحينئذ يدعي بأنهم أسراه ويتنازع مع المسيح على حقه في أخذهم منه.

ويعلّم الشيطان أن من يسألون من الله الغفران والنعمة سينالونهما، ولذلك يصف خطاياهم أمام عيونهم ليثبط عزمهم. وهو على الدوام يتحيّن الفرص للشكوى ضدّ من يحاولون إطاعة الله. وحتى أفضل خدماتهم وأعظمها قبولاً لدى الله يحاول أن يجعلها تبدو فاسدة. وبمكايده التي لا حصر لها والتي هي أشد خبثاً وقساوة يحاول إدانتهم والقضاء عليهم.

ولا يستطيع الإنسان بقوته الذاتية مهما بلغت، الصمود أمام اتّهامات العدو. إنه يقف أمام الله مرتدياً ثيابه الملوثة بالخطيئة ومعترفاً بجرمه أمام الرب. ولكن يسوع شفيعنا يقدّم حجّة فعّالة في صالح كل من يستودعون أنفسهم بين يديه لحفظها بالتوبة والإيمان. إنه يترافع في قضيتهم وبحجج الجلجثة القوية يهزم [469] المُشتكي عليهم. فطاعته الكاملة لشريعة الله دفعت إليه كل سلطان في السماء وعلى الأرض، وهو يطالب أباه بأن يرحم الإنسان الخاطئ ويتصالح معه. وهو يعلن للمشتكي على شعبه قائلاً: "لينتهرك الرب يا شيطان. هؤلاء هم مقتني دمي والشعلات المنتشلة من النار". أما أولئك الذين يعتمدون عليه بإيمان فيقدّم لهم هذا التأكيد: "قد أذهبت عنك إثمك وألبسك ثياباً مزخرفة" (زكريا 3 : 4).

إن كل من يتسربلون برداء بر المسيح سيمثلون أمامه بوصفهم مختاريه وأمناء مخلصين ولا قوة

للشيطان على أن يختطفهم من يد المخلِّص. كما لا توجد نفس واحدة طلبت حمايته بالتوبة والإيمان يمكن أن يسمح المسيح بأن يتسلّط عليها العدو. إنه مرتبط بعهده إذ يقول: "ويتمسّك بحصني فيصنع صلحاً معي. صلحاً يصنع معي" (إشعياء 27 : 5). والوعد الذي قدّم ليهوشع مقدّم للجميع إذ يقول الرب: "إن حفظت شعائري .. أعطيك مسالك بين هؤلاء الواقفين" (زكريا 3 : 7). إن ملائكة الله سيحيطون بهم من كل جهة حتى في هذا العالم وسيقفون أخيراً بين الملائكة المحيطين بعرش الله.

إن رؤيا زكريا عن يهوشع والملاك تنطبق بقوة خاصة على اختبار شعب الله في المشاهد الختامية ليوم الكفّارة العظيم. فالكنيسة الباقية ستجوز حينئذ في تجارب وضيقات عظيمة محرقة. وأولئك الذين يحفظون وصايا الله وإيمان يسوع سيحسّون بغيظ التنين وحنقه وغيظ جنوده. إن الشيطان يعتبر العالم رعايا له وقد سيطر حتى على كثيرين من المعترفين بالمسيحية. ولكن هنا توجد جماعة صغيرة تقاوم سيطرته. فلو أمكنه أن يمحو هؤلاء من على وجه الأرض فإن نصرته تكون كاملة. وكما أوعز إلى الأمم الوثنية بإهلاك شعب الله، فكذلك في الأيام الأخيرة [470] القريبة سيستثير قوات الشر في الأرض لإهلاك شعب الله. وسيطلب من الناس تقديم الطاعة للمراسم البشرية انتهاكاً لشريعة الله.

أما الذين يظلّون أمناء لله فسيهددون وينبذون وينفون "وسوف يسلّمون من الوالدين والأخوة والأقرباء والأصدقاء" حتى الموت (لوقا 21 : 16). ولكن رجاءهم الوحيد هو في رحمة الله، وملجأهم الوحيد هو الصلاة. وكما توسّل يهوشع أمام الملاك هكذا ستتوسّل الكنيسة الباقية بانسحاق قلب وإيمان ثابت في طلب الغفران والخلاص بيسوع شفيعهم. إنهم يشعرون شعوراً كاملاً بشرّ حياتهم، ويلمسون ضعفهم وعدم استحقاقهم وهم موشكون على اليأس.

والمجرب يقف قريباً منهم ليشتكي عليهم كما وقف مقابل يهوشع ليقاومه. وهو يشير إلى ثيابهم القذرة وصفاتهم الناقصة العائبة. ويعرض ضعفهم وجهلهم وخطايا جحودهم وعدم مشابهتهم للمسيح الأمر الذي جلب الإهانة على فاديهم. وهو يحاول أن يُلقي في قلوبهم الرعب بكونه يوهمهم بأن قضيتهم ميؤوس منها. وأن لطخات نجاستهم لا يمكن أن تمحى. وهو بهذه الوسيلة يحاول أن يدمّر إيمانهم حتى يخضعوا لتجاربه وينحرفوا عن ولاءهم لله.

فالشيطان عنده معرفة دقيقة بالخطايا التي جرب هو شعب الله على ارتكابها. وهو يوجه اتهاماته ضدهم معلناً أنهم إذا أخطأوا فقد خسروا حقهم في حماية الله لهم، ومدعياً بأن الحق في إهلاكهم. وهو يحكم عليهم بأنهم مستوجبون الطرد من حضرة الله بعيداً عن رضاه مثله تماماً. فيقول: "هل هؤلاء هم الناس الذين سيشغلون مكاني في السماء أنا والملائكة الذين كانوا شركائي؟ إنهم يقولون أنهم يطيعون شريعة الله، ولكن هل حفظوا وصاياها؟ ألم يكونوا محبّين للذات أكثر من محبّتهم لله؟ ألم يفضّلوا مصالحهم على مصالحه؟ ألم يحبّوا الأمور الدنيوية؟ [471] أنظر إلى الخطايا التي ملأت حياتهم. أنظر إلى أنانيتهم وخبثهم وبغضهم الواحد للآخر. فهل يطردني الله أنا وملائكتي بعيداً عن حضرته ومع ذلك يكافئ أولئك الذين ارتكبوا الخطايا ذاتها؟ إنك يارب لا تستطيع أن تفعل ذلك وتكون عادلاً. إن العدل يقتضي الحكم بإدانتهم".

ولكن مع أن أتباع المسيح قد أخطأوا فأنهم لم يسلّموا ذواتهم لسيطرة القوات الشيطانية. لقد تابوا عن خطاياهم وطلبوا وجه الرب في تذلّل وانسحاق. كما أن الشفيع الإلهي يتوسّل لأجلهم. وذاك الذي وقعت عليه أعظم الإهانات بسبب جحودهم، والذي يعرف خطاياهم كما يعرف أيضاً توبتهم، يعلن قائلاً: "لينتهرك الرب يا شيطان. لقد بذلت حياتي لأجل هذه النفوس وقد نُقشوا على كفي. قد تكون في أخلاقهم بعض النقائص وربما يكونوا قد أخفقوا في مساعيهم، ولكنّهم تابوا وغفرت لهم خطاياهم وقبلتهم".

إن هجمات الشيطان قوية وعنيفة، ومخاتلاته خبيثة، ولكن عين الرب على شعبه. إن تجاربهم عظيمة

ويبدو كأن نار الأتون ستقضي عليهم وتفنيهم، ولكن يسوع سيخرجهم كالذهب المصفي في النار. إن ميلهم نحو الأرضيات وتعلّقهم بها سيزول، وهكذا ستتجلّى فيهم صورة المسيح في كمالها.

يبدو أحياناً وكأن الرب نسي المخاطر المحدقة بكنيسته والأضرار التي تصيبها من أعدائها. ولكن الله لم ينس. لا شيء أعز على قلب الله من كنيسته. إنه لا يريد أن تفسد سياسة العالم تاريخها الناصع. وهو لا يترك شعبه ينهزمون أمام تجارب الشيطان. بل سيُعاقب أولئك الذين يشوّهون صورته، ولكنّه سيكون رحيماً نحو من يتوبون توبة خالصة. وسيقدّم للذين يدعونه في طلب القوة التي تعينهم على نمو خلقهم المسيحي، المعونة التي يحتاجونها. [472]

وسيئن شعب الله ويتنهدون في وقت النهاية، بسبب الرجاسات التي في الأرض. وسيحذرون الأشرار من خطرهم بدموع غزيرة، لكونهم يدوسون شريعة الله. وسيتذللون بحزن لا يُنطق به أمام الرب تائبين. وسيهزأ الأشرار من حزنهم ويسخرون من توّسلاتهم الجادة. ولكن حزن شعب الله وتذلّلهم هو برهان لا يُخطئ على أنهم يستردون قوتهم ونبل خلقهم الذي فقدوه بسبب الخطيئة. فلأنهم يقتربون أكثر إلى المسيح، ولأن عيونهم مثبّتة على طهارته الكاملة، فإنهم يميزون بكل وضوح شر الخطيئة العظيم. إن الوداعة والإتّضاع هما ضمن شروط النجاح والنصرة. وإكليل المجد معدّ للذين يسجدون عند قاعدة الصليب.

إن شعب الله المصلّين ملتصقون به وملازمون له. وهم أنفسهم لا يعرفون كم هم محظوظون. إن ملوك هذا العالم وحكّامه يحاولون إهلاكهم بتحريض من الشيطان. ولكن لو فتحت عيون أولاد الله كما قد فتحت عيني غلام أليشع في دوثان، لكانوا يرون ملائكة الله يعسكرون من حولهم ليدرأوا عنهم جيوش الظلام.

وإذ يذلّل شعب الله نفسه قدّامه متوسًّلا وطالباً نقاوة القلب، يصدر الرب حينئذ أمره القائل: ”إنزعوا عنه الثياب القذرة“ وسيُسمع هذا القول: ”قد أذهبت عنك إثمك وألبسك ثياباً مزخرفة“ (زكريا 3 : 4). وحينئذ يلبس أولاد الله المتألمون المجربون الأمناء ثوب بر المسيح الذي بلا دنس. فالبقية المحتقرة تلبس حُللاً مجيدة ولن تتنجس بعد بنجاسات العالم. فأسماؤهم مكتوبة في سفر حياة الخروف ومسجلة بين أسماء الأمناء في كل عصور التاريخ. لقد قاوموا مكايد العدو المخادع، ولم يحيدوا عن ولائهم خوفاً من زئير التنين. وهم الآن آمنون إلى الأبد من مكايد المجرب. لقد انتقلت خطاياهم إلى ”الشيطان“ الذي هو أصل الخطيئة، وتوضع على رؤوسهم ”عمامة طاهرة“. [473]

وفي حين يلح الشيطان باتهاماته فإن الملائكة القديسين يتجولون هنا وهناك دون أن يراهم أحد ليختموا جماعة الأمناء بختم الحي. هؤلاء هم الذين يقفون على جبل صهيون مع الخروف واسم الآب مكتوب على جباههم. إنهم يرنمون الترنيمة الجديدة أمام العرش، تلك الترنيم التي لا يعرفها أحد إلا المئة والأربعة والأربعون ألفاً الذين افتدوا من الأرض (أنظر رؤيا 14 : 2 — 5). ”هؤلاء هم الذين يتبعون الخروف حيثما ذهب. هؤلاء اشتروا من بين الناس باكورة لله وللخروف. وفي أفواههم لم يوجد غش لأنهم بلا عيب قدام عرش الله“ (رؤيا 14 : 4، 5).

لقد تحقق الآن الإتمام الكامل لأقوال الملاك ”فاسمع يا يهوشع الكاهن العظيم أنت ورفقاؤك الجالسون أمامك لأنهم رجال آية. لأني هأنذا آتي بعبدي الغصن“ (زكريا 3 : 8). والمسيح يعلن عن أنه الفادي والمنقذ لشعبه. هنا يمكن أن يقال حقاً ويقيناً عن البقية أنهم ”رجال آية“ فيستعاض عن دموعهم واتّضاعهم في أرض غربتهم بالفرح والكرامة في محضر الله والخروف.

”في ذلك اليوم يكون الرب بهاء ومجداً وثمر الأرض فخراً وزينة للناجين من إسرائيل. ويكون أن الذي يبقى في صهيون والذي يترك في أورشليم يُسمّى قدوساً كل من كتب للحياة في أورشليم“ (إشعياء 4 : 2، 3). [474]

الفصل الثامن والأربعون — ”لا بالقدرة ولا بالقوة“

بعدما رأى زكريا رؤيا يهوشع والملاك، حالاً تلقى رسالة خاصة بعمل زربابل. فقد أعلن زكريا يقول: ”فرجع الملاك الذي كلمني وأيقظني كرجل أوقظ من نومه. وقال لي ماذا ترى؟ فقلت قد نظرت وإذا بمنارة كلّها ذهب وكوزها على رأسها وسبعة سرج عليها وسبع أنابيب للسرج التي على رأسها. وعندها زيتونتان أحداهما عن يمين الكوز والأخرى عن يساره.

”فأجبت وقلت للملاك المتكلّم معي ماهذا يا سيدي؟ .. فأجاب وكلّمني قائلاً هذه كلمة الرب إلى زربابل قائلاً لا بالقدرة ولا بالقوة بل بروحي قال رب الجنود“.

”فأجبت ما هاتان الزيتونتان عن يمين المنارة وعن يسارها؟ ثم أجبت ثانية وقلت له ما سنبلتا الزيتون اللتان عند منقاري الذهب اللذين فيهما المساكب؟ فكلّمني قائلاً .. هاتان هما ابنا الزيت الواقفات لدى رب الأرض كلّها (الترجمة الكاثوليكية)“ (زكريا 4 : 1 — 6، 11 — 14).

نرى في هذه الرؤيا أن الزيتونتين اللتين أمام الله يمثلان بأنهما يفرغان الزيت الذهبي من أنفسهما بواسطة أنابيب من ذهب في كوز المنارة. ومن هذا تأخذ سرج القدس كفايتها لكي يشع منها نور لامع دائماً. وهكذا فمن [475] الممسوحين الذين يقفون في حضرة الله ينبثق ملء النور والمحبّة والقوة الإلهية لشعب الله ليمكنهم من توزيع النور على الآخرين والفرح والانتعاش. فالذين اغتنوا هكذا عليهم أن يغنوا الآخرين من كنز محبة الله.

وعند إعادة بناء بيت الرب كان زربابل قد جاهد في وجه الصعوبات الكثيرة. فمنذ البداية كان الأعداء ”يرخون أيدي شعب يهوذا ويذعرونهم عن البناء“ ”وأوقفوهم بذراع وقوة“ (عزرا 4 : 4، 23). ولكن الرب تدخّل في صالح البنائين، وها هو الآن يتكلّم على لسان نبيّه قائلاً لزربابل: ”من أنت أيها الجبل العظيم؟ أمام زربابل تصير سهلاً. فيخرج حجر الزاوية بين الهاتفين كرامة كرامة له“ (زكريا 4 : 7).

في كل تاريخ شعب الله اعترضت طريقهم جبال من الصعوبات التي كان يبدو أنه يصعب تخطيها، فيما كانوا يحاولون تنفيذ مقاصد السماء. والرب يسمح بوجود مثل تلك العقبات لتكون محكاً للإيمان. فعندما نكون مُحاطين بالسياجات من كل جانب فهذا يكون أنسب وقت للثقة في الله وقوة روحه. إن تدريب الإيمان الحي معناه المزيد من القوة الروحية والنمو في الثقة التي لا تتزعزع وبهذه الكيفية تصير النفس قوة غالبة. فأمام مطالبة الإيمان تختفي العراقيل التي يضعها الشيطان في طريق المسيحي، لأن قوات السماء تخف لمعونته: ”لا يكون شيء غير ممكن لديكم“ (متى 17 : 20).

إن طريقة العالم هي أن يبدأ الإنسان بالأبهة والتفاخر. أما طريقة الله فهي أن نجعل يوم الأمور الصغيرة بدء نصرة الحق والبر المجيدة. أحياناً يدرب الرب شعبه وخدامه بجلبه عليهم الخيبة والفشل الظاهر، وغرضه هو أن يعلّمهم كيف يتغلبون على الصعوبات. [476]

يجرب الناس غالباً لأن يترددوا في وجه الاضطرابات والعراقيل التي تواجههم. ولكن إذا تمسكوا بثقتهم الثابتة إلى النهاية فالله سيجعل الطريق واضحاً أمامهم. والنجاح سيكون حليفهم إذ يكافحون ضد

الصعوبات. فأمام روح زربابل الباسلة وإيمانه الثابت تصير جبال الصعوبات العظيمة سهلاً. وذاك الذي "يداه أسست البيت فيداه تتممانه". "فيخرج حجر الزاوية بين الهاتفين كرامة كرامة له" (زكريا 4 : 9، 7).

إن السلطان والقوة البشريين لم يقيما كنيسة الله ولا يستطيعان تخريبها. فالكنيسة لم تبن على صخرة القوة البشرية بل على يسوع صخر الدهور، "وأبواب الجحيم لن تقوى عليها" (متى 16 : 18). إن حضور الله يكسب عمله وملكوته ثباتاً واستقراراً. وتقول كلمة الله: "لا تتكلوا على الرؤساء ولا على ابن آدم" (مزمور 146 : 3)، "بالهدوء والطمأنينة تكون قوتكم" (إشعياء 30 : 15). إن عمل الله المجيد المؤسس على مبادئ الحق الأبدي لن يصير إلى لا شيء أو يصير عبثاً أو باطلاً، بل سيذهب من قوة إلى قوة: "لا بالقدرة ولا بالقوة بل بروحي قال رب الجنود" (زكريا 4 : 6).

إن الوعد القائل: "إن يدي زربابل قد أسستا هذا البيت فيداه تتممانه" (زكريا 4 : 9)، قد تم حرفياً. "وكان شيوخ اليهود يبنون وينجحون حسب نبوة حجي النبي وزكريا بن عدو. فبنوا وأكملوا حسب أمر إله إسرائيل وأمر كورش وداريوس وارتحشستا ملك فارس وكمل هذا البيت في اليوم الثالث من شهر آذار (الشهر الثاني عشر) في السنة السادسة من ملك داريوس الملك" (عزرا 6 : 14، 15). [477]

وبعد ذلك بقليل دشن الهيكل الذي أعيد بناؤه: "وبنوا إسرائيل الكهنة واللاويون وباقي بني السبي دشنوا بيت الله هذا بفرح" "وعمل بنو السبي الفصح في الرابع عشر من الشهر الأول" (عزرا 6 : 16، 17، 19).

إن الهيكل الثاني لم يكن مماثلاً للأول في فخامته، ولا تقدّس بتلك الظواهر المنظورة لحضور الله التي اختصّ بها الهيكل الأول. ولم تكن هناك مظاهر فوق العادة يمتاز بها تدشينه. ولم تر سحابة المجد لتملأ المقدس المقام حديثاً. ولم تنزل نار من السماء لتأكل الذبيحة التي على المذبح. ولم يعد الشكينا يحل بيت الكروبيم في قدس الأقداس. ولم يوجد هناك التابوت ولا كرسي الرحمة ولا لوحا الشهادة. ولم تر أية آية من السماء يعرف بها الكاهن السائل إرادة الرب.

ومع ذلك فهذا هو البيت الذي أعلن الرب عنه على لسان حجي النبي قائلاً: "مجد هذا البيت الأخير يكون أعظم من مجد الأول". "أزلزل كل الأمم ويأتي مُشتهى كل الأمم فأملأ هذا البيت مجداً قال رب الجنود" (حجي 2 : 9، 7). ولمدى قرون عديدة حاول العلماء أن يبينوا في أي شيء تم وعد الله المُعطى لحجي، ومع ذلك فمجيء يسوع الناصري مشتهى كل الأمم قدّس أفنية الهيكل بحضوره الشخصي بالرغم من أن كثيرين أصرّوا أن كل ذلك لا ينطوي على أهمية خاصّة. لقد أعمى الكبرياء وعدم الإيمان أذهانهم كيلا يفهموا المعنى الحقيقي لكلام النبي.

وقد أكرم وتمجد الهيكل الثاني لا بسحابة مجد الرب بل بحضور يسوع الذي فيه يحلّ "كل ملء اللاهوت جسدياً" — الله نفسه "ظهر في الجسد" (كولوسي 2 : 9 ؛ 1 تيموثاوس 3 : 16). وقد زاد الهيكل الثاني وفاق في مجده على الهيكل الأول بكونه أكرم وتمجد بحضور المسيح شخصياً في أثناء خدمته الأرضية، وفي هذا وحده فاق على الهيكل الأول. لقد أتى "مُشتهى كل الأمم" حقاً إلى هيكله [478] عندما كان رجل الناصرة يعلّم ويشفي في أروقته المقدّسة. [479]

الفصل التاسع والأربعون— في عهد الملكة استير

كان قد انتفع ما يقرب من خمسين ألفاً من بني السبي بالمرسوم الذي فيه سُمح لهم بالعودة إلى أرضهم وذلك بفضل الرعاية والإحسان اللذين أظهرهما نحوهم الملك كورش. ومع ذلك فهؤلاء بالمقارنة مع مئات الألوف المُشتّتين في كل بلاد مادي وفارس لم يكونوا إلا أقليّة ضئيلة. أما الأكثرية العظمى من بني إسرائيل فقد اختاروا البقاء على أرض سبيهم مؤثرين ذلك على تحمل مشاق السفر في العودة وإعادة بناء المدن والبيوت الخربة.

وبعد مرور أكثر من عشرين سنة صدر مرسوم ثان مشجع كالمنشور الأول، أصدره داريوس هستاسبس الملك الحاكم في ذلك الحين. هكذا قدّم الله في رحمته فرصة ثانية لليهود القاطنين في مملكة مادي وفارس للرجوع إلى أرض آبائهم. لقد سبق الله فرأى الأوقات المزعجة التي كانت قادمة عليهم في إبان حكم أحشويروش — المذكور في سفر استير، وفضلاً عن كونه أحدث مشاعر رقيقة في قلوب من بيدهم السلطان، فإنهم أيضاً أوحى إلى زكريا أن يتوسّل إلى المسبيين كي يرجعوا إلى وطنهم.

وهذه الرسالة المعطاة لأسباط إسرائيل المشتتين الذين استوطنوا في بلدان كثيرة بعيدة عن وطنهم الأول: "يا يا اهربوا من أرض الشمال يقول الرب. فإني قد فرقتكم كرياح السماء الأربع يقول الرب. تنجّي يا صهيون الساكنة في [480] بنت بابل. لأنه هكذا قال رب الجنود بعد المجد أرسلني إلى الأمم الذين سلبوكم لأنه من يمسكم يمس حدقة عينه. لأني هأنذا أحرك يدي عليهم فيكونون سلباً لعبيدهم. فتعلمون أن رب الجنود قد أرسلني" (زكريا 2 : 6 — 9).

كان قصد الرب حينئذ كما كان قصده منذ البدء أن يكون شعبه تسبيحة في الأرض لمجد اسمه. وفي أثناء سنوات سبيهم الطويلة قدّم الرب لهم كثيراً من الفرص للرجوع إلى ولائهم له. وقد اختار بعض منهم الاصغاء والتعلّم وآخرون وجدوا الخلاص في وسط الضيق. وكثيرون من هؤلاء كانوا سيعدون ضمن البقية التي كانت سترجع. وهذا ما شبهتهم به كلمة الوحي: "فرع الأرز العالي" الذي كان سيغرس "على جبل عال وشامخ في جبل إسرائيل العالي" (حزقيال 17 : 22، 23).

الذين رجعوا بناء على منشور كورش هم: "كل من نبّه الله روحه" (عزرا 1 : 5). ولكن الله لم يرفض التوسّل إلى الذين أثروا البقاء في أرض سبيهم بمحض اختيارهم. وعن طريق عوامل كثيرة سهل لهم أمر العودة، ومع ذلك فإن عدداً كبيراً من الذين لم يستجيبوا لمنشور كورش ظلّوا بمنأى عن المؤثرات التي داعتهم فيما بعد، وحتى بعدما أنذرهم زكريا بالهروب من بابل بلا إبطاء لم يعيروا تلك الدعوات أي إلتفات.

وفي أثناء ذلك تطورت الأحوال في مملكة مادي وفارس تطوراً سريعاً. فإن داريوس هستاسبس الذي تمتّع اليهود في إبان حكمه برعاية وإحسانات كثيرة ملحوظة خلفه على العرش أحشويروش الأكبر. وفي أثناء حكم هذا الملك حدث أن اليهود الذين لم يكترثوا للرسالة التي كانت تدعوهم للهروب كان لابد لهم [481] من مواجهة أزمة مخيفة. فحيث رفضوا الاستفادة من وسيلة الهرب التي أعدّها لهم الله صاروا

الآن وجهاً لوجه أمام الموت.

وقد استخدم الشيطان هامان الاجاجي الذي كان وضيع الأخلاق يحتلّ مركزاً عظيما مرموقاً وكانت له سلطة واسعة في مملكة مادي وفارس، لكي يعرقل مقاصد الله. كان هامان يضمر لمردخاي حقداً مريراً. وكان مردخاي رجلاً يهودياً ولم يسء إلى هامان بشيء، إنما فقط رفض السجود له. وإذ "ازدرى في عينيه أن يمد يده إلى مردخاي وحده .. طلب هامان أن يهلك جميع اليهود الذين في كل مملكة أحشويروش، شعب مردخاي" (استير 6 : 3).

أما الملك أحشويروش فإذ غرر به هامان بأقواله وتصريحاته الكاذبة اقتنع بأن يصدر مرسوماً يقضي بقتل كل اليهود "المشتتين والمتفرقين بين الشعوب في كل بلاد المملكة" (مادي وفارس) — (استير 8 : 3). وقد حدد يوم كان لابد فيه أن يهلك اليهود وأن تُسلب غنيمتهم. ولم يكن الملك يدري العواقب البعيدة المدى التي تترتب على تنفيذ هذا المرسوم. وكان الشيطان المحرض على تلك المكيدة والمتخفي وراءها، يحاول أن يحرر الكرة الأرضية من أولئك الذين يحفظون معرفة الإله الحقيقي.

"وفي كل كورة وصل إليها المرسوم الملكي كانت مناحة عظيمة عند اليهود وصوم وبكاء ونحيب. وانفرش مسح ورماد الكثيرين" (استير 3 : 4). إن شريعة مادي وفارس لا يمكن أن تتغيّر. وقد بدا أنه لا يوجد رجاء فقد حُكم على كل الإسرائيليين بالهلاك.

ولكن مؤامرات العدو أحبطت بالقوة التي تدير وتحكم في مصائر بني الإنسان. فقد دبّرت عناية الله أن تتوج استير "التي كانت فتاة يهودية تقية" ملكة [482] في مملكة مادي وفارس. وكان مردخاي أحد أقربائها، ففي حاجتهم القصوى وكربهما الشديد عوّلا على الالتجاء إلى الملك أحشويروش لإنقاذ شعبهما وكان على استير أن تجازف بالمثول في حضرته لتتوسّل لأجل الشعب. قال لها مردخاي: "ومن يعلم إن كنت لوقت مثل هذا وصلت إلى الملك؟" (استير 4 : 14).

كانت الأزمة التي واجهتها استير تتطلب عملاً سريعاً جاداً، وأدركت هي ومردخاي أنه ما لم يتدخل الله بقوة لصالحهما وصالح شعبهما فإن جهودهما لا يمكن أن تؤدي إلى نتيجة. ولذلك قضت استير وقتاً في الصلاة والشركة مع الله نبع قوّتها. فقالت لمردخاي "اذهب اجمع كافة اليهود الموجودين في شوشن وصوموا من جهتي ولا تأكلوا ولا تشربوا ثلاثة أيام ليلاً ونهاراً. وأنا أيضاً وجواريّ نصوم كذلك وهكذا أدخل إلى الملك خلاف السنة فإذا هلكت هلكت" (استير 4 : 16).

أما الحوادث التي جاءت بعد ذلك في تتابع سريع — كمثول استير في حضرة الملك، والرضى والقبول العظيم الذي نالته منه، والولائم التي أقيمت للملك والملكة حيث كان هامان ضيفهما الوحيد فيها، والأرق الذي حلّ بالملك والإكرام الذي أكرم به مردخاي على مرأى جميع الناس، وإذلال هامان وسقوطه على إثر اكتشاف مؤامرته الدنيئة — كل هذه أجزاء من القصة المألوفة لدينا. لقد عمل الله بكيفية معجزية لأجل شعبه التائب، وأصدر الملك منشوراً مناقضاً للأول أباح فيه لليهود أن يحاربوا دفاعاً عن أنفسهم. وقد وصل ذلك المرسوم بسرعة إلى كل أنحاء المملكة بواسطة السعاة ناقلي الرسائل: "وأمر الملك يحثهم ويجعلهم". "وفي كل بلاد (مقاطعة) ومدينة وكل مكان وصل إليه [483] كلام الملك وأمره كان فرح وبهجة عند اليهود وولائم ويوم طيب. وكثيرون من شعوب الأرض تهودوا لأن رعب اليهود وقع عليهم" (استير 8 : 14، 17).

وفي اليوم المحدد لإهلاكهم: "اجتمع اليهود في مدنهم في كلّ بلاد الملك أحشويروش ليمدوا أيديهم إلى طالبي أذيتهم فلم يقف أحد قدّامهم لأن رعبهم سقط على جميع الشعوب". لقد أرسل الله الملائكة المقتدرين قوة لحماية شعبه عندما "وقفوا لأجل أنفسهم" (استير 9 : 2، 16).

وقد أعطي لمردخاي مركز الكرامة الذي كان هامان يشغله من قبل. فقد "كان ثاني الملك أحشويروش

وعظيماً بين اليهود ومقبولاً عند كثرة أخوته" (استير 10 : 3). وقد طلب الخير لشعبه وما يؤول لإسعاده. وهكذا جعل الله شعبه المختار يفوز مرة أخرى برضى بلاط مملكة مادي وفارس، وجعل من تنفيذ مقاصده في رجوعهم إلى أرضهم أمراً ميسوراً. ولكن لم يرجع عدد كبير منهم إلى أورشليم تحت قيادة عزرا إلا في وقت متأخر بعد مرور سنوات عديدة. في السنة السابعة من ملك ارتحشستا الأول الذي اعتلى العرش بعد احشويروش الأكبر.

أما الاختبارات الشاقة التي مرت على شعب الله في أيام استير فلم تقتصر على ذلك العصر. فإذ نظر الرائي عبر الأجيال إلى انقضاء الدهر أعلن قائلاً: "فغضب التنين على المرأة وذهب ليصنع حرباً مع باقي نسلها الذين يحفظون وصايا الله وعندهم شهادة يسوع المسيح" (رؤيا 12 : 17). إن بعض من يعيشون في هذه الأيام على الأرض سيشهدون إتمام هذه الأقوال. ونفس الروح التي أوعزت إلى الناس في العصور القديمة باضطهاد الكنيسة الحقيقية ستقود الناس في المستقبل إلى متابعة السير في الطريق ذاته في محاربة من يحتفظون بولائهم لله. ومنذ الآن فقد بوشرت الاستعدادات لخوض غمار تلك الحرب الأخيرة العظيمة. [484]

وسيكون المنشور الذي سيصدر أخيراً ضد بقية شعب الله قريب الشبه بالذي أصدره احشويروش ضد اليهود. فأعداء الكنيسة الحقيقية اليوم يرون في الجماعة القليلة التي تحفظ وصيّة السبت، "مردخاياً" آخر واقفاً على الباب. لأن إكرام شعب الله لشريعته هو توبيخ مستمر للذين طرحوا مخافة الرب جانباً وهم يدوسون سبته باستمرار.

وسيزيد الشيطان السخط ضد الأقلية الذين يرفضون قبول العادات والتقاليد العامة الشائعة. وسينضم إلى جماعة المتمردين رجال من ذوي الشهرة والمراكز الرفيعة ليتآمروا على شعب الله. وستضافر الثروة والذكاء والعلم لتجلّلهم بالعار والاحتقار. وسيتآمر ضدّهم الحكّام المضطهدون والخدّام وأعضاء الكنائس. ويحاولون هدم إيمانهم عن طريق الخطابة والصحف والتفاخر والتهديد والسخرية. كما سيثيرون غضب الجماهير بواسطة التحريف الكاذب والمرافعات الغاضبة. وحيث أنه ليست حجة كتابية يوردونها ضدّ المدافعين عن السبت الكتابي فسيلجأون إلى التشريعات الظالمة لسدّ النقص الذي لديهم. ولكي يحظى المشترعون بالشهرة والمناصرة فسيذعنون إلى سن قوانين تُلزم الناس بحفظ يوم الأحد. ولكن الذين يخشون الله لا يمكنهم قبول أي تشريع ينقض إحدى الوصايا العشر. وفي ميدان النزال هذا ستُشن الحرب الأخيرة العظيمة في الصراع بين الحق والضلال. إلا أننا لم نترك للشك بالنسبة لهذا الأمر. فاليوم كما في أيام استير ومردخاي، سيزكي الرب حقه وشعبه ويقف في صفهم. [485]

الفصل الخمسون— عزرا الكاهن والكاتب

بعد رجوع أول فوج من المسبيين بقيادة زربابل ويهوشع بحوالي سبعين سنة اعتلى ارتحشستا لونجيمانوس عرش مملكة مادي وفارس. واسم هذا الملك مرتبط بالتاريخ المقدّس بسلسة حوادث العناية العجيبة. ففي أثناء حكمه عاش عزرا ونحيما وخدما. وهو الملك الذي أصدر في عام 457 ق.م. مرسوماً هو المرسوم الثالث والأخير لأجل إعادة بناء أورشليم، وقد شهد حكمه عودة فوج من اليهود بقيادة عزرا، وتكملة أسوار أورشليم بيد نحميا ورفاقه، وإعادة تنظيم خدمات الهيكل. والإصلاحات الدينية العظيمة التي تمت على أيدي عزرا ونحميا. وفي إبان سني حكمه الطويل أبدى كثيراً من الرعايا والإحسان لشعب الله. وقد اعترف أن صديقيه المحبوبين الأمينين، عزرا ونحميا، هما رجلان أقامهما الله لعمل خاص.

إن اختبار عزرا وهو يعيش بين اليهود الباقين في بابل كان غير عادي إلى حد أنه جذب انتباه واستحسان الملك ارتحشستا الذي تحدّث عزرا معه مراراً بكل حرية عن قدرة إله السماء وغرضه في إرجاع شعبه إلى أورشليم.

ولد عزرا من نسل هارون وتربى ليكون كاهناً. كما كان على دراية بكتب المجوس والمنجمين والحكماء في مملكة مادي وفارس. إلا أنه لم يكن راضياً عن حالته الروحية. فكان يتوق أن يكون على وفاق تام مع الله، كان مشتاقاً إلى [486] الحكمة التي يستطيع بها تنفيذ إرادته تعالى. وهكذا "هيأ قلبه لطلب شريعة الرب والعمل بها" (عزرا 7 : 10). وهذا قاده إلى الانكباب على درس تاريخ شعب الله بكل اجتهاد كما هو مدوّن في كتب الأنبياء والملوك. فجعل يفتش الأسفار التاريخية والشعرية في الكتاب المقدس ليعرف لماذا سمح الله بخراب أورشليم، ولماذا سمح بأن يؤخذ شعبه للسبي في بلاد الوثنية.

وجعل عزرا يفكر تفكيراً خاصاً في اختبارات إسرائيل منذ الوقت الذي أعطي فيه الوعد لإبراهيم. كما درس الوصايا والتعليمات التي أعطيت في سيناء، وفي أثناء المدة الطويلة التي قضاها الشعب تائهاً في القفر. وعندما علم أشياء أكثر وأكثر عن معاملات الله مع أولاده، وأدرك قدسية الشريعة المُعطاة في سيناء، ثار قلب عزرا في داخله. وقد مرّ في اختبار تجديدي كامل وصمّم على اتقان ما ورد في التاريخ المقدس كي يستخدم هذه المعرفة في جلب البركة والنور إلى شعبه.

كما حاول عزرا أن يحصل على اعداد قلبي للاضطلاع بالعمل الذي اعتقد أنه أنيط به. فطلب الله بكل غيرة وحرارة ليكون معلماً حكيماً بين شعبه. وإذ تعلّم أن يخضع عقله وإرادته لسلطان الله تغلغلت في حياته مبادئ التقديس الحقيقي التي كان لها تأثير بناء في السنوات التالية، ليس فقط على الشباب الذين طلبوا أن يتعلّموا منه بل تناول تأثيرها أيضاُ كل من عاشروه.

لقد اختار الله عزرا ليكون أداة خير لشعبه لكي يضفي على الكهنوت الكرامة والمجد اللذين كانا قد فارقاه إلى حد كبير في أثناء سنوات السبي. وقد نمت قوى عزرا وتطورت بحيث غدا رجلاً ذا علم غزير غير عادي فصار "كاتباً ماهراً في شريعة مادي وفارس" (عزرا 7 : 6). فهذه المؤهلات صيرته رجلاً عظيماً وشهيراُ في مملكة مادي وفارس. [487]

صار عزرا كليم الله إذ علم من حوله المبادئ التي تحكم السماء. ومدى سنوات حياته الباقية سواء أكان بالقرب من بلاط الملك في مادي وفارس أو في أورشليم، فإن أهم عمل قام به كان هو التعليم. وإذ أطلع غيره على الحقائق التي تعلمها زادت قدرته على العمل، وغدا رجلاً غيوراً تقياً وشاهداً لله أمام العالم على قوة الكتاب المقدّس في السمو بالحياة اليومية.

إن محاولات عزرا في إنعاش اهتمام الشعب بدرس الكتاب كان لها البقاء وذلك عن طريق اجتهاده مدى حياته في حفظ الكتب المقدسة والإكثار منها. فقد جمع كل نسخ الشريعة التي أمكنه العثور عليها وأمر بنسخها وتوزيعها. فتلك الكلمة النقية التي تضاعفت هكذا ووصلت إلى أيدي أناس كثيرين. أكسبت الشعب معرفة لا تقدّر قيمتها.

ثم أن إيمان عزرا في أن الله سيعمل عملاً عظيماً لشعبه دفعه إلى أن يخبر أرتحشستا برغبته في العودة إلى أورشليم لإنعاش إهتمام الشعب بدراسة كلمة الله وليساعد إخواته في إعادة بناء المدينة المقدسة. وإذ أعلن ثقته الكاملة في الله الذي له القدرة على حماية شعبه ورعايتهم، تأثر الملك تأثراً عميقاً. وقد فهم جيداً أن شعبه العائد إلى أورشليم كان لخدمة الرب وعبادته. ومع ذلك فإن ثقة الملك في استقامة عزرا ونزاهته كانت عظيمة بحيث أظهر نحوه إحساناً ملحوظاً إذ أجابه إلى طلبه وقدّم عطايا ثمينة لأجل خدمة الهيكل. وقد جعله ممثلاً خاصاً لمملكة مادي وفارس ومنحه سلطات واسعة لأجل تنفيذ المقاصد التي في قلبه.

أما مرسوم أرتحشستا لونجيمانوس لأجل إعادة بناء أورشليم، وهو ثالث مرسوم يصدر منذ انتهاء سنوات السبي السبعين، فهو مرسوم عظيم نظراً للعبارات الواردة فيه عن إله السماء، وبسبب اعترافه بمؤهلات وإنجازات عزرا والعطايا [488] السخية المُعطاة لبقية شعب الله. ثم أن أرتحشستا يشير إلى عزرا على أنه: "الكاهن الكاتب، كاتب كلام وصايا الرب وفرائضه على إسرائيل". "كاتب شريعة إله السماء". وقد اتحد الملك مع مشيريه في التبرع بسخاء "لإله إسرائيل الذي في أورشليم مسكنه". زد على ذلك فقد دبر أمر تسديد كثير من النفقات الباهظة إذ أمر بأن تدفع "من بيت خزائن الملك" (عزرا 7 : 11، 12، 15، 20).

وقد أعلن قائلاً لعزرا: "إنك مرسل من قبل الملك ومشيريه السبعة، لأجل السؤال عن يهوذا وأورشليم حسب شريعة إلهك التي بيدك". ثم أمر بعد ذلك قائلاً: "كل ما أمر به إله السماء فليعمل باجتهاد لبيت إله السماء. لأنه لماذا يكون غضب على مُلك الملك وبنيه" (عزرا 7 : 14، 23).

بعدما أذن أرتحشستا بعودة المسبيين رتّب أن يعود رجال الكهنوت إلى إقامة شعائرهم والتمتّع بامتيازاتهم القديمة. ثم أعلن "ونعلمكم أن جميع الكهنة واللاويين والغنيين والبوابين والنثينيم وخدّام بيت الله هذا لا يؤذن أن يُلقي عليهم جزية أو خراج أو خفارة". ثم رتّب أيضاً أمر تعيين موظفين مدنيين ليحكموا ويقضوا بين الشعب بالعدل بموجب دستور شرائع اليهود. ثم قال مخاطباً عزرا: "أما أنت يا عزرا فحسب حكمة إلهك التي بيدك ضع حكاماً وقضاة يقضون لجميع الشعب الذي في عبر النهر من جميع من يعرف شرائع إلهك، والذين لا يعرفون فعلموهم. وكل من لا يعمل شريعة إلهك وشريعة الملك فليقض عليه عاجلاً إما بالموت أو بالنفي أو بغرامة المال أو الحبس" (عزرا 7 : 24 — 26).

وهكذا أمكن لعزرا أن يقنع الملك بإعداد العدة الكافية لأجل رجوع كل شعب إسرائيل، "حسب يد إلهه الصالحة عليه" والكهنة واللاويين في مملكة مادي وفارس: "كل من أراد أن يرجع إلى أورشليم" (عزرا 7 : 9، 13). وهكذا [489] أعطيت فرصة أخرى لبني الشتات للرجوع إلى الأرض التي كانت مواعيد شعب الله مرتبطة بامتلاكهم إياها. فهذا المرسوم جلب فرحاً عظيماً للذين اشتركوا مع عزرا في دراسة مقاصد الله نحو شعبه. وهتف عزرا يقول: "مبارك الرب إله أبائنا الذي جعل مثل هذا في قلب الملك أجل

تزيين بيت الرب الذي في أورشليم. وقد بسط علي رحمة أمام الملك ومشيريه وأمام جميع رؤساء الملك" (عزرا 7 : 27، 28).

لقد تجلّت عناية الله إذ أصدر أرتحشستا هذا المنشور. وعرف البعض هذا واستفادوا بكل سرور من امتياز الرجوع في تلك الظروف المواتية. وقد تعين مكان فيه يجتمعون معاً. وفي الزمن المحدد اجتمع الراغبون في الرجوع إلى أورشليم، استعداداً للقيام بتلك الرحلة الطويلة. وها هو عزرا يقول: "فجمعتهم إلى النهر الجاري إلى أهوا ونزلنا هناك ثلاثة أيام" (عزرا 8 : 15).

كان عزرا يظن أن عدداً كبيراً من المسبيين سيعودون إلى أورشليم، ولكن خاب أمله فإن عدد الذين استجابوا للنداء كان قليلاً. فكثيرون ممن كانوا يملكون بيوتاً وأرضاً لم يكونوا يرغبون في التضحية بأملاكهم. لقد أحبوا الراحة والاستقرار وكانوا قانعين بالبقاء. فكان مثالهم عثرة ومعطلاً لآخرين الذين لولا ذلك لربما اختاروا أن يلقوا قرعتهم مع من كانوا يتقدمون بالإيمان.

وإذ ألقى عزرا نظرة على تلك الجماعة المجتمعة معاً أدهشه أنه لم يرى أحداً من بني لاوي. فأين رجال ذلك السبط الذين أفرزوا لخدمة الهيكل المقدسة؟ كان يحب على اللاويين عندما يسمعون النداء القائل: من للرب؟ أن يكونوا أول من يستجيبون له في أثناء السبي وبعد ذلك منحت لهم عدة امتيازات. كانوا يتمتعون بحرية كاملة لخدمات حاجات إخوتهم الروحية أثناء السبي. لقد بنيت [490] مجامع، قاد الكهنة فيها الشعب في العبادة لله وكانوا يعلمونهم. وكان مسموحاً لهم بحفظ السبت وممارسة الطقوس المقدسة الخاصة بالإيمان اليهودي بكل حرية.

ولكن بمرور السنين بعد انقضاء سنوات السبي، تبدلت الأحوال والتزم رؤساء الشعب بالقيام بكثير من التبعات الجديدة. كان الهيكل الذي في أورشليم قد أعيد بناؤه وتم تدشينه، فكان الحال يستدعي وجود عدد أكبر من الكهنة للإضطلاع بخدماته. وكانت هناك حاجة ملحة إلى كثيرين من رجال الله ليكونوا معلمين للشعب. وفضلاً عن ذلك فإن اليهود الباقين في بابل كانوا في خطر تقليص حريتهم الدينية. لقد أنذر اليهود الساكنون في مملكة مادي وفارس بكل صراحة على لسان النبي زكريا وبواسطة اختبارهم الحديث العهد أثناء الأوقات المزعجة في عهد استير ومردخاي، ليعودوا إلى وطنهم وجاء الوقت الذي بات فيه من الخطر عليهم البقاء وقتاً أطول وهم محاطون بالمؤثرات الوثنية. وبالنظر إلى هذه الأحوال المتغيرة كان ينبغي للكهنة الذين كانوا في بابل أن يكونوا سريعي التمييز والإدراك بأن في صدور المرسوم دعوة خاصة لهم ليعودوا إلى أورشليم.

لقد عمل الملك ورؤساءه أكثر مما كان ينتظر منهم في إفساح المجال لليهود بالعودة. فقد أعدوا وسائل كثيرة، ولكن أين كان الرجال. لقد فشل بنو لاوي في وقت كان يمكن فيه أن يقود تأثير قرارهم بمرافقة إخوانهم إلى أن يمتثل آخرون بهم. أما عدم اكتراثهم الغريب فهو إعلان مؤسف لموقف الإسرائيليين السلبي الساكنين في بابل من قصد الله نحو شعبه. [491]

وقد ناشد عزرا اللاويين مرة أخرى إذ أرسل إليهم دعوة ملحة لمرافقة الجماعة في رجوعهم. ولكي يؤكد لهم ضرورة الإسراع في العمل فقد أرسل التماسه المكتوب مع كثيرين من "الرؤساء" و "الفهيمين" (عزرا 7 : 28 ؛ 8 : 16).

وإذ انتظر المسافرون مع عزرا. أسرع الرسل الموثوق بهم عائدين وبأيديهم الالتماس وفيه يقول: "آتوا إلينا بخدام لبيت إلهنا" (عزرا 8 : 17). وقد وجدت الإستغاثة آذاناً صاغية. فبعض من كانوا مترددين قرروا أخيراً أن يرجعوا. وكان جميع الذين أتوا إلى المحلة حوالي أربعين كاهناً ومئتين وعشرين من النتينيم. كانوا رجالاً أمكن لعزرا أن يعتمد عليهم كخدام حكماء ومعلمين ومساعدين صالحين.

حينئذ استعدوا جميعاً للسفر. كانت أمامهم سفرة تستغرق عدة أشهر. وقد اصطحب الرجال معهم

زوجاتهم وأولادهم وأموالهم، علاوة على كنز عظيم كان معهم لأجل الهيكل وخدمته. وكان عزرا عالماً بوجود أعداء يتربصون لهم في الطريق وهم مستعدون لأن يسلبوه أمواله هو ورفاقه ويهلكوهم، ومع ذلك فإنه لم يطلب من الملك أن يرسل معهم حراساً مسلحين لحمايتهم. فقال: "لأني خجلت من أن أطلب من الملك جيشاً وفرساناً لينجدونا على العدو في الطريق لأننا كلمنا الملك قائلين إن يد إلهنا على كل طالبيه للخير وصولته وغضبه على كل من يتركه" (عزرا 8 : 22).

وقد رأى عزرا ورفاقه في هذا الأمر فرصة لتعظيم اسم الله أمام الأمم الوثنيين. فالإيمان بقدرة الإله الحي يتقوى إذا كان بنو إسرائيل أنفسهم يجاهرون الآن بإيمانهم الوطيد بقائدهم الإلهي. ولهذا فقد عولوا أن يلقوا اعتمادهم عليه بالتمام. فلم يريدوا أن يطلبوا حراساً من الجنود. ولم يريدوا أن [492] يعطوا الوثنيين مجالاً لأن ينسبوا لقوة الإنسان المجد الذي هو من حق الله وحده. ولم يريدوا أن يثيروا في عقول أصدقائهم الوثنيين أي شك بخصوص اعتمادهم الخالص على الله كشعبه. فالقوة لا يمكن أن تنال بالمال ولا بقوة الوثنيين وتأثيرهم بل برضى الله ورحمته. لم يكن يمكن حمايتهم إلا بهذه الوسيلة ألا وهي ألا تبرح شريعة الله عن عيونهم وأن يجتهدوا في حفظها.

إن معرفة الشروط التي بموجبها كان يمكنهم أن يظلوا متمتعين بتعضيد يد الله التي أنجحتهم وأضفت على خدمة التكريس التي قام بها عزرا ورفاقه الأمناء قبل رحيلهم، وقار غير عادي. وقد أعلن عزرا عن اختياره قائلاً: "ناديت هناك بصوم على نهر أهوا لكي نتذلل أمام إلهنا لنطلب منه طريقاً مستقيمة لنا ولأطفالنا ولكل ما لنا". "فصمنا وطلبنا ذلك من إلهنا فاستجاب لنا" (عزرا 8 : 21، 23).

ومع ذلك فإن بركة الله لم تجعل استخدام الحكمة والتبصر أمراً غير لازم. فقد عمل عزرا احتياطاً خاصاً لأجل حراسة الذخائر الثمينة التي معه. وقال في ذلك: "أفرزت من رؤساء الكهنة اثني عشر" ــــ وكانوا رجالاً برهنوا على أمانتهم وولائهم ــــ "ووزنت لهم الفضة والذهب والآنية تقدمة بيت إلهنا التي قدمها الملك ومشيروه ورؤساؤه وجميع إسرائيل الموجودين". وقد أوصى هؤلاء الرجال بكل وقار أن يكونوا يقظين على تلك الذخائر المودعة بين أيديهم لحراستها. وقد أعلن عزرا قائلاً لهم: "أنتم مقدسون للرب والآنية مقدسة والفضة والذهب تبرع للرب إله آبائكم. فاسهروا واحفظوها حتى تزنوها أمام رؤساء الكهنة واللاويين ورؤساء آباء إسرائيل في أورشليم في مخادع بيت الرب" (عزرا 8 : 24، 25، 28، 29). [493]

إن الحرص الذي أبداه عزرا لضمان نقل ذخائر الرب وسلامتها يعلمنا درساً يستحق أن نتمعنه ونفكر فيه. فالذين اختبرت أمانتهم هم وحدهم الذين انتخبوا. وقدمت لهم تعليمات واضحة بخصوص التبعة الملقاة عليهم. إن عزرا إذ عين موظفين أمناء ليكونوا خزنة موثوقاً بها لذخائر الرب اعترف بلزوم وأهمية النظام والترتيب في علاقتهما بعمل الله.

وفي أثناء الأيام القليلة التي فيها انتظر أولئك المسافرون عند النهر أعدوا كل ما تتطلبه تلك الرحلة الطويلة من استعدادات ومؤونة وتدبيرات احتياطية. وقد كتب عزرا يقول: "ثم رحلنا من نهر أهوا في الثاني عشر من الشهر الأول لنذهب إلى أورشليم. وكانت يد إلهنا علينا فأنقذنا من يد العدو الكامن على الطريق" (عزرا 8 : 31). وقد استغرقت تلك الرحلة حوالي أربعة أشهر لأن ذلك الجمع السائر مع عزرا، وكان يبلغ عددهم عدة آلاف بما في ذلك النساء والأولاد، جعل من اللازم لهم أن يسيروا ببطء. ولكن الجميع حفظوا سالمين. فقد منع أعداؤهم من إيقاع الأذى بهم. كانت رحلة ناجحة، وفي اليوم الأول من الشهر الخامس في السنة السابعة من ملك أرتحشستا وصلوا إلى أورشليم. [494]

الفصل الحادي والخمسون—— انتعاش روحي

وصل عزرا إلى أورشليم في الوقت المناسب حيث كانت ثمة حاجة عظمى إلى حضوره المؤثر. وقد ألهم مجيئه الشجاعة والرجاء لقلوب كثيرة كانت تكدّ وتتعب في الخدمة في ظروف شاقة. وكان قد أنجز عمل كثير منذ عاد أول فوج من المسبيين تحت قيادة زربابل ويهوشع منذ أكثر من سبعين سنة، كان الهيكل قد تمّ بناؤه وكانت أسوار المدينة قد رممت بعض أجزائها. ومع ذلك فقد بقي عمل كثير ناقصاً.

كان بين العائدين إلى أورشليم في السنين السالفة كثيرون ممن ظلّوا أمناء لله مدى حياتهم، ولكن غابت عن أنظار عدد غفير من الأبناء وأبناء الأبناء قدسية شريعة الله. حتى بعض الذين أوكلت إليهم مسؤوليات كانوا يعيشون في خطايا علنية، وكان تصرفهم من أكبر العوائق في إبطال تأثير الجهود التي بذلها آخرون لتقدّم عمل الله، لأنه طالما سمح للفضائح وانتهاك الشريعة أن تستمر دون توبيخ فإن بركة الله لم تكن لتحل على الشعب.

وكان من تدبير عناية الله الحكيمة أن من قد رجعوا مع عزرا كانت لديهم فرصة خاصة لطلب الرب. وقد علّمتهم الاختبارات التي جازوا فيها منذ عهد قريب وهم في طريق عودتهم من بابل بدون حماية من أية قوة بشرية، دروساً روحية ثمينة. فإذ اختلط الذين تقووا في الإيمان بالضعفاء والخائري العزيمة والعديمي [495] الإكتراث في أورشليم، كان تأثيرهم عاملاً فعالاً في الإصلاح الذي تمّ بعد ذلك بقليل.

ففي اليوم الرابع من وصولهم، سلّم الذين أودعت في أيديهم ذخائر الذهب والفضّة والأواني المخصصة لخدمة المقدس، إلى أيدي خدّام الهيكل على يد شهود وبدقة متناهية. وامتحن كل شيء: "بالعدد والوزن" (عزرا 8 : 34).

أما بنو السبي الذين رجعوا مع عزرا فقد: "قربوا محرقات الإله إسرائيل" ذبيحة خطيئة وكعلامة لشكرهم وحمدهم على حراسة الملائكة القديسين لهم في أثناء رحلتهم. "وأعطوا أوامر الملك لمرازبة الملك وولاة عبر النهر فأعانوا الشعب وبيت الله" (عزرا 8 : 35، 36).

وتقدّم بعد ذلك بوقت قصير بعض رؤساء إسرائيل إلى عزرا بشكوى خطيرة. ذلك أن بعضاً من "شعب إسرائيل والكهنة واللاويين" قد استخفوا بأوامر الرب المقدسة إلى حد أنهم صاهروا الشعوب المحيطة بهم. إذ "اتّخذوا من بناتهم لأنفسهم ولبنيهم". هكذا قيل لعزرا "واختلط الزرع المقدس بشعوب البلدان الوثنية" "وكانت يد الرؤساء والولاة في هذه الخيانة" (عزرا 9 : 1، 2).

لقد أدرك عزرا وهو يتدارك الأسباب التي أدّت إلى السبي البابلي أن ارتداد الشعب يرجع بالدرجة الأولى إلى اختلاطهم بالأمم الوثنية. وقد رأى أنهم لو أطاعو ا أمر الله بالانفصال عن الأمم المحيطة بهم لكانوا وفروا على أنفسهم كثيراً من الاختبارات المحزنة المذلة. فلما علم الآن أنه بالرغم من الدروس والعبر التي أصابتهم في الماضي، تجرأ بعضاً من ذوي المكانة على انتهاك الشرائع المُعطاة لهم لتقيهم من الارتداد، احتدّت روحه فيه. وإذ فكر في صلاح الله الذي أعطى لشعبه من جديد مكاناً ثابتاً في وطنهم، استولى عليه غضب مقدّس، وحزن [496] جداً بسبب جحودهم. و ها هو يقول: "فلما سمعت بهذا الأمر

مزقت ثيابي وردائي ونتفت شعر رأسي وذقني وجلست متحيراً.

فاجتمع إلي كل من ارتعد من كلام إله إسرائيل من أجل خيانة المسبيين وأنا جلست متحيراُ إلى تقدمة المساء" (عزرا 9 : 3، 4).

وعند تقدمة المساء قام عزرا بعد أن مزق ثيابه ورداءه مرة أخرى وجثا على ركبتيه وألقى بحمل نفسه على الله في تضرّع رفعه إلى السماء. وبسط يديه إلى الرب قائلاً: "اللهم إني أخجل وأخزى من أن أرفع يا إلهي وجهي نحوك لأن ذنوبنا قد كثرت فوق رؤوسنا وآثامنا تعاظمت إلى السماء".

وقد استطرد ذلك المصلي يقول: "منذ أيام آبائنا نحن في إثم عظيم إلى هذا اليوم. ولأجل ذنوبنا قد دُفعنا نحن وملوكنا وكهنتنا ليد ملوك الأراضي للسيف والسبي والنهب وخزي الوجوه كهذا اليوم. والآن كلحيظة كانت رأفة من لدن الرب إلهنا ليبقى لنا نجاة ويعطينا وتداُ في مكان قدسه لينير إلهنا أعيننا ويعطينا حياة قليلة في عبوديتنا. لأننا عبيد نحن وفي عبوديتنا لم يتركنا إلهنا بل بسط علينا رحمته أمام ملوك فارس ليعطينا حياة لنرفع بيت إلهنا ونقيم خرائبه وليعطينا حائطاُ في يهوذا وفي أورشليم.

"والآن فماذا نقول يا إلهنا بعد هذا لأننا قد تركنا وصاياك التي أوصيت بها عن يد عبيدك الأنبياء .. وبعد كل ما جاء علينا لأجل أعمالنا الرديئة وآثامنا العظيمة لأنك قد جازيتنا يا إلهنا أقل من آثامنا وأعطيتنا نجاة كهذه. أفنعود ونتعدى وصاياك ونصاهر شعوب هذه الرجاسات؟ أيها الرب إله إسرائيل أنت بار لأننا بقينا ناجيب كهذا اليوم. ها نحن أمامك في آثامنا لأنه ليس لنا أن نقف أمامك من أجل هذا" (عزرا 9 : 6 — 15). [497]

إن حزن عزرا وزملائه على الشرور التي زحفت خلسة وبمكر إلى قلب عمل الرب أنشأ توبة. فكثيرون ممن قد أخطأوا تأثروا تأثراً عميقاً. "الشعب بكى بكاء عظيماً" (عزرا 10 : 1). وقد بدأوا يتحققون، بدرجة محدودة، من شناعة الخطيئة ومن الرعب الذي ينظر به الرب إليها. وقد رأوا قدسية الشريعة التي تكلّم الله بها من سيناء، وكثيرون منهم ارتعبوا وهم يفكرون في تعدياتهم.

وكان بين الحاضرين رجل اسمه شكنيا، هذا الرجل اعترف بصدق ما أعلنه عزرا وقال: "إننا قد خنّا إلهنا واتّخذنا نساء غريبة من شعوب الأرض. ولكن الآن يوجد رجاء لإسرائيل في هذا". ثم إقترح شكنيا أن كل من تعدّوا على أوامر الله يقطعون معه عهداً بأن يتركوا خطاياهم وأن يحاكموا "حسب الشريعة". ثم قال لعزرا: "ثم فإن عليك الأمر ونحن معك. تشجع .. فقام عزرا واستحلف رؤساء الكهنة واللاويين وكل إسرائيل أن يعملوا حسب هذا الأمر" (عزرا 10 : 2 — 5).

كان هذا بدء إصلاح عجيب فبصبر ولباقة لا محدودين، وبحرص على مراعاة حقوق كل الأفراد المقصودين وخيرهم، حاول عزرا وزملاؤه أن يرشدوا التائبين في إسرائيل في طريق الحق والصواب. لقد كان عزرا معلّما للشريعة أعظم من كل الباقين، وإذ باشر بنفسه فحص كل حالة، حاول أن يطبع على قلوب الشعب وعقولهم قدسية هذه الشريعة والبركات التي ستكون من نصيب المطيعين.

وأينما اشتغل عزرا أو خدم كان يحدث إنتعاش وكان الشعب ينهض لدراسة الأسفار المقدسة. وقد أقيم معلمون لتعليم الشعب فتمجدت شريعة الرب وأكرمت. وفحص الناس أسفار الأنبياء وفتشوها باهتمام، وقد جلبت الفصول المنبئة بمجيء المسيا الرجاء والعزاء لنفوس كثيرة حزينة ومعيية. [498]

ولقد مر الآن ما يزيد على ألفي عام منذ "هيأ عزرا قلبه لطلب شريعة الرب والعمل بها" (عزرا 7 : 10). ومع ذلك فإن مرور الزمن لم يقلل من مثاله التقي الممتاز. فعلى مدى القرون كان سجل حياة التكريس التي عاشها ملهماً لكثيرون بأن يزعموا على "طلب شريعة الرب والعمل بها".

كانت بواعث عزرا سامية ومقدسة، ففي كل ما عمله كان مدفوعاُ بدافع المحبة العميقة للنفوس. أما

الحنان والرقة اللذين أبداهما نحو الخطاة سواء أخطأوا متعمدين أو لا، فينبغي أن يكونا درساً يتعلمه كل من يحاول القيام بإصلاح. على خدام الله أن يكونوا ثابتين كالصخر في تعاملهم مع مبادئ الحق، ومع ذلك يتعين عليهم إبداء العطف والاحتمال، وأن يفعلوا ما فعله عزرا بتعليم العصاة طريق الحياة و تلقينهم مبادئ الحق والصواب.

وفي عصرنا الراهن يحاول الشيطان أن يعمي عيون الرجال والنساء في هذا العالم بوسائله العديدة عن رؤية مطالب شريعة الله المُلزمة بحيث توجد حاجة ماسة لرجال يجعلون الناس "يخشون وصية إلهنا" (عزرا 10 : 3). كما توجد حاجة إلى مُصلحين حقيقيين أمناء يوجهون أنظار العصاة إلى المُشرّع الأعظم ويعلّمونهم أن "ناموس الرب كامل يرد النفس" (مزمور 19 : 7). الحاجة الماسة إلى رجال مقتدرين في الكتب، ليعظموا شريعة الرب في كل كلمة ينطقون بها وكل عمل يعملونه، رجال يجتهدون في تقوية الإيمان. أجل! الحاجة ماسة إلى أمثال هؤلاء المعلّمين الذين يلهمون القلوب بالتوقير والمحبة لكتاب الله.

إن الإثم المنتشر والمتفشي في كل مكان يمكن أن ينسب إلى حد كبير إلى إهمال دراسة كلمة الله وإطاعتها. لأنه عندما تلقى الكلمة جانباً، فإن قوتها على [499] كبح الأهواء الشريرة الرابضة في القلب تُرفض. والناس الذين يزرعون للجسد فساداً.

فإذ أهمل الكتاب المقدس جاء في إثر ذلك الارتداد عن شريعة الله. إن الاعتقاد القائل بأن الناس معفون من الطاعة لوصايا الله قد أضعف من قوة الالتزام الأدبي وجعل العالم يغرق في طوفان من الشر. فالتمرّد والإسراف والفساد يزحف على العالم كسيل جارف. وقد عمّ الحسد في كل مكان، كما عمّت الظنون الردئية والرياء والبغض والتنافس والخصومات والخيانة في الودائع المقدسة والانغماس في الشهوات. وإن صرح المبادئ الدينية والعقائد الراسخة الذي ينبغي أن يكون أساس الحياة الاجتماعية ودعامتها الكبرى، يبدو وكأنه صار كتلة متداعية موشكة على الإنهيار.

مازال الصوت الذي تكلّم من سيناء يعلن في أواخر أيام تاريخ هذا العالم قائلاً: "لا يكن لك آلهة أخرى أمامي" (خروج 20 : 3). لقد جعل الإنسان إرادته على نقيض إرادة الله ولكنه يعجز عن إسكات كلمة الأمر الإلهي والعقل البشري لا يستطيع التهرب من حقيقة كونه مسؤولاً أمام قوة أسمى. قد تتكاثر النظريات والتخمينات ويحاول الناس أن يقيموا التناقض بين العلم والإعلان الإلهي للاستغناء عن شريعة الله أو إهمالها ومع ذلك فأمر الرب يأتيهم بأشد قوة قائلاً: "للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد" (متى 4 : 10).

لا يوجد في الواقع ما يسمى إضعاف شريعة الرب أو تقويتها فكما كانت كذلك تكون. فهي كانت وستظل دائماً مقدسة وعادلة وصالحة وكاملة في ذاتها ولا يمكن نسخها أو إبطالها أو إبدالها. "فإكرامها" أو "إحتقارها" إنما هو فقط بعض كلام الناس. [500]

وستنشب المعركة الأخيرة العظيمة في الصراع بين الحق والضلال، بين قوانين الناس ووصايا الرب. ونحن مشتركون الآن في هذه المعركة — وهي ليست معركة بين كنائس متنابذة متنافسة في طلب السيادة، بل بين ديانة الكتاب وديانة الخرافات والتقاليد والبدع. والقوات التي قد اصطفّت ضد الحق هي الآن دائبة على عملها بكل نشاط. فكلمة الله المقدسة التي وصلت إلى أيدينا بهذا الثمن الفاضح وهذه الكلفة العظيمة من الآلام وسفك الدماء قلما يقدرها الناس التقدير اللائق بها. وقليلون هم الذين يقبلونها على أنها قانون الحياة. فالإلحاد منتشر ومتفش بدرجة مفزعة ليس في العالم فحسب بل في الكنيسة أيضاً. لقد اجترأ كثيرون على إنكار التعليم التي هي أعمدة العقيدة المسيحية بالذات. فحقائق الخلق العظيمة كما أوردها الكتبة الملهمون، وسكوت الإنسان، والكفارة ودوام شريعة الله — هذه كلها ينكرها قسم كبير من العالم المعترف علانية بالمسيحية. وآلاف ممن يفتخرون بعلمهم يعتبرون الثقة التامة في الكتاب المقدس دليلاً

على الضعف، وإن من البراهين على العلم الغزير كون الإنسان يكابر ويماحك في أقوال الله ويفسرها تفسيراً روحانياً بحيث يفقدها أهم حقائقها.

على المسيحيين أن يكونوا متأهبين لما سيُباغت به العالم سريعاً، هذا الاستعداد يتم من خلال دراستهم لكلمة الله باجتهاد وجعل حياتهم وتصرفاتهم متوافقة مع وصاياهم. إن أحداث الأبدية الهائلة تتطلب منا شيئاً أعظم من الديانة النظرية، ديانة الأقوال والرسميات والطقوس بينما يظل الحق بعيداً في الدار الخارجية. إن الله يدعوا إلى الانتعاش والإصلاح. فينبغي ألا تسمع من على المنبر غير أقوال الكتاب وحدها. ولكن الكتاب تمّ تجريده من قوته، والنتيجة لذلك ترى في تخفيض مستوى الحياة الروحية. ففي كثير من العظات التي تُلقى [501] في هذه الأيام لا يوجد ذلك الإعلان الإلهي الذي يوقظ الضمير ويحيي النفس. ولا يستطيع السامعون أن يقولوا: "ألم يكن قلباً ملتهباً فينا إذ كان يكلّمنا في الطريق ويوضّح لنا الكتاب؟" (لوقا 24 : 32). يوجد كثيرون ممن يستغيثون مستنجدين بالإله الحي متعطشين إلى حضوره. لتتحدّث كلمة الله إ القلب، وليهتم الذين لم يسمعوا غير التقاليد والمبادئ والحكمة البشرية، بسماع صوت الله الذي يستطيع أن يجدد النفس للحياة الأبدية.

لقد انبثق نور عظيم من الآباء والأنبياء وقيلت أقوال مجيدة عن صهيون، مدينة الله. وهكذا يريد الرب أن يشرق نوره بواسطة تابعيه اليوم. فإذا كان قديسو العهد القديم قد شهدوا عن الولاء مثل هذه الشهادة المجيدة، أفما ينبغي للذين يشرق عليهم نور المجتمع مدى قرون طويلة أن يقدّموا شهادة أعظم وأشهر لقوة الحق؟ إن النبوات المجيدة تُسلّط نورها على طريقنا. فلقد التقى الرمز بالمرموز إليه في موت ابن الله. وقد قام المسيح من الأموات منادياً من فوق القبر المفتوح قائلاً: "أنا هو القيامة والحياة" (يوحنا 11 : 25). وقد أرسل روحه إلى العالم ليذكرنا بكل شيء وبواسطة معجزة من معجزات قوته حفظ الكلمة المكتوبة ندى العصور.

إن المصلحين الذين منحنا احتجاجهم اسم بروتستانت، أحسّوا بأن الله قد دعاهم لتوصيل نور الإنجيل للعالم. وفيما كانوا يقومون بهذا المسعى كانوا على أتمّ استعداد للتضحية بثرواتهم وحريتهم وحتى حياتهم نفسها. وفي وجه الاضطهاد والموت نودي بالإنجيل في كل مكان. ووصلت كلمة الله إلى الشعوب وشرع الناس من كل الطبقات بدرس كلمة الله بكل شوق ولهفة: العال والدون، الأغنياء والفقراء، العلماء والجهلاء. فهل نحن في هذه المعركة الأخيرة من [502] معارك الصراع الهائل أمناء على الوديعة المسلّمة لنا كما كان المصلحون الأولون أمناء نحو وديعتهم؟

" اضربوا بالبوق في صهيون قدّسوا صوماً نادوا باعتكاف اجمعوا الشعب قدّسوا الجماعة احشدوا الشيوخ اجمعوا الأطفال.. ليبك الكهنة خدام الرب بين الرواق والمذبح ويقولوا اشفق يا رب على شعبك ولا تسلم ميراثك للعار" "ارجعوا إلي بكل قلوبكم وبالصوم والبكاء والنوح. ومزقوا قلوبكم لا ثيابكم وارجعوا إلى الرب إلهكم لأنه رؤوف رحيم بطيء الغضب وكثير الرأفة ويندم على الشر. لعله يرجع ويندم فيبقي وراءه بركة؟" (يوئيل 2 : 15 — 17، 12 — 14).

[503] * * * * *

الفصل الثاني والخمسون— رجل الفرص

(يعتمد هذا الفصل على ما ورد في نحميا 1، 2).

كان نحميا أحد المسبيين العبرانيين، يشغل مركزاً ذا نفوذ وكرامة في البلاط الفارسي. فإذ كان ساقياً للملك كان مسموحاً له بالمثول في حضرته بكل حرية. ولفضل مركزه ومواهبه وولائه صار له صديقاً ومشيراً. ومع ذلك فإن نحميا الذي ظفر برضى الملك وتمتع بإحساناته، لم ينسى إلهه وشعبه بالرغم من إحاطته بمظاهر الفخامة والجلال والبهاء. فاتّجه قلبه باهتمام عميق صوب أورشليم إذ ارتبطت آماله وأفراحه بنجاحها. وقد قصد الله أن يمنح شعبه البركة في أرض آبائهم بواسطة هذا الرجل الذي نال الاستعداد أثناء وجوده في بلاط فارس للاضطلاع بالعمل الذي دُعي إليه.

ثم أنه أحيط علماً من الرسل القادمين من اليهودية أن أورشليم تمرّ في ظروف عصيبة. فكان المسبيون الذين رجعوا، يقاسون شرّ المحن والبلايا والعار. كان الهيكل وبعض أجزاء من المدينة قد أعيد بناؤها ولكن العمل تعطل وكذلك خدمات الهيكل، وكان الشعب يعاني من الخوف المستمر لأن الجزء الأكبر من المدينة متهدماً. [504]

فإذ غمر الحزن قلب نحميا لم يستطيع أن يأكل أو يشرب بل "بكى وناح أياماً وصام" وفي حزنه اتّجه بقلبه إلى المعين الإلهي فقال: "صلّيت أمام إله السماء". واعترف بكل أمانة بخطاياه وخطايا شعبه وتوسّل إلى الله طالباً منه أن يؤيّد قضية شعبه ويعيد إليهم شجاعتهم ويعينهم لإقامة خرب يهوذا.

وإذ كان نحميا يصلّي بقوة إيمانه وزادت شجاعته وامتلأ فمه بالحجج المقدسة فأشار إلى الإهانة التي قد تصيب الله إذا كان شعبه يُتركون فريسة للضعف والظلم بعدما رجعوا إليه. ثم ألحّ على الله لإتمام وعده القائل: "إن رجعتم إلي وحفظتم وصاياي وعملتموها، إن كان المنفيون منكم في أقصاء السموات فمن هناك أجمعهم وآتي بهم إلى المكان الذي اخترت لإسكان اسمي فيه" (نحميا 1 : 9 ؛ أنظر تثنية 4 : 29 — 31). لقد أعطي هذا الوعد للشعب على يد موسى قبل دخولهم كنعان. وظلّ الوعد ثابتاً لم يتغير مدى قرون طويلة والآن إذ رجع شعب الله إليه بتوبة وإيمان فلم يخيب وعده.

وكثيراً ما كان نحميا يسكب قلبه في الصلاة لأجل شعبه. أما الآن ففيما كان يصلّي برز في ذهنه غرض مقدس. فقد عزم أنه إذا أمكنه الحصول على رضى الملك وعلى المعونة الضرورية في تدبير المواد اللازمة فسيشرع هو بنفسه في بناء أسوار أورشليم من جديد، معيداً بذلك القوة القومية لشعبه. وقد سأل الرب لمنحه رحمة أمام الملك ليتمّ تنفيذ هذه الخطة فتوسل قائلاً: "أعط النجاح اليوم لعبدك وامنحه رحمة أمام هذا الرجل" (نحميا 1 : 11).

وظلّ نحميا أربعة أشهر ينتظر فرصة مواتية ليتقدّم بطلبه إلى الملك. وفي هذه الأثناء حاول أن يتجلّد ويبدو فرحاً في حضرة الملك رغم أنه كان مثقل القلب. ففي تلك القصور التي كان يتجلّى فيها الترف والعظمة والجلال كان يتعيّن على [505] من يوجدون فيها أن يكونوا فرحين سعداء وألا يرى الضيق أو الحزن مرتسماً على وجه أي واحد من حاشية الملك. أما عندما يكون نحميا في ساعات راحته بعيداً عن

عيون الناس فكثيراً ما كان يصلي ويعترف ويبكي بدموع غزيرة، وكان الله وملائكته يرونه ويسمعونه.

أخيراً لم يستطيع نحميا المحبّ لوطنه أن يتحمّل ثقل الحزن الذي كان يجثم على صدره. فلقد تركت ليالي الأرق والهم والأحزان أثارها على وجهه. فإذ كان الملك يغار على سلامة نفسه كان معتاداً على تصفح الوجوه وفضح التصنع والتنكر فرأى أن اضطراباً خفياً كان يحتدم في نفس ساقيه فسأله قائلاً: "لماذا وجهك مكمد وأنت غير مريض؟ ما هذا إلا كآبة قلب؟".

ملأ هذا السؤال قلب نحميا رعباً. أليس مما يغضب الملك أن يسمع أن ساقيه الموظف في بلاطه كان منشغلاً حسب الظاهر في خدمته بينما كانت أفكاره منصرفة عنه في شعب الله المتضايق؟ ألا يخسر ذلك المذنب حياته فيقضي عليه بالموت؟ وهل ستنهار خطته المحبوبة لإعادة قوة أورشليم؟ ها هو يكتب قائلاً: "فخفت كثيراً جداً". فبشفتين مرتعشتين وعينين دامعتين كشف عن سبب حزنه فقال: "ليحيا الملك إلى الأبد. كيف لا يكمد وجهي والمدينة بيت مقابر آبائي خراب وأبوابها قد آكلتها النار؟" (نحميا 2 : 2 — 3).

وقد أيقظ سرد حاله أورشليم، العطف في قلب الملك ولم يثر تعصبه. وقدّم سؤال الملك الآخر لنحميا الفرصة السانحة التي كان ينتظرها. فسأله قائلاً: "ماذا طالب أنت؟" ولكن رجل الله لم يجرؤ على التقدّم بطلبه إلا بعدما طلب الإرشاد من الرب الذي هو أعظم من ارتحشستا. كانت لديه وديعة مقدسة ليتممها وتتطلب مساعدة الملك. وقد أدرك أن كل شيء موقوف على بسط المسألة [506] بكيفية تجعله يظفر برضى الملك واستحسانه فيقدّم له المساعدة. فقال: "فصلّيت إلى إله السماء" (نحميا 2 : 4). وفي تلك الصلاة القصيرة اندفع نحميا إلى محضر ملك الملوك مكتسباً منه قوة يمكنها أن تحول القلوب كما تتحول جداول المياه.

فكون الإنسان يصلّي كما صلّى نحميا في ساعة حاجته هو مصدر مأمون للعون يكون تحت أمر أي مسيحي يجوز في مثل هذا الظرف عندما يستحيل عليه أن يقدّم صلاة منظمة رسمية. فالكادحون في مسالك الحياة المزدحمة بالعمل والحركة عندما تتزاحم عليهم الإرتباكات وتكاد تغطي عليهم، يمكنهم أن يرفعوا صلاة إلى الله في طلب الإرشاد الإلهي. والمسافرون بحراً وبراً عندما يهددهم خطر عظيم يستطيعون أن يستودعوا أنفسهم لحراسة السماء. وفي أوقات الصعوبات أو المخاطر المفاجئة يمكن للقلب أن يرفع صرخته في طلب العون من الله الذي تعهّد بأن يأتي بنفسه لنجدة المؤمنين الأمناء كلما صرخوا إليه. ففي كل ظرف وكل حالة يمكن للنفس المثقلة بالأحزان والهموم، أو التي تهاجمها التجربة بعنف أن تجد اليقين والاسناد والنجدة في محبة الله وقدرته التي لا تخيب لأنه الإله الحافظ العهد.

استجمع نحميا في لحظة الصلاة القصيرة تلك التي قدّمها إلى ملك الملوك، أطراف شجاعته ليخبر ارتحشستا برغبته ليُعفى إلى حين من واجباته في بلاط الملك، وسأل أن تُعطى له السلطة لإقامة خرب أورشليم وليجعلها مرة أخرى مدينة قوية ومحصنّة. فلقد توقفت نتاج هامة وخطيرة للأمة اليهودية على هذا الطلب. وأعلن نحميا قائلاً: "فأعطاني الملك حسب يد إلهي الصالحة عليّ" (نحميا 2 : 8). [507]

فإذ حصل نحميا على المعونة التي طلبها تقدّم بحكمة وتبصر ليقوم بالترتيبات اللازمة لضمان نجاح المشروع. فهو لم يهمل أي احتياط يؤول إلى أنجاز العمل. ولم يكشف عن أغراضه حتى لمواطنيه. ففي حين كان يعلم أن كثيرين سيفرحون بنجاحه، كان يخشى لئلا يلجأ البعض إلى أي عمل من أعمال الطيش أو النزف الذي قد يثير غيرة أعدائهم، وربما يؤدي إلى إحباط المشروع.

وقد قبل الملك طلبه بكل رضى مما شجع نحميا لطلب مساعدات أخرى. ولكي يُكسب مأموريته سلطة وكرامة وينال الحماية في رحلته طلب أن تصحبه قوة عسكرية، فنال ما طلب. ومن ثم أعطيت له رسائل من الملك إلى ولاة الأقاليم التي في عبر الفرات، وهي المنطقة التي كان لابد من أن يمر فيها في طريقه إلى اليهودية، كما تزود برسالة إلى حارس فردوس الملك في جبال لبنان لكي يقدّم له الأخشاب التي يحتاج

إليها. ولكي لا يكون أي مجال للشكوى من أنه يتجاوز حدود مهمته، حرص نحميا للحصول على السلطة والامتيازات المطلوبة على أن يكون كل ذلك واضحاً محدداً.

إن مثال التبصّر والحكمة والعمل الحازم هذا ينبغي أن يكون درساً يتعلّمه جميع المسيحيين. يجب على أولاد الله ألا يكتفوا بالصلاة بإيمانٍ وحسب بل أن يعملوا باجتهاد وحرص وعناية. فهم سيواجهون كثيراً من الصعوبات وسيعرقلون أحياناً عمل العناية الإلهية الموجهة لخيرهم لاعتبارهم أن الفطنة وبذل الجهود لا دخل لها في الديانة إلا بقد يسير. فنحميا لم يعتبر أن عمله قد أنجز لمجرد أنه بكى وصلّى أمام الرب. بل قرن صلواته بالسعي المقدس المدروس إذ بذل جهودا جادة بروح الصلاة لأجل نجاح المشروع الذي اضطلع به. فالتأمل [508] والحرص والخطط الناضجة هي جوهرية للتقدّم بالمشاريع المقدّسة اليوم كما الأيام التي فيها أعيد بناء أسوار أورشليم.

ولم يركن نحميا إلى الشك والتخمين. فهو طلب الأشياء التي احتاجها ممن كانوا قادرين على منحه إياها. والرب ما يزال راغباً في تحريك قلوب من بيدهم أمواله لأجل قضية الحق. فالذين يخدمونه سيظفرون بالمعونة التي يحث الناس على تقديمها لهم. وقد تمهد هذه الهبات السبل التي بواسطتها يصل نور الحق إلى بلدان كثيرة يسودها الظلام. وقد لا يملك مقدمو تلك الأعطية أي إيمان بالمسيح وقد لا يكون لديهم معرفة بكلمته ولكن أعطيتهم لا يمكن أن ترفض لهذا السبب.

* * * * * [509]

الفصل الثالث والخمسون— البناؤون الذين على السور

(يعتمد هذا الفصل على ما ورد في نحميا 2 — 4).

تمت رحلة نحميا إلى أورشليم بسلام، وقد كفلت رسائل الملك إلى حكّام الأقاليم التي حملها معه قبولاً كريماً وعوناً سريعاً له. ولم يتجرأ أي عدو على إزعاج ذلك المبعوث الذي كانت تحرسه قوة ملك فارس، وعامله ولاة الأقاليم بإكرام عظيم. ومع ذلك فإن وصوله إلى أورشليم محاطاً بكتيبة من الجنود، الأمر الذي برهن على أهمية مأموريته، أثار حسد القبائل الوثنية الساكنة بقرب المدينة التي كانت تضمر العداء لليهود وتعبر عن ذلك بالإساءات والإهانات المتكرّرة التي كانت تنهال عليهم. وكان في طليعة من قاموا بتلك الأعمال الشريرة بعض زعماء تلك القبائل وهم سنبلط الحوروني وطوبيا العموني وجشم العربي. فمنذ البداية كان هؤلاء الزعماء يراقبون تحرّكات نحميا بعين الانتقاد وحاولوا بكل وسيلة ممكنة عرقلة خططه وتعطيل عمله.

وظلّت تصرّفات نحميا تتسم بالحذر والفطنة تحت تلك الظروف القاسية. فإذ كان يعلم أن الأعداء الشرسين يتهيأون لمقاومته فقد أخفى طبيعة مأموريته عنهم إلى أن يتمكن من دراسة الموقف ورسم خططه. وبذلك كان يرجو أن يظفر بتعاون الشعب ويجعله يبدأ العمل قبلما تثور مقاومة الأعداء. [510]

فإذ اختار رجالاً قليلين ممن توسم فيهم الثقة أخبرهم عن الظروف التي جاءت به إلى أورشليم، والغرض الذي كان يرجو إنجازه، والخطط التي عزم على تطبيقها. وقد أحثهم على الاهتمام بعمله وظفر على الفور بمساعدتهم.

وفي اليوم الثالث من وصوله قام نحميا في منتصف الليل وخرج مع جماعة قليلة من رفاقه الموثوق بهم ليشاهد بنفسه الخراب الذي حدث في أورشليم. وقد امتطى دابته وعبر من قسم إلى آخر من أقسام المدينة وكان يعاين أسوار مدينة آبائه المتهدّمة وأبوابها. وتزاحمت الأفكار المؤلمة في ذهنه وهو المحب لوطنه، عندما كان ينظر إلى الحصون المنهارة في أورشليم بقلب اعتصره الحزن. إن ذكريات عظمة شعبه الماضية وقفت الآن على نقيض البراهين الدامغة على إذلالهم وهوانهم.

وقد أكمل نحميا جولته حول الأسوار بتكتم وهدوء. وأعلن قائلاً: "ولم يعرف الولاة إلى أين ذهبت ولا ما أنا عامل. ولم أخبر إلى ذلك الوقت اليهود والكهنة والأشراف والولاة وباقي عاملي العمل" (نحميا 2 : 16). وقد قضى بقية تلك الليلة في الصلاة إذ كان يعلم أن الصباح التالي قد يتطلّب بذل مجهود جدّي لإيقاظ وتوحيد مواطنيه المغمومين والمنقسمين.

كان نحميا يحمل تكليفاً ملكياً يطلب فيه من السكان أن يتعاونوا معه في إعادته بناء أسوار المدينة، إلا أنه لم يكن يعتمد في ذلك على ممارسة السلطة. ولكنه حاول بالأحرى أن يظفر بثقة الشعب وعطفهم، عالماً أن ارتباط القلوب واشتراك الأيدي كان جوهرياً في العمل العظيم الذي أمامه. وعندما جمع الشعب معاً في الغد قدّم لهم حججاً سديدة كانت تعتبر كفيلة بإيقاظ قواهم الهاجعة وتوحيد صفوفهم المشتتة. [511]

لم يكن المستمعون إلى نحميا يعلمون شيئاً ولا هو أخبرهم عن جولته التي قام بها في منتصف الليلة الماضية. ولكن حقيقة كونه قام بتلك الجولة ساهمت مساهمة كبيرة في نجاحه، لأنه كان يستطيع أن يتحدّث عن حالة المدينة بدقة وإتقان أدهشا سامعيه. فالتأثير الذي انطبع على قلبه وذهنه وهو ينظر إلى ضعف أورشليم وانحطاطها أكسب أقواله حماساً وقوة عظيمين.

وقد استعرض نحميا أمام الشعب العار الذي لحقهم بين الوثنيين — والعار الذي لحق دينهم والتجاديف التي وجّهت إلى إلههم. ثم أخبرهم أنه سمع بالبلاء الذي حلّ بهم وهو في بلاد بعيدة وأنه توسّل إلى السماء طالباً الرحمة لأجلهم، وأنه عندما كان يصلّي عقد العزم على استئذان الملك في المجيء لمساعدتهم. وقد سأل الله كيلا يكتفي الملك بمنحه الإذن في المجيء بل أيضاً بتزويده بالسلطة ومنحه المعونة اللازمة لإنجاز ذلك العمل. وقد استجيبت صلاته بكيفية برهنت على أن تلك الخطّة هي فعلاً من الله.

وقد سرد عليهم كل هذا، بعد أن كشف لهم أنه مزوّد بسلطة من الله ومن الملك الفارسي معاً. ثم سألهم نحميا سؤالاً مباشراً ما إذا كانوا مستعدّين للاستفادة من تلك الفرصة لبناء السور.

وقد وصلت تلك الاستغاثة إلى قلوبهم. وهذا التفكير برحمة السماء تجاهه مخاوفهم، فقالوا بصوت واحداً بشجاعة وتصميم: "لنقم ولنبن. وشددوا أياديهم للخير".

كانت نفس نحميا بجملتها في المشروع الذي أخذه على نفسه. وكان رجاؤه ونشاطه وحماسه وعزمه سريع العدوى إذ ألهم الآخرين الشجاعة العالية والقصد [512] السامي ذاته. فصار كل إنسان هو نحميا في دوره وأعان على تشديد وتقوية قلب قريبه ويديه.

وعندما سمع أعداء اليهود ما كان يرجو اليهود إتمامه سخروا منهم قائلين: "ما هذا الاثم الذي أنتم عاملون؟ أعلى الملك تتمردون؟" (نحميا 2 : 19). فأجابهم نحميا قائلاً: "إن إله السماء يعطينا النجاح ونحن عبيده نقوم ونبني. وأما أنتم فليس لكم نصيب ولا حق ولا ذكر في أورشليم" (نحميا 2 : 20).

وكان الكهنة أول من أصيبوا بعدوى حماس نحميا وجدّه وأمكنهم بفضل النفوذ الذي كان لهم بحكم مركزهم أن يقوموا بدور كبير في تقدّم العمل أو تعطيله. وقد ساعد كثيراً تعاونهم السريع على نجاحهم في العمل عند المباشرة به. فقد جاءت الغالبية العظمى من رؤساء الشعب وحكامه وقاموا بعملهم بكل نبل وتمّموا واجبهم، ولذلك ذُكر اسم هؤلاء الرجال الأمناء بكل إكرام في كتاب الله. ولكن كان يوجد جماعة قليلة هم من نبلاء التقوعيين: "لم يدخلوا أعناقهم في عمل سيدهم" (نحميا 3 : 5). فظلّ ذكرى هؤلاء العبيد المتكاسلين الباطلين موسومة بالعار، وقد سلّمت إلينا كإنذار لكل الأجيال القادمة.

يوجد في كل حركة دينية جماعة رغم أنهم لا ينكرون أن العمل هو عمل الله فإنهم يظلّون مترفعين بأنفسهم ويرفضون بذل أي مجهود للمساعدة. وكان يحسن بهم أن يذكروا السفر المسجل في السماء الذي لا يغفل عن شيء ولا أخطاء فيه والذي سيدانون بموجب ما هو مكتوب فيه. وفي ذلك السفر مسجل لذكر أبدي، الفرص التي أهملت، وكل عمل من أعمال الإيمان والمحبة.

إن مثال تقاعس النبلاء التقوعيين لم يؤثر كثيراً في إضعاف تأثير نحميا الملهم. وكان الشعب بوجه عام يشتعل حماساً وغيرة بحب الوطن. وقد نظم رجال [513] المقدرة والنفوذ طبقات المواطنين المختلفة في جماعات، وجُعل كل قائد مسؤولاً عن ترميم قسم خاص من السور. وقد سجّل السفر المقدس عن البعض أنهم بنوا: "كل واحد مقابل بيته" (نحميا 3 : 28).

ولم تخمد جذوة نشاط نحميا بعدما بدأ العمل فعلاً. فبيقظة لا تعرف الكلل، أشرف على البناء موجًّها العمال وملاحظاً المعطّلات، كما أعدّ العدّة لمواجهة كل الطوارئ. وعلى امتداد تلك الأميال الثلاثة من السور كان الناس يحسّون بتأثيره على الدوام. وبكلامه الذي كان يقوله في وقته جعل يشجّع الخائفين

ويوقظ المقصرين والمتأخرين ويمتدح المجدّين. وكان دائماً يراقب تحركات أعدائهم الذين كانوا من حين لآخر يتجمعون على بعد وينشغلون في الحديث كما لو كانوا يتآمرون بالشر، ومن ثم يقتربون أكثر إلى أولئك العمال محاولين صرف انتباههم وتلهيهم عن العمل.

لم ينس نحميا وهو في غمرة أعماله الكثيرة نبع قوّته. فكان يرفع قلبه دائماً إلى الله الذي هو الرقيب العام على الجميع. وهتف يقول: "إله السماء يعطينا النجاح" (نحميا 2 : 20). لقد رنت تلك الكلمات وتردد صداها فاهتزت لها قلوب كل العاملين على السور.

ولكن إقامة حصون أورشليم لم تتقدّم بدون مقاومة، كان الشيطان يعمل على إثارة المقاومة وإضعاف العزائم. فإن سنبلط وطوبيا وجشم الذين هم أكبر أعوانه في هذه الحركة اتّحدوا معاً لتعطيل عمل البناء. فقد حاولوا إحداث إنشقاق بين العاملين. كانوا يسخرون من جهود البنائين، وأعلنوا استحالة إنجاز ذلك المشروع وتنبأوا بفشله. [514]

فصاح سنبلط يقول ساخراً: "ماذا يعمل اليهود الضعفاء؟ هل يتركونهم (هل يحصنون أنفسهم ببناء السور — الترجمة التفسيرية) .. هل يحيون الحجارة من كوم التراب وهي محرقة؟". أما طوبيا فقد زاد من سخريته واحتقاره قائلاً: "إن ما يبنونه إذا صعد ثعلب فإنه يهدم حجارة حائطهم" (نحميا 4 : 2، 3).

كان البناؤون الآن محاطين بمقاومة نشطة وقوية. واضطروا أن يلزموا جانب التحفظ المستمر من مؤامرات أعدائهم الذين مع كونهم تظاهروا بالمحبة والصداقة، حاولوا بوسائل مختلفة أن يحدثوا التشويش والارتباك ويثيروا الشكوك. كما حاولوا تبديد شجاعة اليهود، ودبّروا مؤامرات لاجتذاب نحميا وإيقاعه في حبائلهم. أما اليهود الخونة فكانوا مستعدّين للتعاون في ذلك العمل الغادر. وقد انتشر خبر كاذب مفاده أن نحميا يتآمر ضدّ فارس إذ يحاول أن يجعل نفسه ملكاً على إسرائيل. وأن جميع أعوانه خونة.

ولكن نحميا ظلّ متجهاً بقلبه إلى الله في طلب العون والإرشاد: "وكان للشعب قلب في العمل" (نحميا 4 : 6). وقد تقدّم ذلك المشروع إلى أن سدّت الثغرات وارتفع السور كله إلى منتصف علوّه المطلوب.

وعندما رأى أعداء إسرائيل عدم جدوى محاولاتهم امتلأوا غضباً. لم يكونوا إلى ذلك الحين قد لجأوا إلى الإجراءات العنيفة لأنهم كانوا يعلمون أن نحميا ورفاقه إنما يعملون بموجب تكليف من الملك. أما الآن فقد أوقعوا أنفسهم في الجريمة التي كانوا يلصقونها بنحميا بسبب غضبهم. فإذ اجتمعوا للمشاورة: "تآمروا جميعهم معاً أن يأتوا ويحاربوا أورشليم" (نحميا 4 : 8). [515]

وفي نفس الوقت الذي كان السامريون فيه يتآمرون ضد نحميا وضد عمله إذ بجماعة من رؤساء اليهود العديمي الاهتمام حاولوا تثبيط العزائم بمبالغتهم في تضخيم الصعوبات التي تعترض المشروع إذ قالوا: "قد ضعفت قوة الحمّالين والتراب كثير ونحن لا نقدر أن نبني السور" (نحميا 4 : 10).

ثم جاءت المثبطات أيضاً من ناحية أخرى. ذلك أن "اليهود الساكنين بجانبهم" (نحميا 4 : 12). الذين لم يشاركوهم في العمل جمّعوا بيانات الأعداء وتقاريرهم واستخدموها في إضعاف شجاعة الشعب وخلق الجفاء.

ولكن التعيير والهز والمقاومة والتهديد بدا كأنها تلهم نحميا بتصميم أشدّ وأثبت وتجعله أكثر يقظة وحذراً. وقد اعترف بالمخاطر التي لابد من مواجهتها في حربه مع أعدائه ولكن شجاعته لم تضعف. وها هو يقول: "فصلينا إلى إلهنا وأقمنا حراساً ضدّهم نهاراً وليلاً". "فأوقفت الشعب من أسفل الموضع وراء السور وعلى القمم، أوقفتهم حسب عشائرهم بسيوفهم ورماحهم وقسيهم. ونظرت وقمت وقلت للعظماء والولاة ولبقية الشعب لا تخافوهم بل اذكروا السيد العظيم المرهوب وحاربوا من أجل إخوتكم وبنيكم وبناتكم ونسائكم وبيوتكم.

”ولما سمع أعداؤنا أننا قد عرفنا وأبطل الله مشورتهم، رجعنا كلّنا إلى السور كل واحد إلى شغله. ومن ذلك اليوم كان نصف غلماني يشتغلون في العمل ونصفهم يمسكون الرماح والأتراس والقسى والدروع .. البناؤون على السور بنوا، وحاملوا الأحمال حملوا، باليد الواحدة يعملون العمل وبالأخرى يمسكون السلاح. وكان البانون يبنون وسيف كل واحد مربوط على جنبه“ (نحميا 4 : 9 ؛ 13 — 17). [516]

وإلى جانب نحميا كان يقف النافخ بالبوق، وعلى أجزاء السور المختلفة وقف الكهنة حاملين الأبواق المقدسة. وقد تفرّق الشعب لمباشرة أعمالهم، ولكن عند اقتراب الخطر من أي نقطة أعطيت لهم إشارة ليتوجهوا إلى هناك بلا إبطاء. وها هو نحميا يقول: ”فكنّا نحن نعمل العمل وكان نصفهم يمسكون الرماح من طلوع الفجر إلى ظهور النجوم“ (نحميا 4 : 21).

أما من كانوا يسكنون في المدن والقرى خارج أورشليم فقد طلب منهم الآن أن يسكنوا في داخل الأسوار لكي يحرسوا العمل ولكي يكونوا مستعدين للقيام بواجبهم في الصباح. فهذا من شأنه أن يمنع أي تأخير لا مبرر له. ويُضيّع على العدو الفرصة التي لولا ذلك لكان يغتنمها لمهاجمة العمّال في ذهابهم إلى بيوتهم وخروجهم منها. ولم يتراجع نحميا ولا رفاقه أمام المشقّات أو الخدمة المتعبة. فلم يخلعوا ثيابهم لا في الليل ولا في النهار ولا حتى في أثناء فترة الراحة والنوم القصيرة، ولا نزعوا عنهم سلاحهم.

إن المقاومة وتثبيط الهمم التي لاقاها البناؤون في عهد نحميا من الأعداء المجاهرين بعداوتهم وممن كانوا يتظاهرون بالصداقة، هي رمز للاختبار الذي لابد أن يجتازه من يخدمون الله في هذه الأيام. فالمسيحيون يُمتحنون ليس فقط بالغضب والاحتقار والقسوة التي يبديها لهم الأعداء بل أيضاً بالبلادة والكسل والتذبذب وعدم الثبات والفتور والخيانة التي يبديها من يتظاهرون بالصداقة والمعاونة. فالهزء والعار يدمانهم. والعدو ذاته الذي يقود إلى الازدراء والاحتقار يتحين الفرصة السانحة ليستخدم إجراءات أشد قسوة وعنفاً.

إن الشيطان ينتفع بكل عنصر غير مكرّس لإتمام أغراضه. ويوجد بين من يعترفون بأنهم يقصدون تعضيد عمل الله جماعة ينضمون إلى أعدائه ويجعلون [517] عمله معرضاً لهجمات يُضعفون أيدي خدّامه بكونهم يسمعون وينشرون ويصدقون بعض الشائعات والوشايات والتهديدات التي يذيعها أعداؤه. فالشيطان يعمل بنجاح مدهش عن طريق أعوانه. وكل من يخضعون لتأثيرهم يصيرون عرضة لقوة ساحرة تقضي على حكمة الحكماء وفهم الفهماء. ولكن على شعب الله أن يكونوا كنحميا لا يخافوا أعداءهم ولا يستخفون بهم. فإذ يلقون رجاءهم على الله عليهم أن يتقدّموا إلى الأمام بثبات عاملين عمله في غير أنانية ومسلمين لعنايته العمل الذي يقفون إلى جانبه.

لقد جعل نحميا الله متّكله في وسط الخوف الشديد كما جعله حصنه الحصين. وذاك الذي كان عضده عبده آنذاك صار معتمداً لشعبه في كل عصر. ففي الأزمات يمكن لشعبه أن يقولوا بكل ثقة: ”إن كان الله معنا فمن علينا؟“ (رومية 8 : 31). مهما يكن المكر والدهاء الذي به يحيك الشيطان وجنوده مؤامراتهم يمكن لله أن يكتشفها ويحبط كل مشوراتهم. وستكون استجابة الإيمان اليوم هي استجابة نحميا حين قال: ”إلهنا يحارب عنّا“ (نحميا 4 : 20)، لأن الله متداخل في العمل ولا يستطيع أحد أن يمنع نجاحه النهائي.

[518] * * * * *

الفصل الرابع والخمسون—— توبيخ ضدّ الابتزاز

(يعتمد هذا الفصل على ما جاء في نحميا 5).

لم يكن سور أورشليم قد اكتمل عندما اتجه انتباه نحميا إلى الحالة التعسة التي كانت تعاني منها الطبقات الفقيرة من الشعب. ففي تلك الحالة غير المستقرة التي كانت تمر فيها البلاد كانت شؤون الفلاحة قد أهملت إلى حد ما. وبالإضافة إلى ذلك فإن المسلك الدال على الاثرة الذي سلكه بعض الراجعين إلى اليهودية منع بركة الله عن أرضهم فصار وجود القمح شحيحاً.

فلكي يحصل الفقراء على طعام لعائلاتهم كانوا مضطرين لشراء حاجاتهم بالدين وبأثمان باهظة. كما كانوا مضطرين للحصول على المال عن طريق الاستدانة بالربا ليستطيعوا دفع الضرائب الفادحة التي فرضها عليهم ملوك فارس. ومما زاد من هول ضيق الفقراء هو اسغلال الأغنياء من اليهود لحالة العوز والحاجة التي كان الفقراء يعانون منها. وبذلك اغتنوا.

كان الرب قد أمر شعبه بفهم موسى أنه في كل سنة ثالثة يُجمع عشور لمنفعة الفقراء. وقد عملت لهم تدابير أخرى. فعند توقف الأعمال الزراعية من كل سنة سابعة عندما تكون الأرض متروكة، فإن المحاصيل التي تكبر وتنضج من تلقاء ذاتها تُترك للمحتاجين. فالأمانة في تكريس هذه العطايا لتخفيف ضائقة الفقراء [519] وغير ذلك من وجوه الإحسان كانت كفيلة بتذكير الشعب بحقيقة كون الله هو مالك الكل وأن الفرصة مقدّمة لهم ليكونوا قنوات للبركة. كان الله يقصد أن يتدرب شعبه على ما يكفل استئصال الأنانية من قلوبهم، ويجعلها رحبة ليكون خلقهم كريماً نبيلاً. وقد علّمهم الله أيضاً على لسان موسى قائلاً: "إن أقرضت فضّة لشعبي الفقير الذي عندك فلا تكن له كالمرابي. لا تضعوا عليه ربا". "لا تقرض أخاك بربا. ربا فضّة أو ربا طعام أو ربا شيء ما مما يقرض بربا" (خروج 22 : 25 ؛ تثنية 23 : 19). كما قال أيضاً: "إن كان فيك فقير، أحد من إخوتك في أحد أبوابك في أرضك التي يعطيك الرب إلهك فلا تقس قلبك ولا تقبض يدك عن أخيك الفقير بل افتح يدك له وأقرضه مقدار ما يحتاج إليه". "لأنه لا تفقد الفقراء من الأرض. لذلك أنا أوصيك قائلاً: افتح يدك لأخيك المسكين والفقير في أرضك" (تثنية 15 : 7، 8، 11).

خالف الأغنياء في بعض الأحيان بعد رجوع المسبيين من بابل هذه الأوامر مخالفة صريحة. فعندما اضطرّ الفقراء إلى الاستدانة لدفع الجزية للملك أقرضهم الأغنياء المال وفرضوا عليهم ربحاً فاحشاً. وإذ أخذوا رهوناً على أراضي الفقراء، فالبتدريج أوقعوا المدينين في هوة الفقر المدقع. وقد اضطر كثيرون لبيع بنيهم وبناتهم ليكونوا عبيداً أذلاء، ولم يكن يبدو وجود أي أمل في تحسين حالتهم ولا بارقة رجاء ولا وسيلة لافتداء أولادهم أو أرضهم، ولم تكن أمامهم أية إمكانيات أفضل، بل تفاقم الضيق والفاقة، والعوز والعبودية الدائمة. ومع ذلك فهم كانوا أفراداً في أمة واحدة وأبناء عهد واحد كباقي إخوتهم الأكثر حظاً.

أخيراً بسط الشعب حالتهم أمام نحميا قائلين: "ها نحن نخضع بنينا وبناتنا عبيداً ويوجد من بناتنا مستعبدات وليس شيء في طاقة يدنا، وحقولنا وكرومنا [520] للآخرين" (نحميا 5 : 5). فلما سمع نحميا بهذا الظلم وهذه القسوة غضب جداً فقال: "غضبت جداً حين سمعت صراخهم وهذا الكلام" (نحميا 5 :

6). وقد رأى أنه إذا أفلح في تحطيم عادة الابتزاز التعسفي فينبغي له أن يقف موقفاً حاسماً إلى جانب العدالة فبنشاط وتصميم فريدين تقدّم للعمل لنجدة أخوته.

إن حقيقة كون الظالمين هم رجال أثرياء تمس الحاجة إلى تعضيدهم في عمل إعادة المدينة، لم يكن له أقل تأثير على عقل نحميا. فلقد بكّت العظماء والولاة بكل شدّة، وعندما جمع حشداً كبيراً من الشعب أخبرهم بمطالب الله بخصوص هذه المسألة.

وقد وجّه انتباههم إلى حوادث وقعت في عهد الملك آحاز. ثم تلا عليهم الرسالة التي أرسلها الله إلى الشعب في ذلك الحين، موبخاً بها قسوتهم وظلمهم. لقد أسلم بني يهوذا بسبب تعلّقهم بعبادة الأوثان إلى أيدي أخوتهم الأكثر منهم تعلقاً بالوثنية أي شعب إسرائيل، الذين أمعنوا في عداواتهم بقتلهم لعدّة آلاف من رجال يهوذا وامسكوا كل النساء والأطفال وكانوا ينوون الاحتفاظ بهم عبيداً أو بيعهم للأمم.

وبسبب خطايا يهوذا لم يتدخل الرب لمنع الحرب ولكنه وبّخ على لسان عوديد النبي، الخطط القاسية التي قصد الجيش المنتصر تنفيذها فقال لهم: "والآن أنتم عازمون إلى إخضاع بني يهوذا وأورشليم عبيداً وأمناء لكم. أما عندكم أنتم آثام للرب إلهكم؟" (2 أخبار 28 : 10). وقد أنذر عوديد شعب إسرائيل بأن غضب الله قد حمي عليهم وأن تصرفهم الذي تجلى في ظلمهم وتعسفهم سيستمطر عليهم أحكامه. فلما سمع الرجال المسلحون هذا الكلام تركوا أسرارهم وغنيمتهم أمام الرؤساء وكل الجماعة. حينئذ تقدّم رجال من رؤوس [521] سبط أفرايم: "وأخذوا المسبيين وألبسوا كل عراتهم من الغنيمة وكسوهم وحذروهم واطعموهم واسقوهم ودهنوهم وحملوا على حمير جميع المعيين منهم واتوا بهم إلى أريحا مدينة النخل إلى أخوتهم" (2 أخبار 28 : 15).

كان نحميا وآخرون قد دفعوا فدية بعضاً من اليهود الذين بيعوا للأمم واستعادوهم. وها هو الآن يقارن أمامهم بين هذا التصرف وبين تصرف الذين كانوا يستبعدون أخوتهم طمعاً في الربح الدنيوي. فقال لهم: "ليس حسناً الأمر الذي تعملونه ـــ أما تسيرون بخوف إلهنا بسبب تعيير الأمم أعدائنا؟" (نحميا 5 : 9).

وقد أراهم نحميا أنه هو نفسه وهو مزود بسلطان من قبل ملك فارس كان يمكنه أن يطالب بتبرعات كثيرة لفائدته الشخصية. ولكنه بدلاً من ذلك لم يأخذ ما يستحقه عدلاً بل قدّم من أمواله بسخاء لإسعاف الفقراء في ضيقتهم. وقد ألح على حكام اليهود الذين كانت لهم يد في ذلك الابتزاز حتى يكفوا عن هذا العمل الآثم ويردوا إلى الفقراء حقولهم والمال الكثير الذي قد فرضوه عليهم وأن يقرضوهم بدون ضمان أو ربا.

وقد نطق بهذا الكلام في محضر كل الجماعة. فلو أراد الحكّام أن يبرروا أنفسهم لكانت لهم الفرصة لأن يفعلوا ذلك. ولكنّهم لم يقدّموا أي عذر. وإنما أعلنوا قائلين: "نرد ولا نطلب منهم. هكذا نفعل كما تقول". وعند هذا: "استحلفهم (نحميا) أن يعملوا حسب هذا الكلام". "فقال كل الجماعة آمين وسبّحوا الرب وعمل الشعب حسب هذا الكلام" (نحميا 5 : 12، 13).

إن هذا التاريخ يعلّمنا درساً هاماً هو: "أن محبة المال أصل لكل الشرور" (1 تيموثاوس 6 : 10). وفي هذا الجيل نجد أن اشتهاء الربح هو العاطفة الغالبة. وكثيراً ما يجمع الإنسان الثورة عن طريق الاحتيال. يوجد أناس كثيرون [522] يكافحون ضد الفقر وهم مضطرون للكد والتعب للحصول على أجور ضئيلة لا تكفي لتكفل لهم أقل ضروريات الحياة. فالكد والحرمان بدون أمل في تحسن الأحوال يثقل كواهلهم. فإذ يصيبهم الضنى بسبب المتاعب والهموم لا يعلمون إلى أين يتجهون في طلب النجدة والإسعاف. كل هذا ليشبع الأغنياء اسرافهم وشهوتهم لاكتناز المال.

إن محبة المال وحب التظاهر قد جعلا هذا العالم يبدو كمغارة للسراق واللصوص. وكلمة الله تصور لنا الجشع والظلم اللذين سيتفشيان في العالم قبيل مجيء المسيح ثانية. وكتب يعقوب الرسول يقول: "هلم

الآن أيها الأغنياء“ ”قد كنزتم في الأيام الأخيرة. هوذا أجرة الفعلة الذين حصدوا حقولكم المبخوسة منكم تصرخ وصياح الحصادين قد دخل إلى أذني رب الجنود. قد ترفّهتم على الأرض وتنعّمتم وربيتم قلوبكم كما في يوم الذبح. حكمتم على البار قتلتموه. لا يقاومكم“ (يعقوب 5 : 1 ؛ 3 — 6).

وحتى بين من يعترفون بأنهم يسيرون في خوف الرب يوجد من يمثّلون الدور ذاته الذي قام به رؤساء إسرائيل. فلأن ذلك في مقدورهم فهم يفرضون أكثر مما يقره العدل، وهكذا يصيرون ظالمين. ولكون الطمع والغدر يتجليان في حياة من يدعون الإيمان بالمسيح، ولكون الكنيسة تحتفظ في سجلاتها بأسماء من قد جمعوا أموالهم بالظلم صارت ديانة المسيح محتقرة وهزيلة. فالتبذير والاحتيال والابتزاز تفسد إيمان كثيرين وتدمر حياتهم الروحية. الكنيسة مسؤولة إلى حد كبير عن خطايا أعضائها. إنها ترضى عن الشر إذا ما عجزت عن رفع صوتها محتجة ضده. [523]

عادات العالم ليست مقياساً للمسيحي. وليس له التشبه به في قوة أعماله واحتياله وابتزازه. فكل عمل من أعمال الظلم ضد أي واحد من بني جنسنا هو انتهاك للقانون الذهبي. وكل ظلم يقع على أولاد الله يقع على المسيح نفسه في شخص قديسيه. وكل محاولة للاستفادة من جهل إنسان أو من ضعفه أو من سوء طالعه، تسجل على أنها احتيال في سفر السماء. أما من يخاف الله حقاً فأنه يفضل أن يكد ويتعب نهاراً وليلاً ويأكل خبز المشقة على أن يشتهي الربح الذي يكون فيه ظلم للأرملة واليتيم أو يصد الغريب عن أخذ حقه.

أن أقل انحراف عن العدل يهدم السياجات ويهيء القلب لارتكاب ظلم أفدح. فبقدر ما يحصل الإنسان على الكسب والمنفعة لنفسه على حساب خسارة الناس، تصير نفسه بالقدر ذاته عديمة الإحساس لتأثير روح الله. فالربح الذي يجيء بهذه الكلفة الباهظة هو الخسران المبين.

لقد كنا جميعاُ مدينين لعدالة الله ولكننا لم نملك ما نوفي به ديوننا. حينئذ دفع ابن الله ثمن فدائنا إذ أشفق علينا. فمن أجلنا افتقر لكي نستغني نحن بفقره. فإذ نقدّم لإخواته الفقراء من أموالنا بسخاء فنحن بذلك نبرهن على إخلاصنا في شكرنا للرب على الرحمة المعطاة لنا. وها هو بولس الرسول يوصينا قائلاً: ”لنعمل الخير للجميع ولاسيما لأهل الإيمان“ (غلاطية 6 : 10). وكلامه هذا مطابق لما قاله المخلّص إذ أعلن قائلاً: ”الفقراء معكم في كل حين ومتى أردتم تقدرون أن تعملوا بهم خيراً“. ”كل ما تريدون أن يفعل الناس بكم افعلوا هكذا أنتم أيضاً بهم لأن هذا هو الناموس والأنبياء“ (مرقس 14 : 7 ؛ متى 7 : 12).

* * * * [524]

الفصل الخامس والخمسون ـــ مؤامرات الأمم

(يعتمد هذا الفصل على ما ورد في نحميا 6).

لم يجرؤ سنبلّط وحلفاؤه على محاربة اليهود علناً ولكنّهم ظلّوا يواصلون بذل جهودهم الخفية بمزيد من الخبث والدهاء لتثبيط هممهم وإرباكهم وإيذائهم. كان السور المحيط بأورشليم يُبنى بسرعة وقد أوشك أن يكتمل. فمتى اكتمل بناء السور ونصبت أبوابه فأن أولئك الأعداء لن يكونوا قادرين على الدخول إلى المدينة عنوة. لذلك زادت رغبتهم لوقف العمل دون إبطاء. وابتكروا أخيراً خطة كانوا يرجون بواسطتها استدراج نحميا بعيداً عن مركزه فإذا ما وقع في قبضة أيديهم قتلوه أو ألقوا به في السجن.

فإذ تظاهروا بالرغبة في عقد صلح بين الحزبين المتخاصمين طلبوا الاجتماع بنحميا ودعوه لمقابلتهم في قرية تقع في سهل أونو. ولكن نحميا إذ كشف له الروح القدس عن حقيقة نواياهم رفض قائلاً: ”أرسلت إليهما رسلاً قائلاً أني أنا عامل عملاً عظيماً فلا أقدر أن أنزل. لماذا يبطل العمل بينما اتركه وانزل إليكما؟“ (نحميا 6 : 3). ولكن ذينك الرجلين المُجربين كانا مصرين على طلبهما. فارسلا إليه الرسالة أربع مرات بذات المعنى وفي كل مرة كان نحميا يجيب الجواب ذاته. [525]

فإذ وجدوا أن هذه المكيدة لم تنجح لجأوا إلى سياسة أشد جرأة. فأرسل سنبلط إلى نحميا رسالة منشورة مع رسول مكتوب فيها: ”قد سُمع بين الأمم وجشم يقول أنك أنت واليهود تفكرون أن تتمردوا لذلك أنت تبني السور لتكون لهم ملكاً .. وقد أقمت أيضاً أنبياء لينادوا بك في أورشليم قائلين في يهوذا ملك. والآن بهذا الكلام. فهلم الآن نتشاور معاً“ (نحميا 6 : 6، 7).

لو أن الأخبار المذكورة أذيعت فعلاً لكان هناك سبب للخوف لأنها كانت ستتصل سريعاً إلى إسماع الملك الذي كان أقل شك كفيلاً بإثارة غضبه فيتخذ أقسى الإجراءات. ولكن نحميا كان مقتنعاً بأن الرسالة كلها كانت محض اختلاق وأكاذيب وقد كتبت لإثارته وإيقاعه في الشرك. والذي قوى هذا الاستنتاج هو أن الرسالة كانت منشورة عندما أرسلت وذلك لكي يقرأها الشعب فيستولي عليهم الرعب والذعر.

فأرسل إليه رداً سريعاً يقول: ”لا يكون مثل هذا الكلام الذي تقوله بل إنما أنت مختلقه من قلبك“ (نحميا 6 : 8). لم يكن نحميا يجهل مكايد الشيطان، بل كان يعرف أن هذه المحاولات قد بذلت بقصد إضعاف أيدي البنائين وبذلك تحبط جهودهم وتبطل.

لقد انهزم الشيطان مراراً وتكراراً، أما الآن فقد نصب لخادم الله شركاً أدهى بمكر ودهاء أعظم وأخطر. ذلك أن سنبلّط وزملاؤه استأجروا رجالاً كانوا يظهرون الصداقة لنحميا لكي يقدّموا له مشورة شريرة على أنها كلمة الرب. وكان أهم شخص قام بهذا العمل الآثم هو شمعيا الذي كان نحميا اعتبره سابقاً رجلاً ذا سمعة طيبة الذي اعتكف في حجرة قريبة من المقدس، كما لو كان يخشى من خطر على حياته. كان الهيكل في ذلك الحين محاطاً بأسوار وأبواب، ولكن [526] أبواب المدينة لم تكن قد نصبت بعد. فإذ تظاهر بحرصه العظيم على سلامة نحميا نصحه شمعيا بأن يحتمي في الهيكل. واقترح عليه قائلاً: ”لنجتمع إلى بيت الله إلى وسط الهيكل ونقفل أبواب الهيكل لأنهم يأتون ليقتلوك. في الليل يأتون ليقتلوك“

(نحميا 6 : 10).

فلو عمل نحميا بهذا المشورة الغادرة لكان ضحّى بإيمانه بالله واعتبر في نظر الشعب جباناُ حقيراً. وكان سيسمي العمل الهام الذي اضطلع به والثقة التي اعترف بأنه وضعها في قدرة الله أمراً مناقضاً تماماُ للاختباء كمن هو خائف. وكان الإنذار بالخطر ينتشر بين الشعب وكان ينشد كل واحد سلامته وتترك المدينة مكشوفة لتسقط غنيمة باردة في إيدي أعدائها. فلو أقدم نحميا على ذلك الإجراء المتسرع لكان سلّم ببساطة لأعدائه كل ما كان كسبه حتى الآن.

ولم يطل الوقت على نحميا قبل أن اكتشف الصفة الحقيقية لصاحب تلك المشورة الكاذبة والهدف الذي كان يرمي إليه. فها هو يقول: "فتحققت وهوذا لم يرسله الله لأنه تكلّم بالنبوة عليّ وطوبيا وسنبلط قد استأجراه. لأجل هذا قد استؤجر لكي أخاف وأفعل هكذا وأخطئ فيكون لهما خبر رديء لكي يعراني" (عدد 12 — 14).

ثم أن تلك المشورة الشائنة التي قدّمها شمعيا اثنى عليها بالموافقة أكثر من رجل من ذوي الشهرة. فإذ كان كل منهم يبدي الصداقة لنحميا، كانوا في الخفاء متعاهدين مع أعدائه. ولكن عبثاً نصبوا أشراكهم. فقد كان جواب نحميا الدال على الشجاعة هو هذا: "أرجل مثلي يهرب؟ ومن مثلي يدخل الهيكل فيحيا؟ لا أدخل" (نحميا 6 : 11). [527]

وبالرغم من كل مؤامرات الأعداء الظاهرة منها والخفية فإن عملية البناء ظلّت تتقدّم إلى الأمام بثبات، وفي أقل من شهرين منذ وصل نحميا إلى أورشليم أحيطت المدينة بحصونها وأمكن للبنائين أن يتمشوا فوق الأسوار وينظرون إلى أسفل أعدائهم المنهزمين وخصومهم الذاهلين. وكتب نحميا يقول: "ولما سمع كل أعدائنا ورأى جميع الأمم الذين حوالينا سقطوا كثيراً في أعين أنفسهم وعلموا أنه من قبل إلهنا عُمل هذا العمل" (عدد 16).

ومع ذلك فحتى هذا البرهان على يد الله المسيطرة لم يكن كافياً لقمع التذمر والتمرد والخيانة التي تفشت بين شعب الله: "أكثر عظماء يهوذا توارد رسائلهم على طوبيا ومن عند طوبيا أتت الرسائل إليهم. أن كثيرين في يهوذا كانوا أصحاب حلف له لأنه شهر شكنيا" (عدد 17، 18). هنا ترى العواقب الوخيمة لمصاهرة الوثنيين. فها هي أسرة من سبط يهوذا قد ارتبطت بأعداء الله وقد برهنت علاقة المصاهرة تلك على أنها شرك منصوب. وقد فعل عديدون الشيء ذاته. فهؤلاء كانوا كاللفيف الذي صعد مع بني إسرائيل من مصر، ظلّوا علة متاعب لا تنقطع. فهم لم يخدموا الله بقلب كامل، وعندما تطلّب عمل الله القيام بتضحية كانوا مستبعدين لأن يحنثوا بعهدهم عن التعاون والتعضيد.

إن بعضاً ممن كانوا في مقدمة المتآمرين بالشر على اليهود اعربوا الآن عن رغبتهم لتكون بينهم وبين إسرائيل علاقات صداقة. إن عظماء يهوذا الذين وقعوا في شرك التزوج بنساء وثنيات، والذين كانوا يتبادلون مع طوبيا رسائل الغدر والخيانة بدأوا يصورونه الآن على أنه رجل موهوب وبعيد النظر، وقالوا أن التحالف معه يكون فيه خير وامتياز عظيم لشعب الله. وفي الوقت ذاته أطلعوه [528] على خطط نحميا وتحركاته. وهكذا تعرض عمل شعب الله لهجمات أعدائهم وسنحت الفرصة لإساءة تأويل أقوال نحميا وتحريفها وتشويه أعماله وتعطيلها.

عندما لجأ الفقراء والمظلومون إلى نحميا طالبين منه أنصافهم ودفع الظلم عنهم وقف مدافعاً عنهم بكل جرأة، وجعل الظالمين يزيلون العار الذي حلّ بهم. ولكن السلطة التي استخدمها لأجل خير أولئك المنسحقين المداسين بالأقدام من مواطنيه لم يستخدمها الآن لأجل نفسه. لقد قوبلت مساعيه وجهوده بالجحود والخيانة من بعض الناس ولكنّه لم يستخدم سلطانه في إيقاع القصاص بالخونة بل في هدوء وتجرد وإخلاص تقدّم في خدمته لأجل الشعب دون أن يتراخى في جهوده أو يقلل من اهتمامه.

وجهت هجمات الشيطان دائماً ضد الذين حاولوا إنجاح عمل ملكوت الله. ومع أن مساعيه خابت في غالب الأحيان فأنه في كل مرة كان يعاود هجماته بقوة جديدة مستخدماً وسائل لم يجرّبها من قبل. ولكن عمله المتخفي من خلال المدّعين الغيرة على عمل الله هو الذي نخشى خطره أكثر من غيره. وقد تكون المقاومة الظاهرة عنيفة وقاسية ولكن خطرها على عمل الله يكون أقل بكثير من العداوة الخفية التي يضمرها من يعترفون بأنهم يخدمون الله وهم في أعماقهم عبيد للشيطان في أيدي من يستخدمون معرفتهم في تعطيل عمل الله والأضرار بخدّامه.

كل حيلة يمكن أن يقترحها سلطان الظلمة أو يبتكرها ستُستخدم في إقناع عبيد الله للتحالف مع أعوان الشيطان. كما ستُستخدم إغراءات كثيرة تدعوهم للتوقف عن القيام بواجبهم. ولكن عليهم كنحميا أن يجيبوا قائلين بكل ثبات: "إني أنا عامل عملاً عظيماً فلا أقدر أن أنزل". ويمكن لخدّام الله أن يستمروا [529] قائمين بعملهم باطمئنان تاركين جهودهم وخدماتهم تدحض الأكاذيب التي يبتكرها الخبث والحقد ضدّهم. وعليهم كالبنائين الذين كانوا على أسوار أورشليم أن يرفضوا التحول عن عملهم سواء بالتهديد أو السخرية أو بالأكاذيب. عليهم ألا يتراخوا عن السهر أو اليقظة لحظة واحدة، لأن الأعداء يتعقبونهم على الدوام. وعليهم أن يصلّوا إلى الهمم: "ويقيموا حرَّاسا ضدّهم نهاراً وليلاً" (نحميا 4 : 9).

إذ يقترب وقت النهاية تشتد تجارب الشيطان بقوة عظيمة على خدّام الله. وسيستخدم عملاء البشر في السخرية وتوجيه الشتائم إلى "من يبنون السور" ولكن لو أن البنائين ينزلون لمواجهة هجمات أعدائهم فإن هذا يعطل العمل. أجل! عليهم أن يجابهوا نوايا أعدائهم وإحباطهم إنما يحسن بهم ألا يسمحوا لأي شيء أن يبعدهم عن عملهم. أن الحق أقوى من الضلال، والعدل لابد أن ينتصر على الظلم.

وكذلك ينبغي عدم السماح لأعدائهم بأن يظهروا بصداقتهم أو عطفهم لئلا ينجذبون بعيداً عن مركز واجبهم. فذاك الذي يعرّض عمل الله للعار بأي عمل طائش أو متسرّع أو يضعف أيدي زملائه في العمل يلوث خلقه بلطخة ليس من السهل إزالتها، ويضع عقبة خطيرة في طريق نفعه في المستقبل.

"تاركوا الشريعة يمدحون الأشرار" (أمثال 28 : 4). عندما يتوسّل المرتبطون بالعالم ومع ذلك يدعون بأنهم أطهاراً جداً في طلب الإتحاد مع المحاربين لقضية الحق، علينا أن نخشاهم وننبذهم بكل حزم كما فعل نحميا. أن عدو كل صلاح هو الذي يحفز الناس على قبول هذه المشورة. وهذه هي لغة الانتهازيين التي [530] يجب مقاومتها بعزم صادق الآن كما في تلك العصور الغابرة. فأي تأثير من شأنه زعزعة إيمان شعب الله في قوته المرشدة ينبغي مقاومته بكل ثبات.

إن السبب في إخفاق أعداء نحميا في اجتذابه ليكون تحت سلطانهم هو تكريسه الثابت على الله. فالنفس البليدة المتكاسلة تسقط فريسة سهلة المنال أمام التجربة، أما النفس التي أمامها غرض نبيل وقصد متفوق فقلما يجد الشر فيها وطأة قدم. أن إيمان الشخص المتقدم دائماُ إلى الأمام لا يضعف لأنه يلاحظ أن الله نبع قوته السرمدي، يحيط به من كل جانب، ومحبته المطلقة تجعل كل الأشياء تعمل معاً لإتمام قصده الصالح. وخدّام الله الأمناء يعملون بعزم لا يكلّ لأن عرش النعمة هو معتمدهم الدائم.

لقد أعد الله معونته الإلهية لكل الطوارئ التي لا تستطيع مواردنا البشرية تلبيتها أو مواجهتها. فهو يمنح الروح القدس ليُعين في كل مأزق وليقوي فينا الرجاء واليقين لإنارة أذهاننا وتطهير قلوبنا. وهو يهيء الفرص ويفتح السبل للعمل. فإذا كان شعبه يراقب دلالات عنايته وكان مستعداً للتعاون معه فسيرى نتائج عظيمة.

[531] * * * * *

الفصل السادس والخمسون ــــ فهم شريعة الله

(يعتمد هذا الفصل على ما ورد في نحميا 8 ــــ 10).

الوقت الآن هو عيد الأبواق. وقد اجتمع جمع غفير في أورشليم. كان المشهد ينم عن مشاعر الاهتمام الحزين. فسور أورشليم كان قد أعيد بناؤه ونصبت أبوابه، ولكن قسماً كبيراً من المدينة كان ما يزال خراباً.

ووقف عزرا الذي صار الآن رجلاً طاعناً في السن على منصة مصنوعة من الخشب أقيمت في أكبر الشوارع، تحيط به من كل جانب الذكريات المحزنة لمجد يهوذا الآفل. وكان يقف عن يمينه ويساره أخوته اللاويون. فإذ نظروا من المنصة إلى أسفل وقعت أعينهم على بحر من الرؤوس المتطلعة إليهم. فقد اجتمع بنو العهد من كل البلاد المجاورة في ذلك المكان: "وبارك عزرا الرب الإله العظيم. وأجاب جميع الشعب آمين آمين .. وخرّوا وسجدوا للرب على وجوههم إلى الأرض" (نحميا 8 : 6).

ومع ذلك فحتى في هذا المكان كان يوجد برهان على خطيئة الشعب. فعن طريق مصاهرة الأمم الأخرى، فسدت اللغة العبرية بحيث لزم مراعاة الحرص الشديد من جانب الخطباء في شرح الشريعة بلغة الشعب كي يفهمها الجميع. [532] واشترك بعض الكهنة واللاويين مع عزرا في شرح مبادئ الشريعة. "قرأوا في السفر في شريعة الله ببيان وفسروا المعنى وافهموهم القراءة" (نحميا 8 : 8).

"وكانت آذان كل الشعب نحو سفر الشريعة" (نحميا 8 : 3). لقد اصغوا بانتباه ووقار إلى كلام العلي. فلما فسرت الشريعة اقتنعوا بذنبهم وبكوا وناحوا على تعدياتهم. ولكن هذا اليوم كان يوم عيد وفرح، يوم اعتكاف مقدّس، يوماً أمر الرب الشعب أن يحفظوه بفرح وبهجة. وبالنظر إلى هذا أمروا بأن يكفوا عن الحزن ويفرحوا بسبب رحمة الله العظيمة نحوهم. قال لهم نحميا: "هذا اليوم مقدّس للرب إلهكم" "لا تنوحوا ولا تبكوا .. اذهبوا كلوا السمين واشربوا الحلو وابعثوا انصبة لمن لم يُعدّ له لأن اليوم إنما هو مقدّس لسيدنا ولا تحزنوا لأن فرح الرب هو قوّتكم" (نحميا 8 : 9، 10).

وقد كرس الشطر الأول من النهار لممارسات دينية، وقضى الشعب سائر اليوم في تعداد بركات الله بالشكر وفي التمتع بالإحسانات التي اعدّها لهم. كما أرسلت انصبة للفقراء الذين لم يكن لهم ما يعدّونه. وكان الفرح عظيماً بسبب كلام الشريعة الذي سمعوه وفهموه.

وفي اليوم التالي واصلوا قراءة الشريعة وشرحها. وفي اليوم المحدد ــــ اليوم العاشر من الشهر السابع ــــ مورست خدمات يوم الكفارة المقدسة بموجب أمر الله.

ومن اليوم الخامس عشر إلى اليوم الثاني والعشرين من الشهر ذاته حفظ الشعب ورؤساؤهم عيد المظال مرة أخرى ــــ وقد أطلق النداء: "في كل مدنهم وفي أورشليم قائلين اخرجوا إلى الجبل وآتوا بأغصان زيتون وأغصان زيتون بري وأغصان آس وأغصان أشجار غبياء لعمل مظال كما هو [533] مكتوب. فخرج الشعب وجلبوا وعملوا لأنفسهم مظال كل واحد على سطحه وفي دورهم ودور بيت الله .. وكان فرح عظيم جداً. وكان (عزرا) يقرأ في سفر شريعة الله يوماً فيوماً من اليوم الأول إلى اليوم الأخير"

(نحميا 8 : 15 — 18).

وإذ كان الشعب يستمع إلى كلام الشريعة يوماً بعد يوم فقد تبكتوا على آثامهم وخطايا أمتهم في العصور السالفة. وقد رأوا أنه بسبب ابتعادهم عن الله تركتهم رعايته الحافظة فتشتت نسل إبراهيم في بلدان غريبة. فعقدوا العزم على طلب رحمته والتعهد بالسير في طريق وصاياه. وقبل الشروع في هذه الخدمة المقدسة التي عقدت في اليوم الثاني بعد انتهاء عيد المظال انفصلوا عن الوثنيين الذين في وسطهم.

فإذ خرّ الشعب أمام الرب معترفين بخطاياهم وطالبين الغفران شجعهم رؤساؤهم على الإيمان بأن الله قد سمع صلاتهم حسب وعده. لذلك ينبغي لهم ألا ينوحوا ويبكوا ويتوبوا وحسب بل عليهم أيضاً أن يؤمنوا بأن الله قد غفر لهم، وأن يبرهنوا على إيمانهم بترداد مراحمه وشكره وصلاحه ووجوده. ثم قال لهم معلموهم: "قوموا باركوا الرب إلهكم من الأزل إلى الأبد".

فإذ وقف ذلك الجمع الحاشد رافعين أيديهم نحو السماء تغنوا بهذه التسبحة قائلين: "ليتبارك اسم جلالك المتعالي على كل بركة وتسبيح. أنت هو الرب وحدك. أنت صنعت السموات وسماء السموات وكل جندها والأرض وكل ما عليها والبحار وكل ما فيها وأنت تحييها كلّها وجند السماء لك يسجد" (نحميا 9 : 5، 6).

فبعد الإنتهاء من تسبحة الحمد جعل رؤساء تلك الجماعة يتلون تاريخ إسرائيل مبينين مقدار عظمة جود الله نحوهم وهول جحودهم. حينئذ دخلت [534] كل الجماعة في عهد بأن يحفظوا وصايا الله كاملة. لقد قاسوا الأهوال والعقاب بسبب خطاياهم، والآن فها هم يعترفون بعدالة الله في معاملته لهم وتعهدوا بإطاعة شريعته. فلكي يكون هذا "ميثاقاً" ويُحفظ بصورة دائمة كمذكّر لهم بالعهد الذي أخذوه على أنفسهم، فقد كُتب ثمّ ختمه الكهنة واللاويون والرؤساء. كان المقصود منه أن يكون مذكراً لهم بالواجب ورادعاً ضد التجربة. ودخل الشعب في قسم وحلف مقدّس بأن "يسيروا في شريعة الله التي أعطيت من يد موسى عبد الله وأن يحفظوا ويعملوا جميع وصايا الرب سيدنا وأحكامه وفرائضه" (نحميا 9 : 39 ؛ 10 : 29). وقد تضمن القسم الذي أخذوه في هذا الحين وعداً بألا يصاهروا شعب الأرض.

وقبل انقضاء يوم الصوم أظهر الشعب أيضاً عزمهم على الرجوع إلى الرب بالتعهد بالكف عن تدنيس يوم السبت. وفي هذا الوقت لم يستخدم نحميا سلطته في منع المتاجرين من الأمم عن المجيء إلى أورشليم كما فعل فيما بعد. ولكن في محاولته إنقاذ الشعب من الخضوع والاستسلام للتجربة جعلهم يرتبطون بعهد مقدس ألا يتعدوا شريعة السبت بالشراء من أولئك الباعة، على أمل أن ذلك يضعف من همم التجار ويضع حداً لتجارتهم.

كما أعدت العدة أيضاً لتعضيد العبادة العامة لله. وبالإضافة إلى العُشر تعهدت تلك الجماعة بالمساهمة بمبلغ سنوي محدد لأجل خدمة المقدس. وكتب نحميا يقول: "وألقينا قرعاً .. لإدخال باكورات أرضنا وباكورات ثمر كل شجرة سنة فسنة إلى بيت الرب، وأبكار بنينا وبهائمنا كما هو مكتوب في الشريعة وأبكار بقرنا وغنمنا" (نحميا 20 : 23، 35). [535]

لقد رجع إسرائيل إلى الله في حزن عميق على ارتدادهم. وقد اعترفوا نائحين وباكين. لقد اعترفوا بعدالة الله في معاملته لهم وتعهدوا بأن يطيعوا شريعته. أما الآن فعليهم أن يُظهروا إيمانهم بمواعيده. لقد قبل الله توبتهم فكان عليهم حينئذ أن يفرحوا بيقين غفران خطاياهم ورجوع الرب للرضى عنهم.

وقد كلّلت جهود نحميا لإعادة عبادة الإله الحقيقي بالنجاح. فطالما ظلّ الشعب أميناً للقسم الذي أخذوه على أنفسهم، وكانوا مُطيعين لكلمة الله فالرب تبعاً لذلك سيتمم لهم وعده في سكب بركات غزيرة عليهم.

يوجد في هذه القصص دروس من الإيمان والتشجيع للمتبكتين على خطيئتهم ونفوسهم منحنية لشعورهم بعدم استحقاقهم. يورد الكتاب المقدس بأمانة نتيجة ارتداد الشعب، ولكنه يصور أيضاً التذلّل والتوبة العميقة والتكريس الجاد والتضحية السخية التي امتازت بها أوقات رجوعهم إلى الرب.

أن كل رجوع حقيقي إلى الرب لابد أن يكون من نتائجه الفرح الدائم في الحياة. فعندما يخضع أي خاطئ لتأثير الروح القدس فهو يرى إثمه ونجاسته على نقيض قداسة الرب فاحص القلوب العظيم. فهو يرى نفسه مديناً كمتعد. ولكن ينبغي له ألا يستسلم لليأس بسبب ذلك لأن غفران خطاياه صار مضموناً. ويمكنه أن يفرح بإحساسه بمحبة الآب السماوي الغفور، وبأن خطاياه قد غفرت. فالله يتمجد لاحتضانه الخلائق البشرية الخاطئة التائبة بين ذراعي محبّته وتضميد جراحهم وتطهيرهم من الخطيئة وتجميلهم بثياب الخلاص.

[536] * * * * *

الفصل السابع والخمسون ــــ الإصلاح

(يعتمد هذا الفصل على ما جاء في نحميا 13).

تعهد شعب يهوذا علناً، بشكل مهيب أن يطيعوا شريعة الله. ولكن عندما سُحب تأثير عزرا ونحميا إلى حين، ارتدّ كثيرون عن الرب. كان نحميا قد عاد إلى بلاد فارس. وفي أثناء غيابه عن أورشليم تسللت إلى الأمة شرور هدّدت بانحرافها عن الحق وضلالها. فعلاوة على إيجاد الوثنيين لأنفسهم مقراً داخل المدينة، فأن عدوى تأثيرهم أفسدت محيط الهيكل ذاته. ونشأت عن طريق المصاهرة صداقة بين الياشيب رئيس الكهنة وطوبيا العموني ألد أعداء شعب إسرائيل في ذلك الحين. وكان من نتائج هذه المصاهرة المرذولة أن سمح الياشيب لطوبيا أن يشغل حجرة متصلة بالهيكل، كانت تُستعمل حتى ذلك الحين مخزناً لعشور الشعب وتقدماتهم.

كان الله قد أعلن على فم موسى على وجوب إبعاد العمونيين والمؤابيين عن جماعة إسرائيل إلى الأبد وذلك بسبب قسوتهم وخيانتهم لهم. (أنظر تثنية 23 : 3 — 6). إلا أن رئيس الكهنة طرح بالتقدمات المختزنة في حجرة بيت الله ليفسح مجالاً لرجل يمثل جنساً محروماً، متحدياً في ذلك، القول الآنف الذكر. إنّ منح هذه المنة لعدو الله وحقه، هو أعظم احتقار لله والاستخفاف بمقدساته. [537]

فلما عاد نحميا من بلاد فارس علم بذلك التدنيس الجريء، واتّخذ إجراءات سريعة لطرد ذلك الرجل المتطفل. وأعلن يقول: "ساءني الأمر جداً وطرحت جميع آنية بيت طوبيا خارج المخدع وأمرت فطهروا المخادع ورددت إليها آنية الله مع التقدمة والبخور" (عدد 8).

ولم يكن الهيكل وحده هو الذي تنجس، بل حتى التقدمات أسيء استخدامها. وأدى ذلك إلى إضعاف همة الشعب عن تقديم عطاياهم السخية. لقد فقدوا حماستهم وغيرتهم ونفروا من دفع عشورهم. وصارت الامدادات الواردة إلى خزانة بيت الله قليلة وشحيحة. وكثيرون من المغنين وغيرهم ممن كانوا يخدمون في الهيكل تركوا عمل الله ليشتغلوا في أماكن أخرى إذ لم يحصلوا على الإعالة الكافية.

وقد شرع نحميا في العمل لإصلاح هذه المساوئ. فجمع الذين تركوا خدمة بيت الرب معاً: "وأقفهم في أماكنهم" مما ألهم الشعب بالثقة: "وأتى كل يهوذا بعشر القمح والخمر والزيت". والذين "حسبوا أمناء" أقيموا "خزنة على الخزائن". "وكان عليهم أن يقسموا على إخوتهم" (عدد 11 — 13).

وكان من مساوئ مخالطة الوثنيين ومصاهرتهم إهمال السبت واحتقاره الذي كان هو العلامة المميزة بين شعب الله وغيرهم من الأمم على أنهم عبدة الإله الحقيقي. ووجد نحميا أن التجار والباعة القادمين من البلاد المجاورة إلى أورشليم أغروا كثيرين من بني إسرائيل للاشتغال في التجارة في يوم السبت. ولكن وجد بعض الأمناء ممن لم يكن ممكناً إغرائهم على التضحية بمبادئهم. ولكن آخرين تعدّوا واشتركوا مع الأمم في التغلب على التدقيق الذي كان يتمسك به من كانوا أكثر استقامة ونزاهة منهم. وكثيرون تجرأوا على تدنيس [538] السبت علناً بحيث نحميا يقول: "في تلك الأيام رأيت في يهوذا قوماً يجوسون معاصر في السبت ويأتون بحزم ويُحمّلون حميراً وأيضاً يدخلون أورشليم في يوم السبت بخمر وعنب وتين وكل

ما يُحمّل .. والصوريون الساكنون بها كانوا يأتون سمك وكل بضاعة ويبيعون في السبت لبني يهوذا" (عدد 15، 16).

كان يمكن ان هذا الوضع للأشياء يُمنع لو أن الرؤساء باشروا سلطتهم. ولكن رغبتهم في نجاح مصالحهم جعلتهم يغضون الطرف عن الأشرار. فوبخهم نحميا بلا خوف على إهمالهم لواجبهم. إذ قال لهم بغضب: "ما هذا الأمر القبيح الذي تعملونه وتدنسون يوم السبت. ألم يفعل آباؤكم هكذا فجلب إلهنا علينا كل هذا الشر وعلى هذه المدينة وأنتم تريدون غضباً على إسرائيل إذ تدنّسون السبت". حينئذ: "لما أظلمت أبواب أورشليم قبل السبت" أصدر أمره "بأن تُغلق الأبواب ولا يفتحوها إلى ما بعد السبت". وإذ كان يثق في عبيده أكثر من الذين كان يمكن أن يعينهم حكّام أورشليم، أوقفهم على الأبواب للتأكد من أن أوامره يتم تنفيذها (عدد 19).

فإذ كانوا لا يميلون للتخلي عن مصالحهم: "بات التجار وبائعوا كل بضاعة خارج أورشليم مرة واثنتين" على أمل أن يجدوا مجالاً للمتاجرة إما مع المواطنين أو مع أهل الريف. وقد أنذرهم نحميا بالعقاب إن هم داوموا على ذلك العمل. فسألهم قائلاً: "لماذا أنتم بائتون بجانب السور؟ إن عدتم فإني ألقي يداً عليكم". ومن ذلك الوقت لم يأتوا في السبت (عدد 20، 21). كما أوصى اللاويين بأن يحرسوا الأبواب لعلمه أن الناس يحترمونهم أكثر من العامة، وذلك لأن اتّصالهم بخدمة الله ألزمهم بحمل الشعب على الطاعة لشريعة الله. [539] والآن نرى أن نحميا قد وجّه التفاته إلى الخطر الذي كان يهدّد الشعب من جديد ألا وهو مصاهرة عابدي الأوثان ومخالطتهم. فكتب يقول: "في تلك الأيام أيضاً رأيت اليهود الذين ساكنوا نساء أشدوديات وعمونيات وموآبيات. ونصف كلام بنيهم باللسان الأشدودي، ولم يكونوا يحسنون التكلّم باللسان اليهودي بل بلسان شعب وشعب" (عدد 23، 24).

لقد سببت تلك المصاهرات غير المشروعة ارتباكاً عظيماً بين الشعب لأن بعض من تورطوا فيها كانوا رجالاً ذوي مراكز رفيعة ورؤساء، فكان للشعب الحق في التمثل بهم في طلب المشورة والقدوة الأمنية. فإذ سبق نحميا فرأى الخراب الذي يهدد الأمة لو سمح لهذا الشر بالاستفحال، حاول إقناع فاعلي الشر بالتي هي أحسن. وأشار إلى حالة الملك سليمان وذكّرهم بأنه لم يقم ملك مثله في الأمم إذ أعطاه الله حكمة عظيمة، ومع ذلك فإن النساء الوثنيات أملن قلبه عن الله بحيث أفسدت قدوته بني إسرائيل. ثم سألهم نحميا قائلاً بغضب: "فهل نسكت لكم أن تعملوا كل هذا الشر العظيم؟" "لا تعطوا بناتكم ولا تأخذوا من بناتهم لبنيكم ولا لأنفسكم" (عدد 27، 25).

وإذ وضع نحميا أمامهم أوامر الله وتهديداته والأحكام المخيفة التي وقعت على الشعب فيما مضى لأجل هذه الخطية بالذات استيقظت ضمائرهم وبدأ إصلاح كان من نتائجه أن أناصرف عن الشعب غضب الله ونالوا بركته ورضاه.

وقد توسّل بعض من كانوا يشغلون وظائف مقدّسة لأجل زوجاتهم الوثنيات معلنين أنهم لا يستطيعون أن يحتملوا الانفصال عنهم. ولكن لم يكن هناك أي تمييز في المعاملة ولا محاباة للمراكز والمستوى الاجتماعي. فأي إنسان من الكهنة والرؤساء رفض قطع علاقته بالوثنيات فُصل فوراً من خدمة الرب. وإذ [540] كان أحد حفدة رئيس الكهنة قد تزوج بإبنة سنبلط السيء السمعة، فقد فُصل من وظيفته ونُفي من إسرائيل في الحال. وقد صلّى نحميا قائلاً: "أذكرهم يا إلهي لأنهم نجّسوا الكهنوت وعهد الكهنوت واللاويين" (نحميا 13 : 29). أن يوم الدينونة وحده سيكشف عن مقدار العذاب النفسي الذي احتمله خادم الله الأمين لانتاجه هذه الصرامة التي مست الحاجة إليها. كان هنالك صراع مستمر مع العناصر المقاومة، ولم يكن ممكناُ التقدّم بالعمل إلا بالصوم والتذلّل والصلاة.

إن كثيرين ممن تزوجوا وثنيات اختاروا الذهاب معهن إلى السبي، فهؤلاء مع الذين طردوا من

الجماعة انضمّوا إلى السامريين. وبعضهم كانوا يشغلون مراكز سامية في عمل الله، وبعد ذلك بقليل ألقوا قرعتهم بالتمام معهم. وبما أن السامريين أرادوا تقوية أواصر هذه المصاهرة، وعدوا باعتناق العقيدة والعادات اليهودية بطريقة أشمل. وبما أن المرتدين أرادوا التفوق على إخوتهم السابقين، أقاموا لهم هيكلاً على جبل جرزيم لمقاومة بيت الله الذي في أورشليم. وظلّت ديانتهم خليطاً من العقيدة اليهودية والوثنية. أما إدّعاؤهم بأنهم شعب الله فكان مصدراً للشقاقات والمنافسات والعداء بين الأمتين طوال الأجيال اللاحقة.

في عمل الإصلاح الذي ينبغي القيام به اليوم توجد حاجة ماسة إلى رجال كعزرا ونحميا لا يلتمسون عذراً للخطيئة ولا يتسامحون معها، ولا يتراجعون عن تبرير كرامة الله وتأييدها. والذين عليهم القيام بهذا العمل لن يصمتوا عند ارتكاب شر أو ظلم ولا هم يسترون الخطيئة برداء المحبّة الكاذبة. بل يذكرون أن الله لا يحابي الوجوه، وأن الصرامة تجاه الأقلية قد تبرهن على أنها رحمة [541] للأكثرية. وسيذكرون أيضاً أن روح الله ينبغي أن يظهر على الدوام في الذين يوبخون الشر.

لقد اتّضع عزرا ونحميا أمام الله وهما يقومان بعملهما، فاعترفا بخطاياهما وخطايا شعبهما متوسّلين في طلب الغفران كما لو أنهما هما اللذان قد أخطآ. وقد تعبا وصلّيا وتألّما بصبر. والذي جعل عملهما شاقاً فوق طور الاحتمال ليست العداوة السافرة من الأمم بل المقاومة السرية التي جاءت ممن تظاهروا بالصداقة، الذين قدّموا نفوذهم وتأثيرهم لخدمة الشر وزادوا أثقال خادمي الله عشرة أضعاف. لقد مد هؤلاء الخونة، أعداء الرب بالمواد اللازمة في حربهم ضدّ شعبه. وكانت أهواؤهم الشريرة وإرادتهم المتمردة في حالة حرب دائمة مع مطالب الله الصريحة.

إن النجاح الذي رافق جهود نحميا يرينا ما يمكن للصلاة والإيمان والعمل الصائب النشط أن ينجزه. لم يكن نحميا كاهناً ولا كان نبياً ولم يدّع استحقاقاً للقب سام. بل كان مصلحاً أقيم لزمن هام. كان يسعى إلى تعديل إعوجاج شعبه والعمل على استقامتهم مع الله. وإذ كان مُلهماً لإنجاز غرض عظيم فقد سخّر كل قوى كيانه لإتمامه. وقد امتازت جهوده بالاستقامة السامية التي لا تنثني. وإذ احتك بالشر ومقاومة الحق وقف موقفاً ثابتاً لا يتقلقل بحيث استحثّ الشعب للاستيقاظ والعمل بغيرة وشجاعة جديدتين. ولم يسعهم إلا الاعتراف بولائه وحبّه العميق لله، فإذ شهدوا كل ذلك كانوا مستعدين للذهاب معه حيثما يقودهم.

فالمثابرة في القيام بواجب عيّنه الله في جزء هام من الدين الحقيقي. على الناس انتهاز الفرص باعتبارها وسائل الله التي يتمم بها عمله وينفذ مشيئته. [542] فالعمل السريع الحاسم في الوقت الصائب يحوز انتصارات مجيدة، بينما التباطؤ والإهمال ينتج عنهما الخيبة والعار لله. فإذا لم يُبد القادة في قضية الحق أية غيرة وكانوا عديمي المبالاة وبلا هدف، فالكنيسة تُمسي عديمة الاهتمام وخاملة ومحبة للملذات والمتع الحسية. أما إذا امتلأت قلوبهم بغرض مقدس لخدمة الله، والله وحده، فسيتّحد الشعب بقلب واحد، ومسعى واحد.

في كلمة الله مفارقات حادة مدهشة. فالخطيئة والقداسة يوضعان جنباً إلى جنب حتى إذا رأيناهما ننبذ الواحد ونقبل الآخر. الصفحات التي تصف حقد سنبلّط وطوبيا وكذبهما وغدرهما تصف أيضاً نبل عزرا ونحميا وتكريسهما وتضحيتهما. ثم تُترك لنا الحرية لاقتفاء أثر أحد الفريقين حسبما نختار. إن النتائج الرهيبة الناجمة عن التعدي على وصايا الله وأوامره توضع في مقابل البركات الناتجة عن الطاعة. فعلينا نحن أنفسنا أن نقرر ما إذا كنا نرغب في مقاساة آلام أحد النهجين أو التمتّع ببركات الآخر.

يصوّر لنا عمل الاسترداد والإصلاح الذي قام به الراجعون من السبي تحت قيادة زربابل وعزرا ونحميا، نموذج عمل استرداد روحي سيحدث في الأيام الأخيرة من تاريخ هذا العالم. كانت بقية إسرائيل شعباً ضعيفاً معرضاً لغارات أعدائهم ونهبهم، ولكن الله قصد أن يحفظ معرفة ذاته وحقة عن طريقهم. كانوا حرَّاسا للعبادة الحقيقية وأمناء لأقوال الله المقدّسة. وكانت الاختبارات التي جازوا فيها متباينة وهم

يعيدون بناء الهيكل وسور أورشليم، وكان عليهم أن يواجهوا مقاومة عنيفة. وكانت الأعباء التي اضطلع بها القادة في ذلك العمل ثقيلة، ولكنّهم تقدّموا إلى الأمام بإيمان وثقة لا تتزعزع وبوداعة الروح واعتماد ثابت على الله مؤمنين بأنه لابد سيخرج حقه إلى النصرة. كان نحميا كالملك [543] حزقيا "التصق بالرب ولم يحد عنه بل حفظ وصاياه .. وكان الرب معه" (2 ملوك 18 : 6، 7).

يُلخّص الاسترداد الروحي الذي كان العمل الذي تمّ في عهد نحميا رمزاً له، في قول إشعياء: "يبنون الخرب القديمة يقيمون الموحشات الأول ويجددون المدن الخربة". "ومنك تُبنى الخرب القديمة. تُقيم أساسات دور فدور، فيسمونك مرمّم الثغرة، مرجع المسالك للسُكنى" (إشعياء 61 : 4 ؛ 58 : 12).

يصف هنا النبي شعباً يحاول في زمن الارتداد العام عن الحق والبر، إعادة المبادئ التي هي أساس ملكوت الله. أنهم مرممو الثغرة الموجودة في شريعة الله، السور الذي أقامه حول مختاريه لحمايتهم، والطاعة لوصاياه التي هي وصايا العدل والحق والنقاء ستكون لهم حماية دائمة.

يشير النبي في كلمات لا يُخطئ معناها أحد إلى العمل الخاص بهذا الشعب الباقي الذي يبني السور إذ يقول: "إن رددت عن السبت رجلك، عن عمل مسرّتك يوم قدسي، ودعوت السبت لذّة، ومُقدّس الرب مكرماً، وأكرمته عن عمل طرقك وعن إيجاد مسرّتك والتكلّم بكلامك، فإنك حينئذ تتلذّذ بالرب، وأركّبك على مرتفعات الأرض، وأطعمك ميراث يعقوب أبيك، لأن فم الرب تكلّم" (إشعياء 58 : 13، 14).

وفي وقت النهاية سيُعاد كل دستور إلهي. وستُرمم الثغرة التي أصابت الشريعة في الوقت الذي فيه أبدل الإنسان السبت. وإذ يقف شعب الله الباقي أمام العالم كمصلحين سيبرهنون على أن شريعة الله هي أساس كل إصلاح ثابت باق، وأن سبت الوصية الرابعة يجب أن يظلّ تذكاراً للخلق ومذكّرا دائماً بقدرة الله. [544] وعليهم بأقوال صريحة وواضحة أن ينادوا بلزوم الطاعة للوصايا العشر كافة. وإذ تحصرهم محبّة المسيح فهم يتعاونون معه لإقامة الخرب. ويرممون الثغرة ويرجعون المسالك للسُكنى" (إشعياء 58 : 12). [545]

الباب السابع — نور في السماء

[546]

”والمملكة والسلطان وعظمة المملكة تحت كل السماء تعطى لشعب قدّيسي العلي. ملكوته ملكوت أبدي“ (دانيال 7 : 27) [547]

الفصل الثامن والخمسون — مجيء المنقذ

في أثناء القرون الطويلة أيام "الشدة والظلمة" و "قتام الضيق" (إشعياء 8 : 22) التي حددت تاريخ البشرية منذ اليوم الذي فيه أضاع أبوانا الأولان وطنهما في عدن إلى الزمن الذي ظهر ابن الله فيه كمخلّص الخطاة، تركّز رجاء الجنس الساقط في مجيء منقذ يحرر الرجال والنساء من نير عبودية الخطيئة والهاوية.

وقد أعطى الله أول نبأ عن مثل هذا الرجاء لآدم وحواء عندما نطق بحكمه على الحية في عدن، حين أعلن قائلاً للشيطان في مسامعها: "وأضع عداوة بينك وبين المرأة، وبين نسلك ونسلها. هو يسحق رأسك، وأنت تسحقين عقبه" (تكوين 3 : 15).

فعندما أصغى ذانك الزوجان المذنبان إلى هذه الأقوال ألهما بالرجاء، لأنهما في النبوة الخاصة بسحق سلطان الشيطان فطنا إلى الوعد بالتحرير والإنقاذ من الخراب والهلاك الناجم عن العصيان. ومع أنه كان لابد لهما من أن يتألما من قوة عدوهما لوقوعهما تحت سلطان قوته الخادعة واختيارهما عصيان أمر الرب الصريح، فلا حاجة بهما إلى الاستسلام لليأس التام. فقد عرض ابن الله أن يكفّر عن عصيانهما بدم نفسه. وكانت ستُعطى لهما فترة اختبار يمكنهما في خلالها أن يصيرا من جديد ابنين لله بالإيمان بقدرة المسيح على الخلاص. [548]

أما الشيطان فإنه بوساطة نجاحه في إبعاد أبوينا عن طريق الطاعة صار: "إله هذا العالم" (2 كورنثوس 4 : 4). والسلطان الذي كان سابقاً من حق آدم انتقل إلى الغاصب. ولكن ابن الله قصد أن يأتي إلى هذه الأرض ليتحمل قصاص الخطيئة، وهكذا لا يفتدى الإنسان وحسب بل يعيد إليه السلطان الذي أضاعه. وقد تنبأ ميخا النبي عن هذا الاسترداد حين قال: "وأنت يا برج القطيع، أكمة بنت صهيون إليك تأتي. ويجيء الحكم الأول" (ميخا 4 : 8). كما أشار بولس الرسول إليه على أنه: "فداء المُقتنى" (أفسس 1 : 14). وكان ذلك الاسترداد النهائي ذاته، لميراث، الإنسان الأصلي في ذهن المرنم عندما أعلن قائلاً: "الصدّيقون يرثون الأرض ويسكنونها إلى الأبد" (مزمور 37 : 29).

لم ينطفئ ذلك الرجاء في الفداء بواسطة مجيء ابن الله كمخلّص وملك قط من قلوب الناس. فمنذ البدء كان يوجد من تخطّى إيمانهم ظلال الحاضر إلى حقائق المستقبل. فعن طريق آدم وشيث وأخنوخ ومتوشالح ونوح وسام وابراهيم وإسحق ويعقوب وغيرهم من العظماء المستحقين، حفظ الرب إعلانات إرادته الثمينة. وهكذا كان الأمر أن الله منح شعبه المختار الذين عن طريقهم كان سيُعطى للعالم المسيا الموعود به، منهجم معرفة مطالب شريعته ومعرفة الخلاص الذي كان سيتم بواسطة ذبيحة ابنه الحبيب الكفّارية.

كان رجاء إسرائيل مجسماً في الوعد الذي قدّم عندما دعي ابراهيم، وتكرر بعد ذلك مراراً لنسله: "تتبارك فيك جميع قبائل الأرض" (تكوين 12 : 3). وإذ كُشف قصد الله لأجل فداء جنسنا، لإبراهيم، أشرق على قلبه شمس البر فتبدّدت ظلماته. وأخيراً عندما تحدّث المخلّص نفسه وسار بين بني الإنسان

شهد لليهود [549] عن رجاء الآباء المُشرق للخلاص بواسطة مجيء الفادي. فقد أعلن المسيح قائلاَ: ”أبوكم إبراهيم تهلّل بأن يرى يومي فرأى وفرح“ (يوحنا 8 : 56).

وهذا الرجاء المبارك نفسه رُمز إليه في البركة التي بارك بها يعقوب الشيخ المحتضر ابنه يهوذا إذ قال: ”يهوذا، إياك يحمد إخوتك، يدك على قفا أعدائك، يسجد لك بنو أبيك .. لا يزول قضيب من يهوذا ومُشترع من بين رجليه حتى يأتي شيلون وله يكون خضوع شعوب“ (تكوين 49 : 8 — 10).

ومرة أخرى عند تخوم أرض الموعد أنبئ بمجيء فادي العالم في النبوة التي نطق بها بلعام حين قال: ”أراه ولكن ليس الآن. أبصره ولكن ليس قريباً. يبرز كوكب من يعقوب، ويقوم قضيب من إسرائيل، فيحطّم طرفي موآب، ويهلك كل بني الوغى“ (عدد 24 : 17).

وبواسطة موسى ظلّ قصد الله في إرسال ابنه فادياً للبشرية الساقطة ماثلاً أمام شعبه. ففي مرة وقبيل موته بوقت قصير أعلن موسى قائلاً: ”يُقيم لك الرب إلهك نبياً من وسطك من إخوتك مثلي. له تسمعون“. وقد أخبر موسى بكل وضوح لأجل إسرائيل عن عمل مسيا الآتي هذا“ ”أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك، وأجعل كلامي في فمه، فيكلّمهم بكل ما أوصيه به“ (تثنية 18 : 15، 18) ـــ هذا كان قول الله لموسى.

وفي أيام الآباء كانت الذبائح الكفارية المقترنة بعبادة الله تشكّل مذكراً دائماً بالمخلّص الآتي. وهكذا كانت الحال مع كل طقوس المقدس وخدماته في كل تاريخ شعب الله. ففي خدمة الخيمة والهيكل الذي احتل مكانها فيما بعد كان الشعب يتعلّم كل يوم بواسطة الرموز والظلال الحقائق العظيمة المتّصلة بمجيء المسيا بوصفه الفادي والكاهن والملك. ومرة في كل سنة اتّجهت عقولهم إلى [550] الأمام إلى الحوادث الختامية في الصراع الهائل بين المسيح والشيطان، والتطهير النهائي للمسكونة من الخطيئة والخطاة. فكانت الذبائح والقرابين في الطقوس الموسوّية تشير دائماً إلى خدمة أفضل أي سماوية. فكان المسكن الأرضي: ”رمزاً للوقت الحاضر“ الذي كانت تقدّم فيه العطايا والذبائح، وكان قسماه المقدّسان: ”أمثلة الأشياء التي في السموات“. لأن المسيح رئيس كهنتنا هو اليوم: ”خادماً للأقداس والمسكن الحقيقي الذي نصبه الرب لا إنسان“ (عبرانيين 9 : 9، 23 ؛ 8 : 2).

ومنذ اليوم الذي أعلن فيه الرب قائلاً للحية في عدن: ”وأضع عداوة بينك وبين المرأة، وبين نسلك ونسلها“ (تكوين 3 : 15) عرف الشيطان أنه لن يستطيع أن يسيطر على سكّان هذه الأرض سيطرة مطلقة. وعندما بدأ آدم وبنوه يقدّمون الذبائح الطقسية التي رسمها الله كرمز للفادي الآتي أدرك الشيطان ورأى في هذه الذبائح رمزاً للشركة والاتصال بين الأرض والسماء. ومدى القرون الطويلة التي جاءت بعد ذلك جعل الشيطان همه الوحيد المستمر إيقاف هذه الشركة وقطع هذا الاتصال. وبجهد لا يكلّ حاول أن يصوّر الله أسوأ تصوير ويشوّه الطقوس التي تشير إلى المخلّص. وقد أفلحت مكايده في تضليل الغالبية العظمى من أعضاء الأسرة البشرية.

وفي حين كان الله يريد أن يعلّم الناس أن العطية التي ستصالحهم معه منبثقة من فيض محبّته، حاول عدو البشرية أن يصور الله على أنه الشخص الذي يسر بهلاكهم وهكذا فالذبائح والفرائض التي قصدت السماء بواسطتها إعلان محبة الله، انحرفت عن مقصدها وغدت بنظر الخطاة وسائل كانوا يرجون بها وبعطاياها وأعمالهم الصالحة استرضاء الله وصرف غضبه عنهم. وفي نفس الوقت [551] حاول الشيطان أن يثير أهواء الناس الشريرة كي تتباعد جماهير غفيرة من الناس عن الله عن طريق التعديات المتكررة وليظلّوا مُكبلين بقيود الخطيئة بلا رجاء.

وعندما أعطيت كلمة الله المكتوبة للشعب بواسطة الأنبياء العبرانيين درس الشيطان بكل اجتهاد الفصول الخاصة بالمسيا وتتبع الكلام الذي حدد بحرص ودقة عمل المسيح بين الناس كذبيحة متألمة

وكملك قاهر. ففي درج أسفار العهد القديم قرأ أن ذاك المزمع أن يظهر كان "كشاة تساق إلى الذبح". "كان منظره كذا مفسداً أكثر من الرجل، وصورته أكثر من بني آدم" (إشعياء 53 : 7 ؛ 52 : 14). ثم أن مخلّص بني الإنسان الموعود به قيل عنه: "مُحتقر ومخذول من الناس، رجل أوجاع مختبر الحزن .. مضروباً من الله ومذلولاً"، ومع ذلك فقد كان مزمعاً أن يستخدم سلطانه لكي: "يقضي لمساكين الشعب. يخلّص بني البائسين، ويسحق الظالم" (إشعياء 53 : 3، 4 ؛ مزمور 72 : 4). هذه النبوات جعلت الشيطان يخاف ويرتعب، ومع ذلك فلم يتنح عن غرضه في تعطيل إمدادات الرب الرحيمة لأجل فداء جنسنا الساقط إن أمكن. وعوّل على أن يعمي عيون الشعب بقدر الساقط عن المعنى الحقيقي للنبوات الخاصة بالمسيا ليمهد الطريق لرفض المسيح عند مجيئه.

في خلال القرون التي سبقت الطوفان مباشرة كللت جهود الشيطان بالنجاح في تعميم التمرد العالمي ضد الله. وحتى الدروس الخاصة بالطوفان لم يذكرها الناس طويلاً. فبدسائسه الماكرة أوقع الشيطان مرة أخرى البشر خطوة فخطوة في التمرد والعصيان الجريء. فبدا وكأنه انتصر ثانية. ولكن مقاصد الله نحو الإنسان الساقط لم تكن لتلقى جانباً بسهولة. فعن طريق ذرية إبراهيم الأمين المنحدرة من نسل سام، كانت ستحفظ معرفة مقاصد الله الرحيمة لأجل خير [552] الأجيال القادمة. ومن وقت لآخر كان سيقام رسل الحق المعينون من قبل الله ليوجّهوا انتباه الناس إلى معنى الطقوس الكفارية وعلى الخصوص إلى وعد الرب الخاص بمجيء المسيا الذي كانت تشير إليه كل فرائض النظام الكفّاري. وبذلك كان العالم سيُحفظ من الارتداد الشامل.

ولم ينفذ قصد الله إلا بعد مقاومات عنيدة جداً. فبكل وسيلة ممكنة عمل عدو الحق والبر لجعل نسل ابراهيم ينسون دعوتهم السامية المقدّسة وليجعلهم ينحرفون إلى عبادة الآلهة الكاذبة. كثيراً ما نجحت محاولاته. فلمدى قرون قبل المجيء الأول للمسيح غطت الظلمة الأرض والظلام الدامس للشعب. لقد كان الشيطان يلقي ظلّه الجهنمي على طريق الناس ليحول بينهم وبين معرفة الله والعالم الآتي. وكانت جماهير من الناس جالسين في وادي ظلّ الموت. وكان رجاؤهم الوحيد هو أن تتبدّد غياهب تلك الظلمة كي يعلن لهم الله عن نفسه.

فداود مسيح الله رأى في رؤيا نبوية أن مجيء المسيح ينبغي أن يكون: "كنور الصباح إذا أشرقت الشمس .. في صباح صحو" (2 صموئيل 23 : 4). وها هو هوشع يشهد قائلاً: "خروجه يقين كالفجر" (هوشع 6 : 3). أن نور النهار يشرق على الأرض بكل سكون ولطف مبدداً أشباح الظلام وموقظاً الأرض إلى الحياة. هكذا كان شمس البر سيشرق والشفاء في أجنحته (ملاخي 4 : 2). الشعب السالك: "في أرض ظلال الموت" كانوا مزعمين أن يبصروا: "نوراً عظيماً" (إشعياء 9 : 2).

وإذ نظر إشعياء النبي بفرح طاغ إلى هذه النجاة المجيدة هتف قائلاً: "لأنه يولد لنا ولد ونعطي ابناً، وتكون الرياسة على كتفه، ويدعى اسمه عجيباً، مشيراً، إلهاً قديراً، أباً أبدياً، رئيس السلام لنمو رياسته، وللسلام لا نهاية على كرسي داود [553] وعلى مملكته، ليثبتها ويعضدها بالحق والبر، من الآن إلى الأبد. غيرة رب الجنود تصنع هذا" (إشعياء 9 : 6، 7).

وفي القرون المتأخرة من تاريخ إسرائيل قبل المجيء الأول كان معروفاً لدى الجميع أن مجيء المسيا قد أشير إليه في النبوة القائلة: "قليل أن تكون لي عبداً لإقامة أسباط يعقوب، وردّ محفوظي إسرائيل. فقد جعلتك نوراً للأمم لتكون خلاصي إلى أقصى الأرض". وقد تنبأ النبي قائلاً: "فيعلن مجد الرب ويراه كل بشر جميعاً" (إشعياء 49 : 6 ؛ 40 : 5). وقد شهد يوحنا المعمدان بعد ذلك عن هذا النور بكل شجاعة قائلاً: "أنا صوت صارخ في البرية قوّموا طريق الرب، كما قال إشعياء النبي" (يوحنا 1 : 23).

هذا وقد أعطى للمسيح الوعد النبوي القائل: "هكذا قال الرب فادي إسرائيل، قدّوسه، للمهان النفس،

لمكروه الأمة .. هكذا قال الرب .. أحفظك وأجعلك عهداً للشعب، لإقامة الأرض، لتمليك أملاك البراري، قائلاً للأسرى اخرجوا. للذين في الظلام اظهروا .. لا يجوعون ولا يعطشون، ولا يضربهم حر ولا شمس، لأن الذي يرحمهم يهديهم وإلى ينابيع المياه يوردهم" (إشعياء 49 : 7 — 10).

إن جماعة الثابتين بين الأمة اليهودية الذين هم من نسل تلك السلالة المقدّسة الذين بواسطتهم حفظت معرفة الله، شددوا إيمانهم بالتأمل في هذه الفصول وأمثالها. وبفرح عظيم قرأوا كيف أن الرب سيسمح واحداً: "ليبشّر المساكين" "لأعصب منكسري القلب" و "لأنادي للمسبيين بالعتق" "لأنادي بسنة مقبولة للرب" (إشعياء 61 : 1، 2). ومع ذلك فإن قلوبهم كانت مفعمة بالحزن عندما فكروا في الآلام التي كان عليه أن يتحمّلها لكي يتم القصد الإلهي. [554]

فبانسحاق نفسي عميق جعلوا يتابعون الكلمات الواردة في سفر النبوة وهي تقول: "من صدّق خبرنا، ولمن استُعلنت ذراع الرب؟ نبت قدّامه كفرح وكعرق من أرض يابسة، لا صورة له ولا جمال فننظر إليه، ولا منظر فنشتهيه. محتقر ومخذول من الناس، رجل أوجاع ومختبر الحزن، وكمستر عنه وجوهنا، محتقر فلم نعتد به. لكن أحزاننا حملها، وأوجاعنا تحمّلها. ونحن حسبناه مُصاباً مضروباً من الله مذلولاً. وهو محروج لأجل معاصينا، مسحوق لأجل آثامنا. تأديب سلامنا عليه، وبحبره شُفينا. لنا كغنم ضللنا. ملنا كل واحد إلى طريقه، والرب وضع عليه إثم جميعنا. ظُلم أما هو فتذلل ولم يفتح فاه. كشاة تُساق إلى الذبح، وكنعجة صامتة أمام جازّيها فلم يفتح فاه. من الضُغطة ومن الدينونة أخذ. وفي جيله من كان يظن أنه قطع من أرض الأحياء، أنه ضُرب من أجل ذنب شعبي. وجُعل مع الأشرار قبره، ومع غني عند موته. على أنه لم يعمل ظلماً، ولم يكن في فمه غش" (إشعياء 53 : 1 -19).

أما عن آلام المخلّص فقد أعلن الرب نفسه بفم زكريا قائلاً: "استيقظ يا سيف على راعيّ، وعلى جبل رفقتي" (زكريا 13 : 7). لقد كان على المسيح كبديل عن الإنسان الخاطئ وضامنه أن يقاسي أهوال العدل الإلهي. وكان عليه أن يعرف ويدرك معنى العدل. وكان عليه أن يعرف معنى وقوف الخطاة أمام الله دون أن يكون هناك من يتوسط لأجلهم.

وقد تنبأ الفادي عن نفسه قائلاً على لسان المرنم: "العار قد كسر قلبي فمرضت. انتظرت رقة فلم تكن، ومعزّين فلم أجد. ويجعلون في طعامي علقماً، وفي عطشي يسقونني خلا" (مزمور 69 : 20، 21). [555]

وقد تنبأ عن نوع المعاملة التي كان سيعامل بها فقال: "لأنه قد أحاطت بي كلاب. جماعة من الأشرار اكتنفتني. ثقبوا يديّ ورجليّ. أحصي كل عظامي، وهم ينظرون ويتفرّسون فيّ. يقسمون ثيابي بينهم، وعلى لباسي يقترعون" (مزمور 22 : 16 — 18).

هذه الأوصاف عن الألم المرير والموت القاسي الذي سيكون من نصيب السيد الموعود به مع أنها موجبة للحزن الشديد فقد كانت غنية بالخير العميم والوعود الثمينة. فلقد قيل عنه: "أما الرب فسُرّ بأن يسحقه الحزن". حتى يمكن أن يصير "ذبيحة إثم". وقد أعلن الرب قائلاً: "يرى نسلاً تطول أيامه ومسرة الرب بيده تنجح. من تعب نفسه يرى ويشبع" "وعبدي البار بمعرفته يُبرّر كثيرين وآثامها هو يحملها. لذلك أقسم له بين الأعزاء ومع العظماء يقسم غنيمة من أجل أنه سكب للموت نفسه وأحصي مع أثمه، وهو حمل خطية كثيرين وشفع في المُذنبين" (إشعياء 53 : 10 — 12).

إن محبة المسيح للخطاة هي التي أحثته لأن يدفع ثمن الفداء: "فرأى أنه ليس إنسان وتحيّر مع أنه ليس شفيع" ولم يكن سواه يستطيع أن يفدي الرجال والنساء من سلطان العدو: "فخلصت ذراعه لنفسه وبره هو غضده" (إشعياء 59 : 16).

هوذا عبدي الذي أعضده، مُختاري الذي سُرّت به نفسي. وضعت روحي عليه فيُخرج الحق للأمم"

(إشعياء 42 : 1).

ففي حياته لم تتلوث نفسه بأي اعتداد بالذات. فقد تجنب ابن الله الولاء الذي يمنحه العالم للمركز والثراء والمواهب. فالمسيا لم يستخدم وسيلة من الوسائل التي يستخدمها الناس للظفر بالولاء أو الثناء والتكريم. وقد رُمز إلى [556] إنكاره الكامل لنفسه في هذه الأقوال: ”لا يصيح ولا يرفع ولا يسمع في الشارع صوته. قصبه مرضوضة لا يقصف، وفتيلة خامدة لا يُطفئ“ (إشعياء 42 : 2، 3).

لقد كان المخلّص يتصرف بين الناس على نقيض معاصريه من المعلّمين. ولم يُرَ في حياته أي جدل صاخب ولا قدّم عبادته للتفاخر. ولا عمل عملاً ليظفر باستحسان الناس. كان على المسيا أن يكون مستتراً في الله وأن يعلن الله في صفات ابنه. لولا معرفة الله لهلكت البشرية هلاكاً أبدياً، ولولا معونة الله لكان الرجال والنساء ينحدرون إلى الدرجات السُفلى. فالحياة والقوة لا يعطيهما للإنسان سوى الله الذي خلق العالم. وما كان يمكن تدبير حاجات الإنسان بغير هذه الوسيلة.

وقد أنبأ عن المسيا بنبوات أخرى منها: ”لا يكل ولا ينكسر حتى يضع الحق في الأرض، وتنتظر الجزائر شريعته“. ثم أن ابن الله كان مزعماً أيضاً أن ”يُعظّم الشريعة ويكرمها“ (إشعياء 42 : 4، 21). فهو لم يكن ليقلل من أهميتها أو مطالبها المُلزمة، بل كان بالأحرى سيعظّمها ويمجّدها. وكان عليه في الوقت ذاته أن يحرر وصايا الله من تلك الأوامر والنواهي الثقيلة التي فرضها الناس، والتي بسببها أصيب الكثيرون بالفشل في جهودهم لتقديم خدمة مقبولة لدى الله.

وبالنسبة إلى رسالة المخلّص جاءت كلمة الرب تقول: ”أنا الرب قد دعوتك بالبر، فأمسك بيدك وأحفظك وأجعلك عهداً للشعب ونوراً للأمم. لتفتح عيون العُمي، لتُخرج من الحبس المأسورين، من بيت السجن الجالسين في الظلمة. أنا الرب هذا اسمي ومجدي لا أعطيه لآخر ولا تسبيحي للمنحوتات. هُوَذا الأوليات قد أتت والحديثات أنا مُخبر بها. قبل أن تنبت أعلمكم بها“ (إشعياء 42 : 6 — 9). [557]

فعن طريق النسل الموعود به كان إله إسرائيل مزعماً أن يأتي بالنجاة والخلاص لصهيون: ”ويخرج قضيب من جذع يسّى، وينبت غصن من أصوله“، ”ها العذراء تحبل وتلد ابناً وتدعو اسمه عمانوئيل. زبداً وعسلاً يأكل متى عرف أن يرفض الشر ويختار الخير“ (إشعياء 11 : 1 ؛ 7 : 14، 15).

”ويحل عليه روح الرب، روح الحكمة والفهم، روح المشورة والقوة، روح المعرفة ومخافة الرب. ولذّته تكون في مخافة الرب فلا يقضي بحسب نظر عينيه ولا يحكم بحسب سمع أذنيه. بل يقضي بالعدل للمساكين ويحكم بالإنصاف لبائسي الأرض. ويضرب الأرض بقضيب فمه ويميت المنافق بنفخة شفتيه. ويكون البر منطقة متنية، والأمانة منطقة حقويه“ ”ويكون في ذلك اليوم أن أصل يسّى القائم راية للشعوب إياه تطلب الأمم ويكون محله مجداً“ (إشعياء 11 : 2 — 5، 10).

”هوذا الرجل الغصن اسمه. فهو يبني هيكل الرب، وهو يحمل الجلال ويجلس ويتسلّط على كرسيه ويكون كاهنا على كرسيه“ (زكريا 6 : 12، 13).

ويكون ينبوع مفتوحاً ”للخطية وللنجاسة“ (زكريا 13 : 1). كان بنو الإنسان سيسمعون الدعوة المباركة القائلة: ”أيها العطاش جميعاً هلمّوا إلى المياه، والذي ليس له فضّة تعالوا اشتروا وكلوا. هلمّوا اشتروا بلا فضة وبلا ثمن خمراً ولبناً. لماذا تزنون فضّة لغير خبز وتعبكم لغير شبع. استمعوا لي استماعاً وكلوا الطيب ولتتلذذ بالدسم أنفسكم. أميلوا آذانكم وهلمّوا إلي. اسمعوا فتحيا أنفسكم. وأقطع لكم عهداً أبدياً، مراحم داود الصادقة“ (إشعياء 55 : 1 — 3).

وقد قدّم هذا الوعد لإسرائيل: ”هوذا قد جعلته شارعاُ للشعوب، رئيساً وموصياً للشعوب. ها أمة لا تعرفها تدعوها، وأمة لم تعرفك تركض إليك، من أجل الرب إلهك وقدّوس إسرائيل لأنه قد مجّدك“ (إشعياء 55 : 4، 5). [558]

”قد قربت بري. لا يبعد وخلاصي لا يتأخر. وأجعل في صهيون خلاصاً. لإسرائيل جلالي“ (إشعياء 46 : 13).

في أثناء خدمة المسيح على الأرض كان مزمعاً أن يكشف للبشرية عن مجد الله الآب بالكلام والعمل. فكلّ عمل من أعمال حياته وكل كلمة نطق بها وكل معجزة أجراها كانت لتعريف البشر الساقطين محبة الله غير المحدودة.

”على جبل عال اصعدي يا مبشّرة صهيون. ارفعي صوتك بقوة يا مبشّرة أورشليم.ارفعي لا تخافي. قولي لمدن يهوذا هوذا إلهك، هوذا السيد الرب بقوة يأتي وذراعه تحكم له. هوذا أجرته معه وعملته قدامه. كراع يرعى قطيعه. بذراعه يجمع الحملان وفي حضنه يحملها ويقود المرضعات“ (إشعياء 40 : 9 — 11).

”ويسمع في ذلك اليوم الصم أقوال السفر وتنظر من القتام والظلمة عيون العمي. ويزداد البائسون فرحاً بالرب ويهتف مساكين الناس بقدوس إسرائيل“، ”ويعرف الضّالّو الأرواح فهماً، ويتعلّم المتمرّدون تعليماً“ (إشعياء 29 : 18، 19، 24).

وهكذا كلّم الله العالم بواسطة الآباء والأنبياء، كما بواسطة الصور والرموز، عن مجيء المنقذ من الخطيئة. لقد أشارت سلسلة طويلة من النبوات الموحى بها إلى مجيء ”مُشتهى كل الأمم“ (حجي 2 : 7). وبكل دقّة عُيّن حتى مكان ميلاده ووقت ظهوره.

ينبغي أن يولد ابن داود في مدينة داود. فقد قال النبي أن من بيت لحم ”يخرج .. الذي يكون متسلّطا على إسرائيل ومخارجه منذ القديم منذ أيام الأزل“ (ميخا 5 : 2). [559]

”وأنت يا بيت لحم أرض يهوذا لست الصغرى بين رؤساء يهوذا لأن منك يخرج مُدبّر يرعى شعبي إسرائيل“ (متى 2 : 6).

لقد أفهم الملاك جبرائيل دانيال عن وقت المجيء الأول ووقت بعض الأحداث الهامة المرتبطة بعمل حياة المخلّص إذ قال الملاك ”سبعون أسبوعاً قضيت على شعبك وعلى مدينتك المقدسة لتكميل المعطية وتتميم الخطايا ولكفّارة الإثم، وليؤتي بالبر الأبدي ولختم الرؤيا والنبوة ولمسح قدّوس القدّوسين“ (دانيال 9 : 24). إن اليوم في النبوة يقابل سنة (أنظر ما ورد في سفر العدد 14 : 34، وحزقيال 4 : 6). والسبعون أسبوعاً أو الأربع مئة والتسعون يوماً ترمز إلى أربع مئة وتسعين سنة.

وقد أعطيت نقطة البدء لهذه الفترة في القول: ”فاعلم وافهم أنه من خروج الأمر لتجديد أورشليم وبنائها إلى المسيح الرئيس سبعة أسابيع واثنان وستون أسبوعاً“ (دانيال 9 : 25). أي تسعة وستون أسبوعاً أو أربع مئة مئة وثلاث وثمانون سنة. إن الأمر بتجديد أورشليم وبنائها كما أكمله مرسوم أرتحشستا لونجيمانوس (أنظر عزرا 6 : 14 ؛ 7 : 1، 9). نُفذ في خريف عام 457 ق.م ومن ذلك الوقت تمتد الـ 483 سنة إلى خريف عام 27م، وطبقاً للنبوة تصل هذه المدّة إلى المسيا أي الممسوح. وفي سنة 27م، نال المسيح مسحة الروح القدس عند عماده، وبعد ذلك حالاً بدأ خدمته. عندئذ أذيعت هذه الرسالة: ”قد كمل الزمان“ (مرقس 1 : 15).

حينئذ قال الملاك: ”ويُثبت عهداً مع كثيرين في أسبوع واحد (سبع سنوات). فلمدى سبع سنوات بعدما بدأ المخلّص يباشر خدمته كان سيبشر بالإنجيل لليهود خاصّة، لمدى ثلاث سنين ونصف بواسطة المسيح نفسه وبعد [560] ذلك بواسطة الرسل“ ”وفي وسط الأسبوع يُبطّل الذبيحة والتقدمة“ (دانيال 9 : 27). ففي ربيع عام 31م قدّم المسيح في الجلجثة بوصفه الذبيحة الحقيقية. حينئذ انشق حجاب الهيكل إلى اثنين، مبيناً ومثبتاً بذلك أن قدسية الخدمة الكفّارية ومعناها قد بُطلتا. فقد جاء الوقت الذي فيه تبطل الذبيحة والتقدمة الأرضية.

فالأسبوع ـــ السنوات السبع ـــ انتهت في عام 34م وحينئذ إذ رجم اليهود استفانوس ختموا على رفضهم للإنجيل، والتلاميذ الذين تشتتوا بسبب الاضطهاد: "جالوا مُبشّرين بالكلمة" (أعمال الرسل 8 : 4). وبعد ذلك بقليل اهتدى شاول المضطهد وصار اسمه بولس رسول الأمم.

إن النبوات الكثيرة الخاصّة بمجيء المخلّص جعلت اليهود يعيشون في حالة انتظار دائم. وكثيرون ماتوا في الإيمان ولم ينالوا المواعيد. ولكن إذ نظروا من بعيد صدّقوها وأقروا أنهم غرباء ونزلاء على الأرض. والوعود التي ردّدها الآباء والأنبياء منذ عهد أخنوخ حفظت رجاء ظهوره حيًّا.

لم يعلن الله منذ بداية الوقت المحدد للمجيء الأول، وحتى عندما أعلنت نبوّة دانيال هذا الوقت لم يحسم الجميع تفسير الرسالة وفهمها.

وتتابعت القرون وصمت أخيراً صوت الأنبياء. وقد ثقلت يد الظلم على شعب الله. فإذا ارتدوا عنه أظلمت عيون إيمانهم وكاد الرجاء يتوقف عن إنارة المستقبل. وغدت أقوال الأنبياء غير مفهومة لدى كثيرين، والذين كان ينبغي أن يظلّ إيمانهم قوياً كانوا موشكين أن يصرخوا قائلين: "قد طالت الأيام وخابت كل رؤيا" (حزقيال 12 : 22). ولكن في مجلس السماء كانت ساعة مجيء المسيح [561] قد تحدّدت. "لما جاء ملء الزمان، أرسل الله ابنه . ليفتدي الذين تحت الناموس، لننال التبنّي" (غلاطية 4 : 4، 5).

ينبغي أن تُعطى الدروس للبشرية في لغتها. وكان ينبغي أن يتكلّم ملاك العهد. وأن يُسمع صوته في هيكله. ومبدع الحق هو يفصل بين الحق وبين أقوال الإنسان الباطلة التي جعلت الحق عديم التأثير. ينبغي تحديد مبادئ حكم الله وتدبير الخلاص بوضوح. ويجب أن توضع دروس العهد القديم بكمالها أمام الإنسان.

وعندما ظهر المخلّص أخيراً "في شبه الناس" (فيلبي 2 : 7)، وبدأ في خدمة النعمة، لم يستطيع الشيطان إلا أن يسحق عقبه، بينما المسيح في كل عمل من أعمال الاتضاع أو الألم التي مر بها كان يسحق رأس عدوه. لقد سُكب الألم والعذاب الذي جلبته الخطيئة، في حضن البار، وبالرغم من ذلك فعندما كان المسيح يحتمل مقاومة الخطاة كان يوفي دين الإنسان الخاطئ ويحطّم قيود العبودية التي كُبّل بها الإنسان. فكلّ وخزة من وخزات الألم وكل إهانة وقعت عليه إنما كانت تعمل على تحرير جنسنا.

ولو أمكن للشيطان إغواء المسيح للخضوع لتجربة واحدة، ولو أمكنه تلويث نقاوته بعمل واحد أو فكر واحد لانتصر سلطان الظلمة على ضامن الإنسان (المسيح) وكان كسب كل الأسرة البشرية لنفسه. ولكن بينما يستطيع الشيطان أن يضايق فهو لا يستطيع تلويث النفس أو تدنيسها. يستطيع أن يسبب الحزن والعذاب ولكن لا يمكنه أن يسبب النجاسة. لقد جعل حياة المسيح مشهداً متصلاً للصراع والتجارب، ومع ذلك ففي كل هجوم كان يخسر سلطانه على الإنسان. [562]

ففي برية التجربة وفي بستان جثسيماني وعلى الصليب صارع مخلّصنا أسلحة سلطان الظلمة ووضع حداً لها. فصارت جروحه تذكارات انتصاره لأجلنا. وعندما كان المسيح معلّقًا على الصليب في عذاب رهيب، عندما كانت الأرواح الشريرة فرحة متهلّلة والناس الأشرار يشتمونه، حينئذ سحق الشيطان عقبه حقاً. ولكن نفس ذلك العمل كان فيه سحق لرأس الحية، فبالموت أباد: "ذاك الذي له سلطان الموت أي إبليس" (عبرانيين 2 : 14). لقد بت هذا العمل في مصير رئيس المتمردين العصاة ووطد تدبير الخلاص، ففي موته أحرز النصرة على سطوة الموت وقوته، وبقيامته فتح أبواب الهاوية ليخرج منها كل تابعيه. وفي تلك المعركة الأخيرة العظيمة نرى إتمام النبوة القائلة: "هو يسحق رأسك وأنت تسحقين عقبه" (تكوين 3 : 15).

"أيها الأحباء الآن نحن أولاد الله ولم يُظهر بعد ماذا سنكون. ولكن تعلم أنه إذا أظهر نكون مثله لأننا سنراه كما هو" (1 يوحنا 3 : 2). لق فتح فادينا الطريق ليتسنّى لأشر الناس وأفقرهم، للمظلومين

والمنسحقين والمحتقرين إيجاد قبول لدى الآب.

”يا رب أنت إلهي أعظمك. أحمد اسمك لأنك صنعت عجباً مقاصدك منذ القديم أمانة وصدق“ (إشعياء 25 : 1). [563]

الفصل التاسع والخمسون — "بيت إسرائيل"

فيما كنيسة الله على الأرض تنادي اليوم بالحقائق المتضمنة في البشارة الأبدية لكل أمة وقبيلة ولسان شعب، فهي تحقق النبوة القديمة القائلة: "في المستقبل يتأصل يعقوب. يزهر ويفرع إسرائيل ويملأون وجه المسكونة أثماراً" (إشعياء 27 : 6). إن أتباع المسيح الذين يتعاونون مع الخلائق السماوية سيملأون القفار بسرعة، وستُحصد كنتيجة لجهودهم، ثماراً وفيرة من النفوس الثمينة. واليوم كما لم يحدث من قبل، نجد أن نشر حقائق الكتاب عن طريق الكنيسة المكرّسة يجيء للناس بالفوائد المرموز إليها منذ قرون مضت في الوعد المقدّم لإبراهيم ولكل إسرائيل — أي كنيسة الله على الأرض في كل عصر، والقائل: "أباركك .. وتكون بركة" (تكوين 12 : 2).

كان ينبغي أن يتم وعد البركة هذا، على مدى واسع أثناء القرون التي تلت رجوع بني إسرائيل من السبي. كان قصد الله أن تتأهب الأرض كلها للمجيء الأول للمسيح، كما يعد الطريق اليوم للمجيء الثاني. ففي نهاية سنوات السبي المذلّ أعطى الله في رحمته لشعبه على لسان زكريا هذا الوعد اليقيني: "قد رجعت إلى صهيون واسكن في وسط أورشليم فتدعى أورشليم مدينة الحق وجبل رب الجنود الجبل المقدّس". ثم قال عن شعبه "هأنذا .. أكون لهم إلهاً بالحق والبر" (زكريا 8 : 3، 7، 8). [564]

كانت هذه المواعيد موقوفة على الطاعة. والخطايا التي اتّصف بها بنو إسرائيل قبل السبي كان ينبغي ألا تتكرر. وقد أوصى الرب من كانوا دائبين على إعادة البناء قائلاً: "اقضوا قضاء الحق واعملوا إحساناً ورحمة كل إنسان مع أخيه. ولا تظلموا الأرملة ولا اليتيم ولا الغريب ولا الفقير ولا يفكر أحد منكم شراً على أخيه في قلبه .. ليكلّم كل إنسان قريبه بالحق. أقضوا بالحق وقضاء السلام في أبوابكم" (زكريا 7 : 9، 10 ؛ 8 : 16).

كان الجزاء الذي وعد به من سيحيون بموجب مبادئ العدل تلك، غنيًّا جداً ويتضمن بركات روحية وزمنية. فقد أعلن الرب قائلاً: "زرع السلام، الكرم يُعطي ثمرة والأرض تُعطي غلّتها والسموات تُعطي نداها. وأملّك بقية هذا الشعب هذه كلّها. ويكون كما أنكم كنتم لعنة بين الأمم يا بيت يهوذا ويا بيت إسرائيل كذلك أخلّصكم فتكونون بركة" (زكريا 8 : 12، 13).

كان للسبي البابلي أثره الفعّال النافع في شفاء بني إسرائيل من عبادة الآلهة المنحوتة. فبعد رجوعهم انصرفوا بكلّ جوارحهم للإصغاء بانتباه تام إلى التعاليم الدينية ودراسة ما ورد في سفر الشريعة وكتب الأنبياء عن عبادة الإله الحقيقي. وأعانهم بناء الهيكل على ممارسة خدمات المقدس الطقسية كاملة. كما عاهدوا الله مراراً تحت قيادة زربابل وعزرا ونحميا بأن يحفظوا وصايا الرب كاملة وفرائضه غير منقوصة. وقد برهنت أوقات النجاح التي جاءت بعد ذلك بما لا يحتمل الشك على استعداد الله للقبول والمغفرة. ومع ذلك ففي قصر نظرهم المميت ارتدّوا وحادوا مراراً مراراً عن هدفهم المجيد واحتكروا لأنفسهم في أثرة ممقوتة، ما كان يمكن أن يجيء بالشفاء والحياة الروحية لجماهير من الناس لا حصر لها. [565]

إن إخفاقهم هذا في إتمام مقاصد الله كان ظاهراً بوضوح في أيام ملاخي. ولقد تعامل رسول الرب

بصرامة كاملة مع الشرور التي سلبت النجاح المادي والقوة الروحية من شعب الله. ولم يستثن النبي في توبيخه للعصاة أحداً من الكهنة أو الشعب. إن "وحي كلمة الرب لإسرائيل عن يد ملاخي" كان لكي لا تنسى دروس الماضي، ولكي يُحفظ العهد الذي قطعه الرب مع شعبه بأمانة وولاء. إنما بالتوبة القلبية وحدها كان يمكن أن تتحقق لهم بركة الله. وقد توسّل النبي قائلاً: "والآن ترضوا وجه الله فيتراءف علينا" (ملاخي 1 : 1، 9).

ومع ذلك فإن إخفاق شعب الله الوقتي لم يبطل تدبير الدهر لفداء الإنسان. قد لا يكترث من كان النبي يكلمهم بالرسالة المقدمة لهم، ولكن مقاصد الرب كانت برغم ذلك ستتقدّم إلى الأمام بثبات نحو الإنجاز التام. فقد أعلن الرب عن يد رسوله قائلاً: "من مشرق الشمس إلى مغربها اسمي العظيم بين الأمم وفي كل مكان يقرّب لإسمي بخور وتقدمة طاهرة لأن اسمي عظيم بين الأمم" (ملاخي 1 : 11).

لقد أبرم الله عهد "الحياة والسلام" مع بني لاوي — العهد الذي لو حفظوه لجلب لهم بركة لا يُعبّر عنها — وقد عرض الرب أن يجدد هذا العهد لمن كانوا سابقاً رؤساء روحيين ولكنّهم بسبب عصيانهم صاروا "محتقرين ودنيئين عند كل الشعب" (ملاخي 2 : 5، 9).

وقد أنذر فاعلو الشر بحزم من يوم الدينونة الآتي، ومن اعتزام الرب بأن يفتقد كل عصيان بهلاك مباغت سريع. ومع ذلك فلم يترك أحد بلا رجاء. فإن نبوات ملاخي عن الدينونة كانت ترافقها دعوات للتائبين للتصالح مع الله. فقد ألحّ عليهم الرب قائلاً: "ارجعوا إلي أرجع إليكم" (ملاخي 3 : 7). [566]

يبدو كأن كل قلب لابد سيستجيب لمثل هذه الدعوة. فإله السماء يتوسّل إلى أولاده المخطئين ليرجعوا إليه ويتعاونوا معه للتقدّم بعمله في الأرض. فهو يمد يده ليمسك بيد شعبه ليساعدهم في عبور الطريق الضيّق، طريق إنكار الذات والتضحية ليقاسموه الميراث كأولاد له. فهل يمكن إقناعهم؟ وهل يرون رجاءهم الوحيد؟

يا له من أمر محزن أن يتردد شعبه في عهد ملاخي في إخضاع قلوبهم المتكبّرة للطاعة الناجزة بمحبّة قلبية وتعاون تامّين. كان تبرير الذات ظاهراً في جوابهم حين قالوا: "بماذا نرجع؟".

فقد أعلن الرب لشعبه خطيئة من خطاياهم الخاصة إذ سألهم قائلاً: "أيسلب الإنسان الله؟ فإنكم سلبتموني". وعاد أولئك العصاة يسألون "بما سلبناك؟" إذ لم يقتنعوا بعد بخطيئتهم.

وكان جواب الرب محدداً حين قال: "في العشور والتقدمة. قد لعنتم لعناً وإياي أنتم سالبون هذه الأمة كلها. هاتوا جميع العشور إلى الخزنة ليكون في بيتي طعام وجرّبوني بهذا قال رب الجنود إن كنت لا أفتح لكم كوى السموات وأفيض عليكم بركة حتى لا توسع. وأنتهر من أجلكم الآكل فلا يفسد لكم ثمر الأرض ولا يعقر لكم الكرم في الحقل قال رب الجنود ويطوبكم كل الأمم، لأنكم تكونون أرض مسرة، قال رب الجنود" (ملاخي 3 : 7 — 12).

إن الله يبارك عمل أيدي الناس لكي يردّوا له نصيبه. إنه يعطيهم الشمس المشرقة والمطر وهو الذي ينمّي النباتات ويجعلها تزدهر، ويمنح الصحة والقدرة "لاصطناع الثروة" (تثنية 8 : 18). إن كل البركات تفيض إلينا من يديه السخيتين وهو يريد أن يبرهن الرجال والنساء على شكرهم بتقديم جزء من تلك البركات [567] إليه في العشور والتقدمة — وفي عطايا الشكر وعطايا الإنتداب وقرابين الإثم. عليهم أن يكرّسوا مواردهم لخدمته كيلا يظلّ كرمه مقفراً. وأن يفكروا فيما يمكن أن يعمله الرب لو كان في مكانهم. عليهم أن يبسطوا كل الأمور الصعبة أمامه في الصلاة وأن يظهروا اهتمامهم الخالص في إقامة وتعضيد عمله في كل أرجاء العالم.

لقد تعلّم أخيراً شعب الله الدرس بواسطة رسائل كهذه التي ألقاها ملاخي آخر أنبياء العهد القديم، وبواسطة الاضطهاد الواقع عليهم من أعدائهم الأمميين، وهو أن النجاح الحقيقي يتوقف على الطاعة

لشريعة الله. ولكن الطاعة بالنسبة لكثيرين منهم لم تكن نابعة من الإيمان والمحبة. فقد كانت بواعثهم أنانية وكانوا يقومون بالخدمات الخارجية كوسيلة للبلوغ إلى العظمة القومية. فلم يصر الشعب المختار نوراً للعالم بل حبسوا أنفسهم بعيداً عن العالم ليقيهم ذلك ويحفظهم من غوايات العبادات الوثنية. ولقد انحرفت النواهي التي وضعها الله أمامهم لمنعهم عن مصاهرة الأمم، وعن الاشتراك معهم في الممارسات الوثنية، بحيث أقاموا سوراً عالياً فصل بينهم وبين باقي الشعوب، وبذلك حرموا تلك الأمم من البركات ذاتها التي أوكل الله إليهم أمر تقديمها لهم.

وفي ذات الوقت كان اليهود يفصلون أنفسهم عن الله بخطاياهم. لقد عجزوا عن إدراك المعنى الروحي العميق لخدماتهم الرمزية. ففي برّهم الذاتي اتّكلوا على أعمالهم، وعلى الذبائح والفرائض ذاتها بدلاً من الاتكال على استحقاقات الرب الذي كانت كل هذه الأمور تشير إليه. فإذ "كانوا يطلبون أن يثبتوا بر أنفسهم" (رومية 10 : 3). وطّدوا أنفسهم وثبّتوها على الرسميات والطقوس والاكتفاء الذاتي. وإذ كانوا مفتقرين إلى روح الله ونعمته حاولوا سدّ ذلك النقص بالتدقيق [568] والصرامة في حفظ الشعائر والطقوس الدينية. وإذ لم يقنعوا بالفرائض التي أقرّها الله فقد عرقلوا أوامره بفروض لا حصر لها من ابتكارهم. وبقدر ما زاد ابتعادهم عن الله زادت صرامتهم في حفظ هذه الطقوس.

وبهذه الممارسات الدقيقة الثقيلة أمسى مستحيلاً على الشعب أن يحفظوا الناموس. فمبادئ البر العظيمة الموضّحة في الوصايا العشر والحقائق المجيدة المرموز إليها في الخدمة الرمزية أحيطت هي أيضاً بالغموض ودُفنت تحت ركام التقاليد والوصايا البشرية. والذين كانوا راغبين حقاً في خدمة الله، كانوا يئنون تحت عبء لا يُحتمل فيما هم يحاولون حفظ الناموس كما فرضه الكهنة والرؤساء.

كانت قلوب شعب إسرائيل عامة بعيدة عن الله في حين كانوا يشتاقون إلى مجيء المسيا، ولم يكن لديهم إدراك صحيح لصفة الفادي الموعود به أو لرسالته. وبدلاً من أن يتوقوا إلى الفداء من الخطيئة وإلى مجد القداسة وسلامتها، فقد تركّزت أشواق قلوبهم في التحرّر من أعداء أمّتهم واسترداد سلطانهم الدنيوي. كانوا ينتظرون أن يأتي مسيا قائداً فاتحاً ظافراً ويحطّم كل نير ويرفع شعب الله إلى ذروة السيادة بين كل الأمم. وبذلك أفلح الشيطان في إعداد قلوب الشعب لرفض المخلّص حينما يظهر. كانت كبرياء قلوبهم وتصوّراتهم الكاذبة عن صفاته ورسالته كفيلة بالحيلولة دونهم ودون وزنهم للبراهين بأمانة على كونه المسيا.

لقد ظلّ الشعب اليهودي ينتظر مجيء المخلّص الموعود به مدة تربو على ألف عام. وكانت آمالهم منحصرة في هذه الواقعة. ولمدى ألف عام كانت معززة بهالة من القداسة في تسبيحاتهم ونبواتهم وطقوس الهيكل والصلاة العائلية، ومع ذلك فعندما جاء لم يعرفوه بوصفه المسيا الذي ظلّوا ينتظرونه تلك [569] الحقبة الطويلة من الزمن: "إلى خاصته جاء وخاصته لم تقبله" (يوحنا 1 : 11). وبالنسبة إلى قلوبهم المولعة بحبّ العالم كان حبيب السماء "كعرق من أرض يابسة". وكان في نظرهم: "لا صورة له ولا جمال". لم يروا فيه جمالاً فيشتهوه (إشعياء 53 : 2).

كانت حياة يسوع الناصري بجملتها بين الشعب اليهودي توبيخاً لأنانيتهم، كما ظهر ذلك في رفضهم الاعتراف بالمطالب العادلة التي كانت لصاحب الكرم — ذلك الكرم الذي كانوا هم فيه الكرامين. لقد أبغضوا مثاله الصادق على البر والتقوى، وعندما جاء الاختبار الأخير الذي كان معناه أما الطاعة للحياة الأبدية أو العصيان للموت الأبدي، رفضوا قدوس إسرائيل بإمعان حتى وقعوا تحت مسؤولية صلبه على صليب جلجاثة.

وفي مثل الكرم الذي قدّمه المسيح قرب انتهاء خدمته على الأرض استرعى انتباه معلمي اليهود إلى البركات الغنية المُعطاة لشعبه، وفيما أظهر حق الله في طاعتهم. ووضع أمامهم بوضوح مجد قصد الله

الذي كان يمكنهم أن يحققوه بالطاعة. وإذ أزاح الستار عن المستقبل أراهم خسارة الأمة الجسيمة حقها في بركته وجلبهم الدمار على أنفسهم بسبب إخفاقهم عن إتمام قصد الله.

قال المسيح: "كان إنسان رب بيت غرس كرماً وأحاطه بسياج وحفر فيه معصرة وبنى برجاً وسلّمه إلى كرّامين وسافر" (متى 21 : 33).

وهكذا أشار المخلّص إلى "كرم رب الجنود" الذي كان إشعياء قد أعلن عنه قبل ذلك بعدّة قرون بأنه "بيت إسرائيل" (إشعياء 5 : 7). [570]

وقد استطرد المسيح يقول: "ولما قرب وقت الأثماء أرسل عبيد إلى الكرامين ليأخذ أثماره. فأخذ الكرامون عبيده وجلدوا بعضاً وقتلوا بعضاً ورجموا بعضاً. ثم أرسل أيضاً عبيداً آخرين أكثر من الأولين ففعلوا بهم كذلك. فأخيراً أرسل إليهم ابنه قائلاً يهابون ابني. وأما الكرامون فلما رأوا الابن قالوا فيما بينهم هذا هو الوارث هلمّوا نقتله ونأخذ ميراثه فأخذوه وأخرجوه خارج الكرم وقتلوه".

فإذ صوّر المسيح أمام الكهنة آخر أعمال شرّهم وقسوتهم قدّم لهم هذا السؤال: "متى جاء صاحب الكرم ماذا يفعل بأولئك الكرامين؟" كان الكهنة يتتبعون الحديث باهتمام عميق، وبدون أن يلاحظوا علاقة موضوع الكلام بهم اشتركوا مع الشعب في الإجابة قائلين: "أولئك الأردياء يهلكهم هلاكاً ردياً ويُسلّم الكرم إلى كرامين آخرين يعطونه الأثمار في أوقاتها".

فقد حكموا على أنفسهم بالدينونة دون أن يدروا. فنظر إليهم يسوع، وأمام نظرته الفاحصة عرفوا أنه اطلع على أسرار قلوبهم. فقد سطع نور لاهوته أمامهم بقوة واضحة جلية. ورأوا في الكرامين صورة لأنفسهم، وصاحوا رغماً عنهم قائلين: "حاشا".

وبكل وقار وتأسّف المسيح قائلاً: "أما قرأتم قط في الكتب. الحجر الذي رفضه البناؤون هو قد صار رأس الزاوية. من قبل الرب كان هذا وهو عجيب في أعيننا. لذلك أقول لكم إن ملكوت الله يُنزع منكم ويُعطى لأمة تعمل أثماره. ومن سقط على هذا الحجر يترضض، ومن سقط هو عليه يسحقه" (متى 21 : 34 — 44). [571]

كان المسيح سيبعد الدينونة عن الأمة اليهودية لو كانوا قبلوه. ولكن الحسد والغيرة جعلاهم عديمي الرحمة. فعقدوا العزم على رفض يسوع الناصري بوصفه المسيا. لقد رفضوا المسيح، نور العالم، ومنذ ذلك الحين اكتنفت حياتهم ظلمة داجية كظلام نصف الليل. وقد حاقت بهم الدينونة التي أنبئ بها. فأهواؤهم الجامحة وشهواتهم العنيفة أدّت إلى هلاكهم. وفي غضبهم الأعمى أهلكوا بعضهم بعضاً وكبرياؤهم المتمردة العنيدة جلبت عليهم غضب مستبعديهم الرومان. فدمّرت أورشليم وأمسى الهيكل خراباً وحرثت أرضه كحقل. وهلك بنو يهوذا وماتوا أرهب الميتات وبيع ملايين منهم ليكونوا عبيداً في بلدان الأمم.

وما قصد الله أن يقدّمه للعالم بواسطة شعبه المختار قديماً سيقدّمه أخيراً بواسطة كنيسته على الأرض اليوم: "لقد سلّم كرمه إلى كرامين آخرين" أي إلى شعبه الحافظ العهد الذين "يعطونه الأثمار في أوقاتها". إن الرب لم يكن قط بلا ممثلين أو نواب أمناء على هذه الأرض الذين جعلوا مصالحه من مصالحهم. فشهود الله أولئك يحسبون ضمن إسرائيل الروحي (كنيسته)، ولهم ستتم وعود العهد التي قدّمها الرب لشعبه قديماً.

ولكنيسة الله اليوم الحرية في التقدّم إلى إنجاز خطة الله لخلاص الجنس الساقط. لقد ظلّ شعب الله يعاني من تقييد حريته قروناً طويلة. فقد حُرموا من الكرازة بالإنجيل بنقاوته بحيث حلّت أقسى العقوبات على من تجرأوا وعصوا أوامر الناس. وكان من نتائج ذلك أن كرم الرب الأدبي العظيم كاد يكون مهجوراً. وحُرم الناس من نور كلمة الله، وهددت ظلمات الظلال والخرافات بمحو معرفة الدين الحقيقي. كانت كنيسة الله على الأرض أشبه ما تكون في [572] سبي حقيقي خلال تلك الفترة الطويلة من

الاضطهاد المرير، مثلما كان بنوا إسرائيل مسبيين في بابل.

ولكن شكراً لله، ما عادت كنيسته مستعبدة. فقد أعيدت لإسرائيل الروحي الامتيازات التي مُنحت لشعبه عند تحريرهم من السبي. وفي كل بقعة من بقاع الأرض يستجيب الرجال والنساء لرسالة السماء التي أنبأ يوحنا الرائي بأنه سيُنادى بها قبيل مجيء المسيح ثانية، وهي القائلة: "خافوا الله وأعطوه مجداً لأنه قد جاءت ساعة دينونته" (رؤيا 14 : 7).

وما عادت أجناد سلطان الشر تبقي الكنيسة في قبضتها لأنه: "سقطت سقطت بابل المدينة العظيمة" التي قد "سقطت جميع الأمم من خمر غضب زناها". وقد قدّمت لإسرائيل الروحي (الكنيسة) هذه الرسالة: "اخرجوا منها يا شعبي لئلا تشتركوا في خطاياها ولئلا تأخذوا من ضرباتها" (رؤيا 14 : 8 ؛ 18 : 4). فكما استجاب المسبيون للرسالة القائلة: "اهربوا من وسط بابل" (إرميا 51 : 6) ثم أعيدوا إلى أرض الموعد، كذلك من يخافون الله اليوم يستجيبون للرسالة بالانسحاب من بابل الروحية، وسرعان ما يقفون في الأرض الجديدة، كنعان السماوية كتذكارات لانتصار النعمة الإلهية.

السؤال الساخر الذي نطق به غير التائبين في أيام ملاخي حين قالوا: "أين إله العدل؟" وجد إجابة جليلة في القول: "يأتي بغتة إلى هيكله السيد .. ملاك العهد .. ومن يحتمل يوم مجيئه؟ ومن يثبت عند ظهوره؟ لأنه مثل نار الممحّص، ومثل أشنان القصّار. فيجلس ممحَّصا ومنقّيا للفضة. فيُنقّي بني لاوي ويُصفّيهم كالذهب والفضّة، ليكونوا مقرّبين للرب، تقدمة بالبر. فتكون تقدمة يهوذا [573] وأورشليم مرضية للرب كما في أيام القدم وكما في السنين القديمة" (ملاخي 2 : 17 ؛ 3 : 1 — 4).

وعندما كان المسيا الموعود به على وشك الظهور كانت رسالة سابق المسيح هي هذه: توبوا أيها العشّارون والخطاة، توبوا أيها الفريسيون والصدوقيون: "لأنه قد اقترب ملكوت السموات" (متى 3 : 2).

ونسمع اليوم الرسل المعينين من الله الذين هم في روح إيليا ويوحنا المعمدان وقوتهما يسترعون انتباه العالم المحكوم عليه بالدينونة إلى الأحداث الخطيرة المزمعة أن تحدث سريعاً والمرتبطة بساعات الاختبار الأخيرة وظهور المسيح يسوع كملك الملوك ورب الأرباب. وسيُدان كل إنسان سريعاً بحسب ما صنع في الجيد. لقد جاءت ساعة دينونة الله، وتستقر المسؤولية المقدسة على أعضاء كنيسته الذين على الأرض، مسؤولية تقديم الإنذار للذين يبدو وكأنهم يقفون على حافة الهلاك الأبدي. ولابد أن تتوضح لكل كائن بشري في العالم الواسع ممن ينتبهون، المبادئ المعرّضة للخطر في الصراع الهائل المحتدم والمُعلّق عليها مصير الجنس البشري بأكمله.

في ساعات الأمهال الأخيرة تلك لبني البشر، عندما يتقرر قريباً المصير الأبدي لكل نفس، فإن رب السماء والأرض ينتظر من كنيسته أن تنهض للعمل بنشاط لم يسبق له مثيل. والذين تحرروا في المسيح بواسطة معرفة الحق الثمين يعتبرهم الرب يسوع مختاريه المحبوبين لديه أكثر من كل الناس الذين على وجه الأرض. وهو يعتمد عليهم في إذاعة تسابيح من دعاهم من الظلمة إلى نوره العجيب. حيث ينبغي لهم أن يقدّموا للآخرين البركات الممنوحة لهم بسخاء عظيم. ولابد من أن تصل بشارة الخلاص إلى كل أمة وقبيلة ولسان وشعب. [574]

وفي رؤى الأنبياء قديماً صُوّر رب المجد على أنه يمنح كنيسته نوراً خاصاً في أيام الظلام وعدم الإيمان التي تسبق مجيئه الثاني. وسيشرق على كنيسته كشمس البر "والشفاء في أجنحته" (ملاخي 4 : 2). وسيشعّ من كل تلميذ أمين تأثير يبعث الحياة والشجاعة والعون والشفاء الحقيقي.

وسيتمّ مجيء المسيح في أشدّ الأوقات ظلمة من تاريخ هذه الأرض. فأيام نوح وأيام لوط تصور لنا حالة العالم قبيل مجيء ابن الإنسان. وإذ تشير كلمة الله إلى ذلك الوقت تعلن أن الشيطان سيعمل بكل قوة "وبكل خديعة الإثم" (2 تسالونيكي 2 : 9، 10). وعمله يظهر بوضوح بواسطة الظلام الذي يتزايد

بسرعة والضلالات العديدة والهرطقات والخدع المتفشيّة في هذه الأيام الأخيرة. والشيطان لا يأسر العالم وحسب ولكن خدعه تخمّر الكنائس المعترفة بربنا يسوع المسيح وسيزداد الارتداد العظيم ويتفاقم حتى يصير ظلمة ثقيلة كظلام نصف الليل المدلهم، وبالنسبة إلى شعب الله سيكون ذلك ليل تجربة وبكاء واضطهاد لأجل الحق. ولكن سينبثق من قلب ذلك الليل المظلم نور الله.

إنه يقول: "أن يشرق نور من ظلمة" (2 كورنثوس 4 : 6). فعدما: "كانت الأرض خربة وخياله وعلى وجه الغمر ظلمة"، "كان روح الله يرف على وجه المياه. فقال الله ليكن نور فكان نور" (تكوين 1 : 2، 3). وكذلك في ليل الظلام الروحي تخرج كلمة الله قائلة: "ليكن نور" وهو يقول لشعبه (كنيسته) "قومي استنيري لأنه قد جاء نورك ومجد الرب أشرق عليك" (إشعياء 60 : 1).

ويقول الكتاب: "لأنه ها هي الظلمة تُغطي الأرض والظلام الدامس الأمم. أما عليك فيُشرق الرب ومجده عليك يُرى" (إشعياء 60 : 2). إن المسيح الذي هو بهاء مجد الآب قد جاء نوراً للعالم. جاء ليمثل الله للناس، وقد كُتب عنه أنه مُسح [575] "بالروح القدس والقوة"، و "جال يصنع خيراً" (أعمال 10 : 38). وقال هو نفسه في المجمع في الناصرة: "روح الرب عليّ لأنه مسحني أبشّر المساكين أرسلني لأشفي المنكسري القلوب، لأنادي للمأسورين بالإطلاق، وللعمي بالبصر، وأرسل المنسحقين في الحرية، وأكرز بسنة الرب المقبولة" (لوقا 4 : 18، 19). كان هذا هو العمل الذي أرسل تلاميذه ليقوموا به. وهو الذي قال: "أنتم نور العالم. فليُضئ نوركم هكذا قدّام الناس لكي يروا أعمالكم الحسنة ويُمجّدوا أباكم الذي في السموات" (متى 5 : 14، 16).

هذا هو العمل الذي يصفه إشعياء النبي عندما يقول "أليس أن تكسر للجائع خبزك وأن تُدخل المساكين التائهين إلى بيتك. إذا رأيت عُرياناً أن تكسوه وأن تتغاضى عن لحمك؟ حينئذ ينفجر مثل الصبح نورك وتنبت صحتك سريعاً ويسير برّك أمامك ومجد الرب يجمع ساقتك" (إشعياء 58 : 7، 8).

وهكذا ففي ليل الظلمة الروحية يضيء مجد الرب بواسطة كنيسته في رفع المنحنين وتعزية المحزونين.

إننا نسمع من حولنا ولولة العالم وحزنه. ففي كل مكان يوجد فقراء ومتضايقون. وعلينا أن نقدّم العون ونخفف ونلطف من متاعب الحياة وشقائها. إن احتياجات النفس لا يمكن أن تشبعها غير محبة المسيح. فإذا كان المسيح ساكناً فينا فإن قلوبنا تمتلئ بالعطف الإلهي. وستُفتح الينابيع المختومة للمحبة المخلّصة الشبيهة بمحبة المسيح.

يوجد كثيرون تركهم الرجاء. عليكم بإعادة إشراقة الشمس إلى قلوبهم. وكثيرون تركتهم شجاعتهم فعليكم أن تحدّثوهم بكلام البهجة والتشجيع وأن تصلّوا لأجلهم. يوجد من هم بحاجة إلى خبز الحياة. فاقرأوا لهم من كلمة الله. [576] وكثيرون نفوسهم مريضة ولا يمكن أن يصل إليها أي شخص بلسان أرضي، ولا يستطيع أي طبيب أن يشفيهم. فصلّوا لأجل هذه النفوس وأتوا بها إلى المسيح. وقولوا لهم أنه يوجد بلسان في جلعاد وأنه يوجد طبيب هناك.

النور بركة عامة يسكب كنوزه الغالية على العالم غير الشاكر والنجس والفاسد الأخلاق. وهذا يصدق على نور شمس البر (يسوع). فالأرض كلّها مكتنفة من كل جانب بظلمة الخطيئة والحزن والألم، إلا أنها ستستنير بمعرفة محبة الله. ولا يحتجب هذا النور المنبعث من عرض السماء عن أية طائفة أو طبقة من الناس.

وستُحمل رسالة الرجاء والرحمة إلى أقصى الأرض. فكل من يريد يمكنه أن يمد يده ويتمسك بقدرة الله ويتصالح معه ويصنع معه صلحاً. ولن تبقى الأمم بعد هذا غارقة في الظلمات. فستتقشع الظلمة أمام أشعة شمس البر الباهرة.

لقد عمل المسيح كل الاحتياطات لتكون كنيسته جسداً متجدداً مستنيراً بنور العالم (يسوع). ولتمتلك مجد عمانوئيل. فهو يريد أن يكون كل مسيحي محاطاً بجو روحي من النور والسلام. وهو يرغب أن نعلن فرحه في حياتنا.

”قومي استنيري لأنه جاء نورك ومجد الرب أشرق عليك“ (إشعياء 60 : 1). إن المسيح آت بقوة ومجد عظيم. إنه آت بمجده ومجد الآب. وسيرافقه الملائكة القديسون في طريقه. ففي حين أن العالم كلّه تغمره الظلمة سيكون نور في كل مسكن من مساكن القديسين، وستقع عليهم أول أنوار مجيئه الثاني. والنور الطاهر سينبثق من بهائه ومجده وسيكون المسيح الفادي موضع إعجاب كل من خدموه وبينما يهرب الأشرار سيفرح كل أتباع المسيح في حضرته. [577]

وسيحصل من افتدوا من بين الناس على ميراثهم الذي وعدوا به. وسيتم قصد الله نحو شعبه إتماماً حرفياً. فما يقصد الله أن يفعله يعجز الإنسان عن إلغائه. وحتى في وسط عمل الشر كانت مقاصد الله تسير بثبات نحو الأمام صوب إتمامها. هكذا كان الحال مع بيت إسرائيل مدى تاريخ المملكة المنقسمة. وهذا يصدق على إسرائيل الروحي اليوم (التي هي كنيسة المسيح).

إذ نظر الرائي الذي كان في بطمس عبر الأجيال إلى وقت إسترداد كنيسة الله على الأرض الجديدة شهد قائلاً:

” نظرت وإذا جمع كثير لم يستطع أحد أن يعدّه، من كل الأمم والقبائل والشعوب والألسنة، واقفون أمام العرش وأمام الخروف، متسربلين بثياب بيض وفي أيديهم سعف النخل. وهم يصرخون بصوت عظيم قائلين الخلاص لإلهنا الجالس على العرش وللخروف“.

” وجميع الملائكة كانوا واقفين حول العرش والشيوخ والحيوانات الأربعة وخرّوا أمام العرش على وجوههم وسجدوا لله قائلين آمين البركة والمجد والحكمة والشكر والكرامة والقدرة والقوة لإلهنا إلى أبد الآبدين“.

” وسمعت كصوت جمع كثير، وكصوت مياه كثيرة، وكصوت رعود شديدة قائلة هلّلويا فإنه قد ملك الرب الإله القادر على كل شيء. لنفرح ونتهلّل ونعطه المجد“. ” لأنه رب الأرباب وملك الملوك والذين معه مدعوون ومُختارون ومؤمنون“ (رؤيا 7: 9 — 12 ؛ 19: 6، 7 ؛ 17: 14). [578]

الفصل الستون ـــــ رؤى المجد العتيد

لقد أعطيت لكنيسة الله إعلانات في أحلك أيامها الطويلة في حربها ضد الشر، عن قصد الرب الأزلي. وقد سُمح لشعبه أن ينظروا عبر تجارب الوقت الحاضر إلى النصرات العتيدة عندما يدخل المفديون لامتلاك أرض الموعد بعد انتهاء الحروب. ورؤى المجد العتيد هذه، والمشاهد التي رسمتها يد الله ينبغي أن تعتز بها كنيسته اليوم عندما يقترب صراع الدهور إلى نهايته بسرعة، وعندما تتحقّق البركات الموعود بها في ملئها سريعاً.

كانت رسائل العزاء المقدّمة للكنيسة على يد الأنبياء قديماً كثيرة. فرسالة إشعياء النبي من قبل الله كانت "عَزّوا، عَزّوا شعبي" (إشعياء 40 : 1)، وقد أعطيت مع الرسالة رؤى عجيبة كانت رجاء المؤمنين وفرحهم مدى كل القرون التي جاءت بعد ذلك. مع أن أولاد الله في كل عصر كانوا مُحتقرين ومُضطهدين ومتروكين من الناس فقد أسندهم هذا الوعد الثابت. وقد نظروا بالإيمان إلى الأمام إلى الوقت الذي فيه سيتمّم الرب لكنيسته القول اليقيني: "أجعلك فخراً أبدياً فرح دور فدور" (إشعياء 60 : 15).

وكثيراً ما تدعي الكنيسة المجاهدة لتحمل التجارب والآلام، لأن الكنيسة لا تنتصر وبدون حرب قاسية عنيفة: "خبز في الضيق وما في الشدّة" (إشعياء 30 : 20). هذا هو النصيب الذي يشترك فيه الجميع، ولكن ولا واحد ممن يضعون ثقتهم [579] في ذلك القادر على الإنقاذ يمكن أن تكتسحه الآلام والتجارب نهائياً: " هكذا يقول الرب خالقك يا يعقوب وجابلك يا إسرائيل. لا تخف لأني فديتك. دعوتك باسمك أنت لي. إذا اجتزت في المياه فأنا معك وفي الأنهار فلا تغمرك. إذا مشيت في النار فلا تُلذع واللهيب لا يُحرقك لأني أنا الرب إلهك قدوس إسرائيل. مُخلّصك. جعلت مصر مديتك كوش وسبا عوضك إذ صرت عزيزاً في عينيّ مكرَّما وأنا قد أحببتك. أعطي أناساً عوضك وشعوباً عوض نفسك" (إشعياء 43 : 1 — 4).

عند الله المغفرة. ويوجد قبول كامل ومجاني باستحقاقات يسوع ربنا المصلوب والمقام. لقد سمع إشعياء الرب يُعلن لمختاريه قائلاً: "أنا أنا هو الماحي ذنوبك لأجل نفسي، وخطاياك لا أذكرها. ذكرني فنتحاكم معاً. حدّث لكي تبرّر". و "تعرفين أني أنا الرب مخلّصك ووليّك (فاديك) عزيز يعقوب" (إشعياء 43 : 25، 26 ؛ 60 : 16).

"ينزع عار شعبه". " ويسمونهم شعباً مقدساً مفديي الرب"، هكذا أعلن النبي. وقد قرّر الرب أن يعطيهم "جمالاً عوضاً عن الرماد، ودُهن فرح عوضاً عن النّوح، ورداء تسبيح عوضاً عن الروح اليائسة فيدعون أشجار البر غرس الرب للتمجيد".

" استيقظي استيقظي إلبسي عزّك يا صهيون إلبسي ثياب جمالك يا أورشليم المدينة المقدّسة. لأنه لا يعود يدخلك فيما بعد أغلف ولا نجس. انتفضي من التراب قومي اجلسي يا أورشليم انحلي من ربط عنقك أيتها المسبية ابنة صهيون".

" أيتها الذليلة المضطربة غير المتعزي هأنذا أبني بالإثمد حجارتك وبالياقوت الأزرق أؤسّسك. وأجعل شُرفك ياقوتاً وأبوابك حجارة بهرمانية وكل تخومك [580] حجارة كريمة وكل بنيك تلاميذ الرب

وسلام بنيك كثيراً. بالبر تثبتين بعيدة عن الظلم فلا تخافين وعن الارتعاب فلا يدنو منك. ها إنهم يجتمعون اجتماعاً ليس من عندي. من اجتمع عليك فإليك يسقط .. كل آلهة صورت ضدّك لا تنجح وكل لسان يقوم عليك في القضاء تحكمين عليه. هذا هو ميراث عبيد الرب وبرّهم من عندي يقول الرب" (إشعياء 25 : 8 ؛ 62 : 12 ؛ 61 : 3 ؛ 52 : 1، 2 ؛ 54 : 11 — 17).

إن الكنيسة إذ تتسلّح بسلاح برّ المسيح تشتبك في الحرب الأخيرة. فإذ تكون "جميلة كالقمر، طاهرة كالشمس، مُرهبة كجيش بألوية" (نشيد الأنشاد 7 : 10)، فهي يجب أن تخرج إلى العالم أجمع غالبة ولكي تغلب.

إن أحلك ساعة من ساعات صراع الكنيسة مع قوات الشر هي تلك التي تسبق يوم خلاصها النهائي مباشرة. ولكن لا حاجة لمن يثقون بالمسيح أن يخافوا، لأنه "إذا كانت نفخة العُتاة كسيل على حائط" فإن الله سيكون: "ملجأ .. من السيل" لكنيسته (إشعياء 25 : 4).

وفي ذلك اليوم يقدّم الوعد بالخلاص للأبرار وحدهم: " ارتعب في صهيون الخُطاة. أخذت الرعدة المنافقين. من منا يسكن في نار آكلة؟ من منا يسكن في وقائد أبدية؟ السالك بالحق والمتكلّم بالإستقامة الزازل مكسب المظالم والنافض يديه من قبض الرشوة، الذي يسد أذنيه عن سمع الدماء، ويغمض عينيه عن النظر إلى الشر، هو في الأعالي يسكن. حصون الصخور ملجأه. يعطي خبزه، ومياهه مأمونة" (إشعياء 33 : 14 — 16).

وهذه هي كلمة الرب لعبيده المؤمنين: "هلّم يا شعبي ادخل مخادعك، وأغلق أبوابك خلفك. اختبئ نحو لحيظة حتى يعبر الغضب. لأنه هوذا الرب يخرج من مكانه ليُعاقب إثم سكان الأرض فيهم" (إشعياء 26 : 20، 21). [581]

وفي رؤى يوم الدينونة العظيم أعطيت لرسل الرب المُلهمين لمحات من فزع ورعب غير المستعدّين لملاقات سيّدهم في سلام.

"هوذا الرب يخلي الأرض ويفرغها ويقلب وجهها ويبدّد سكّانها .. لأنهم تعدّوا الشرائع غيّروا الفريضة نكثوا العهد الأبدي. لذلك لعنة أكلت الأرض وعوقب الساكنون فيها .. بطل فرح الدفوف انقطع ضجيج المبتهجين بطل فرح العود" (إشعياء 24 : 1 — 8).

"آه على اليوم لأن يوم الرب قريب. يأتي كخراب من القادر على كل شيء .. عفنت الحبوب تحت مدرها خلت الأهراء. انهدمت المخازن لأنه قد يبس القمح. كم تئن البهائم، هامت قطعان البقر لأن ليس لها مرعى، حتى قطعان الغنم تفنى". " الجفنة يبست والتينة ذبلت. الرمانة والنخلة والتفاحة كل أشجار الحقل يبست. إنه قد يبست البهجة من بني البشر" (يوئيل 1 : 15 — 18، 12).

وها هو إرميا إذ يبصر آثار الخراب التي ستحدث عند آخر مشاهد تاريخ الأرض يصرّح قائلاً: " توجعني جدران قلبي .. لا أستطيع السكوت لأنك سمعت يا نفسي صوت البوق وهتاف الحرب. بكسر على كسر نودي لأنه قد خربت كل الأرض" (إرميا 4 : 19، 20).

وقد أعلن أشعياء عن يوم نقمة الرب قائلاً: " يخفض تشامخ الإنسان وتوضع رفعة الناس ويسمو الرب وحده في ذلك اليوم. وتزول الأوثان بتمامها .. في ذلك اليوم يطرح الإنسان أوثانه الفضية وأوثانه الذهبية، التي عملوها له للسجود، للجرذان والخفافيش، ليدخل في نقر الصخور وفي شقوق المعاقل، من أمام هيبة الرب ومن بهاء عظمته عند قيامه ليرعب الأرض" (إشعياء 2 : 17 — 21). [582]

وعن أوقات الانتقال والتبدل تلك عندما تنخفض كبرياء الإنسان، يشهد إرميا قائلاً: " نظرت إلى الأرض وإذا هي خربة وخالية وإلى السموات فلا نور لها. نظرت وإذا لا إنسان وكل طيور السماء هربت.

نظرت وإذا البستان برية وكل مدنها نُقضت"، "آه لأن ذلك اليوم عظيم وليس مثله. وهو وقت ضيق على يعقوب، ولكنه سيُخلّص منها" (إرميا 4 : 23 — 26 ؛ 30 : 7).

إن يوم الغضب على أعداء الله هو يوم الخلاص الأبدي لكنيسته. وقد أعلن النبي يقول: "شدّدوا الأيادي المسترخية. والركب المرتعشة ثبتوها. قولوا لخائفي القلوب تشدّدوا لا تخافوا. هوذا إلهكم. الانتقام يأتي. جزاء الله. هو يأتي ويخلّصكم".

" يبلغ الموت إلى الأبد ويمسح السيد الرب الدموع عن كل الوجوه وينزع عار شعبه عن كل الأرض لأن الرب قد تكلّم" (إشعياء 35: 3، 4 ؛ 25: 8). وإذ يرى النبي رب المجد نازلاً من السماء مع جميع ملائكته القديسين ليجمع الكنيسة الباقية من بين أمم الأرض، يسمع أولئك المنتظرين يشتركون في صيحة الفرح قائلين:

" هوذا هذا إلهنا. انتظرناه فخلّصنا. هذا هو الرب انتظرناه. نبتهج ونفرح بخلاصه" (إشعياء 25 : 9). إن صوت ابن الله يسمع موقظاً القديسين الراقدين، وإذ يراهم النبي خارجين من سجن الموت يهتف قائلاً: "تحيا أمواتك تقوم الجثث استيقظوا ترنّموا يا سكان التراب. لأن طلّك طلّ أعشاب والأرض تُسقط الأخيلة".

" حينئذ تتفتّح عيون العمي، وآذان الصمّ تتفتّح. حينئذ يقفز الأعرج كالإيل ويترنّم لسان الأخرس" (إشعياء 26: 19 ؛ 35: 5، 6). [583]

وفي رؤى النبي يرى أولئك الذين انتصروا على الخطيئة والقبر سعداء وفرحين في حضرة خالقهم يتحدّثون معه بحرية كما كان الإنسان الأول يتحدّث مع الله في البدء. والرب يأمرهم قائلاً: "افرحوا وابتهجوا إلى الأبد في ما أنا خالق لأني هأنذا خالق أورشليم بهجة وشعبها فرحاً. فأبتهج بأورشليم وأفرح بشعبي، ولا يسمع بعد فيها صوت بكاء ولا صوت صراخ"، "ولا يقول ساكن أنا مرضت. الشعب الساكن فيها مغفور الإثم".

" لأنه قد انفجرت في البرية مياه، وأنهار في القفر. ويصير السراب أجماً، والمعطشة ينابيع ماء".

" عوضاً عن الشوك ينبت سرو، وعوضاً عن القريس يطلع آس"

" وتكون هناك سكة وطريق يقال لها الطريق المقدسة. لا يعبر فيها نجس، بل هي لهم. من سلك في الطريق حتى الجُهّال، لا يضل".

"طيّبوا قلب أورشليم ونادوها بأن جهادها قد كمُل، أن إثمها قد عُفي عنه، أنها قد قبلت من يد الرب ضعفين عن كل خطاياها" (إشعياء 65 : 18، 19 ؛ 23 : 24 ؛ 35 : 6، 7 ؛ 55 : 13 ؛ 35 : 8 ؛ 40 : 2).

وإذ يرى النبي جموع المفديين ساكنين في مدينة الله أحراراً من الخطيئة ومن كل آثار اللعنة يهتف في فرح عظيم قائلاً: " افرحوا مع أورشليم وابتهجوا معها يا جميع محبيها. افرحوا معها فرحاً".

"لا يسمع بعد ظلم أرضك ولا خراب أو سحق في تخومك بل تسمين أسوارك خلاصنا وأبوابك تسبيحاً. لا تكون لك بعد الشمس نوراً في النهار ولا القمر ينير لك مضيئاً بل الرب يكون لك نوراً أبدياً وإلهك زينتك. لا تغيب بعد [584] شمسك وقمرك لا ينقض لأن الرب يكون لك نوراً أبدياً وتكمل أيام نوحك. وشعبك كلّهم أبرار، إلى الأبد يرثون الأرض، غصن غرسي عمل يدي لأتمجد" (إشعياء 66 : 10 ؛ 60 : 18 — 21).

وقد وقعت على أذنبي النبي أصوات موسيقى وغناء، لم تسمع مثلها أذن إنسان ولا خطرت على بال إلا في الرؤى: " ومفديّو الرب يرجعون ويأتون إلى صهيون بترنّم، وفرح أبدي على رؤوسهم. ابتهاج

وفرح يدركانهم. ويهرب الحزن والتنهد“. ”الفرح والابتهاج يوجدان فيها. الحمد وصوت الترنّم“. ” ومغنون كعازفين كل السكان فيك“. ” يرفعون أصواتهم ويترنمون. لأجل عظمة الرب يصوتون“. (إشعياء 35: 10 ؛ 51: 3 ؛ مزمور 87: 7 ؛ إشعياء 24: 14).

وفي الأرض الجديدة سيتمتع المفديون بممارسة الأعمال والمسرات التي كان آدم وحواء يسعدان بها في البدء. وسيعيشون حياة كحياة جنة عدن، حياة الجنة والحقل: ”يبنون بيوتاً ويسكنون فيها يغرسون كروماً ويأكلون أثمارها. لا يبنون وآخر يسكن ولا يغرسون وآخر يأكل. لأنه كأيام شجرة أيام شعبي ويستعمل مُختاريّ عمل أيديهم“ (إشعياء 65 : 21، 22).

وهناك ستتطور وتنمو كل القوى وتزداد كل مقدرة وستنفذ أكبر المشاريع وتسير في طريق التقدّم، وأسمى طموح سيتحقق وأعظم وأرفع الآمال ستصير أمراً واقعاً ومع ذلك فستبقى ذُرى جديدة يجب الوصول إليها، وروائع جديدة يعجب الإنسان بها، وحقائق جديدة تحتاج إلى الفهم والإدراك، ومواضيع جديدة للدرس تستدعي استخدام كل قوى الجسم والذهب والنفس.

كان الأنبياء الذين أعلنت لهم هذه المشاهد العظيمة يتوقون إلى إدراك معناها الكامل: ” الخلاص الذي فتّش وبحث عنه الأنبياء.. باحثين أي وقت أو ما [585] الوقت الذي كان يدل عليه روح المسيح الذي فيهم.. الذين أعلن لهم أنهم ليس لأنفسهم، بل لنا كانوا يخدمون بهذه الأمور التي أخبركم بها أنتم الآن“ (1 بطرس 1 : 10 — 12).

وبالنسبة إلينا نحن الواقفين على حافة إتمام هذه الأمور نفسها، فبأي أهمية عميقة، وبأي إهتمام حيّ يجب أن نعتبر هذه الأوصاف الدقيقة للأمور القادمة والحوادث التي منذ أخرج أبوانا الأولان من جنة عدن جعل أولاد الله يراقبونها ويشتاقون إليها ويصلّون في طلب تحقيقها.

يا عزيز السائح، إننا ما نزال في وسط ظلال النشاطات الأرضية وغمرة ضجيجها، ولكن مخلّصنا سيظهر سريعاً ليأتي بالخلاص والراحة. فلننظر إلى الأبدية السعيدة بعين الإيمان كما تصورها لنا يد الله. فذاك الذي مات من أجل خطايا العالم يفتح أبواب الفردوس على سعتها بكلّ من يؤمنون به. فبعد قليل ستكون المعركة قد انتهت وتحققت النصرة. بعد قليل سنشاهد ذاك اليوم الذي فيه تركّزت آمالنا في الحياة الأبدية. وفي حضرته ستبدو آلام هذه الحياة كالعدم: ”فلا تُذكر الأولى ولا تخطر على بال“. ” فلا تطرحوا ثقتكم التي لها مجازاة عظيمة. لأنكم تحتاجون إلى الصبر حتى إذا صنعتم مشيئة الله تنالون الموعد. لأنه بعد قليل جداً سيأتي الآتي ولا يبطئ“. ”أما إسرائيل فيخلص .. خلاصاً أبدياً. لا تخزون ولا تخجلون إلى دهور الأبد“ (إشعياء 65 : 17 ؛ عبرانيين 10 : 35 — 37 ؛ إشعياء 45 : 17).

اشخص عالياً، أنظر إلى فوق، وليزد إيمانك على الدوام. ودع هذا الإيمان يقودك في الطريق الضيّق إلى داخل أبواب المدينة، إلى الأبدية العظيمة، إلى المستقبل المجيد الفسيح الذي لا حدود له المعدّ للمفديين: ”فتأنّوا أيها الإخوة [586] إلى مجيء الرب. هوذا الفلاح ينتظر ثمر الأرض الثمين متأنياً عليه حتى ينال المطر المبكر والمتأخر. فتأنوا أنتم وثبتوا قلوبكم لأن مجيء الرب قد اقترب“ (يعقوب 5 : 7، 8).

ولن تعرف أمم المفديين شريعة أخرى غير شريعة السماء. وسيكون الجميع أسرة واحدة معاً متسربلة برداء التسبيح والشكر. ومن فوق هذا المشهد ستترنم كواكب الصبح معاً وتهتف بنو الله بينما يتّحد الله والمسيح معاً في إذاعة هذا الإعلان: ”والموت لا يكون في ما بعد، ولا خطية“.

” ويكون من هلال إلى هلال ومن سبت إلى سبت أن كل ذي جسد يأتي ليسجد أمامي قال الرب“. ” فيعلن مجد الرب ويراه كل بشر. جميعاً“. ” السيد الرب يُنبت براً وتسبيحاً أمام كل الأمم“. ” في ذلك اليوم يكون رب الجنود إكليل جمال وتاج بهاء لبقية شعبه“.

” فإن الرب قد عزّى صهيون عزّى كل خربها. ويجعل بريّتها كعدن وباديتها كجنة الرب“. ”يُدفع

إليه مجد لبنان. بهاء كرمل وشارون". "لا يُقال بعد ذلك مهجورة ولا يُقال بعد لأرضك موحشة بل تُدعين حفصيبة وأرضك تدعى بعولة .. كفرح العريس بالعروس يفرح بك إلهك" (إشعياء 66 : 23 ؛ 40 : 5 ؛ 61 : 11 ؛ 28 : 5 ؛ 51 : 3 ؛ 35 : 2 ؛ 62 : 4، 5).

* * * * *